ח.ב
.111

س ٠خ السراج المنير فى الاعانة على معرفة كلام ربنا العليم الخبير ، تأليف الخطيب الشربينى ، محمد بن أحمد - ٩٧٧ هـ . كتب فى سنة ١٢٤٢ هـ.
٤ ج فى ٨ مجلدات (٢٢٦٧ ق) ٢٣ س
٥ر٢٢×٥ر١٦ سم .
نسخة حسنة ، خطها نسخ معتاد ، ناقصة الاول ، طبع
٢٢٣٥ الازهرية ١ : ٢٦٧ معجم المطبوعات ١ : ١١٠٩
١ - التفسير ، القرآن الكريم وعلومه .
أ - المؤلف ب - تاريخ النسخ ج - تفسير الشربينى .

اي وان خالف صومه هذه الصور الثلاث وهي ما لو نقد لم رمضان او بعده بما لا يصوم فيه

او البس لم يعتد به وذلك في صورتين احدهما ان يتكشف الا وقع قبل رمضان او بعده

فانه لا يجزئه والثانية ان يتكشف انه وقع بعده لكن صام دون اليوم الذي

لا يكون صيامه فانه لا يعتد به ايضا ويجب على الصائم التحري اذا شك

في الغروب اي لا يفطر وهو شاك في غروب الشمس لان الوضع الافطار

حتى يتحقق غروبها فاذا افطر وهو شاك في الغروب ولم يتبين له ان افطاره

كان بعد غروبها فسد صومه لانه على يقين من النهار

تنبيه الاولى

للصائم تقديم الافطار على الصلاة اذا خشي ان يشغله الخوض فان لم يخشى

ويعلم ذلك ولا يدخل

فيه بالظن ولا يدخل

بمثله الا ان ضاق الوقت

ويعلم بخبر العدل

في دخول الوقت

اي حالف اللبس بل تبين له

يعلم او خبر عدل

وذلك اجماع

فاته لا يجزئه

ويشترط ان يصوم

الجزء الثاني من الخطيب
المفسر وهو من
سورة يونس
الى الفرقان
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
وسلم

من من من من فضله على عبده
الفقير عبد الله الخالدي النقشبندي
المجددي ابن ابراهيم الجانكي
في ٦ ذي القعدة

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وسلم
سورة يونس عليه الصلاة والسلام مكية الا فان كنت في شك
الايتين او الثلاث او منهم من يؤمن به الاية مائة وتسع او عشر
ايات وعدد كلماتها الف وثمانمائة واثنان وثلاثون كلمة وحروفها سبعة
الاف وخمسمائة وسبعة وستون وهي اول المبتدات اذا جعلنا براءة مع
الانفال من الطوال والا فبراءة اولاهن بسم الله جامع العباد
بعد تغريقهم بما له من العظمة والامتناع الرحمن الذي عمهم بالايجاد وخص
منهم من شاء بالايمان الرحيم الذي خص اولياءه بالرضوان البيح للجنان
الر قال ابن عباس والضحاك انا الله ارى والمراد انا الله اعلم
وارى وقيل الر لا رب غيري وقال سعيد بن جبير الرحم ونون
حروف اسم الرحمن وقد سبق الكلام على حروف التهجي اول البقرة والتفق
على ان الروحدة ليس اية واتفقوا على ان طه وحده اية والعزقان
قوله تعالى الر لا شيا كل مقاطع الآي التي بعده بخلاف قوله تعالى
طه فانه شيا كل مقاطع الآي التي بعده وقرا قالون وابن كثير
وحفص بفتح الراي والالف بعدها وورش بين اللفظين والباقون بالامالة
المحضة تلك اي الايات العظيمة جدا التي اشتملت عليها هذه السورة
او السور التي تقدمت هذه السورة او هذه الحروف المقطعة الحيثية
الي ان القران كلام الله ولما اعجز القادرين على التلفظ بهذه الاحرف
ايات الكتاب اي المذكر الجامع لكل خير وهو هذا القران الذي وافق
كل ما فيه من المعجز كل ما في التوراة والانجيل من ذلك فدل ذلك
على صدق الآتي به قطعا اذ لم يكن يعرف شيا من الكتابين ولا
جالس احدا يعلمه الحكيم اي المحكم وقوله تعالى اكان للناس اي اهل مكة
استفهام انكار للتعجب وقوله تعالى عجبا خبر كان والتعجب تغير

النفس

النفس بما لا تعرف سببه مما خرج عن العادة ثم ذكر ما حامل على التعجب وهو
اسم كان بقوله تعالى انا اوحينا اي ايجادنا الى رجل منهم اي من اهل مكة
ومن قريش وهو محمد صلى الله عليه وسلم يعرفون صدقه ونسبه واهله
قيل كان ينبغي ان يقولوا العجب ان الله لم يجد رسولا يرسله الى الناس الا يتيم
ابي طالب وهو من فرطهما قتهم وقصور نظرهم على الامور العاجلة
وجهلهم بحقيقة الوحي والنبوة وهو لم يكن صلى الله عليه وسلم يقصر
عن عظمائهم فيما يعتبر فيه الا في المال وحقه المال اهون شيء في هذا
الباب وتذكر كان اكثر الانبياء عليهم الصلاة والسلام قيل لهم كذلك
وقيل قال تعالى وما اموالكم ولا اولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ان انذر
الناس عامة اي اعلمهم مع الخوف ما امامهم من البعث وغيره وان
بابي المفسرون لان الايجاز فيه معنى القول وبشر الذين آمنوا انما عمم في
الانذار لانه قل ان يسلم احد من كبيرة او صغيرة او بعض جليلة او
حقير على اختلاف في الرتب وتباين المقامات وخص البشارة اذ ليس
للكافر ما يصح ان يبشر به ان اي بان لهم قدم صدق سلف صدق عند
ربهم اختلفت عبارات المفسرين واهل اللغة في معنى قدم صدق
فقال ابن عباس اجرا حسنا بما قدموا من اعمالهم وقال مجاهد الاعمال
الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم وقال الحسن عمل صالح
اسلفوه يقدمون عليه وقال عطا مقام صدق لا زال له ولا بؤس فيه
وقال زيد بن اسلم هو شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم واضيفا
القدم الي الصدق وهو نعته كقولهم مسجد الجامع وصلاة الاولى
وحب الحصيد وقال ابو عبيدة كل سابق في خير او شر يسمى عند العرب قدم
قال الشاعر صلى لذي العرش واتخذ قدما ينجيك يوم الغار والنكر
وهو مؤنث فيقال قدم حسنة او قدم صالحة وقوله تعالى قال الكافرون

م

ان هذا لسحران وقرا نافع وابو عمرو وابن عامر بكسر اللام وسكون
الخاء على ان الاشارة للقرآن المشتمل على ذلك والباقون بفتح اللام
والف بعدها وكسر الخاء على ان الاشارة للنبي صلى الله عليه وسلم
ان ربكم الموجد لكم والمربي والمحسن هو الله الذي خلق اي قدر
واوجد السموات والارض على اتساعهما وكثرة ما فيهما من المنافع
في ستة ايام من ايام الدنيا اي في قدرها لانه لم يكن ثم شمس ولو شاء
لخلقهما في لمحة والعدول عنه لتعليم خلقه التثبت فان قيل ان اليوم
فد يراد به اليوم مع ليلته وقد يراد به النهار وحده فما المراد اجيب
بان الغالب في اللغة انه يراد باليوم اليوم مع ليلته ولما اوجد سبحانه
وتعالى هذا الخلق الكبير المتباعد الاقطار الواسع الانتشار المختلف
الى عظيم التدبير ولطيف التعريف والتقدير عبر سبحانه وتعالى عن
عمله فيه عمل الملوك في مماليكهم بقوله مشيرا الى عظمته بأداة
التراخي ثم استوى اي عمل في تدبيره واتقان ما فيه واحكامه عمل المتمكن
بذلك على العرش المتقدم وصفه في الاعراف بالعظمة وليست ثم للترتيب
بل كناية عن علو الرتبة وبعد منازل الهمم بين ذلك الاستواء بقوله
يدبر الامر كله فلا يخفى عليه عاقبة امر من الامور لان التدبير اعدل
الاحوال للملك فالاستواء كناية عنه وقوله تعالى ما من شفيع الا من
بعد اذنه تقرير لعظمته جل وعلا ورد على من زعم ان المهتمين تشفع
لهم عند الله وفيه اثبات الشفاعة لمن اذن له ذلكم الله اي الموصوف
تلك الصفات المقتضية للالوهية والربوبية ربكم اي الذي يستحق
العبادة منكم فاعبدوه اي وحده ولا تشركوا به بعض خلقه من ملك
او انسان فضلا عن جماد لا يضر ولا ينفع فان عبادتكم مع التشريك
ليست عبادة ولو لا فضله لم يكن لمن زل ادنى زلة طاعة وقوله تعالى

افلا تذكرون قراه حفص وحمزة والكسائي بتخفيف الذال والباقون
بالتشديد بادغام التاء في الاصل اي افلا تتفكرون وتدبرون تعلمون على
ان المستحق للربوبية والعبادة لا ما تعبدونه اليه تعالى مرجعكم اي
رجوعكم بالموت والنشور حالة كونكم جميعا لا يتخلف منكم احد فاستعدوا
للقائه وهو قوله تعالى وعد الله حقا مصدر منصوب بفعله المقدر موكد
لنفسه لا لغيره وهو مما دل عليه وعد الله انه يبدؤا الخلق اي يحييهم
ابتداء ثم يعيده اي ثم يميتهم ثم يحييهم وفي هذا دليل على الحشر والنشر
والمعاد وصحته وقوعه ورد على منكري البعث ووقوعه لان القادر على
خلق هذه الاجسام المؤلفة والاعضاء المركبة على غير مثال سبق قادر
على اعادتها بعد تفريقها بالموت والبلى فيركب تلك الاجزاء المتفرقة
تركيبا ثانيا ويخلق الانسان الاول مرة اخرى فاذا ثبت القول بصحة
المعاد والبعث بعد الموت كان المقصود منه ايصال الثواب للمطيع
والعقاب للعاصي وهو قوله تعالى ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات
بالقسط اي بالعدل لا ينقص من اجورهم شيا والذين كفروا لهم شراب
من حميم وهو ما حار قد انتهى حره وعذاب اليم اي بالغ في الايلام بما
كانوا يكفرون اي بسبب كفرهم هو الذي جعل الشمس ضيا اي ذات ضيا
والقمر نورا اي ذا نور وخص الشمس بالضيا لانه اقوى واكد من النور
وخص القمر بالنور لانه اضعف من الضيا لان الشمس بينة في ذاتها
والقمر بخبر بعرض مقابلة الشمس والاكتساب منها وقرا قنبل ثم ضم
مفتوحة بعد ودة بعد الطاء والباقون بيا مفتوحة والضمير في
قوله تعالى وقدره منازل اي يرجع الى الشمس والقمر اي قدر مسير
كل واحد منهما منازل او قدر هذا منازل او يرجع الى القمر فقط لما
وتخصيصه بالذكر لسرعة مسيره ومعاينة منازله وانا طة احكام

الشرع به ولذلك علله بقوله تعالى لتعلموا عدد السنين والحساب اي حساب
الاوقات من الاشهر والايام في معاملاتكم وتصرفاتكم لان الشهور المعتبرة
في الشريعة هي السنة القمرية كما قال تعالى ان عدة الشهور عند الله اثنا
عشر شهرا في كتاب الله فائدة منازل القمر ثمانية وعشرون منزلة
واسماؤها الشرطين والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة
والذراع والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك
والغفر والزبانا والاكليل والقلب والشولة والنعايم والبلدة وسعد
الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الاخبية وفرع الدلو المقدم
وفرع الدلو المؤخر وبطن الحوت وهذه المنازل مقسومة على البروج
وهي اثنى عشر برجا الحمل والثور والجوزا والسرطان والاسد والسنبلة
والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت فكل برج من ذلك
وثلث فينزل القمر كل ليلة منها من الافيستر ليلتين اذا كان الشهر ثلاثين
وان كان تسعا وعشرين فليلة واحدة فيكون انقضاء الشهر مع نزوله
تلك المنازل ويكون مقام الشهر في كل منزلة ثلاثة عشر يوما فيكون
انقضاء السنة مع انقضائها وانتفاع الخلق بضوء الشمس وبنور القمر
عظيم فالشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل وبحركة الشمس
تتفصل السنة التي هذه الفصول الاربعة وبالفصول الاربعة ينتظم مصلح
هذا العالم وبسبب الحركة اليومية يحصل الليل والنهار والنهار ربما
يكون زمانا للتكسب والطلب والليل يكون زمانا للراحة ما خلق
الله ذلك الا بالحق اي لم يخلق ذلك باطلا ولا عبثا تعالى
الله عن ذلك اظهارا لقدرته ودلائل وحدانيته ونظيره قوله تعالى
في آل عمران ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا
باطلا وقال تعالى في سورة اخرى وما خلقنا السماء والارض وما بينهما

باطلا

باطلا ذلك ظن الذين كفروا يفصل اي يبين الايات اي الدلايل الباهرة
واحدة في اثر واحدة بيانا شافيا لقوم يعلمون فانهم المنتفعون بالتامل
فيها وقرا ابن كثير وابو عمرو وحفص باليا والباقون بالنون ولما استدل
سبحانه وتعالى على اثبات الالهية والتوحيد بقوله تعالى ان ربكم الله
الذي خلق السموات والارض وثانيا احوال الشمس والقمر استدل ثالثا
بقوله تعالى ان في اختلاف الليل والنهار اي بالمجيء والذهاب والزيادة
والنقصان ورابعا بقوله تعالى وما خلق الله في السموات من ملايكة وشمس
وقمر ونجوم وغير ذلك وما خلق الله في الارض من حيوان وجبال وبحار
فائدة اقسام الحوادث في هذا العالم محصورة في اربعة اقسام احدها
الاحوال الحادثة في العناصر الاربعة ويدخل فيها احوال الرعد والبرق
والسحاب والامطار ويدخل فيها ايضا احوال البحار والصواعق
والزلازل والخسوف وثانيها احوال المعادن وهي عجيبة كثيرة وثالثها
اختلاف احوال النبات ورابعها اختلاف احوال الحيوانات وجملة هذه
الاقسام الاربعة داخلة في قوله تعالى وما خلق الله في السموات
والارض فالمستقصي في شرح هذه الاحوال لا يدخل تحت الحصر بل كل ما ذكر العقلاء
في احوال اقسام هذا العالم فهو جزء مختصر من هذا الباب لايات
اي لدلالات على قدرته تعالى لقوم يتقون الله فانه يحملهم على التفكر
والتذكر وخصهم بالذكر لانهم المنتفعون بما قال القفال من تدبر في هذه
الاحوال علم ان السماء مخلوقة لمنافع الناس فيها وان خالقها وخالقهم
ما اهملهم بل جعلهم مكلفين عمل واذا كان كذلك فلا بد من امر ونهي ثم
من ثواب وعقاب ليتميز المحسن عن المسيء فهذه الاحوال في الحقيقة
دالة على صحة هذا القول باثبات المبدء واثبات المعاد ولما اقام الله
سبحانه وتعالى الدلايل الظاهرة على صحة القول باثبات الآلهة الرحيم

الحكيم وعلى صحة القول بالمعاد والحشر والنشر شرع في شرح احوال من يكفر بما
وشرح احوال من يومن بما وقد ابتدأ بالمؤمنين وصفهم باربع صفات مبدأ
بالمؤمنين بقوله تعالى ان الذين لا يرجون لقاءنا اي لا يخافون لانكارهم
البعث وذهولهم بالمحسوسات عما وراءها مما يمكن ان يوثق بالثواب
والعقاب والرجاء يكون بمعنى الخوف وبمعنى الطمع فمن الاول قول القرن
فلان لا يرجو فلانا بمعنى لا يخافه ومنه قوله تعالى ما لكم لا ترجون
لله وقارا ومنه قول ابي ذويب الهذلي اذا لسعته النحل لم يرج لسعها
ومن الثاني قولهم فلان يرجو فلانا اي فيطمع فيه والمعنى لا يطمعون
في ثوابنا والصفة الثانية والثالثة قوله تعالى ورضوا بالحياة الدنيا
واطمانوا بها فيعملون لها عمل المقيم فيما مع ما يشاهدونه من سرعة
زوالها منهمكين في لذاتها وزخارفها وسكنوا اليها سكونا من
لا يرتجي عنها والصفة الرابعة قوله تعالى والذين هم عن اياتنا اي
دلايل وحدانيتنا غافلون تاركون النظر فيها بمنزلة الغافل عن الشيء
الذي لا يخطر بباله طول عمره ذكره ذلك الشيء وبالجملة فهذه الصفات
الاربعة دالة على ستة بعدهم عن طلب الاستعداد بالسعادات
الاخروية ويحتمل ان الصفة الاخيرة لغير آخر ويكون المراد بالاولين
من انكر البعث ولم يرد الا الحياة الدنيا وبالاخر من الهاه حب العاجل
عن التامل في الاجل والاعداد له وبما وصفهم استحقوا الصفات
قال اولئك ماواهم النار بما كانوا يكسبون من الشرك والمعاصي ولما
شرح احوال المنكرين الجاحدين ذكر تعالى شان من يومن بما فقال ان
الذين امنوا وعملوا الصالحات والاعمال الصالحة عبارة عن الاعمال
التي تحمل النفس على ترك الدنيا وطلب الاخرة والاعمال المذمومة
ما يكون بالضد من ذلك يهديهم اي يرشدهم ربهم بايمانهم اي

بسبب

بسبب ايمانهم الى مسلوك سبيل يودي الى الجنة او لما يريدونه في الجنة
لولا دراك الحقايق كما قال صلى الله عليه وسلم من عمل بما علم ورثه
الله علم ما لم يعلم وقال مجاهد المومنون لهم نور تهدي بهم الى الجنة وروي
انه صلى الله عليه وسلم قال ان المومن اذا خرج من قبره صور له عمله
في صورة حسنة فيقول انا عملك فيكون له نورا وقايدا الى الجنة والكافر
اذا خرج من قبره صور له عمله في صورة سيئة فيقول انا عملك فينطلق
به حتى يدخله النار وفهم من ترتب الهداية على الايمان والعمل الصالح
قد دل على ان سبب الهداية هو الايمان والعمل الصالح لكن دل منطوق
قوله جل وعلا بايمانهم على استقلال الايمان بالسببية واذ العمل
الصالح كالتتمة والردف ثم انه تعالى لما وصفهم بالايمان والاعمال الصالحة
ذكر بعد ذلك درجات كرامتهم ومراتب سعادتهم وهي اربعة الاولى
قوله تعالى تجري من تحتهم الانهار في جنات النعيم اي يكونون جالسين
على سرر مرفوعة في البساتين والانهار تجري من بين ايديهم ينظرون اليها
من اعالي اسرتهم وقصورهم ونظيره قوله تعالى وترى الفلك فيه مواخر
فهي ساكنة قاعدة عليها ولكن المعنى بين يديك وكذا قوله تعالى وهذه
الانهار تجري من تحتي اي بين يديّ فكذا هنا الثانية قوله تعالى دعواهم
فيها قال بعض المفسرين اي طلبهم لما يشتهون في الجنة ان يقولوا سبحانك
اي ننزهك من كل سوء ونقيصة اللهم اي يا الله فاذا ما طلبوه بين
ايديهم على موايد كل مايدة ميل في ميل على كل مايدة سبعون الف
صحفة في كل صحفة لون من الطعام لا يشبه بعضها بعضا فاذا اخر عوا من
الطعام حمد والله تعالى فذلك قوله تعالى وآخر دعواهم ان الحمد لله
رب العالمين او ان المراد بقوله سبحانك اللهم اشتغال اهل الجنة بالتسبيح
والتحميد والتقديس لله تعالى والثناء عليه بما هو اهله وفي هذا

الذكر سرورهم وابتهاجهم وكمال لذاتهم وهذا أولى ويدل عليه ما روي عن جابر
رضي الله عنه انه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اهل الجنة
يأكلون فيها ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون قالوا فما بال
الطعام قال جشاء ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون
النفس اي يخرج ذلك الطعام جشاء وعرقا الثالثة قوله تعالى تحيتهم
فيها بينهم وتحية الملائكة لهم فيها اي الجنة سلام وتأتيهم الملائكة ايضا من عند
ربهم بالسلام قال تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم
وقال تعالى سلام قولا من رب رحيم الرابعة قوله تعالى وآخر دعواهم اي
وآخر دعائهم ان الحمد لله رب العالمين اي ان يقولوا ذلك وهي ان المخففة
من الثقيلة وقد ذكرنا ان بعض المفسرين حمل التسبيح والتحميد على احوال
اهل الجنة بسبب المأكول والمشروب فانهم اذا اشتهوا شيئا قالوا سبحانك
اللهم وبحمدك فيحضر ذلك الشيء فاذا فرغوا منه قالوا الحمد لله رب
العالمين فترفع الموائد عند ذلك قال الرازي وهذا القائل ما رقي
نظره في دنياه واخراه عن المأكول والمشروب وحقيق بمثل هذا الانسان
ان يعد في زمرة البهائم واما المحققون فقد تركوا ذلك الا ولا ينبغي
هذه المبالغة فقد قاله البغوي وتبعه جماعة من المفسرين وقال
الزجاج اعلم الله ان اهل الجنة يفتتحون بتعظيم الله تعالى وتنزيهه
ويختمون بشكره والثناء عليه قال السعادي المعنى انهم اذا دخلوا
الجنة وعاينوا عظمة الله تعالى وكبريائه مجدوه ونعتوه بنعوت
الجلال ثم حياهم الملائكة بالسلامة عن الآفات والفوز باصناف
الكرامات او الله تعالى فحمدوه واثنوا عليه بصفات الاكرام ولما وصف
الله تعالى الكفار بانهم لا يرجون لقاء الله ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا
بها وكانوا عن آيات الله غافلين بين ان من غفلتهم ان الرسول متى

الذين هم

الذين هم استعجلوا العذاب جهلا منهم وسفها بقوله تعالى ولو يعجل الله للناس
الشر اي ولو يعجل الله للناس اجابة دعائهم بالشر فيما لهم فيه مضرة ومكروه
استعجالهم بالخير اي كما يحبون ان يعجل لهم اجابتهم بالخير لقضي اليهم اجلهم
اي لاهلكهم ولكن يمهلهم نزلت في النضر بن الحارث حين قال اللهم ان كان
هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم
ويدل عليه قوله تعالى فنذر اي نترك الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم
اي تمردهم وعتوهم يعمهون يترددون متحيرين وقال ابن عباس هذا في
قول الرجل عند الغضب لاهله وولده لعنكم الله لا بارك الله فيكم وقال
قتادة هو دعاء الرجل على نفسه واهله وماله بما يكره ان يستجاب له فيه
وعن ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اللهم
اني اتخذ عندك عهدا لن تخلفنيه انما انا بشر فاي المؤمنين اذيته او شتمته
او جلدته او لعنته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها اليك يوم
القيامة فان قابل التعجيل في الآية بالاستعجال وكان مقتضى النظم ان
يقابل التعجيل بالتأجيل والاستعجال بالاستعجال اجيب بان
تقدير الكلام ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله لهم الخير حين استعجلوه استعجالا
كاستعجالهم بالخير فحذف منه ما حذف لدلالة الباقي عليه وقال في
الكشاف اصل هذا الكلام ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله لهم بالخير
اشعارا بسرعة اجابته لهم واسعافه بطلبتهم حتى كان استعجالهم بالخير
تعجيل لهم ولما حكى تعالى عنهم انهم يستعجلون في نزول العذاب بين انهم
كاذبون في ذلك الطلب والاستعجال بقوله تعالى واذا مس الانسان
اي الكافر الضر اي المرض والفقر دعانا لجنبه اي على جنبه مضطجعا او
قاعدا او قائما وفائدة الترديد تعميم الدعاء لجميع الاحوال والاصناف
المضار والمعنى انه لو نزل بالانسان ادنى شيء يكرهه ويؤذيه فانه

يتضرع الى الله تعالى في ازالته عنه وفي دفعه عنه وذلك يدل على انه ليس صادقا في طلب الاستعجال فلما كشفنا عنه ضره اي ازلنا عنه ما نزل به مرّ اي مضى على ما كان عليه من الكفر كان لم يدعنا اي كانه فاسقط الضمير على سبيل التخفيف ونظيره قوله تعالى كان لم يلبثوا الى ضرّ مسه قال الحسن سبى ما كان دعا الله فيه وما صنع الله به في ان الذي ذلك البلاء عنه وانما حمل الانسان في هذه الاية على الكافر لان العمل المذكور لا يليق بالمسلم البتة وتقول بعضهم كل موضع في القرآن ورد فيه ذكر الانسان فالمراد به الكافر مردود قال تعالى هل اتى على الانسان حين من الدهر وقال تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ولقد علمنا ما توسوس به نفسه واما المؤمن اذا ابتلي ببلية ومحنة وجب عليه رعاية امور ولم يجز ان يكون راضيا بقضاء الله تعالى غير معترض بالقلب واللسان عليه وانما وجب عليه ذلك لانه تعالى مالكه على الاطلاق وملكه بالاستحقاق فله ان يفعل في ملكه ما شاء ولانه تعالى حكيم على الاطلاق وهو منزه عن فعل العبث فجميع ما فعله فهو حكمة وصواب فيجب عليه الصبر وترك القلق فاذا ابتي عليه تلك المحنة فهو عدل وان ازالها عنه فهو فضل وتأويلها انه في ذلك الوقت اذا اشتغل بذكر الله تعالى والثناء عليه بدعا عن الدعا كان افضل لقوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى من شغله ذكري عن مسالتي اعطيته افضل ما اعطي السايلين ولان الاشتغال بالذكر اشتغال بالحق والاشتغال بالدعا اشتغال بطلب حظ النفس ولا شك ان الاول افضل وتأويلها انه تعالى اذا ازال عنه تلك البلية وجب عليه ان يبالغ في الشكر وان لا يخلو عن ذلك الشكر في السرا والضرآء واحوال الشدة والرخا فهذا هو الطريق الصحيح عند نزول البلا وح يكون المؤمن على الضد من الكافر لان الكافر ربه

ممهمك في الشهوات والاعراض عن العبادات كما قال تعالى كذلك اي مثل ما زين لهؤلآء الكافرين هذا العمل القبيح زين للمسرفين اي للمشركين ما كانوا يعملون من القبايح لاعراضهم عن الذكر واتباعهم الشهوات وانما سمى الكافر مسرفا لانه اتلف نفسه بتعييبها في عبادة الاوثان واتلافه ماله في البحيرة والسايبة والوصيلة والحامي ثم هو الله تعالى لانه الملك الملك والخالق لكل عبيده يتصرف فيهم كيف شاء وقيل هو الشيطان وذلك باقدار الله تعالى اياه على ذلك ولا شك ان الامر هو احسن واحق ولقد اهلكنا القرون اي الامم الماضية من قبلكم يا اهل مكة لما ظلموا اي حين اشركوا وقوله تعالى وجاءتهم رسلهم بالبينات اي بالحجج الدالة على صدقهم حال من الواو وبا بعد قد او عطف على ظلموا وما اي وكان الشان ما كانوا ليؤمنوا اي وما استقام لهم ان يؤمنوا ولو جاءتهم كل اية لعلمه تعالى انهم سيموتون على كفرهم واللام لتاكيد النفي كذلك اي مثل ذلك الجزا العظيم وهو اهلاكهم لما كذبوا رسلهم نجزي القوم المجرمين اي نجزي يا اهل مكة بتكذيبكم محمدا صلى الله عليه وسلم وضع المظهر موضع المضمر للدلالة على كمال جرمهم وانهم اعلام فيه ثم جعلناكم اي ايها الرحل اليهم اشرف رسلنا خلايف جمع خليفة في الارض من بعدهم اي استخلفناكم فيها بعد القرون التي اهلكناها استخلاف من يختبر لننظر ونحن اعلم بكم من انفسكم في عالم الشهادة لاقامة الحجة كيف تعملون من خير او شر فنجازيكم به وقد مرّ نظايره هذا ومنه قوله تعالى ليبلوكم ايكم احسن عملا وقال صلى الله عليه وسلم ان الدنيا حلوة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون وقال قتادة حدث ان الله ربنا ما جعلنا خلقا اي لنبتلي كيف اعمالنا فاعلم ولايته من اعمالكم خيرا بالليل والنهار قال الزجاج وموضع كيف نصب بقوله تعالى تعملون اي لنعمل ننظر لان حرف استفهام والاستفهام لا يعمل فيه ما قبله

لان له صدر الكلام فلا يتقدم معامله وظاهر كلامه ان كيف مفعول لتعملون
وجمهور النحاة على انه حال من ضمير تعملون **واذا تتلى عليهم** اي واذا قرئ
على هولاء المشركين **اياتنا** اي القران الذي انزلناه اليك يا محمد حال كون
تلك الايات **بينات** اي ظاهرات تدل على وحدانيتنا وصحة نبوتك **قال**
الذين لا يرجون لقاءنا اي لا يخافون عذابنا ولا يرجون ثوابنا لانهم
لا يومنون بالبعث بعد الموت وكل من كان منكرا لبعث الميت فانه
لا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا **ائت** اي من عندك **بقران** اي كلام مجموع
جامع لما نريد **غير هذا** في نظمه ومعناه **او بدله** بالفاظ اخرى والمعاني
باقية وقد كانوا عالمين بانه صلى الله عليه وسلم مشهور في العجز عن ذلك
ولكنهم قصدوا ان ياخذ في التغيير حرصا على اجابة مطلوبهم فيبطل
مدعاه او يملك واختلف في هذا القايل فقال قتادة هم مشركوا
اهل مكة وقال مقاتل هم خمسة نفر عبد الله بن امية المخزومي والوليد بن
المغيرة ومكرز بن حفص وعمرو بن عبد الله بن ابي قيس العامري
والعاص بن عامر بن هشام قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ان كنت
تريد ان نومن بك فاتنا بقران ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى
ومناة وليس فيه عيبها وان لم يزل يما الله فقل ائته من عند نفسك او
بدله فاجعل مكان اية عذاب اية رحمة او مكان حرام حلالا او مكان
حلال حراما وانما كانوا يقولون هذا القول لعلمهم قال الله تعالى **قل لهم**
ما يكون اي ما يصح **لي** ولا يتصور بوجه من الوجوه **ان ابدله من تلقاء** اي
قبل **نفسي** وانما اكتفى بالجواب عن التبديل لاستلزام امتناعه امتناع
الاتيان بقران آخر وقرا نافع وابو عمر وبفتح الياء والباقون بالسكون
ان اي ما **اتبع الا ما يوحى اليّ** فما آمركم به وانهاكم عنه اي لا آتي بشيء ولا
اذر شيئا من تلقاء ذلك الا متبعا لوحي الله تعالى واوامره ان نسخت اية

تبعت

تبعت النسخ واذ بدلت اية مكان اية تبعت التبديل وليس الي تبديل
ولا نسخ **اني اخاف ان عصيت ربي** اي بتبديله **عذاب يوم عظيم** فاني مومن
به غير مكذب به ولا شاك فيه غير ممن يتكل الممدحيان بما لا يخاف عاقبته
فيخذلك اليوم الذي تذهل فيه كل مرضعة عما ارضعت وقرا نافع وابن
كثير وابو عمرو علي وله بفتح الياء والباقون بالسكون **قل** يا محمد لهولاء المشركين
الذين طلبوا منك تغيير القران **لو شاء الله ما تلوته عليكم** اي لو شاء الله لم
ينزل هذا القران ولم يامرني بتلاوته عليكم **ولا ادراكم به** اي ولا اعلمكم به على
لساني وقرا ابن كثير بخلاف عن البزي بهمزة بعد اللام جواب لواي
لاعلمكم به على لسان غيري والباقون بالمد المتفعل وقوله تعالى **فقد**
لبثت اي مكثت قراه نافع وابن كثير وعاصم باظهار الثاء عند التاء
والباقون بالادغام **فيكم عمرا** سنين اربعين **من قبله** اي قبل الايحي الي
هذا القران لا تتلوه ولا اعلمكم به ففي ذلك اشارة الى ان هذا القران معجز
خارق للعادة وتقريره ان اولئك الكفار كانوا قد شاهدوا رسول
الله صلى الله عليه وسلم من اول عمره الى ذلك الوقت وكانوا عالمين باحواله
وانه ما طالع كتابا ولا تلمذ لاستاذ ولا تعلم من احد ثم بعد انقراض
اربعين سنة على هذا الوجه جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على
نفايس علم الاصول ودقايق علم الاحكام ولطايف علم الاخلاق واسرار
قصص الاولين وعجز عن معارضته الفصحاء والبلغاء وكل من له
عقل سليم فانه يعرف ان مثل هذا لا يحصل الا بالوحي والالهام من الله
تعالى **افلا تعقلون** اي افلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر لتعلموا
ان مثل هذا الكتاب العظيم علي من لم يتعلم ولم يتلمذ ولم يطالع كتابا ولم
يمارس مجادلة انه لا يكون الا علي سبيل الوحي من الله تعالى لا من مثلي
وهذا جواب عما دسوه عن قولهم ائت بقران غير هذا من اضافة الاقتراح

اليه تنبيه اقام صلى الله عليه وسلم بعد ان اوحي اليه بمكة ثلاث عشرة
ثم هاجر فاقام بالمدينة عشر سنين وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة
قال النووي ورد في عمره صلى الله عليه وسلم ثلاث روايات احداها انه
توفي صلى الله عليه وسلم وهو ابن ستين سنة والثانية خمس وستون سنة
والثالثة ثلاث وستون سنة وهي اصحها واشهرها وتاولوا رواية ستين
بانه اراد بها اقتصر فيها على العقود وترك الكسر ورواية الخمس الغلط والوهم
وحصل فيه اشتباه ولما اقمت الدلايل على ان هذا القران من عند الله
وجب ان يقال انه ليس في الدنيا احد اجهل ولا اظلم على نفسه من
منكر ذلك كما قال تعالى فمن اي لا احد اظلم ممن افتري اي تعمد على الله كذبا
اي اي كذب كان من شريك او ولد او غير ذلك وكان الاصل مبنيا على
تعذير ان لا يكون هذا القران من عند الله ولكنه وضع هذا الظاهر
مكانه تهيما وتعليقا للحكم بالوصف او كذب بايانه اي دلايل توحيده
فكفر بها كما فعلتم انتم وذلك من اعظم الكذب وقوله تعالى انه اي الشان
لا يفلح يوجه من الوجوه الممزوجة اي الممزوج كون تاكيد لما سبق من هذين الوجهين
ويعبدون اي هولا المشركين من دون الله اي غيره ما لا يضرهم اي ان لم يعبد ٥
ولا ينفعهم اي ان عبد وهو الاصنام لانها جماد لا تضر ولا تنفع
والكفار قادرون على التصرف فيها فكانه بالاصلاح وتارة بالافساد
واذا كان العابد اصلح حالا من المعبود كانت العبادة باطلة لان العبادة
اعظم انواع التعظيم فلا يليق الا بمن يضر وينفع بان يثيب على الطاعة
ويعاقب على المعصية وكان اهل الطايف يعبدون اللات واهل مكة
يعبدون العزى ومناة وهبل واساف ونايلة ويقولون هولاء اي
الاصنام التي نعبدها شفعاونا عند الله وتظهر قوله تعالى اخبارا عنهم
ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى وقيل انهم وضعوا هذه الاصنام

والاوثان

والاوثان على صور انبيايهم واكابرهم وزعموا انهم متى اشتغلوا بعبادة هذه
التماثيل فان اولئك الاكابر يكونون شفعاءهم عند الله قال الرازي ونظير
في هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الاكابر على اعتقاد انهم
اذا عظموا قبورهم فانهم يكونون شفعاء عند الله اه ولكن تعظيم هولا
ليس كتعظيم الكفار وفي هذه الشفاعة قولان احدهما انهم يزعمون انما تشفع
لهم فيما يهمهم من امور الدنيا في اصلاح معايشهم قاله الحسن لانهم كانوا
لا يعتقدون بعد الموتى والثاني انهم يزعمون انها تشفع لهم في الاخرة
ان تكون بعث قاله ابن جريج عن ابن عباس وكانهم كانوا شاكين فيه وهذا
من فرط جهالتهم حيث تركوا عبادة موجد هم الضار النافع الى عبادة ما يعلم
قطعا انه لا يضر ولا ينفع على توهم انه ربما يشفع لهم قال المغيرة بن الحارث
اذا كان يوم القيمة شفعت اللات والعزى وقوله تعالى قل يا محمد لهولا المشركين
اتنبيونه اي اتخبرون الله وهو العالم بكل شي المحيط بكل محيط بما لا يعلم اي
لا يوجد له علم في وقت من الاوقات استفهام انكار تهكم عنهم وبما ادعوه
من المحال الذي هو شفاعة الاصنام واعلامه بان الذي انبا به باطل
غير مطابق للصحة فكانهم يخبرونه بشي لا تعلق به علمه وقوله تعالى في
السموات ولا في الارض تاكيد لنفيه لان ما لم يوجد فيهما فهو منتف معدوم
وبعد على طريق الالزام والمقصود نفي علمه بذلك الشفيع واذ لا وجود
له البتة لانه لو كان موجودا لكان معلوما لله تعالى وحيث لم يكن معلوما له
تعالى وجب ان لا يكون معلوما موجودا وهذا مثل مشهور في العرب فان
الانسان اذا اراد نفي شي عن نفسه يقول ما علم الله ذلك في ونفي ومقصوده
انه ما حصل ذلك الشي منه قط ولا وقع سبحانه اي تنزيها له عن كل شايبة
نقص وتعالى عما يشركون ما مصدرية او موصولة اي عن اشراكهم او عن الشركا
الذين يشركونهم به وقرا حمزة والكسايي بالتا على الخطاب لقوله اتنبيون الله

والباقون بالياء على الغيبة فكانه قيل للنبي صلى الله عليه وسلم قل ان
سبحانه وتعالى عما يشركون ويجوز ان يكون لله سبحانه وتعالى هو الذي
نزه نفسه عما قالوه فقال سبحانه وتعالى عما يشركون ولما اقام تعالى
الدلالات القاهرة على فساد القول بعبادة الاصنام بين السبب في
كيفية حدوث هذا المذهب الفاسد بقوله وما كان الناس الا امة واحدة
اي جميعا على الدين الحق وهو دين الاسلام وقيل على الضلال لمن في فترة الرسل
واختلفوا التقاتلون بالاول انهم كانوا كذلك فقال ابن عباس ومجاهد
كانوا على دين الاسلام من لدن آدم الى ان قتل قابيل هابيل وقال
قوم الى زمان نوح وكانوا عشرة قرون ثم اختلفوا في عهد نوح فبعث
الله تعالى اليهم نوحا وقال آخرون كانوا على دين الاسلام في زمن نوح
بعد الغرق حيث لم يذكر الله على الارض من الكافرين ديارا الى ان ظهر
الكفر فيهم وقال آخرون من عهد ابراهيم عليه السلام الى زمن عمرو بن
لحي وهذا القائل قال المراد من الناس في قوله تعالى وما كان الناس
الا امة واحدة العرب خاصة فاختلفوا بان بعث بعض وكفر بعض ولولا
كلمة سبقت من ربك وهو تاخير الحكم الى يوم القيمة وقيل تلك الكلمة هي
قوله سبحانه وتعالى سبقت رحمتي غضبي فلما كانت رحمته غالبة اقتضت
تلك الرحمة الغالبة اسبال الستر على جاهل الضلال وامهاله الى وقت
الوجدان لقضي بينهم اي الناس بنزول العذاب في الدنيا الى يوم
القيمة فيما فيه يختلفون من الدين باهلاك المبطل وانجاء المحق وكان
ذلك فصلا بينهم ويقولون اي كفار مكة لولا اي هلا انزل عليه اي محمد
صلى الله عليه وسلم اية من ربه اي غير ما جاء به كما كان للانبياء من الناقة
والعصا واليد فقل يا محمد لهؤلاء الكفرة المعاندين انما الغيب اي ما غاب
عن العباد علمه لله اي هو المختص بعلمه ومشيته الايات فلا ياتي بها الا هو

وانما

وانما على التبليغ فانتظروا اي نزول الساعة حتى وقيل نزول العذاب ان
لم يؤمنوا اني معكم من المنتظرين اي بما يفعل الله تعالى بكم لعنادكم ويجوز
الايات وكم بالقرآن وجه اية باقية على وجه الدهر بديعة في الايات
رقيقة المسلك بين المعجز اذا سمع محكم عند معارضته بتبديل وغيره فاي
عناد اعظم من هذا واذا اذقنا الناس اي كفار مكة رحمة اي صحة وسعة
من بعد ضراء اي شدة وبلاء مستهم سلط الله عليهم القحط سبع سنين على
اهل البلاد وعامة الناس بعد ذلك فلم يتعظوا بل رجعوا الى العناد والكفر
كما قال تعالى اذا لهم مكر في اياتنا بالاستهزاء والتكذيب وقيل للتيقولون
هذا من رزق الله انما يقولون سقينا بنوء كذا وعن ابي هريرة رضي الله
عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى ليصبح القوم بالنعمة
ويمسيهم بها فيصبح طائفة منهم بها كافرين يقولون مطرنا بنوء كذا والنوء
عند العرب هي منازل القمر اذا طلع نجم سقط نظيره قل الله اي
قل لهم يا محمد الله اسرع مكرا منكم اي امجل عقوبة واشد اخذا واقدر
على الجزاء ومعنى الوصف بالسرعة انه قضى بقعاءهم قبل تدبيرهم
مكايدهم والمكر اخفاء الكيد وهو من الله تعالى اما الاستدراج او
الجزاء على المكر فانهم لما قابلوا انعمة الله بالمكر قابل مكرهم بما يشد منه
ويهوى بهم الى يوم القيمة ان رسلنا اي الحفظة الكرام الكاتبين
يكتبون ما تمكرون لانهم وكلوا بكم قبل كونكم نطفا ولم يوكلوا بكم الا بعد
علم من كلهم بكل ما تفعلونه ولا يكتبون مكركم الا بعد اطلاعهم عليه وما
هو كذلك وتعالى فانه اذا قضى شيئا لا يمكن ان يطلع علم رسله الا باطلاعه
فكيف بغيرهم واذا ثبت انه عالم باسرارهم ونهم جاهلون بما هو دونه علم انه
لا يدعهم يدبرون كيدا الا وقد سبب له ما يجعله في نحورهم وقرا ابو عمرو
تسيركم بالتاء من السير بالرفع ثم اخذ سبحانه وتعالى في بيان ما يقع

به اسرعية مكرهم في مثال دال على ما في الاية قبلها لان المعنى الكلي لا يعلم
الي اتمام السامعين الا بذكر مثال جلي واضح يكشف عن حقيقة ذلك
المعنى الكلي فقال هو الذي يسيركم اي يجعلكم على السير في البر وقد يتيسر
فيه لا تتعذر وذلك عند امكان الانتفاع منه وبكثرة منه في البر والبحر اذ يسير
لكم اسبابا توجب تيسيركم فيهما وقرا ابن عامر بعد الياء الاولى بنون واحدة
بعدها ياء مثناة تحتية مفتوحة والباقون بنونين مهملة مفتوحة بعدها ياء
ساكنة مشددة ولما كان المقطد يسير البحر اظهر ومعاد السير فيه من
اكبر الايات واوضح البينات بينه معرضا عن ذكر البر بقوله تعالى حتى اذا
كنتم اي كونا لا براح لكم فيه في الفلك اي السفن فان قيل كيف جعل
الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر مع ان الكون في الفلك متقدم
لا محالة على السير في البحر اجيب بانه لم يجعل الكون في الفلك غاية للتسيير بل
لتقدير الكلام كانه قيل هو الذي يسيركم حتى اذا وقع في جملة ذلك التيسير ان
الحصول في الفلك كذا وكذا ولفظ الفلك يطلق على الواحد وعلى الجمع
فان اريد الواحد كان كبنا فعل او الجمع كان كبنا هم وقد اريد هنا الجمع
لقوله تعالى وجرين بهم اي بمن فيها وعدل عن الخطاب الى الغيبة للمبالغة
كان بذكرهم حالهم ليحضهم فيها ويستدعي منهم الانكار والتقبيح
والالتفات في الكلام عن الغيبة الى الحضور والعكس في فصيح
كلام العرب بريح طيبة اي لينة المهبوب وفرحوا بها اي بتلك الريح
وبالفلك الجارية بها وقوله تعالى جاءتها جواب اذا والضمير للفلك او الريح الطيبة
بمعنى تلقتها ريح عاصف اي شديدة المهبوب فان عجت عليهم وساقتهم
وجاءهم الموج اي وجاء كلا من السفينة الموج وهو ما ارتفع وعلا من
صراب الماء في البحر وقيل هو شدة حركة الماء واختلاطه من كل مكان
اي يعتادهم الموج منه فارجف قلوبهم وظنوا انهم احيط بهم اي قطعوا

ان الهلاك قد احاط بهم وشدة عليهم مسالك الهلاك من الخلاص كل احاط بهم
العدو دعوا الله مخلصين اي من غير اشراك به له الدين في الدعاء لانهم
لا يدعون حينئذ غيره لان الانسان في هذه الحالة لا يطمع الا في فضل الله ورحمته
ويصير منقطعا عن جميع الخلق ويصير بقلبه وروحه وجميع اجزاء بدنه مفتقرا
الي الله تعالى وقوله تعالى لئن انجيتنا من هذه الشدائد التي نحن فيها وهي
العاصفة والامواج الشديدة لنكونن من الشاكرين علي ارادة القول اي
مقولا لهم لا تنه من جملة القول اي لنكونن من الشاكرين لك بالايمان
والطاعة علي انها كلما علينا بانجائنا مما نحن فيه من هذه الشدة فلما
انجاهم اي هؤلاء الذين ظنوا انهم احيط بهم من الشدة التي كانوا في اثرها اجابة
لدعائهم اذا هم يبغون اي فاجؤا الفساد وسارعوا الي ما كانوا اعتادوه من
الكفر والمعاصي في الارض اي جنس بغير الحق فان قتل البغي لا يكون بحق فما
معني قوله بغير الحق اجيب بانه قد يكون بحق كاستيلاء المسلمين على ارض
الكفر وهدم دورهم واخراق زروعهم وقطع اشجارهم كما فعل صلى الله عليه
وسلم ببني قريظة فان ذلك كله فساد بحق فالصاحب المفردات البغي علي ضربين
احدهما محمود وهو مجاوزة الحق الي الباطل والي السيئة اي الاثم
كفعل المسلمين ما ذكر يا ايها الناس انما بغيكم اي ظلمكم علي انفسكم لعود
وباله عليها خاصة قال صلى الله عليه وسلم اسرع الخير ثوابا صلة الرحم
واعجل الشر عقابا البغي واليمين الفاجرة وروي تنتان يعجلهما الله تعالى
في الدنيا البغي وعقوق الوالدين وعن ابن عباس لو بغي جبل علي جبل
لاندك الباغي وكان الجبلان يمتنعان بعدتين البيتين

ياصاحب البغي ان البغي مصرعة ... فارجع فخير فعال المرء اعدله
فلو بغي جبل يوما علي جبل ... لاندك منه اعاليه واسفله

وعن محمد بن كعب ثلاث من كن فيه كن عليه البغي وقاله النكث والمكر وعلي

تقدير الانتفاع بالبعض هو عرض زائل كما قال تعالى متاع الحياة الدنيا اي
لا يتيا لكم بقي بعضكم على بعض الا اياما قليلا وهي مدة حياتكم مع
قصرها وسرعة انقضائها ثم اليّا مبعثكم وحشركم في القيمة فننبئكم اي
فنخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا من البغي والمعاصي فنجازيكم عليها وقرا حفص
متاع بنصب العين على انه مصدر مؤكد اي تتمتعون متاع الحياة الدنيا والباقون
بالرفع على انه خبر بغيكم وعلى انفسكم صلته او خبر مبتدا محذوف تقديره
ذلكم متاع الحياة الدنيا وعلى انفسكم خبر بغيكم ولما قال تعالى يا ايها الناس
انما بغيكم على انفسكم متاع الحياة الدنيا اتبعه بمثل عجيب ضربه لمن يبغي
في الدنيا ويغتر الصنا ويشتد تمسكه بها ويتوى اعراضه عن امور الاخرة
والتاهب بقوله تعالى انما مثل الحياة الدنيا اي حالها العجيبة في سرعة
تقضيها وذهاب نعيمها بعد اقبالها واغترار الناس بها والمثل قول سائر
يشبه فيه حال الثاني بالاول كما نزلنا وحقق امره وبينه بقوله تعالى من
السما فاختلط به اي بسببه نبات الارض اي اشتبك بعضه ببعض والاختلاط
تداخل الاشيا بعضها في بعض مما يأكل الناس من الحبوب والثمار ونحو ذلك ومما
يأكل الانعام من الحشيش ونحوه حتى اذا اخذت الارض زخرفها اي حسنها وبهجتها
من النبات وازينت باظهار الوان زهرها من ابيض واصفر واحمر وغير ذلك
من الزهور كالورد اذا اخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها وتزينت
بغيرها من الوان الزين واصل ازينت تزينت ابدلت التا زايا وادغمت في
الزاي وظن اهلها اي تلك الارض انهم قادرون عليها اي متمكنون من تحصيل
جذاذها وحصادها اتيها امرنا اي قضاؤنا من البرد او كثر المطر او غيره ليلا
او نهارا اي في الليل او في النهار فجعلناها اي زرعها حصيدا كالمحصود بالمناجل
وقوله تعالى كان لم تغن اي كانها لم تكن بالامس تلك الزروع
والاشجار قائمة على ظهر الارض وحذف المضاف من فجعلناها ومن كانها لم

تغن

تغن للمبالغة تشبيه تشبيه لحياة الدنيا بهذا النبات يحتمل وجوها الاول
انحاقيته هذه الدنيا كحاقية هذا النبات الذي حين عظم الرجا في الانتفاع
به وقع اليأس عنه لان الغالب ان المتمسك بالدنيا اذا وضع قلبه عليها وعظمت
رغبته فيها يأتيه الموت وهو معنى قوله تعالى حتى اذا فرحوا بما اوتوا اخذناهم
بغتة فاذا هم مبلسون اي خاسرون الدنيا وقد انفقوا اعمارهم فيها وخسروا
من الاخرة مع انهم يوجهون الى الثاني انه تعالى بين ان كل ما يحصل لذلك الرجل
عاقبة محمودة فكذلك المغتر بالدنيا المحب لها لا يحصل له عاقبة محمودة مع ان
تحمد عاقبة المنافع التي تحصل فيها مخلوطة بالمضار والمتاعب فان سعادة
الدنيا خالصة عن الافات بل هي ممزوجة بالبليات والاستيلا عليها
ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من طلب ما لم يخلق انقطع نفسه لم يرزق
فقيل يا رسول الله وما هو قال سرور يوم بتمامه الثالث ان مالكه ذكره البقا
لعمرها بانقلاب النفس وكذا الروح وعلق قلبه عن الانقطاع بها فاذا حصل
ذلك السبب المهلك صار العنا الشديد الذي تحمله في تحصيلها تحاملا في الماضي
سببا لحصول الشقا الشديد له في المستقبل وهو ما يحصل له في قلبه من تحسر
فكذلك حال من وضع قلبه على الدنيا واتعب نفسه في تحصيلها فاذا ماتت وفاتته
كلها فاذا صار العنا الذي تحمله في تحصيل اسباب الدنيا سببا لحصول الشقاء
العظيم له في الاخرة كذلك اي مثل هذا التفصيل الذي ذكرناه نفصل الايات اي نبينها
لقوم يتفكرون لانهم المنتفعون بها والمائلون تعالى الغافلين عن الميل الى
الدنيا بالمثل السابق زعمهم في الاخرة بقوله تعالى والله يدعو اي يحث عباده
على سبيل التجدد والاستمرار بالمدعوين الى دار السلام قال قتادة السلام
هو الله ودار له الجنة وسمي سبحانه وتعالى بالسلام لانه واجب الوجود لذاته
فقد سلم من الفنا والتغير وسلم في احتياجه في ذاته وصفاته من الافتقار
الى الغير وهذه الصفة ليست الا لله سبحانه كما قال تعالى والله الغني وانتم الفقرا

وقال تعالى يا ايها الناس انتم الفقراء الى الله وقيل السلام بمعنى السلامة وقيل المراد
بالسلام الجنة وسميت الجنة دار السلام لان اهلها يحيي بعضهم بعضا بالسلام
والملائكة يسلمون عليهم قال الله تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام
عليكم ومن كمال رحمته وجوده وكرمه على عباده ان دعاهم الى الجنة التي هي
دار السلام وفيه دليل على انها ما لا عين رات ولا اذن سمعت ولا خطر
على قلب بشر لانه العظيم لا يدعو الا الى عظيم ولا يوصف الا عظيما وقد وصف
الله تعالى الجنة في كثير من آيات كثيرة اي من كتابه وعلى ألسنة رسله ملائكته
الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو ما يمر فقالوا ان صاحب هذا المنزل كمثل
رجل بنى دارا وجعل فيها ما يليق وبعث مناديا يدعو الناس فمن اجاب الداعي دخل
الدار واكل من الذي يليق ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من ذلك شيئا
والدار الجنة والداعي محمد صلى الله عليه وسلم والله يهدي من يشاء من عباده
الى خلق في قلبه من الهداية الى صراط مستقيم وهو دين الاسلام ثم سبحانه
وتعالى بالدعوة اولا اظهارا للحجة وخص بالهداية ثانيا اظهارا للفضل
لان الحكم له في خلقه وقال ابن عباس الجنة حاجته الدعوة عامة والهداية خاصة
بل الهداية عامة والصحبة خاصة بل المحبة عامة والوصال خاص وقيل
يدعو بالآيات في الدنيا الى الجنة بالمعارف وقيل الدعوة لله والهداية
من الله وقال بعضهم لا تنفع الدعوة لمن لم يسبق له من الله للذين احسنوا
اي بالايمان الحسنى في الجنة وزيادة وفي النظر اليه تعالى في الآخرة كما جاء في الحديث
الصحيح اذا دخل اهل الجنة الجنة ونودوا يا اهل الجنة فيكشف الحجاب فينظرون
اليه فوالله ما اعطاهم الله شيئا احب اليهم منه وهي الزيادة في كشافه قال
في هذا وزعمت المعتزلة والحجرة لان المعتزلة ينكرون الرؤية ويرد عليهم
قوله الله تعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة فاثبت الله لاهل الجنة امرين
احدهما النظارة وهي حسن الوجوه وذلك من نعيم الجنة والثاني النظر الى الله

تعالى

تعالى وعن ابن عباس رضي الله عنهما الحسنى الجنة والزيادة عشر امثالها
وعن الحسن عشر امثالها الى سبعمائة ضعف وعن مجاهد الزيادة مغفرة من
الله ورضوان وعن يزيد بن شجرة الزيادة اذ عن السحابة باهل الجنة فتقول ما
تريدون اذا اعطيكم فلا يريدون شيئا الا اعطيتهم ولا مانع من ان تفسر الزيادة
بذلك كله اذ لا تنافي فيها والفضل واسع ولا يرهق اي يغشى وجوههم قتر اي
سواد ولا ذلة اي كآبة وكسوف يظهر منه الانكسار والهوان اولئك اي
هؤلاء الذين وصفهم العدل منهم اصحاب الجنة وقوله تعالى هم فيها خالدون اشارة
الى كونهم في امنة من الانقطاع ولا زاله فيها ولا انقراض بخلاف الدنيا
وزخارفها ولما بين تعالى حال الفضل فيمن احسن بين حال العدل فيمن اساء فقال
تعالى والذين كسبوا السيئات اي الشرك جزاء سيئة منهم بمثلها بعدل الله من
غير زيادة وفي ذكر السيئة اشارة الى الفرق بين السيئات والحسنات لان الحسنات
بفضل الله تعالى تعطى لعاملها من الواحد الى العشرة الى السبعمائة الى اضعاف كثيرة
تفضلا منه تعالى وتكرما واما السيئة فانه يجازي عليها بمثلها عدلا منه
تعالى وترهقهم اي تغشاهم ذلة عكس اهل الجنة ما لهم من الله من عاصم اي
مانع يمنعهم من عذاب الله اذا انزل بهم كانما اغشيت البست وجوههم قطعا
من الليل مظلما لفرط سوادها وظلمتها وقرا ابن كثير والكسائي بسكون الطاء
اي جزاء والباقون بفتحها جمع قطعة اي جزاء اولئك اي هؤلاء الاشقياء اصحاب
النار هم فيها خالدون اي لا يتمكنون من مفارقتها واذكر يوم نحشرهم اي
الذي يقين الناجين والهالكين الدابين منهم والمعبودين من كل جانب وناحية
الى موقف الحساب حالكونهم جميعا لا يتخلف منهم احد وهو يوم القيمة ولحشر
بجمع بكره الى موقف واحد ثم نقول للذين اشركوا مكانكم اي الزموا مكانكم
لا تبرحوا منه حتى تنظروا ما يفعل بكم وقوله تعالى انتم تاكيد للضمير المستتر في
الفعل المقدر ليعطف عليه وشركاؤكم اي من كنتم تعبدونهم من دون الله

فرقنا اي فرقنا بينهم اي بين المشركين وشركايهم وقطعنا ما كان بينهم من الوصل
في الدنيا وذلك حين تبرأ كل معبود من دون الله ممن عبده وقيل فرقنا بينهم
وبين المؤمنين كما في آية وامتازوا اليوم ايها المجرمون والاول انسب بقوله تعالى
وقال شركاؤهم لهؤلاء المشركين ما كنتم ايانا تعبدون اي انما كنتم تعبدون
الشياطين حيث امروكم ان تتخذوا لله اندادا فاطعتموهم واختلفوا في المراد
بهؤلاء الشركاء فقال بعضهم الملائكة واستشهدوا بقوله تعالى ويوم نحشرهم
جميعا ثم نقول للملائكة اهؤلاء اياكم كانوا يعبدون ومنهم من قال هي الاصنام
والدليل عليه ان هذا الخطاب مستمر على الوعيد وذلك لا يليق بالملائكة
اكثر بني وسموا شركاء لانهم جعلوا نصيبا من اموالهم لتلك الاصنام حضوصوهم
شركاء لانفسهم في تلك الاموال ثم اختلفوا في هذه الاصنام كيف ذكرت
هذا الكلام فقال بعضهم ان الله تعالى خلق الحياة والعقل والنطق فيها فقدرة
على ذكر هذا الكلام وقال اخرون ان الله تعالى خلق فيها الكلام من غير ان يخلق
فيها الحياة حتى يسمع فيها ذلك الكلام والاول اظهر لان ظاهر قوله تعالى
وقال شركاؤكم يقتضي ان يكون فاعل ذلك القول هو الشركاء فان قيل
اذا احياها الله لم يبقها او يقال احيت بان الكلام يحتمل ان الله تعالى
يفعل في خلقه ما يشاء واحتمال القيمة غير معلوم الا القليل الذي اخبر الله تعالى
عنه في القرآن وعلى لسان انبيائه وقال بعضهم المراد بهؤلاء الشركاء كل
ما عبد من دون الله من انسي وملك وجان وشمس وقمر وصنم وهذا
اظهر وعلى هذا والاول سموا شركاء لان الله تعالى لما خاطب العابدين
والمعبودين بقوله تعالى مكانكم انتم وشركاؤكم في هذا الخطاب وكما قال في سورة
سبا وبرزوا لله جميعا فقال الذين استكبروا للذين استضعفوا بل كنا لكم تبعا فهل انتم مغنون
عنا نصيبا من النار فقال الله تعالى كفى بالله شهيدا بيننا وبينكم فانه تعالى العالم بكذب هذا الحال ان كنا عن عبادتكم لغافلين اي لم نامرهم
بها ولم نعلم بها وعلى القول بانها الاصنام فتقول ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل

لانها جمادات لا حس لها بشيء ولا شعور البتة تكذيبا لهم في الحقيقة
واللام في الفارقة بين الحقيقة والكاذبة هنالك اي في ذلك الوقت من
المكان العظيم الاهوال المتوالي الزلازل تبلوا اي تختبر كل نفس طائعة وعاصية
ما اسلفت اي ما قدمت من عمل فتعين نفعه وضره وقيل اي تعاين ما كان
وقرا حمزة والكسائي تتلوا اي تقرأ ذكر ما قدمت من اوامر التلو وتتبع
كل شخص عمله الى الجنة او الى النار والباقون بعد التاء بالموحدة من
البلوى وهو الاختبار وردوا الى الله اي الى جزائه اياهم عما
فلم يكن لهم قدرة على شيء غيره مولاهم الحق اي ربهم ومتولي امرهم على الحقيقة
ولا التفات الى سواه من تلك الاباطيل بل انقطع رجاؤهم من كل ما يدعونه
في الدنيا وهو المراد بقوله تعالى وضل عنهم اي ذهب وبطل وضاع ما كانوا
يفترون اي يتعمدون كذبه من ان معبوداتهم شركاء وتبعثوا في ذكره المقام
الحق ليعلم كل احد ان ما كانوا يفترون باطلا غير حق وفي هذه الآية دليل
الدلالة على فساد هذا المذهب بحجة الاولى قوله تعالى قل اي يا محمد لهؤلاء
المشركين من يرزقكم من السماء بالمطر والارض بالنبات فاخص الرزق في
ذلك بما من السماء فينزل الامطار وما من الارض فلا شك في هذا اما ان يكون
نباتا او حيوانا اما النبات فلا ينبت الا من الارض وما الحيوان فهو يحتاج اثم
الى الغذاء ولا يمكن ان يكون غذاء كل حيوان حيوانا آخر والا لزم الذهاب الى
ما لا نهاية له وذلك محال ثبت ان اعداد الحيوانات يجب انتهاؤها الى
النبات وثبت ان تولد النبات من الارض فثبت القطع ان الارزاق المختصة
اللائقة من السماء والارض ام من يملك السمع اي الاسماع والابصار اي من يستطيع
خلقها وتسويتها على الحد الذي سوى بها عليه من الفتحة العجيبة عن على رضي
الله عنه كان يقول سبحان من ثقب بمنخرين واسمع بعظم وانطق بلحم اي تجعلها
او يجعلها من الآفات مع كثرتها في المدة الطوال وهما لطيفان يؤديهما ادنى

بني بكلا يته وحفظه **ومن يخرج الحي من الميت** كان يخرج الانسان من النطفة
والطائر من البيضة **ويخرج الميت من الحي** كان يخرج النطفة من الانسان
ويخرج البيضة من الطائر وقيل المراد ان يخرج المومن من الكافر والكافر من
المومن فرقا نا فع وحفص وحمزة والكسائي حيث في الموضعين بعد اليم بكسر الياء
المشددة والباقون بعد اليم بسكون الياء **ومن يدبر الامر** اي ومن يلي تدبير
امر الخلائق وهو تعميم بعد تخصيص وذلك لان اقسام تدبير الله تعالى في
العالم العلوي وفي العالم السفلي وفي عالم الارواح والاجساد امور لا نهاية
لها وذكر كلها كما لا يخفى فلما ذكر بعض تلك الافاصيل عقبها بالكلام الكلي
ليدل على الباقي ثم بين تعالى ان الرسول صلى الله عليه وسلم اذا سألهم
عن مدبر بعض الاحوال **فسيقولون الله** افلا يتدبرون على ما كابرة والعناد
في ذلك لغاية وضوحه واذا كانوا يقرون بذلك **فقل لهم** يا محمد **افلا تتقون**
الشرك مع اعترافكم بانه كل الخيرات في الدنيا والاخرة انما تحصل بي رحمة
الله واحسانه **فذلكم الله ربكم الحق** اي الثابت ربوبيته ذاتا لا ريب فيه
واذا ثبت ان هذا هو الحق وجب ان يكون ما سواه باطلا لان النقيضين
يمتنع ان يكونا حقين وجب ان يكون ما سواه باطلا كما قال تعالى **فاني** اي
فكيف ومن اي جهة **تصرفون** اي تعدلون عن عبادته وانتم تقرون بانه الله
هو الحق **كذلك** اي كما حقت الربوبية لله تعالى اذا ان الحق بعد الضلال
او انتم تصرفون عن الحق **حقت كلمة ربك** في الازل **على الذين فسقوا** اي
تمردوا في كفرهم وخرجوا عن حد الاستصلاح وقوله تعالى **انهم لا يومنون**
بدل من الكلمة اي حقت عليهم انتفاء الايمان وعلم الله منهم ذلك واريد
بكلمة الله العدة بالعذاب وهو لاجل ان جميع ما في الاية وانهم لا يومنون
تفصيل يعني لانهم لا يومنون اوذلك تفسير لكلمته التي حقت وقرا نافع
وابن عامر كلمة بالالف بعد الكاف على الجمع والباقون بغير الف بعد الكاف على

الافراد

الافراد الحجة الثانية قوله تعالى **قل** اي يا محمد لهولاء **هل من شركائكم**
من زعمتم انهم شركاء واشركتموهم في اموالكم من الملائكة وسائر خلقه **من يبدو الخلق** كما
بدا به ليصح لكم ما ادعيتم من الشركة **ثم يعيده** كما كان فان قيل هم غير معترفين
بالاعادة فكيف احتج عليهم تعالى بها كالابتدا في الالزام قيل آجيب بانها
لظهورها كانها واذا لم يقروا بها وضعت موضع ما ان دفعه دافع كان
مكابرا فاذا الدلائل البين الذي لا مدخل للشبهة فيه دلالة على انهم في
انكارهم لها منكرون امرا محسوسا معترفا بصحته عند العقل ولذلك امر
رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يجيب عنهم في الجواب بقوله تعالى **قل الله**
يبدو الخلق ثم يعيده كما كان فان قيل هم غير معترفين بالاعادة
لانا لجاجهم لانه عسير ان يعترفوا بها فاني يكلفون **توفكون** عن عبادته مع
مع قيام الدلايل فان قيل ما الفائدة في ذكر هذه الحجة على سبيل السوال
والاستفهام آجيب بان الكلام اذا كان ظاهرا جليا ثم ذكر على سبيل
الاستفهام كان ذلك ابلغ واوقع في القلب الحجة الثالثة قوله تعالى **قل**
يا محمد لهم **هل من شركائكم من يهدي الى الحق** بنصب الحاء وخلق الاهتدا
وارسال الرسل وكانوا جاهلين بالجواب الحق في ذلك او معاندين امر
الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ان يجيب بقوله تعالى **قل الله**
الذي لا احاطة الكاملة **يهدي للحق** من يشا لا احد ممن زعمتموه شركاء
فالاستفهال بني منها بعبادة او عن بها جماد محض قال الزجاج يقال هديت
الى الحق وهديت للحق بمعنى واحد فاسد تعالى ذكرهاتين اللغتين في قوله
تعالى من يهدي الى الحق وفي قوله تعالى قل الله يهدي للحق وقوله
تعالى **افمن يهدي الى الحق** اي وهو تعالى **احق ان يتبع ام من لا يهدي** اي يهتدي
الا ان يهدى احق ان يتبع استفهام تقرير وتوبيخ اي الاول احق **فما لكم**
كيف تحكمون هذا الحكم الفاسد من اتباع من لا يستحق الاتباع وقوله تعالى

وما يتبع اكثرهم في تفسيره وجهان الاول وما يتبع اكثرهم في اقرارهم بالله
تعالى الا ظنا لانه قول عن مستند الى برهان عندهم بل سمعوه من اسلافهم
الثاني وما يتبع اكثرهم الا ظنا في قولهم للاصنام الهة وانما شفعاء
عند الله الا الظن حيث قلدوا فيه اباءهم قال الرازي والقول الاول اقوى
لانا في القول الثاني محتاج الى تفسير الاكثر بالكل ان الظن لا يغني من
الحق في المطلوب فيه العلم شيئا من الاعتداد لت هذه الاية على من كان ظانا
في مسايل الاصول وما كان قاطعا لا يكون مومنا فان قيل فقول الظن
السنة اناس مومن ان شاء الله يمنع القطع فوجب ان يلزمهم اكثر اجاب
الرازي بان هذا ضعيف من وجوه الاول ان مذهب الشافعي رضي الله
عنه ان الايمان عبارة عن مجموع الاعتقاد والاقرار والعمل فالشك
حاصل في ان هذه الاعمال تلزمني موافقة لامر الله تعالى والشك في
احد اجزاء الماهية لا يوجب الشك في تمام الماهية الثاني ان الغرض
من قوله ان شاء الله بقاء الايمان عند الخاتمة الثالث الغرض هضم النفس
وكسرها ان الله عليم اي بالغ العلم بما يفعلون اي مما اتباعهم الظن وتكذيبهم
الحق اليقين فيجازيهم عليه وقوله تعالى وما كان عطف على قوله ما كان لي
ان ابدله من تلقاء نفسي اي فهو خ مقول القول اي قال لهم ذلك الكلام هذا
القران اي الجامع لكل جزء مع التاديه باساليب الحكمة المعجز لجميع الخلق
ان يفترى اي افتراء من دون الله اي غيره لان المفتري هو الذي ياتي به البشر
وكفار مكة زعموا ان محمدا صلى الله عليه وسلم اتى بهذا من عند نفسه
فاخبر الله تعالى ان هذا القران وحي الله عليه وانه مبراء عن الافتراء
والكذب بان لا يقدر عليه احد الا الله ثم ذكر ما يوكد هذا بقوله تعالى ولكن
انزل تصديق الذي بين يديه اي قبله من الكتب الذي انزلها على انبيائه
كالتوراة والانجيل فثبت بذلك انه وحي من الله انزله على نبيه صلى

الله عليه وسلم وانه معجز له فانه كان اميا لا يقرء ولا يكتب ولم يجتمع باحد من
العلماء مرارا نه صلى الله عليه وسلم اتى بهذا القران العظيم المعجز وفيه اخبار
الاولين وقصص الماضين وقبل تصديق الذي القران بين يديه من القيمة والبعث
وتفصيل الكتاب اي تبيين ما كتب الله من الاحكام وغيرها لا ريب اي لا شك
فيه وقوله تعالى من رب العالمين متعلق بتصديق او بانزل المحذوف
ام اي بل يقولون افتراه اي اختلقه محمد ومعنى الهمزة فيه للانكار قل
اي قل لهم يا محمد ان كان الامر كما يقولون فاتوا بسورة مثله في الفصاحة
والبلاغة وحسن النظم فانتم عرب مثله في البلاغة والفطنة فان قيل
هل تناول ذلك جميع السور الصغار والكبار او يختص بالسور الكبار
اجيب بان هذه الاية في سورة يونس وهي مكية فيكون المراد مثل هذه
السورة فلا منا اقرب ما يمكن ان يشار اليه هكذا اجاب الرازي والاولى
التناول لجميع السور فانهم لا يقدرون ان ياتوا باقصر سورة فان قيل
لم قال في البقرة بسورة من مثله وهنا بسورة مثله اجيب بانه صلى
الله عليه وسلم لم يقرا ولم يكتب ولم يتعلم لاحد فقيل في سورة البقرة فاتوا
بسورة من مثله بنا على ان الضمير يرجع للنبي صلى الله عليه وسلم
اي فليات انسان يساوي محمدا صلى الله عليه وسلم في عدم مطالعة
الكتب وعدم الاشتغال بالعلوم بسورة تساوي هذه السورة وحيث
ظهر العجز ظهر المعجز فهذا الايد على ان السورة في نفسها معجزة ولكنه
يدل على ان ظهور مثل هذه السورة من انسان مثل محمد صلى الله عليه
وسلم في عدم التعلم والتتلمذ معجز لكن بين تعالى في هذه السورة ان تلك
السورة في نفسها معجزة فان الخلق وان تتلمذوا وتعلموا وطالعوا وتفكروا
لا يمكنهم الاتيان بمعارضة سورة واحدة من هذه السورة هو المراد
من قوله تعالى وادعوا من استطعتم اي واستعينوا بمن امكنكم ان تستعينوا

به من دون الله اي غيره فانه تعالي وحده قادر علي ذلك ان كنتم صادقين اي
في اني اتيت به من عندي لان العاقل لا يجزم بشيء الا اذا كان عنده منه مخرج
وذلك لا يكون الا عن دليل ظاهر وسلطان قاهر وبا هر تنبيه مراتب تحدي
رسول الله صلي الله عليه وسلم بالقرآن ستة اولها انه تحداهم بكل القرآن
كما قال تعالي قل لئن اجتمعت الانس والجن علي ان ياتوا بمثل هذا القرآن
لا يا تون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ثانيها انه تحداهم بعشر سور منه
فقال تعالي فاتوا بعشر سور مثله مفتريات ثالثها انه تحداهم بسورة واحدة
كما قال تعالي فاتوا بسورة من مثله رابعها انه تحداهم بحديث مثله ان في
تلك المراتب الاربعة كان يطلب منهم ان يا تي بما يعارضه رجل يساوي رسول
الله صلي الله عليه وسلم في عدم التعلم والتعلم ثم في هذه السورة طلب
منهم معارضة سورة واحدة من اي انسان سواء تعلم العلوم او لم يتعلمها
سادسها ان في المراتب المتقدمة تحدي واحد من الخلق وفي هذه المرتبة
تحدي جميعهم ويجوز ان يستعين البعض بالبعض في الاتيان بمثله المعارضة
كما قال تعالي وادعوا من استطعتم من دون الله وههنا آخر المراتب فتحدا
مجموع الدلايل التي ذكرها الله في اثبات ان القرآن معجز ثم ان الله
تعالي ذكر السبب الذي لاجله كذبوا بالقرآن فقال تعالي بل كذبوا اي
اوقعوا التكذيب الذي لا تكذيب اشنع منه مسرعين في ذلك بما لم
يحيطوا بعلمه اي القرآن اول ما سمعوه قبل ان يتدبروا اياته من غير
شبهة اصلا بل عنادا وطغيانا ونفورا مما يخالف دينهم ومنهم من باب من
جهل شيا عاداه والاحاطة ادراكها هو كالحائط حول الشيء واحاطة
العلم بالشيء العلم به من جميع وجوهه ولما يا تهم اي الي الان من تكذيبهم
تاويله اي تاويل ما فيه من الاخبار بالغيوب وعاقبة ما فيه من الوعيد
حتي يتبين لهم انه صدق ام كذب ومعني التوقع في لما انه قد علم لهم في

بالاخرة اعجاز ما كرر عليهم التحدي فجربوا قرائحهم في معارضته فعجزت وضعفت
دونها ومع هذا لم يقلعوا عن التكذيب بل ازدادوا عنادا كذلك اي مثل تكذيبهم
هذا التكذيب العظيم في الشناعة فلا تذهب بك الحيرة كذب الذين من قبلهم
اي من كفار الامم الماضية فظلموا فاهلكناهم بظلمهم فانظر يا محمد كيف كان
عاقبة الظالمين بتكذيب الرسل اي آخر امرهم من الهلاك فكذلك يهلك
من كذبك من قومك وفي ذلك تسلية للنبي صلي الله عليه وسلم
ويحتمل ان يكون الخطاب لكل من يصح منه التامل فانظر ايها الانسان
كيف كان عاقبة من ظلم فاحذر ان تفعل مثل فعلهم ومنهم اي من قومك
يا محمد من يؤمن به اي القرآن اي يصدق به في نفسه ويعلم انه حق ولكنه يعاند
بالتكذيب ومنهم من لا يؤمن به في نفسه لعناده وقلة تدبره او منهم
من يؤمن به في المستقبل بان يتوب عن الكفر ويبدله بالايمان ومنهم
من يصر ويستمر علي الكفر وانما فسرت هذه الاية بهذين التاويلين لان
كلمة من تصلح للحال والاستقبال وربك اعلم بالمفسدين اي العاندين
علي التفسير الاول والباصرين علي التفسير الثاني وفي ذلك تهديد لهم
وان كذبوك اي دان يكذبوك يا محمد بعد الزام الحجة فقل لهم لي عملي من
الطاعة وجزائي بها ولكم عملكم من الشرك وجزاءه اي فتبراء منهم فقد
اعذرت والمعني لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم حقا كان او باطلا انتم بريئون
مما اعمل وانا بريء مما تعملون لا تؤاخذ في بعملي ولا اواخذكم بعملكم
واختلف في معني ذلك فقيل معني الاية الزجر والردع وقيل بل معناه
استمالة قلوبهم وقال مقاتل والكلبي هذه الاية منسوخة باية السيف
قال الرازي وهذا بعيد لان شرط التناسخ ان يكون رافعا لحكم المنسوخ
ومدلول هذه الاية اختصاص كل واحد بافعاله وثمراتها فعاله من الثواب
والعقاب وذلك لا يقتضي حرمة القتال وآية القتال ما رفعت شيا من

مدلولات هذه الاية فكان القول بالنسخ باطلا لهذا ولا ينبغي هذه المبالغة
مع مثل من ذكر وقد تبعهما جماعة من المفسرين ولما فسر الله تعالى الكفار
الذي نسميهم منهم من يكون في نهاية البغض له والعداوة وغاية النفرة
عن قبول دينه ومنهم من لا يكون كذلك فوصف القسم الاول في قوله
تعالى ومنهم اي من هؤلاء المشركين من يستمعون اليك اذا قرات القران
وعلمت السرائر باسمائهم الظاهرة ولا ينفعهم استماعهم لشدة عداوتهم لعلمهم
لذلك فان الانسان اذا قوي بغضه لاخر وعظمت نفرته منه صار
نفسه متعرضة عن جميع جهات تحاسن كلامه افانت تسمع الصم اي
لا تقدر على اسماعهم ولو كانوا مع الصمم لا يعقلون اي لاه الاصم العاقل
ربما تفرس واستدل اذا وقع في صماخه دوي الصوت فاذا اجتمع
سلب السمع والعقل جميعا فقد تم الامر فلذلك انك لا تقدر على اسماع
من اصمه الله تعالى قلبه فان الله تعالى صرف قلوبهم عن الانتفاع بما
يسمعونه ولم يوفقهم لذلك فشبههم بالصم في عدم الانتفاع بما يتلى
عليهم ثم وصف القسم الثاني بقوله تعالى ومنهم من ينظر اليك اي
بما يثبت دلائل نبوتك ولا يعد قوتك افانت تهدي العمي اي تقدر
على هدايتهم ولو كانوا مع العمى لا يبصرون اي لا بصيرة لهم لان الاعمى
الذي في قلبه بصيرة قد يتحدس ويقطن فاما العمى مع العمى فلا يتحدس
البتة فلا تقدر على هداية من اعمى الله تعالى بصيرته فهؤلاء في اياس
من ان يقبلوا ويعدون كالصم والعمي الذين لا عقول لهم ولا بصائر
فلا تقدر على اسماعهم وهدايتهم الا الله تعالى تنبيه اختلف في ان
السمع افضل ام البصر فمنهم من قال السمع وهو على ذلك بما ذكرنا
تقدم في الاية ومنها ان القوة السامعة تدرك المسموع من جميع
الجوانب والقوة الباصرة لا تدرك المرئي الا من جهة واحدة وهي المقابل

ومنها

ومنها ان الانسان انما يستفيد العلم من التعلم من الاستاذ وذلك لا يكون
الا بقوة السمع ومنها ان الانبياء عليهم الصلاة والسلام يراهم الناس ويشهدون
كلامهم فتبوتهم ما حصلت بسبب ما معهم من الصفات المرئية وانما
حصلت بسبب ما معهم من الاحوال المسموعة وهو الكلام وتبليغ الشرايع
وبيان الاحكام ومنها ان المعنى الذي يمتاز به الانسان من سائر الحيوانات
هو النطق بالكلام وانما ينتفع بذلك بالقوة السامعة فتعلق السمع
بالنطق الذي يحصل به شرف الانسان وتعلق البصر بادراك الالوان
والاشكال وذلك امر مشترك فيه بين الناس وبين سائر الحيوانات
ومنهم من قال البصر راجح بامور منها ان آلة القوة الباصرة هي النور
وآلة القوة السامعة هي الهواء والنور اشرف من الهواء ومنها ان كمال
الروح يحصل بالبصر وبذهابه عيبه وذهاب السمع لا يورث الانسان عيبا
في جمال وجهه والعرب تسمي العين الكريمة ولان تلف السمع يمثل
هذا وفي الحديث يقول الله تعالى من اذهبت كريمتيه فصبر واحتسب لم
ارض له ثوابا دون الجنة ومنها انهم قالوا في المثل المشهور ليس الخبر
كالعيان بيان وذلك يدل على ان اكمل وجوه الادراكات هو الابصار
ومنها ان كثيرا من الانبياء سمع الله واختلفوا في انه هل راه منهم احد
منها ان الله تعالى لما امر موسى عليه السلام بان يسمعه كلامه من
غير سبق سؤال والتماس فلما طلب الرؤية قال لن تراني وذلك يدل
على ان حال الرؤية اعلى من حال السماع وهذا هو الظاهر والحكم لله
تعالى على اهل الشقاوة بالشقاوة بقضائه وقدره السابق فيهم اجرى
الله تعالى ان تغير الشقاوة عليهم ما كان ظلما منه بقوله تعالى ان الله
لا يظلم الناس شيئا لانه تعالى في جميع احواله متفضل وعادل يتصرف
في ملكه كيف شاء وكما يخلق كلهم عبيده وكل من تصرف في ملكه بالفضل والعدل

لا يكون ظالما وانما قال تعالى ولكن الناس انفسهم يظلمون لان فعلهم منسوب
اليهم بسبب الكسب وان كان فعل الله تعالى ويدل عليهم في ذلك دليل
على ان للعبد كسبا وانه ليس مسلوب الاختيار كما زعمته الجبرية وقرا حمزة
والكسائي يكذبون بكسر الذال مخففة ورفع الباء والباقون بفتح الذال مشددة
ونصب الباء ولما وصف تعالى هؤلاء الكفار بقلة الاصغاء وترك التدبر
اتبعه بالوعيد بقوله تعالى ويوم نحشرهم اي واذكر يا محمد يوم نحشر هؤلاء
المشركين لموقف الحساب واصل الحشر اخراج الجماعة عن مكانهم
كانه اي كانهم لم يلبثوا في دنياهم والجملة في موضع الحال من ضمير نحشرهم
البارز اي مشبهين بمن لم يلبثوا الا ساعة حقيرة من النهار اي يستقصرون
مدة لبثهم في القبور للدنيا وفي القبور لهول ما يرون يتعارفون بينهم
اي يعرف بعضهم بعضا اذا بعثوا ثم ينقطع التعارف لشدة الاهوال والجملة
حال مقدرة متعلق الظرف والتقدير يتعارفون يوم نحشرهم وقوله
تعالى قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله اي بالبعث يحتمل وجهين الاول ان يكون
على ارادة القول اي يتعارفون بينهم قائلين ذلك الثاني ان يكون كلام
الله تعالى فيكون شهادة من الله تعالى عليهم بالخسران والمعنى اذا باعوا
آخرتهم بالدنيا فقد خسروا لانه اعطى الكثير الشريف الباقي واخذ القليل
الخسيس الفاني وما كانوا مهتدين اي الى رعاية مصالح التجارة وذلك
لانهم اعتزوا بالظاهر وغفلوا عن الحقيقة فصاروا كمن راى زجاجة
خسيسة فظن انها جوهرة نفيسة فاشتراها بكل ما ملكه فاذا عرضها على
الناقدين خاب سعيه وفات املهم ووقع في حرقة الروع وعذاب
القلب وقوله تعالى وامافينك ادغام ان الشرطية في ما الزائدة نرينك يا محمد
بعض الذي نعدهم به من العذاب في حياتك وجواب الشرط محذوف اي
فذاك او نتوفينك قبل ان نريك ذلك الوعد في الدنيا فانك ستراه

في الاخرة

في الاخرة وهو قوله تعالى فالينا بعد البعث مرجعهم ثم نريك هناك ما هو
اقر لعينك واسر لقلبك وقوله تعالى ثم الله شهيد على ما يفعلون فيه وعيد
وتهديد لهم اي انه تعالى شهيد على افعالهم التي فعلوها في الدنيا فيجازيهم
عليها يوم القيمة والمعنى تعالى حال نبيه صلى الله عليه وسلم مع قومه بين
انحال كل الانبياء عليهم الصلاة والسلام مع اقوامهم كذلك بقوله تعالى
ولكل امة اي من الامم التي قد خلت قبلك رسول يدعوهم الى الله تعالى وقوله
تعالى فاذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط فيه اضمار تقديره فاذا جاء رسولهم
وبلغهم ما ارسل به الى قومه فكذبه قوم وصدقه اخرون قضي اي حكم وفصل
بينهم بالقسط اي العدل وفي وقت هذا القضاء والحكم بينهم قولان احدهما
الله في الدنيا بان يهلك الكافرين وينجي رسولهم والمومنين وقوله تعالى وما
كنا معذبين حتى نبعث رسولا والثاني في الاخرة وذلك ان الله تعالى اذا
جمع الامم يوم القيمة للحساب والفصل بين المومن والكافر والطائع
والعاصي جيء بالرسل لتشهد عليهم لقوله تعالى وجيء بالنبيين والشهداء
وقضي بينهم واكرر ذكره للمبالغة في اظهار العدل ونحوه قوله تعالى وهم
لا يظلمون في جزاء اعمالهم شيئا بل يجازي كل واحد على قدر عمله فكذا
يفعل بمن كذب بهؤلاء ويقولون متى هذا الوعد الذي تعدنا به يا محمد من نزول
العذاب او من قيام الساعة وانما قالوا ذلك على وجه التكذيب والاستبعاد
ان كنتم صادقين اي فيما تعدونا به وانما قالوا بلفظ الجمع على سبيل التعظيم
او خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمومنين او ان كل امة قالوا لرسولها
مثل ذلك وهو الموافق لقوله تعالى ولكل امة رسول قال الله تعالى قل
قل لهم يا محمد لا املك لنفسي ضرا من مرض او فقر ادفعه ولا نفعا من صحة
او غنى اجلبه الا ما شاء الله اي الا ما يقدرني عليه فكيف املك لكم حلول العذاب
او قيام الساعة ولا يقدر على ذلك احد الا الله تعالى لكل امة اجل اي مدة

مضروبة اذا جاء اجلهم اي انقضت مدة اعمارهم فلا يستاخرون اي لا تاخرون
عنه ساعة ثم عطف على جملة الشرطية بكاملها ولا يستقدمون اي ولا
يتقدمون اي فلا يستعجلون فان الوفاء بالوعد لا بد منه والسين فيها بمعنى
الوجدان اي لا يوجد لهم المعنى الذي صنع منه الفعل ويجوز ان يكون
المعنى لا يوجد وقت التاخر ولا التقدم وان اعتمدوا في الطلب فيكون في
السين معنى الطلب ويدل الاية على ان احدا لا يموت الا بانقضاء اجله وكذا
المقتول لا يقتل الا على هذا الوجه وقرا قالون والبزي وابو عمرو
باسقاط الهمزة الاولى وسهل ورش وقنبل الثانية وابدل الباقون
حرف مد والباقون بالتحقيق قال الله تعالى قل اي لهم يا محمد ارايتم
ان اتاكم عذابه الذي تستعجلون به بياتا اي في الليل بغتة كما يفعل
العدو او نهارا اي اي وقت اتم فيه مشتغلون بطلب المعاش والكسب
ماذا اي اي شيء يستعجل منه اي من عذابه وعقابه كلمة مكروهة لا تحتمل
شيء منه المجرمون اي المشركون وضع المجرمون موضع المضمر للدلالة
على ان الجرم يسبب ان يتزعوا من مجرم الوعيد الا ان يستعجلوه
وجملة الاستفهام جواب الشرط محذوف وهو تندموا على الاستعجال
او تقرون بالخطاء فيه اثم اذا ما وقع يا جل بكم استعجلتم به اي اشتغلتم بالله
او العذاب وقت نزوله العذاب وهو وقته الميا والهمزة لانكار التاخير
فلا تقبل منكم وقوله تعالى الآن على ارادة القول اي فيقال لهم اذا اريد
وقت نزول العذاب الآن وقد كنتم به تستعجلون تكذيبا واستهزاء
تنبيه اتفق قالون مع ورش على النقل هنا واتفق القراء كلهم على
همزة الوصل التي بعد همزة الاستفهام اذ فيها وجهان وهما البدل
والتسهيل وقوله تعالى ثم قيل للذين ظلموا عطف على قيل المقدر
اي من اية قابلة كانت استهانة بهم وقرا هشام والكسائي باسقاط م

القاف وهو ان تضم القاف قبل الياء والباقون بالكسر ذوقوا عذاب الخلد
اي الذي تخلدون فيه والالتفات بهذه الاشارة الى تراخي ذلك عن الاهلاك
في الدنيا بامكنة في البرزخ والى ان عذابه ادنى من عذاب يوم الدين
هل اي ما تجزون الا بما كنتم تكسبون في الدنيا من الكفر والمعاصي يستنبئونك
اي يستخبرونك يا محمد احق هو اي ما عدتنا به من نزول العذاب وقيام
الساعة وهو استفهام على جهة الانكار والاستهزاء قال الرجبي بن اخطب
لما قدم مكة قل اي لهم في جوابهم اي وربي انه لحق اي كائن ثابت لا بد من
نزوله بكم تنبيه اي بمعنى نعم وهو من ثلاثة احرف القسم ولذلك توصل
بواو في التصديق فيقال اي واسمه ولا ينطق به وحده وما انتم
بمعجزين اي بفائتين العذاب لان من عجز عن شيء فقد فاته ولو ان لكل
نفس ظلمت اي اشركت ما في الارض من الاموال لافتدت به من عذاب
يوم القيمة لم يقبل منها العذاب قوله تعالى ولا يوخذ منها عدل والاسم يغني
واسروا الندامة لما راوا العذاب اي حين عاينوه وابصروه صار راسهم يوم
متحيرين فلم يطيقوا عنه كتمانا ولا صار خاسوي اسرار الندم كما كان في من
ذهب به ليقطع فانه يبقى مبهوتا متحيرا لا ينطق بكلمة وقيل انهم اخلصوا
سد في تلك الندامة ومن اخلص في الدعاء اسره وفيه تبكيت لهم
وباخلاصهم لانهم انما اتوا بهذا الاخلاص في غير وقته بل كان من
الواجب عليهم ان ياتوا به في دار الدنيا وقت التكليف وقيل المراد
بالاسرار الاظهار وهو من الاضداد لانهم انما اخفوا الندامة على الكفر
والفسق في الدنيا لاجل حفظ الرياسة وفي القيمة بطل هذا فوجب
الاظهار وليس هنا ما يخالف فان قيل اسروا جاء على لفظ الماضي والقيمة
من الامور المستقبلة اجيب بانها لما كانت واجبة الوقوع جعل كانه
مستقبل كالماضي وقضي بينهم اي بين الخلائق بالقسط اي بالعدل وهم

لا يظلمون فان قيل هذه الآية مكررة اجيب بان الاولى في القضا
بين الانبيا وتكذيبهم وهذه عامة وقيل بين المومنين والكفار وقيل
بين الرؤساء والاتباع فان الكفار وان اشتركوا في العذاب فلا بد ان يتفاوت
الله تعالى بينهم لانه لا يمتنع ان يكون قد ظلم بعضهم بعضا في الدنيا
وخانه فيكون في ذلك التفاوت تخفيف عذاب بعضهم وتثقيل العذاب
للباقين لان العدل يقتضي ان ينتصف المظلوم ممن ظلمه والجبار
اليه الان يخفف من عذاب المظلوم مني ويثقل في عذاب الظالمين
وقوله تعالى الا ان لله ما في السموات وما في الارض تقرير لقدرته
تعالى على الاثابة والعقاب الا ان وعد الله اي ما وعد به على لسان
نبيه صلى الله عليه وسلم من البعث للجزاء ومن ثواب الطايع وعقاب
العاصي حق لا شك فيه ولكن اكثرهم اي الناس لا يعلمون اي
جاهلون عن حقيقة ذلك فهم باقون على الجهل معدودون مع
البهايم لقصور عقلهم الا ظاهرا من الحياة الدنيا هو اي الذي يعلمه
ما في السموات والارض يحيي ويميت اي قادر على الاحياء والاماته
لا يتعذر عليه شي مما اراد واليه ترجعون بعد الموت للجزاء وقوله تعالى
يا ايها الناس خطاب عام وقيل لاهل مكة قد جاءتكم موعظة من ربكم
اي كتاب فيه ما لكم وعليكم وهو القران وشفا اي دواء لما في الصدور
اي القلوب من داء الجهل لانه اكمل ما عرض للقلب من المرض للبدن
والامراض القلب هي الاخلاق الذميمة والعقايد الفاسدة والجهالات
المهلكة والقرآن من اول هذه الامراض كلها لانه فيه المواعظ والزواجر
والتخويف والترغيب والترهيب والتحذير والتذكير فهو الشفا لهذه
الامراض القلبية وانما خص تعالى الصدر بالذكر لانه موضع القلب
وغيره وهو اعز موضع في الانسان لمكان القلب فيه وهدى من

الضلالة ورحمة اي اكرام عظيم للمومنين لانهم هم الذين انتفعوا به دون
غيرهم واختلف في تفسير قوله تعالى قل بفضل الله وبرحمته فقال
مجاهد وقتادة فضل الله القران ورحمته ان جعلكم من اهله وقال ابن
عباس والحسن فضل الله الاسلام ورحمته القران وعن ابي بن كعب ان
رسول الله صلى الله عليه وسلم تلى قال بفضل الله وبرحمته فقال بكتاب
الله والاسلام وقال ابن عمر فضل الله الاسلام ورحمته تزيينه في قلوبنا
وقيل فضل الله الاسلام ورحمته الجنة وقيل فضل الله القران ورحمته
السنن ولا مانع من ان تفسر الاية بجميع ذلك اذ لا تنافي بين هذه الاقوال
والباء في بفضل الله متعلقة بمحذوف يفسره ما بعده تقديره قل فليفرحوا
بفضل الله ورحمته فبذلك فليفرحوا والتكرير للتاكيد والتقرير ولاجل
اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهم من فنون الملاذ
فحذف احد المفعولين لدلالة المذكور عليه والفاء داخلة لمعنى الشرط
كانه قيل ان فرحوا باي شي فليفرحوا بهما فانه لا مفروح به اولى منهما
هو اي المحدث عنه من الفضل والرحمة خير مما يجمعون اي من حطام
الدنيا ولذاتها الفانية وقرا ابن عامر بالتاء على الخطاب والباقون بالياء
على الغيبة قل يا محمد للكفار مكة ارايتم اي اخبروني ما انزل الله
لكم من رزق اي انه تعالى جعل الرزق منه لا لانه مقدر في السما يحمل
باسباب منها فجعلتم منه اي من ذلك الرزق حلالا وحراما وهو مثل
ما ذكروه من تحريم السايبة والوصيلة والحام ومثل قولهم هذه انعام
وحرث حجر ومثل قولهم هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على
ازواجنا ومثل قولهم ثمانية ازواج من الضان اثنين قل لهم يا محمد
آلله اذن لكم في هذا التحريم والتحليل ام اي بل على الله تفترون
اي تكذبون على الله نسبة ذلك اليه وما ظن الذين يفترون اي

يتعمدون على الله الكذب اي اي شيء ظنهم به يوم القيمة يحسبون ان لا يؤاخذ هم
ولا يجازيهم على اجرامهم ثم بين استفهام بمعنى التوبيخ والتقريع والتهديد ثم
والوعيد العظيم لمن يفتري على الله الكذب ان الله لذو فضل على الناس
بخلق كثيرة لا تحصى منها انزال الكتب مفصلا فيها ما يرضيه وما يسخطه
ومنها ارسال الرسل عليهم الصلاة والسلام ليبينوا ما يحتمله عقول الخلق
منها ومن اطول امهالهم على سوء فعالهم ومنها افاضة العلوم عليهم بالعقل فكان
شكرهم واجبا عليهم ولكن اكثرهم اي الناس لا يشكرون لهذه النعم ولا يستعملون
العقل في دلائل الله تعالى ولا يميلون دعوة انبيائه ولا يستفيدون بالاستماع
كتب الله وقوله تعالى وما تتلوا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وشان
اي عمل من الاعمال وجمعه شؤن والضمير في قوله تعالى وما تتلوا منه
وما للشان لان تلاوة اي قرآن شان من شان رسول الله صلى الله عليه
وسلم بل هو معظم شانه واما التنزيل كما سيقول وما تتلوا من التنزيل
من قرآن لان كل جزء منه قرآن والضمير قيل الذكر يفهم له واما الله تعالى
والمعنى وما تتلوا من الله من قرآن نازل عليك وقوله تعالى ولا تعملون
من عمل اي اي عمل كان منهم للخطاب بعد تخصيصهم بمن هو ريئسهم وهو
النبي صلى الله عليه وسلم ولذلك ذكر حيث خفي عما فيه فخامة وهو
الشان وذكر حيث عم بقوله تعالى من عمل بما يتناول الجليل والحقير
وقيل ان الكل داخلون في الخطاب الاولى الفرد لانه من المعلوم انه اذا
خوطب رئيس القوم كان العزم داخلون في ذلك الخطاب كما في قوله
تعالى يا ايها النبي اذا طلقتم النساء الا كنا عليكم شهودا اي رقيبا يحفظ عليكم
اعمالكم لان الله تعالى رقيب على كل شيء وعالم على كل شيء اذ لا محدث ولا
خالق ولا موجد الا الله تعالى فكل ما يدخل في الوجود من احوال العباد
واعمالهم الظاهرة والباطنة داخل في علمه وتشاهد عليه ان تفيضون

اي الله شاهد عليكم حين تدخلون وتخوضون تخوضون فيه اي في ذلك العمل
وقيل الافاضة الدفع بكثرة قال الزجاج اذ تنتشرون فيه يقال افاض
القوم في الحديث اذا انتشروا فيه وما يعزب اي يغيب عن ربك يا محمد من
مثقال اي وزن ذرة وهي النملة الحمراء الصغيرة حقيرة الوزن جدا وقيل المراد
بها الهباء وهو الشيء الحقير الذي تراه في البيت في ضوء الشمس وقرأ الكسائي
بكسر الزاي والباقون بالضم ومن صلة على النفي وانما قيد بقوله تعالى
في الارض ولا في السما تعزيزا للعقول ثلاثة قال فان قيل لم يتقدم ذكر الارض
على السما وقد مر ذكر السما على الارض في سورة سبحان حيث قال تعالى
ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض فما فايدة ذلك اجيب
بان الكلام لما في حال اهلها والمقصود منه بعد البرهان على احاطة علمه على
ذي العطف بالواو وحكم التشبيه ولا اصغر من ذلك اي الذر ولا اكبر اي منها
الا في كتاب مبين اي بين وهو اللوح المحفوظ وقرا حمزة برفع الراء من اصغر
واكبر على الابتداء والباقون بالنصب على ان ذلك اسم لا وفي كتاب
خبرها الا ان اولياء الله اي الذين يتولون بالطاعة ويتولاهم بالكرامة لا خوف
عليهم من حوف مكروه والا هم يحزنون بفوات ما مول وفسرهم بقوله
تعالى الذين امنوا وكانوا يتقون الله بامتثال امره وتجنب وهو الذي
فسر الله تعالى الاولياء لا من يدعيه وعن علي رضي الله عنه هم قوم صفت
الوجوه من السهر وعمش العيون من البكا وذبلت الشفاه من الدعا وعن
سعيد بن جبير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن اولياء الله
تعالى فقال هم الذين يذكر الله برؤيتهم وعن ابن عباس رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول ان من عباد الله عبادا ما هم بانبياء والشهداء يغبطهم الانبيا
والشهداء يوم القيمة لمكانهم من الله تعالى يا رسول الله اخبرنا من هم وما اعمالهم

فلما علمنا نجيهم قالوا تجاوزنا في الله يغفر لنا جميعا ولا اموالنا نتياطوا فانا نؤمن الله ان
وجوههم نور وانا نعلي لعلي مثابر من في ولا تخافون اذا خاف الناس ولا يحزنون اذا
حزن الناس ثم قرأ الآية وقال الزوزني في مقدمة سؤالهم ذب عن الامامين
الشافعي وابي حنيفة رضي الله عنهما ان كلا منهما قال اذا لم تكن العلماء اولياء الله
فليس لله ولي وذلك في العالم العامل بعلمه وقال القشيري من شرط الولي ان
يكون تحقق ظاهرا ان من شرط النبي ان يكون معصوما فكل من كان للشرع عليه
اعتراض فهو مغرور ومخادع فالولي هو الذي توالت افعاله على الموافقة ولما
نفى الله عنهم الخوف والفزع وكرر نفيهما قال تعالى مبينا لتوليته لهم بعد
انتفاء الخوف والحزن لهم البشرى اي الكاملة في الحياة الدنيا وفي الآخرة اما البشرى
في الدنيا فمفسرة بأشياء منها الرؤيا الصالحة يراها المؤمن او تُرى له وقال صلى الله
عليه وسلم ذهبت النبوة وبقيت المبشرات وقال الرؤيا الصالحة من الله وتكلم
من الشيطان فاذا حلم احدكم حلما يخافه فليتفوذ عنه وليبصق عن شماله
ثلاث مرات فانه لا يضره وقال الرؤيا الصالحة جزء من ستة واربعين جزءا من
النبوة وعنها محدثة الناس له وذكر بواياه بالثناء الحسن وعن ابي ذر قال
قلت يا رسول الله الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس فقال تلك عاجل
بشرى المؤمن ومنها البشرى عند الموت قال تعالى تتنزل عليهم الملائكة
الا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة وامّا البشرى في الآخرة فتلقي
الملائكة اياهم مسلمين بشرى لكم اليوم جنات تجري من تحتها الانهار وحياتهم فيها
وجوههم وعلائهم تحيتهم يوم يلقونه سلام ومما يزدادون نعيما وسلام قولا من رب رحيم
تعالى عليهم كما قال تعالى سلام قولا من رب رحيم وغير ذلك من البشارات
مما تبشر الله تعالى به عباده المتقين في كتابه وعلى السنة انبيائه من
جنة وكرامة ونعيم ثوابه فان لفظ البشارة مشتق من خبر سار يظهر اثره
في بشرة الوجه فكل ما كان كذلك دخل في هذه الآية مع انه تعالى لما ذكر

صفة

صفة اوليائه ونبه على احوالهم قال تعالى لا تبديل اي بوجه من الوجوه لكلمات الله
اي لا تغيير للقول المولد لاختلاف لحاجيه والكلمة والقول سواء وتطيره قوله تعالى
حاميد له القول لدي وقوله تعالى ذلك اشار تعالى الى كونهم مبشرين في العاجلين
هو الفوز العظيم هذه الجملة الثانية قبلها اعتراض لتحقق المبشر به وتعظيم
شانه وليس من شرطه ان يقع بعده كلام متصل بما قبله ولا يحزنك يا محمد
قولهم اي قول المشركين اي لا يعتمدك تكذيبهم وعنادهم ويتشويشهم في
تدبير ملكك وابطال امرك وسائر ما يكون به في شانك وقرأ نافع بضم
الياء وكسر الزاي من احزنه والباقون بفتح الياء وضم الزاي وكلاهما بمعنى
وقوله تعالى ان العزة لله جميعا استيناف بمعنى التعليل كانه قيل ما بالي
لا احزن فقيل ان العزة لله جميعا اي ان الغلبة والقهر في مملكة الله له
جميعا لا يملك احد شيئا منها لا اسم ولا غيرهم فهو يغلبهم وينصرك عليهم قال
تعالى كتب الله لاغلبن انا ورسلي وقال تعالى انا لننصر رسلنا وقيل ان
المشركين كانوا يتعززون بكثرة اموالهم واولادهم وعبيدهم فاخبره
تعالى ان جميع ذلك في ملكه فهو قادر على ان سلبه جميع ذلك وينيلهم
بعد العز هو السميع اي البليغ السمع لاقوالهم العليم اي المحيط العلم بجميع
وجميع احوالهم فهو البالغ القدرة على كل شيء يجازيهم فهو تعليل لتفرده
بالعزة لانه تفرد بها دون الموصوفين فانتفيا عن غيره ومن انتفيا عنه كان
دونه اجيبوا بانه تعالى لما عجز فاني يكون له عزة فان قيل قوله تعالى ان العزة لله
جميعا يعارضه قوله تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين اجيب بان المنع لان
عزة الرسول والمؤمنين كلها بالله فهي لله الا لله ما في السموات وما في
الارض ملكا وخلقا فان قيل قد ذكر الله تعالى في الآية المتقدمة الاثنين
وهما في السموات والارض بلفظ ما وقال هنا بلفظ من فما فايدة ذلك
اجيب بانه تعالى غلب في الآية الاولى ما لا يعقل على من يعقل لكثرته

وفي هذه الاية غلب العاقل على غيره لشرفه وقيل بجموع الايتين دال على ان
الكل خلقه وملكه وقيل ان المراد بمن في السموات الملايكة وبمن في الارض
الثقلان وانما خصهم بالذكر لشرفهم وان كان هو آلهة في ملكه وتحت تدبيره
فما للعقل منها حتى ان لا يكون له الها او يتخذ شريكا فهو كالدليل على قوله تعالى
وما يتبع الذين يدعون من دون الله اي غيره اصناما متخذين شركاء
على الحقيقة وان كان ما ينافيهم عنا شركاء تعالى الله عن ذلك علما اي ما يتبعون
في ذلك الا الظن الباطل اي ظنهم انها الهة تشفع لهم وانما تقربهم الى الله تعالى زلفى
بين تعالى انه لا علم لهم اصلا بقوله تعالى وان اي ما هم الا يخرصون اي
يكذبون في ذلك ويجوز ان يكون ما في وما يتبع في معنى الاستفهام انكاري
اي اي شيء يتبعون وشركاء على هذا نصب بيدعون وعلى الاول بيتبع وكان
حقه وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء فاقتضى على احدهما للدلالة
وقوله تعالى هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه اي ليزول عنكم التعب
والكلال فيه بما تقاسون في معايشكم من تعب التردد في المعاش والنهار
مبصرا اي مضيئا لتتصرفوا فيه لمعاشكم وكأنه سبحانه تنبيه على
كمال قدرته وعظيم نعمته المتوجب عليهما ليد لهم على تفرده باستحقاق
العبادة واضافة الابصار الى النهار مع انه يتبصر فيه على طريق نقل
الاسم من المتسبب الى السبب كقولهم ليل نائم لان الليل تسبب للسكون
قال فظهر به تقول العرب اظلم الليل اي صار ذا ظلمة واضاء النهار
اي صار ذا ضياء ان في ذلك المذكور لايات اي دلالات على وحدانيته
تعالى لقوم يسمعون سماع اعتبار وتدبر فيعلمون بذلك ان الذي
خلق الاشياء كلها هو الاله المعبود المتفرد بالوحدانية في الوجود ثم ذكر
الله تعالى نوعا من اباطيل الكفار بقوله تعالى قالوا اي اليهود والنصارى
ومن زعم ان الملايكة بنات اتخذ الله ولدا قال الله تعالى سبحانه اي

تنزيها

تنزيها له عن الولد هو الغني عن كل احد وانما يطلب الولد من يحتاج اليه ثم بين
تعالى غناه بقوله تعالى له ما في السموات وما في الارض من ناطق
وصامت ملكا وخلقا ولما بين تعالى بالدليل الواضح امتناع ما اضافوا
اليه عطف بالانكار والتوبيخ فقال ان اي ما عندكم من سلطان
اي حجة بهذا اي الذي تقولونه ثم ذم تعالى في ذلك الانكار عليهم
بقوله تعالى اتقولون على الله ما لا تعلمون حقيقته وصحته وتضيفون
اليه ما لا يجوز اضافته اليه تعالى جهلا منكم وقلة استفهام للتوبيخ
قل يا محمد لهؤلاء الذين يختلقون على الله الكذب فيقولون عليه الباطل
ويزعمون ان له ولدا ان الذين يفترون اي يتعمدون على الله الكذب
لا يفلحون اي لا ينجون في سعيهم ولا ينالون ما قصدوه بل خابوا وخسروا
فانهم لا ينجون من النار ولا ينالون رضا ربهم وجنته ومن الناس من اذا اغاث
بالمعدوم والله سبحانه ان ال هذا الخيال بانخداع متاع في الدنيا وفيه
اضمار تقديره لهم متاع في الدنيا على انه مبتدأ خبره محذوف ويجوز ان
يكون خبر المبتدأ محذوفا تقديره افترا وهم متاع في الدنيا يتمتعون
به ريا يسيرا في الكفر وحياتهم او تعليلهم متاع في الدنيا وهو ايام
يسيرة بالنسبة الى طول اعمارهم في العذاب ثم الينا مرجعهم بالموت
ثم نذيقهم العذاب الشديد بعد الموت بما اي بسبب ما كانوا يكفرون
وبما ذكر سبحانه وتعالى في هذه السورة من احوال كفار قريش وما
كانوا عليه من الكفر والعناد سنرع بعد ذلك في قصص الانبياء وما
جرى لهم مع امهم وذكر تعالى منهم في هذه السورة ثلاثة بعض
القصة الاولى قصة نوح عليه السلام المذكورة بقوله تعالى واتل يا محمد
عليهم اي كفار قريش نبأ اي خبر نوح عليه السلام وذلك ليكون
لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولاصحابه اسوة ممن سلف من الانبيا

فانه كان صلي الله عليه وسلم اذا سمع ان معاملة هولاء الكفار مع كل
الرسل ما كان الا علي هذا الوجه حف ذلك علي قلبه كما يقال الصيبة
اذا عمت خفت والمراد ان الكفار اذا سمعوا هذه القصص وعلموا ان الحيل الدوا
بالغوا في ايذاء الانبياء المتقدمين الا ان الله تعالى اعانهم بالاخرة والقهر
والبدء بهم وقهر احدا يهم كان سماع هولاء الكفار لامثال هذه القصص
سببا لانكسار قلوبهم ووقوع الحزن والوجل في صدورهم والا ن
الكلام اذا طال تقرير اتي نوع من انواع العلوم فربما حصل نوع من
انواع الملالة فاذا انتقل الانسان من ذلك النوع الي العلم الي
نوع اخر انشرح صدره وطاب قلبه ووجد من نفسه رغبة جديدة
وقوة حادثة وميلا قويا ولانه صلي الله عليه وسلم انما لم يتعلم
علما ولم يطالع كتابا ثم ذكر هذه القصص من غير تفاوت ومن غير
زيادة ومن غير نقصان دل ذلك علي انه صلي الله عليه وسلم
انما عرفها بالوحي والتنزيل وبدل من نوح بناء اذ قال لقومه
وبهم بنوا قابيل يا قوم ان كان كبر اي شق وعظم عليكم مقامي اي
لبثي فيكم الف سنة الا خمسين عاما وتذكيري اي وعظي اياكم بآيات
الله اي بحجته وبيناته فعلي الله توكلت
اي فهو حسبي وثقتي او قيامي علي الدعوة لانهم كانوا اذا وعظوا
الجماعة قاموا علي ارجلهم ليعظوهم ليكون مكافهم بينا وكلامهم
مسموعا كما يحكي عن عيسي عليه السلام انه كان يعظ الحواريين
قايما وهم قعود فاجمعوا امركم اي فاعزموا علي امر تفعلونه في
اذاي بالاهلاك او غيره وشركاءكم اي وادعوا شركاءكم الى الواو بمعنى
مع اي مع شركايكم وهي الاصنام وانما امرهم علي الاستعانة بها تنا علي
سد بهم الفاسد واعتقادهم انها تقرب وتشفع مع اعتقاده انها جماد

لا تقرب

لا تقرب ولا تشفع تبكيتا وتوبيخا لهم ثم لا يكن امركم اي الذي تقصدونني
به عليكم غمة اي مستورا من غممته اذا ستره بل اظهروه وجاهروني
مجاهرة فانه لا معارضة لي بغير الله الذي يستوي عنده السر والجهر
ثم اقضوا الي اي امضوا ما في انفسكم وافرغوا منه يقال قضي فلان اذا
مات وقضي دينه اذا فرغ منه وقيل معناه توجهوا الي بالقتل والمكروه
وقيل فاقضوا ما انتم قاضون وهذا مثل قول السيد لغرمائه فاقض
ما انت قاض اي اعمل ما انت عامل ولا تنظرون اي ولا تؤخرون بعد
اعلامكم اياي ما انتم عليه وانما قال ذلك اظهارا لقلة مبالاته وثقته
بما وعده ربه من عصمته واعلم لم يجدوا اليه سبيلا فان توليتم
اي اعرضتم عن ذكري فما سالتكم من اجر اي من جعل وعوض علي تبليغ
الرسالة فينفركم عني وتتهموني لاجله من طمع في اموالكم وطلب اجر علي
عظتكم ومتي كان الانسان فارغا عن الطمع كان قوله اقوي تاثيرا في
القلوب ان اجري الا علي الله وهو الثواب الذي يثيبني به في الاخرة اي ما
انصحكم الا لوجه الله لا لغرض من اغراض الدنيا وهكذا ينبغي لكل من يدعو
الناس ليعلم انه ارشاد الي طريق الله تعالى وامرت ان اكون من المسلمين
اي اني مامور بالاستسلام لكل مكروه نيل الله سبحانه لاجل هذه الدعوة
وقيل بدين الاسلام وانا ماض فيه غير تارك له فقتلوه ام لم تقتلوه
فكذبوه اي اصروا علي تكذيبه بعد ما الزمهم الحجة وبين ان توليهم
ليس الا لعنادهم وعمر نبهم لاجرم حقت عليهم كلمة العذاب فنجيناه
من الغرق ومن معه في الفلك اي السفينة وكانوا ثمانية وجعلناهم اي الذين
انجيناهم معه في الفلك خلايف في الارض يخلفون الهالكين بالغرق
واغرقنا الذين كذبوا بآياتنا بالطوفان وقوله تعالى فانظر اي ايها الانسان
او يا محمد كيف كان عاقبة المنذرين تعظيم لما جري عليهم وتحذير لمن

الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم عن مثله وتسلية له وهذه القصة
اذا سمعها مصدقا النبي صلى الله عليه وسلم ومن كذب به كان زجرا
للمكلفين من حيث يخافون ان ينزل بهم مثل ما نزل بقوم نوح وتكون
داعية للمؤمنين على الثبات على الايمان ليصلوا الى مثل ما وصل اليه
قوم نوح وهذه الطريقة في الترغيب والتحذير اذا جرت على سبيل الحكاية
عمن تقدم كانت من الوعيد المبتدا وهذا الوجه اكثر تقلبي ذكر اقاصيص
الانبياء عليهم الصلاة والسلام **ثم بعثنا من بعده** اي نوح **رسلا الى قومهم**
لم يسم هنا تقالى من كان بعد نوح من الرسل وقد كان بعده هود وصالح
وابراهيم ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام **فجاءوهم بالبينات**
اي بالمعجزات الواضحات التي تدل على صدقهم **فما كانوا ليؤمنوا** اي فما
استقام لهم ان يؤمنوا لشدة عنادهم وضلالهم تقالى ايا ما **بما**
كذبوا به من قبل اي بسبب ما كذبوا به من قبل اي بهم كانوا قبل بعثة الرسل لهم اهل
جاهلية مكذبين بالحق فما وقع فصل بين حالتهم بعد بعثة الرسل وقبلها
كانه لم يبعث اليهم احد **كذلك** اي مثل ما طبعنا على قلوب هؤلاء بسبب تكذيبهم
الرسل **نطبع** اي نختم **على قلوب المعتدين** في كل زمن لكل من تهمه نفسه
فيما لا يحل له فلا يقبل شيئا من الايمان لانهماكهم في الضلال واتباعهم المألوف
وفي امثال ذلك دليل على ان الافعال واقعة بقدرة الله تقالى وكسب
العبد **القصة الثانية قصة موسى عليه السلام المذكورة بقوله تقالى**
ثم بعثنا من بعدهم اي هؤلاء الرسل **موسى وهارون الى فرعون**
وملائه اي اشراف قومه وغيرهم تبع لهم فهو مرسل الى الجميع **بآياتنا**
التسع فاستكبروا عن اتباعها والايمان بها وهو اعظم الكبر ان يتعاون
العبيد برسالة ربهم بعد تبيينها ويتعظموا عن قبولها **وكانوا قوما مجرمين**
اي كفارا ذوي اثام عظام فلذلك استكبروا عنها واصرارا على ردها

فلما

فلما جاءهم الحق اي جاء فرعون وقومه **من عندنا** اي الذي جاء به موسى
من عند ربه وعرفوا انه ليس من عند موسى وهارون لتظاهر المعجزات
الظاهرات الممتنعة للمشكل **قالوا** اي غير متاملين له والناظرين في امره
لغرض تمردهم **ان هذا لسحر مبين** اي بين ظاهر يعرفه كل احد وهم يعلمون ان
الحق ابعد شيء من السحر الذي لا يظهر الا على يد فاسق كافر او فاسق
وقوله تقالى **قال موسى اتقولون للحق لما جاءكم اسحر هذا** فيه حذف تقديره
اتقولون للحق لما جاءكم هو سحر اسحر هذا فحذف السحر الاول اكتفاء بدلالة
الكلام عليه ثم قال اسحر هذا وهو استفهام على سبيل الانكار بمعنى انه
ليس بسحر ثم اجتج على صحة قوله تقالى فقال **ولا يفلح الساحرون** فانه
لو كان سحرا لاضمحل ولم يبطل سحر السحرة فتلب العصا حية وفلق البحر
معلوم بالضرورة انه ليس من باب التمويه والتخييل فثبت انه ليس بسحر
قالوا اي قوم فرعون لموسى **اجئتنا لتلفتنا** اي لترددنا ونقرضنا واللفت
والفتل اخوان **عما وجدنا عليه آباءنا** من الدين وعبادة الاصنام ثم قالوا
لموسى وهارون **وتكون لكما الكبرياء** اي الملك والعز **في الارض** اي ارض مصر
قال الزجاج سمي الملك كبرياء لانه اكبر ما يطلب من امر الدنيا والناس الملوك
موصوفون بالكبر ولهذا وصف ابن الوقيات مصعبا في قوله

ملكه ملك رافة ليس فيه ... جبروت منه ولا كبرياء ينبغي ما عليه

الملوك عن ذلك ويجوز ان يقصد وا بذلك ذمهما واعلما ان حكما ارض
مصر تجبرا وتكبرا كما قال القبطي لموسى عليه السلام ان تريد الا ان
تكون جبارا في الارض **وما نحن لكما بمؤمنين** اي بمصدقين فيما جيتما به
وقال فرعون لقومه ارادة المناظرة لما اتى به موسى عليه السلام **ائتوني**
بكل ساحر عليم اي بالغ في علم السحر لئلا يفوت شيء من السحر تباطئ
البعض وقرا حمزة والكسائي بغير الف بين السين والحاء وتشديد الحاء

مفتوحة والف بعدها بصيغة فعال دالة على زيادة قلق فرعون والباقون
بالف بعد السين وتخفيف الحا مكسورة والف بعدها فلما جاء السحرة اي كل
من في ارض مصر منهم قالوا لموسى اما ان تلقي واما ان نكون نحن الملقين
قال لهم موسى القوا جميع ما انتم ملقون فان قيل كيف امرهم بالكفر والسحر
والامر بالكفر كفر اجيب بانه انما امرهم بالقاء ما معهم من الحبال
والعصي التي معهم ليظهر للخلق ان ما القوا به عمل فاسد وسعي باطل
لا على طريق انه عليه السلام امرهم بالسحر فلما القوا ما معهم من الحبال
والعصي وخيلوا السحر بمراعين الناس انما تسحر قال موسى منكرا عليهم
ما جئتم به السحر قراه ابو عمرو بتحقيق الاولى وتحقيق همزة الاستفهام فيحتمل وجهين
والثاني تسهيلها وصل فيها وجهان التسهيل والمد لبدل فما استفهامية
مبتدا وجئتم به خبرها والسحر بدل منه وقرا الباقون بهمزة وصل فسقطت
في الوصل ايه الذي جئتم به هو السحر لا اسماه فرعون وقومه سحرا
ثم اخبر موسى عليه السلام بقوله ان الله سيبطله ايه يمحقه ويفهمه
فضيحة صاحبه ان الله لا يصلح عمل المفسدين اي لا يثبته ولا يقويه وقول
البيضاوي وفيه دليل على ان السحر افساد وتمويه لا حقيقة له يحمول
على ما يفعله اصحاب الحيل بمونة الالات والادوية والا فله حقيقة
فهو حق عند اهل السنة وهو علم بكيفية استعدادات تقدر بها النفوس
البشرية على ظهور التاثير في عالم العناصر ويحق اي يثبت ويظهر الله الحق
بكلماته اي بمقتضاه ووعده الصادق لموسى عليه السلام وقد اخبر
الله تعالى في غير هذه السورة انه كيف ابطل ذلك السحر وذلك بسبب
ان ذلك الثعبان قد تلقف تلك الحبال والعصي ولو كره المجرمون ذلك ولما
بين تعالى ان قوم موسى شاهدوا هذه المعجزات ومع ذلك لم يؤمن
منهم الا قليل كما قال تعالى فما آمن لموسى الا ذرية من قومه وانما ذكر

تعالى

تعالى ذلك تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم لانه كان يغتم بسبب اعراض القوم
عنه واستمرارهم على الكفر بين تعالى ان له في هذا الباب بسائر الانبياء
اسوة لان الذي ظهر من موسى عليه السلام من المعجزات كان امرا عظيما
ومع ذلك فما آمن له الا ذرية من قومه والذرية اسم يقع على القليل
من القوم قال ابن عباس الذرية القليل والهاء التي في قومه ترجع
الى موسى اي فما آمن من قومه الا طائفة منذرية بني اسرائيل
كما ذكيل الا اولاد من اولاد قومه وذلك انه دعا الابا فلم يجيبوه خوفا
من فرعون واجابته طائفة من ابنائهم مع الخوف وقيل راجعة الى
فرعون والذرية امرأته آسية وقومه آل فرعون وخازن فرعون
وامراة خازنه وماشطته على خوف من فرعون وملائهم اي خوف منه
لانه كان شديد البطش وكان قد اظهر العداوة مع موسى واذا اعمل
القوم الى موسى كان يبالغ في اذايهم فلهذا السبب كان قوله ومن اشراف
قومه والضمير لفرعون وجمعه على ما هو المعتاد في حق العظماء لانه
ذو اصحاب يأتمرون به وقيل المراد بفرعون آله كما يقال ربيعة ومضر
ان يفتنهم اي يصرفهم ويصدهم عن الايمان وان فرعون لعال اي متكبر
قاهر في الارض اي ارض مصر وانه لمن المسرفين اي المجاوزين الحد
فانه كان من اخس العبيد وادعى الربوبية وكان كثير القتل والتعذيب
لبني اسرائيل وقال موسى لقومه يا قوم ان كنتم آمنتم بالله اي صدقتم
به وبآياته فعليه توكلوا اي به ثقوا به واعتمدوا عليه فانه ناصر اوليائه
ومهلك اعدائه ان كنتم مسلمين اي مستسلمين لقضاء الله تعالى
مخلصين له ومن قيل ان كنتم آمنتم بالقلب واسلمتم بالظاهر فقالوا يجيبون له
على الله توكلنا اي عليه اعتمدنا لا على غيره ثم دعوا بامور فقالوا ربنا لا تجعلنا
فتنة للقوم الظالمين اي لا تسلطهم علينا فيفتنونا ويضلونا ونجنا اي خلصنا برحمتك

من القوم الظالمين اي من بني قوم فرعون لانهم كانوا يستعبدونهم ويستعملونهم في الاعمال الشاقة وانما قالوا ذلك لانهم كانوا مخلصين للاجرام استقالى قبل واجاب دعاءكما وخاطبهما دون من كان تابعا لهما ونهاهما عن خلافه في الارض وفي تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على ان الداعي ينبغي ان يتوكل اولا لتجاب دعوته ولما شرح الله تعالى خوف المومنين من الكفرة واظهر فيهم من التوكل على الله تعالى اتبعه بان امر موسى وهارون عليهما السلام باتخاذ البيوت بقوله تعالى واوحينا الى موسى واخيه اي الذي طلب موازرته ومعاضدته ان تبوءا لقومكما بمصر بيوتا ستكون فيها او ترجع اليها للعبادة واجعلوا انتم وقومكما بيوتكم اي تلك البيوت قبلة مصلى او مساجد كما في قوله تعالى في بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه موجهة نحو القبلة اي الكعبة وكان موسى عليه السلام يصلي اليها وقرا ورش وابو عمرو وحفص بيوتا بيوتكم بضم التاء والباقون بالخفض واقيموا الصلاة فيما ذكر المفسرون في كيفية هذه الواقعة وجوهها ثلاثة الاول ان موسى عليه السلام وحين معه كانوا في اول امرهم مامورين بان يصلوا في بيوتهم خفية من الكفرة ليلا يظهروا على امرهم ويؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم كما كان المومنون على هذه الحالة في اول الاسلام بمكة الثاني انه قيل انه تعالى لما ارسل موسى اليهم امر فرعون بتخريب مساجد بني اسرائيل ومنعهم من الصلاة فامرهم الله تعالى ان يتخذوا مساجد في بيوتهم ويصلوا فيها خوفا من فرعون الثالث انه تعالى لما ارسل موسى اليهم واظهر فرعون تلك العداوة الشديدة امر الله تعالى موسى وهارون وقومهما باتخاذ المساجد على رسم الاعداء وتكفل الله تعالى بان يحوطهم من شر الاعداء وقد خص الله تعالى موسى وهارون

في

في اول هذه الاية بالخطاب بقوله تعالى ان تبوآ لقومكما لاذ التبوء للقوم واتخاذ المعابد مما يتعاطاه رؤساء القوم للتشاور ثم عمم هذا الخطاب فقال واجعلوا بيوتكم قبلة لان جعل البيوت مساجد والصلاة مما ينبغي ان يفعله كل احد ثم خص موسى عليه السلام في آخر الكلام بالخطاب فقال تعالى وبشر المومنين اي بالنصر في الدنيا والجنة في العقبى لان الغرض الاصلي من جميع العبادات وصول هذه البشارة فخص الله تعالى موسى بها لما بينا ذلك على ان الاصل في الرسالة هو موسى عليه السلام وان هارون عليه السلام تبع له ثم ان موسى عليه السلام لما بالغ في اظهار المعجزات القاهرة الظاهرة وقرئ القوم مصرين على الجحد والعناد والانكار اخذ يدعو عليهم ومن حق من يدعو على الغير ان يذكر اولا سبب استحقاقه على تلك الجرايم وكان جرمهم هو الاجتراء على الدنيا ولهذا السبب قال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملاءه اي اشراف قومه على ما هم عليه من الكفر والكبر زينة اي عظيمة يتزين بمثلها من الحلي واللباس وغيرهما من الدواب والغلمان واثاث البيت والفاخر ونحو ذلك واموالا اي كثيرة من الذهب والفضة وغيرهما في الحياة الدنيا روي عن ابن عباس رضي الله عنهما كانت لهم من متاع مصر الى ارض الحبشة حباك فيها معادن من ذهب وفضة وزبرجد وياقوت مزينة بغايتها لهم فقال مفتخرا بالدنيا ربنا ليضلوا اي ليصدوا الناس الرب ليعبده واتباعه من منال حالهم ربنا اي يا ربنا انتهم ذلك ليضلوا اي في عاقبة الامر ويضلوا غيرهم عن سبيلك اي دينك واللام للعاقبة وهي متعلقة بآتيت كقوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وقيل لام كي اي آتيتهم كي تفتتنهم وقيل هو دعاء عليهم من جهة موسى اي اطمس الله عليهم لانه لا يكون غير ذلك وقرا عاصم وحمزة والكسائي بضم الميم حمزة والباقون

بالفتح ربنا اطمس على اموالهم اي امسخها وغيرها من هيئتها قال قتادة
صارت اموالهم حجارة وحروثهم وزروعهم وقال عكرمة وجواهرهم حجارة وقال محمد بن كعب
حمل شكر منهم حجارة وقال ابن عباس بلغنا ان الدراهم والدنانير صارت
حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وكسارا وانلانا وارباعا وعن عمر
ابن عبد العزيز نحو ذلك وقيل ان الله تعالى بعث ريحا فجمعت فيها اشباه من بقايا آل فرعون واخرج منها
البيضة مستديرة وانجوزة مستطيلة والتفاحة قال السدي مسخ الله
تعالى اموالهم حجارة والنخيل والثمار والدقيق والاطعمة فكانت
احدى الايات التسع واشدد على قلوبهم اي اطبع عليها واستوثق
حتى لا تنشرح للايمان وقوله فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم جواب
الدعاء وهو على لفظ النهي لانه عطف على ليضلوا وما بينهما دعاء معترض
وقوله تعالى قال قد اجيبت دعوتكما فيه وجهان الاول قال ابن عباس
ان موسى كان يدعو وهارون كان يؤمن فلذلك قال دعوتكما وذلك
ان من يقول عند دعاء الداعي امين فهو يريد ادع لانه قول له امض تاييد
استجب فهو سائل كما ان الداعي سائل الوجه الثاني ان يكون كل منهما
ذكر هذا غاية ما في الباب ان يقال انه تعالى حكى هذا الدعاء عن موسى
بقوله تعالى وقال موسى ربنا وبعد الانبياء في ان يكون هارون قد ذكر
الدعاء لهم واما قوله تعالى فاستقيما اي فيما هو اثبات على الدعوة
والرسالة والزيادة في الزام الحجة فقد لبثا نوحا في قومه الف سنة
الا خمسين عاما فلا استجابة قال ابن جريج ان فرعون لبث بعد هذا الدعاء
اربعين سنة ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون اي انجاهلين الذين
يظنون ان حتى كان الدعاء مجابا كان المقصود حاصلا فمن عجل الله
تعالى دعاء الانسان في مطلوبه الا انه انما يوصله في وقته المقدر
والا فاستعجال لا يتصور الا من الجاهل وهذا كما قال تعالى لنوح عليه

السلام

السلام انى اعظك ان تكون من الجاهلين وهذا النهي لا يدل على ان
ذلك قد صدر من موسى عليه السلام كما ان قوله تعالى وهذا النهي
لين اشركت ليحبطن عملك لا يدل على حصول الشرك منه صلى الله عليه
وسلم وقرا ابن ذكوان بتخفيف النون والباقون بتشديدها لان
نون التوكيد تثقل وتخفف ولما اجاب الله تعالى دعاءهما امر بني اسرائيل
وكانوا ستمائة الف بالخروج من مصر في الوقت المعلوم وبشر لهم
اسباب وفرعون كان غافلا عن ذلك فلما سمع انهم خرجوا وعزموا
على مفارقة مملكته خرج في عقبهم كما قال تعالى وجاوزنا اي قطعنا
ببني اسرائيل اي عبدنا المخلص لنا البحر حتى بلغوا الشاطئ فاتبعهم فرعون وجنوده اي لحقهم وادركهم يقال تبعه واتبعه اذا ادركه
ولحقه بغيا وعدوا اي ظلما وعدوانا وقيل بغيا في القول وعدوا
في الفعل فلما ادركهم فرعون قالوا لموسى اين المخلص الذي اخرج البحر
امامنا وفرعون وراءنا فذكنا نلقى من فرعون البلاء العظيم فاوحى
الله تعالى الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق لموسى
وقومه فكان كل فرق كالطود العظيم وكشف عن وجه الارض وانشر
لهم البحر فلما وصل فرعون الى البحر هابوا دخوله وكان فرعون يحاسب
حصانه وكان معه في عسكره ثمانمائة الف حصان على لون حصانه
وميكائيل بين قومه حتى لم يشذ منهم احد فلما خرج آخر بني اسرائيل
من البحر تقدم جبريل على فرس وخاض البحر فلما وجد الحصان
ريح الانثى لم يملك فرعون من امره شيئا فنزل البحر واقتحموه
حتى اذا كملوا جميعا في البحر وهموا اولهم بالخروج التطم عليهم البحر
فلما اتاه الغرق اتى بكلمة الاخلاص كما قال تعالى حتى اذا ادركه اي
لحقه الغرق قال امنت انه اي بانه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل

وانا من المسلمين فان قيل انه آمن ثلاث مرات اولها قوله آمنت وثانيها قوله لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وثالثها قوله وانا من المسلمين فما السبب في عدم القبول اجاب العلما عن ذلك باجوبة منها انه انما آمن عند نزول العذاب والايمان والتوبة عند معاينة الملايكة والعذاب غير مقبول ويدل عليه قوله تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما راوا باسنا وسد جبريل في فيه من حمأة البحر مخافة ان تناله الرحمة وقال له الآن تؤمن وقد عصيت قبل وضيعت التوبة في وقتها وكنت في دنياك الفانية على الاخرة الباقية وكنت من المفسدين بضلالك واضلالك عن الايمان والتوبة حتى اغلق بابهما بحضور الموت ومعاينة الملايكة وانما قال له وكنت من المفسدين في مقابلة قوله وانا من المسلمين ومنها ان فرعون كان من الدهرية المنكرين لوجود الصانع كخالق سبحانه وتعالى ولهذا قال آمنت انه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل فلم ينفعه ذلك لحصول الشك في ايمانه ومثل هذا الاعتقاد الفاسد لا تزول ظلمته الا بنور الحجة القطعية والدلايل اليقينية ومنها ما روي في بعض الكتب ان بعض اقوام بني اسرائيل لما جاوزوا البحر اشتغلوا بعبادة العجل فلما قال فرعون آمنت انه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل اقترن ذلك الى العجل الذي امنوا بعبادته في ذلك الوقت فكانت هذه الكلمة في حقه سببا لزيادة الكفر ومنها ان الايمان انما كان يتم بالاقرار بوحدانية الله تعالى وبالاقرار بنبوة موسى عليه السلام وفرعون لم يقر بالنبوة فلا يصح ايمانه ونظيره ان الواحد من الكفار لو قال الف مرة اشهد ان لا اله الا الله فانه لا يصح ايمانه الا اذا قال معه واشهد ان محمدا رسول الله وكذا هنا ومنها ان جبريل عليه السلام اتى فرعون بغتة وما قبل

الامير

الامير في عبد شقي في مال مولاه ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه وادعى السيادة دونه فكتب فرعون يقول ابو العباس الوليد بن مصعب جزا العبد الخارج عن سيده الكافر بنعمته ان غرق في البحر ثم ان فرعون لما غرق رفع جبريل عليه السلام الى فيه حمأة فان قيل انما فايدة دس جبريل عليه السلام في فم فرعون ذلك لا تنفي عنه تلك الحالة اعلان يكون التكليف اتما تاما لان كان تكليف يمنعه من التوبة وان كان غير مكلف فلا فايدة في ذلك اجيب بان التكليف كان ثابتا وجبريل عليه السلام لم يفعل ذلك من قبل نفسه فانه عبد مامور والله تعالى يفعل ما يشاء كما قال تعالى ونقلب افيدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة ويحتمل ان فعل فرعون منعه من الايمان عند الموت جزا على تركه الايمان اول الامر فتدبر اجمالي في فرعونية من حيث كثرة الطغيان ومن الناس من قال قايل هذا القول هو الله تعالى لا انه ذكر بعده فاليوم ننجيك اي نخرجك من البحر ببدنك اي جسمك الذي لا روح فيه كاملا سويا لم يتغير ونخرجك من البحر عريانا من غير لباس او ان المراد بالبدن الدرع قال الليث البدن هو الدرع الذي يكون تقصير الكمين وهذا منقول عن ابن عباس قال كان عليه درع من ذهب يعرف به فاخرجه الله تعالى من الماء مع ذلك الدرع ليعرف لتكون لمن خلفك اي بعدك آية اي عبرة فتعرفوا عبوديتك ولا يقدموا على مثل فعلك وعن ابن عباس ان بعض بني اسرائيل شكوا في موته فاخرج لهم ليروه ويشاهدوه ليخلق على ذلك الدليل المهانة بعدما سمعوا منه قوله انا ربكم الاعلا فعلموا ان دعواه كانت باطلة وان ما كان فيه من عظيم الشان وكبرياء الملك كل امره الى ما يرون لعصيانه ربه وان كثيرا من الناس عن اياتنا لغافلون اي لا يعتبرون

بها وهذا الكلام ليس الا كلام الله تعالى ولكن القول الاول اشهر **ولقد بوانا** اي انزلنا **بني اسرايل مبوأ صدق** اي منزلا صالحا مرضيا وهو مصر والشام وانما وصف المكان بالصدق لان عادة العرب اذا مدحت شيا اضافته الي الصدق تقول العرب لهذا رجل صدق وقدم صدق والسبب فيه ان الشي اذا كان كاملا صالحا لابد ان يصدق الظن فيه وقيل ارض الشام والعرس والاردن لانها بلاد الخصب والخير والبركة **ورزقناهم من الطيبات** اي الحلالات المستلذات من الفواكه والحبوبة والالبان والاعسال وغيرها فاورث تعالي بني اسرايل جميع ما كان تحت ايدي فرعون وقومه من الناطق والصامت والحرث والنسل كما قال تعالي واورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها **فما اختلفوا** اي هولاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بني اسرايل في امر دينهم **حتي جاءهم العلم** اي جاءهم ما كانوا به عالمين وذلك انهم كانوا قبل بعث محمد صلي الله عليه وسلم مقرين به مجمعين علي بنوته غير مختلفين فيه كما يجدونه مكتوبا عندهم وكانوا يخبرون بمبعثه وصفته ونعته وينتظرون بذلك علي المشركين فلما بعث صلي الله عليه وسلم اختلفوا فيه فآمن به بعضهم كعبد الله بن سلام واصحابه وكفر به بعضهم بغيا وحسدا وايثارا لبقاء الرياسة وانعم ما اختلفوا في دينهم الا من بعد ما قرؤا التوراة وعلموا احكامها **ان ربك** يا محمد **يقضي بينهم يوم القيمة** اي الذي هو اعظم الايام فيما كانوا اي بافعالهم الجبلية **فيه يختلفون** اي فيميز الحق من الباطل والصدق من الزندقة ويسكن كل داره واختلف المفسرون فمن المخاطب بقوله تعالي **فان كنت في شك مما انزلنا اليك فاسال الذين يقرؤن الكتاب**

اي التوراة **من قبلك** اي فمقاله ثابت عندكم يخبر ونكم بصدقه فتعلمون به نبوة النبي صلي الله عليه وسلم في الظاهر والمراد امته كقوله تعالي يا ايها النبي اتق الله ونحو لا تطع الكافرين والمنافقين وقوله لئن اشركت ليحبطن عملك وقوله تعالي لعسي ان يبعثك ربك مقاما محمودا وقيل قلت للناس اتخذوا ويحكم ظهريا انه نهي عن نبذه ومن الاحاديث المشهورة ليبلغ الشاهد منكم الغائب وقيل يا حارث والذي بدا علي ذلك وجهه الاول قوله تعالي في آخر السورة يا ايها الناس بين ان المذكور في اول الاية علي سبيل التعريض الثاني من صلحائهم سيعلن كل لو كان شاكا في نبوة نفسه كان شاكا في نبوة اولي وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية الثالث انه اذا كان شاكا في نبوة نفسه فكيف يزول ذلك الشك باخبار اهل الكتاب الذين هم من جنسه ثم اعلم ان الكشي كعادته اثبت ان الخطاب وان كان في الظاهر مع محمد صلي الله عليه وسلم الا ان المراد هو الامة ومثل هذا معتاد فان السلطان اذا كان له امير وتحت رايته ذلك الامير مع قوم فاذا اراد ان يتوعد ذلك الامير بامر عظيم يخصه من قائده لا يوجه خطابه عليهم بل يوجه ذلك الخطاب علي ذلك الامير الذي جعله اميرا عليهم ليكون ذلك تاديبا في حقهم وقيل ان المراد بالخطاب للنبي صلي الله عليه وسلم علي حقيقته ولكن الله تعالي علم انه صلي الله عليه وسلم لا شك في ذلك الا انه المتعود انه متي سمع هذا الكلام فانه يفرح ويقول يا رب لا اشك ولا اطلب الحجة من قوله اهل الكتاب بل اكتفي بما اتاني الله من الدلايل الظاهرة ولهذا قال صلي الله عليه وسلم لا اشك ولا اسال احدا منهم ونظير ذلك قوله لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا ملعونين اينما ثقفوا اخذوا وقتلوا تقتيلا والمعنى انه لو قارب احد منهم ذلك لاخذ وقتل ولكنهم لما علموا ان الامر كذلك لم يقدموا عليه ولم يقربوه فكذا هاهنا

كانوا يعبدون الجن وكما قال تعالى لعيسى عليه السلام انت قلت للناس اتخذوني
وامي الهين من دون الله والمقصود منه ان يفرح حركة الهمزة الى الساكن والباقون
بالهمزة وسكون السين وقيل الخطاب لكل من سمع اي ان كنت ايها السامع في
شك مما انزلنا على لساننا نبينا اليه وفيه تنبيه على ان من حاجته شبهة في
الدين ينبغي ان يسارع الى حلها بالرجوع الى اهل العلم واظهر هذه الاقوال
ادلها وهذه الاقوال تجري في قوله تعالى ولقد جاءك الحق من ربك ايها السامع
القاطعة للامر حتى لا يدخل المرية فيخلا تكونن من الممترين اي الشاكين فيه وفي قوله
تعالى ولا تكونن من الذين كذبوا بايات الله فتكونن من الخاسرين اي الذين
خسروا انفسهم ان الذين حقت عليهم كلمة ربك اي ثبتت عليهم في قوله سبحانه
تعالى الذي كتبه في اللوح المحفوظ واخبر به الملائكة انهم لا يؤمنون اي بل
يموتون كفارا فلا يكون غيره اذ لا يكذب كلامه ولا ينتقض قضاؤه ولو
جاءتهم كل اية فان السبب الاصلي للايمان هو تعلق ارادة الله تعالى به
مفقودة فان الدليل لا يجدي الا باعانة الله تعالى واذا لم يحصل تلك الاعانة
ضاعت تلك الدلائل حتى يروا العذاب الاليم فحينئذ لا ينفعهم الايمان كما لم ينفع
فرعون وقرأ نافع وابن عامر كلمة بالف بعد الميم على الجمع والباقون بغير الف
على الافراد العقبة الثالثة قصة يونس عليه السلام المذكورة بقوله تعالى
فلولا اي فهلا كانت قرية واحدة من قرى الامم الماضية التي اهلكناها
آمنت اي آمن اهلها عند اتيان الايات او عند رؤية اسباب العذاب
فنفعها اي فتسبب عن ايمانها ذلك انه نظم لها ما بعده بان تفضل الله تعالى
عليها وكشف العذاب عنها وقوله تعالى الا قوم يونس استثناء منقطع بمعنى
ولكن قوم يونس لما آمنوا اي لما اخلصوا الايمان اول ما رأوا اية العذاب
ولم يوخروه الى حلوله كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ويجوز
ان يكون متصلا والجملة في معنى النفي لتضمن حرف التحضيض معناه كانه

قيل

فان قيل قد حكى الله تعالى عن فرعون انه تاب في آخر الامر انه تاب في آخر الاجل
ولم يقبل توبته وحكى عن قوم يونس انهم امنوا وقبل توبتهم فما الفرق
بين الحالين اجيب بان فرعون انما تاب بعد ان شاهد العذاب وهو
وقت اليأس من الحياة واما قوم يونس فانهم تابوا قبل ذلك فانهم لما
ظهرت امارات دلت على قرب العذاب تابوا قبل ان ينزل العذاب بهم وليس
بانزعاجهم فكان الامر مبنيا على اخلاص النية ولم يرد الغاية وانه سبحانه وتعالى قد
علم صدق نياتهم في التوبة قبل توبتهم بخلاف فرعون فانه لم يصدق
في ايمانه والاخلاص فلم يقبل منه كما قال تعالى ولو شاء ربك يا محمد
لآمن بك وصدقك من في الارض كلهم بحيث لم يشذ منهم احد جميعا اي
مجتمعين على ذلك قوم امنوا لا يختلفون فيه في شيء منه ولكنه لم يشأ ذلك
لما فيه من حكمة الامر بخلقه الشقاوة والسعادة في الازل وعلى هذا
ليعلمه للنبي صلى الله عليه وسلم فانه كان حريصا على ايمانهم كلهم
فاخبره تعالى انه لا يؤمن به الا من كتب له السعادة الازلية فلا
تتعب نفسك على ايمانهم وقوله تعالى افانت تكره الناس اي الذين لم يؤمنوا
على ما لم يشأ حتى يكونوا مؤمنين اي ليس ذلك اليك حتى يكون منهم
ويخرجهم عليه انما عليك البلاغ وما كان لنفس الا باذن الله تعالى
وقوله تعالى وما كان اي وما ينبغي وما يصح
ما لنفس ان تؤمن الا باذن الله اي بمشيئته فيجعل الرجس
بالايمان بان خلق الله تعالى الكفر فيه وهو العذاب والخذلان
وقال ابن عباس الرجس السخط وهو قوله تعالى ويجعل الرجس
اي العذاب على الذين لا يعقلون
اي عقلا ينتفعون به في دلائل الله تعالى وحججه ولا يعقلون
فيتفكرون في دلائل الآيات والاخلاق فيؤمنون

فلا

فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ولما بين تعالى في الآيات السابقة ان الايمان
لا يحصل الا بتخليق الله تعالى ومشيئته امر بالنظر والاستدلال في الدلائل
بقوله تعالى قل انظروا اي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يسألونك الآيات
ماذا اي الذي في السموات والارض من الآيات وواضح الدلالات من
عجائب صنعه ليدلكم على وحدته وكمال قدرته ففي العالم العلوي
الشمس والقمر وجعلهما دليلين على الليل والنهار والنجوم وحركة الافلاك
ومقادير سيرها وصفاتها والكواكب وما يختص بذلك من المنافع وفي العالم
السفلي الجبال والبحار والمعادن والنبات والحيوان واحسنها حال
الانسان فكل ذلك من الآيات الدالات على وحدانية الله تعالى وانه
خالقها كما قال القائل وفي كل شيء له آية تدل على انه واحد وقرأ
عاصم وحمزة في الوصل بكسر اللام والباقون بضمها واما الهمزة من انظروا
فكل القراء يبتدئونه بالضم وما تغني الآيات اي وان كانت في غاية الوضوح
والنذر جمع نذير اي الرسل عن قوم لا يؤمنون في علم الله وحكمه تنبيه
قال البغوي ما هنا يحتمل وجهين الاول ان تكون نفيا بمعنى ان هذه الآيات
والنذر لا تنفع العاقبة في حق من حكم الله تعالى عليه بانه لا يؤمن
كقوله ما يغني عنك المال اذ لم تنفق والثاني ان تكون استفهاما
كقولك اي شيء يغني عنهم وهو استفهام بمعنى الانكار فهل اي فما ينتظرون
اي اهل مكة بتكذيبك الا مثل ايام اي وقائع مثل وقائع الذين
خلوا من قبلهم اي من مكذبي الامم كقوم نوح وعاد وثمود
بمعنى الايام مثل وقائعهم من العذاب قل اي قل لهم يا محمد فانتظروا
اي العذاب اني معكم من المنتظرين اي لنزول العذاب بكم وقوله تعالى ثم
ننجي رسلنا والذين آمنوا عطف على محذوف دل عليه قوله تعالى الا
مثل ايام الذين خلوا من قبلهم كانه قيل نهلك الامم ثم ننجي رسلنا

ومن أمثلة تم على حكاية الاحوال الماضية وقرأ ابو عمرو وحده بكسر الميم
كيدكم كيدا كما يجيء وسلفوا والذين اتوا منهم من الملل كذلك كذلك حقا علينا
ننجي المؤمنين اي ننجيك يا محمد ومن آمن معك وصدقك من المهلكات
والاعذاب بما يليق قوله تعالى حقا يقتضي الوجوب وانه تعالى لا يجب
عليه شيء اجيب بان ذلك حق بحسب الوعد والحكم الالهي حق بحسب
الاستحقاق ولما ثبت ان العبد لا يستحق على خالقه شيئا وعوا عن
بعد المشبه والمشبه به واتبعه بفعله المؤكد وقيل بدل من كذلك وقرئ
حفص والكسائي ننجي بسكون النون الثانية والباقون بفتحها واجمعوا
على ما في جميع القرآن يقفون على ننج لانها ساقطة في الخط ثم يبتدئون
نبجي في القرآن ويقفون على ننج ولا يبتدئون بها لانهم يبتدئون بالياء
فيما في القرآن وقفا ووصلا بلا ياء في الجميع القراء وانما ذكر تعالى الاوليين
على انفي الغايات وابلغ الى ما جاءت امر رسول الله صلى الله عليه وسلم
بان يقول ما يتبين فقال قل يا محمد يا ايها الناس الذين ارسلت اليهم تحققوا اني
دينكم ولم يوضح لكم انه حق وانتم في شك مني اي الذي ادعوكم اليه انه حق
وانه مصدر ذلك وبعد تمام الاصنام التي لا تضر ولا تنفع فان قيل بعبدون
تفيد وما تعبدون اليوم اي غير هو الاصنام التي لا عبادة لها على
شيء والجواب اعبد الله الذي يتوفاكم اي يقبض ارواحكم التي هي عمدة قوى
فانه الذي يستحق العبادة وانما خص الله تعالى بعبادته الموجد للتوحيد
وقيل انهم لما استعجلوا بالعذاب فاجابهم بقوله ولكن اعبد الله
الذي نوعدكم فيه على اسلافكم وانتم به علينا وامرت ان اكون من
المؤمنين اي المصدقين بما جاء من عنده والله وقيل انه لما ذكر العبادة
وهي من اعمال الجوارح عطف عليه ذكر الايمان لانه من اعمال القلوب
فان قيل كيف قاله في شك وغير كفار وهم يعتقدون بطلان ما جاء به
اجيب بانه كان فيهم من شاهد كونه آيات ومعجزات فاحتمل ان يكونوا

في

في امره صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى وان اقم وجهك للدين حنيفا على
ان اكون عين الصلة ان يجعل بينه وبينها في الفرض لا يتخلل بينهما في الفرض
المتعود وصلها بما تعين معنى الصدر لشهادة الامر عليه وصيغ الافعال كلها
كذلك سواء اخبر بها او طلب او اريد بها الاستقامة في الحالين
والاعتداد فيما دا العزائم والاذن بما هو من التوابع او في الصلاة
باستقبال القبلة وقوله حنيفا حال من فاعل اقم اي اقم الدين او من
الوجه ومعناه مما يلائم الدليل عن معوج عنه الى دين آخر وقوله
تعالى ولا تكونن من المشركين اي بمن يشرك شيئا من الاشياء في عبادة غيري
فيه تهييج خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره من امته والتكوين
ايجاد الاعيان وكذا قوله تعالى ولا تدع اي لا تعبد من دون الله اي غيره مما لا
ينفعك اي ان عبدته ولا يضرك ان لم تعبده فان فعلت ذلك فانك اذا
من الظالمين لنفسك لانك وضعت العبادة في غير موضعها والظلم هو
الشيء في غير موضعه فاذا كان ما سوى الحق اكثر ما سوى الحق معرولا عن التعرف
كان اضافة التعرف الى ما سوى الحق وصفا للشيء في غير موضعه
فيكون ظلما ولما ذكر سبحانه وتعالى الالوهية وبين انها لا تقدر على ضر
ولا نفع بين تعالى انه القادر على كل شيء وانه ذو الجود والكرم والرحمة
بقوله تعالى وان يمسسك الله بضر كفقر ومرض فلا كاشف اي
دافع لذلك الا هو لانه الذي انزله بك فان يرد بك خيرا كغنى وصحة فلا راد
اي دافع لفضله اي الذي اراد ان يصيبك به من الخير من يشاء من عباده
وهو المغفور اي البليغ المستر للذنوب الرحيم اي البالغ في الاكرام
وقرأ ابو عمرو وقالون والمكي اي فيكون الهاء والباقون بالكسر فرجع
سبحانه وتعالى جانب الخير على جانب الشر من ثلاثة اوجه الاول انه
تعالى لما ذكر امساس الضر بين انه لا كاشف له الا هو وذلك يدل

على ان قوله تعالى بزيل المضارع لان الاستثناء من النفي اثبات فما ذكر كيف لم يقل بانه
يد فعله على قوله الا ان يشاء الله وذلك يدل على ان الخير مطلوب بالذات
وان الشر مطلوب بالعرض كما قال صلى الله عليه وسلم عن ربه تعالى
انه قال يحمد الله تعالى في هذه الخير بيده بيدي بيدي عن عباده وذلك
يدل على انه جانب الخير اقوى واعلى لان الخالق الله تعالى قال وهو
الغفور الرحيم بعد الامر بالخير يدل على قوة جانب الرحمة وحاصل الكلام
في هذه الاية انه سبحانه وتعالى بين انه مختار في الخلق والايجاد في التكوين
والابداع وانه لا موجود سواه ولا معبود الا اياه وان جميع الممكنات
مستندة اليه والمعتمد في الهية ديمة والرحمة ولا يدخل في عقد ولا
قرر تعالى الدلايل المذكورة في التوحيد والنبوة والمعاد وبين
امر هذه السورة بمنه البينات الدالة على كونه تعالى مبتدئا
بالخلق والابداع والتكوين والاختراع ختمها بمنه الخاتمة الشريفة
العالية بحيث لا يبقى لاحد عذر بقوله تعالى قل يا محمد يا ايها الناس اي
الذين ارسلت اليهم قد جاءكم الحق من ربكم يعني محمدا صلى الله عليه
وسلم جاء بالحق من الله تعالى والقرآن فلم يبق لكم عذر فمن اهتدى اي
آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وعمل بما في الكتاب فانما يهتدي
لنفسه لانه تمسك بالحق الثابت وترك الباطل الزايل فانقذ نفسه من
النار وادخلها الجنة فثواب الاهتداء له ومن ضل اي كفر بما او بشيء منها
فانما يضل عليها اي على نفسه لان وبال ضلاله عليها لان من ترك الباقي
وتمسك بما ليس في يده شيء فقد غرر بنفسه ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم
وما انا عليكم بوكيل اي حفيظ موكول الي امركم وانما انا بشير ونذير قال
ابن عباس وهذه الاية منسوخة بآية السيف قال الله تعالى لنبيه صلى
الله عليه وسلم واتبع يا محمد ما يوحى اليك بالامتثال والتبليغ واصبر اي

على

على دعواتهم وتحمل اذيتهم حتى يحكم الله اي بنصرك عليهم واظهار دينك
او بالامر بالقتال وهو خير الحاكمين اذ لا يمكن الحكم في حكم تعالى لاطلاعه
على السرائر كاطلاعه على الظواهر فحكمه بقتال المشركين والجزية على
اهل الكتاب بعطوها عن يد وهم صاغرون وانشا بعضهم في الصبر
ما صبر حتى يجر الصبر عن صبره ٭ واصبر حتى يحكم الله في امري صابر
حتى يعلم الصبر اني ٭ صبرت على شيء امر من الصبر ٭ وروي اذا بافتاده
تخلف عن تلقي معاوية حين قدم المدينة وقد تلقته الانصار ثم ظن
المدينة فقال له مالك لم تلقنا قال لم يكن عندنا دواب قال فاين
النواضح قال قطعناها في طلبك وطلب ابيك يوم بدر وقد قال
صلى الله عليه وسلم يا معشر الانصار انكم ستلقون بعدي اثرة قال
معاوية فما اذا قال قال فاصبروا حتى تلقوني قال فاصبر قال اذا
نصبر فقال عبد الرحمن بن حسان ٭ الا ابلغ معاوية بن حرب ٭ اقسى
الظالمين فنا كلامي ٭ بانا صابرون فمنتظرو كم ٭ الى يوم التغابن واكفها
وقرأ البيضاوي تبعا للزمخشري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
من قرأ سورة يونس اعطي من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق يونس
وكذب به وبعدد من غرق مع فرعون حديث موضوع ٭
سورة هود عليه السلام مكية الا اقم الصلاة الاية والا
فلعلك تارك الاية واولئك يومنون به الاية مائة وثنتان واثلاث
وعشرون اية وكلماتها الفان وسبعمائة وخمس عشرة وحروفها سبعة
الاف وستمائة وخمسة احرف وعن ابي بكر رضي الله عنه قال قلت يا رسول
الله عجل اليك الشيب قال شيبتني هود واخواتها الحاقة والواقعة
وعم يتساءلون وهل اتاك حديث الغاشية بسم الله اي الذي له تمام
العلم وكمال الحكمة وجميع القدرة الرحمن لجميع خلقه بعموم النعمة والرحيم

الرحيم لاهل ولايته بالحفظ في سلوك سبيله وقوله تعالى الر كتاب مبتدا
وخبر او كتاب خبر مبتدا محذوف وتقدم الكلام على اوايل السور اول سورة
البقرة وقرا ابو عمرو وابن عامر وشعبة والكسائي بالامالة والباقون
بالفتح وقوله تعالى احكمت اياته صفة للكتاب وفسر الاحكام بوجوه
الاول احكمت اياته اي نظمت نظما محكما لا يقع فيه نقض ولا خلل كالبناء
المحكم المرصف ولا يعتريه اختلال من جهة اللفظ والمعنى ولا يستطيع
احد نقض شيء منه قولا الطعن في شيء من بلاغته او فصاحته الثاني
ان الاحكام عبارة عن منع الفساد من الشيء فقوله احكمت اياته اي
لم ينسخ بكتاب كما نسخت الكتب والشرايع به قال ابن عباس رض
الثالث انما احكمت بالحجج والدلايل وجعلت حكيمة منقول من حكم
بالضم اذا صار حكيما لانها مشتملة على امهات الحكم النظرية والعملية
وقوله تعالى ثم فصلت صفة اخرى للكتاب اي بينت بالاحكام
والقصص والمواعظ والاخبار وبالانزال نجما نجما او فصل بعضها من بعض
ما يحتاج اليه او جعلها سورا وقال احسن احكمت بالامر والنهي ثم فصلت
بالوعد والوعيد تنبيه معنى قوله ثم في قوله تعالى ثم فصلت
ليست للتراخي في الوقت لكن في الحال كما تقول هذه محكمة احسن
الاحكام ثم مفصلة احسن التفصيل وفلان كريم ثم كريم الاصل ثم كريم
الفعل وقوله تعالى من لدن حكيم خبير اي الله تعالى صفة اخرى
للكتاب والتقدير الر كتاب من حكيم خبير او خبر بعد خبر والتقدير الر
من لدن حكيم خبير او صفة للاحكمت وفصلت اي احكمت وفصلت من
لدن حكيم خبير وعلى هذا التقدير قد حصل بين اوايل هذه السورة
وبين آخرها مناسبة لطيفة كما يقول تعالى احكمت اياته من لدن حكيم
وفصلت من لدن خبير عالم بكيفيات الامور وقوله تعالى ان لا تعبدوا

الا

الا الله يحتمل وجوها الاول ان تكون مفعولا له والتقدير كتاب احكمت اياته
ثم فصلت لاجل ان لا تعبدوا الا الله الثاني ان تكون مفسرة لان في
تفصيل الايات معنى القول قال الرازي واحمل على هذا اولى لان
قوله تعالى وان استغفروا معطوف على قوله تعالى ان لا تعبدوا فيجب
ان يكون معناه ان تعبدوه ولا تكفروا الامر معطوف على النهي فان
كونه بمعنى ليلا تعبدوا يمنع عطف الامر عليه الثالث ان يكون كلاما
مبتدا منقطعا مما قبله على لسان النبي صلى الله عليه وسلم اخبارا
منه على اختصاص الله تعالى بالعبادة وبدا عليه قوله صلى الله عليه
وسلم انني لكم منه اي الله نذير بالعقاب على الشرك وبشير بالثواب على
التوحيد كانه قال تترك عبادة غير الله تعالى يعني اتركوها انني لكم
منه نذير وبشير كقوله تعالى فضرب الرقاب تنبيه هذه الاية الكريمة
مشتملة على اشياء مرتبة الاولى انهى تعالى امر ان لا تعبدوا الا الله
لانها سواه محدث مخلوق مربوب وانما حصل تكوين الله واجاده
والعبادة اعلى ما يقع عليه اظهار الخضوع والخشوع ونهاية التواضع والتذ
وذلك لا يليق الا بالخالق المدبر الرحيم المحسن فثبت ان عبادة غير الله
تعالى منكر في المرتبة الثانية قوله تعالى وان استغفروا ربكم المرتبة
الثالثة قوله ثم توبوا اليه واختلفوا في بيان الفرق بين هاتين
المرتبتين على وجهين الاول ان معنى قوله تعالى وان استغفروا اي اطلبوا
من ربكم المغفرة لذنوبكم ثم بين الشيء الذي يطلب به ذلك وهو التوبة
فقال ثم توبوا اليه لان الداعي الى التوبة والمحرك عليها هو ان يعلم
الذنب هو عبارة عن طلب المغفرة فالاستغفار مطلوب بالذات والتوبة
مطلوبة لكن كل واحد من مهمات الاستغفار وكمالاته آخر في الحصول كان
اول في الطلب فلهذا السبب قدم ذكر الاستغفار على التوبة

الثاني واذ استغفروا من الشرك والمعاصي ثم توبوا اي ارجعوا اليه بالطاعة
الثالث الاستغفار وطلب من الله تعالى لان الله ما ينبغي والتوبة
تسعي من الانسان في ان الله ما ينبغي فقدم الاستغفار ليدل علي
ان المومن يجب عليه ان لا يطلب الشئ الا من مولاه فانه هو الذي
يقدر علي تحصيله ثم بعد الاستغفار ذكر التوبة لانها عمل باتي به السالك
ويتوسل به الي دفع المكروه والاستعانة بفضل الله تعالى تقدم علي
الاستعانة بسعي النفس ثم انه تعالي لما ذكر هذه المراتب الثلاثة
ذكر بعدها ما يترتب عليها من الاثار المطلوبة ومن المعلوم ان
المطالب محصورة في نوعين لانه اما ان يكون حصولها في الدنيا او في
الاخرة اما المنافع الدنيوية فهي المراد من قوله تعالى يمتعكم متاعا
حسنا اي يطيب عيشكم وسعة رزقكم الي اجل مسمى وهو الموت فانه
قيل ان النبي صلي الله عليه وسلم قال الدنيا تسجن المومن وجنة
الكافر وقال ايضا خص البلاء بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل
وقال تعالي ولولا ان يكون الناس امة واحدة لجعلنا لمن يكفر
بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة فهذه النصوص تدل علي ان
نصيب المشتغل بالطاعة في الدنيا هو الشدة والبلية وتقتضي هذه
الاية ان نصيب المشتغل بالطاعات الراحة في الدنيا فكيف يجمع
بينهما اجيب بان المشتغل بعبادة الله ومحبته مشتغل بحب شئ
يمتنع تغيره وزواله وفناه فكما كان ايمانه في ذلك الطريق اكثر
وتوغله فيه اتم كان انقطاعه عن الخلق اتم واكمل وكلما كان الكمال
في هذا الباب اكثر كان الابتهاج والسرور اكمل لانه آمن من تغير
مطلوبه وآمن من زوال محبوبه واما من كان مشتغلا بحب شئ
لا يكاد ابدا في الراحة من فوات المحبوب وزواله وكان عيشه

منغصا

منغصا وقلبه مضطربا وكذلك قال تعالى في صفة المشتغلين بخدمته
فلنحيينه حياة طيبة وقيل المراد بالمتاع الحسن عدم العذاب بعذاب
الاستيصال كما استاصل اهل القري الذين كفروا وعصوا رسله وقال تعالى
منافع الدنيا بالمتاع لاجل التنبيه علي حقارتها وقلتها وبنه تعالى
علي كونها منقضية بقوله تعالى الي اجل مسمى فصارت هذه الاية دالة
علي كونها حقيرة خسيسة منقضية واما المنافع الاخروية فقد ذكرها
الله تعالى بقوله تعالى ويؤت اي في الاخرة كل ذي فضل اي في العمل فضله
اي جزاءه لان مراتب السعادة في الاخرة مختلفة لانها متعددة بتعداد
الدرجات الحاصلة في الدنيا فما كان الاعراض عن غير الحق والاقبال
علي عبودية الحق درجات غير متناهية فكذلك مراتب السعادة
الاخروية غير متناهية فلهذا السبب قال تعالى ويؤت كل ذي فضل
فضله وقال ابو العالية من كثرت طاعته في الدنيا زادت درجاته
في الاخرة وقال ابن عباس من زادت حسناته علي سيئاته دخل
الجنة ومن زادت سيئاته علي حسناته دخل النار ومن استوت
سيئاته وحسناته كان من اهل الاعراف ثم يدخلون الجنة وعن ابن
عباس مسعود من عمل سيئة كتبت له سيئة ومن عمل حسنة كتبت له
عشر حسنات وان لم يعاقب بها في الدنيا اخذ من حسناته العشر
واحدة وبقي له تسع حسنات ثم يقول ابن مسعود هلك من غلب
احاده عشراته وقد له تعالى فان تولوا فيه حذف احدي التائين اي
وان تعرضوا عما اجتلبكم به من التمدي فاني اي فقل لهم اني اخاف عليكم
عذاب يوم كبير هو يوم القيمة وصف بالكبر كما وصف بالعظم والثقل
وقيل يوم الشدائد وقد ابتلوا بالقحط حتي اكلوا الجيف الي الله مرجعكم
اي رجوعكم في ذلك فيثيب المحسن علي احسانه ويعاقب المسيء علي

آياته وهو على كل شيء قدير اي قادر على جميع المقدورات لا دافع لقضائه
ولا مانع لمشيئته ومنه الثواب والعقاب وفي ذلك دلايل على قدرته
عالية وجلالة عظيمة لهذا الحاكم وعلى ضعف هذا العبد والملك
القاهر العالي اذا رآى عاجزا متمردا على الملك فانه يخالفه من
الملك ومنه المثل المشهور ملكت فاسجح اي فاعف يقول اصفح
هذا الكتاب وقد افنيت عمري في خدمة العلم ومطالعة الكتب ولا رجا
لي في شيء الا اني في غاية الذلة والقصور والكثير مما اقدر عني
فاسالك يا الكريم الاكرمين وارحم الراحمين دساتر عيوب المعيوبين
ان تنيلني سجال رحمتك علي وعلي والدي والدي واخواني
واحبائي وجميع المومنين وان تحفيني واياهم بالفضل والتجاوز
والجود والكرم واختلفوا في سبب نزول قوله تعالى الا انهم يثنون
صدورهم فقال ابن عباس نزلت في الاخنس بن شريف وكان رجلا
حلو الكلام حلو المنظر يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب
ويطوي بعليه على ما يكره فنعى قوله تعالى يثنون صدورهم يخونون
ما في صدورهم من الشحناء والعداوة وقال عبد الله بن شداد نزلت
في بعض المنافقين كان اذا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى
صدره وطاطأ راسه وغمز بجفنه كي لا يراه النبي صلى الله
عليه وسلم كانوا يحنون ظهورهم لا يسمعون كلام الله تعالى ولا ذكره
وروى البخاري عن ابن عباس انما نزلت فيمن كان يستحي ان يتخلى
او يجامع فيفضي الى السما وقيل كان الرجل من الكفار يدخل
بيته ويرخي ستره ويثني ثوبه ويقول هل يعلم الله ما في قلبي
وقال السدي يثنون صدورهم اي يميلونها يقولون عمم ما قولهم بينة
عنا ليستخفوا منه اي من الله تعالى بسترهم فلا يطلع رسوله صلى الله

عليه

عليه وسلم فقد قيل انما نزلت في طايفة من المشركين قالوا انا ارخينا
علينا ستورا واستغشينا ثيابنا وطوينا صدورنا على عداوة محمد كيف يعلم
الاحين يستغشون ثيابهم اي يأوون الى فراشهم ويتغطون بثيابهم يعلم
تعالى ما يسرون في قلوبهم وما يعلنون بافواههم اي انه لا تفاوت
في علمه تعالى بين اسرارهم واعلانهم فلا وجه لتوصلهم الى ما يزيل
من الاخفاء انه تعالى عليم بذات الصدور اي القلوب واحوالها ولما اعلم
تعالى انه يعلم ما يسرون وما يعلنون اردفه بما يدل على كونه عالما بجميع
المعلومات بقوله تعالى وما من دابة في الارض الا على الله رزقها فذكر
تعالى ان رزق كل حيوان انما يصل اليه من الله تعالى فلو لم يكن عالما بجميع
المعلومات لما حصلت هذه المهمات والدابة اسم كل حيوان دب على وجه
الارض ولا شك ان اقسام الحيوانات وانواعها كثيرة وبين الاجناس
التي تكون في البر والبحر والجبال والله تعالى عالم بكيفية طعامها واعطا
واحوالها واغذيتها ومساكنها ومايوافقها ويخالفها وقالت المعتزلة
لاطباق السموات الارض ولطبايع الحيوانات والنبات كيف لا يكون
باحوالها رديا ان موسى عليه السلام عند نزول الوحي اليه تلقى قبله
باحوال العلم فامره الله تعالى ان يضرب بعصاه على صخرة فانشقت
وخرج منها عشرة انهار ثم ضرب بعصاه فانشقت فخرج منها دوده
كالذرة وفي فيها ينبي يجري مجرى الغذاء لها ورفع الله تعالى الحجاب عن
سمع موسى عليه السلام فسمع ان الدودة كانت تقول سبحان من يرانى
ويسمع كلامي ويعرف مكاني ويذكرني ولا ينساني فان قيل ان كلمة على
للوجوب فيلزم على ان الفعال الرزق الى الدابة واجب على الله تعالى اجيب
بانه تعالى انما اتى بذلك تحقيقا لوصوله بحسب الوعد والتفضل والاحسان
وهذا على التوكل فيه وفي هذه الاية دليل على ان الرزق قد يكون حراما

لانه ثبت ان ايصال الرزق الي كل حيوان واجب علي الله تعالي بحسب الوعد
والله تعالي لا يخل بما وعد ثم قد نري ان انسانا لا ياكل من الحلال طول عمره
فلو لم يكن اكرام مرزوقا لكان الله تعالي قد اخل بالواجب وذلك محال فعلمنا
ان اكرام قد يكون مرزوقا ويعلم تعالي مستقرها قال ابن عباس هو المكان
الذي تاوي اليه وتستقر فيه ليلا ونهارا ومستودعها هو الذي تدفن
فيه اذا ماتت وقال عبد الله بن مسعود المستقر ارحام الامهات والمستودع ع
المكان الذي عوتت فيه وقال عطا المستقر ارحام الامهات والمستودع
اصلاب الآباء وقيل الجنة او النار والمستودع القبر لقوله تعالي في
صفة الجنة والنار حسنت مستقرا ومقاما ولا مانع
من ذلك بعد الكل كل اي كل واحدة من الدواب ورزقها ومستقرها
ومستودعها في كتاب اي ذكرها ثابت في اللوح المحفوظ مبين اي بين
كما قال تعالي ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين ولما ثبت تعالي بالدليل
المتقدم كونه عالما بالمعلومات ثبت تعالي كونه قادرا علي كل المقدورات
بقوله تعالي وهو الذي خلق السموات والارض في ستة ايام اي من ايام
الدنيا اذ قبلهما الاحد واخرها الجمعة وتقدم الكلام علي تفسيره ذلك في
سورة الاعراف وكان عرشه علي الماء قال كعب خلق الله تعالي ياقوتة
ثم نظر اليها بالهيبة فصارت ماء ثم خلق الريح فحمل الماء علي متنها
ثم وضع العرش علي الماء وقال ابو بكر الاصم ومعني قوله تعالي وكان عرشه
علي الماء كقولهم السماء علي الارض وليس ذلك علي سبيل كون احدهما
ملتصقا بالاخر وقال الحمزة ان الله تعالي كان عرشه علي الماء ثم خلق
السموات والارض وخلق القلم فكتب به ما هو خالق وما هو كائن من
خلقه ثم ان ذلك الكتاب سبح الله تعالي ومجده الف عام قبل ان يخلق
شيا من خلقه ففي ذلك دلالة علي كمال قدرته تعالي لان العرش مع كونه

اعظم

اعظم من السموات والارض كان علي الماء وقد امسكه الله تعالي من غير
دعامة تحته ولا علاقة فوقه وقوله تعالي ليبلوكم متعلق بخلق اي خلقها
وما فيهما منافع لكم ومصالح ليختبركم وهو اعلم بكم منكم ايكم احسن عملا
اي اطوع لله وارع عن محارم الله وهذا القيام بحجة عليهم وقد مر امثال
ذلك وانما بين تعالي انه انما خلق هذا العالم لاجل ابتلاء المكلفين وامتحانهم
وهذا يوجب القطع بحصول الحشر والنشر لان الابتلاء والامتحان يوجب
تخصيص المحسن بالرحمة والثواب وتخصيص المسيء بالعقاب وذلك لا يتم
الا مع الاعتراف بالمعاد والقيمة خاطب تعالي محمدا صلي الله عليه وسلم فقال
تعالي ولئن قلت يا محمد لهولاء الكفار من قومك انكم مبعوثون من بعد الموت
اي للحساب والجزاء ليقولن الذين كفروا ان اي ما هذا اي القران بالبعث
او النبي تقوله الا سحر مبين اي بين وقراءة الكسائي بفتح السين والف
بعدها وكسر الحاء فيكون ذلك راجعا للنبي صلي الله عليه وسلم والباقون
بكسر السين وسكون الحاء والحكي انه تعالي عن الكفار انهم لم يكذبوا رسوله
صلي الله عليه وسلم حكي عنهم نوعا آخر بقوله تعالي ولئن اخرنا عنهم العذاب
الي امة اي جماعة من الاوقات معدودة اي قليلة ليقولن اي استهزاء
يحبسه اي ما يمنعه من الوقوع قال الله تعالي الا يوم ياتيهم ليس يوم بدر ليس
مصروفا اي مدفوعا العذاب عنهم وحاق بهم اي نزل بهم من العذاب ما كانوا
به يستهزءون اي الذي كانوا يستعجلون في وضع يستهزءون في موضع يستعجلون
لان استعجالهم كان استهزاء فان قيل لم قال تعالي وحاق علي لفظ الماضي
مع ان ذلك لم يقع اجيب بانه وضع الماضي في موضع المستقبل تحقيقا
وبالغة في التاكيد والتقرير والتمديد ولما ذكر تعالي ان عذاب الكفار وان
تاخر الا انه لابد وان يحيق عليهم ذكر بعده ما يدل علي كفرهم وعلي كونهم
مستحقين لذلك العذاب بقوله تعالي ولئن اذقنا اي اعطينا الانسان

اي الكافر فرحة اي نعمة كصحة وسعة بحيث يجد لذتها ثم نزعناها اي سلبناه تلك
النعمة منه انه ليؤوس اي قنوط من رحمة الله لقلة صبره وعدم ثقته بكفور
اي جحود لنعمتنا عليه واما المسلم الذي يعتقد ان تلك النعمة من وجود الله
تعالى وفضله واحسانه فانه لا يحصل له اليأس بل يقول لعله تعالى يردها
علي بعد ذلك احسن واكمل وافضل مما كانت ولئن اذقناه اي الكافر نعما
بعد ضراء مسته كصحة بعد سقم وغنى بعد فقر وفي اختلاف الفعلين وهما
اذقناه ومسته من حيث الاسناد اليه تعالى في الاول والي الضراء في
الثاني نكتة عظيمة وهي ان النعمة صادرة من الله تعالى تفضلا منه
لكن ما احد يدخل الجنة الا برحمة الله تعالى قيل ولا انت يا رسول الله
قال ولا انا والضرر صادر من العبد كسبا لانه السبب فيه باجتلابه
اياه بالمعاصي غالبا لقوله تعالى ما اصابك من حسنة فمن الله وما
اصابك من سيئة فمن نفسك ولا ينافي ذلك قوله تعالى قل كل من
عند الله فان الكل منه ايجادا غير ان الحسنة احسان والاحسان
والسيئة مجازاة والانتقام لجزء ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب
حتى الشوكة تشاكها وحتى انقطاع شسع نعله الا بذنب وما يعفو
الله اكثر ليقولن اي الذي اصابه الصحة والغنى ذهب السيئات اي المصائب
التي اصابتني عني ولم يتوقع زوالها ولا يشكر عليها انه لفرح اي فرح بطر
فخور على الناس بما اذاقه الله تعالى من نعمائه قد شغله الفرح والفخر
عن الشكر فبين سبحانه وتعالى في هذه الاية ان احوال الدنيا غير باقية
بل هي ابدا في التغير والزوال والتحول والانتقال فان الانسان اما
ان يتحول من النعمة الى المحنة ومن اللذات الى الافات كالقسم الاول
واما ان يكون بالعكس من ذلك وهو ان ينتقل من المكروه الى المحبوب
كالقسم الثاني ولما بين تعالى ان الكافر عند الابتلاء لا يكون من

الصابرين

الصابرين وعند الفوز بالنعما لا يكون من الشاكرين بين حال المتقين بقوله
تعالى الا الا الذين صبروا على الضراء وعملوا الصالحات في النعما فانهم
ان اصابتهم شدة صبروا وان نالتهم نعمة شكروا اولئك لهم مغفرة واجر كبير
فجمع لهم تعالى بين هذين المطلوبين احدهما زوال العقاب والخلاص منه
وهو المراد من قوله تعالى لهم مغفرة والثاني الفوز بالثواب ودخول الجنة
وهو المراد من قوله تعالى واجر كبير فلعلك يا محمد تارك بعض ما يوحى اليك
فلا تبلغهم اياه لتهاونهم به فانهم كانوا يستهزؤن بالقرآن ويتحكمون منه
وقد احمزة والكسائي والاما لة محضة وورش بين اللفظين والباقون
بالفتح وضائق به صدرك اي بتلاوته عليهم لاجل انه يقولوا لولا اي
هلا انزل عليه كنز ينفقه في الاستتباع كالملوك او جاء معه ملك يصدقه كما
اقترحوا وروي عن ابن عباس ان رؤساء مكة قالوا يا محمد اجعل لنا جبال
مكة ذهبا ان كنت رسولا وقال اخرون اتينا بالملائكة ليشهدوا على بنوتك
فقال لا اقدر على ذلك فنزل انما انت نذير فلا عليك الا البلاغ لا الاتيان
بما اقترحوه والله على كل شيء وكيل فتوكل عليه فانه عالم بجاهم وفاعل
بهم جزاء افعالهم وافق الميم ام اي بل يقولون اي كفار مكة افتراه اي اختلقه
من تلقاء نفسه وليس هو من عند الله قال الله تعالى قل لهم يا محمد فاتوا
بعشر سور مثله اي في البيان وحسن النظم مفتريات فانكم عربيون مثلي
قال ابن عباس هذه السور التي وقع بها هذا التحدي مدنية وهي
سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف والانفال
والتوبة ويونس وهود وفيه التحدي وقع بمطلق السور وهو متقدم
على التحدي بسورة واحدة والتحدي بسورة واحدة وقع في سورة البقرة
وفي سورة يونس وما تقدم هذه السورة على سورة البقرة ظاهر
لان هذه السورة مكية وسورة البقرة مدنية واما في سورة يونس

فلا ذكل واحدة من هاتين السورتين مكية فتكون سورة هود متقدمة في
النزول على سورة يونس كما قاله الرازي وانكر المبرد هذا وقال بل سورة
يونس اقل لأن قال معنى قوله في سورة يونس فاتوا بسورة مثله اي مثله
في الاخبار عن الغيب والاحكام والوعد والوعيد فعجزوا فقال لهم في سورة
هود ان عجزتم عن الاتيان بسورة مثله في الاخبار والاحكام والوعد
والوعيد فاتوا بعشر سور من غير وعد ولا وعيد وانما هي مجرد البلاغة
وادعوا اي وقال لهم يا محمد ادعوا للمعاونة على ذلك من استطعتم
من دون الله ان كنتم صادقين في انه مفتر عني والضمير في قوله تعالى
فان لم يستجيبوا لكم اي بايتان ما دعتموهم اليه للنبي صلى الله عليه وسلم
والمومنين لانه صلى الله عليه وسلم والمومنين كانوا يتحدونهم وقال
تعالى في موضع آخر فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا ان لتيقظهم النبي صلى الله
عليه وسلم فاعلموا انما انزل متلبسا بعلم الله اي بما لا يعلمه الا الله
تعالى من نظم يعجز المخلوق واخبار بغيوب لا سبيل لهم اليه ولا يقدر عليه
سواه وقوله تعالى وان مخففة من الثقيلة اي وانه لا اله الا هو
وحده وان توحيده واجب والا استمر اكم به ظلم عظيم فهل انتم مسلمون
اي ثابتها بثوت على الاسلام راسخون فيه اذ تحقق عندكم
اعجازه مطلقا وقيل الامر الخطاب للمشركين والضمير في لم يستجيبوا
لمن استطعتم اي فان لم يستجيبوا لكم من تدعونه من دون الله الى المظاهرة
على الاتيان بعشر سور مفتريات لعلمهم بالعجز عنه وان طاقتهم اقصر من ان تبلغه فاعلموا
انه منزل من عند الله وان ما دعاكم اليه من التوحيد حق فهل انتم
بعد هذه الحجة القاطعة مسلمون اي اسلموا وفي مثل هذا الاستفهام
ايجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب
وزوال العذر واختلف في سبب نزول قوله تعالى من كان يريد

الحياة

الحياة الدنيا وزينتها اي بعمله الذي يعمله من اعمال البر نوف اليهم اعمالهم
اي التي عملوها من خير ومنه كصدقة وصلة رحم فيها اي الدنيا وهم فيها
لا يبخسون اي لا ينقصون اجور اعمالهم وافية كاملة من غير بخس في
الدنيا وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرياسة وسعة الرزق وكثرة
الاولاد ونحو ذلك اولئك الذين ليس لهم في الاخرة الا النار وحبط
اي بطل ما صنعوا اي عملوا فيها اي الاخرة فلا ثواب له وباطل ما كانوا
يعملون لانه لغير الله تعالى فقال مجاهد نزلت في اهل الرياء قال صلى الله
عليه وسلم انا ادعو ما اخاف عليكم الشرك الاصغر قالوا يا رسول الله
وما الشرك الاصغر قال الرياء والرياء هو ان يظهر الانسان الاعمال
الصالحة ليحمده الناس ويعتقد وافيه الصالح فهذا هو العمل لغير الله
الذي لغير الله نعوذ بالله من الخذلان وقال اكثر المفسرين انما نزلت
في الكافر واما المومن فيريد الاخرة والدنيا واراده الاخرة غالبة
فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الاخرة وعن انس ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله لا يظلم المومن بحسنة يثاب عليها
الرزق في الدنيا ويجزى بها في الاخرة واما الكافر فيطعم بحسناته في
الدنيا حتى اذا افضى الى الاخرة لم يكن له حسنة يعطى بها خيرا وقيل نزلت
في المنافقين الذين يطلبون بغزوهم مع النبي صلى الله عليه وسلم
الغنائم من دون ان يومنوا بالاخرة ويثابوا عليها وقيل في اليهود والكفار
وهو منقول عن انس ولما ذكر تعالى الذين يريدون باعمالهم الحياة
الدنيا وزينتها ذكر من كان يريد بعمله وجه الله تعالى والدار الاخرة
بقوله تعالى افمن كان على بينة من ربه قيل هو النبي صلى الله عليه
وسلم والبينة هي القران ويتلوه اي يتبعه شاهد يصدقه منه اي من
الله تعالى وهو جبريل ومن قبله اي القران كتاب موسى وهو التوراة

شاهد له ايضا وقوله تعالى اماما اي كتابا مؤتما به في الدين ورحمة اي على
المنزل عليهم لانه الوصلة الى الفوز بخير الدارين حال من كتاب موسى والعامل
محذوف لظهور ه والتقدير اامن كان على بينة من ربه كمن يريد الحياة
الدنيا ومن بينها وليس لهم في الاخرة الا النار ليس مثله بل بينهم تفاوت
بعيد وتباين بين وقيل هو من امن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره
والمراد بالبينة هو البيان والبرهان والمراد بالشاهد هو القرآن وهو
اي من الله ومن قبله كتاب موسى اي في دلالته على هذا المطلوب
لا في الوجود قال الرازي وهذا القول هو الاظهر لقوله تعالى اولئك
يؤمنون به وهذه صيغة جمع ولا يجوز رجوعه الى محمد صلى الله عليه وسلم
اه ويجوز ان تكون للتعظيم او له صلى الله عليه وسلم ومن تبعه ويجوز
ان يكون هذا الولي كما جرى عليه بعض المفسرين والاشارة الى من كان على
بينة والضمير في به للقرآن وانما كان ذلك الفريق ليس له في الاخرة
الا النار فهذا الفريق ليس له الا الجنة ومن يكفر به اي بالنبي صلى الله
عليه وسلم او القرآن من الاحزاب اي اصناف الكفار وقد دخل فيهم اليهود
والنصارى والمجوس فالنار موعده يعني في الاخرة روى سعيد بن
جبير عن ابي موسى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يسمع بي يهودي
ولا نصراني فلا يؤمن بي الا كان من اهل النار قال ابو موسى فقلت
في نفسي ان النبي صلى الله عليه وسلم لا يقول مثل هذا الا عن القرآن
فوجدت الله تعالى يقول ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده دلت على
ان من لا يكفر به كائنة من كانت موعده وقوله تعالى فلا تك في مرية اي شك منه
اي القرآن او الموعد انه الحق من ربك خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم
والمراد غيره لانه صلى الله عليه وسلم لم يشك قط ويؤيد ذلك قوله تعالى
ولكن اكثر الناس لا يؤمنون اي للتعنت وقد بما اوحينا اليك او من ان

موعد

موعد الكفار النار كرر وصف الله تعالى هؤلاء المنكرين ايجادين بصفات كثيرة
في معرض الذم الصفة الاولى كونهم مفترين على الله كما قال تعالى ومن اي لا احد
اظلم ممن افترى على الله كذبا بنسبة الشريك والولد اليه او اسند اليه
ما لم ينزل له او نفى عنه ما انزله الصفة الثانية انهم يعرضون على الله
تعالى في موقف الذل والهوان كما قال تعالى اولئك يعرضون على ربهم اي
يوم القيمة فان قيل هم لا يختصون بهذا الامر عرض عام في كل العباد كما
قال تعالى وعرضوا على ربك صفا اجيب بانهم يعرضون فيفتضحون
بشهادة الاشهاد عليهم كما قال تعالى ويقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على
ربهم فيحصل لهم من الخزي والنكال ما لا مزيد عليه وبهذا تعلم الصفة
الثالثة واختلف في هؤلاء الاشهاد فقال مجاهد هم الملائكة الذين
يحفظون عليهم اعمالهم في الدنيا وقال مقاتل هم الناس كما يقال على رؤس
الاشهاد هو على رؤس الناس وقال قوم هم الانبياء كما قال تعالى فكيف اذا
الذين ارسل اليهم ولفظ الناس والمؤمنين والفاء يقتضي اعتبار قول الاشهاد المبالغة
في اظهار الفضيحة فان قيل الفرض على الله يقتضي ان يكون واجبا في حيز
وهو منزه تعالى عن ذلك اجيب بانهم يعرضون على الاماكن المعدة
للحساب والسؤال او ان يكون ذلك عرضا على من يوكل بامر الله تعالى
من الانبياء والملائكة والاشهاد جمع شاهد كصاحب واصحاب او جمع كشهيد
كشريف واشراف قاله ابو علي الفارسي وكان هذا ارجح لان ما جاء على
ذلك في التنزيل جاء على فعيل لقوله تعالى وجيء بك شهيدا وعن
عبد الله بن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله يدني المؤمن
يوم القيمة فيستره من الناس فيقول اي عبدي تعرف ذنب كذا وكذا فيقول
نعم حتى اذا قرره بذنوبه قال تعالى سترتها عليك في الدنيا وقد غفرتها
لك اليوم ثم تعطى كتاب حسناته واما الكافر والمنافق فيقول الاشهاد

هؤلاء الذين كذبوا علي ربهم وبما اخبر تعالي عن حالهم في المآل بقوله تعالى
الا لعنة الله علي الظالمين فبين تعالي انهم في المآل ملعونون من عند الله
وهذه هي الصفة الرابعة وصفهم بالصفة الخامسة بقوله تعالي الذين
يصدون عن سبيل الله اي دينه ثم وصفهم بالصفة السادسة بقوله تعالي
ويبغونها اي يطلبون السبيل عوجا اي معوجة اي كانهم ظلموا انفسهم
بالتزام الكفر والضلال فقد اضافوا اليه ما يقبح من الدين الحق والغاية
البهيات وتزويج الدلايل المستقيمة لانه لا يقال في العاصي انه يبغي
عوجا وانما يقال ذلك فيمن تمرن كيفية الاستقامة وكيفية العوج
بسبب الغالبيات وتقرر الضلالات ثم وصفهم بالصفة السابعة
بقوله تعالي وهم اي والحال انهم بالاخرة هم كافرون وتكرير لفظة هم
لتاكيد كفرهم وتوغلهم فيه الصفة الثامنة كونهم عاجزين عن الفرار
من عذاب الله كما قال تعالي اولئك لم يكونوا معجزين في الارض اي
ما كانوا معجزين الله في الدنيا ان نياقبهم اذ لا يمكنهم ان يهربوا من عذابه
فان هرب العبد من عذاب الله تعالي محال لان الله تعالي قادر علي جميع
الممكنات ولا تتفاوت قدرته بالقرب والبعد والقوة والضعف
الصفة التاسعة انهم ليس لهم اولياء يقونهم عقاب الله تعالي عنهم كما
قال تعالي وما كان لهم من دون الله اي غير من اولياء اي انصار يمنعونهم
من عذابه الصفة العاشرة مضاعفة العذاب كما قال تعالي يضاعف لهم
العذاب اي بسبب اضلالهم غيرهم وقيل لانهم كفروا بالبعث والنشور
الصفة الحادية عشر قوله تعالي ما كانوا يستطيعون السمع قال قتادة هم
عن سماع الحق فلا يسمعون الخير فينتفعون به وما كانوا يبصرون خيرا فهم
فيأخذوا به قال ابن عباس اخبر الله تعالي انه حال بين اهل الشرك
وبين طاعة الله في الدنيا وفي الاخرة اما في الدنيا فانه قال حكاية عنهم

يستطيعون

يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون واما في الاخرة فانه قال لا يستطيعون
مجاوزة ابصارهم الصفة الثانية عشر قوله تعالي يراهم الذين كفروا
انهم مقترفون فيقولون ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى فكانوا يعبدونهم
الثالث عشر قوله تعالي ويبغونها عوجا فكان ذلك من اعظم وجوه الحسرات
قوله تعالي وحيل اي يحال بينهم وبين ما كانوا يشتهون من الايمان
والرجوع الى الدنيا كما فعل بالاولين الرابعة عشر قوله تعالي لا جرم انهم
في الاخرة هم الاخسرون قوله لا جرم اي حقا انهم في الاخرة هم الاخسرون
لا خسر منهم بعد ان كانوا اشرف الخلق وخير الامم قال الفراء
لا جرم كلمة كان الاصل فيها لا بد ولا محالة ثم كثر استعمالهم حتى صارت
بمعنى حقا تقول العرب لا جرم لاكرمن علي فعلك حتى انك ربما حسن
وقال الزجاج الخسران كل ما فات الانسان مما كان يتمناه لو حصل
له ذلك فان الكافر يتمنى يوم القيامة لو كان مؤمنا ويتمنى العاصي لو كان
مطيعا فلهذا السبب وصفهم الله بالخسران وقيل لانهم خسروا انفسهم
وهذا من احسن ما قيل في هذا الباب وقيل يحتمل ان يرد علي اهل
الكشف كما يرد هذا في حق من ذكرهم في الآية من الكفار والمشركين
يقول الشاعر وانه لحكمة بالغة جزمة ان
يعفوا اي يغفروا اذا رحمت الطغمة فزانة ان يغضبوا وكما ذكر تعالي
حكاية عن الكافرين وضعوا عيوبهم بانكارهم ما كانوا يعبدون في الدنيا وهم
في الاخرة بقوله تعالي ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وخبتوا الى ربهم
ان الخبت في اللغة هو الخشوع والخضوع
وهل يشبه الخلية وشبهه يقال اخبت الرجل فهو مخبت حبتطلا اذا كان
متواضعا واصل الخبت الهبوط اذا عرفت هذا فقوله وخبتوا له فمعناه خشع وخضع له فقوله تعالي
اولئك اصحاب الجنة اشارة الى جميع ما تقدم من الاحوال والصفات
واختتموا اشارة الى اعمال القلوب وهي الخضوع والخشوع لله تعالي وان
جزاء الاعمال الصالحة لا تنفع في الاخرة الا بحصول اعمال القلوب وهي

الخشوع والخشوع اولئك اي الذين هذه صفتهم اصحاب الجنة ثم فيما خالدون
فاخبر تعالى عن دوامهم في الاخرة بما تمنى من الجنة التي لا انقطاع لنعيمها ولا زوال
ولما ذكر سبحانه وتعالى احوال الكفار وما كانوا عليه من العمى عن طريق الحق ومن
الصم عن سماعه وذكر احوال الموحدين وما كانوا عليه من البصيرة وسماع الحق
والانقياد للطاعة ذكر فيما مثالا مطابقا بقوله تعالى مثل اي صفة الفريقين
اي الكفار والموحدين كالاعمى والاصم هذا مثل الكافر شبهه بالاعمى لتعاميه عن ايات
الله وبالاصم لتصامه عن استماع كلام الله وتأبيه عن تدبر معانيه والبصير
والسميع هذا مثل الموحد شبهه بالبصير لادراكه ما يدرك من الكافر
فيكون كل منهما مشبها باثنين باعتبار وصفين او يشبه الكافر بالجامع بين
العمى والصم والموحد بالجامع بين ضدهما على ان تكون الواو في الاصم والبصير
التي لعطف الصفة على الصفة بخلاف في التشبيه الاول فانه لعطف
الموصوف على الموصوف ويصير عند بعطف الذات على الذات هل يستويان
اي هل يستوي الفريقان مثلا اي شبها لا يستويان ويصح ان يكون هذا الصفة
لمصدر محذوف اي استواء مثلا وان يكون حالا من فاعل يستويان وقوله تعالى
افلا تذكرون فيه ادغام التاء الاصل في التاء اي تتعظون بمزجر الامثال
والتامل فيها وقرا حفص وحمزة والكسائي بتحتية فيه الذال والباقون بتاء مشددة
وقد جرت عادة الله تعالى انه اذا ورد على الكفار انواع الدلائل اتبعها
بالقصص ليتذكروها مؤكدا لتلك الدلائل وفي ضمنه المؤمنة ذكر انواع
من القصص القصة الاولى قصة نوح عليه السلام المذكورة في قوله تعالى ولقد
ارسلنا نوحا الى قومه وقرا ابن كثير وابو عمرو والكسائي بفتح الهمزة
اي بانني والباقون بكسرها على ارادة القول نذير مبين اي بين النذارة
احذر من العقاب من خالف الله تعالى وقوله ان لا تعبدوا الا الله بيان لما
اني لكم او مفعول مبين اني اخاف عليكم اي ان عبدتم غير الله عذاب يوم اليم اي

مولم

خلصوني

اي خلصتنا فاكرمتنا بجانبك اي بعطفك وحفظك وهذا يدل على انه عليه الصلاة
والسلام كان قد ذكر لهم بعض ما ذكره الله تعالى له من الدلائل التي استدل بها على التوحيد
والنبوة والتعليم فيه انهم لم يخلوا بشيء من تلك الدلائل التي تقتضي العلم اليقيني بصحة
حرفة الانبياء عليهم الصلاة والسلام وعلى انه تعالى لما اكرمه بتلك الكرامات العظيمة
الخارقة للعادات ما يتكرم الله تعالى بمثلها احدا من الناس فانما يتكرم بها من
الصادقين في الدعوى والمحقين في المقال فكيف يليق بمثل هذا الحال ان يقولوا
للنبي عليه السلام انك مجنون بعد ما شاهدوا منه ما شاهدوا من الامور العجيبة
ان شاء الله تعالى واما قوله لا ابرح ارضكم حتى يأذن لي ابي او يحكم الله لي وهو خير
الحاكمين فالمعنى انه لما ظهر من قومه الاصرار على الكفر والاستمرار على التكذيب
وعلم انه لا فائدة في المقام بينهم ولا في الدعوة اليهم ولا في الهجرة من بينهم
اظهر لهم انه لا بد من الهجرة عنهم وانه لا يفارقهم الا بهذين الامرين اما باذن الله
تعالى واما بحكمه وقضائه وهو قوله او يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ثم انه
عليه السلام لما اظهر لهم انه لا بد من الهجرة عنهم ذكر لهم ما يدل على انه لا بد
من الهجرة عنهم وهو قوله ولا ينفعكم نصحي ان اردت ان انصح لكم فان الله
قد حكم عليكم بالغي والضلال وانه لا ينفعكم نصحي ولا يؤثر فيكم وعظي
وجواب الشرط دل عليه ما تقدم ذكره تقديره ان كان الغي والضلال قد حكم
الله به عليكم فلا ينفعكم نصحي وتقدير الكلام ان كان الله يريد ان يغويكم
فانا لا ينفعكم نصحي ان اردت ان انصح لكم فالله يريد ان يغويكم وقد
علق الشرط على الشرط وتقدير ذلك ما قال رجل لرجل ان دخلت الدار فان
دخلت الدار فانت طالق فشرط في وجود الحكم وقوع الشرط
الثاني قبل وقوع الاول وفي الآية دليل على ان الله تعالى قد يريد الكفر
من العبد فالله اراد الكفر منه لكن ما امر به بل امر بالايمان منه فهو حكم
الله بالكفر والتصريح بقبحه وفي هذه الآية دلالة على ان الكفر والمعاصي
انما كانت بقضاء الله تعالى ام يقولون افتراه اي اختلقه وادعاه من عند نفسه
والمعنى ترجيح ابي الوحي الذي بلغه اليهم قل ان افتريته فعلي اجرامي
وهذا من باب حذف الفاء من الجزاء كقوله تعالى ومن عاد فينتقم الله منه
والمجرمون وضع الظاهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالاجرام وفي الآية
وجه آخر وهو ان المعنى ان كفرت بقولي فعلي عقاب جرمي فان كنت صادقا وكنتم
بقولي فعليكم عقاب تكذيبكم لا تؤاخذون بما اجرمت ولا اؤاخذ بما تعملون
اي من عقاب جرمكم في اسناد الافتراء الي تنبيه اكثر المنصفين على ان هذا
من بقية كلام نوح عليه السلام مع قومه وقال مقاتل ام يقولون اي المشركون
من كفار مكة افتراه اي محمد صلى الله عليه وسلم اختلق القرآن من عند
نفسه وعنفه الآية وقعت بين قصة محمد صلى الله عليه وسلم وبين اتمام قصة نوح
عليه السلام قاله الرازي وقيل بعيد جدا واوحي الى نوح انه لن يؤمن
من قومك اي لن يصدق على الايمان لقوله تعالى الا من قد آمن قال ابن عباس
ان قوم نوح كانوا اثني عشر الف بيت حي يستطيلون على البر والفاجرة في بيت
يظنون انه قد مات فيخرج في اليوم الثاني وينذرهم الى الله تعالى ويدعوهم الى الله تعالى ويروي
ان شيخا منهم جاء متوكيا على عصاه ومعه ابنه فقال لابنه لا يغرنك هذا
الشيخ المجنون فقال يا ابتاه ممكني من العصا فاخذها منه وضرب بها
نوحا عليه السلام حتى سجه شجة منكرة فاوحى الله تعالى اليه انه لن يؤمن من
قومك الا من قد آمن فلا تبتئس اي تحزن عليهم فاني مهلكهم بما اي بسبب ما
كانوا يفعلون من الشرك وتنقدكم منهم فلم يدع عليهم نوح عليه السلام
فقال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا وحكى محمد بن اسحاق عن
عبيد بن عمير الليثي انه بلغه انهم كانوا يبطشون به فيخنقونه حتى يغشى عليه
فاذا افاق قال رب اغفر لقومي فانهم لا يعلمون حتى تمادى في المعصية وبشر
عليه منهم البلاء وهم ينظرون من الجبل الى الجبل فلا يأتي قوم الا كان اخبث
من الذين قبلهم ولقد كان يأتي القرن الآخر منهم فيقول ولقد كان هذا الذي
مع اباينا واجدادنا هذا مجنونا فلا يقتلون منه شيئا فشكى الى الله تعالى
فقال رب اني دعوت قومي ليلا ونهارا واني قال رب لا تذر على الارض من
الكافرين ديارا فاوحى الله تعالى اليه واصنع الفلك اي السفينة باعيننا قال ابن
عباس بمرأى منا وقال مقاتل بعلمنا وقيل بحفظنا ووحينا اي بما امرناك به كيف
تصنعها ولا تخاطبني في الذين ظلموا اي ولا تراجعني في الكفار والدعاء في شأنهم

استند فاجاء الغيض ابن علقمة انهم مغرقون اي يحكم عليهم بالغرق فلا سبيل الى كشفه وقيل لا تخاطبني في ابنك كنعان واسراتك راعلة فانهما الكافرتان مع القوم ومعنى ويحان تجيء عليه السلام اتيتنا فقال ان ربك يامرك ان تصنع الفلك قال كيف اصنع وليست بنجار قال انا نريك يقول اصنع فانك باعيننا فاخذ القدوم فجعل ينجر ولا يدري وصفها فعلمها مثل جوجو الطير وفي قوله تعالى ويصنع الفلك قولان احدهما انه حكاية حال ماضيه اي يعني بذلك الوقت كان يصدق عليه انه يصنع الفلك الثاني التقدير فاقبل يصنع الفلك فاقتصر على قوله ويصنع الفلك ومعنى ان نوحا عليه السلام اقبل على عمل ما ولم يعرف نوح وجبل يقطع الخشب ويضرب الحديد ويبني عدة الفلك من القار وغيره وجعل قومه يمرون عليه ويسخرون منه كما قال تعالى وكلما مر عليه ملا اي جماعة من قومه سخروا منه اي استهزؤا به ويقولون يا نوح قد صرت نجارا بعد النبوة فاعقم الله ارحام نسائهم فلا تولد لهم ولد قال ابن عباس رضي الله عنهما اتخذ نوح عليه السلام السفينة في سنتين وكان طول السفينة ثلاثمائة ذراع وكانت من خشب الساج وعرضها خمسمائة وجعل لها ثلاث بطون فجعل في البطن الاول الوحوش والدواب وفي البطن الاوسط الدواب وركب هو ومن معه البطن الاعلى مع ما يحتاج اليه من الزاد وقال قتادة كان بابها في عرضها وروي عن ابن كثير كان طولها الف ذراع ومائتي ذراع وكانت من خشب الساج وعرضها ستمائة وقيل ان الجودي قالوا لعيسى عليه السلام لو بعثت لنا رجلا يكلمنا يشهد لسفينة نجد ثمنها فانطلق بهم حتى اتى بهم الى كثيب من تراب فاخذ كفا من ذلك التراب فقال اتعرفون من هذا قالوا الله ورسوله اعلم قال كعب بن حامر هم قال فضرب الكثيب بعصاه فقال قم باذن الله فاذا هو قائم ينفض عن راسه وقد شاب فقال له عيسى عليه السلام هكذا هلكت قال لا ولكني مت وانا

شاب

شاب ولكني ظننت ان قيام الساعة قد حدثنا عن سفينة نوح قال كانت طولها الف ذراع وكانت ثلاث طبقات للدواب والوحوش طبقة وطبقة للانس وطبقة للطير فلما كثرت الدواب اوحى الله تعالى الى نوح عليه السلام ان اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فاقبلا على الروث ولما فسد القار في السفينة فجعل يفر عن احشائها فاوحى الله تعالى اليه ان اضرب بين عيني الاسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة وهو القط فاقبلا على القار فاكلاه قال الرازي واعلم ان هذه المباحث لا يحتاج اليها مفسر لاحاجة اليها معرفتها البتة ولا يتعلق بمعرفتها فائدة البتة فكان الخوض فيها من باب الفضول لا سيما مع القطع بانه ليس في هذا ما يدل على الجواب الصحيح والذي نعلمه انها كانت في السعة بحيث تسع المومنين من قومه وما يحتاجون اليه لحصول زوجين من كل حيوان لان هذا القدر مذكور في القرآن وما عداه لا دليل قاطع على ما يتعين ذلك القدر فغير معلوم قال ليهم لما يسخرون منه ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون اذا جهلتم وعرفتم فان قيل السخرية لا تليق بمنصب النبوة اجيب بان ذلك ذكر على سبيل المجاز في مشاكلة الكلام كما في قوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها والمعنى ان تسخروا منا فسوف يعاقبكم الله على فعلكم وهو قوله تعالى فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه اي يفضحه في الدنيا وهو الغرق ويحل عليه في الاخرة عذاب مقيم وهو النار التي

للانقطاع لهما وقوله تعالى حتى اذا جاء امرنا بالعذاب كلهم غاية لقوله ويصنع الفلك وما بينهما حال من الضمير في فيه ويجري بي التي يبتدأ بعدها الكلام واختلف في التنور في قوله تعالى وفار التنور فقال عكرمة والزهري هو وجه الارض وذلك انه قيل لنوح عليه السلام اذا رأيت الماء قار على وجه الارض فاركب السفينة وروي عن علي رضي الله عنه قال فار التنور وقت طلوع الفجر ونور الصبح وقال الحسن ومجاهد والشعبي انه التنور الذي يخبز فيه وهو قول اكثر المفسرين ورواية عطية وابن عباس لان حمل الكلام على حقيقته ولفظ التنور حقيقة هو الموضع الذي يخبز فيه وهو قول اكثر المفسرين فوجب حمل اللفظ عليه وهؤلاء اختلفوا منهم من قال انه تنور نوح ومنهم من قال انه كان لآدم عليه السلام قال الحسن كان تنورا من حجارة كانت حواء تخبز فيه فصار الى نوح فقيل لنوح عليه الصلاة والسلام اذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب السفينة انت واصحابك واختلفوا اليه في موضعه فقال مجاهد والشعبي كان في ناحية الكوفة وكان الشعبي يحلف بالله ما فار التنور الا من ناحية الكوفة وقال اتخذ نوح عليه الصلاة والسلام السفينة في جوف مسجد الكوفة وكان التنور على يمين الداخل مما يلي باب كنده وكان فوران الماء منه عظيما لنوح عليه الصلاة والسلام وقال مقاتل كان تنور آدم عليه الصلاة والسلام وكان بالشام بموضع يقال له عين وردة وروي عن ابن عباس انه كان بالهند وحين فار نبع على قمة جبل بالهند تنبيها لجبل الهند عند قمة السماء لئلا يتوهموا ان التنور لا يفور الا من الماء من التنور فلما فار امر الله تعالى نوحا عليه السلام ان يحمل في السفينة ثلاثة انواع من الاشياء الاول قوله تعالى قلنا احمل فيها اي السفينة من كل زوجين اثنين والزوج عبارة عن كل شيء يكون احدهما توأما للآخر المثنى

والتقدير

والتقدير من كل شيئين هما كذلك فاحمل منهما في السفينة اثنين واحذف من واحد اثنين وفي القصة ان نوحا عليه السلام قال يا رب كيف احمل من كل زوجين اثنين فحشر الله تعالى اليه السباع والطير فجعل يضرب بيديه في كل جنس فيقع الذكر في يده اليمنى والانثى في يده اليسرى فيحملهما في السفينة وقراءة من ينون لا على كل اي واحمل من كل شيئين زوجين اثنين الذكر زوج والانثى زوج فان قيل ما الفائدة في قوله زوجين اثنين والزوجان لا يكونان الا اثنين اجيب بانه هذا على مثال قوله تعالى لا تتخذوا الهين اثنين وقوله تعالى نفخة واحدة والجواب بغير تنوين فهذا السؤال عين سؤال ورد النوع الثاني من الاشياء التي امر الله تعالى نوحا عليه السلام ان يحملها في السفينة قوله تعالى واهلك وهم اهله وزوجته وقوله تعالى الا من سبق عليه القول يا بانه من المغرقين وهو ابنه كنعان واهمل علة وكانا كافرين حكم الله تعالى عليهما بالهلاك كنعان سام وحام ويافث وزنه جاثم ثلاثة وزوجته المسلمة فان قيل الانسان اشرف من سائر الحيوانات فلم ابداء بالحيوان اجيب بان الانسان عاقل نفسه لفضله مضطر الى رفع اسباب الهلاك عن نفسه فلا حاجة به الى المبالغة في الترغيب بخلاف السعي في تخليص سائر الحيوانات فلهذا السبب وقع الابتداء به النوع الثالث من الاشياء التي امر الله تعالى نوحا عليه السلام بحملها في السفينة قوله تعالى ومن آمن اي واحمل معك من آمن من قومك واختلف في العدد الذي ذكره الله تعالى بقوله تعالى وما آمن معه الا قليل فقال قتادة وابن جريج لم يكن معه في السفينة الا ثمانية نفر نوح وامرأته المسلمة وثلاثة بنين لهم وهم حام وسام ويافث ونساؤهم وقال ابن اسحاق كانوا عشرة فسمى نساءهم نوح وبنوه الثلاثة وستة اناس ممن كان آمن به وازواجهم جميعا وقال

مجاهد كانوا اثنين وسبعين نفرا رجلا وامرأة وعن ابن عباس قال كان في سفينة
نوح ثمانون نصفهم رجال ونصفهم نساء وقال الطبري والصواب من القول
في ذلك ان يقال كما قال الله تعالى وما آمن معه الا قليل فوصفهم بالقلة
فلم يجد عددا بمقدار فلا ينبغي ان يجاوز في ذلك حد الله تعالى اذ لم يرد
به عدد في كتاب الله تعالى ولا في خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم وتقدم بحث ذلك عن الرازي وقال مقاتل حمل نوح في السفينة
جسد آدم عليه السلام فجعله معترضا بين الرجال والنساء وقيد
نوح عليه السلام جميع الدواب والطير فجعل ما قال ابن عباس اول ما حمل
نوح الدقة وآخر ما حمل الحمار ودخل صدره فتلقى ابليس بذنبه فلم يستقل
رجلاه فجعل نوح يقول ويحك ادخل فنهض فلا يستطيع حتى قال ويحك
ادخل وان كان الشيطان معك فلما قالها فخلى
الشيطان سبيله فدخل ودخل الشيطان معه فقال نوح ما ادخلك
علي يا عدو الله قال الم تقل ادخل وان كان الشيطان معك فكان معه على ظهر
السفينة هكذا نقله البغوي قال الرازي واما الذي يرد ان ابليس
دخل السفينة فيبعد لانه من الجن وهو جسم ناري او هوائي فكيف يوثق
الحق فيه وايضا كتاب الله تعالى لم يدل عليه ولم يرد في ذلك خبر
صحيح فالاولى ترك البحث عن ذلك قال البغوي وروي ان بعضهم لما
قال له ادخل وان كان الشيطان معك قال له نوح اخلنا معك فقال
انكم بسبب البلاء فلما اخلتنا فانا نضمن لك ان لا نفر احدا ذكرك
فخرجوا حين كافأ نوح ثم سلام على نوح في العالمين لم يعزاه وقال الحسن
لم يحمل نوح في السفينة الا ما يلد ويبيض فاما ما يتولد من الطين من حشرات
الارض كالبق والبعوض فلم يحمل منها شيئا وقال نوح لمن معه اركبوا اي اصعدوا
فيها اي السفينة وجعل ذلك ركوبا لانها في الماء كالمركب في الارض وقوله بسم

الله

الله مجراها ومرساها متصل باركبوا حال من الواو في اركبوا اي اركبوا فيها مسمين
الله اوقائلين بسم الله وقت اجرائها وارسائها قال الضحاك كان نوح اذا اراد
ان تجري السفينة قال بسم الله جرت واذا اراد ان ترسو قال بسم الله رست
وقرأ حفص وحمزة والكسائي بضم الميم من جرت ورست اي جريها ورسوها
وهما مصدران والباقون بفتح الميم من اجريت وارسيت اي بسم الله اجراؤها
وارساؤها وامالة الالف بعد الراء ابو عمرو وحفص وحمزة والكسائي محضة
ودرش بين اللفظين والباقون بالفتح وذكر ابو علي عامل الاعراب في بسم الله
وجوها الاول اركبوا بسم الله الثاني ابدوا بسم الله الثالث بسم الله اجراؤها
ان ربي لغفور رحيم اي لولا مغفرته لنا طالما نكر ورحمته اياكم لما كان كرمه وقوله
تعالى وهي تجري بهم متعلق بمحذوف دل عليه اركبوا اي اركبوا اسمي الله
تعالى وهي تجري وهم فيها في موج وهو ما ارتفع من الماء اذا اشتدت عليه الريح
كالجبال في عظمه وارتفاعه على الماء قال الضحاك ما بين السماء الى
الارض اربعين يوما وليلة وخرج الماء من الارض فذلك قوله تعالى ففتحنا
ابواب السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على امر قد قدر
فصار الماء خمسة عشر ذراعا فوق اعلى جبل وطوله اربعين ذراعا وقيل خمسة عشر ذراعا حتى اغرق كل شيء
وروي انه لما كثر الماء في السكك خافت امرأة على ولدها من
الغرق وكانت تحبه حبا شديدا فخرجت به الى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما
بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثيه فلما بلغها الماء ذهبت حتى استوت
على الجبل فلما بلغ الماء رقبتها رفعت الصبي بيديها حتى ذهبت به الماء
فلو رحم الله تعالى منهم احدا لرحم هذه المرأة وما قيل من ان الماء طبق
ما بين السماء والارض وكانت السفينة تجري في جوفه كما تسبح السمكة
فليس ثابت قال البيضاوي والمشهور انه علا على سنام الجبل خمسة

ذراعا فان هي انه طبق ما بين السماء والارض فلعل ذلك اي ما ذكر من علو
الموج بعد التطبيق وناديه نوح ابنه كنعان وكان كافرا كما مر وقيل كان
اسمه ايام وكان في معزل عزل دينه نفسه اما عن ابيه او دينه ولم يركب معه
واما عن السفينة واما عن الكفار كانه انفرد عنهم وظن نوح عليه السلام
ان ذلك انما كان لانه احب مفارقتهم ولذلك ناداه بقوله يا بني اركب
معنا في السفينة وقرأهما بفتح الياء قنبل على الفتح من الالف
المبدلة من ياء الاضافة في قوله يا بنيا والباقون بالكسر على الوصل
ليدل على ياء الاضافة المحذوفة كما قال الشاعر • يا ابنة عمي لا تلومي
واهجعي • بحذف الالف للتخفيف ولا تكن مع الكافرين اي في دين
ولا مكان فتهلك ولما قال له ذلك قال ساوي اي اتنجي واصير الى جبل
يعصمني اي يمنعني من الماء قال له نوح عليه السلام لا عاصم اي لا مانع
اليوم من امر الله اي من عذاب الله وقوله الا من رحم استثناء منقطع كانه
قيل ولكن من رحمه الله فهو المعصوم كقوله تعالى ما لهم به من علم الا
اتباع الظن وقيل الا من رحم اي الا الراحم وهو الله تعالى وقيل الا مكان
من رحمه فانه مانع من ذلك وهو السفينة وحال بينهما اي بين نوح وابنه
او بين نوح وابنه او بين الجبل الموج المذكور في قوله موج كالجبال فكان ابنه من
المغرقين اي فصار من جملة المهلكين بالماء لما تناهى الطوفان واغرق قوم نوح
وقيل اي قال الله تعالى او ملك بامره تعالى يا ارض ابلعي ماءك اي اشربيه
ويا سماء اقلعي اي امسكي ماءك نادى كلا منهما بما ينادى به الحيوان الممكن عن
لفظ التخصيص والاقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات تهييجا
امرهما بما يؤمر به اهل التمييز والعقل عثيلا لكمال انقيادهما لما شاء ان
تكوينه فيهما وههنا همزتان مختلفتان من كلمتين الاولى مضمومة والثانية
مفتوحة قرأ ابو عمرو ونافع وابن كثير بابدال الثانية واوا خالصة

والباقون

والباقون بالتحقيق وغيض الماء اي نقص وذهب وقرأهشام والكسائي
باشمام الغين وهو ضم الغين قبل الياء والباقون بالكسر وكذا وقيل وقضي
الامر اي انجز ما وعد من اهلاك الكافرين وانجاء المومنين اي استقرت
السفينة واستوت على الجودي وهو جبل بالجزيرة قريب من الموصل
وقيل او قاله الله تعالى او ملك بامره بعدا اي هلاكا للقوم الظالمين
وجيء باخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء ان
تلك الامور العظام لا تكون الا بفعل فاعل قادر وتكوين مكون قاهر
وان فاعلها فاعل واحد لا يشاركه في افعاله فلا يذهب الوهم الى ان
يقول غيره يا ارض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي ولا ان يبقى في ذلك الامر
لبسا على غيره ولا ان تستوي على متن الجودي ونستقر عليه الا بتسويته
واقراره ورويت ان السفينة لما استقرت بعث نوح عليه السلام الغراب
ليأتيه بخبر الارض فوقع على جيفة فلم يرجع فبعث الحمامة فجاءت بورق
زيتون في منقارها وعلمت رجليها بالطين فعلم نوح ان الماء قد نقص فقبل
الله تعالى عذر الغراب بانكي في قلة الاياب البيوت وطوق الحمامة الخضرة
التي في عنقها ودعا لها بالامان فمن ثم تألف البيوت ورويت ان نوحا
ركب السفينة لعشر مضت من رجب وجرت بهم السفينة ستة اشهر ومر
بالبيت العتيق وقد رفعه الله تعالى من الغرق وبقي موضعه طائف
السفينة به سبعا ووضع الحجر الاسود في جبل ابي قبيس وهبط نوح ومن
معه في السفينة يوم عاشوراء فصامه نوح وامر من معه بصيامه شكرا
لله تعالى وبنوا قرية بقرب الجبل وسميت سوق ثمانين فهي اول قرية
عمرت على وجه الارض بعد الطوفان وقيل انه لم ينج احد من الكفار من الغرق
غير عوج بن عنق وكان الماء لا يصل الى حجزته وهذه الاية باقية على
القول بانطباق الماء قال هذا القائل وسبب نجاته ان نوحا احتاج

اليه خشب ساج للسفينة فلم يمكنه نقله فحمله عوج اليه من الشام فجاءه الله تعالى
من الغرق بذلك فان قيل كيف اغرق الله تعالى من لم يبلغ الحلم من الاطفال
اجيب بانه تعالى يتصرف في خلقه كما يشاء لا يسأل عما يفعل وقيل ان الله اعقم
ارحام نسائهم اربعين سنة فلم يولد لهم تلك المدة ونادى نوح ربه
اي دعاه وسأله فقال رب ان ابني من اهلي وقد وعدتني ان تنجيني واهلي
وان وعدك الحق اي الصدق الذي لا خلف فيه وانت احكم الحاكمين لانك
اعلمهم واعدلهم فان قيل اذا كان النداء هو قوله رب فكيف عطف قال رب
علي نادى بالفاء اجيب بان الفاء تفصيل المجمل نادى مثلها في توضأ
فغسل وقيل نادى اي اراد ندائه فقال رب قال الله تعالى له يا نوح انه
اي هذا الابن الذي سألت نجاته ليس من اهلك اي المحكوم بنجاتهم
لايمانهم وكفره ولهذا علله بقوله تعالى انه عمل غير صالح وقرأ الكسائي
بكسر الميم ونصب اللام بغير تنوين ونصب الراء اي عمل الكفر والتكذيب
وكل هذا غير صالح والباقون بفتح الميم ونصب رفع اللام منونة ورفع
الراء اي ذو عمل غير صالح او صاحب عمل غير صالح فجعل ذات العمل للمبالغة
كقولك لكنسا تقف ناقة ترتع فانما هي اقبال وادبار واختلف علماء
التفسير هل كان ذلك الولد ابن نوح او لا على اقوال الاول وهو قول
ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والاكثرون انه ابنه
حقيقة ويدل عليه انه تعالى نص عليه فقال ونادى نوح ابنه ونوح
الفتى عليه فقال يا بني وصرف هذا اللفظ الى انه ربيبه واطلق عليه
اسم الابن لهذا السبب صرف الكلام عن حقيقته الى مجازه من غير
ضرورة القول الثاني انه كان من امرأته وهو قول محمد بن علي الباقر
وقول الحسن البصري القول الثالث وهو قول مجاهد والحسن انه
ولد حيث ولد على فراشه ولم يعلم نوح بذلك والاظهر هو القول الاول بدليل

تعالى

لي تعالى في امرأة نوح وامرأة لوط فخانتاهما قال الرازي وهذا قوله
حيث يجب صونه منصبه الانبياء عن هذه الفضيحة لاسيما وهو خلاف نص
القرآن وقد قيل لابن عباس ما كانت تلك الخيانة فقال كانت امرأة
نوح تقول زوجي مجنون وامرأة لوط تدل الناس على ضيفه اذا نزل به
فلا تسألني ما ليس لك به علم اي بما لا تعلم الجواب هو ام لا لان اللائق
بامثالك من اولي القرب بنا امورهم على التحقيق وقرأ نافع وابن كثير
وابن عامر بفتح اللام وتشديد النون والباقون بسكون اللام
وتخفيف النون واثبت الياء بعد النون في الوصل دون الوقف
ورش وابو عمرو وحذفها الباقون وصلا اني اعظك اي ابو اعلم كراهة
ان تكون من الجاهلين فتسأل مثل ما يسأل الجهال وانما سمي ذلك سؤالا
لتضمنه ذكر الوعد بنجاة اهله واستجازه في شأن ولده قال نوح رب
اني اعوذ بك ان اي من ان اسألك في شيء من الاشياء ما ليس لي به علم
تأديبا بأدبك واتعاظا بوعظك والا تغفر لي اي الآن ما فرط مني
وفي المستقبل ما يقع مني وترحمني اي لتنزلني ومهما وتكرمني اكن من
الخاسرين اي الغريقين في الخسارة فان قيل هذا يدل على عصمة
الانبياء لوقوع هذه الزلة من نوح عليه السلام اجيب بان الزلة
الصادرة من نوح انما هي كونه لم يستفت ما يدل على نفاق ابنه وكفره
لانه قد كان من اولي العزم من الرسل كما ذكر يظهر كفره وهو من يظهر ايمانه
ومنافق لا يعلم حاله في نفس الامر وقد كان حكم المؤمنين هو النجاة
وحكم الكافرين هو الغرق وكان ذلك معلوما دائما اهل النفاق
فنجى امرهم مختفيا وكان ابن نوح منهم وكان يجوز فيه كونه مؤمنا
وكانت الشفقة المفرطة التي تكون للاب في حق الابن تحمله
على جعل احماله وافعاله لا على كونه كافرا بل على الوجه الصحيح

فاخطأني ذلك الاجتهاد كما وقع لادم عليه السلام في الاكل من الشجرة فلم يصدر عنه الا الخطأ في الاجتهاد فلم يقدر عنه معصية فلجأ الى ربه تعالى وخشع له ودعاه وسأله المغفرة والرحمة كما قاله ادم عليه السلام ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين لان حسنات الابرار سيئات المقربين **قيل** اي قال الله تعالى او ملك بامره **يا نوح اهبط** اي انزل من السفينة او من الجبل الى الارض المستوية **بسلام** اي بتسليم وامن وسلامة **منا** وذلك ان الغرق لما كان عاما في جميع الارض فعند ما خرج عليه السلام من السفينة علم انه ليس في الارض شيء مما ينتفع به من النبات والحيوان فكان كالخائف في انه كيف يعيش وكان يدفع حاجات الحاجات عن نفسه من الماكول والمشروب فلما قال الله تعالى اهبط بسلام منا ازال عنه ذلك الخوف لان ذلك يدل على حصول السلامة وان لا تكون الاحوال الا من وسعة الرزق ثم ان الله تعالى لما وعده بالسلامة اردفه بما وعده بالبركة بقوله تعالى **وبركات عليك** وهو عبارة عن الدوام والبقاء والثبات لان بمشيئة الله تعالى صير نوحا ابا البشر لان جميع من بقي كانوا من نسله لان نوحا لما خرج من السفينة مات كل من كان معه فلم يكن من ذريته ولم يحصل النسل الا من ذريته فالخلق كلهم من نسله لانه لم يكن معه في السفينة الا من كان من نسله وذريته وعلى التقديرين فالخلق كلهم من ذريته ويدل على ذلك قوله تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين فثبت ان نوحا كان آدم الاصغر فكان ابا الانبياء والخلق بعد الطوفان كلهم منه ومن ذريته وكان بعض نوح وآدم عليهما السلام احياء وقوله تعالى **وعلى امم ممن معك** يحتمل ان تكون من للبيان فيراد الامم الذين كانوا معه في السفينة لانهم كانوا اجماعات وقيل لهم امم لان الامم تتشعب منهم وان تكون لابتداء

الغاية اي على امم ناشئة ممن معك وهي الامم الى آخر الدهر قال في الكشاف وهذا لوح وقوله تعالى **وامم** بالرفع على الابتداء وقوله تعالى **سنمتعهم** اي في الدنيا صفة واخبر محذوف تقديره وممن معك امم سنمتعهم وانما حذف لان قوله ممن معك بدل عليه والمعنى ان السلام منا والبركات عليك وعلى امم مؤمنين يتشاءبون ممن معك وممن معك امم يتمتعون في الدنيا **ثم يمسهم منا عذاب اليم** في الاخرة وهم الكفار وعن محمد بن كعب القرظي دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيمة وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر وقيل المراد بالامم الممتعة قوم هود وصالح ولوط وشعيب ولما شرح تعالى قصة نوح عليه السلام على التفصيل قال تعالى **تلك** اي قصة نوح التي شرحناها ومحل تلك رفع على الابتداء وخبرها **من انبا الغيب** اي من الاخبار التي كانت غائبة عنك الحقتي وقوله تعالى **نوحيها اليك** خبر ثان والضمير لها اي موحاة اليك وقوله تعالى **ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا** اي نزل القرآن حتى آخر قرأ المعنى ان هذه القصة مجهولة عندك وعند قومك من قبل ايحائنا اليك ونظير هذا الدليل قول انسان لآخر لا يعرف هذه المسئلة لا انت ولا اهل بلدك فان قيل وقد كانت قصة طوفان نوح مشهورة عند اهل العلم اجيب بان ذلك كان بحسب الاجمال واما التفاصيل المذكورة فما كانت معلومة لاربابه صلى الله عليه وسلم كان اميا لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يعلمها وكذلك كانت امته ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم **فاصبر** اي انت وقومك على اذى هؤلاء الكفار كما صبر نوح وقومه على اذى اولئك الكفار **ان العاقبة للمتقين** اي الشرك والعاصي وفي هذا تنبيه على ان الصبر عاقبته الفرج والسرور كما كانه لنوح ولقومه فان قيل لهذه القصة ذكرت في يونس فما الحكمة

والغاية في اعادتها آجيب بان العقصة الواحدة قد يتنوع بها من وجوه
ففي السورة الاولى كان الكفار يستعجلون نزول العذاب فذكر تعالى
قصة نوح في بيان ان قومه كانوا يكذبونه بسبب ان العذاب ما كان
يظهر بعد في العاقبة ظهر فكذا في واقعة محمد صلى الله عليه وسلم
وفي هذه السورة ذكرت لاجل ان الكفار كانوا يبالغون في الايحاش
فذكرها الله تعالى لبيان ان اقدام الكفار على الايذاء والايحاش كان حاصلا
في زمان نوح عليه السلام فلما صبر فاز وظفر فكذا يا محمد كذلك تنال
المقصود ولما كان وجه الانتفاع بهذه العقصة في كل سورة من وجه
آخر لم يكن تكرير ها خاليا عن الحكمة والفائدة العقصة الثانية من
القصص التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة قصة هود عليه السلام
المذكورة في قوله تعالى واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح
عطف على قوله تعالى بوحا وقوله تعالى هودا عطف بيان ومعلوم ان تلك
الاخوة ما كانت في الدين وانما كانت في النسب لان هودا كان رجلا
من قبيلة عاد قبيلة من العرب كانوا بناحية اليمن فان قيل انه
تعالى قاله في ابن نوح انه ليس من اهلك فبتني ان قرابة النسب لا
تفيد اذا لم تحصل قرابة الدين وهنا اثبت الاخوة مع الاختلاف في
الدين اجيب بان قوم محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يستبعدون ان
يكون رسولا من عند الله مع انه واحد من قبيلتهم فذكر الله تعالى ان
هودا كان واحدا من عاد وان صالحا كان واحدا من ثمود لازالة هذا
الاستبعاد ولما تقدم امر نوح عليه السلام هل هو مثل قوله اولا
فاستانف الجواب بقوله قال يا قوم اعبدوا الله اي وحدوه ولا تشركوا
معه شيأ في العبادة ما لكم من اله غيره اي هو الهكم لا هذه الاصنام التي
تعبدونها فانها حجارة لا تضر ولا تنفع فان قيل كيف دعاهم الى عبادة الله

قبل

قبل اقامة الدليل على ثبوت الاله آجيب بان دلائل وجود الله تعالى ظاهرة
وهي دلائل الافاق والانفس وكل ما يوجد في الدنيا طائفة ينكرون
وجود الاله ولذلك قال تعالى في صفة الكفار ولئن سألتهم من خلق السموات
والارض ليقولن الله وقرأ الكسائي بكسر الراء والتاء صفة على اللفظ
والباقون صفة على محل الجارة والمجرور ومن زائدة ان انتم الا مفترون
اي كاذبون في عبادتكم غيره وكرر قوله يا قوم للاستطراف وقوله لا اسألكم
عليه اجرا ان اجري الا على الذي فطرني اي خلقني خاطب كل رسول
قومه ان الة للتهمة وتحريضا للنصيحة فانها لا تنجح ما دامت مشوبة بتهمة المطا
افلا تعقلون اي افلا تستعملون عقولكم فتتفرقوا الكمتي من المبطل والصواب
من الخطا فتتفكرون ثم قال ويا قوم الفيما ذكره استغفروا ربكم اي امنوا به
ثم توبوا اليه من عبادة غيره لان التوبة لا تصح الا بعد الايمان يرسل السما
اي المطر عليكم مدرارا اي كثير الدر ويزدكم قوة الى قوتكم اي ويضاعف
قوتكم وانما رغبهم بكثرة المطر وزيادة القوة لانهم كانوا اصحاب زروع
وبساتين وعمارات قرأ ابن كثير وابو عمرو يرسل السما عليكم وكانوا احوج شي الى الماء
وكانوا مذلين عجزهم بما اتوا من سعة القوة والبطش واليأس والخذلة
مما بين في كل ناحية وقيل اراد القوة في المال وقيل القوة على النكاح
وقيل حبس عنهم المطر ثلاث سنين وعقمت ارحام نسائهم وعن الحسن
ابن علي رضي الله عنهما انه وفد على معاوية فلما خرج بتبعه بعض
مواليه فقال اني رجل ذو مال ولا ولد لي فعلمني شيأ لعل الله يرزقني
ولدا فقال عليك بالاستغفار فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر في
يوم واحد سبعين مرة فولد له عشرة بنين فبلغ ذلك معاوية فقال ما
سألته ما قال ذلك في دفعة اخرى فسأله الرجل فقال الم تسمع قول
هود ويزدكم قوة الى قوتكم وقول نوح ويمددكم باموال وبنين ولا تقولوا

اي ولا تقرصوا عن قبول قولي وتفهي حالة كونكم مجرمين اي مشركين اي ولما حكى
الله تعالى عن هود ما ذكره لقومه حكى ايضا ما ذكروه قومه له دعي اشياء اولها
ما ذكره تعالى بقوله قالوا يا هود ما جئتنا ببينة اي بحجة تدل على صحة
دعواك وسميت بينة لانها تبين الحق ومن المعلوم انه عليه الصلاة والسلام
كان قد اظهر لهم المعجزات الا ان القوم لجهلهم انكروها وزعموا انه ما جا
بشيء من المعجزات وثانيها قولهم وما نحن بتاركي آلهتنا اي عبادتها
وقولهم عن قولك اي صادرين عن قولك حال من الضمير في تاركي وهذا
ايضا من جهلهم فانهم كانوا يعرفون بان الضائع والعثار هو الله تعالى وان
الاصنام لا تضر ولا تنفع وذلك حكم فطرة العقل وبديهة النفس وثالثها
قولهم وما نحن لك بمؤمنين اي مصدقين في ذلك فانه طالما دعاهم الى الاجابة
والتصديق ورابعها قولهم انه اي ما نقول في شانك الا اعتراك اي اصابك
بعض آلهتنا بسوء بسبب ايذائك اياها فجعلتك مجنونا وافسدت عقلك ثم
الله تعالى ذكر انهم لما قالوا ذلك قال هود عليه السلام مجيبا لهم اني اشهد
الله على نفسي واشهدوا انتم ايضا علي اني بريء مما تشركون من دونه اي الله
وهو الاصنام التي كانوا يعبدونها فكيدوني اي احتالوا في هلاكي جميعا انتم
واصنامكم التي تشتغلون بعبادتها لانها تضر وتنفع فانها للصنم تضر ولا تنفع كما يدله
اتفاق القراء على اثبات الياء في كيدوني صادقا وصلا لانها تمامي المحض
ثم لا تنظرون اي تمهلون وهذا فيه معجزة عظيمة لهود عليه السلام لانه كان
وحيدا في قومه وقال لهم هذه المقالة ولم يهجموا عليه ولم يخف منهم مع ما هم
فيه من الكفر واكبروا نفسه بالله تعالى كما قال تعالى اني توكلت على الله
ربي وربكم اي فوضت امري اليه واعتمدت عليه ما من دابة تدب على الارض
ويدخل في هذا جميع بني آدم والحيوانات لانهم يدبون على الارض الا هو
آخذ بناصيتها اي مالكها وقاهرها فلا ينفع نفع ولا ضر الا باذنه والناصية

كما

كما قال الازهري عند العرب منبت الشعر في مقدم الراس وسمي الشعر الذي
هناك ناصية لانهم منبته والعرب اذا وصفوا انسانا بالذلة والخضوع قالوا
ما ناصية فلان الا بيد فلان وكانوا اذا اسروا الاسير واردوا اطلاقه
والمن عليه جزوا ناصيته ليكون ذلك علامة لقهره فمن طبعه في القرآن
ما يعبر فيه عن كلامهم ان ربي على صراط مستقيم اي طريق الحق والعدل
فلا يظلم ولا يعمل الا بالاحسان والانصاف فيجازي المحسن باحسانه
والمسيء بعصيانه وقوله بعد هذا تولوا فيه حذف احدى التاءين اي تتولوا
فقد ابلغتكم جميع ما ارسلت به اليكم فان قيل الابلاغ كان قبل التولي
فكيف وقع جزاء للشرط اجيب بانه معناه فان تتولوا لم اعاتب على
تقصير من جهتي وهو تركي تبليغكم لانكم انتم الذين اصررتم على التكذيب
وقوله ويستخلف ربي قوما غيركم استيناف بالوعيد لهم بانه تعالى
يهلكهم ويستخلف قوما آخرين في ديارهم واموالهم يوحدونه ويعبدونه
ولا تضرونه اي الله باشراككم شيئا من الضرر اذا تضررتم انتم وقيل
لا تنقصونه شيئا اذا اهلكتم لانه وجودكم وعدمكم عنده سواء ان ربي
على كل شيء حفيظ اي رقيب عالم بكل شيء قادر
على كل شيء فيحفظني ان تنالوني بسوء او حفيظ للاعمال العباد حتى يجازيهم
عليها او حفيظ على كل شيء يحفظه من المهالك اذا شاء ويهلكه اذا شاء
ولما لم يجيبوا ولم يرعوا بهذه الادلة الرعية والادلة عاد مرة اخرى
وقد كشف ما انطوت عليه ضمائرهم فقال عذاب يوم عقيم اي عذاب اتاه
اليوم هو يوم الريح العقيم عنكم استعار تعالى بما سبع ليال وثمانية
ايام حسوما اتت على عادم وقرنهم من اصلابهم وقذفهم في بطون الارض
على الارض عليهم جثوهم حتى صاروا كاعجاز نخل خاوية وهذا عجز بيت
عنترة من كلمتين قرأهما نافع وابن كثير وابو عمرو باسقاط الالف وقرا
ورش وقنبل بتحقيق الالف بعد تسهيل الثانية والباقون بحقيقتهما بخمسا

هودا والذين امنوا معه اي من هذا العذاب اذا نزله فتديم المومن والكافر
فلما انجا الله تعالى المومنين من ذلك العذاب كان برحمته وفضله وكرمه ونجيناهم
من عذاب غليظ هو عذاب الاخرة وصفه بالغلظ للاشعار بغلظ من عذاب
الدنيا ونجينا هودا والذين آمنوا معه من ان يصل اليهم الكفار بسوء مع اجتما
في ذلك ونجيناهم من عذاب غليظ هو الريح المذكورة ولما ذكر الله تعالى قصة
عاد خاطب امة محمد صلى الله عليه وسلم فقال وتلك عاد وهو اشارة
الى قبورهم واثارهم كانه تعالى قال سيحوا في الارض فانظروا اليها
واعتبروا ثم انه تعالى جمع اوصافهم ثم ذكر عاقبة احوالهم في الدنيا والاخرة
اما اوصافهم فثلاثة الصفة الاولى قوله تعالى جحدوا باياات ربهم اي
بالمعجزات التي اتى بها هود عليه السلام الصفة الثانية قوله تعالى وعصوا
رسله اي هودا وحده وانما اتى به بلفظ الجمع اما للتعظيم او لانه من عصى
رسولا فقد عصى جميع الرسل لقوله تعالى لا نفرق بين احد من رسله
الصفة الثالثة قوله تعالى واتبعوا امر كل جبار عنيد اي ان السفلة كانوا
يقلدون الرويسا في قولهم ما هذا الا بشر مثلكم فاطاعوهم في دعاهم الى
الكفر وما يريدهم وعصوا من دعاهم الى الايمان ولا يريدهم ويجبارا اكل تقع
المتردد العنيد والعنود والمعاند هو المنازع المعارض ولما ذكر تعالى
اوصافهم ذكر احوالهم بقوله تعالى واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم
القيمة اي اجعل اللعن ردفا لهم متابعا وصاحبا في الدنيا والاخرة ومعنى
اللعنة الابعاد من رحمة الله تعالى ومن كل خير وقيل اللعنة في الدنيا من
الناس وفي الاخرة لعنة على رووس الاشهاد ثم ان الله تعالى نبه على السبب
الاصلي في نزول هذه الاحوال المكروهة بهم بقوله تعالى الا ان عادا
كفروا ربهم اي كفروا بربهم فحذف الباء او اريد انهم كفروا بجحدوا
ربهم وقيل هو من باب حذف المضاف اي كفروا نعمة ربهم تنبيها على الاداة

استفتاح

استفتاح لما تذكر الاجوبة عليه السلام بقومه وجعل خطبته بعد قال الا تتقون
لعاد دعا عليهم بالهلاك والدمار بعد الطاعة على انهم كانوا مستوجبين لها
من قبل بسبب ما حكي عنهم وانما ذكر الدعاء تذكيرا لنعمه تعظيما لامرها
على الاعتبار بحالهم وقوله تعالى قوم هود عطف بيان لعاد وفائدته
تمييز هم من عاد الثانية عاد ارم والايذان الى استحقاقهم للذم بما جرى
بينهم وبين هود القصة الثالثة التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة قصة
صالح عليه السلام المذكورة في قوله تعالى والى ثمود اخاهم وهم سكان الحجر اي
وارسلنا الى ثمود اخاهم فهو معطوف على قوله تعالى لقد ارسلنا نوحا عطف عليه
والى عاد في قوله تعالى صالحا عطف بيان وتلك الاخوة كما تنبئ النسب
لا في الدين كما مر في هود ثم اخرج قوله عليه السلام على تقدير سوال بقوله
قال يا قوم اي يا من يقرب علي ان يحصل لهم سوء اعبدوا الله اي وحدوه
وخصوه بالعبادة ما لكم من اله غيره هو الهكم المستحق للعبادة فلا تعبدوا
الاصنام بعد ما ظهر لكم الدلايل الدالة على وحدانيته بقوله هو انشاكم
خلقكم من الارض وذلك انهم من بني آدم وآدم خلق من الارض او لان
الانسان مخلوق من المني وهو متولد من الدم والدم متولد من الاغذية
وهي اما حيوانية واما نباتية فالحيوانية محالها كمال الانسان فوجب
انتهاء الكل الى ما تولد من الارض فثبت بهذا ان الانسان انما تولد
من الارض وقيل معنى انشاكم ابداكم في قوله تعالى اذا انتم بشر تنتشرون
بمعنى ثم اذا انتم بشر واستعمركم فيها اي جعلكم عمارها وسكانها وقال الضحاك اطال
اعماركم فيها حتى ان الواحد منهم يعيش ثلاثمائة سنة الى الف سنة وكذا
كانت اعمار قوم عاد وثمود وقيل اسكنكم فيها وقد اكثر ما من حفر الانهار وغرس
الاشجار وحصلت لهم الاعمار الطويلة فسال نبيهم عليه السلام عما غفروا به
ما سبب تلك الاعمار فاوحي اليه انهم عمروا بلادهم فعاش فيها عباده

واخذ معاوية في احياء الارض في آخر عمره فقيل له فقال ما حاجتي عليه الا قول
القائل [illegible] ولا يكون له في الارض اثار
وقال بعض عمر بن الخطاب رضي الله عنه اي جعلها لكم ما عشتم فاذا متم انتقلت الى غيركم
ولما بين لهم عليه السلام عظمة الله تعالى بين لهم طريق الرجوع اليه بقوله
فاستغفروه اي امنوا به ثم توبوا اليه من عبادة غيره لان التوبة لا تصح الا
بعد الايمان ثم ذكر من شأنه ذلك انه قريب مجيب اي عالم بكل ما يقال
عليه من غير حاجة الى حركة مجيب لكل من دعاه لا كمعبوداتكم التي هي الاوثان
ولما قرر لهم عليه السلام هذه الدلائل قالوا له يا صالح قد كنت فينا مرجوا
قبل هذا اي القول الذي جئتنا به اما ترجى قومك من مخالفة الرشد والسداد
فانكرت نفسك علينا وتنهانا وتبين ضلالتنا وانت عندنا تقوى ومن ضلالنا فوقنا
رجاؤنا فيك ان تصير دينا كيف انظرك العبادة ثم اكدوا انكارهم اضافوا الى
هذا التعجب المستند الى فقد الرجاء التعجب من طريق التقليد ووجوب متابعة
الاكابر والاسلاف وقيل هذا التعجب حاكاه الله تعالى عن كفار مكة
حيث قالوا اجعل الالهة الها واحدا ان هذا لشيء عجاب ثم قالوا وانا
لفي شك مما تدعونا اليه من التوحيد وترك عبادة الاصنام مريب
اي موقع في الريبة وهي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة بالشيء والارجاء
قلق النفس بمجيء الشر على جهة الظن وقطع الامل من الخير والمعنى
المنع من الفعل بصيغة لا تفعل وقد عبر عن هذا المعنى في قوله تعالى كلا انه
قال صالح عليه السلام مجيبا لهم يا قوم ارأيتم اخبروني ان كنت على
بينة اي ببيان وبصيرة من ربي واتى بحرف الشك على سبيل التنزل ليلائم
اخلاق المخاطبين واتاني منه رحمة النبوة ورسالته فمن ينصرني اي
يمنعني من الله اي عذابه ان عصيته اي خالفت امره في تبليغ رسالته

والمنع

والمنع عن الاستزادة به فما تزيدونني اي بامركم لي بذلك غير تخسير اي تضليل
قال الحسن بن الفضل لم يكن صالح في خسارة حتى يقول فما تزيدونني غير
تخسير وانما المعنى فما تزيدونني بما تقولون الا نسبتي اياكم الى الخسار
ولما كانت العادة فيمن يدعي النبوة عند قوم بعبدون الاصنام ان
يطلبوا المعجزة وامر صالح عليه السلام هكذا كان يروي ان قومه
خرجوا في عيد لهم فسألوه ان يأتيهم بآية وان يخرج لهم من صخرة
معينة اشار والى اليها فاقبلت ناقة عشراء فخرجت كما سألوا اشار اليها
بقوله وياقوم هذه ناقة الله واضافتها الى الله اضافة تشريف
كبيت الله ولكم اية اي معجزة من وجوه احدها انه خلقها الله تعالى من
الصخرة ثانيها ان الله تعالى خلقها في جوف الجبل ثم شق الجبل عنها ثالثها
ان الله تعالى خلقها حاملا من غير ذكر ثم ولدت فصيلا يشبهها رابعها
ان الله تعالى خلقها على تلك الصورة دفعة واحدة خامسها ما روي انه
كان لها شرب يوم ولكل القوم شرب يوم اخر سادسها انه كان يحمل
منها لبن كثير فيكفي الخلق العظيم به فكل واحد من هذه الوجوه معجز
قوي وليس في القرآن الا ان هذه الناقة كانت اية معجزة واما بيان
انها كانت معجزة من اي الوجوه فليس فيه بيانه تنبيه اية لنصب على
الحال وعاملها معنى الاشارة ولكم حال منها تقدمت عليها لتنكيرها
ولو تأخرت لكانت صفة لها فلما تقدمت انتصبت على الحال ثم قال
لهم فذروها اي اتركوها على اي حالة كانت تركلوا لها فاكل مما ارادت
في ارض الله من العشب والنبات فليس عليكم مؤنتها فضاربت
مع كونها اية لهم تنفعهم ولا تضرهم لانهم كانوا ينتفعون بلبنها ثم
انه عليه الصلاة والسلام خاف عليهما منهم لما شاهد من اصرارهم
على الكفر فان الخصم لا يجب ظهور حجة خصمه بل يسعى في اخفائها

وابطالها بالقضاء الامكان فلهذا السبب كان يخاف من اقدامهم على
قتلها فلهذا احتاط وقال ولا تمسوها بسوء اي بعقر اوغيره
ثم توعدهم بقوله فياخذكم اي ان مسيتوها بسوء عذاب قريب اي في
الدنيا لا يتاخر عن مسكم لها الا يسيرا وذلك تحذير شديد لهم في
الاقدام على قتلها فلما لم يرتدعوا وذبحوها قال لهم عند بلوغه
الخبر تمتعوا اي عيشوا في داركم والتمتع التلذذ بالمنافع والمراد الذي
تدرك باكواس وذلك لا يحصل الا للحي وفي المراد من الدار
وجهان احدهما البلد وتسمى البلد الدار لانه يدار فيها اي
يتصرف بقاد ديار بكر لبلاد هم الثاني دار السنيا اي تمتعوا في
الدنيا ثلاثة ايام وذلك انهم لما عقروا الناقة انذرهم صالح
عليه السلام بنزول العقاب بعد هذه المدة قال ابن عباس
انه تعالى لما امهلهم تلك الايام الثلاثة قدر عنهم في الايمان
ثم قالوا لصالح عليه السلام وما علامة ذلك قال تصبح وجوهكم
في اليوم الاول مصفرة وفي الثاني محمرة وفي الثالث مسودة
ثم ياتيكم العذاب في اليوم الرابع فلما راوا وجوههم مسودة ايقنوا
بالعذاب فجعلوا اكفانهم والحنوط واستعدوا للعذاب فصبحهم اليوم الرابع
كما قال تعالى ذلك اي الوعد العالي على الرتبة في الصدق وعد
غير مكذوب اي فيه فاتسع في الظرف بحذف الحرف واجرابه
مجرى المفعول به كقولك ويوم شهدناه اي ورب يوم شهدنا
فيه سليما وعامرا او غير مكذوب على المجاز او وعد غير كذب
على انه مصدر وقوله تعالى فلما جاء امرنا نجينا صالحا والذين
امنوا معه برحمة منا في تفسيره وقراءة الهمزتين وعدد الذين
امنوا معه مثل ما تقدم في قصة عاد ونجيناهم من خزي يومئذ

وهو هلاكهم بالصيحة او ذلهم او فضيحتهم يوم القيمة وقرا
نافع والكسائي بفتح الميم من يومئذ على البناء لاضافتها
الى مبني وكسرها الباقون على الاعراب والاول اكثر ان ربك
هو القوي فهو يغلب كل شيء القدير اي القادر على منع غيره من
غير ان يقدر احد عليه كما اجير تعالى عن عذاب قوم صالح بقوله
واخذ الذين ظلموا اي انفسهم بالكفر الصيحة اي صيحة جبريل
عليه السلام صاح بهم صيحة واحدة فهلكوا جميعا واتاهم
صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم في صدورهم فماتوا جميعا كما
قال تعالى فاصبحوا في ديارهم جاثمين اي باركين على الركب ميتين
تنبيه انما قال تعالى واخذ ولم يقل واخذت لان الصيحة
محمولة على الصياح وايضا فصل بين الفعل والاسم المؤنث
بفاصل فكان الفاصل كالعوض من تاء التانيث وقوله تعالى
كان مخففة من الثقيلة واسمها محذوف اي كانهم لم يغنوا اي
يقيموا فيها اي ديارهم ولم يسكنوها مرة من الدهر يقال
غنيت بالمكان اذا اقمت به وقوله تعالى الا ان ثمودا كفروا
ربهم الا بعدا لثمود تفسيرهما تقدم في قوله تعالى الا
ان عادا كفروا ربهم الاية وقرا حفص وحمزة الا ان ثمود بغير
تنوين للتعريف والتانيث بمعنى القبيلة والباقون بالتنوين
للذهاب الى الحي او الى الاب الاكبر ومن نون وقف على
الف بعد الدال ومن لم ينون وقف على الدال ساكنة وقراء
الكسائي بعد الثمود بتنوين عود على لغة لكسر بما مر والباقون
بغير تنوين مع الصرف لما مر ايضا القصة الرابعة التي ذكرها
الله تعالى في هذه السورة قصة ابراهيم عليه الصلاة والسلام

المذكورة في قوله تعالى ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى اي
باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب والمراد بالرسل الملائكة فى لفظ
رسلنا جمع واقله ثلاثة واختلف في الزايد على ذلك واجمعوا
على ان الاصل فيهم كان جبريل عليه السلام واقتصر ابن عباس
وعطاء على اقل الجمع فقالا كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل واسرافيل
وهم الذين ذكرهم الله تعالى في سورة الذاريات بقوله تعالى
هل اتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين وفي الحجر ونبئهم عن
ضيف ابراهيم المكرمين وقال الضحاك كانوا تسعة وقال محمد
ابن كعب القرظي كان جبريل ومعه تسعة املاك وقال
السدي كان جبريل ومعه احد عشر ملكا على صورة الغلمان
الذين يكونون في غاية الحسن قال النحويون ودخلت كلمة قد
ههنا لان السامع لقصص الانبياء يتوقع نقصة بعد نقصة
وقد للتوقع ودخلت اللام في لقد لتاكيد الخبر قالوا سلاما
اي سلمنا عليك سلاما ويجوز نصبه فقالوا على معنى ذكرنا
سلاما سلمنا قال سلام اي امركم او جوابي سلام او وعليكم
سلام تنبيه قوله سلام اكمل من قوله السلام لان التنكير
يفيد الكمال والمبالغة والتمام ولهذا صح وقوعه مبتدا لان
النكرة اذا كانت موصوفة جاز جعلها مبتدا واما لفظ السلام
فانه لا يفيد الا الماهية فان قيل فلاي شيء ما كفى الاولين
التحلل من الصلاة عند النوويه اجيب بان ذلك سنة
متبعة وقرا حمزة والكسائي بكسر السين وسكون اللام والالف
بعدها والباقون بفتح السين واللام والف بعدها قال الفراء
ولا فرق بين القراتين كما يقال حِلّ وحلال وجزم وجرام

وقيل

وقيل سلم هو بمعنى الصلح اي نحن سلم صلح غير حرب فما لبث
ان جاء بعجل حنيذ اي فما ابطاء مجيئه به والحنيذ المشوي على
الحجارة المحماة في حفيرة تم الارض وكان مسمينا بقر وكما قال
تعالى في موضع آخر فجاء بعجل سمين قال قتادة كان عامة مال
ابراهيم البقر وروي ان ابراهيم مكث خمس عشرة ليلة لم ياته
ضيف فاغتم لذلك وكان يحب الضيف ولا ياكل الا معه فلما جاء
الملائكة راى اضيافا فلم ير مثلهم فعجل فجاء بعجل سمين
مشوي فلما رآى ايديهم اي الاضياف لا تصل اليه اي الى العجل
ايديهم اليه نكرهم اي انكرهم وانكر حالهم لامتناعهم من الطعام
واوجس اي اضمر في نفسه منهم خيفة اي خوفا قال قتادة
وذلك انهم كانوا اذا نزل بهم ضيف فلم ياكل من طعامهم
ظنوا انه لم يات بخير وانما جاء بشر قالوا لا تخف يا ابراهيم انا
ملائكة الله ارسلنا الى قوم لوط بالعذاب وانما علم ذلك لانهم
لا ياكلون واما ته اي ابراهيم سارة وهي ابنة عم ابراهيم قائمة
وراء الستر تسمع محاورتهم او على رؤوسهم للخدمة فضحكت
السبب ان بالولد التي دل عليها فيما مضى قوله بالبشرى فضحكت
سرورا من ذلك البشرى لزوجها مع كبره وبما ظنته من عزها
لانها كانت عجوزا عقيما فاذا بلغه ذلك الظن عنها بقوله تعالى
فبشرناها اي على لسان الملائكة تبشيرا لها وتخصيصا لها
باسحاق تلده ومن وراء اسحاق يعقوب اي يكون يعقوب
عليه السلام ابنا لاسحاق عليه السلام فنقيش حتى ترى ولد
ولدها قال النخعي والذي يدل على هذا التقدير من الفهم
بشروه بالولد قبل امراته فضحكت فتعجب مما ياتي عن نقض العوائد

وساق عن التوراة عبارة مطولة وقيل سبب سرورها زوال
الخيفة او هلاك اهل الفساد وقيل فضحكت فحاضت كما قال
الشاعر ٭ عهدي بسلمى ضاحكا ٭ في لبانة اي حايضا في جماعة من
النساء وهذا يرد على الفراهيدي قال فضحكت بمعنى حاضت لم
نسمعه من ثقة وقال آخر يضحكن الضبع لقتلى هذيل ٭ اذا ابصرنها
تجهمن فرحا تنبيه ههنا هزات مكسورتان من كلمتين قرا قالون
وهو البزي بتسهيل الاولى مع المد والقصر وقرا ورش وقنبل
بتسهيل الثانية وابدالها الفا حرف مد وقرا ابو عمرو وابن كثير
احدهما مع المد والقصر والباقون بتحقيق الهمزتين والالف بينهما
قالت يا ويلتا هذه كلمة تقال عند امر عظيم والالف مبدلة من ياء
الاضافة ٭ الد وانا عجوز وكانت ابنة تسعين سنة في قول ابن اسحق
وقال مجاهد بنت ستة وتسعين سنة وهذا بعلي اي زوجي سمي بذلك
لانه قيم امرها وقولها شيخا نصب على الحال قال الواحدي وهذا
من لطيف النحو وغامضه فان كلمة هذا للاشارة فكان قولهما
وهذا بعلي شيخا قاصر مقام اذ يقال اشير الى بعلي حال كونه شيخا
والمقصود تعريف هذه الحالة المقصودة وهي الشيخوخة وكان ابن
مائة وعشرين سنة في قول ابن اسحاق وقال مجاهد مائة سنة
وكان بين الشابة والولادة سنة ٭ ان هذا لشيء عجيب اي ان الولد
من هرمين قهرا استعجاب من حيث العادة دون القدرة ولذلك
قالوا اي الملائكة لسارة اتعجبين من امر الله منكرين عليها ذلك
اي لا تعجبين من ذلك فان الله تعالى قادر على كل شيء واذا اراد
شيا كان سريعا فان خوارق العادة باعتبار اهل بيت النبوة هم
وهبط للمعجزات وتخصيصهم بمزيد النعم والكرامات ليس

بمستغرب

بمستغرب رحمت الله وبركاته عليكم اهل البيت اي بيت ابراهيم
واهل منصوب بعلى النداء او الله الاقعد المختصين كما قيل لنا
ايها العصابة بوقف الحلي حتى الدعا من الملائكة لهم بالخير والبركة
وفيه دليل على ان زوجة الرجل من اهل بيته انه تعالى حميد
اي يحمد على كل حال او فاعل بما يليق ان يحمد به مجيد اي كثير
الخير والاحسان القصة الخامسة التي ذكرها الله تعالى في هذه
السورة قصة لوط عليه السلام المذكور في قوله تعالى فلما ذهب
عن ابراهيم الروع اي الخوف وهو ما اوجس من الخيفة حين
انكر اضيافه فاوجس قلبه بهم فاعلمهم وقضاء البشرى بدل الروع
بالولد اخذ يجادلنا اي يجادل رسلنا في شان قوم لوط وجواب لما
اخذ يجادلنا الا انه حذف للفظ لدلالة الكلام عليه وقيل تقديره
لما ذهب عن ابراهيم الروع جادلنا فما تقول كيف جادل ابراهيم
الملائكة مع علمه بانهم لا يمكنهم مخالفة امر الله وهو انكر لجيب
بانه انما اراد من هذه المجادلة تاخير العذاب عنهم لعلهم يومنون
ويرجعون عما هم فيه من الكفر والمعاصي لان الملائكة قالوا انا
مهلكو اهل هذه القرية واجاب مجادلته انما كانت في قوم لوط
بسبب مقام لوط فيهم ولهذا لما قال ابراهيم عليه السلام ان فيها لوطا
كان فيها خمسون رجلا من المومنين اتهلكونها قالوا لا قاله فخمسة وثلاثون
قالوا لا قال فاربعون قالوا لا حتى بلغ خمسة قالوا لا قال ارايتم
لو كان فيها رجل مسلم اتهلكونها قالوا لا فعند ذلك قال ان فيها
لوطا وقد ذكر الله تعالى هذا في سورة العنكبوت فقال ولما جاءت
رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكو اهل هذه القرية ان اهلها
كانوا ظالمين قاله ان فيها لوطا قالوا نحن اعلم بمن فيها لننجينه

واجعله الامرأة كانت من الغابرين قال ابن جريج وكانت في قرية لوط اربعة الاف الفعل لوكانت هذه الجادلة عن موحد ما مدحه
تعالى فقال ان ابراهيم لحليم اي لا يستجار مكافأة عيوبه بل يتأني
فيه فيؤخر ولا يعجل وسئل عن اصالة يجب من عزم هذه الطريقة
وهذا امدح عظيم من الله تعالى لابراهيم عليه السلام اشار الى ذلك ما يتعلق
بالحلم وهو قوله اواه اي كثير التأوه من الذنوب والتأسف
على الناس منيب اي رجاع فلما اطال مجادلتهم قالوا له يا ابراهيم
اعرض عن هذا اي الجدال لان كانت الرحمة قد تيدت فلا فائدة
فيه انه قد جاء امر ربك اي قضاؤه اللازم بعذابهم وهو اعلم بحالهم
وانهم آتيهم عذاب غير مردود اي لا سبيل الى دفعه ورده ولما جاءت
رسلنا لوطا اي هؤلاء الملائكة الذين بشروا ابراهيم بالولد قال
ابن عباس انطلقوا من عند ابراهيم الى لوط وهو ابن اخي ابراهيم
عليهما السلام وبين القريتين اربع فرسخ ودخلوا عليه على
صورة شباب امرد من بني آدم وكانوا في غاية الحسن ولم يعرف
لوط انهم ملائكة الله سيء بهم اي حزن بسببهم وضاق بهم ذرعا اي
عجز عنهم يقال ضاق ذرع فلان بكذا اذا وقع في مكروه لا يهتدي
بطريق الخروج منه وذلك ان لوطا نظر الى حسن وجوههم وطيب
ريحهم فخاف عليهم خبث قومه وان يعجز عن حمايتهم وقيل
لشدة ذلك لانه عرف بالاخبار انهم ملائكة الله تعالى وانهم جاؤا له
لاهلاك قومه فرقت قلبه على قومه وقاله هذا يوم عصيب اي
شديد كأنه قد عصبه البلاء اي شده بما اخذ من العصابة
التي تشد بالراس قال فنادته فخرجت الملائكة من عند ابراهيم
نحو قرية لوط فاتوا لوطا نصف النهار وهو في ارض له يعمل فيها

وروي

وروي انه كان يحتطب وقد قالت له امرأته قالوا لهم لا تفعلوهم حتى تشهد
عليهم لوط اربع شهادات انك استضفتهم فوعدهم الخلق بهم فلما مضى ساعة
قال لهم ما ابغضكم الى من امر هذه القرية قالوا وما امرهم قال اشهد
بالله انها لشر قرية في الارض عملا فبقوا ذلك اربع مرات وقيل
انه لما اتى الملائكة جاء الى بيت لوط في جوف في دار ولم
يعلم بذلك احد الا اهل بيت لوط فخرجت امرأته فاخبرت قومها
وقالت ان في بيت لوط رجالا ما رأيت مثل وجوههم قط وجاءه
قومه لما علموا انهم يهرعون اليه اي يسرعون قاله ابن عباس وقال الكسائي
الاهراع المشي بين مشيين وقيل اي يقبل بعضهم الى لوط وقيل
من كل جانب جاء الرسل الهم كانوا يعملون الخبيثات اي الفعلات
الخبيثة والفاحشة القبيحة وهي اتيان الرجال في ادبارهم قال لوط
لقومه حين قصدوا اضيافه وظنوا انهم غلمان من بني آدم يا قوم
هؤلاء بناتي قاله مجاهد وسعيد بن جبير اراد بنات نسائهم فانه
كل نبي هو بمنزلة الاب لامته كما قال الله تعالى وازواجه امهاتهم
وقيل اراد بناته نفسه عرضهن عليهم بشرط
الاسلام وقيل كان في ذلك الوقت وفي تلك الشريعة يباح
تزويج المرأة المسلمة بالكافر كما زوج رسول الله صلى الله عليه
وسلم ابنتيه من عتبة بن ابي لهب وابي العاص بن ربيع قبل
الوحي وهما كافران وقيل كان لهم بد ان حطاعان فاراد
ان يزوجهم ابنتيه هن اطهر لكم اي انظف فعلا فان قيل افعل
التفضيل يقتضي كون الفعل الذي يطلبونه طاهرا ومعلوم انه
فاسد لا مدخل لها فيه في اتيان الرجال اجيب بان هذا جار
مجرى قوله تعالى اذلك خير نزلا ام شجرة الزقوم لا خير فيها وكقوله

صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ابو بكر هذا عمر اعلم
واجل ولا مائدة بين الله تعالى ليتوا الصنم قائما فهو كلام خرج مخرج
المقابلة وله نظائر كثيرة فاتقوا الله وراقبوه واطيعوه كما امركم
عليه من الكف عن المعاصي ولا تخزون في ضيفي اي
أصل في ليس منكم رجل رشيد يعيب الي الكف عما امر به وفي
وينهى عن المنكر قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق
وانك لتعلم ما نريد من اتيانه المذكور وما لنا في الشر ضيف
لك قال لوط عليه السلام لو ان لي بكم قوة اي طاقة لو اوي الى ركن
شديد اي عشيرة تمنعني منهم بركنية كجبل في شدة وتمنع عنه
صلى الله عليه وسلم رحم الله اخي لوط كان يأوي الى ركن شديد
والركن الشديد لم يقدر الله سبحانه وتعالى نبوته فكانت النبي صلى الله عليه وسلم
استغرب من لوط عليه السلام قوله اذ اوى الى ركن شديد اذ لا يمكن
اشد من الركن الذي كان له وهو الله تعالى وهو وعده ناداه اذ لا يمكن
لطمست بكم او لاستعمكم وروي انه اغلق بابه دونهم اصبعه فعوجد
يجادلهم من وراء الباب فتسوروا الجدار فلما رات الملائكة ما على
لوط من الكرب قالوا يا لوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك فافتح
الباب ودعنا واياهم فعرف الملك فدخلوا فاستاذن جبريل
ربه في عقوبتهم فاذن له فقام في الصورة التي يكون فيها فنشر
جناحه وله ستة اجنحة عليه وشاح من درّ منظوم وهو براق
الاقدام فضرب بجناحه وجوههم فطمس اعينهم كما قال تعالى
فطمسنا اعينهم فصاروا لا يبصرون الطريق ولا يهتدون الى بيوتهم
بيوتهم فخرجوا وهم يقولون النجا النجا فان في بيت لوط قوما سحرة
تنبيه لن يصلوا اليك جملة موصلة التي قبلها لان لهم اذا كانوا

رسل

رسل الله لن يصلوا اليك ولن يقدروا علي ضرر كما قالوا له فاسر
باهلك بقطع الف طائفة من الليل وقرأ نافع وابن كثير بهمزة
بهمزة وصل من السري والباقون بهمزة قطع من الاسراء ولا يلتفت
منكم احد اي لا ينظر الي ورائه ليلا يرى عظم ما نزل بهم وقيل لهم
الا امرأتك قرأه ابن كثير وابو عمرو برفع التاء على ابدال من
احد والباقون بالنصب على الاستثناء من الاهل اي فلا تسر
انه مصيبها ما اصابهم فلم يخرج بها وقيل خرجت والتفتت
فقالت واقوماه فجاءها حجر فقتلها روي انه قال لهم موعد
هلاكهم فقالوا له ان موعدهم الصبح فقال اريد اسرع من ذلك
قالوا اليس الصبح بقريب اي فاسرع اخرج بمن امرت بهم فلما جاء
امرنا اي عذابنا باهلاكهم جعلنا عاليها اي قراها سافلها روي
ان جبريل عليه السلام ادخل جناحه تحت قرى قوم لوط المؤتفكات
المذكورة في سورة براءة وكانت خمس مدائن وفيها اربعمائة الف
وقيل اربعة الاف الف فرفع المدائن كلها حتى سمع اهل السماء
صياح الديكة ونهيق الحمير ونباح الكلاب لم يكفأ لهم اناء
ولم ينتبه نائم ثم اسقطها مقلوبة الي الارض وامطرنا عليها
اي المدن بعد قلبها وقيل على شذاذها وهو بعض الذين المجتمع وبه الذي
معجمتين اولاها مشددة وهم الذين ليسوا من اهلها يكونوا في
القرى وليسوا منهم حجارة من سجيل اي من طين طبخ بالنار كما قال
تعالى في موضع آخر من طين وقيل مثل السجل وهو الدلو العظيمة
منضود اي متتابع يتبع بعضه بعضا مسومة اي معلمة عليها اسم
من يرمي بها وقال ابو صالح رأيت منها عند رأس هاني وبي حجارة
فيها خطوط حمر على هيئة الجزع وقال الحسن عليها امثال الخواتيم

وقال ابن جريج كانت عليها سباع تعلم بما انها ليست من حجارة الارض وقوله
تعالى كذلك ربك ظرف لمحذوف اي مثل ذلك الحجارة من الظالمين اي من اهل مكة
بعيد اي شيء بعيد او مكان بعيد كان وان كانت في السماء وهي تكاد
بعيد الا انها اذا وقعت منها فهي اسرع شيء لحوقا بالمرمي فكانها مكان
قريب منه وقنبه وعبد لهم وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم سال
جبريل يعني ظالمي امتك ما من ظالم منهم الا وهو يعرض عليه الحجر
فينسقط عليه من ساعته الى ساعته وقيل الضمير للقرى اي هي قريبة
من ظالمي مكة يمر وفد عليها في مسيرهم الفقة التاسعة التي ذكرها
الله تعالى في هذه السورة فقد شعيب عليه السلام المذكورة في
قوله تعالى والى مدين اي وارسلنا الى مدين وهم قبيلة ابو هم
مدين بن ابراهيم عليه السلام وقيل هو اسم مدينة بناها مدين
المذكور وعلى هذا فالتقدير وارسلنا الى اهل مدين فحذف المضاف
لدلالة الكلام عليه اخاهم اي في النسب لا في الدين وشعيبا عطف
بيان وكان قائلا قال ما قال لهم فقيل قال ما قاله جوابا من
الانبياء في البداءة باصل الدين يا قوم مستعطفا لهم مظهرا غاية
الشفقة اعبدوا الله اي وحدوه ولا تشركوا به شيئا ما لكم من آله غيره
فلقد اتفقت كلمتهم واتحدت الى الله تعالى دعوتهم وهذه وحده
قطعي الدلالة على صدق كل منهم لما علم قطعا من تباعد اعصارهم
وتنائي ديارهم وان بعضهم لم يلم بالعلوم ولا عرف اخبار الناس
الا من اكثر القرون ولما دعاهم الى العدل فيما بينهم وبين الله
تعالى دعاهم الى العدل فيما بينهم وبين عبيده في اقبح ما كانوا
اتخذوه بعد الشرك بدانا فقال ولا تنقصوا وجه من الوجوه المكيال
والميزان اي لا الكيل ولا آلته ولا الوزن ولا آلته والكيل تبديل

الى

الشيء بالآلة في القلة والكثرة والعدل تعديله في الخفة والثقل والكيل
العدل في الكمية والوزن العدل في الكيفية ثم علل ذلك بقوله اني
اراكم بخير اي بثروة وسعة تغنيكم عن التطفيف قال ابن عباس كانوا
موسرين في نعمة وقال مجاهد كانوا في خصب وسعة فحذرهم
زوال تلك النعمة وحلول النقمة ان لم يوحدوا ويتوبوا
وهو قوله واني اخاف عليكم ان لم تؤمنوا عذاب يوم محيط اي يحيط بكم
فيهلككم جميعا وهو عذاب الاستيصال في الدنيا وعذاب النار في
الاخرة ومنه قوله تعالى وان جهنم لمحيطة بالكافرين والمحيط من
صفة اليوم في الظاهر وفي المعنى من صفة العذاب وذلك مجاز
مشهور كقوله هذا يوم عصيب ويا قوم اوفوا اي اعطوا التمام
حسنا المكيال والميزان اي الكيل والوزن والتمام فان قيل النهي عن
النقصان امر بالايفاء فما فائدة قوله تعالى اوفوا اجيب بانهم
نهوا اولا عن القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان
ثم في التصريح بالتبيح نهيا عن المهي وتغيير الهم اورد الامر
بالايفاء الذي هو حسن في العقول مصرحا بلفظه لزيادة ترغيب
فيه وبعث عليه وجيء به مقيدا بالقسط اي ليكون الايفاء على
وجه العدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان اذ ربما هو
الواجب لان ما جاوز العدل فضل وامر مندوب اليه غير المامور
به وقد يكون محظورا كما في الربا وقوله ولا تبخسوا الناس اشياءهم
تعميم بعد تخصيص فانه اعم من ان يكون في المقدار او في غيره فانهم
كانوا يأخذون من كل شيء يباع كالقمح والتمر وكانوا يمسكون
الناس وكانوا ينقصون من اثمان ما يشترون من الاشياء فنهوا
عن ذلك فظهر بهذا البيان ان هذه الاشياء غير مكررة بل في كل

واحدهما فائدة زائدة والحاصل انه تعالى نهي في الاية الاولى عن
النقصان في المكيال والميزان وفي الثانية امر باعطاء قدر الزيادة
ولا يحصل الجزم واليقين بادآء الواجب الا عند ادآء ذلك القدر من
الزيادة ولهذا قال العلماء انه تعالى امر بغسل الوجه وذلك لا يحصل
الا عند غسل جزء من الراس فكانه تعالى نهى اولا عن مسمى الانسان
في ان يجعل ما لغيره ناقصا ليحصل له تلك الزيادة وفي الثاني امر بان
يسعى في تنقيص مال نفسه ليخرج بالتعيين عن العهدة كما قيده
بقوله تعالى بالقسط وفي الاية الثالثة نهي عن النقص في كل
الاشياء وكذا قوله تعالى **ولا تعثوا في الارض مفسدين** فان العثو
يعم تنقيص الحقوق وغيره من انواع الفساد ومفسدين حال مؤكدة
لمعنى عاملها وفايدتها اخراج ما يقصد به الاصلاح كما فعله الخضر عليه
السلام **بقيت الله** قال ابن عباس يعني ما ابقى الله لكم من الحلال
بعد ايفاء الكيل والوزن **خير لكم** مما تاخذونه بالتطفيف وقال
مجاهد مما يحصل لكم في الدنيا من المال الحرام **ان كنتم مومنين** اي
مصدقين بما قلت لكم وامرتكم به فان بقيت رسمت بالتاء المجرورة
وقف عليها ابن كثير وابو عمرو والكسائي بالتاء والباقون وقفوا بالهاء
وما انا عليكم بحفيظ اعلم جميع اعمالكم واقدر على كفكم عما يكون منها
فساد او لما امرهم شعيب عليه السلام بشيئين بالتوحيد وبترك
التجسس **قالوا له يا شعيب** سموه باسمه استخفافا وغلظة وانكروا
عليه مستهزئين به **اصلوتك** يا مركب اي تفعل معك فعل من يامر
دائما بتكليفنا **ان نترك ما يعبد** اي على سبيل المواظبة **اباؤنا**
من الاصنام فحذف الذي هو التكليف لان الانسان لا يامر بفعل
غيره قالوا هذا ذلك في جواب امره لهم بالتوحيد **او** نترك **ان نفعل** اي دايما

في

في اموالنا ما نشآء من قطع الدراهم والدنانير وافساد المعاملة هو
المقامرة ونحوها مما يكون افساد المال قالوا له ذلك في جواب النهي
عن التطفيف والامر بالايفاء وانما اضافوا ذلك الى صلاته تهكما
واستهزآء بها واستمرارا بان مثل هذا الذي هو الية داع عقلي وانما
دعاهم اليه حظوظ نفسانية وشهوات من جنس ما كانوا يواظب عليه وكان شعيب
عليه الصلاة والسلام اكثر الصلاة في الليل والنهار وكان قومه
اذا اراده يصلي تغامزوا وتضاحكوا وتقصدوا ايقولهم اصلوتك تامرك
التحريم والنهي وكما انك اذا راى من معتوها يطالع كتابا يذكر كلاما
فاسدا فيقال له هذا مطالعة تلك الكتب على سبيل التهزي فكذا
هنا وقراهنا وحمزة والكسائي اصلوتك بالافراد والباقون بالجمع
والتاء بالرفع في القرايتين وغلط ورش اللام في اصلوتك وقولهم
انك لانت الحليم الرشيد تهكم بهم وقصدوا وصفه بضد ذلك
كما يقال للبخيل الخسيس لو راك حاتم لسجد لك وعللوا انكارهم
منه واستبعادهم ان يامره مرسوم بالحلم والرشد المحاذين من العباد ان
الى مثل ذلك بما اخرج قوله عليه الصلاة والسلام علي تقدير سواله
بقوله **قال يا قوم** مستعطفا لما بينهم من عواطف القرابة مبينا لهم
على احسن النظم فيما ساقه على سبيل الفرض والتقدير ليكونوا
ادعى الى سبيل الوفاق والانصاف **ارايتم** اي اخبروني **ان كنت على**
بينة اي برهان **من ربي** وعطف على جملة الشرط المستفهم عنه قوله
ورزقني والعدول في **منه** سبحانه تعالى اي من عنده باعانته بلا كد مني
في تحصيله وعظم الرزق بقوله **رزقا حسنا** حلالا وما لا حلال الا ظاهرا
فيه احدا وجواب الشرط محذوف فهل يسيغ مع هذا الانعام لجاحد
للمبادات الروحانية والجسمانية ان اخون في وحيه فاخالفه فما ارم

ونهيه وهذا اعتذار عما انكروا عليه من تغيير المألوف والنهي عن
دين الآباء وما اريد ان اخالفكم اي واذهب الي ما انهاكم عنه فارتكبه
ان اي ما اريد اي في امركم به وانهاكم عنه الا الاصلاح اي ما اريد الا
ان اصلحكم بموعظتي وتقويمي وامري بالمعروف ونهيي عن المنكر ما
استطعت وهو الابلاغ والانذار فقط ولا استطيع اجباركم عن الطاعة
لانذلك الي الله تعالي فانه فعيل من يشاء يعديه من يشاء وما توفيقي
اي لاصابة الحق والصواب الا بالله اي الا بمعونته وتاييده عليه لا علي
غيره توكلت اي اعتمدت في جميع اموري فانه القادر علي كل شئ وما
عداه عاجز وهذه الصيغة تفيد الحصر فلا ينبغي للانسان ان يتوكل
علي احد الا علي الله تعالي وفيه اشارة الي محض التوحيد التي هي
اقصي مراتب المبداء واما قوله واليه انيب ففيه اشارة الي معرفة
المعاد وهو انما يفيد الحصر لان قوله واليه انيب يدل علي انه لا مآب
للخلق الا الي الله تعالي وروي عنه صلي الله عليه وسلم انه كان
اذا ذكر شعيبا قال ذاك خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه
ويا قوم لا يجرمنكم اي لا يكسبنكم شقاقي اي خلافي وهو فاعل يجرم
والضمير مفعول اول والمفعول الثاني ان يصيبكم عذاب العاجلة علي
كفركم وافعالكم الخبيثة قال في الكشاف جرم مثل كسب في
تعديته الي مفعول واحد والي مفعولين تقول جرم ذنبا وكسبه
وجرمته ذنبا وكسبته اياه ومنه قوله تعالي لا يجرمنكم شقاقي
ان يصيبكم مثل ما اصاب قوم نوح من الغرق او قوم هود من الريح العقيم
او قوم صالح من الرجفة وما قوم لوط منكم ببعيد لا في الزمان ولا في
المكان لانهم كانوا حديثي عهد بهلاكهم وكانوا جيران قوم لوط
وبلادهم قريبة من بلادهم فان العرب في الزمان والمكان

يفيد

يفيد زيادة المعرفة وكمال الوقوف علي الاحوال فكانه يقول اعتبروا
باحوالهم واحذروا من مخالفة الله ومنازعته حتي لا ينزل بكم مثل
ذلك العذاب فان قيل لم قال ببعيد ولم يقل ببعيد بين اجيب
بان التقدير وما اهلاكهم بشئ بعيد والعنايجوز ان يستوي في قريب
وبعيد وقليل وكثير بين المذكر والمؤنث نورد بهما علي زنة المعنا
التي هي الفعيل والمفعيل ونحوهما انتهي واستغفروا ربكم اي اطلبوا منه
مغفرة بالتوبة اليه من عبادة غيره لان التوبة لا تصح الا بعد الايمان وقد
مر مثل ذلك انه ربي رحيم اي عظيم الرحمة للتائبين ودود اي محب
لهم ولما بالغ عليه السلام في التذكير والبيان اجابوه بانواع
فاسدة الاول قالوا له يا شعيب ما نفقه اي ما نفهم كثيرا مما تقول
فان قيل انه كان يخاطبهم بلسانهم فلم قالوا ما نفقه اجيب
بانهم كانوا لا يلقون اليه اذهانهم لشدة نفرتهم عن كلامه وهو قوله
تعالي وجعلنا علي قلوبهم اكنة ان يفقهوه وانهم فهموا ولكنهم ما قالوا
لدوران ما فذكروا هذا الكلام علي وجه الاستهانة كما يقول الرجل
لصاحبه اذا لم يعبأ بجد يقة ما اراد ان يقول ما تقول النوع الثاني قولهم
انا لنراك فينا ضعيفا اي لا قوة لك معتمتنع منا اذ اردنا كرهنا
وذليلا لا عز لك وقيل اعمي بلغة حمير قاله قتادة وفي هذا
تجويز العمي علي الانبياء الا اذا هذا اللفظ لا يحسن الاستدلال به
في اثباته لهذا المعنى لانه ترك الظاهر من غير دليل وقيل ضعيف
البصر قاله الكلبي النوع الثالث قولهم ولولا رهطك اي عشيرتك
وانما ترك عندنا لكونهم علي ملتنا لا لخوف من سطوتهم لرجمناك
بالحجارة حتي تموت والرهط من الثلاثة الي العشرة وقيل الي
السبعة والمقصود من هذا الكلام انهم بينوا انه لا حرمة له عندهم

ولا دفع له في صدورهم وانهم لم يقتلوه لاجل احترام رهطه النوع الرابع
قولهم له **وما انت علينا بعزيز** اي لا تعز علينا ولا تكرم حتى تكرمك من
القتل ويزعمك عن الرجم وانما يعز علينا رهطك لانهم من اهل ديننا
ولم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا ولما خوفوه الكفار بشعيب بالقتل
والايذاء حكى الله تعالى عنهم ما ذكروه في هذا المقام وهو نوعان
الاول **قال** لهم **يا قوم** مستعطفا لهم مع غلظتهم عليه **ارهطي اعز عليكم**
من الله المحيط بكل شيء قدرة وعلما حتى نظر لكم فيتوب لعزتي عليهم
ولم تتعللوا الى ابي تعالى بي وتوبي منه لما ظهر علي من كرامته **واتخذتموه**
وراءكم ظهريا اي جعلتموه كالمنسي المنبوذ وراء الظهر والكسر من تغيرات
النسب ونظيره قولهم في النسبة الى الامس إمسي بكسر الهمزة وقوله
ان ربي بما تعملون محيط اي انه عليم بما تعملون فلا يخفى عليه شيء منها
النوع الثاني قوله **ويا قوم اعملوا على مكانتكم** والمكانة الحالة التي
يمكن صاحبها من عمله والمعنى اعملوا حالكم التي انتم موصوفون بغاية المكنة
والقدرة وكل ما في وسعكم واطاقتكم من الاعمال السيئة **اني**
عامل ما اتاني الله تعالى من القدرة والطاقة **سوف تعلمون من يأتيه**
عذاب يخزيه ومن هو كاذب من موصولة معلق العلم فان قيل لم لم يقل
فسوف تعلمون اجيب بان ادخال الفاء وصل ظاهر تحرف موضوع
للوصل واما حذف الفاء فيحمله جوابا عن سؤال مقدر وهو المسمى
في علم البيان الاستيناف البياني تقديره انه لما قال ويا قوم اعملوا
على مكانتكم اني عامل فكانهم قالوا فاذا يكون بعد ذلك فقال سوف
تعلمون فظهر ان حذف حرف الفاء ههنا اكمل في بيان الفصاحة
والتهويل لانه استيناف **وارتقبوا** اي انتظروا عاقبة امركم **اني معكم**
رقيب اي منتظر والرقيب بمعنى المراقب من رقبه كالضريب والقريع

بعيني

بمعنى الضارب والصارم او بمعنى المراقب كالعشير والنديم او بمعنى المرتقب
كالقعيد والرفيع بمعنى المقعد والمرتفع **ولما جاء امرنا** بعذابهم واهلاكهم
نجينا شعيبا والذين امنوا معه برحمة اي بفضل منا بان هدينا هم
للايمان ووفقناهم للطاعة فان قيل لم جاء قصة عاد وقصة مدين
بالواو وقصة صالح ولوط بالفاء اجيب بان قصة عاد ومدين لم يتسلم
ذكر وعد مجيء السبب لم يخالف قصة صالح ولوط فانه تم ذكر
بعد الوعد وذلك قوله تعالى وعد غير مكذوب وقوله ان موعدهم
الصبح فلذلك جاء بالسببية **واخذت الذين ظلموا** انفسهم
بالشرك والبخس **الصيحة** اي صيحة جبريل عليه السلام صاح بهم
صيحة خرجت ارواحهم وماتوا جميعا وقيل انتهم صيحة من السماء **فاصبحوا**
في ديارهم جاثمين اي باركين على الركب ميتين **كان لم يغنوا**
كانهم لم يقيموا فيها اي ديارهم مرة من الدهر ما خوذ من قولهم غنى
بالمكان اذا اقام فيه مستغنى به عن غيره **الا بعدا** اي هلاكا **لمدين كما**
بعدت ثمود انما شبههم بهم لان عذابهم كان ايضا بالصيحة لكن صيحتهم
كانت من تحتهم وصيحة مدين كانت من فوقهم قال ابن عباس لم
يعذب الله تعالى امتين بعذاب الا قوم شعيب وقوم صالح فاما
قوم صالح فاخذتهم الصيحة من تحتهم واما قوم شعيب فاخذتهم
الصيحة من فوقهم القصة السابعة التي ذكرها الله تعالى في
هذه السورة وهي اخر قصصها قصة موسى عليه السلام المذكور
في قوله تعالى **ولقد ارسلنا موسى بآياتنا** اي التوراة مع ما فيها
من الشرايع والاحكام **وسلطان مبين** اي برهان بين ظاهر على
صدق نبوته ورسالته وقيل المراد بالايات المعجزات وبالسلطان
البين العصا لانها اظهر الايات وذلك ان الله تعالى اعطى موسى

النار كما قال تعالى فاوردهم النار فان قيل لم لم يقل يقدم قومه فيرد
النار بل اتي بلفظ الماضي اجيب بانه انما اتي بلفظ الماضي مبالغة
في تحقيقه ونزول النار له منزلة الماء فسمي اتيانها موردا وكذلك
قال تعالى وبئس الورد المورود وردهم لان الورد انما يراد لتسكين
العطش وتبريد الاكباد والنار ضده فان قيل لفظ النار مؤنث فكان
مقتضى ذلك ان يقال وبئست الورد المورود اجيب بان لفظ
الورد مذكر فكان التذكير والتانيث جايزين كما تقول نعم المنزل
دار ونعمت المنزل دارك من ذكر غلب المذكر ومن انث بنى على
تانيث الدار واتبعوا في هذه اي الدنيا لعنة اي طردا وبعدا عن الرحمة
ويوم القيمة واتبعوا يوم القيمة لعنة اخرى فهم ملعونون في الدنيا
والاخرة ونظير قوله تعالى في سورة القصص واتبعوا في هذه الدنيا
لعنة ويوم القيمة هم من المقبوحين بئس الرفد اي العون لهم فسر
رفدهم رجل سال رافع بن الازرق وابن عباس عن ذلك فقال
هو اللعنة بعد اللعنة وقال قتادة ترادفت عليهم لعنتان من
الله لعنة في الدنيا ولعنة في الاخرة وكل شئ جعلته عونا لشئ
فقد رفدته به وسميت اللعنة عونا لانها ازدادتهم في الدنيا
ابعدا لهم عن الرحمة واعانتهم على ما هم فيه من الضلال وسميت
رفدا اي عونا لهذا المعنى على التهكم كقول القايل تحيتهم
ضرب وجيع وسميت معانا لانها ارفدت في الاخرة بلعنة اخرى
ليكونا هاديتين الى طريق جهنم ولما ذكر تعالى قصص الاولين
قال تعالى ذلك اي المذكور وهو مبتدا خبره من انبا القرى اي اخبار
اهل القرى وهم الامم السالفة في القرون الماضية وقوله تعالى
نقصه عليك اي نخبرك به يا محمد خبرا بعد خبر وفايدة ذكر هذه القصص

نوح ايات بينات وهي العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع
والدم ونقص من الثمرات والسنين ومنهم من ابدل نقص الثمرات بالسنين
باظلال الجبل وفلق البحر قال بعض المحققين سميت الحجة سلطانا لان
صاحب الحجة يقهر من لا حجة له كالسلطان يقهر غيره والعلما سلاطين
بسبب كمالهم في القوة العلمية والملوك سلاطين بحسب ما معهم
من القدرة والتمكن الا ان سلطنة العلما اكمل واقوى من سلطنة
الملوك لان سلطنة العلما لا تقبل النسخ والعزل وسلطنة الملوك
تقبلهما ولان سلطنة الملوك تابعة لسلطنة العلما لان سلطنة العلما
من جنس الانبيا وسلطنة الملوك من جنس سلطنة الفراعنة
الى فرعون طاغية القبط وملايه اي اشراف قومه الذين تبعهم الاتباع
لان العقد الاكبر رفع اليهم عن بني اسرائيل فاتبعوا امر فرعون اي
اتبعوا طريقة فرعون المنهمك في الضلال والطغيان الداعي الى
ما لا يخفى فساده على من له ادنى سكة من العقل ولم يتبعوا
موسى الهادي الى الحق المويد بالمعجزات الظاهرة الباهرة
لغرط جهالتهم وعدم استبصارهم وما امر فرعون برشيد اي
بسديد ولا حميد العاقبة ولا يدعو الى خير وقيل رشيد ذو رشد
وانسلاخ فرعون من الرشد كان ظاهرا لانه كان دهريا نافيا
للصانع والمعاد كان يقول لا اله للعالم وانما يجب على اهل كل بلد
ان يشتغلوا باطاعة سلطانهم وعبوديته رعاية لمصلحة العالم
وكمال الرشد في عبادة الله تعالى ومعرفته فلما كان هو نافيا لهذين
الامرين كان خاليا عن الرشد بالكلية يقدم قومه يوم القيمة الى
النار كما كان يقدمهم في الدنيا الى الضلال او كما تقدم قوله في
الدنيا فاوردهم البحر واغرقهم فكذا يقدمهم في القيمة فيدخلهم

على النبي صلي الله عليه وسلم ليعلم السامع ان المؤمن يخرج من الدنيا
مع الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في الاخرة وان الكافر يخرج
مع اللعن في الدنيا والعقاب في الاخرة واذا تكررت هذه الاقاصيص
علي السمع فلا بد وان يلين القلب وتخضع النفس وتزول القراة
وتحصل في القلب خوف يحمله علي النظر والاستدلال وفي اخباره
صلي الله عليه وسلم بهذه القصص من غير مطالعة كتب ولا تلمذ
دلالة علي نبوته فان ذلك لا يكون الا بوحي من الله تعالي منها اي
القري قايم اي باق كالزرع القايم هلك اهله دونه ومنها حصيد
اي عافي الاثر كالزرع المحصود هلك مع اهله وما ظلمناهم اي اهلاكهم
بغير ذنب ولكن ظلموا انفسهم بالكفر والمعاصي وقال ابن عباس يريد
وما نفعناهم في الدنيا من النعيم والرزق ولكن نقصوا حظوظ
انفسهم حيث بحقوق الله تعالي فما اغنت اي دفعت عنهم الهتهم اي
اصنامهم التي يدعونها اي يعبدونها من دون الله اي غير من شئ اي شيئا
قمن من زيدة لما جاء امر ربك اي عقابه وما زادوهم بعبادتهم غير تتبيب
اي غير تخسير وقيل تدمير ولما اخبر رسوله صلي الله عليه وسلم
في كتابه بما فعله بامم من تقدم من الانبياء عليهم الصلاة والسلام
لما خالفوا الرسل وما ورد عليهم من عذاب الاستيصال وبين
انهم ظلموا انفسهم فحل بهم العذاب في الدنيا قال تعالي بعد ٥
وكذلك اي ومثل ذلك الاخذ العظيم اخذ ربك اذا اخذ القري وهي
اي القري ظالمة والمراد اهلها والمقام في قوله تعالي وكم اهلكنا
من قرية بتبطرت معيشتها وقوله تعالي وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة
فبين تعالي ان عذابه ليس مقصورا علي من تقدم بل الحال في اخذ
كل الظالمين يكون كذلك ولما بين تعالي كيفية اخذ الامم المتقدمة

ثم

ثم بين تعالي انه انما ياخذ جميع الظالمين علي ذلك الوجه اتبعه بما يزيده
تاكيدا وتقوية بقوله تعالي ان اخذه اليم اي مؤلم شديد اي صعب
جدا القوي وعن ابي موسي الاشعري رضي الله عنه ان رسول
الله صلي الله عليه وسلم قال ان الله ليملي للظالم حتي اذا اخذه لم يفلته
ثم قرا وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القري وهي ظالمة الاية وفي
هذه الاية المكررة وعيد شديد للظالمين علي ان من اقدم علي
الظلم فعليه ان يتذكر بهذه الاية ويعلم ان عاقبة الظلم وخيمة
الظلم للغير ليلا يقع في هذا الوعيد العظيم والعذاب الشديد ولا
يظن ان هذه الاية مختصة بالظالم الذي يظلم غيره بل هي عامة في
كل ظالم ويدخل فيه دخولا اوليا من ظلم نفسه في ذلك فيما ذكر من عذاب الامم
الماضية واهلاكهم الاية اي لعبرة وموعظة لمن خاف عذاب يوم الاخرة
الاخرة لانه ينظر ما اعد الله تعالي بالجزمين في الجنة والنار وما هو لا
ما اخذ لهم في الاخرة فاذا رأي ما عظمه وشدته علم ان ما اخذ به
الامم الماضية هو عين ما اخذ به الظالم في الاخرة فاذا رأي عظمه وشدته علم ان
الامم الماضية هو عين ما اخذ به الظالم في الاخرة فاذا رأي عظمه وشدته علم ان
واضافة الموعظة اليه لكونه هو الذي ينتفع بها وقيل في زيادة المتعوي
واضافته اليه سر وقوله تعالي ذلك اشارة الي يوم القيمة لان عذاب
الاخرة قد علم انه يوم يجمع الله فيه الناس اي ان خلق الاولين
والاخرين يحشرون في هذا اليوم ويجمعون فيه وصفه تعالي
بوصف الجمع بقوله تعالي وذلك يوم مشهود اي يشهده اهل
السموات واهل الارض وحاضرون له لذلك اليوم وهو يوم القيمة
الاية اي وقت يعد اي معلوم محدد ذلك الوقت لانعلمه
الا الله تعالي يوم ياتي لا تكلم نفس اي يوم القيمة الا باذنه اي حكم فيه حكم احد الكلام
اي لا تتكلم نفس الا باذنه تعالي وقرا نافع وابو عمرو ابو الكسائي
بغير اثبات الياء بعد التاء من ياتي وصلا ووقفا وحذفها الباقون

فان قيل كيف يوفق بين قوله تعالى يوم تاتي كل نفس تجادل عن نفسها وقوله
تعالى في هذا اليوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون اجيب بان ذلك
اليوم يوم طويل له مواقف ومواطن ففي بعضها يجادلون عن انفسهم
وفي بعضها يختم على افواههم وتتكلم ايديهم وتشهد ارجلهم فمنهم اي الناس
شقي ومنهم سعيد اي فمنهم من سبقت له السعادة فوجبت له الجنة
بمقتضى الوعد ومنهم من سبقت له الشقاوة فوجبت له النار
بموجب الوعد وعن علي رضي الله عنه قال كنا في جنازة في بقيع الغرقد
فاتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله وبيده
مخصرة فنكت بها الارض ساعة ثم قال ما من نفس منفوسة
الا قد كتب مكانها من الجنة او النار فقالوا يا رسول الله افلا نتكل
على كتابنا فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له اما من كان من اهل
السعادة فسييسر الى عمل اهل السعادة ومن كان من اهل الشقاوة
فسييسر لعمل اهل الشقاوة ثم قرأ فاما من اعطى واتقى وصدق
بالحسنى فسنيسره لليسرى الاية وبقيع الغرقد هو مقبرة اهل
المدينة العشرية وحد فيهم فيها والمخصرة كالسوط والعصا
مما يمسكه الانسان بيده والنكت بالنون والتاء المثناة من
فوق ضرب الشيء بتلك المخصرة وباليد ونحو ذلك حتى يؤثر فيه
فاما الذين شقوا في علم الله تعالى ففي النار لهم فيها زفير وهو صوت
شديد وشهيق وهو صوت ضعيف وقيل الزفير بمنزلة ابتداء صوت
الحمار والشهيق بمنزلة آخر صوت الحمار اذا ارده في صدره
وقيل الزفير في الحلق والشهيق في الصدر وعلى كل المراد منهما
الدلالة على شدة كربهم وغمهم خالدين فيها وقوله تعالى ما دامت
السموات والارض فيها وجهان احدهما سموات الاخرة وارضها وهي

مخلوقة

تعالى قوله تعالى للاية والدليل على ان لجهنم سبع طبقات قوله تعالى
يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد وقوله تعالى واورثنا الارض
نتبوأ من الجنة حيث نشاء والله لا يليق الا بالله تعالى الا ترى انه تعالى
اخبر عما يخلقهم الله تعالى فيها من النعيم والعذاب وكل ما ظلك فهو سماء
وكل ما استقر عليه غيره فهو ارض وقوله الا ما شاء ربك اختلفوا في هذا الاستثناء
فروى عن ابن عباس رضي الله عنهما ان المراد منه اهل التوحيد من غير
اعتراض وقيل الذين سعدوا هم الذين كتبت لهم السعادة في الازل
والذين شقوا هم الذين كتبت عليهم الشقاوة في الازل كما تقدم ذكره في قوله تعالى عطاء غير
مجذوذ اي غير مقطوع وقيل الاستثناء في الفساق من اهل التوحيد يرجع الى
من سبق له الموجدين يخلد الله تعالى الفريقين في النار فيقولون
عند ذلك ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا اخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون
فيكون قولهم ذلك مكذبا في حكمه الاستثناء لان زوال
الحكم عند الكل لكينونة زواله عن البعض من غير تخصيص الذين
اخرجوا من النار وسعدوا في الحقيقة استثناء الله تعالى من
الا سلفيا لهم وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال يخرج قوم
من النار بالشفاعة وفي رواية اخرى انه صلى الله عليه وسلم قال يخرج
قوما بعد ما امتحشوا في النار فيدخلون نهرا على باب الجنة يقال له الحيوان
فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل قد امتحشوا فيدخلهم الله
بفضله ورحمته الجنة وفي رواية ان النبي صلى الله عليه وسلم قال
يخرج قوم من النار بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم فيدخلون
الجنة فيسمون الجهنميين عن عبد الله بن عمرو بن العاص ليأتين
على جهنم يوم كما تغيض فيه ابوابها ليس فيها احد وذلك
بعد ان ألقى فيها من اهل الكلمة ثم
من امتهم من محمد صلى الله عليه وسلم بان تخلط طبقتهم التي كانت فيها

من سعده اذا جعله سعيدا والباقون بفتحها وعطا نصب على
المصدر اكد كداي اعطاهم عطاء وكان من الخبة ولما شرح تعالى
اقاصيص عبدة الاوثان ثم اتبعه باحوال الاشقياء واحوال السعداء
شرح للرسول صلى الله عليه وسلم احوال الكفار من قومه
فقال فلا تكن يا محمد في مرية اي شك مما يعبد هؤلاء المشركون من
الاصنام انما نعذبهم كما عذبنا من قبلهم وهذه تسلية للنبي
صلى الله عليه وسلم ما يعبدون الا كما يعبد اباؤهم اي كعبادتهم
من قبل وقد عذبناهم وانا لموفوهم نصيبهم اي حظهم من
العذاب غير منقوص اي كاملا غير ناقص ولما ذكر تعالى في هذه
الاية اعراضهم عن الاتباع مع ما اتى به من المعجزات وانزل
عليه هذا الكتاب سلاه باخيه موسى عليه السلام بقوله تعالى ولقد
اتينا موسى الكتاب اي التوراة الجامعة للخير فاختلف فيه اي
الكتاب فامن به قوم وكفر به قوم كما اختلف هؤلاء في القرآن ولولا
كلمة سبقت من ربك بتاخير الحساب وجزاء الخلائق يوم القيمة لقضي
اي لوقع القضاء بينهم اي بين من اختلف في كتاب موسى في الدنيا
فيما اختلفوا فيه بانزال ما يستحقه المبطل ليتميز به المحق ولكن
سبقت الكلمة ان القضاء الكامل انما يكون يوم القيمة كما قال تعالى
في سورة يونس عليه السلام فما اختلفوا حتى جاءهم العلم الاية
ولما كان الاختلاف قد يكون بغير الكتاب بين تعالى انه لا شك
طائفة من اليهود تشكر شكهما فيه وفعلها فعل الشاك فقال
تعالى مؤكدا وانهم لفي شك اي عظيم محيط بهم منه اي من الكتاب
والقضاء مريب اي موقع في الريب والتهمة والاضطراب مع ما راوا
من الايات التي منها سماع كلام الله تعالى ورؤية ما يتجلى في

جبل الطور من طارق الاهوال وقيل العميس في وادي مر راجع لكفار
مكة وفي هذه للقرآن وان كلا اي كل الخلائق وقوله تعالى لما ما زائدة
واللام موطئية لقسم مقدر تقديره والله ليوفينهم ربك اعمالهم
فيجازي المصدق على تصديقه الجنة ويجازي المكذب على تكذيبه
النار وقرأ نافع وابن كثير وشعبة بتخفيف وان والباقون
بالتشديد وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بتشديد ميم لما والباقون
بالتخفيف فأما قال بعض الفضلاء انه تعالى لما اخبر عن توفية
الاجزية على المستحقين في هذه الاية ذكر فيها سبعة انواع
من التاكيدات اولها كلمة ان وهي للتاكيد وثانيها لفظة كل وهي
ام الباب في التاكيد وثالثها اللام الداخلة على خبر ان تفيد
التاكيد ايضا ورابعها حرف ما اذا جعلناه على قول الفراء
موصولا وخامسها القسم وسادسها اللام الثانية الداخلة على
جواب القسم وسابعها النون المذكورة في قوله تعالى ليوفينهم
فجميع هذه الالفاظ السبعة الدالة على التوكيد في هذه الكلمة
الواحدة تدل على ان امر الربوبية والعبودية لا يتم الا
بالبعث والقيامة وامر الحشر والنشر لم اردفه بقوله تعالى انه
بما يعملون خبير وهو من اعظم الموكدات فانه تعالى لا يخفى عليه
شيء من اعمال عباده ففيه وعد للمحسنين ووعيد للمكذبين
الكافرين ولما بين تعالى امر الوعد والوعيد قال لنبيه صلى الله
عليه وسلم فاستقم اي دم على دين ربك والعمل والدعاء الله كما
امرت والامر في ذلك للتاكيد فانه صلى الله عليه وسلم كان
على الاستقامة لم يزل على ما فهو كقولك للقايم قم حتى اتيك
اي دم على ما انت عليه من القيام حتى اتيك وتوطئة لقوله تعالى

وما

ومن تاب معك اي وليستقم الجميع على دين الله والعمل بطاعته من
آمن معك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه الاستقامة ان تستقيم
على الامر والنهي ولا تروغ روغان الثعلب واشار صلى الله عليه
وسلم الى شدة الاستقامة بقوله شيبتني هود واخواتها وعن
ابن عباس رضي الله عنهما ما نزلت على النبي صلى الله عليه
وسلم اية اشد ولا اشق من هذه الاية وعن بعضهم رايت رسول
الله صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت له بلغني عنك انك
قلت شيبتني سورة هود فقال نعم فقلت باي آية قال قوله
تعالى فاستقم كما امرت وعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال قلت
يا رسول الله قل لي في الاسلام قولا لا اسال عنه احدا غيرك
قال قل امنت بالله ثم استقم قال الامام الرازي اذ هذه الاية
اصل عظيم في الشريعة وذلك لان القرآن لما ورد بالامر باعمال
الوضوء مرتبة في اللفظ وجب اعتبار الترتيب فيها لقوله تعالى
فاستقم كما امرت ولما ورد الامر في الزكاة باداء الابل من
الابل والبقر من البقر وجب اعتبارها وكذا القول في كل ما
ورد الامر به انتهى ولما كانت الاستقامة هي التوسط
بين طرفي الافراط والتفريط نهى عن الافراط بقوله تعالى
ولا تطغوا اي تتجاوزوا الحد فيما امركم به او تهتموا عنه بالزيادة
او الطاغوت استعالى انما امركم ونهاكم لتهذيب انفسكم لا لحاجته
الى ذلك ولن تطيقوا ان تقدروا الله حق قدره والدين المتين
لم يشاده احد الا غلبه كما ورد عن ابي هريرة رضي الله عنه
انه صلى الله عليه وسلم قال ان الدين يسر ولن يشاد الدين احد
الا غلبه فسددوا وقاربوا وبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة

وبشي من الدلجة فقوله صلى الله عليه وسلم ان الدين يسر عند العسر
فاراد له التسهيل في الدين وترك التشديد فان هذا الدين مع يسر
وسهولته قوي فلن يغالب ولن يقاوي وقوله وسددوا اي اقصدوا
السداد في الامور وهو الصواب وقاربوا اي اطلبوا المقاربة وهو
القصد الذي لا علو فيه ولا تقصير والغدوة الرواح بكرة والرواح
الرجوع عشاء والمراد منه اعملوا بالنهار واعملوا بالليل ايضا
وقوله واستعينوا بشي من الدلجة اشار الي تقليله ولما نهي
تعالي عن الافراط وهو الزيادة تقريبا فهم النهي عن التفريط وهو
التقصير عن المامور فلو جا من باب اولي نبه علي ذلك موكدا
تنزيلا لمن يفرط او يفرط منزلة المنكر فقال انه بما تعملون بصير
اي عالم باعمالكم ايها لا يخفي عليه شي منها فيجازيكم عليها ولا تركنوا
اي تميلوا الي الذين ظلموا اي في ميل فتمسكم النار اي تصيبكم بحرها
والنهي متناول الانخراط في سلكهم والانقطاع اليهم ومصاحبتهم
ومجالستهم وزيارتهم ومراقبتهم والرضا باعمالهم والتشبيه بهم
والتزيي بزيهم ومد العين الي زهرتهم وذكرهم بما هو تعظيم لهم
وتامل قوله تعالي ولا تركنوا فانه لا يكون هو الميل اليسير
وحكي ان الموفق صلى خلف الامام فتلا بهذه الاية فغشي عليه
فلما افاق قيل له فقال هذا فيمن ركن الي من ظلم فكيف بالظالم
ولما خالط الزهري السلطان كتب اليه اخ له في الدين
عافانا الله واياك ابا بكر من الفتن فقد اصبحت بحال ينبغي
لمن عرفك ان يدعو الله لك ويرحمك اصبحت شيخا كبيرا وقد
اثقلتك نعم الله بما قلدك من كتابه وعلمك من سنة نبيه
وليس كذلك اخذ الله الميثاق علي العلما قال الله سبحانه وتعالي

ليبيننه

ليبيننه للناس ولا تكتمونه واعلم ان ايسر ما ارتكبت واخف ما احتملت
انك أمنت وحشة الظالم وسهلت سبيل الغي بدنوك ممن لم يود
حقا ولم يترك باطلا مخافتي او مخافتك فتخذوك قطبا تدور عليك رحا
باطلهم وجسرا يعبرون عليك الي بلادهم وسلما يصعدون فيك
الي ضلالهم يدخلون بك الشك علي العلما ويقتادون بذلك قلوب
الجهلا فما ايسر ما عمروا لك في جنب ما خربوا عليك وما اكثر ما
اخذوا منك فيما افسدوا عليك من دينك فما يؤمنك ان تكون
ممن قال الله تعالي فيهم فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة
واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا فانك تعامل من لا يجهل
ويحفظ عليك من لا يغفل وقد اوي دينك فقد دخلت وهيهات زادك
قد حمز السفر البعيد وما يخفي علي الله من شي في الارض ولا في السماء
والسلام وقال سفيان في جهنم واد لا يسكنه الا القراء الزائرون
للملوك وعن الاوزاعي ما من شي ابغض الي من عالم يزور عاملا
اي من الظلمة وعن محمد بن سلمة الذباب علي العذرة احسن من قارئ
علي باب هولاء وقال صلى الله عليه وسلم من دعي الظالم بالبقاء
فقد احب ان يعصي الله في ارضه ولقد سئل سفيان عن ظالم
اسرف علي الهلاك في برية تهلل يسقي سربة ماء فقال لا فقيل
له يموت فقال دعه يموت وقوله تعالي وما لكم من دون الله من اولياء
اي اعوانا وانصارا يعينونكم من عذابه حال من قوله فتمسكم النار
وانتم علي هذه الحالة ثم لا تنصرون اي لا تجدون من ينصركم ويخلصكم
من عذاب الله في القيمة ففي الاية وعيد لمن ركن الي الظلمة بان
تمسه النار فكيف يكون حال الظالم في نفسه ولما امر تعالي بالانتهاء
ردفه بالامر بالصلاة بقوله تعالي واقم الصلاة وذلك بدل علي

مته

ان اعظم العبادات بعد الايمان بالله تعالى هو الصلاة وقوله تعالى طرفي
النهار الغداة والعشي اي الصبح والظهر والعصر وقوله تعالى وزلفا
جمع زلفة اي طائفة من الليل اي المغرب والعشاء ان الحسنات كالصلوا
الخمس يذهبن اي يكفرن السيئات اي الذنوب الصغائر لما رواه مسلم
انه صلى الله عليه وسلم قال الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة
كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر وزاد في رواية اخرى ورمضان
الى رمضان مكفرات لما بينهن اذا اجتنبت الكبائر وعن ابي هريرة
انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ارايتم لو ان نهرا بباب
احدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات ما تقولون هل يبقى من
درنه شيء قالوا له يا رسول الله لا يبقى من درنه شيء فقال
ذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا وعن جابر قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الصلوات الخمس كمثل
نهر جار غمر على باب احدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات وعن
انس ان الحسنات قول العبد سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله
والله اكبر وسبب نزول هذه الاية ما رواه الترمذي عن ابي
اليسر بن عمرو قال اتتني امراة وزوجها بغنم البني صلى الله عليه
وسلم في نبت فقالت يبني به رسم مرارا فاعجبتني فقلت ان
في البيت مرارا هو اطيب من هذا فالحقني فدخلت معي البيت
فاهويت اليها فقبلتها فاتيت ابا بكر فذكرت ذلك له فقال استر
على نفسك وتب فاتيت عمر فذكرت له ذلك فقال استر على
نفسك وتب ولا تخبر احدا فاتيت النبي صلى الله عليه وسلم
فذكرت ذلك له فقال رحلت غازيا في سبيل الله في اهله
بمثل هذا حتى تمنى انه لم يكن اسلم الا تلك الساعة حتى ظن انه من

اهل

اهل النار واطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا حتى اوحى
اليه واقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل الى قوله تعالى ذلك
ذكرى للذاكرين اي عظة للمتقين قال ابو اليسر فاتيته فقرا علي
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم اهذا خاصة ام للناس عامة قال بل للناس عامة
قال الترمذي هذا حديث حسن غريب وعن عبد الله بن مسعود ان
ان رجلا اصاب من امراة قبلة فاتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر
ذلك له فنزلت فقال رجل يا رسول الله اهذا خاصة فقال بل للناس
كافة وعن معاذ بن جبل قال اتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقال
يا رسول الله ارايت رجلا لقي امراة ليس بينهما معرفة ولي باتي
الرجل الى امراة شيا الا الذي هو اليها الا انه لم يجامعها قال
فانزل الله تعالى هذه الاية واقم الصلاة الى قوله فتلاها النبي صلى الله عليه وسلم ان
يتوضا ويصلي قال معاذ فقلت يا رسول الله اهي له خاصة ام
للمومنين عامة قال بل للمومنين عامة قال العلما الصغائر من
الذنوب تكفرها الاعمال الصالحة مثل الصلاة والصدقة والذكر
والاستغفار ونحو ذلك من اعمال البر واما الكبائر من الذنوب
فلا يكفرها الا التوبة النصوح ولها ثلاث شرايط الاول الاقلاع
عن الذنب بالكلية الثاني الندم على فعله الثالث العزم التام على
ان لا يعود اليه في المستقبل فاذا حصلت هذه الشروط صحت
التوبة وكانت مقبولة ان شا الله تعالى والاشارة في قوله تعالى ذلك
الى ما تقدم ذكره من قوله تعالى فاستقم كما امرت الى قوله وقيل هو
اشارة الى القرآن وقوله تعالى واصبر خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم
اي واصبر يا محمد على اذى قومك او على الصلاة وهو قوله تعالى

وامر اهلك بالصلاة واصطبر عليها فان الله لا يضيع اجر المحسنين اي اجر
اعمالهم وعدل عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود ودليلا على
ان الصلاة والصبر احسان واتيان بما ينبغي لا يقيد بحمد ودا الاخلاص
ولما بين تعالى ان الامم المتقدمين خل بهم الاستيصال بين ان السبب
فيه امران السبب الاول انه ما كان في قرنهم قوم ينهون عن الفساد في
الارض فقال تعالى فلولا اي فهلا كان من القرون اي الامم الماضية من
قبلكم اولوا بقية اي اصحاب راي وخير وفضل ينهون عن الفساد في
الارض وسمي العقل والجود بقية لان الرجل يستبقي ما يخرجه لجوده
وافضله فصار مثلا في الجودة والفضل ويقال فلان من بقية القوم
اي من خيارهم وفي نفسي بقية اي كراهة ان لذين اولوا بقية يأتين بتاء
ومنه قولهم في الزوايا خبايا وفي الرجا بقايا ويجوز ان تكون البقية
بمعنى البقوى كالتقية بمعنى التقوى اي فهلا كان منهم ذوا البقا
على انفسهم وصيانة لها من سخط الله تعالى وعقابه فان قيل حكى
عن الخليل انه قال كلما في القرآن من كلمة لولا فمعناه هلا الا
التي في الصافات قال صاحب الكشاف وما صحت هذه الحكاية
في غير الصافات لولا انك تداركه نعمة من ربه ولولا رجال مؤمنون
ولولا ان ثبتناك انتهى وقوله تعالى الا قليلا ممن انجينا منهم استثنا
منقطع معناه ولكن قليلا ممن انجينا من القرون نهوا عن الفساد
وسائرهم تاركون للنهي السبب الثاني لنزول عذاب الاستيصال قوله
تعالى واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه اي بما انغمسوا فيه من الشهوات
واهتموا بتحصيل اسبابها واعرضوا عما وراء ذلك وكانوا مجرمين اي
كافرين تشبيه قوله تعالى واتبع الذين ظلموا اذ كان معناه واتبعوا
الشهوات كان معطوفا على مضمر لان المعنى الا قليلا ممن انجينا منهم

نهوا

نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا استمتعوا فهو عطف على نهوا اذ
كان معناه وانتهوا جزا الاترف قالوا والكلام الغاء قيل انجينا
القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزاءهم وقوله تعالى وكانوا مجرمين
بذلك هم الذين يقتاح انه ما اهلك اهل القرى بظلم بقوله تعالى وما كان
ربك ليهلك القرى بظلم اي بشركهم واهلها مصلحون فيما بينهم والمعنى
انه لا يهلك اهل القرى بمجرد كونهم مشركين اذا كانوا مصلحين في المعاملات
فيما بينهم وكان ان عذاب الاستيصال لا ينزل لاجل كون القوم معتقد
الشرك بل انما ينزل ذلك العذاب اذا انضاف الى معاملاتهم وسعيهم
في الايذاء والظلم ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما معناها على المشاحة
في المعاملة وحقوق العباد وعنها على الفيق والشح وقال قتادة
الا ترى الملك لا يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم وانما نزل على قوم
بفجورهم وعصاهم ولوط وشعيب عذاب الاستيصال كما حكى الله
عنهم من ايذاء الناس وظلم الخلق ولو شاء ربك لجعل الناس امة
واحدة اي اهل ملة واحدة وهي الاسلام كقوله تعالى ان هذه امتكم
امة واحدة وفي الاية دليل على ان الامر غير الارادة والله تعالى لم
يرد الايمان من كل احد وانما اراده يجب وقوعه والمعتزلة يحملون
هذه الاية على مشيئة الالجاء والاجبار ولهذا قال الزمخشري
يعني لاضطرارهم الى ان يكونوا اهل ملة واحدة ولا يزالون مختلفين
اي على اديان شتى ما بين يهودي ونصراني ومجوسي ومشرك ومسلم
فكل اهل دين من هذه الاديان اختلفوا في دينهم اختلافا
كثيرا الا من عصمه الله من اهل دينه وفي الله عنه ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال تفترق اليهود على احدى وسبعين فرقة وفي رواية
الا ان من قبلكم من اهل الكتاب افترقوا على اثنين وسبعين فرقة

ملة وان هذه الامة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة وفي رواية
فثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة والمراد بلفظ الفرقة اهل
البدع والاهواء كالقدرية والمعتزلة والرافضة والمراد بالواحدة بقي
ملة السنة واجماعة الذين اتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم اي قوله
وافعاله فان قيل ما الدليل على ان الاختلاف في الاديان فلم لا يجوز
ان يحمل على الاختلاف في الالوان والالسنة والارزاق والاعمال
اجيب بان الدليل عليه ما قبل هذه الاية وهو قوله تعالى ولو شاء
ربك لجعل الناس امة واحدة فيجب حمل الاختلاف على ما يخرج جميعهم
ان يكونوا امة واحدة وما بعد هذه هو قوله تعالى الا من رحم ربك
اي الا من رحمه ربك فلا يختلفون فيه فيجب حمل الاختلاف على معنى يصح
ان يستثنى منه ذلك وفي هذه الاية دلالة على ان الهداية
والايمان لا يحصلان الا بخلق الله تعالى لان تلك الرحمة ليست
عبارة عن اعطاء القدرة والعقل وارسال الرسل وانزال الكتب
واذاحة العذر فان كل ذلك حاصل في حق الكفار فلم يبق الا ان
يقال تلك الرحمة هو ان سبحانه وتعالى خلق فيه تلك الهداية
والمعرفة ولذلك خلقهم اي خلق اهل الاختلاف للاختلاف وخلق
اهل الرحمة للرحمة روي عن ابن عباس انه قال خلق الله اهل الرحمة
ليلا يختلفوا وخلق اهل العذاب للذين يختلفوا وخلق هؤلاء
لهؤلاء وخلق النار وخلق لها اهلا وهؤلاء لهؤلاء اذ الله تعالى خلق اهل
الباطل وجعلهم مختلفين وخلق اهل الحق وجعلهم متفقين فحكم
على بعضهم بالاختلاف وهم على الباطل ومصيرهم الى النار وحكم
على بعضهم بالاتفاق وهم اهل الحق ومصيرهم الى الجنة ويدل
لذلك قوله تعالى وتمت كلمة ربك وهي لاملان جهنم من الجنة والجن

والناس

والناس اجمعين وهذا صريح بان الله تعالى خلق اقواما للجنة والرحمة
منهم وفقهم لاعمال اهل الجنة وخلق اقواما للضلالة والنار فختم
ومنعهم من الهداية ولما ذكر تعالى القصص الكثيرة في هذه السورة
ذكر نوعين من الفائدة اولهما تثبيت الفؤاد بقوله وكلا اي وكل نبأ
نقص عليك وقوله تعالى من انباء الرسل اي نخبرك به لكل وقوله تعالى ما
نثبت به فؤادك بدل من كلا ومعنى تثبيت فؤاده زيادة يقينه
وطمانينة قلبه وشجاعة نفسه على اداء الرسالة وعلى الصبر
واحتمال الاذى وذلك لان الانسان اذا ابتلي بمحنة وبلية فاذا
راى له فيه مثالا كان ذلك على قلبه كما يقال المصيبة اذا عمت خفت
واذا سمع الرسول صلى الله عليه وسلم هذه القصص وعلم ان حال جميع
الانبياء مع ابتلائهم هكذا سهل عليه تحمل الاذى من قومه واحتمال الصبر
عليه الفائدة الثانية قوله تعالى وجاءك في هذه الحق اي في السورة
وعليه الاكثرون وفي هذا الانباء المقتصة فيها وقال الحسن في هذه الدنيا
قال الرازي وهذا بعيد غير لائق بهذا الموضع لانه لم يجر للدنيا ذكر
حتى يعود الضمير اليه فانه يقبل فجاءه الحق في غير هذه السورة بل
القرآن كله حق وصدق اجيب بانه انما خصها بالذكر لتشريفها لما
وموعظة وذكرى للمؤمنين وخصهم بالذكر لانتفاعهم بذلك بخلاف
الكفار فذكر تعالى امور ثلاثة الحق والموعظة والذكرى لما الحق
فهو اشارة الى البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة والمعاد
واما الموعظة فهي اشارة الى الحث عن الدنيا وتقبيح احوالها واما
الذكرى فهو اشارة الى الارشاد الى الاعمال النافعة الصالحة
في الدار الاخرة ولما بالغ تعالى الغاية في الانذار والاعذار والترغيب
والترهيب اتبع ذلك بان قال لرسوله صلى الله عليه وسلم

وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم اي حالتكم فيه وعيد وتهديد
وان كانت صيغة الامر فهي كقوله تعالى لابليس واستفزز من استطعت
منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك وقراسفيه بعد التوث
بالالف على الجمع والباقون بغير الف على الافراد انا عاملون على حالتنا
التي امرنا بها ربنا وانتظروا اي ما بدا لكم ان الشيطان لابد من اخذ لان انا
منتظرون اي ما يحل بكم من نقم الله تعالى وعذابه نحو ما نزل على
امثالكم وقيل انا منتظرون ما وعدنا الرحمن من انواع الغفران
والاحسان ثم ان الله تعالى ذكر خاتمة سريفة عالية جامعة لكل الكمالات
الشريفة المقدسة فقال ولله غيب السموات والارض اي علم ما
غاب فيهما فعلمه بحاله وتعالى ناف في جميع مخلوقاته حقيقتها وحكمها
واليه لا الى غيره يرجع الامر كله اي اليه يرجع امر خلق كلهم في الدنيا
والاخرة وقرا نافع وحفص بضم التاء وفتح الياء على البناء للمفعول
والباقون بفتح التاء وكسر الجيم ولما كان اول درجات السير الى الله
تعالى عبوديته واخرها التوكل عليه قال تعالى فاعبده ولا تشتغل
بعبادة غيره وتوكل عليه اي ثق به في جميع امورك فانه كافيك وما ربك
بغافل عما تعملون فيحفظ على العباد اعمالهم لا يخفى عليه شيء منها
فيجزي المحسن باحسانه والمسيء باساءته وقرا نافع وابن عامر
وحفص بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة قال
قال كعب الاحبار خاتمة التوراة خاتمة سورة هود وقال البيضاوي
تبعا للزمخشري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرا سورة
هود اعطي من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح ومن كذب
به وهود وصالح وشعيب ولوط وابراهيم وموسى وكان يوم القيمة
من السعداء حديث موضوع سورة يوسف عليه السلام مكية

كلمها

كلمها مائة واحدى عشر اية وعدد كلماتها الف ولثمانية وتسعون
كلمة وعدد حروفها لسبعة الاف ومائة وستة وسبعون حرفا بسم الله
الذي وسع كل شيء قدرة وعلما الرحمن لجميع خلقه المبين لهم طريق الهدى
الرحيم الذي خص حزبه بالابعاد عن مواطن الردى وقوله تعالى
الر تقدم الكلام على اوائل السور اول سورة البقرة وقرا ورش
بالامالة بين بين وابو عمرو وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي بالامالة
محضة والباقون بالفتح واختلف في سبب نزول هذه السورة فعن سعيد
ابن جبير انه قال لما انزل القران على رسوله الله صلى الله عليه وسلم
كان يتلوه على قومه فقالوا يا رسول الله لقد قصصت علينا فنزلت
هذه السورة متلاها عليهم فقالوا يا رسول الله لو حدثتنا فنزل الله
تعالى احسن الحديث كتابا متشابها مثاني فقالوا لو ذكرتنا فنزل الم يان
للذين امنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وعن ابن عباس انه قال
سالت اليهود النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا حدثنا عن يعقوب وولده
وشان يوسف فنزلت هذه السورة وقوله تعالى تلك اشارة الى
ايات هذه السورة اي تلك الايات التي انزلت اليك في هذه السورة
المسماة بالرحي ايات الكتاب اي القران المبين اي البين في نفسه
والرشد والكمال واكرام المفهم للحق من الباطل الذي ثبت فيه قصص
الاولين والاخرين وشرحت فيه احوال المتقدمين انا انزلناه اي القران
قرانا عربيا اي بلغة العرب لكي تعلموا معانيه وتفهموا مبانيه روي ان
علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين اسالوا محمدا لما انتقل آل يعقوب
من الشام الى مصر وعن كيفية قصة يوسف فانزل الله تعالى هذه
الاية وذكر فيها الله تعالى عبر عن هذه القصة بالفاظ عربية
ليتمكنوا من فهمها والتقدير انا انزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة

يوسف حال كونه قرآنا عربيا وسمي بعض القرآن قرآنا لان القرآن اسم
جنس يقع على الكل والبعض لعلكم ايها الملكة تعقلون اي ارادة ان تفهموه
وتحيطوا بمعانيه ولا يلتبس عليكم ولو جعلناه قرآنا عجميا لقالوا لولا
فصلت اياته واختلف العلماء هل في القرآن شيء بغير العربية فقد اعظم قوم
الله القول واحتج بهذه الاية انا انزلناه قرآنا عربيا وروي عن
ابن عباس ومجاهد وعكرمة ان فيه من غير لسان العرب من سجيل
ومشكاة وايم واستبرق وجمع بعض المفسرين بين القولين بان
هذه الالفاظ اتكلمت بها العرب ودارت على السنتهم صارت عربية
فصيحة وان كانت غير عربية في الاصل لكنهم لما تكلموا بها نسبت اليهم
وصارت لهم لغة وهو جمع حسن نحن نقص عليك احسن القصص
اي احسن الاقتصاص لانه اقتص على ابدع الاساليب والقصص اتباع
خبر بعضه بعضا واصله في اللغة من قص الاثر اذا اتبعه وانما سميت
الحكاية قصة لان الذي يقص الخبر يذكر تلك القصة شيئا فشيئا
والمعنى انا نبين لك يا محمد اخبار الامم السالفة والقرون الماضية
احسن البيان او قصة يوسف عليه السلام خاصة وسماها
احسن القصص لما فيها من العبر والحكم والنكت والفوائد التي تقلح
للدين والدنيا وما فيها من سير الملوك والاعمال النيكة والخصال وملك
النساء والصبر على اذى الاعداء وحسن التجاوز عنهم بعد القدرة عليهم
ذلك حتى ان خالد بن معدان في سورة يوسف ومن مر بتلك فيها اهل
الجنة في الجنة وقال ابن عطا لا يسمع سورة يوسف محزون الا
استراح اليها بما اي بسبب ما اوحينا اي بايجادنا اليك يا محمد هذا القرآن
الذي قالوا فيه انه مفتري فنحن نتابع القصص الحقة بعد القصة
حتى لا يبقى شائبة ولا يتمارى ممتري انه من عند الله وان كنت

من

من قبله اي يا محمد اياك الكتاب وهذا القرآن لمن الغافلين اي عن قصة
يوسف واخوته لانه صلى الله عليه وسلم انما علم ذلك بالوحي وقيل لمن
الغافلين عن الدين والتوحيد وان بمعنى المخففة من الثقيلة واللام هي
الفارقة بينها وبين النافية وقوله تعالى اذ قال يوسف لابيه بدل من
احسن القصص او منصوب باضمار اذكر ويوسف اسم عبري وقيل عربي
ورد بانه لو كان عربيا لصرف وسئل ابو الحسن الاقطع عن يوسف
فقال الاسف في اللغة الحزن والاسيف العبد واجتمعا في يوسف
فسمي به وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الكريم بن
الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم وقوله
يا ابت اصله يا ابي فعوض عن الياء التاء لتناسبهما في الزيادة
ولذلك قلبها ابن كثير وابن عامر في الوقف ووقف الباقون بالتاء
كالموسم وفي الوصل بالتاء بالجميع وفتح الياء في الوصل ابن عامر
وكسرها الباقون اني رايت احد عشر كوكبا والشمس والقمر قال اهل
التفسير راى يوسف في منامه وكان ابن اثنتي عشرة سنة وقيل سبع
عشرة سنة وقيل سبع سنين ليلة الجمعة وكانت ليلة القدر وكان
احد ولد يعقوب كوكبا ان الشمس من السماء وهي امه والقمر هو ابوه
ولم يسم خالته لانها بمنزلة امه وكانوا احد عشر يستضاء بهم كما يستضاء
بالنجوم والشمس والقمر بابيه وامه جعل الشمس للام لانها مونثة
والقمر للاب لانه مذكر والذي رواه البيهقي وبينا الكسائي
عن جابر بن ان يهوديا قال للنبي صلى الله عليه وسلم اخبرني عن
النجوم التي رآها يوسف فاخبره باسمائها فقال اليهودي اي
والله انها لاسماؤها قال ابن الجوزي انه موضوع رايتهم لي
ساجدين استيناف ببيان الهم التي راهم عليها فلا تكبر لابيك

الرؤية الاولى تدل على انه شاهد الكواكب والشمس والقمر والثانية
تدل على مشاهدة كونهما ساجدة له وقال بعضهم انما قال اني رأيت
احد عشر كوكبا والشمس والقمر قيل له كيف رأيت قال رأيتهم لي ساجدين
وقال اخرون ويجوز ان يكون احدهما من الرؤية والاخر من الرؤيا
وهذا القائل لم يبين انه ايهما يحمل على الرؤية وايهما يحمل على الرؤيا
قال الرازي ويمكن ان يقال انهم لما كانوا غير حيين قال رأيتهم
وقوله ساجدين لا يليق الا بالعقلاء والكواكب جمادات فكيف
كانت اللفظة المخصوصة بالعقلاء في حق الجمادات اجيب بانها
لما وصفت بالسجود صارت كأنها تعقل واجرى عليها كما اجرى على من يعقل
كما قال تعالى في صفة الاصنام وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون
وكما في قوله تعالى يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم فان قيل لم افرد
الشمس والقمر بالذكر مع انهما من جملة الكواكب اجيب بانه افردهما
لفضلهما وشرفهما على سائر الكواكب كقوله تعالى والملائكة
وجبريل وميكال وقيل المراد بالسجود نفس السجود او الخضوع
كلا سبق محتمل والاصل في الكلام حمله على الحقيقة قال اهل
التفسير ان يعقوب عليه السلام كان شديد الحب ليوسف عليه
السلام فحسده اخوته لهذا السبب وظهر ذلك ليعقوب فلما
رأى يوسف هذه الرؤيا وكان تأويلها ان اخوته وابويه يخضعون
له وخاف عليه حسدهم وبغيهم قال له ابوه يا بني بصيغة التصغير
للشفقة او لصغر سنه على ما تقدم وقرأ حفص في الوصل بفتح الياء
والباقون بالكسر والتشديد للجميع لا تقصص رؤياك على اخوتك
اي لا تخبرهم برؤياك فانهم لو علموا انك رأيت انك تكيدهم كيدا اي
يحتالوا في هلاكك فانه فيكيدك ويكدك كما قال وكيدون

اجيب

اجيب بان هذا من اللام لام تاكيد للعلة كقولك للملك وبالمعروف وكقولك لزيد تحتك
وفيك مكر ومكري وكيدي وقيل صلة كقوله للذين هم لربهم يرهبون وقيل للتبيين
للامر ما بعده وقيل ان ظاهر الصلاة تحمل بالامر وحوا والا باي احمله
في شرعهم والله اعلم حسدوه حتى باعوه على الكبر وعن ابي قتادة قال كنت
ابن الرؤيا الصالحة من الله واكثر من الذي يراه فاذا رأى شيئا كرهه
فلا يحدث به الا اخا ثقة يحب ان يحدثه برؤياه وانه رأى كأني وعلي
سبعة اكلات ولا اكلهن الا اكلن ما فيهن من الخير وسمعت ابا الحسن
ابي سعيد الخدري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رأى احدكم
الرؤيا يحبها فانما هي من الله فليحمد الله عليها وليحدث بها واذا رأى غير
ذلك مما يكره فانما هي من الشيطان فليستعذ من شرها ولا يذكرها لاحد فانها لا تضره وعن ابي
رزين العقيلي قلت يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما علامة ما يعلم
وسلم قال لم ترى قبل اليوم من جزم ابن يجز اهل البصرة وبي علي رجل
طائر فالم يعبر منها شيئا فاذا اخذ شيئا سقطت قال واحسبه قال ولا
تحدث بها الا لبيبا او حبيبا واضافت الرؤيا اليهما اما باضافة
تشريف كخلافة الله وبيت الله او لكونهما يعبران الرؤيا اما باضافة
وتبيين واراده ان لا يقبل الا شيئا من فيها ولكنه يضمر المكر فيه ويقضيها
فيجب اذا رأى المنكر فيها ما يجب ان يحدث به من يحب واذا رأى
ما يكره فلا يحدث به ويتعوذ بالله من شر الشيطان الرجيم ومن شر ما رأى
ولينفث عن يساره ثلاثا ولينفث في ثوبه ولا يخبر بها حبيبا ولا غيره فانها لا تضره وعن
ابي سعيد الخدري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رأى احدكم
الرؤيا يحبها فانما هي من الله فليحمد الله عليها وليحدث بها واذا رأى غير
ذلك مما يكره فانما هي من الشيطان فليستعذ من شرها ولا يذكرها لاحد فانها لا تضره وعن ابي
رزين العقيلي قلت يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما علامة ما يعلم
وسلم قال لم ترى قبل اليوم من جزم ابن يجز اهل البصرة وبي علي رجل
طائر فالم يعبر منها شيئا فاذا اخذ شيئا سقطت قال واحسبه قال ولا
تحدث بها الا لبيبا او حبيبا واضافت الرؤيا اليهما اما باضافة
تشريف كخلافة الله وبيت الله او لكونهما يعبران الرؤيا اما باضافة
وتبيين واراده ان لا يقبل الا شيئا من فيها ولكنه يضمر المكر فيه ويقضيها
فيجب اذا رأى المنكر فيها ما يجب ان يحدث به من يحب واذا رأى
ما يكره فلا يحدث به ويتعوذ بالله من شر الشيطان الرجيم ومن شر ما رأى
ولينفث عن يساره ثلاثا ولينفث في ثوبه ولا يخبر بها حبيبا ولا غيره فانها لا تضره وعن

كرها

فقد يكون الخبر ذا فائدة وقد لا يكون فائدة بجهل المخبر على ظهوره
بزمن طويل حتى تكون الحجة الحاصلة بسبب توقع حصول ذلك الخبر
في الكثرة دائما ولهذا المرتظهر رؤية يوسف عليه السلام الا بعد اربعين
سنة وهو قول اكثر المفسرين وقال الحسين البصري كان بينهما ثمانون
سنة حين اجتمع عليه ابواه واخوته وخروا له ساجدين وكذلك اي
وكما اجتباك ربك للاطلاع على هذه الرؤية العظيمة الدالة على
شرفه وعلو كعبه للنبوة يجتبيك اي يختارك ويصطفيك ربك
بالدرجات العالية واجتباء الله تخصيصه بنوع من الوحي يتحصل منه انواع
الكرامات بلا سعي من جهة العبد وذلك يختص به الانبياء وبعض
من يقاربهم من الصديقية والشهداء والصالحين وقوله ويعلمك كلام
مستأنف مادح من التنزيه والتقدير وهو يعلمك من اي يوحي
تاويل الاحاديث من تاويل الرؤيا وغيرها من كتب الله تعالى
والالهام والمنورية عن الانبياء المتقدمين وكما نبوء يوسف عليه السلام
في تعبير الرؤيا وبعض هذا غاية والتاويل يئول اليه عاقبة الامر
ويتم نعمته عليك بالنبوة قال ابن عباس لان منصب النبوة اي
مع الرسالة اعلا من جميع المناصب وكل الخلق دونه درجة الانبياء
فهذا من تمام النعمة عليهم لان جميع مناصب الخلق دون منصب
الرسالة والنبوة فالكمال المطلق والتمام المحقق في حق البشر ليس
الا النبوة والرسالة وقيل يجتبيك بالنبوة ويتم نعمته عليك
بسعادات الدنيا وسعادات الاخرة اما سعادات الدنيا فالاكرام
من الله في البلد فلكثرة الاتباع والتوسع في المال وكما قوله والاجلال
من قلوب الخلق وحسن الثناء عليه وامنه سعادة الاخرة فالعلوم
الكثيرة والاخلاق الفاضلة والاستغراق في معرفة الله تعالى وعلى

آل

آل يعقوب اي اولاده وهذا يقتضي حصول تمام النعمة لآل يعقوب
وتمام النعمة هو النبوة والرسالة كما مر فلزم حصولها لآل يعقوب وايضا
ان يوسف عليه السلام قال اني رايت احد عشر كوكبا وكان تاويله
احد عشر نفسا لهم فضل وكمال ويستفتا بعلمهم ودينهم اهل الارض لانه
لا شيء اعلى من الكواكب السماوية وذلك يقتضي ان تكون جملة
اولاد يعقوب انبياء ورسلا فان قيل كيف يجوز ان يكون الانبياء وقد
اقدموا على ما اقدموا عليه في حق يوسف عليه السلام اجيب بان
ذلك وقع منهم قبل النبوة والعصمة من المناهي انما تعتبر بعد النبوة
لا قبلها على خلاف فيه كما اتمها على ابويك بالنبوة والرسالة وقيل
اتمام النعمة على ابراهيم عليه السلام خلاصه من النار واتخاذه
خليلا وعلى اسحاق خلاصه من الذبح وفداؤه بذبح عظيم على قول
ان اسحاق هو الذبيح من قبل اي من قبل هذا الزمان وقوله ابراهيم
واسحاق عطف بيان لابويك ثم ان يعقوب عليه السلام لما وعده
بهذه الدرجات الثلاثة ختم الكلام بقوله ان ربك عليم اي بليغ العلم
حكيم اي بليغ الحكمة وهي وضع الاشياء في اتقن مواضعها لقد كان في
يوسف واخوته وهم احد عشر كوكبا ورد بيل وشمعون ولاوي ويهوذا
قال البقاعي بزاي وموحدة ويشجر وامهم ليا بنت لبان وهي ابنة
خال يعقوب وولد له من سريتين احدهما زلفي والاخرى بلهمة
قاله النقوي وقال الرازي والاخرى بلهمة اربعة اولاد وابيهما اربع
دان ونفتالي قال البقاعي بنون مفتوح حتى وفا ساكنة ومثناة
فوقانية ولام بعدها الف وجاد واشر ثم توفت ليا فتزوج باختها
راحيل فولدت له يوسف وبنيامين وقيل جمع بينهما ولم يكن الجمع محرما
حينئذ ايات اي علامات ودلائل على قدرة الله تعالى وحكمته

في كل شئ المسائلية عن تفصيل حال الخبر عن كل واحد منهم بما ذكرناه وهو كقوله
تعالى في اربعة ايام سواء للسائلين وقيل اية على نبوة محمد صلى الله
عليه وسلم وذلك ان اليهود سألوه عن قصة يوسف وحيل بينهم وبين سؤاله
عن سبب انتقال يعقوب من ارض كنعان الى ارض مصر فذكر لهم قصة يوسف فوجدوها موافقة لما في التوراة فعجبوا منه فكان
دلالة على نبوته صلى الله عليه وسلم لانه لم يقرأ الكتب المتقدمة
ولم يجالس العلماء واصحاب الاخبار ولما اخبرهم بذلك
ذلك معلوم انه ما اتى به وحي سماوي اوحاه الله اليه وعرفه
به وهذه السورة تشتمل على انواع من العبر والمواعظ والحكم
في قصة يوسف عليه السلام وما جرت له من الاحوال التي فيها من حسد اخوانه
وما انتهى اليه امره من بلوغ المراد وعن ذلك عقب الاية التي اذا
فكر فيها الفاضل اعتبر وقد ابن كثير اية على التوحيد والباقون
على الجمع اذ اي واذكر اذ قالوا اي بعض اخوة يوسف لبعض بعد
ان بلغتهم الرؤية قالوا ما يرضي ان نستبد له اخوته حتى يتخصص له
ابواه ليوسف واخوه اي بنيامين احب الى ابينا منا اللام للام الابعد
وفيها تاكيد وتحقيق لمضمون الجملة اراد وا ان زيادة محبته لهما
امر ثابت لا شبهة فيه وحب المحبة اهب وحد لا ذا فضل من
يسوي بينه وبين الواحد وما فوقه من ذكر او انثى او مونثا اخ المرء
او ضعيف وقيل اللام لام قسم تقديره والله ليوسف وانما قالوا
واخوه ونحن جمعا اخوته لان امهما كانت واحدة والواو في قولهم ونحن
عصبة واو الحال التي يقتضيها في المحبة علينا وهما اثنان صغيران
لا كفاية فيهما ولا منفعة ونحن جماعة اقوياء نقوم بمرافقه فنحن احق
بزيادة المحبة منهما لفضلنا بالكثرة والمنفعة علينا والعصبة

والعصابة

والعصابة العشرة فما فوقهما وقيل الى الاربعين سموا بذلك لانهم جماعة
يعصب بهم الامور ويستكفون المصايب ان ابانا لفي ضلال اي خطا
مبين اي بين في اشارة حب يوسف واخيه علينا والقرب المقتضي
للحب في كلتا واحدة لا مانع في البنوة سوا ولنا مزية تقتضي تفضيلنا
وهي انا عصبة لنا من النفع له والذب عنه والكفاية ما ليس له تفبيه
فهذا سوالات الاول انا من المعلوم ان تفضيل بعض الاولاد على
بعض يورث الحقد والحسد فلم قدم يعقوب عليه السلام على ذلك
بانه انما فضلهما في المحبة والمحبة ليست في وسع البشر فكان معذورا
فيه ولا يلحقه بسبب ذلك لوم الثاني كيف اعترضوا على ابيهم فانهم
ان كانوا مومنين بنبوته لكن جوز ان يكون فعله باجتهاد ثم
اذا اجتهاد ادى الى تخطئة ابيهم فمذهب الاجتهاد لكونهم اكبر
سنا واكثر تقدما وعلما ظنوا عذرهم ان تخصيصهما بالبركات لوجود احدها
او هما معا مانعة ثانيها انه كان في يوسف من انوار الرشد والنجابة
ما لم يجده في سائر اولاده ثالثها انه وان كان صغيرا الا انه كان
يخدم اباه بانواع من الخدمة اعلاها واشرفها مما كان يصدر عن سائر
الاولاد والحاصل ان هذه المسئلة كانت اجتهادية وكانت مخلوطة
بميل النفس وموجبات الغفلة فلم يلزم من وقوع الاختلاف فيها
طعن احد الخصمين في دين الاخر الثالث انهم نسبوا ابانا الى الضلال
من رعاية مصالح الدنيا والبعد عن طريق الرشد لا الضلال عن
الدين الرابع ان قولهم ليوسف واخوه احب الى ابينا منا محض
الحسد والحسد من امهات الكبائر لا سيما وقد قدموا بسبب ذلك
الحسد على امور مذمومة منها قولهم اقتلوا يوسف او اطرحوه ارضا
اي بحيث يجعل اليأس من اجتماعه بابيه ومنها القاؤه في ذل العبودية

ومنا انهم ابقوا ابانا في الحزن الدايم والاسف العظيم ومنا اقدامهم علي
الكذب وكل ذلك يقدح في العصمة والنبوة اجيب بما تقدم ان ذلك
كان قبل النبوة وقرا نافع وابن كثير وهشام والكسائي بضم التنوين
من مبين في الوصل والباقون بالكسر فان وقف القاري علي مبين
وامتحن في الابتدا ابتدي بالضم للجميع وقولهم يخل لكم وجه ابيكم
جواب الامر اي يصف لكم وجه ابيكم يقبل بكليته عليكم ولا يلتفت
عنكم الي غيركم ولا يشارككم في محبته احد وقولهم وتكونوا مجزوم
بالعطف علي يخل لكم او منصوب باضمار ان من بعده اي قتل يوسف
او طرحه قوما صالحين بان تتوبوا الي الله تعالي بعد فعلكم وان يعف
عنكم وقال مقاتل يصلح امركم فيما بينكم وبين ابيكم قال قايل منهم هو
يهوذا وكان احسنهم راياً فيه وهو الذي قال فلن ابرح الارض
وقيل روبيل وكان اكبرهم سناً لا تقتلوا يوسف والقوه اي اطرحوه
في غيابة الجب اي اسفله وظلمته والغيابة كل موضع ستر شيئا
وغيبه عن النظر قال القايل فان انا يوما غيبتني غيابتي
فسير وابسيري في العشيرة والاهل الادغيابة حفرته التي
يدفن فيها والجب البئر الكبيرة التي ليست مطوية سميت جباً لانها
قطعت قطعاً ولم يعمل فيها شيء غير القطع من وطيء او ما اشبهه
وانما ذكر الغيابة مع الجب دلالة علي ان المشير اشار بطرح في موضع
مظلم من الجب كما يلتقطه بعض السابلة ان قال بعض اهل العلم انهم عزموا
علي قتله وعصمه الله رحمة بهم ولو فعلوا لهلكوا اجمعين واختلف
في موضع ذلك الجب فقال قتادة هو بيت المقدس وقال وهب
هو باردن الاردن وقال مقاتل هو علي ثلاثة فراسخ من منزل
يعقوب وقرا نافع بالف بعد الياء والتا علي الجمع والباقون بغير الف

علي

علي التوحيد يلتقطه اي ياخذه بعض السيارة جمع سيار اي المسافر في السير
وذلك الجب كان ممرو فايرد عليه كثير من المسافرين فاذا اخذوه ذهبوا
به الي ناحية اخري فلستريح منه ان كنتم فاعلين اي ما اردتم من
التفريق فاكتفوا بذلك ولما اجمعوا علي التفريق بين يوسف وابيه بقوا
من الحيل قالوا اعمالا للحيلة في الوصول اليه مستفهمين علي وجه
التعجب لانه كان احتشم منهم السوء فكان يجدر بهم عليه يا ابانا مالك
لا تامنا علي يوسف وقال يا ابانا لنا لناصحون اي قايمون بمصلحته وحفظه
تنبيه اتفق القراء علي اخفاء النون الساكنة عند النون المتحركة
واتفقوا ايضا علي ادغامها مع الاشمام ارسله معنا غدا ابلي الكلا
نرتع اي نتسع في اكل الفواكه ونحوها واصل الرتع اكل البهايم في الخصب
في زمن الربيع ويستعار للانسان اذا اريد به الاكل الكثير ونلعب
روي انه قيل لابي عمرو كيف يقولون نلعب وهم انبيا فقال لم يكونوا
يومئذ انبياء وايضا جاز ان يكون المراد باللعب الاقدام علي المباحات
لاجل انشراح الصدر كما روي انه صلي الله عليه وسلم قال لجابر فهلا
بكرا تلاعبها وتلاعبك وايضا كان لهم اله مستباق والانتضال
والعرض منه المحاربة والمقاتلة مع الكفار والدليل عليه قولهم
انا ذهبنا نستبق وانما سموه لعبا لانه في صورته وقرا ابن كثير
وابو عمرو وابن عامر بالنون فيهما والباقون بالياء وسكن العين
ابو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وكسرها الباقون في
الوصل وتشبع وجه اخر وهو ان يثبت الياء في نرتع بعد العين
وقفا ووصلا وانا له لحافظون اي بليغون له في الحفظ حتي نرده
اليكم سالما قال ابو حيان وانتصب غدا علي الظرف وهو ظرف مستقبل
يطلق علي اليوم الذي يلي يومك وعلي الزمن المستقبل من غير

تقييد واصل عذا عذ وحذفت الواو اهـ ان يعقوب عليه السلام
اعتذر لهم بعذرين الاول مما حكاه الله عنه بقوله قال اني ليحزنني
ان تذهبوا به اي ذهابكم به ويحزنني هنا الم القلب بفراق المحبوب
لانه كان لا يقدر ان يصبر عنه ساعة وقرا نافع بضم الياء وكسر
الزاي والباقون بفتح الياء وضم الزاي والثاني قوله واخاف
ان ياكله الذيب وانتم عنه غافلون بالرتع واللعب او لقلة
اهتمامكم به وكان يعقوب عليه السلام راى في النوم ان الذيب
شد على يوسف فكان يحذره فمن هنا ذكر ذلك وكانه لفطنهم
العلة وفي امثال العرب البلا موكل بالمنطق والمراد به الجنس
وكانت ارضهم كثيرة الذياب قالوا مجيبين عن الثاني بما يليق الاب
لارساله موكدين لتطييب خاطره والين على القسم بلامه لئن
اكله الذيب ونحن اي والحال انا عصبة اي جماعة عشرة رجالا علمهم
يعصب الامور ويكفي المكروب واجابوا عن القسم بما اغنى عن
جواب الشرط بقولهم انا اذا اي اذا كان هذا اكله الخاسرون اي
كاملون في الخسارة لانا اذا اضعنا اخانا فمن لم سواه من امر الدنيا
اشد تقنيعا واعرضوا عن جواب الاول لان حقدهم وغيظهم
كانا بسبب الامر الاول وهو سنة حبته له فلما سمعوا ذلك
تنافلوا عنه واقبله ان يقولوا ما وجه الشبه بين اكله الذيب
بين اقتنا كل يوم ورتع الذيب ورتعنا لهو سبي والكتاني بابدال
الهمزة ياء وقفا ووصلا وحمزة وقفا لا وصله والباقون بالهمزة
وصلا ووقفا وقوله تعالى فلما ذهبوا به فيه اضمار واختصار
تقديره فارسله معهم فلما ذهبوا به واجمعوا ان يجعلوه في غيابة
الجب اي يعزموا على القائه فيها ولا بد من تقدير جواب وهو

فجعلوه

فجعلوه فيها وحذف الجواب في القرآن كثير بشرط ان يكون المذكور دليلا
عليه وهنا كذلك قال وهب وغيره من اهل السير والاخبار انه اخوة
يوسف قالوا له ما تشتاق ان نخرج معنا الى مواشينا فتصيد وتستبق
قال بلى قالوا فما سالك اباك ان يرسلك معنا قال يوسف فما قدرت
جميعا الى ابيهم وقالوا يا ابانا ان يوسف قد اعجبه ان يخرج معنا الى مواشينا
فقال يعقوب ما تقول يا بني قال نعم بالبت اني ارى من اخوتي اللين
واللطف فاحب ان تاذن لي وكان يعقوب يكرم معارفه ويجب مرضاته
فاذن له فارسله معهم فلما خرجوا به من عند ابيهم جعلوا يحملونه
على رقابهم وابوهم ينظر اليهم فلما بعدوا عنه وصاروا الى الصحراء
القوه على الارض واظهروا له ما في انفسهم من العداوة فاغلظوا
له القول وجعلوا يهزؤن به فجعل كلما جاء الى واحد استغاث به
يهزء به فلم يزل منهم رجل فرجل حتى كادوا يقتلونه وهو يصيح
يا ابتاه ويا يعقوب لو رايت يوسف وما نزل به من اخوته لاحزنك
وابكاك يا ابتاه ما اسرع ما نسوا عهدك وجعل يبكي بكاء شديدا
فاضغه رديبل فجلد به الارض ثم جلس على صدره واراد قتله
فقال له مهلا يا اخي لا تقتلني فقال له يا ابن راحيل انك صاحب
الاحلام وهذه الكاذبة قتل لرؤياك تخلصك من ايدينا ولو بي
عنقه فاستغاث بيوسف بيهود او قال له اتق الله في وحل
بيني وبين من يريد قتلي فاركته رحمة ورقة فقال يهود يا اخي ناه
ما على هذا عاهدتني فانطلقوا به الى الجب ليطرحوه فيه
فجاؤا به على بئر على غير الطريق واسع الاسفل ضيق الراس
فجعلوا يدلونه في البئر فيتعلق بشفير البئر فربطوا يديه ونزعوا
قميصه فقال يا اخوتاه ردوا علي قميصي استتر به في الجب فقالوا

فقالوا ادع الشمس والقمر والكواكب تخلصك وتونسك فقال اني
لم ار شيئا اثقل منهم وكان في البير ماء فسقط به ثم اوى في صخرة
كانت في البير فقام عليها فناداهم فظنوا انها رحمة ادركتهم فاجابهم
فاراد وا ان يرضخوه بصخرة ليقتلوه فمنعهم يهود ا من ذلك وكان
يهود ا ياتيه بالطعام وبقي فيها ثلاث ليال واوحينا اليه في الجب
ني صغر وهو ابن سبع عشرة سنة او دونها كما اوحي الى يحيى وعيسى
عليهما السلام في صغرهما وفي القصص ان ابراهيم عليه السلام حين
القي في النار جرد عن ثيابه فاتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير
الجنة فالبسه اياه وذهب ابراهيم عليه السلام الى اسحاق واسحاق
الى يعقوب فحمله يعقوب في عمامة على عنقه بنو يوسف فاخرجها جبريل
والبسه اياه لتنبئنهم اي لتخبرنهم بعد هذا اليوم باحرهم اي بصنيعهم
هذا وهم لا يشعرون اي انك يوسف لعلو شانك وبعده عن
اوهامهم وطول العهد المغير للهيئات كما قال تعالى وفي فهم وهم له
منكرون والمقصود من ذلك تقوية قلبه والا فسيخلص مما هو
فيه من المحنة ويصير ملكا عليهم ويصيرون تحت امره ونهيه
وقهره روي انهم لما دخلوا عليه لطلب الميرة عرفهم وهم له منكرون
وعمي يا لصواع فوضعه على يد بنيامين ونقره فظن فقال انه ليخبر في
هذا الجام انه كان للمراخ من ابيكم يقال له يوسف فظل حتى وقفهم
لابيكم اكله الذيب وقيل لا يشعرون بايحائنا اليك وانت في البئر
بانك ستخبرهم بصنيعهم هذا والعائلة التي اضاع ذلك الوحي
عنهم انهم لو عرفوه من بعد از داد حسدهم وكانوا يقصدون قتله وقيل
ان المراد من هذا الوحي الالهام في قوله تعالى واوحينا الى ام موسى
وقوله تعالى واوحى ربك الى النحل ولما كان من المعلوم انه ليس

بعد

بعد هذا الفعل الذي فعلوه الا الاعتذار وجاءوا اباهم وذكر يوسف
عشاء في ظلمة الليل ليلا يتفرس ابوهم في وجوههم اذ ارادها في ضياء
النهار وضد ما جاءوا به من الاعتذار وقد قيل لا تطلب الحاجة في الليل
فانه اكبى في العيون ولا تستتر في النهار من ذئب فتتهاون في الاعتذار
يبكون والبكاء جريان الدمع من العين والاية تدل على انه لا يدل على
الصدق لاحتمال التصنع وروي ان امراة حاكمت الى شريح ضيكة فقال
الشعبي يا ابا امية اما ترى هذه تبكي قال فجاء اخوة يوسف يبكون
وهم ظلمة كذبة لا ينبغي للانسان ان يقضي الا بالحق فعند ذلك فزع
يعقوب عليه السلام فقال هل اصابكم في غنمكم شيء قالوا لا قال فما فعل
يوسف قالوا يا ابانا انا ذهبنا نستبق قال الزجاج ليسابق بعضنا
بعضا في الرمي وعنه قوله عليه الصلاة والسلام لا سبق الا في خف
او نصل او حافر يعني بالنصل الرمي وقيل العدو وليتبين اتينا الشرع
عدوا وتركنا يوسف اخانا عند متاعنا اي ما كان معنا مما يحتاج
اليه في ذلك الوقت من ثياب وزاد ونحو ذلك فاكله اي فتسبب
من الفراء اي اكله الذيب وما اي والحال انك ما انت بمؤمن اي
بمصدق لنا ولو كنا صادقين في هذه القصة لمحبتك يوسف عندك
فكيف وانت تسيء الظن بنا وقيل لا تصدقنا لانه لا دليل لنا على صدقنا
وان كنا صادقين عندك وكما علموا انه لا يصدقهم بغير اماره جاءوا
على قميصه اي يوسف عليه السلام بدم كذب قال الزجاج
الا انه وصف بالمصدر على تقدير ذي كذب او مكذوب فيه
المصدر مبالغة لانه عين مطابق للواقع لانهم ما ادعوا انه دم يوسف
عليه السلام والواقع انه دم سخلة ذبحوها ولطخوا به ذلك القميص
قال القاضي ولعل غرضهم في نزع قميصه عند القائه في غيابة

اجب ان يفعلوا هذا لتوكيد العذر فيما بينهم اذ يبعد ان يفعلوا ذلك طمعا في نفس
القميص ولا بد في المعجزة من ان يقترن بها اكثر لان فلق حرقة مع
لطخه بالدم لكان الاتهام اقوي فلما استشهد يعقوب عليه السلام
القميص صحيحا علم كذبهم رد ان يعقوب عليه السلام اخذ القميص
ونشره والقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال
تالله ما رايت كاليوم ذئبا احلم من هذا اكل ابني ولم يمزق قميصه
تنبيه قميصه محلية لنفسه على الظرفية كانه قيل وجاءوا فوق
قميصه بدم تمكنوا اخبا على جالة باجمالة ولا يعبر ان يكون هذا حاله
متقدمة لان حال المجرور لا يتقدم عليه قال الشعبي فقئت يوسف
كلها في قميصه وذلك انهم لما القوه في الجب نزعوا قميصه ولطخوه
بالدم وأعرضوه على ابيه ولما استشهد الشاهد قال ان كان قميصه
قد من قبل ولما اتى بقميصه الي يعقوب والقى على وجهه ارتد
بصيرا ثم ذكر تعالي ان اخوة يوسف لما ذكروا ذلك الكلام
واحتجوا على صدقهم بالقميص المتلطخ بالدم قال يعقوب عليه
السلام بل سولت اي زينت لكم انفسكم امرا فعلتموه واختلف
في السبب الذي عرف به كونهم كاذبين على وجوه الاول انه
كان يعرف بحسد اشتد ليد في قلوبهم والثاني كان عالما بانه
حي لانه عليه السلام قال ليوسف وكذلك يجتبيك ربك
وذلك دليل على كذبهم في ذلك القول الثالث انه لما راى قميصه
صحيحا قال كذبتم لو اكله الذيب لخرق ثوبه وقيل انه لما قال ذلك
قال بعضهم بل قتله اللصوص فقال كيف قتلوه وتركوا قميصه
وهم اني قميصه احوج منهم اي قتله فلما اختلفت اقوالهم عرف بذلك
كذبهم وقوله فصبر جميل مرفوع بالابتدا لكونه موصوفا فا

وجهه

وخبره محذوف والتقدير فصبر جميل اولي من اجزع ومنهم من اضمر المبتدا
قال الخليل الذي افعله صبر جميل وقال قطرب معناه فصبري
صبر جميل وقال الفراء فامري صبر جميل وعن الحسن ان النبي صلي الله عليه
وسلم سئل عن الصبر الجميل فقال صبر لا شكوي فيه فمن لبث لم يصبر ثم
قال يعقوب عليه السلام انما اشكو بثي وحزني الي الله وقال ابن عباس
فصبر جميل من غير جزع وقال المؤدب ان من الصبر ان لا تحدث بوجعك
ولا بمصيبتك ولا تزكي نفسك وروي ان يعقوب عليه السلام كان قد
سقط حاجباه وكان يرفعهما بخرقة فقيل له ما هذا فقال طول الزمان
وكثرة الاحزان فاوحي الله تعالي اليه يا يعقوب اتشكوني فقال يا رب
خطيئة اخطاتها اغفرها لي ورد علي عائشة رضي الله عنها في قصة
الافك انها قالت والله لئن حلفت لا تقبلوني ولئن اعتذرت لا
تعذروني فمثلي ومثلكم كمثل يعقوب وولده والله المستعان على
ما تصفون فانزل الله تعالي في عذرها ما انزل وقوله فصبر جميل
يدل علي ان الصبر علي قسمين قد يكون جميلا وقد يكون غير جميل
فالصبر الجميل الذي لا يكشف لمن هذا البلاء ما اتى فاستغاثه في
سهو ونوم المبلي يمنعه من الاشتغال بالشكاية عن البلاء وكذلك
قيل المحبة التامة لا تزداد بالوفاء ولا تنتقص بالجفاء لانها لو ازدادت
بالوفاء لكان المحبوب هو النصيب والحظ وموصل النصيب لا يكون
محبوبا بالذات بل بالعرض فمنهم من هو الصبر الجميل واما الصبر لا لرضا
بقضاء الله بل كان لسائر الاغراض فذلك الصبر لا يكون جميلا فان
مثل الصبر علي قضاء الله تعالي واجب واما الصبر علي ظلم الظالمين
فغير واجب بل الواجب ان التذلل في الفرار العائد الي الغير فلم
صبر يعقوب علي ذلك ولم يبالغ في البحث مع شدة رغبته في حضور

يوسف وعناية جبله وكان من بيت عظيم شريف وكان الناس يعرفونه
ويعتقدون فيه اجيب بانه يحتمل ان يكون منع من الطلب بوحي شديد
للمحنة عليه زيادة في اجره وانه لو بالغ في البحث لربما اقدموا على
اذايته ولم يمكنهم من الطلب والفحص فرأى ان الاصوب الصبر والتسلي
وتفويض الامر بالكلية الى الله تعالى وقال والله المستعان اي
المطلوب منه العون على ما تصفون اي تذكرون من امر يوسف والمعنى
ان اقدامه على الصبر لا يكون الا بمعونة الله تعالى لان الدواعي
النفسانية تدعوه الى اظهار الجزع وهي قوية والدواعي الروحانية
تدعوه الى الصبر فكانت المحاربة وقعت بين الصفين فلما لم تحصل
اعانة الله لم تحصل الغلبة فقوله تصبر جميل جر ي مجرى قوله اياك
نعبد وقوله والله المستعان يجري مجرى قوله واياك نستعين
ولما اراد الله تعالى خلاص يوسف من الجب بين سببه بقوله تعالى
وجاءت سيارة وهم القوم المسافرون سموا بذلك لانهم يسيرون
في الارض وكانوا رفقة من مدين يريدون مصر فاخطأوا الطريق
فانطلقوا يهيمون على غير طريق فانطلقوا على ارض فيها
جب يوسف وكان الجب في قفرة بعيدة عن العمران لم يكن الا للرعاة
روي ان ماءه كان ملحا فعذب حين القي يوسف فيه فلما نزلوا
ارسلوا رجلا يقال له مالك بن دعر لطلب الماء فذلك قوله تعالى
فارسلوا واردهم اي الذي يريد انما ليستقي منه والوارد هو الذي
يتقدم الرفقة الى الماء فيهيئ الارشية والدلاء فادلى اي ارسل
دلوه في البئر يقال ادليت الدلو اذا ارسلتها في البئر ودلوتها اذا
اخرجتها والدلو معروف والجمع الدلا فلما ارسلها تعلق بالدلو يوسف
عليه السلام فلما خرج فاذا هو بغلام احسن ما يكون قال اصلي الله

عليه

عليه وسلم اعطي يوسف سبع الحسن ويقال انه ورث ذلك جمالا من
جدته سارة وكانت جدته قد اعطيت سدس الحسن قال ابن اسحق
ذهب يوسف وامه ببكي الحسن وحكي الثعلبي عن كعب الاحبار قال
كان يوسف حسن الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوي الخلق ابيض
اللون غليظ الساعدين والعضدين والساقين ضخم البطن
صغير السرة وكان اذا تبسم رايت النور من ضواحكه واذا تكلم
رايت شعاع التبسم من ثناياه لا يستطيع احد وصفه وكان حسنه
ضوء النهار عند الليل وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه
الله وصوره قبل ان يهبط الخطيئة فلما راه مالك بن دعر قال يا بشرى
هذا غلام نادي البشري اشارة لنفسه فانه قال تعالى هذا اوانك
وعن الاعمش انه قال دعي امراة اسمها بشرى وعن السدي ان
المدلي نادي صاحبه وكان اسمه بشرى فقال يا بشرى كما قراه
حمزة وعاصم والكسائي فانهم قرؤا بحذف الياء بعد الالف والباقون
باثبات الياء وقيل ذهب به فلما دلي من اصحابه صاح بذلك
وروي انه ان جدران البئر كانت تبكي على يوسف حين اخرج منها
في صغره واسروه بضاعة اي من يهود وفيه قولان الاول انه عايد
الى الوارد واصحابه اي اخفوه من الرفقة لانهم وجدوه في الجب وذلك
انهم قالوا ان قلنا للسيارة التقطناه شاركونا وان قلنا اشتريناه
سالونا الشركة فالصواب ان نقول ان اهلا لنا جعلوه بضاعة عندنا
على ان نبيعه لهم بمصر والثاني ونقل عن ابن عباس انه قال واسروه
يعني اخوة يوسف اسروا شانه وذلك ان يهوذا كان ياتيه بالطعام
كل يوم فلم يجده في البئر فاخبر اخوته فطلبوه فاذا هم بمالك بن دعر
واصحابه نزلوا فاتوهم فاذا هم بيوسف فقالوا هذا عبد لنا ابق

منا وتابعهم يوسف على ذلك لانهم توعدوه بالقتل بلسان العبرانية
قال الرازي والاول اولى لان قوله واسروه بضاعة يدل على ان المراد
انهم اسروه حال ما حكموا بانه بضاعة وذلك انما يليق بالوارد لا باخوة
يوسف تنبيه البضاعة القطعة من المال تجعل للتجارة من بضعت
الشيء اذا قطعته قال الزجاج وبضاعة منصوب على الحال كانه
قال واسروه حال ما جعلوه بضاعة ولما جعل تعالى هذا البلاء سببا
لوصوله الى مصر ثم تنقلت وقائعه الى ان صار ملك مصر وذلك الذي
رآه في النوم فكان العمل الذي عمله الاعداء في دفعه عن ذلك المطلوب
صيره تعالى سببا لحصول ذلك المطلوب فلهذا المعنى قال تعالى والله
عليم اي بالغ العلم بما يعملون اي لم يخف عليه ما فعلوه بيوسف
وابيه وشروه اي باعوه اذ قد يطلق لفظ الشراء على البيع يقال
شريت الشيء بمعنى بعته وانما حمل هذا الشراء على البيع لان الضمير في
شروه وفي كانوا فيه من الزاهدين يرجع الى شيء واحد وذلك ان
اخوته زادوا فيه فباعوه وقيل ان الضمير يعود الى مالك بن دعر
واصحابه وعلى هذا يكون لفظ الشراء على بابه وقال محمد بن اسحاق
ربك اعلم اخوته باعوه ام السيارة واختلفوا في معنى قوله بثمن
بخس فقال الضحاك اي حرام لان ثمن الحر حرام وسمي الحرام بخسا
لانه مبخوس البركة وقال ابن مسعود اي زيوف وقال عكرمة
اي بثمن قليل ويدل لهذا قوله تعالى دراهم معدودة لانهم كانوا
في ذلك الزمان لا يزنون ما كان اقل من اربعين درهما انما كانوا
ياخذون ما دونها عددا فاذا بلغت وهي اوقية وزنوها واختلفوا
في عدد تلك الدراهم فقال ابن عباس كانت عشرين درهما
فاقتسموها درهمين درهمين وعلى هذا لم ياخذ اخوه بنيامين

شيئا

شيئا منها وقال مجاهد كانت اثنين وعشرين درهما وقال عكرمة
اربعين درهما وكانوا اي اخوته فيه اي يوسف من الزاهدين لانهم لم يعلموا
منزلته عند الله تعالى وحقيقة الزهد قلة الرغبة يقال زهد فلان
في كذا اذا لم يرغب فيه واصله القلة يقال رجل زهيد اذا كان قليل
الطعم وقيل كانوا في الثمن من الزاهدين لانهم لم يكن قصدهم تحصيل
الثمن وانما كان قصدهم تبعيد يوسف عن ابيه وقيل الضمير في كانوا
للسيارة لانهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به خائف من انتزاعه
مستعجل في بيعه لاجرم باعوه باوكس الاثمان وذكر في الاخبار ان
مالك بن دعر انطلق هو واصحابه بيوسف وتبعهم اخوته يقولون
استوثقوا منه لا يابق فذهبوا به حتى اتوا به مصر وعرضه مالك على
البيع فاشتراه قطفير او اطفير وهو العزيز الذي كان على خزائن
مصر والملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العمالقة وقد امن
بيوسف ومات في حياة يوسف فملك بعده قابوس بن مصعب
فدعاه يوسف الى الاسلام فابى واشتراه العزيز وهو ابن سبع
عشرة سنة واقام في منزله ثلاث عشرة سنة واتاه الله الحكم
والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفي وهو ابن مائة
وعشرين سنة وقيل كان الملك في ايامه فرعون موسى عاش اربعمائة
سنة بدليل قوله تعالى ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات وقيل فرعون
موسى من اولاد فرعون يوسف واشتراه العزيز بعشرين دينارا
وزوجي نعل وثوبين ابيضين وقال وهب بن منبه قدمت السيارة
بيوسف مصر فدخلوا به السوق يعرضونه للبيع فترافع الناس في
ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه ذهبا ووزنه فضة ووزنه مسكا وحريرا
وكان وزنه اربعمائة رطل وكان عمره سبع عشرة سنة وقيل

ثلاثة عشر سنة فابتاعه قطفير من مالكه بعد الثمن فذلك قوله تعالى
وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته واسمها ليخا وقيل راعيل الكريمي
مثواه قال الرازي واعلم ان شيأ من هذه الروايات مما لا يليق بالعاقل ان
يجوز من ذكرها انتهى ولكن الغرض ذكرها وبنحو على ذلك جماعة من
المفسرين واللام في لامرأته متعلقة بقال لا باشتراه والمثوى موضع
الاقامة اي اجعلي منزله ومقامه عندنا كريما اي حسنا مرضيا بدليل
قول يوسف انه ربي احسن مثواي واراد تعليمها بالاحسان وتعهده
بحسن المملكة حتى تكون نفسه طيبة في عمله عندنا ساكنة في كنفنا قال
المحققون امر العزيز امرأته باكرام مثواه دون اكرام نفسه يدل
على انه كان ينظر اليه على سبيل الاجلال والتعظيم وهو كما يقال لرسلام
سر على المجلس العالي ولما امر باكرام مثواه علل ذلك بانقلاب
عسى ان ينفعنا اي يقوم بامر صالح مهما تنام وتبيعه بالربح اذا اردنا
بيعه او نتخذه ولدا فنتبناه وكان خصيا ليس لذي قال ابن مسعود
اكرس الناس ثلاثة العزيز في يوسف حيث قال لامرأته اكرمي
مثواه عسى ان ينفعنا وابنة شعيب حين قالت في موسى استأجره
وابو بكر في عمر حيث استخلفه وكذلك اي وكما نجيناه من القتل وحببنا
وعطفنا عليه قلب العزيز مكنا ليوسف في الارض اي ارض مصر
قال القباعي التي هي كالارض كلها لكثرة منافعها بالملك فيها لتمكنه
من الحكم بالعدل والبنوة في قوله تعالى ولنعلمه من تاويل الاحاديث
اي تعبير الرؤيا عطف على مقدر متعلق بمكنا اي لنمكنه او الواو زائدة
والله غالب على امره اي الامر الذي يريده لا يمنعه عنه شيء قال لما يريد
والدافع لقضائه والمانع عن حكمه في ارضه وسمائه ولكن اكثر
يوسف اراد اخوته فقتلوه فقلب امره عليهم واحاد وا اذ يلتقطه بعض

السيارة ليبيعوه فقلب امره سبحانه وتعالى وظهر اسمه واشتهر
بأمانته ليكون مملوكا فقلب امره تعالى حتى صار ملكا وسجد وابوه
بين يديه ثم اراد وا ان يغروا اباهم ويلبسوا قلبه حتى يخلو لهم وجهه
فقلب امره تعالى فاظهره على مكرهم واحتال عليه امرأة العزيز
لتحمله عن نفسه فقلب امره تعالى فعصمه حتى لم يهم بسوء بل هرب
منه غاية الهرب ثم اراد ت جهدها في ازالة القاء التهمة عليه فابى
الله تعالى الا عزته وبراءته ثم اراد يوسف عليه السلام ذكر الساقي
له فقلب امره تعالى فانساه ذكره حتى مضى الاجل الذي ضربه الله تعالى
لذكر مما امر كان في هذه القصة وفي غيرها يريد الي انه لا امر لغيره
ولكن اكثر الناس وهم الكفار لا يعلمون ان الامر كله بيده وان
اكثر الناس لا يعلمون ما وصفنا فخ بيوسفه وما يريد منه فمن تامل في
احوال الدنيا وعجائبها حولها عن من ويتيقن ان الامر كله لله وان قضاءه
تعالى غالب ولما بين تعالى انه اخوته اشاروا اليه وصبر على تلك
المشاق ثنى بالتمكين وبكونه في الارض اتبعه الاعلام بتمام النعمة عليه
بقوله تعالى ولما بلغ اشده اي منتهى شبابه وقوته وشدته تقول
العرب بلغ فلان اشده اذا انتهى منتهاه في شبابه وقوته وهذا
اللفظ مستعمل في الواحد والجمع تقول لبلغ اشده ولبلغوا اشدهم وهو
ثلاث وثلاثون سنة وقال السدي بلغ ثلاثين سنة وقال الضحاك
خمس عشرة سنة وقال الكلبي اشد سلبني ثمانية عشر الى ثلاثين وقيل
الى اربعين وستون سنة قال الاطباء ان الانسان في كل سنة في اول
الامر ويزايد كل يوم شيأ فشيأ الى ان ينتهي الى العدم والمحاق
كما لم يزل ينقص آتيناه حكما اي حكمة وهو العلم الذي يصلح للعمل او حكما بين الناس
وعلما اي علم تاويل الاحاديث وقيل المراد بالحكم النبوة والرسالة

وتقدم ان قوله تعالى واوحينا اليه وحي حقيقة قال الرازي فلا يبعد ان يقال ان ذلك الوحي اليه في ذلك الوقت لا لاجل بعثته الى الخلق بل لاجل تقوية قلبه وازالة الحزن عن صدره ولاجل ان يستانس بحضور جبريل عليه السلام وكذلك اي ومثل ذلك الجزاء الذي جزيناه به نجزي المحسنين قال ابن عباس يعني المومنين وعنه ايضا المهتدين وقال الضحاك يعني العابدين علي النوايب كما صبر يوسف وعن الحسن من احسن عبادة ربه في شبيبته اتاه الله الحكمة في اكتهاله ولما اخبر تعالى ان سبب النعمة عليه احسانه ابتعه دليله فقال تعالى وراودته التي هو في بيتها اي امراة العزيز راودت يوسف عن نفسه لانها كانت في غاية الحسن والجمال طمعت فيه ويقال ان زوجها كان عاجزا والمراودة معاملة من يريد ان يروده اذا جاء وذهب كانت المعنى خادعته عن نفسه اي فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد ان يخرجه من يده يحتال ان يغلبه عليه ويانخذه منه وهو عبارة عن التحيل لموافقته اياها وغلقت الابواب اي اطبقتها وكانت سبعة والتشديد للتكثير او للمبالغة في الاشياء لان مثل هذا الفعل لا يكون الا في ستر وخفية لا سيما اذا كان حراما وجميع مقامات الخوف الشديد وقالت هيت اي تهيات وتعشقت لك خاصة فاقبل الي وامتثل امري قال الواحدي هيت لك اسم للفعل يخبر ويدعى وهذه لغة ومعناه هلم في قول جميع اهل اللغة وقرا نافع وابن عامر بكسر الهاء والباقون بالفتح وقرا هشام بعد الهاء بهمزة ساكنة والباقون بياء ساكنة وقرا ابن كثير بضم التاء وفتحها والباقون بالفتح قال لمعاذ الله يوسف عليه السلام معاذ الله اي اعوذ بالله واعتصم به والجاء اليه مما تدعوني اليه انه اي الذي استرابني زلي اي سيدي احسن مثواي اي اكرم منزلي فلا اخونه في اهله وقيل انه اي ربي احسن مثواي اي اواني ومن بلاء فاجب اخباني انه

لا يفلح

لا يفلح الظالمون اي ان فعلت هذه الفعلة فانا ظالم ولا يفلح الظالمون ولقد همت به وهم بها اي قصدت مخالطته وقصد مخالطتها والهم بالشيء تصوره والعزم عليه وهذه الهمام وهو الذي اذا هم بشيء امضاه والمراد بالهمة ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختياري وذلك مما لا يدخل تحت التكليف بل الحقيق بالمدح والاجر الجزيل من الله تعالى من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم ولهذا قال بعض اهل الحقايق الهم هما همان همة ثابتة وهو اذا كان معه عزم وعقد ورضا مثل هم امراة العزيز فالعبد ما خوذ به وهمة عارضة وهو الخطرة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم مثل هم يوسف عليه السلام والعبد غير ماخوذ به ما لم يتكلم او يعمل كما روي عن ابي هريرة رضي الله عنه انه صلى الله عليه وسلم قال يقول الله عز وجل اذا تحدث عبدي بان يعمل حسنة فانا اكتبها حسنة ما لم يعملها فاذا عملها فانا اكتبها بمثلها قال في الكشاف ويجوز ان يريد بقوله وهم بها ما شارف ان يهم بها كما يقول الرجل قتلته لو لم افعل اي اريد ان اقتله ومشارفة القتل ومشافهته كان شرع فيها لولا ان راى اي بين قلبه برهان ربه اي الذي اتاه اياه من الحكم والعلم اي لهم بها لكنه كان البرهان حاضرا لديه حضور من يراه بالعين فلم يهم اصلا مع كونه في غاية الاستعداد لذلك لما آتاه الله تعالى من القوة مع كونه في سن الشباب فلولا المراقبة لهم بها لتوفر الداعي غير ان نور الشهود صاحبه اصلا وهذا التقدير هو اللايق بمثل مقامه عليه الصلاة والسلام مع انه الذي يدل عليه اسالیب هذه الايات من جعلها جملة من المخلصين والمحسنين المصروف عنهم السوء والفحشاء حتى يجب اليه من ذلك مع قيام القاطع على كذب ما تضمنه قول لم يجز من اراد باهلك سوءا الا بنية من مطلق الارادة ومع ما يتجشم بتقدير ما

ذكر بعد لولا في حضوض التركيب من اساليب كلام العرب فانه يجب ان
يكون المقدر بعد كل شرط من معنى ما دل عليه ما قبله وهذا مثل قوله
تعالى ان كانت لتبدي به لولا ان ربطنا على قلبها اي لابدت به واما ما
ورد عن السلف مما يبرأ عن ذلك من تفسيرهم يوسف بان حل الهميان
وجلس بما يجلس المجامع وبانه حل سراويله وقعد بين شعبها الاربع
وهي مستلقية على قفاها ومن تفسير البرهان بانه سمع صوتا ورأى كف
وايا ها فلم يكترث له فسمعه ثانيا فلم يعبأ به فسمع ثالثا اعرض عنهما
فلم يخف فيه حتى مثل له يعقوب عاضا على انمله وقيل عزب ببيه
على هدره فخرجت شهوته من انامله وقيل كل ولد يعقوب ولد له
اثني عشر ولدا الا يوسف فانه ولد له احدى عشر ولدا من اجزاء ما نقص
من شهوته حين هم وقيل صيح به يا يوسف لا تكن كالطائر كان له ريش
فلما زنى قعد لا ريش له وقيل بدت كف فيما بينهما ليس لهما فقهم عضد
ولا معصم مكتوب فيها وان عليكم لحافظين كراما كاتبين فلم ينصرف
ممرأى فيها والقوا بوما ترجعون فيه الي الله فلم يخف فقال الله تعالى
لجبريل عليه السلام ادرك عبدي قبل ان يدركه الخطيئة فاخطا جبريل
وهو يقول يا يوسف تعمل عمل السفهاء وانت مكتوب في ديوان الانبياء
وقيل رأى تمثال العزيز وقيل قامت المرأة الي صنم لها كان في البيت
وقالت استحي ان يرانا فقال يوسف استحييت ممن لا يسمع ولا يبصر
ولا استحي من السميع العليم بذات الصدور فلم يبرح منه حتى عذا احد
صنم مع انه هذه الاقوال التي وردت عنهم اذا جمعت تناقضت وتكاذبت
قال الزمخشري وهذا ونحوه مما يورده اهل الكبر والحسد الذين
دينهم بهت الله وانبيائه فاحذري ايتها المسلمة ان يراد بكم في ايرادهم ما يودي
الي ان يكون انزل الله السورة التي هي احسن القصص في القرآن

العزيز

العزيز المبين ليقتدي بنبي من انبياء الله تعالى فيما ذكروه والدليل
والتوحيد ليس واحد من مقالاتهم وردوا بما تقدم بحمد الله تعالى بسبيل واطال
في رد ذلك وكذا فعل الرازي وقيل وفقه بما ادى نظره اليها وقيل هم بضربها
ودفعها وقيل هذا كله قبل نبوته وقد ذكر بعضهم ما زال النساء يملن
الي يوسف ميل شهوة حتى بناه الله تعالى فالقى عليه هيبة النبوة
فشغلت هيبته كل من راه عن حسنه كذلك اي مثل ذلك التثبيت الثبتناه
في كل امر نصرف عنه السوء اي الهم بالزنا وغيره والفحشا اي الزنا
وغيره وقيل السوء مقدمات الفاحشة من القبلة والنظر بالشهوة
والفحشا هو الزنا فانه قيل لم فعل به هذا فقيل انه من عبادنا اي الذين
عظمنا امر المخلصين اي هو في عبادنا الذين هم خير صرف لاخلاصهم عنش
وقرا ابن كثير وابو عمرو وابن عامر بكسر اللام بمعنى الوفاء والباقون بالفتح
قال الرازي في وروده باسم الفاعل دل على كونه آتيا بالطاعات والقرآن
مع صفة الاخلاص وورده باسم المفعول يدل على ان الله تعالى استخلصه
واصطفاه لحضرته وعلى كلا التقديرين فانه من ادل الالفاظ على كونه
منزها عما اضاف اليه ويعذا مع قول ابليس لاغوينهم اجمعين الا عبادك
منهم المخلصين سبقا من ابليس ان يوسف عليه السلام بريء من الهم فمن
نسبه الي الهم اذا كان من اتباع دين الله فليقبلوا شهادة الله على طهارته
وان كانوا من اتباع ابليس وجنوده فليقبلوا شهادة ابليس على
طهارته قال وقد علم بقولهم كنا في اول الامر تلامذة ابليس الا انا نزدنا
ونتجرأ عليه في الفاحشة كما قال الجزوري. وكنت فتى من جند ابليس
فارتقى. بي اللؤم حتى صار ابليس من جندي. فلما مات قبلي كنت احسن بعده.
بطرائق فسق ليس يحسنها بعدي. ثم ذكر سبحانه مبالغة في الامتناع عما جد
في الهم به دليلا على اخلاصه وانه لم يهم اصلا واستبقا الباب

اي اوجد المسابقة بغاية الرعشة من كل منهما هذا الهرب منها وهذه
لمنعه فكل منهما بذل اقصى جهده بالسبق فلحقته عند الباب الاقصى
مع انه قد كان سبقها بقوة الرجولية وقوة الداعية الي المراد
الي الله تعالي ولكن عاقه اتقانها للمكن بكون الابواب كانت
مغلقة فكانت تشتغل بفتحها فتعلقت بادبي ما وصلت اليد من
قميصه وهو مكان من ورائه خوفا من انه قاسد تعلقها به مع
اعراضه هو عنها وهربه منها ففتحه قاد اخرج فمنعته ولم
تزل تنازعه حتي قدت اي شقت قميصه وكان القد من دبر اي
الناحية من اختلف منه وانقطعت منه قطعة فبقيت في يدها والفيا
اي وجد سيدها اي زوجها قطفير وهو العزيز تقول المراة لبعلها
سيدي ولم يقل سيد بما لان ملكه يوسف بهم فلم يكن سيدا
له علي الحقيقة لدي اي عنده الباب حال سماع ابن عم المراة قالت
قيل كيف وحد الباب وقد جمعه في قوله وغلقت الابواب اجيب
بانه اراد الباب البراني الذي هو المخرج من الدار والمخلص
فقد روي كعب الاحبار ان يوسف لما ضرب جعل في راس القفل
سبابته وسبطه حتي يخرج من الابواب فلما رات المراة ابن
عمها هابته وخافت التهمة فسابقت يوسف بالقول وقالت
لزوجها ما جزاء من اراد باهلك سوءا اي فاحشة زنا او
غيره ثم خافت عليه ان يقتل وذلك لشدة حبها له فقالت
الا ان يسجن اي يحبس في السجن ويمنع التصرف او عذاب اليم
اي مولم بان يعزب بالسياط ونحوها وابتدات بالسجن قبل
العذاب لان المحب لا يشتهي ايلام المحبوب وانما ارادت ان يسجن
عندها يوما او يومين ثم ترده السجن الطويل فانه لا يعبر

عنه

عنه بعدة العبارة بد منها ويجب ان يجعل من السجونين الاترج
ان فرعون هكذا قال في حق موسي عليه السلام في قوله لئن اتخذت
الها غيري لاجعلنك من المسجونين فلما سمع يوسف عليه السلام
مقالتها قال مبرءا نفسه عن بعض الغيبة لاستحيابه هي بواحدتها
بالتاء او ضمير خطاب راودتني عن نفسي اي طلبت مني
الفاحشة فابيت وفررت منها وذلك ان يوسف عليه السلام
ما كان يريد ان يذكر هذا القول ولا يهتك سترها ولكن لما قالت
ما قالت ولطخت عرضه احتاج الي ازالة هذه التهمة عن نفسه
وصدقه لعمري فيما قال لاحتياج الي بيان اكثر من الحال الذي
كان فيه وهو انهما عند الباب ولو كان الطلب منه لما كان الاولي
الذي يجلس فيه وهو صدر البيت واشرف موضع فيه والفيا
عبد الهمم والعبد لا يملكه ان يسلطها علي مولاه اي هذا الحال
والفيان المراة زينت نفسها علي اكمل الوجوه واما يوسف فما
كان عليه اثر من اثار التزين البتة فكان ذلك هذه الفتنة
بالمراة اولي بمراة الله تعالي اظهر ليوسف عليه السلام دليلا
اخر يقوي تلك الدلايل المذكورة ويدل علي انه بريء من
الريب والمراة هي المذنبة وهو قوله تعالي وشهد شاهد من
اهلها اي وحكم حاكم من اهل المراة واختلفوا في هذا الشاهد
فقال سعيد بن جبير والضحاك كان صبيا في المهد انطقه الله
تعالي كرامة ليوسف عليه السلام وروي انه صلي الله
عليه وسلم قد تكلم في المهد اربعة وهم صغار شاهد يوسف
وابن ماشطة بنت فرعون وعيسي بن مريم وصاحب جريج
الراهب رواه الامام احمد وفي الصحيحين انه صلي الله عليه

وسلم قال لم يتكلم في المهد الا ثلاثة عيسى ابن مريم وصاحب جريج
وفتى كان يرضع امه فمر به راكب حسن الهيئة فقال اللهم اجعل
ابني مثل هذا فقال الصبي اللهم لا تجعلني مثله ثم اقبل على ثدي امه
صار واخبرته وزاد المطعلي بسند كما وصبي بن زكريا وزاد غيرهم
علي ذلك ولعل الحصر فيما ذكر في الحديث كان قبل العلم
بالزيادة فلا تنافي وآوصلهم السيوطي الى احد عشر
وظمهم فقال تكلم في المهد النبي محمد ويحيى وعيسى والخليل ومريم
وصبي جريج وهذا الذي يوسف وطفل مر على امه الاخدود وشاهد يوشع
وطفل عليه مشربا لامة التي تقول لما ترني ولا تتكلم
وما استفد فيه عمد فرعون طفلها وفي زمن المهادي المبارك يتكلم
وقالت طائفة عظيمة من المفسرين انها كان لها ابن عم وكان رجلا
حكيما واتفق في ذلك الوقت انها كانت مع الملك يريد ان يدخل عليها
فقال قد سمعت الجلبة من وراء الباب فشق القميص الا انه الذي
اليها قدام صاحبه ولكنه ان كان قميصه قد من قبل اي قدام فصدقت
وهو من الكاذبين وان كان قميصه قد من دبر اي من خلف فكذبت
وهو من الصادقين فلا يزول لا حد بالله عنها واعتالها عليه لما وقع ذلك
تعرف سيده صحة ذلك بلا شبهة كما قال تعالى فلما رأى اي يوسف
قميصه اي يوسف عليه السلام قد من دبر قال انه اي هذا القذف
له من كيدكن معشر النساء والكيد طلبة الانسان بما يكره انه
كيد كن عظيم والعظم ما ينبغي مقدار غيره عنه حسا او معنى
فان قيل كيف وصف كيد النساء بالعظم مع قوله تعالى وخلق
الانسان ضعيفا وهذا كان مكر النساء اقوى من مكر الرجال

اجيب

اجيب بان الانسان ضعيف بالنسبة لخلق ما هو اعظم منه كخلق
السموات والارض وبان كيدهن ادق من كيد الرجال والطف
واخفى لان الشيطان علمهن لتقصهن اقدر ومكرهن في هذا
الباب اعظم من كيد جميع البشر لان لهن من المكر والحيل والكيد
في اتمام مرادهن ما لا يقدر عليه الرجال في هذا الباب ولان
كيدهن في هذا الباب يورث العار ما لا يورثه كيد الرجال
والظاهر للقوم برآة يوسف عن ذلك الفعل المنكر حكى تعالى
انه قال يوسف اي يا يوسف اعرض اي انصرف بكليتك مجاوزا
عن هذا فلا تذكره لاحد حتى لا يشيع وينتشر بين الناس ثم التفت
الى المراة فقال لها واستغفري لذنبك اي توبي الي الله تعالى مما
رميتي يوسف به من الخطيئة وهو بريء منها انك كنت من
الخاطئين اي الاثمين قال ابو بكر الاصم ان ذلك الزوج كان
قليل الغيرة فاكتفى منها بالاستغفار وقيل انما قال ذلك
هو الشاهد فان قيل كيف قال من الخاطئين بلفظ التذكير
اجيب بانه قال ذلك تغليبا للذكور على الاناث او اراد المراد
انك من نسل الخاطئين فمن ذلك النسل سرى ذلك العرق
الخبيث فيك ثم شاع الخبر واشتهر وقال نسوة اي وقال جماعة
من النساء وكن خمسا امراة الساقي وامراة الخباز وامراة
صاحب الدواب وامراة صاحب السجن وامراة الحاجب والنسوة
اسم مفرد لجمع المراة وتانيثه غير حقيقي ولذلك لم يلحق فعله
تاء التانيث وقوله في المدينة اي مدينة مصر ظرف اي استبقن
الحكاية في مصر او صفة نسوة وقيل مدينة عين الشمس امرات
العزيز وانما اضافتها الى زوجها ارادة الاشاعة للخبر لان

النفس الى سماع اخبار ولي الاقطار اميل ويزدن تقرير والعزيز الملك
للسادات العرب ورسم امرات بالتاء المجرورة توقف عليها ابن كثير
وابو عمرو والكسائي بالهاء والباقون بالتاء واما الوصل
فهو بالتاء للجميع تراود فتاها اي عبدها الكنعاني يقال
فتاي وفتاتي اي عبدي وجاريتي عن نفسه اي تطلب
منه الفاحشة وهو يمتنع منها قد شغفها حبا اي شق شغاف
قلبها وهو جابه حتى وصل اليفؤادها وحبا نصب على
التمييز وقيل حبة رقيقة تقال لها لسان القلب
قال النابغة وقد حال هم دون ذلك والعلم كان
الشغاف بتثقية الاصابع وقرا نافع وابن كثير وابن
ذكوان وعاصم باظهار دال قد عند السين والباقون
بالادغام انا لنراها اي بعلم امرها علما هو كالرويه
في ضلال اي خطاء مبين اي بين ظاهر حيث تركت
ما يجب على امثالها من العفاف والستر بسبب حبها
اياه فلما سمعت زليخا بمكرهن اي في لهن وانما سمي
ذلك مكرا لوجوه الاول ان النسوة انما ذكرت ذلك الكلام
استدعاء لرويته يوسف عليه السلام والنظر الى وجهه
لا من عرض ايمن اذا قلن ذلك عرضت يوسف عليهن
لتتهيد عذرها عندهن الثاني ان زليخا اسرت التهتك
حبها ليوسف عليه السلام وطلبت منهن كتمان هذا السر
فلما اظهرن السر كان ذلك مكرا الثالث انهن وقعن
في غيبتها والغيبة انما تذكر على سبيل الخفية فاشبهت
المكر ارسلت اليهن تدعوهن لتقيم عذرها عندهن

قاله

قال وهب اتخذت ضيافة ودعت اربعين امراة من اشراف مدينتها فيهن
الاثنين واعتدت اي اعدت لهن متكاء اي طعاما يتكا عليه بالسكين وهو
الاترج وانما سمي الطعام متكا لانه يتكا عنده قال الشاعر جارى فظلنا
بنعمة واتكانا وسنى بنا الجلال من قلل النبيذ واتكانا عليه
عند الطعام والشراب والحديث لانهم كانوا يتكئون للطعام والشراب
والحديث كعادة المترفين ولذلك جا النهي عنه في الحديث انا
باكل الرجل متكيا وقال صلى الله عليه وسلم لا اكل متكيا وقيل انها
زينت البيت بانواع الفرش والاطعمة وزوقت الوسائد
ودعت النسوة الملاتي عيرنها بحب يوسف عليه السلام وانه
اي احضرت كل واحدة منهن سكينا اي لتاكل بها وكانت عادتهن
ان ياكلن اللحم والفواكه بالسكين وقالت زليخا ليوسف اخرج
عليهن اي النسوة وكان يحجبان من بحاسنها فخرج عليهن يوسف
وكانت قد زينته واجلسته في مكان وقف ابو عمرو وعاصم
وحمزة والكسائي بكسر التاء في الوصل والباقون بالضم واما
الابتداء فجميع القراء يبتدئون الهمزة بالضم فلما راينه اي النسوة
اكبرنه اي اعظمنه وهبنه عند رويته اتفق الاكثرون على
ان انما اكبرنه بحسبن اي جمال الفايق وحسن الكامل وكان
يوسف قد اعطي شطر الحسن وقال عكرمة كان يفضل يوسف
في الحسن كتفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وروي
انه صلى الله عليه وسلم قال رايت يوسف ليلة اسري بي اي
السماء كالقمر ليلة البدر ذكره البغوي بغير سند وقال ابن اسحاق
كان يوسف اذا سار في ازقة مصر يتلالا وجهه على الجدار
كما يرى نور الشمس من الماء عليها وقيل انه ورث حسن آدم

عليه السلام يوم خلقه الله تعالى قبل ان يخرج من الجنة وقيل الجمال من جنة سارة وقيل اكبر منه يعني حسن والهاء للسكت قيل اكبرت المرأة اذا حاضت وحقيقته دخلت في الكبر لانها بالكبر تخرج من حد الصغر الى حد الكبر وكان ابا اليأس اخذ من هذا التفسير قوله حفه الله تعالى ذا الجمال بيرقع فان لحت حاضت في الكبر وزوال العوانة وقيل امنين قالوا الكمية والمرأة اكمل من الرجل شاهق مهملين راعين المنى المدفق وقال البرقي يعني انما الكبر منه لا يهمن راعي عليهن حق القيوم وسيما الرسالة وانا لا نحفظ عن الاحبار والرهبان وتناقلت فيه شهادة الهيبة وهيبة ملكية تمنع عدم عد الالتفات الى المطعوم والمنكوح وعدم الاعتداد بهن وكان اجمال العظيم مقرونا بتلك الهيبة موقع الرعب والمهابة منه في قلوبهن وقطعن ايديهن اي جرحنها بالسكاكين التي معهن وهو يحسبن المن يقطعن الا لتزج ولم يجدن الالم من فرط الدهشة بيوسف وقار وهيبات جماعة منهن وقلن حاش لله اي تنزيها لله ان يسمى بغير الف بعد السين وقرأ الجحدري وفي الوصل دون الوقف بالف بعد السين والباقون بغير الف في وقف ووصل ما هذا اي يوسف عليه السلام بشرا واجمال ما عمل ليس في اللغة القديمة اي الحجازية ويدل عليها هذه الاية وقوله تعالى ما هن امهاتهم ان اي ما هذه الا ملك كريم اي على الله لما حواه من الحسن الذي لا يكون عادة في النسمة البشرية فان الجمع بين الجمال الرائع والكمال الفائق والفخمة البالغة من حواص الملائكة قالت اي زليخا للنسوة فذلكن اي ممن ذا هو الذي لمتنني فيه اي في محبته قبل ان تتصورنه

من يقوته ولو لفقوه وتصنعوا حاليتي لاعن بتن تهمة انهم عرفوه بما فعلت فقالت ولقد راودته عن نفسه فاستعصم اي فامتنع عن ذلك الفعل الذي طلبته واعاد ضمير ذلك الامتناع على اسمه الدال عليه من قوله ما هذا بشرا من قد اصابهن ما اصابهما عند رؤيته ثم قالت ولئن لم يفعل ما آمره به ليسجنن وليكونا من الصاغرين اي الذليلين المهانين فقال النسوة ليوسف اطع مولاتك فيما دعتك اليه فاختار يوسف عليه السلام السجن على ما دعته اليه فذلك قال رب السجن احب الي مما يدعونني اليه وان لم تصرف عني كيدهن اميلهن اصب اليهن بطبعي وانا من الجاهلين اي من السفهاء بارتكاب ما تدعوني اليه فان الحكيم لا يفعل القبيح وفي ذلك دليل على ان من اذنب ذنبا انما يرتكبه بجهالة والقصد بذلك الدعاء ولذا قال تعالى فاستجاب له ربه اي فاجابه الله تعالى دعاءه الذي

الذي تضمنه هذا الثناء الكريم يغنيه التلويح عن التصريح كما يقال
اذا اثني عليك المرء يوما كفاك من تقرعنك الثناء فعرفني عنه
كيدهن اي فتنته بالعصمة حتى وطن نفسه على مشقة السجن
وآثرها على اللذة المتضمنة للعصيان انه هو السميع اي لدعا
الملتجئين اليه العليم بالضمائر والنيات فيجيب ما صح فيه القصد
وطاب فيه الغرام ثم بدا اي ظهر لهم اي العزيز واصحابه من بعد
ما رأوا الايات اي الدلالات على براءة يوسف عليه السلام كشهادة
الصبي وقد التميص وقطع النساء ايديهن واستعصامه عنهن
ليسجننه حتى الى اي حين ينقطع فيه كلام الناس وذلك ان
المراة قالت لزوجها ان هذا العبد العبراني قد فضحني في الناس
يقول لهم اني راودته عن نفسه وانا لا اقدر على اظهار عذري
فاما ان تاذن لي فاخرج واعتذر واما ان تحبسه كما حبستني
فعند ذلك وقع في قلب العزيز ان الاصلح حبسه حتى يسقط
عنه السنة الناس ذكر هذا الكذب وحتى تقل الفضيحة فسجنه
تنبيه في فاعل بدا اربعة اوجه احسنها انه ضمير يعود على
السجن بفتح السين اي ظهر لهم حبسه والثاني ان الفاعل
ضمير المصدر المفهوم من الفعل وهو بدا اي بدا لهم بدا والثالث
انه مضمر يدل عليه السياق اي بدا لهم السجن محذوف واقيم
الجملة مقامه وليست الجملة فاعلا لان الجمل لا تكون كذلك
وقيل الحبس هنا خمس سنين وقيل سبع سنين وقال
مقاتل بن سليمان حبس يوسف اثني عشر سنة وقال الزجاج
والصحيح ان هذه المقادير غير معلومة وانما القدر المعلوم
انه بقي محبوسا مدة طويلة لقوله تعالى واذكر بعد امة وعن

عكرمة

عكرمة قال رجل ذو راي للعزيز متى تركت هذا العبد يفتن
الي الناس ويفتضح علينا امره فاتركه في بيتي لا يخرج الي الناس فان
كلامه الناس عذرتني وفضحوا اهلك فامر به فسجن وبخل معه السجن
فتيان وهما غلامان كانا للوليد بن الريان احدهما صاحب شرابه
واسمه مجلث والاخر صاحب طعامه واسمه بنو وكان سبب
غضب الملك عليهما فحبسهما وكان السبب فيه ان جماعة من اشراف مصر
اراد وا الملك بالملك واغتياله وقتله وضمنوا لهما ذين الغلامين
مالا على ان يسما الملك في طعامه وشرابه فاجابا الي ذلك
فلما ان الساقي منهم ورجع عن ذلك وقيل كان الرشوة وسم الطعام
فلما حضر الطعام بين يدي الملك قال الساقي لا تاكل ايها الملك
فان الطعام مسموم فقال للخباز كل من طعامك فاكل منه
فلم يضره شيء فقال للساقي اشرب من شرابك فشرب منه
فلم يضره شيء فقال للخباز كل من طعامك فاكل منه
فمات فامر بحبسهما وكان يوسف عليه السلام حين دخل السجن قال لاهله اني اعبر
الاحلام فقال احد الفتيين لصاحبه هلم فلنجرب هذا العبد
العبراني فقصا عليه رؤياهما فقال ابن مسعود وما رايا شيئا وانما
تحالما ليجربا يوسف وقال قوم بل كانا رايا حقيقة فذكرا ما وقع
لهما ليعلما هل عنده علم فاخبرهما بما سياتي فقال احدهما
انه صاحب الملك اني اراني اعصر خمرا وقال الاخر اني اراني
احمل فوق راسي خبزا تاكل الطير منه فقال يوسف فقضي الامر الذي فيه
تستفتيان وقال للذي ظن انه ناج منهما اذكرني عند ربك
اي عند سيدك يعني الملك واخبره بمكاني وبظلامتي
فانسى الشيطان الناجي ذكر ربه اي ذكر يوسف ربه
فلبث في السجن بضع سنين البضع ما بين الثلاث الي التسع
وقيل ما بين الواحد الي الخمس وقيل ما بين الثلاث الي السبع
وقيل ما بين الخمس الي السبع وقيل ما بين السبع الي التسع

فلان يطبخ دبسا وهو يطبخ عصيرا الثالث قال ابو صالح اذد وعمان يقولون
العنبة بالكسر تؤنث هذه اللفظة اليد بها حكمة فتظهر ايما قال الضحاك
نزل القرآن بالسنة جميع الفرية وذلك انهم قالوا ما في رأيت في المنام
كاني في بستان وفاذا فيه بقرة ثلاثة اعضاء على ما ثلاثة
عضاء قد ذبحن عشر ذبحات وكان كأس الملك بيدي فنعرت فيه
وسقيت الملك فشربه وقال الملك الاعضاء الثلاثة اجل تؤت
لسبع سنين تأكل الناس فيهن وذلك انه قال رأيت في المنام كأن
في وقت رأسي ثلاث سنبلات نبهن الحنطة والبواقي الطعام وسبعا اخر
شهبا تؤكلن ما يأتي وجئن عجاف وليس فيهن حنطة فابتلعت العجاف
من السمان اي في علم التفسير لانه قد عبر بما رأيت كما قال
وعلمني من تأويل الاحاديث ويقال في الخبر الذي لا شك
لك فيه اذا واظبت على الطاعات من الصوم والصلاة فانه كان
يصوم الى الليل ويقوم الليل كله وربما كان لك يختم القرآن في ركعة
في تفسير الروياني في سبابل الله موته ويقال في حوت الشر كاذب والا
صاحب لانه كان يغير بقوم بعد صلاتهم ويؤنث حملهم واما اطباق
على اخذهم وسبع عليه والاجتماع احدهم جمع لانه يقال لبنة
ما وجدا السجن وجب حتى جاء البشير بالخبر فاستخلصه واخراجهم وقال
لهن ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء
قالت امرأت العزيز الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين
ذلك ليعلم انه لم اخنه بالغيب وان الله لا يهدي كيد الخائنين
وما ابرئ نفسي ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربي ان ربي غفور رحيم
وقال الملك ائتوني به استخلصه لنفسي فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين
امين قال اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم وكذلك مكنا ليوسف
في الارض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع اجر المحسنين
ولاجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه
فعرفهم وهم له منكرون ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من
ابيكم ألا ترون اني اوفي الكيل وانا خير المنزلين فان لم تأتوني به فلا
كيل لكم عندي ولا تقربون قالوا سنراود عنه ابأه وانا لفاعلون وقال
لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم ينقلبون الى اهلهم لعلهم يرجعون
فلما رجعوا الى ابيهم قالوا يا ابانا منع منا الكيل فارسل معنا اخانا نكتل
وانا له لحافظون قال هل آمنكم عليه الا كما امنتكم على اخيه من قبل
فالله خير حافظا وهو ارحم الراحمين ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم
ردت اليهم قالوا يا ابانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت الينا ونمير اهلنا
ونحفظ اخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير قال لن ارسله معكم حتى
تؤتون موثقا من الله لتأتنني به الا ان يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال
الله على ما نقول وكيل وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من
ابواب متفرقة وما اغني عنكم من الله من شيء ان الحكم الا لله عليه توكلت
وعليه فليتوكل المتوكلون ولما دخلوا من حيث امرهم ابوهم ما كان يغني
عنهم من الله من شيء الا حاجة في نفس يعقوب قضاها وانه لذو علم لما علمناه
ولكن اكثر الناس لا يعلمون ولما دخلوا على يوسف آوى اليه ابويه وقال
ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين ورفع ابويه على العرش وخروا له سجدا
وقال يا ابت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا وقد احسن بي
اذ اخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد ان نزغ الشيطان بيني
وبين اخوتي ان ربي لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم رب قد آتيتني من الملك
وعلمتني من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض انت وليي في الدنيا والآخرة
توفني مسلما والحقني بالصالحين ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت
لديهم اذ يلقون اقلامهم ايهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ يختصمون
وما اكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين وما تسألهم عليه من اجر ان هو الا ذكر
للعالمين وكأين من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون
وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون افأمنوا ان تأتيهم غاشية من عذاب
الله او تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون قل هذه سبيلي ادعو الى الله
على بصيرة انا ومن اتبعني وسبحان الله وما انا من المشركين وما ارسلنا
من قبلك الا رجالا نوحي اليهم من اهل القرى افلم يسيروا في الارض فينظروا
كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا افلا تعقلون
حتى اذا استيأس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء
ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الالباب
ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى
ورحمة لقوم يؤمنون

يوسف

الذكاء نبيا فكيف وقد انضمت حلية اباء تميز النبي لابد وان يكون مختصا
بمزيد نفسه اجيب بانه مراده التوحيد الذي لا يتغير ولعله
كان يندر للرجل عند ابتدائه الاسلام ان يوصي على سرير ميه ابراهيم بخليله
السلام وبني اعمامهم وحمزة والكتابة يسكن بها عامي ذا البادين
ما لفتح كانوا اي عامة لنا يعسر الانفكاك ان نشرك بالله من شيء
لان الله تعالى طهرهم وعصمهم بايديه عن الكفر وبقيهم عن تعالى ما كان
لله ان يتخذ من ولد وانما قال من شيء لان اصناف الشرك كثيرة فمنهم
من يعبد الاصنام ومنهم من يعبد النار ومنهم من يعبد الكواكب ومنهم
من يعبد الملائكة فنفى ان يتخذ شيء من هؤلاء الطوائف واشار الى
الذين احق وهو انفراده بالوحدانية ولا ادل ان قال الا الله ذلك اي
التوحيد من فضل الله علينا بالوحي وعلى الناس اي سائر ما يبعثنا الرسل
الى عبادهم وتبليغهم عليه ولكن اكثر الناس اي العاديون
اليهم لا يشكرون هذه النعمة التي انعم الله تعالى بها عليهم لا نهم
تركوا عبادته وعبدوا غيره ثم دعاهما الى الايمان فقال يا صاحبي
السجن اي يا صاحبي في السجن فاضافهما الى السجن كما تقول
يا صاحبي الليلة فكانت الليلة مشغولة بهما غير مسروقة كذلك
السجن مصحوب فيه غير محجوب وانما اضيفا اليه بغيره ويعبرون
عليه السلام او يا ساكني السجن كما قال اصحاب الجنة اصحاب الجنة
ولسكانها اصحابه النار ارباب اي آلهة متفرقون اي
متباينون من ذهب وفضة وصفر وحديد وخشب وحجارة وغير
وكبير وصغير وغير ذلك خير اي اعلم في صفة المدح واولى
بالطاعة ام الله الواحد القهار اي المتوحد بالالوهية الذي
لا يغالب ولا يشارك في الربوبية غيره والاستفهام للتقرير وفي

المميزين في ارباب من القرآن ما في الذكر تم وقد مر فان قيل هل يجوز
التفاضل بين الاصنام وبين الله تعالى حتى يقال انها خير ام الله اجيب
بان ذلك خرج على سبيل الفرض والتقدير لو سلمنا انه حصل فيها ما يوجب
الخير فهو خير ام الله الواحد القهار ثم بين عجز الاصنام فقال ما تعبدون
وانما خاطبهم بلفظ الجمع وقد ابتدا بالتثنية في المخاطبة لانه اراد جميع
من في السجن من المشركين والعبادة خضوع القلب في اعلام مراتب
الخضوع وبين حضارة معبوداتهم وسفولتها بقوله من دونه اي الله
الذي قام البرهان على الهيئة وعلى اختصاصه بذلك الا اسماء
وبين ما يريد وارضعه بقوله سميتموها اي ذوات وجدتم لها اسما انتم
سميتموها انتم وارباباوهي مجانة جمادا خالية عن المعنى لا حقيقة لها
وآباؤكم من قبلكم سموها بذلك ما انزل الله بها اي بعبادتها من سلطان
اي حجة وبرهان ان الحكم الا لله اي ما الحكم الا لله اي المختص بصفات الكمال
والحكم فصل الامر فيما تدعوا اليه الحكمة مر وهو النافذ الامر الطاع
الحكم ان لا تعبدوا الا اياه لانه المستحق للعبادة لا هذه الاسماء التي
سميتموها انتم وآباؤكم ولما قام الدليل على هذا الوجه الذي كان جديرا
بالاشارة الى فضله اشار اليه باداة البعد تنبيها على علو مقامه
وعظم شانه فقال ذلك اي الشان العظيم الاعظم وهو توحيده
وافراده عن خلقه الدين القيم اي المستقيم الذي لا عوج فيه
ولكن اكثر الناس وهم الكفار لا يعلمون ما يصير وذا اليه كن الغداء
فيشكرون ولما قرر يوسف عليه السلام امر التوحيد والنبوة
عاد الى الجواب عن السؤال الذي ذكراه فقال يا صاحبي السجن اي
الذي يحصر فيه الانكسار للنفس والرقة في القلب فتخلص فيه
المودة ولما كان في جواب ما يسوء الجناب ايهم ليجوز كل منهما انه الفائز

فان المجاء الي التعبير كان ذلك عذرا له في اخروج عن الاليق فقال اما
احدكما وهو صاحب سراب الملك فيسقي ربه اي سيده خمرا علي عادته
والعنا قيد الثلاثة في ثلاثة ايام تبقي في السجن ثم يعيد عوبه الملك
فيرده الي مرتبته التي كان عليها هذا تاويل رويا ه واما الاخر
وهو صاحب طعام الملك فيصلب والسلال الثلاث ثلاثة ايام
ويعيد عوبه الملك فيصلبه فتاكل الطير من راسه هذا تاويل رويا ه
قال ابن مسعود فلما سمعا قول يوسف عليه السلام قالا ما راينا شيا
انما كنا نلعب فقال لهما يوسف عليه السلام قضي اي تم الامر الذي
فيه تستفتيان اي تطلبان الافتا فيه عملا بالتفوه فسالتما عن
تاويله وهو تعبير رؤيا يه كما كذبتما او صدقتما لم اقله عن جهل
ولا غلط وقال يوسف عليه السلام للذي ظن اي علم وتحقق والظن
بمعني العلم لانه قاله عن وحي لقوله قضي الامر ويجوز ان يكون ضمن
ظن للساقي فهو حينيذ علي بابه انه ناج منهما وهو الساقي
اذكرني عند ربك اي سيدك ملك مصر بما رايت مني من معاني
الاخلاق وطهارة النفس الدالة علي بعد ي مما رميت به والمراد
بالرب هنا غير المراد به في قوله ارباب متفرقون فنجا الساقي
وصلب صاحبه وفق ما قاله لهما يوسف عليه السلام واختلف
في ضمير فانساه الشيطان ذكر ربه علي قولين احدهما انه يعود
الي الساقي وهو قول جماعة من المفسرين اي فانسي الشيطان
الساقي ان يذكر يوسف عند الملك قالوا لان صرف وسوسة
الشيطان الي ذلك الرجل الساقي حتي انساه ذكر يوسف اولي
من صرفها الي يوسف والقول الثاني وعليه اكثر المفسرين انه
يرجع الي يوسف عليه السلام وقال الزجاج انه اكثر ايا ت الشيطان

انسي

انسي يوسف ذكر ربه تعالي حتي استعان بمخلوق مثله وتلك غفلة
عرضت له عليه السلام فان الاستعانة بالمخلوق في دفع الظلم جايزة
في الشريعة الا ان حسنات الابرار سيئات المقربين فهذا وان كان
جايزا لعامة الخلق الا ان الاولي بالصديقين ان يقطعوا النظر بهم عن
الاسباب بالكلية وان لا يشتغلوا الا بمسبب الاسباب فلهذا صار
يوسف عليه السلام مواخذا بهذا القول ولم يواخذه تعالي في تلك
الفقه البتة بل ذكره باعظم وجوه المدح والثناء فعلم بذلك انه
عليه السلام كان معبرا عما شبه بالكمال والحسنوية اليه فان قيل
كيف تمكن الشيطان من يوسف حتي انساه ذكر ربه اجيب بان ذلك
انما كان شغل خاطر واما النسيان الذي هو عبارة عن ترك الذكر
وازالته عن القلب بالكلية فلا يقدر عليه واختلف في قدر البضع
في قوله تعالي فلبث في السجن بضع سنين فقال مجاهد بين الثلاث
الي التسع وقال ابن عباس ما دون العشر قال البغوي واكثر المفسرين
علي ان البضع في هذه الاية سبع سنين وكان قد لبث قبله خمس سنين
فجملته اثني عشر سنة وقال وهب اصاب البلا سبع سنين وترك يوسف
في السجن سبع سنين وقال مالك بن دينار لما قال يوسف للساقي
اذكرني عند ربك قيل له يا يوسف اتخذت من دوني وكيلا لاطيلن
سجنك فبكي يوسف وقال يا رب انسيت قلبي كثرة البلوي فقلت كلمة
قال الحسن قال النبي صلي الله عليه وسلم رحم الله يوسف لولا الكلمة
التي قالها ما لبث في السجن ما لبث ثم بكي الحسن وقال الحزن اذا نزل
ببلاء فنزعنا الي الناس ذكر الثعلبي مرسلا وبغير سند وقال
الحسن ايضا دخل جبريل علي يوسف عليهما السلام في السجن فلما راه
يوسف عرفه فقال له يا اخا المنذرين مالي اراك بين الخطايين

فقال له جبريل يا طاهر بن الطاهرين يقرأ عليك السلام رب
العالمين ويقول اما استحييت مني واستشفعت بالادميين فوعزتي
لا ابيشك في السجن بضع سنين قال يوسف وهو في ذلك عني راض
قال نعم قال اذا لا ابالي وقال كعب قال جبريل ليوسف ان الله تعالى يقول
لك من خلقك قال الله قال فمن علمك تاويل الرويا قال الله قال فمن
حببك الى ابيك قال الله قال فمن انجاك من كرب البئر قال الله قال فمن
صرف عنك السوء والفحشا قال الله قال فكيف استشفعت بادمي
مثلك قال محمد بن عمرو الداري في تفسيره والذي جربته من اول
عمري الى اخره ان الانسان كما اعول في امر من الامور على غير الله
تعالى صار ذلك سببا للبلاء والمحنة والسنة والرزية واذا عول على
الله تعالى ولم يرجع الى احد من الخلق حصل ذلك المطلوب على احسن
الوجوه فهذه التجربة قد استمرت لي من اول عمري الى هذا الوقت الذي
بلغت الى السابع والخمسين فنسئل الله ان لا يجعلنا
للانسان فيه التفويض علي شيء سوى فضل الله تعالى واحسانه ولما زوج
زوج يوسف عليه السلام رايه ملك مصر الاكبر الريان بن الوليد
رويا عجيبة هائلة كما قال تعالى **وقال الملك اني اري** اي رايت
عبر بالمضارع حكاية للحال لشدة ما نالته من ذلك **سبع بقرات سمان**
اي خرجن من نهر يابس والسمن زيادة البدن من التخمة واللحم
وسمان جمع سمينة وجمع سمين ايضا عليه يقال رجال سمان ونساء
سمان كما يقال رجال كرام ونساء كرام **يأكلهن** اي يبتلعهن **سبع**
اي من البقر **عجاف** جمع عجفاء اي مهازيل خرجن من ذلك المرتبيه
جمع عجفا على عجاف والقياس عجف كحمر وحمراء جعل له على سمان
لانه نقيضه ومن دابهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض

واني

واني اري **سبع سنبلات خضر** اي انعقد حبها **واخر يابسات** اي قد ادركت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن
عليها وانما استغنى عن بيان حالها بما مر من حال البقرات والسنبلة
تانيث الكاتبة جثة حروف مستقيمة كما مر قيل فكان ماذا فقيل قال
الملك بعد ان جمع السحرة والكهنة والمعبرين **يا ايها الملاء** اي الاشراف
السبال الذين تملا العيون مناظرهم والقلوب مآثرهم **افتوني في رويايا**
ايها اخبروني في تاويلها **ان كنتم للرويا تعبرون** اي ان كنتم عالمين
بعبارة الرويا فاعبروها وانما تنبيه اللام في الرويا من يدة فلا تعلق لها
بشيء وتذكيرها لتقدم المفعول تقوية للعامل كما زيد شاة الكاة العليل
في عاكفون له تعالى فقال لما يريد ولا تزاد فيما عدى ذينك الا ضرورة
وقيل ضمن تعبرون معنى ما يتعدى باللام تقديره ان كنتم تنتدبون
لعبارة الرويا وقيل متعلقة بمحذوف هي اما للتبيان كقوله تعالى
وكانوا فيه من الزاهدين تقديره اعني فيه وكذا هذا التقدير اعني
للرويا وعلى هذا يكون مفعول تعبرون محذوفا وفي تقديره تعبرونها
وفي الاية ما يوجب حال العلماء مع حاجة الملوك اليهم فكانه قيل فما
قالوا فقيل **قالوا هذه الرويا اضغاث** اي اخلاط **احلام** مختلطة
مختلفة مشتبهة جمع ضغث بكسر الضاد واسكان الغين المعجمة
وهي قبضة حشيش مختلطة الرطب باليابس والاحلام جمع حلم
بضم الحاء واسكان اللام وضمه وهو الرويا فقيد وهما بالاضغاث
وهو ما يكون من الرويا باطلا لكونه من حديث النفس ووسوسة
الشيطان لكونها تشبه اختلاط النبات التي لا تناسب بينها لان
الرويا اما ان تكون من الملك وهي الصحيحة واما ان تكون من تخيل
الشيطان وتخليطاته واما من حديث النفس ثم قالوا **وما نحن**

اي باجمعها بتاويل الاحلام اي المنامات الباطلة بعالمين اي ليس
لها تاويل عندنا وانما التاويل للمنامات الصادقة كانه مقدمة ثانية
للعذر والتماس الملك عن هذه الرويا واعترف الحاضرون بالعجز
عن الجواب وتذكر ذلك الشرابي وافقة يوسف عليه السلام لانه كان
يعتقد فيه كونه متبحرا في هذا العلم كما قال تعالى وقال الذي نجا
خلص منهما اي من صاحبي السجن وهو الشرابي انا ادلكم بتاويله
فارسلون اي الي يوسف عليه السلام فاتاه فقال ايها الصديق
ايها البليغ في الصدق والتصديق لانه جرب
احواله وعرف صدقه في تاويل رؤياه ورؤيا صاحبه وهذا
يدل علي ان من اراد ان يتعلم من رجل شيئا فانه يجب عليه ان
يعظمه وان يخاطبه بالالفاظ المشعرة بالاجلال ثم انه اعاد
السواك يعني اللفظ الذي ذكره الملك فقال افتنا اي اذكر لنا
احكامه في سبع بقرات سمان اي رآهن الملك ياكلهن سبع من البقر
عجاف في سبع سنبلات جمع سنبلة وهي جمع اجب من الزرع خضر

وفي سبع اخر من السنابل يابسات اي في رويا ذلك وانما فعلوا من
ذكر السواك بين اللفظ فان نفس الرويا قد تختلف بحسب اختلاف
الالفاظ كما سوجد كور في ذلك العلم ثم قال لعلي ارجع الي الناس
اي الي الملك وجماعته بعد تاكد عزائمه بمنعني العلم بعبرة اي بتاويل
هذه الرويا وقيل ممن نزلتك في العلم وقرائهم وابن كثير وابو عمرو وابن
عامر بفتح الياء والباقون بالسكون قال يوسف عليه السلام مجيبا
لملك الرويا اما البقرات السمان والسنبلات الخضر فسبع سنين
مخصبات واما البقرات العجاف والسنبلات اليابسات فسبع سنين
مجدبة فتوله تعالى تزرعون سبع سنين وهو خبر بمعنى الامر
كقوله تعالى والمطلقات يتربصن والوالدات يرضعن وانما خرج
الامر في صورة الخبر للمبالغة في الايجاب فيجعل كانه وجد وتحقق
فاخبر عنه فوله ليدل علي كونه في معنى الامر قوله فذروه في سنبله
وقوله دابا نصب علي الحال اي وايبين اي سبع سنين متتابعة
علي عادتكم في الزراعة والدابة العادة وقيل ان هو اجتهاد
واجتهاد وهذا تاويل الجميع السمان والسنبلات الخضر وقرا حفص
بفتح الخاء وسكون الضاد تخفيفا وابن كثير السوسي الفا وقالون وصلا
وحمزة وقفا فقط فما حصدتم فذروه اي اتركوه في سنبله ليتلا
يفسد ولا يتم فيه استيعابه وذلك ابقى له علي طول الزمان الا
قليلا مما تاكلون اي ادرسوا قليلا من كل طاقة تاكلونه بقدر الحاجة
امرهم بحفظ الاكثر لقلة الاكلة لوقت الحاجة الينا وهو وقت
الجدب المجدبة كما قال ثم ياتي من بعد ذلك اي السبع المخصبات
سبع شداد اي مجدبات صفة بوصف تاويل السبع العجاف في السنبلات
اليابسات يابكلن ما قدمتم لهن اي ياكلن اهلهن ما ادخرتم لاجلهن

فاسند اليهن علي المجاز تطبيقا بين المعبر وهو ياكلهن سبع مجاز
والمعبر به وهو ياكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون اي تحرزون
وتدخرون للبذر والاحصان الاحراز وهو اتقا الشيء في الحصن
بحيث يحفظ ولا يضيع ثم يأتي من بعد ذلك اي السبع الجدبات عام
فيه يغاث الناس اي يمطر ويروى من الغيث وهو المطر وقيل ينعشون
من قولهم غرب استغثت فاغاثني وفيه يعصرون من العنب خمرا
ومن الزيتون زيتا ومن السمسم دهنا واراد بذلك كثرة الخير
والخصب وقال ابو عبيدة يحلبون على الكرد والشدة واجدبوا وقرا
حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب لان الكلام كله مع الخطاب والباقون
بالياء على الغيبة رد الى الناس ولما رجع الشراب الى الملك
وعرض عليه التعبير الذي ذكره يوسف عليه السلام استحسنه
وقال الملك اي الذي العزيز في حضرته ايتوني به لاسمع ذلك
واكرمه وهذا يدل على فضيلة العلم فانه سبحانه وتعالى جعل علمه
سببا لخلاصه من المحنة الدنيوية فكيف لا يكون العلم سببا لخلاصه
من المحن الاخروية فاتاه الرسول ليأتي به الى الملك فلما جاءه
اي يوسف عليه السلام عن قريب من الزمان الرسول وذلك
هو الساقي وقال له اجب الملك قال له يوسف عليه السلام
ارجع الى ربك اي سيدك الملك ولم يخرج معه حتى يظهر برهانه
للملك ولا يراه بعين المتهم وذلك فاسأله ما بال النسوة اللاتي
قطعن ايديهن وانما قال يوسف عليه السلام فاسأله ما بال
النسوة ولم يقل فاسأل لئلا يفتش عن حالهن لان قوله فاسأله يحتمل
ان يكون بمعنى المسئلة اي اسأله عن شأنهن وان يكون بمعنى الطلب
وهو ان يفتش عن شأنهن فحسن تقييده بلفظ ما التي يسأل بها

عن

عن حيلتهن التي لجأهن ان يتركه للتفتيش عن حالهن لان الانسان
حريص على تحقيق الشيء وتبينه فكيف اذا ينسب الى ما برأه بخلاف
ما لو قال سله لان يفتش انما طلبه منه فانه لا يبالي بهذا الطلب
ولا يلتفت اليه لا سيما الملوك واهل الحرم فيتعرض لسطوته فتم بما
وصفته به كرما ومروءة للادب وعدم سؤال الغير وحسن حالهن
ليظهر براءة ساحته حساسته لانه لو خرج في الحال لربما كان يبقى
في قلب الملك من تلك التهمة اثر فلما التمس من الملك ان يبحث
عن حال تلك الواقعة دل ذلك على براءته عن تلك التهمة فبعد
خروجه لا يبقى احد ان يلطخه بتلك الرذيلة ولا يتوسل احد الى
الطعن فيه وفي ذلك دليل على ان ينبغي للشخص ان يجتهد في نفي
التهم ويتقي مواقعها وروي انه صلى الله عليه وسلم قال لقد
عجبت من اناة يوسف وحلمه والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف
والسمان ولو كنت مكانه ما اخبتهم حتى اشترط ان يخرجوني
ولقد عجبت منه حين اتاه الرسول فقال ارجع الى ربك ولو كنت
مكانه ولبثت في السجن ما لبث لاسرعت الى الاجابة وقد ذكرنا
الباب وكما ابتغيت العذر ان كان ليحلم واني لأناة واصبر اكرم بيت
في العجيبين بحثهن وانما قال صلى الله عليه وسلم ذلك على سبيل
التواضع لانه صلى الله عليه وسلم كان في الدرجة منه مناقب وكمالات
لو كان مكان يوسف والتواضع لا يضر كبيرا ولا يضر فيشا ولا يسيل
لذمي حق حقا لكنه يوجب لصاحبه فضلا ويلبسه جلالة وقد راوقوله
والله يغفر له مثل هذه المحنة مشعرة بتفهم المخاطب من توقيره
وتوبيخ حرمته كما تقول لمن تعفله عفى الله عنك ما صنعت في
امري رضي الله تعالى عنك ما جوابك عن كلامي وقوله ان كان
ليحلم ان كان المخففة من الثقيلة والاناة الوقار وقيل هو اسم

من الثاني في الامور وقرأ ابن كثير والكسائي بفتح الحاء وسكون الراء بعدها والباقون بسكون السين وهمزة مفتوحة بعدها اثر ربي اي الله بكيده هن عليم حين قالت اطلع مولاتك وفيه تعظيم كيدهن والاستشهاد بعلم الله تعالى عليه وانه بريء مما عيب به والوعيد لهن على كيدهن وقيل المراد بربي الملك وجعله ربا لنفسه لكونه مربيا له وفيه اشارة الى كونه هذا الملك عالما بكيدهن وحكرهن ولما قال يوسف عليه السلام ذلك وابى ان يخرج من السجن قبل تبيين الامر رجع الرسول الى الملك فاخبره بما قاله عليه السلام فكانه قيل فما فعل الملك فقيل قال الملك النسوة بعد ان جمعهن واحضر العزيز معهن ما خطبكن اي ما شأنكن العظيم وقوله ان راودتن يوسف عن نفسه دليل على انه برأته كانت محققة عند كل من علم القصة وانما خاطب الملك فجميع النسوة بهذا الخطاب والمراد بذلك امرأة العزيز وحدها لانه كان استتر لهذا وقيل ان امرأة العزيز راودته عن نفسه وسائر النسوة امرنه بطاعتها فلذلك خاطبهن فكانه قيل فما قلن فقيل قلن حاش لله اي عياذا بالملك الاعظم وتنزيها له من هذا الامر وما علمنا عليه اي يوسف عليه السلام واعرقن في النفي فقلن من سوء اي من خيانة في شيء من الاشياء والمراد بوسف عليه وسلم راجع جانب امرأة العزيز حيث قال لما بال النسوة اللاتي قطعن ايديهن فلم يذكرهن ولم يذكر تلك امرأة البتة وعرفت المرأة انه انما ترك ذكرها رعاية لحقها وتيقظ لجانبها واخذ الامر عليها اردت اذ كاذبة على هذا المقال المحسن فلا جرم ازالت القناع والوطاء فقالت تلك امرأة العزيز مصرحة بحقيقة الحال الآن حصحص الحق اي ظهر وتبين انا راودته اي خادعته عن نفسه واكدت ما افصحت

به

به مدحا وتنزيها لكل سوء بقولها موكدا لاجل ما تقدم وانه لمن الصادقين اي الراسخين في هذا الوصف في نسبة المراودة الي وتبرئة نفسه فقد شهد النسوة كلهن ببرأته وانه لم يقع منه ما ينسب الي شيء من السوء البتة فمن نسب بعد ذلك هما او غيرهما شيئا مع تجرد المروي في شيء من الكتب المعتمدة قال الزاهدي رأيت في بعض الكتب ان امرأة جاءت بزوجها الى القاضي وادعت عليه انهم فامر القاضي بان تكشف عن وجهها حتى يتمكن الشهود من اقامة الشهادة فقال الزوج لا حاجة الى ذلك فانها بهذا تتمادى في دعواها فقالت المرأة لما اكرمتني الى هذا الحد فاشهد واني ابرأت ذمتك عن كل حق هو علي وانا راجعة المرود الى يوسف عليه السلام واخبره بشهادتين برأتها فعند ذلك ذلك اي الخلق العظيم في تثبتي في السجن الى ان تبين امري ليعلم العزيز بوزارها وهي في الاثم وانا في محل الصون والتحرز علما موكدا اني لم اخنه اي في اهله ولا في غيرها بالغيب اي في حال انه لا يراني احد غائبا عن هاهنا وقيل الاكثر على انه قول يوسف عليه السلام قال الفراء ولا يعبد وصل كلام الحسان بكلام آخر اذا دلت القرينة عليه ومثاله قوله تعالى ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة هذا كلام بلقيس ثم قال الله تعالى وكذلك يفعلون وقوله تعالى ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه كلام الداعي ثم قال الله تعالى ان الله لا يخلف الميعاد ثم ختم الكلام بقوله وان الله لا يهدي اي لا يسدد ويرشح بوجه من الوجوه كيد الخائنين اي ولو كنت خائنا لما خلصني الله من هذه الورطة العظيمة وحيث خلصني منها ظهر اني بريء مما نسبوا اني اليه وقيل انه كلام امرأة العزيز والمعنى اني وان كنت اعلت عليه الذنب في حضوره لكني ما اعلت عليه الذنب في غيبته

اي لم تقل فيه وهو في السجن خلاف احق تم انما بالغت في تاكيد هذا
القول وقالت وان الله لا يهدي كيد الخائنين يعني انهما لما اقدمت
على الكيد والمكر لاجرم افتضحت والله لما كان بريا من الذنب
لاجرم طهره الله تعالى عنه واعلم ان هذه الاية على القول الاول
دالة على طهارة يوسف عليه السلام من وجوه الاول كيف يليق
قوله انا راودته عن نفسه والثاني في قوله ليعلم اني لم اخنه
وهو استشهاد اي الله صادق في قوله بين راودتني عن نفسي
والثالث قول يوسف عليه السلام ذلك ليعلم اني لم اخنه
بالغيب والخمسون بيد كروف انه لما قال يوسف عليه السلام
هذا الكلام قال جبريل عليه السلام ولا حين همت به قال الرازي
وهذه من رواياتهم الخبيثة وما صحت هذه الرواية في كتاب
معتمد اي وانما اسندها بعضهم لابن عباس ريثما يلحقون بهذا
الموضع بسببا منهم في تحريف ظاهر القرآن ورابعها ان اقدامه
على قوله ذلك ليعلم اني لم اخنه بالغيب مع انه خالف ما عظم
وجوه الخيانة اقدام على وقاحة عظيمة وعلى كذب عظيم في
غير ان يتعلق به مصلحة بوجه فان الاقدام على مثل هذه
الوقاحة من غير فائدة اصلا لا يليق باحد من العقلاء
فكيف يليق اسناده الى بيت من رسل من سلالة الانبياء
الاصفياء ثبت ان هذه الاية تدل دلالة قاطعة على براءة
يوسف عما يقوله الجهال والخمسونية واختلفوا في تفسير قوله وما ابرئ
نفسي لان ذلك يختلف باختلاف ما قبله لان قوله ذلك ليعلم
اني لم اخنه بالغيب ان كان من كلام يوسف عليه السلام وقد روي
انه قول الاكابرين فهو ايضا كلامه وان كان من كلام امراة فهذا
ايضا كلامه فعلى الاول قد تمسك به الخمسونية وقالوا انه عليه

السلام

السلام لما قال ذلك ليعلم اني لم اخنه بالغيب قال له جبريل ولا حين
هممت بسوء يا يوسف فعند ذلك قال يوسف عليه السلام وما
ابرئ نفسي ان النفس لامارة بالسوء اي بالزنا الا ما رحم اي
عصم ربي اني غفور اي للهم الذي هممت به رحيم اي لو فعلته
لتاب علي وهذا ضعيف كما قاله المحققون لما تقدم من الادلة الظاهرة
برهان ربه قاطع على براءته عن الذنب وانما قال ذلك عليه السلام
لانه لما قال ذلك ليعلم اني لم اخنه بالغيب كما ذكره جاريا مجرى
مدح النفس وتزكيتها وقد قال تعالى فلا تزكوا انفسكم فاستدرك
ذلك على نفسه بقوله وما ابرئ نفسي والمعنى وما ازكي نفسي
ان النفس لامارة بالسوء عيالة التي الفتايح راغبة في المعصية
وعلى الثاني انها لما قالت ذلك ليعلم اني لم اخنه بالغيب
قالت وما ابرئ نفسي من الخيانة مطلقا فاني قد خنت حين
احلت الذنب عليه وقلت ما جزاء من اراد باهلك سوءا الا ان
يسجن واودعته في الحبس كما عنا اردت الاعتذار عما كان
واختلف في قوله وقال الملك فمنهم من قال هو العزيز ومنهم
من قال هو الريان الذي هو الملك والاكبر قال الرازي وهذا هو
الاظهر لوجهين الاول ان قول يوسف اجعلني على خزائن الارض
يدل عليه الثاني قوله استخلصه لنفسي يدل على انه فعل
ذلك ملتمسا مخالصا وقد كان يوسف عليه السلام قبل ذلك
خالصا للعزيز فذل هذا على ان هذا الملك هو الملك الاكبر
انتهى وانما صرح به ولم يستفن بضمير كراهية الالباس لما
تخلل بينه وبين جواب امراة العزيز من كلام يوسف عليه
السلام ولو كان الكل من كلامها لاستغنى بالضمير فلم يحتج الى

ابرانه اميتوفي بعد استخلاصه لنفسي اي اجعلهم خالصا وذ سزيك قال
ابن عباس فاتاه الرسول فقال الق عنك ثياب السجن والبسه ثيابا
جددا وقم الي الملك فدعا اهل السجن وهو يومئذ ابن ثلاثين
سنة واغتسل وتطيب ولبس ثيابا جددا بعد ان دعا لاهل السجن
فقال اللهم عطف عليهم قلوب الاخيار ولا تعم عنهم الاخبار وكتب
على باب السجن هذه منازل البلوي وقبور الاحياء وبيوت الاحزان
وتجربة الاصدقاء وشماتة الاعداء ثم اتي الملك فلما راه قبل الارض
فقال له يعلم هذه رؤياي ولم يعلمها الكهنة والسحرة فاقعده قدامه
وقال له لا تحزن والبسه طوقا من ذهب وثياب حرير واعطاه
دابة مسرجة من دوابه كدابة الملك وروي ان جبريل عليه السلام
دخل على يوسف وهو في الحبس وقال قل اللهم اجعل لي من عندك
فرجا ومخرجا وارزقني من حيث لا احتسب فقبل الله تعالى
دعاءه واظهر هذا السبب في تخليصه من السجن وروي ان
يوسف لما دخل عليه قال اللهم اني اسالك بحبيبك من خيرك واعوذ
بعزتك وقدرتك من شرهم ثم سلم عليه بالعبرانية فقال ما هذا يا
قال اللسان قال لسان ابآ بفتحتين وهب كان الملك يتكلم بسبعين
لغة لم يعرف هذين اللسانين وكان الملك كلما تكلم بلسان اجابه
يوسف عليه السلام وفاد بالعربية والعبرانية قال الكهنة اي كلا
ايها الملك يوسف وشاهدنه ما شاهدنه من جلال النبوة وجميل الوزارة
وخلال السيادة ومخايل السعادة اقبل عليه وقال اني احب
ان اسمع منك تاويل رؤياي شفاها فاجابه بذلك بجواب شفاها
وشهد قلبه بصحته فعند ذلك قال له انك اليوم لدينا مكين امين
اي ذو مكانة وامانة على امرنا فما ترى ايها الصديق قال اري

ان

(١٠١)

ان تزرع في هذه السنين المخصبة زرعا كثيرا وتبني خزائن
وتجمع فيها الطعام فاذا جاءت السنين المجدبة بعدها القلال يحصل
بهذا الطريق مال عظيم فقال الملك ومن لي بهذا المشغل فقال
يوسف اجعلني على خزائن الارض جمع خزانة واراد خزائن
الطعام والاموال والارض ارض مصر اي خزائن ارض مصر وقال
الربيع بن انس اي خزائن مصر ودخله روي ابن عباس عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم في هذه الاية قال رحم الله اخي يوسف لو لم يقل
اجعلني على خزائن الارض لاستعمله من ساعته لكنه لما قال ذلك
اخره الله تعالى سنة فاقام ببيته سنة مع الملك قال الرازي
وهذا من العجائب لانه لما ثنا قال عند الخروج من السجن سهل الله
تعالى عليه ذلك على احسن الوجوه ولما سارع في ذكر هذا الالتماس
اخره الله تعالى ذلك المطلوب عنه وهذا يدل على ان ترك
التعرض والتفويض بالكلية الى الله تعالى اولى ثم قال اني حفيظ
عليم اي ذو حفظ وعلم بامرها وقيل كاتب وحاسب فان قيل
لم طلب يوسف عليه السلام الامارة والنبي صلى الله عليه وسلم
قال لعبد الرحمن بن سمرة لا تسال الامارة والم طلب الامارة
من سلطان كافر ولو لم يعبر رؤيا ولم اظهر الرغبة في طلبها في
الحال ولم طلب امر الخزائن في اول الامر مع ان هذا يورث نوع
تهمة ولم مدح نفسه وقد قال تعالى فلا تزكوا انفسكم ولم ترك
الاستثناء في هذا وقد قال تعالى ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك
غدا الا ان يشاء الله فنقول سبعة اسئلة اجيب عنها بان الاصل
في جواب هذه الاسئلة ان التصرف في امور الخلق كان واجبا
عليه فجاز له ان يتوصل اليه باي طريق كان وانما كان ذلك واجبا

عليه لوجوه الاول انه كان رسولا حقا من عند الله تعالى الى الخلق
والرسول يجب عليه مراعاة الامة بقدر الامكان والثاني انه علم
بالوحي انه سيحصل القحط الشديد فلعله تعالى امره
بان يدبر في ذلك وبأي طريق لاجل تقليل ضرر ذلك القحط في حق
الخلق والثالث ان السعي في ايصال النفع الى المستحقين ورفع
الضرر عنهم امر مستحسن في العقول فكان مكلفا عليه السلام
برعاية المصالح من هذه الوجوه وما كان يمكنه رعايتها الا بهذه الطريق
وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب وانما مدح نفسه لانه الملك
وان علم كاملا في علوم الدين لكن ما كان عالما بانه يبقى بهذا الامر
وانما مدح النفس انما يكون مذموما اذا قصد به التشفي للتطاول
والتفاخر والتوصل الى غير ما يحل واما هذا الوجه فليس بمذموم
وقوله تعالى فلا تزكوا انفسكم المراد به تزكية حال من لا يعلم كونه
تزكية والدليل قوله تعالى بعد هذه الآية هو اعلم بمن اتقى اما اذا
كان الانسان عالما بانه صدق وحق فهذا غير ممنوع عنه وانما
ترك الاستثناء لانه لو ذكره لربما اعتقد الملك فيه انه انما ذكره
لعلمه بانه لا قدرة له على ضبط هذه المصلحة كما ينبغي فلهذا المعنى
ترك الاستثناء ولما سأل يوسف عليه السلام ما تقدم قال
معلما قد اجيب بتنجيز ما له وكذلك اي كما نفاه عليه بخلاصه
من السجن مكنا ليوسف في الارض اي ارض مصر يتبوء منها
حيث يشاء بعد الضيق والحبس قال ابن عباس وغيره ولما
انقضت السنة من يوم سأل الامارة دعاه الملك فتوجه وجعل
خاتم الملك في اصبعه وقلده سيفه وجعل له سريرا من ذهب
مكللا بالدر والياقوت طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرة

اذرع

اذرع عليه ستون فراشا فقال يوسف عليه السلام اما السرير فانه
يملكك واما الخاتم فانه يدبر به امرك واما التاج فليس هو لباسي
وللباس بابي وامره ان يخرج فخرج لونه كالثلج ووجهه كالقمر
يزهر الناظر وجهه في صفاء لونه فانطلق حتى جلس على ذلك
السرير ودانت له الملوك ودخل الملك بيته وفوض اليه امر مصر
وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه فقال ابن اسحق
قال ابن زيد وكان لملك مصر خزائن كثيرة فسلم سلطانه كله
اليه وجعل امره وقضاياه نافذة في مملكته ثم مات قطفير بعد ذلك
فزوج الملك امرأته فلما دخل عليها قال اليس هذا خيرا مما كنت
تريدين قالت ايها الصديق لا تلمني فاني كنت امرأة حسناء عاجزة
كما ترى في ملك وزينة وكان صاحبي لا يأتي النساء وكنت كما جعلك
الله في حسنك وبهيئتك وغلبتني نفسي فوجدها يوسف عليه
السلام عذراء فاصابها فولدت له ذكرين افرائيم وميشا فاقام
الصديق بمصر واخبه الرجال والنساء واسلم على يديه الملك وكثير من
الناس وباع من اهل مصر في سني القحط الطعام بالدراهم والدنانير
في السنة الاولى ثم بالحلي والجواهر في السنة الثانية ثم بالدواب
في السنة الثالثة ثم بالعبيد والاماء في السنة الرابعة ثم بالعقار
ثم بالضياع والعقار في السنة الخامسة ثم بأولادهم في السنة
السادسة ثم برقابهم في السنة السابعة ثم لم يبق عبد ولا حرة الا صار عبدا له فقال الناس ما رأينا كاليوم ملكا اجل ولا
اعظم من هذا صار كل الخلق عبيد الله فلما سمع ذلك قال اني اشهد
الله اني اعتقت اهل مصر عن آخرهم ورددت اليهم املاكهم وكان
لا يبيع احدا ممن يطلب الطعام اكثر من حمل بعير لئلا يضيق الطعام

يز

على الباقين هذا الحلف ما قاله البلخي والزمخشري وغيرهما قال الرازي
والاصح بحقيقة الحال وروي ان يوسف عليه السلام كان لا يشبع
من طعام في تلك الايام فقيل له اتجوع وبيدك خزائن الارض فقال
اني اشبعت شبعت الجائع وابو يوسف طباخ الملك ان يجعل عشاءه
نصف النهار ففعل ذلك اذ ذاق الملك طعم الجوع فلا ينسى
الجائع قال البلخي فمن ثم جعل الملوك غداءهم نصف النهار قال
الله تعالى نصيب اي يختص برحمتنا من نشاء في الدنيا والاخرة ولا
نضيع اجر المحسنين بل نوفيهم اجورهم عاجلا واجلا لان اضاعة
الاجر اما ان تكون لعجز او للجهل او للبخل والكل ممتنع في حق
الله تعالى فلا اضاعة ممتنعة ولاجر الاخرة خير للذين امنوا
وكانوا يتقون الشرك والفواحش قال الرازي وهذا تنبيه من
الله تعالى على ان يوسف كان في الزمان السابق من المتقين
وليس هاهنا زمان سابق يحتاج الى بيان انه كان فيه من المتقين
الا ذلك الوقت الذي قال الله تعالى فيه ولقد همت به وهم بها كان
هذا الشهادة من الله تعالى على انه عليه السلام كان في ذلك
الوقت من المتقين وايضا قوله ولا نضيع اجر المحسنين شهادة
من الله تعالى على انه من المخلصين فثبت ان الله تعالى شهد بان
يوسف كان من المتقين ومن المحسنين ومن المخلصين وبجاهل
محسوبي يقول انه كان من الكاذبين ولا شك ان من لم يقبل
قول الله تعالى مع هذه التاكيدات كان من الكافرين ولما اشتد
القحط وعظم البلاء عم ذلك جميع البلاد حتى وصل الى بلاد
الشام وارض كنعان وقد اصاب الناس مضر من كل مكان فلما
فعل يوسف عليه السلام لا يعطي احدا اكثر من حمل بعير فان

كان

كان عظيما تقسيطها بين الناس وتزاحم الناس عليه ونزل بآل يعقوب
ما نزل بالناس من الشدة فبعث بنيه الى مصر للميرة وامسك
بنيامين اخاهم يوسف لامه وابيه فذلك قوله تعالى واما اخو
يوسف وكانوا عشرة وكانوا متفرقين بالغرفات من ارض فلسطين
بغور الشام وكانوا اهل بادية وشاية فدعاهم ابوهم يعقوب عليه
السلام وقال بلغني ان بمصر ملكا صالحا يبيع الطعام فتجهزوا
اليه واقصدوه لتشتروا منه ما تحتاجون من الطعام وههنا
همزتان مختلفتان من كلمتين فقرا نافع وابن كثير وابو عمرو وتسهيل
الثانية والباقون بالتحقيق ولما امرهم ابوهم بذلك خرجوا حتى
قدموا مصر ودخلوا عليه فعرفهم قال ابن عباس بادر لنظرهم اليهم
عرفهم وقال الحسن لم يعرفهم حتى تعرفوا اليه وهم له منكرون اي
لم يعرفهم وذلك لوجوه الاول انه عليه السلام لما حجبه بان يتوهم
من البعد وما كانوا يتكلمون معهم الا بواسطة الثاني انهم حين القوه في
الجب كان صغيرا نمت اعضاؤه بعد فقدوا للحيته وكبر جثته قال
ابن عباس وكان بين ان قذفوه في البئر وبين ان دخلوا عليه
اربعون سنة فلذلك انكروه وقال عطا انهم يعرفونه لانه كان
على سرير الملك وكان يزي ملوك مصر عليه ثياب حرير وفي
عنقه طوق من ذهب ثم ان يوسف عليه السلام امر بانزالهم
واكرامهم وكانت عادته ان لا يزيد احدا على حمل بعير وكانوا
عشرة فاعطاهم عشرة احمال كما قال تعالى ولما جهزهم بجهازهم
اي وفاهم كيلهم وكجهازهم ما يعد من الاعتمة المنقلة كقود السير
وما يحمل من بلدة الى اخرى وما تزف به المراة الى زوجها قالوا
ان لنا شيخا كبيرا واخا آخر بقي معه وذكروا ان اباهم لاجل سنه

وسئلة حزنه لم يحضره واذا خاهم في خدمة ابيه ولابد لهما ايضا من
حملين آخرين من الطعام فلما ذكروا ذلك قال يوسف فهذا يدل على
ان حب ابيكم له ازيد من حبه لكم وهذا الشئ عجيب لانكم انتم مع جمالكم
وعقلكم واد بكم اذا كانت محبة ابيكم لذلك الطفل اكثر من محبته لكم
دل ذلك على انه اعجوبة في العقل والادب فجيئوني به حتى اراه كما
قال تعالى حكاية عنه قالما يتوفى باخ لكم من ابيكم اي الذي خلقتموه
عنه وقيل انه لما نظر اليهم وكلموه بالعبرانية قال لهم اخبروني
ما انتم وما امركم فاني انكرت شأنكم قالوا قوم من ارض الشام
اصابنا ما اصاب الناس فجئنا نمتار فقال لعلكم جئتم لتنظروا
الى عورة بلادنا قالوا لا والله لسنا جواسيس انما نحن اخوة
بنو اب واحد وهو شيخ صديق يقال له يعقوب نبي من انبياء الله
تعالى قال وكم كنتم قالوا كنا اثني عشر فذهب اخ لنا الى البرية
فهلك فيها وكان احبنا الى ابينا قال فكم انتم ها هنا قالوا عشرة
قال وابنا الاخر قالوا عند ابينا لانه اخو الذي هلك وابوه متسلي
به قال فمن يعلم ان الذي تقولون حق قالوا ايها الملك انا ببلاد لا يعرف
فيها احد فقال يوسف فايتوني باخيكم من ابيكم ان كنتم صادقين
فانا ارضى بذلك فقالوا ان ابانا يحزن على فراقه ويشاوره
عنه قال فدعوا بعضكم عندي رهينة حتى تاتوني باخيكم فاقترعوا
بينهم فاصابت القرعة شمعون وكان احسنهم رايا في يوسف
فخلفوه عنده ثم انه قال لهم الا ترون اني اوفي الكيل اي لكم
ولا انخس منه شيأ وقرأ نافع بفتح الياء حيث أتى والباقون بالسكون
واما اليائين اوفي فجميع القراء يثبتونها في الوقف لتمامها في
الرسم وحذفوها في الوصل لالتقاء الساكنين وانا خير المنزلين

اي

اي المضيفين فانه كان قد احسن ضيافتهم مدة اقامتهم عنده قال
الرازي وهذا الضعيف قول من يقول من المفسرين انه اتهمهم
ونسبهم الى انهم عيون وجواسيس ولو شافههم بهذا الكلام فلا
يليق به ان يقول لهم الا ترون اني اوفي الكيل وانا خير المنزلين
والبعيد من يوسف عليه السلام مع كونه صديقا ان يقول
لهم انتم عيون وجواسيس مع انه يعرف براءتهم عن هذه التهمة
لان هذا البهتان لا يليق بهذا المجال الهدين ثم قال عليه السلام
فان لم تاتوني به اي باخيكم فلا كيل اي فلا ميرة لكم عندي
ولم يمنعهم من عوده ولا تقربون اني او عطف على محل فلا
كيل اي تحرموا ولا تقربوا اهلي ولا تدخلوا داري فجمع لهم
عليه السلام بين الترغيب والترهيب فالترغيب في قوله
الا ترون والترهيب في قوله الثاني لانهم كانوا في نهاية الحاجة
الى الطعام وما كان يمكنهم تحصيله الا من عنده ومع ذلك لم
يخطر ببالهم انه يوسف فكانه قيل فما قالوا فقيل قالوا سنراود
اي نجتهد ونحتال في ان نخدعه عن نفسه عنه اباه اي سنكلمه فيه
ونشاوره في الكلام ونحتال فيه ونتلطف في ذلك ولا ندع
جهدا وانا لفاعلون اي ما امرتنا به والتزمناه ولما ادخلوهم
واعجبهم من شأن اخيه قال لفتيته اي غلمانه الكيالين جمع فتى
وقرأ حفص وحمزة والكسائي بالف بعد الياء للمثناة تحت
وبعد الالف نون مكسورة والباقون بالياء للمثناة تحت
ثم بتاء مثناة فوق مكسورة اجعلوا بضاعتهم اي التي نقدوها
ثمن الميرة وكانت دراهم وعن ابن عباس رضي الله عنهما انها
كانت النعال والادم في رحالهم جمع رحل وهي عيبتهم التي يحملون

فيها الطعام لعلهم يعرفونها اي بضاعتهم اذا انقلبوا اي رجعوا
الي اهلهم وفتحوا اوعيتهم لعلهم يرجعون الينا واختلف في
السبب الذي من اجله رد يوسف عليه السلام بضاعتهم في
رحالهم علي اوجه الاول انه اراد ان يكون ذلك المال معونة
لهم علي شدة الزمان وكان يخاف اللصوص ان تطع الطريق
فوضع تلك الدراهم في رحالهم حتي تبقي بخفيه الي ان يصلوا
الي بيوتهم الثاني اراد ان يعرف اباه انه اكرمهم وطلبهم لمزيد
الاكرام فلا يتثقل علي ابيه ارسال اخيه الثالث مقصوده ان
يعرفوا انه لا يطلب ذلك لاخ الا لاجل الايذاء والظلم ولا يطلب
زيادة الثمن الرابع اراد ان يحسن اليهم علي وجه لا يلحقهم فيه
عيب ولا منة الخامس قال لعلهم انهم حتي شاهدوا بضاعتهم
في رحالهم وقع في قلوبهم انهم وضعوا تلك البضاعة في رحالهم
علي سبيل السهو وهم ابناء اولاد انبياء فيرجعون ليعرفوا
السبب فيه ويردوا الملك الي مالكه السادس اراد به
التوسعة علي ابيه لان الزمان كان زمان قحط السابع
انهم متي فتحوا المتاع ووجدوا بضاعتهم فيه علموا ان ذلك كرم
من يوسف عليه السلام وسخاء فيبعثهم ذلك الي العود
اليه ويحرص علي معاملته عليه السلام فلما رجعوا اي اخوة
يوسف عليه السلام الي ابيهم قالوا يا ابانا انا قد منع منا علي
خير رجل انزلنا واكرمنا كرامة عظيمة لو كان رجلا من آل
يعقوب ما اكرمنا اكرامه فقال يعقوب عليه السلام اذا
رجعتم الي ملكة مصر فاقرؤه مني السلام وقولوا له ان ابانا
يدعو لك بما او ليتنا ثم قال لهم اين سمعون قالوا ان تخلفه

ملك

ملك مصر واخبروه بالقصة وقولهم منع منا الكيل فيه قولان
احدهما انهم لما طلبوا الطعام لاجلهم الغائب عند ابيهم منعوا
منه والثاني انهم منعوا الكيل في المستقبل ونحو قول يوسف
عليه السلام فلا كيل لكم عندي ولا تقربون وبدل لنا اخانا فارسل معنا اخانا بنيامين نكتل قال حمزة والكسائي قراءا
بالياء اي يكتال لنفسه وهذا يدل للقول الاول والباقون
بالنون اي نكتال نحن واياه وهذا يدل للقول الثاني وانا له
لحافظون عن ان ينالوه بمكروه حتي نرده اليك فلما قالوا ليعقوب
عليه السلام هذه المقالة قال لهم هل امنكم الا كما امنتكم اخاه
من قبل فالله خير حافظا اي هل آمنكم الآن في مستقبل الزمان تأمينكم لي فيه بما سبق مني تأمينكم
عليه اي ببنيامين الا كما امنتكم اي في الماضي علي اخيه
يوسف عليه السلام من قبل فانكم اكدتم غاية التأكيد فلم
تحفظوا لي ذمتي ورعيتموه الي ان اطمأنت القلب الي سلامة
النفس فانا في هذا الا آمن عليه الا امنة تعالى فالله خير حافظا
وقدئة خير حفظا منكم ومن كل احد ففيه التفويض الي الله تعالي
والاعتماد عليه في جميع الامور وقرأ حفص وحمزة والكسائي
بفتح الحاء والف بعدها وكسر الفاء والباقون بكسر الحاء
وسكون الفاء وهو منصوب علي التمييز في القراءتين وقيل
الحال التي للخصوص علي اصل اللام من قوله وهو ارحم الراحمين اي ارحم
لي منهم ان يجمعني بعد تمزيقهم ايابي ولا يجمع علي تمزيقي
وايسا ارادوا التوبيخ ما قدموا به من الجرم فمتعنا بمتاعنا اي اعطنا
التي حملوها من مصر ورد علينا بضاعتنا اي ما كان معهم من كيلان
ليتم لهم القوت ورددت اليهم بالوجه الاظهر وان الشيء كل نفس

جاسته اما يعني عمها فكانه قيل ما قالوا فقيل قالوا اي لابيهم عليه
السلام يا ابانا استفهاما حثيثا اي اي شيء ما نبغي اي نريد جميع الغرا
اتبعوا الباء وقفا ووصلا لثباتها في الرسم فكانه قال لهم ما نبغي
فقالوا ابيانا ذلك وتاكيدا للسوال عن استصحاب اخيهم
هذه بضاعتنا ردت الينا اصل من مزيد علي ذلك اكرمنا واحسن
مثوانا وباع منا ورد علينا متاعنا ولما كان التقدير نرجع بها
اليه جاحثين فيظهر له نصحنا وصدقنا ونمير اهلنا اي نجلب اليهم
الميرة برجوعنا اليه والميرة الاطعمة التي تحمل من بلد الي بلد
ونحفظ اخانا فلا يصيبه شيء مما نخشى عليه تاكيد اللوعد بحفظه
ونزداد كيل بعير لاخينا ذلك كيل يسير اي سهل علي الملك
لسخاية وجوده علي البذل وقيل تغير الحمولة ليس بسبب مسئلة
ان تطول مدته بحبس اخيهم والتاخر وقيل قليل فابقه اخانا
معنا حتي نبذل تلك القلة بالكثرة فكانه قيل ما قال لهم فقيل
قال يعقوب عليه السلام لن ارسله اي بنيامين كائنا معكم
اي في وقت من الاوقات حتي تؤتوني موثقا اي عهدا من الله
قرا ابن كثير بابدال التاء بعد النون وقفا ووصلا وحذفها
الباقون وقفا ووصلا وقوله لتاتنني اي كلكم به من الاتيان
وهو المجيء في كل حال وجواب القسم او المعني حتي تحلفوا بالله
لتاتنني به الا في حال ان يحاط اي تحصل الاحاطة بجميعتكم من
المصائب بالطاقة لكم بها بكم فتهلكوا من عند آخركم كذلك
او زيادة في التوثق بما حصل له من المصيبة بيوسف عليه السلام
وان كان الاعتماد في حفظه انما هو علي الله تعالي وهذا
من باب اعقلها وتوكل فاجابهم الي ذلك كما قال تعالي

فلما

فلما آتوه موثقهم قال الله علي ما نقول وكيل
اي شهيد فان يسيله هجم بعد ذلك فان قيل كم ارتضاهم
وقد شاهد منهم ما شاهد فجوابه ان يعقوب عليه السلام اجابهم
بان ذلك لوجوه احدها انهم تكفلوا به والوفاء الي الغير في الصلاح
الذي لا بد منه كان شائعا بينهم وبين يعقوب من حيث
الاعتقاد والمعتاد مثل ما كان بينهم وبين يوسف عليه السلام
الثالث لعل الله اوحي اليه وعين حفظه والبعاله اليهم
علي الخروج الي مصر بكمال عقولهم وتمام رجولتهم
علي الجملة واجمالا لدعاء بناء
لاجل واحد قال لهم يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من ابواب متفرقة
واحد من ابوابها وادخلوا من ابواب واحترز من ان تكون هذه
مسئلة صعبة او مستقبحة وبه جد الفوله ما تغني عنكم من الله
حكم التكليف ليلا يعجز عما يعجز عنه من قدر الله تعالي ان قدر
شيئا عناية لك في الصحيحين وعن معاذ عن ابيه وهو ابن انس
صلي الله عليه وسلم قال اتقين حقه في رواية عند احمد يحضر قا
الصحيحة وحسنه ابن ابي حاتم في رواية لمسلم الطيبي وحسن
لما كان يتسفي سابق القدر لسبقته العين وفي رواية
عن جابر انما العين ليتدافع الرجلين المتحابين
وفي رواية انه صلي الله عليه وسلم كان يعوذ الحسن والحسين
يقول ابيكما كلمات التامات من كل شيطان وهامة
ومن كل عين لامة ويقول هكذا كان ابوكما ابراهيم واسماعيل
واسحاق صلوات الله وسلامه عليهم وعلي سائر النبيين
وعن عبادة بن الصامت قال وجدت علي رسول الله صلي
الله عليه وسلم في اول النهار فوجدته شديد الوجع ثم عدته

قوله

اليه اكل النهار وفي رواية معاني فقال ان جبريل عليه السلام اتاني
من قابل فقال له يسير الله ان في بيتك من كلبي يؤذيك في كل عين
وجاسد اسد يمكث قال فما فقدت وعيني رمداء قال بين جعفر بن
ابي طالب كانوا عندنا بيعنا فقالت اسماء يا رسول الله ان
العين اليهم كثيرة فما يسترقي لهم من العين فقال لهما نعم وفي رواية
دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت ام سلمة وعندها جارية
يشتكي فقالوا يا رسول الله ما بالجارية العين فقال استرقوا له فان
تسترقوا له من العين وعن عائشة رضي الله عنها كان
يؤمر العائن ان يتوضى ثم يغتسل منه المعين الذي
اصيب بالعين ولما خاف يعقوب عليه السلام ان يسبق
من عينه اليه بعض الاوهام ان اكثر ينهى عنه القول
نهى ذلك بقوله عليه السلام لا يسبق عيني اوهم هذا الى
بعض الاوهام ان الكلام يدفع بعضه بعضا فقال لا تدخلوا من باب
واحد وادخلوا من ابواب متفرقة اشارة الى رعاية الاسباب

المعتبرة

المعتبرة في هذا المقام وقوله وما اغني عنكم من الله من شيء اشارة
الى عدم الالتفات الى الاسباب بل الى التوحيد الخالص في البراءة
من كل شيء سوى الله تعالى وعلى الاخير كلمة التعليل تعالى وجب
رد كل شيء الى الله وقصر النظر عليه فقال معللا ما على ذلك ان الحكم
الا لله عليه اعتمد الله وحده اليه لا يليق الحكم الا له توكلت
اي جعلته وكيلي حسبي كفاني ما ينفل وعليه فليتوكل
المتوكلون اي الذاهبون في باب التوكل فيه اشارة الى ان من اعظم
الواجبات من فعله فان وجد اعظم طلب وقد ثبت بالبرهان
ان لا حكم الا لله فلزم القطع بانتفاء سائر الحكام وبنفي كل
الالتفات سببا من الله تعالى وفي ذلك يوجب ان التوكل الا على الله
ثم لما تقدم من نهي عن الدخول من باب واحد الى الخ وهو ما
في تقرر هذا المعنى ضيقت اجلة المتوكل من كتب احياء
علوم الدين فمن اراد الاستقصاء فيه فليطالع ذلك
الكتاب وما قال ليتوكل بسوء اعيني عنكم فيه سر لمن تفهم
هذه الاشارة الى ذلك تعالى وما اغنوا عنهم من الله من شيء الا
ابو هم اي مقرر فيهم الا حاجة في نفس يعقوب يعني عليه السلام
اي من قضائه في الخلق تعالى ما قضى به ابو هم قضاه
عليهم كما تقدم في قوله يعقوب عليه السلام ما تفقدون صواع الملك
نبقاهين بوجه ان الصواع في رحله وبقاؤه عندي لحكمة
خفية يعقوب عليه السلام في قوله انها كبيرة الحاجة
استثنا منقطع اي لكن حاجة في نفس يعقوب وهي
الى قوله ما كان يغني عنهم شفقة عليهم فقضاها يعقوب عليه السلام
واعترف بها من نفسه الى ان قال وانه لذو علم لما علمناه فاغني

عليهم الخلاص من عقوبته بتبليغه حفظه الله اي يعقوب عليه السلام مع
اسمه لبنيه حيث لم يكشفه وانه لذو علم لما ابصره بالحكمين حكم التكليف وحكم
التقدير فلا يبطل الجمع على الكون اعظم لما علمناه بالوحي ونصب
الحجج ولذلك قال وما اغني عنكم من الله من شي ولم يغتر بتدبيره
تنبيها كما هو يظن ليكون حكيما كذلك اي يعلم ما علمه نبي ذلك
سبحانه بقوله تعالى ولكن اكثر الناس اي لاجلهم انهم من الاضطرار
لا يعلمون اي ليس لهم بذلك علم لما عرفوا انهم لا عرضهم عند سنن
توارهم في ان الاهتمام بعلو قدر التكليف لم يمنع احوال الدنيا ب. ع.
والتعلق فطرهم بالتوصية بالسلامة يرجعها الى الدنيا ان عوسهم الى الحظوظ
والشهوة حتى في تدبير ذلك من طلب المخلوق ولما اخبر تعالى عن
دخولهم الى البلد بحيث عن دخولهم لحاجتهم الى يوسف عليه السلام
فقال ولما دخلوا اي اخوة يوسف عليه السلام على يوسف
في المقدمة الثانية باخيهم بنيامين قالوا هذا اخونا فقال لهم
احسنتم واحسنتم وستجدون ذلك بعدي وتلك تعني ... ثم انزلهم
واكرمهم منزلهم ثم اضافهم واجلسهم كل اثنين منهم على مائدة
فبقي بنيامين وحيدا فبكى وقال لو كان اخي يوسف حيا
لاجلسني معه فقال يوسف لقد بقي اخوكم هذا وحيدا
فاجلسه معه على مائدته وجعل يواكله فلما كان الليل
امرهم بمثل ذلك وقال لينم كل اثنين منكم على فراش فبقي بنيامين وحده فقال
يوسف هذا ينام معي على فراشي فلذلك قال تعالى اوى اليه
اخاه فبات معه وجعل يوسف يضمه اليه ويشم ريحه ثم قال
ما اسم ابيك ... بنيامين قال ... قال الك
ولد قال نعم هلكت امه ... امسك قال راحيل

بنت

بنت قال فهل لك من ولد قال لي عشرة بنين ولما راى تاسفه
لاخ له هلك قال له اتحب ان اكون اخاك بدل اخيك فقال ومن
يجد اخا مثلك ولكنك لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف
وقام اليه وعانقه وقال اني انا اخوك فلا تبتئس اي لا تحزن
بما كانوا يعملون اي بشيء عملوه بنا فيما مضى فان الله قد احسن
الينا فلا تلتفت الى اعمالهم المنكرة التي ندموا عليها وقد
جمعنا الله تعالى على خير ولا تعلمهم بشيء من ذلك وقرا نافع وابن
كثير وابو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون وبعد كسر النون
من انا قبل الهمزة المفتوحة نافع والباقون بالقصر ثم انه اصلح
لهم اي عبيتهم كما ارادوا وكان في المرة الاولى ابطا في تجهيزهم
ليتعرف اخبارهم في طول المدة من حيث لا يشعرون ولذلك
لم يعطفها بالفاء واسرع في تجهيزهم في هذه المدة قصدا الى
انفراده باخيه من غير رقيب بالحيلة التي دبرها فلذلك
اتى بالفاء في قوله فلما جهزهم اي عجل جهازهم واحسن جهازهم
جعل بنفسه وبعض امرائه السقاية اي المشربة التي كان يشرب
بها في رحل اخيه بنيامين وعاء طعام اخيه بنيامين كما فعل
ببضاعتهم في المرة الاولى قال ابن عباس كانت من زبرجد
وقال ابن اسحاق كانت من فضة وقيل من ذهب وقال عكرمة
كانت مشربة من فضة مرصعة بالجواهر وجعلها يوسف
مكيالا لئلا يكال بغيرها وكان يشرب فيها قال الرازي هذا
بعيد لان الاناء الذي يشرب فيه الملك لا يصلح ان يجعل صاعا
وقيل كانت الدواب تسقى بها قال وهذا ايضا بعيد لان
الانية التي تسقى الدواب فيها لا تكون كذلك قال والاقرب

ان بقيا لكان ذلك الانا شيا له قيمة اما الي هذا الحد الذي ذكروه
والسقاية والصواع والحد لم ارتحلوا وانهم لم يوسف عليه السلام
حين الطلقوا ذهبوا منازلا وقيل حتى خرجوا من المدينة ثم لبث
خلفهم من استوقفهم وحبسهم ثم اذن اي اعلن فيهم بالنداء مؤذن
قائلا برفيع صوته وان كان في غاية منه بادل عليه استماط
الاداة وايتها العير اي القافلة قال ابو الهيثم كل ما يسير عليه
من الابل والحمير والبغال فهو عير وقول من قال العير الابل
خاصة باطل فقوله ايتها العير اي اصحاب العير كقوله يا خيل
الله اركبوا قالوا انا كانوا اصحاب ابل وقال مجاهد كانت العير
حميرا وقرا وريش بابدال همزة مؤذن واوا وقفا ووصلا
لحمزة في الوقف فقط والباقون بالهمز انكم لسارقون يتنفي
حتى ننظر الذي فقد لنا والسرقة اخذ ما ليس له اخذه في خفاء
من حرز مثله قالوا فما جزاؤه ان كنتم كاذبين هل كان هذا النداء بامر يوسف
عليه السلام او بعلمه ان كان بامره فكيف
يليق بيوسف عليه السلام مع علو منصبه ان يبهت
اقوانا وينسبهم الى السرقة كذبا وبهتانا وان كان بغير
امره فهذا اظهر براءتهم من تلك التهمة اجيب بالجواب
الاول انه عليه السلام لما اظهر لاخيه انه يوسف قال
لست انا ركم قال لا سبيل الى ذلك الا بتدبير حيلة
انسبك فيها الي ما لا يليق بك قال رضيت بذلك
وعلى هذا اكرمتهم قلبه بسبب هذا الكلام لانه قد رضي
به فلا يكون ذنبا الثاني انكم لسارقون يوسف من ابيه
الا انهم ما اظهروا هذا الكلام فهو من المعاريض وفي

المعاريض

المعاريض مندوحة من الكذب الثالث ان المنادي انما قال ذلك
على سبيل الاستفهام وعلى هذا يجوز ان يكون كذبا الرابع ليس
في القرآن ما يدل على انهم قالوا هذا بامر يوسف عليه السلام
قال الرازي والاقرب الي ظاهر الحال انهم فعلوا ذلك من
انفسهم لانهم لما طلبوا السقاية فلم يجدوها ولم يكن هناك
احد غيرهم فغلب على ظنهم انهم الذين اخذوها ولما وصل
اليهم الرسول قال لهم الم تحسن ضيافتكم وتكرم سوأتكم وفيكم
كيلكم وفعلنا بكم ما لم نفعل بغيركم قالوا بلى وما ذاك قال
سقاية الملك فقدناها ولا تتهم عليها غيركم فذلك قوله
تعالى قالوا واقبلوا عليهم اي على حال اجماعة
الملك المنادي وغيره ماذا اي ما الذي تفقدون مما يمكننا
امده والفقدان ضد الوجود قالوا نفقد وكان للسقاية اسماء
غير وابقوا لهم صواع الملك والصواع هو المكيال وهو
السقاية المتقدمة سميت بذلك كذا وبذلك انما اتخذوا
هذه الالة مكيالا لغيره ما يكال به في ذلك الوقت ولمن
جاء به حمل بعير اي من الطعام والبعير يطلق لغة على الذكر
خاصة واطلقه بعضهم على الناقة ايضا وجعله نظير انسان
وهو ما جرى عليه الفقهاء في باب الوصية واجمع في القلة
على ابعرة وفي الكثرة على بعران وانا به زعيم قال مجاهد
الزعيم هنا الذي اذن والزعيم الكفيل وعند الاية تدل على ان
الكفالة كانت صحيحة في شرعهم وقد حكم بها رسول الله صلى
الله عليه وسلم في قوله الزعيم غارم وهو اذا ورد من شرعنا ما
يقرر شرع غيرنا هل يكون شرعا لنا في ذلك خلاف والراجح

انه ليس بشرع لنا فان قيل كيف تصح هذه الكفالة مع ان السارق
لا يستحق شيأ اجيب بانهم لم يكونوا سراقا في الحقيقة فيحمل
ذلك على مثل ردة الضايع فيكون ذلك جعالة او ان مثل هذه
الكفالة كانت جايزة عندهم في ذلك الزمان قالوا اي اخوة
يوسف عليه السلام تالله التاء حرف قسم وهي عندهم
بدل من واو القسم والواو بدل من الباء هي فرع الفرع وهذا
فلذلك ضعفت عن التعريف في الاسماء فلا تدخل الا على
الجلالة الكريمة او الرب مضافا للكعبة او الرحمن في قولك
ضعيف ولو قلت تالله رحمن لم يجز اي والله لقد علمتم ايها
جربتم من امانتنا قبل هذا فما كون مجيئنا ما جينا والاصل
النفي باللام فقالوا لنفسد اي نوقع الفساد في الارض اي
ارض مصر ولقد علمتم ما كنا اي بوجه من الوجوه سارقين
اي موصوفين بهذا الوصف قطعا فان قيل من اين علموا
ذلك اجيب بان ذلك يعلم بما رأوا من احوالهم وقيل لانهم
ردوا البضاعة التي جعلت في رحالهم قالوا لو كنا سارقين
ما رددناها وقيل قالوا ذلك لانهم كانوا معروفين بانهم
لا يسرقون وانهم عالمون بهم وكانوا اذا دخلوا مصر كمموا افواه
دوابهم كي لا تاكل ولا يسرقن من حروث الناس قالوا اي اصحاب
يوسف عليه السلام لمن وجد ومن معه فما جزاؤه اي
السارق وقيل الصواع ان كنتم كاذبين في قولكم ما كنا
سارقين ووجد في رحله جزاؤه اي جزاء السرقة او جزاء
الكذب فيكم وبجزاء مقابلة العمل بما يستحق من
خير وشر قالوا ونحن قائلون منهم بالبراءة واحتاروا ان الحكم عندهم
جزاؤه من وجد في رحله ولتحققهم البراءة علقوا

الحكم

والنوع الخامس منها قوله تعالى يغشى اي يغطي الليل بظلمته
النهار اي الزمان بضوئه فيحدث فصولها على ما تقتضيه ارادة
تعالى لها في السير من الزيادة والنقصان وذلك من احكم الدلالة
على الدين والايات الظاهرة لكل ذي عقل الخ تتبعه بنصبه
واختلف في قراءة حمزة والكسائي بفتح
الغين وتشديد الشين على الباء من جعل ذا مغشي وتخفيف
الشين على انه كرر تعالى هذه الدلايل المتيقنة والعلامات
الظاهرة على انفراده بالملك فقال تعالى ان في ذلك اي الذي وقع
التنويه عنه في الايات لايات اي دلالات لقوم يتفكرون اي
يجتهدون في التفكر فيستدلون بالمصنوعات على الصانع وبالسبب
على المسبب وفي التفكر والتدبر تعرف القلوب في مطالبها معالي
الامور وفي تعالى يحرك بالايات ظاهر اجر القوله تعالى وفي
الارض اي التي تمتهد مع عظمها للناظرين وفي هذا اشارة الى قبول
السكك قطع اي قطايع مختلفة متجاورات اي متقاربات يقرب
بعضها من بعض وهي طيبة واخرى سبخة لا تنبت واخرى
صالحة للزرع لا للشجر واخرى بالعكس واخرى قليلة المرعى
واخرى كثيرته مع انتظام الكل في الارض وهو شديد الدلالة
تعالى وجنات اي بساتين فيها انواع الاشجار من نخيل واعناب
وغير ذلك كما قال تعالى وزروع ونخيل صنوان مجتمع طيوعها
المختلفات يجمعها اصل واحد وتتشعب عنه كما روي عنه قوله صلى الله
عليه وسلم في عمه العباس عم الرجل صنو ابيه يعني انهما من اصل
واحد وغير صنوان اي متفرقات من اصول شتى كالنخل
جنة لا تشتبه باشجار الارض وقرأ ابن كثير وابو عمرو وحفص

برفع العين واللام والنون ام الثانية من صنوان والراء من غير
مع التنوين في العين واللام والنون وعدم التنوين في الراء
والباقون بالخفض في الاربعة وعدم التنوين في الراء والباقون
بالخفض في الاربعة وعدم التنوين في الراء والكاف لما هما بمنزلة
الابجد والاوهن بمنزلة الام وكان الاختلاف فيهما كالاختلاف في الام
اعجب وادل على الاسناد الى الواحد المسبب لان شيئ من
الاشياء يقال يستقي قراه ابن عامر وعاصم بالياء على التذكير
اي الماء المذكور وقراه الباقون بالتاء على التانيث اي الحاجة
وما فيها بماء واحد فتخرج ايضا نما وعمرانها وقد يطعم
لا تتاخر عنه ولا تتقدم والمراد بيان تمتعهم بحياتهم وقيل حالهم
وقيل في حدوثهم عجيب نسبا لقدرة الله تعالى ونفضل بعضها
على بعض في الاكل اي في الطعم ما بين حلو وحامض وغير
ذلك وفي الاشكال والرائحة واللذة وغير ذلك وذلك
ايضا دليل على القادر الحكيم فان اختلافها مع اتحاد
الاصول والاسباب لا يكون الا بتخصيص قادر مختار قال
مجاهد هي تلك الكمثرى بعينها طعمها وحبتها وابوهم واحد
وقال الحسن هذا مثل ضربه الله تعالى لقلوب بني آدم وكانت
الارض طبقة واحدة فبدلها الله تعالى الرمل فسكها سبع
سماوات فطارت قطعا متجاورات فينزل الله من السما
ماء فتخرج به ازهرة واشجارا وثمرها فيا تمرا وتخرج هذه
بسببها وطعمها وحبتها وكل شيئ بماء واحد وكذلك
الناس خلقوا من آدم فينزل عليهم من السما تذكرة فترق
قلوب قوم فتخشع وتخضع وتقسو قلوب قوم فتطغى وان لا

تسمع

تسمع وقال الحسن والله ما جالس القرآن احد الا قام من عنده
بزيادة او نقصان قال تعالى وننزل من القرآن ما هو شفاء
ورحمة للمومنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا وقراحمزة
والكسائي بالياء لمطابقة قوله تعالى يدبر الامر والباقون
بالنون وقرا نافع وابن كثير بسكون الكاف والباقون بالرفع
ان في ذلك اي ما ذكر من الامر العظيم الذي ذكرناه لايات اي دلالات لقوم
يعقلون اي يستعملون عقولهم بالتدبر والتفكر في الايات
الدالة على معرفة البدء ذكر بعقب ما يدل على المعاد بقوله تعالى
وان تعجب اي يا اكرم الخلق من تكذيب الكفار لك بعد ان كنت
عندهم تعرف بالصادق الامين فعجب اي فحقيق ان يتعجب منه
قولهم اي منكرين البعث ايذا كنا ترابا اي بعد الموت اينا لفي
خلق جديد اي خلق بعد الموت كما كنا قبله ولم يعلموا ان القادر
على انشا الخلق وما تقدم على غير مثال قادر على اعادتهم
وقيل وان تعجب من اتخاذ المشركين ما لا يضرهم ولا ينفعهم
الهة يعبدونها مع اقرارهم بان الله تعالى خلق السموات
والارض وينفع ويضر وقدروا قدرته حق قدره وما عرفوه حق معرفته
فعجب قولهم لك والتعجب تغير النفس بروية المستبعد في
العادة وقال المتكلمون التعجب هو الذي لا يعرف سببه وذلك
في حق الله تعالى محال لانه تعالى علام الغيوب لا تخفى عليه
خافية وقرا ابو عمرو وخلاد والكسائي بادغام الباء في الفاء
والباقون بالاظهار لتباعد ما بين المخرجين فان كل واحد منهما تام تقرا
قالون بتحقيق الهمزة الاولى وتسهيل الثانية ويدخل بينهما
الف على الاستفهام وفي الاية الثانية بهمزة مكسورة

وبعدها نون مشددة على الخبر ودرس له لكن الا انه لا يدخل بين
الهمزتين في ايذا الفاء تنقل حركة الثاني على اصله وابن كثير يترك
بالاستفهام فيهما من غير ادخال الف بين الهمزتين من تحقيق الاولى
وتسهيل الثانية فيهما وابو عمرو كذلك مع ادخال الف بينهما
وابن عامر في الاولى همزة مكسورة بعدها الف مفتوحة على
الخبر وفي الثاني بهمزة مفتوحة محققة وهمزة مكسورة على
الاستفهام وادخل هشام بينهما الفا بخلاف عنه والباقون
بهمزتين محققتين الاولى مفتوحة والثانية مكسورة بلا الف
بينهما في الموضعين ثمانية جميع ما في القرآن من ذلك احد
عشر موضعا في تسع سور والاحد عشر مكررة عشرين
وعشرين في هذه السورة موضع والثاني والثالث في سورة
الاسراء والرابع في المومنون والخامس في النمل والسادس
في العنكبوت والسابع في السجدة والثامن والتاسع في
الصافات والعاشر في الواقعة والحادي عشر في النازعات
واذكر ان شاء الله تعالى في كل سورة من السور المذكورة منهم
في محله اولئك اي الذين جمعوا الدواعي من البعد من كل خير
الذين كفروا بربهم اي عطلوا ما يجب اظهاره بسبب الاستهانة
بالذب بداعيهم ثم دبارهم بانواع اللطف فاذا انكروا
معادهم فقد انكروا بداءهم واولئك البعداء البغضاء الاغلال
يوم القيمة في اعناقهم بسبب كفرهم والغل طوق من حديد
يقيد به اليد في العنق وقيل اكراد بالاغلال ذلهم وانقيادهم
وانقيادهم يوم القيمة كما يقال الاسير الذليل بالقد وقيل
انهم مقيدون بالاغلال لا يرجى فلاحهم واولئك اي الذين

لاحظ

لاحظ اعظم من خسارتهم اصحاب النار هم فيها خالدون اي ثابت
خلودهم دايما لا يخرجون منها ولا يموتون وايا كان صلى الله عليه وسلم
يهددهم تارة بعذاب يوم القيمة وتارة بعذاب الدنيا والقوم كما
هددهم بعذاب يوم القيمة انكروا القيمة والبعث واكثروا النشر
وهو الذي تقدم ذكره في الاية الاولى وكما يهددهم بعذاب
الدنيا قالوا له فجيئنا بهذا العذاب وطلبوا حتفهم اظهارا وانزال
عليهم بسبيل الطعن واظهارا لذلك الذي يقوله كلام لا اصل له ينزل
ويستعجلونك اي استهزاء وتكذيبا وبالاستعجال طلب التعجيل
وهو تقديم الشيء قبل وقته فقد مر له بالسيئة اي العذاب قبل الحسنة
اي الرحمة وذلك ان مشركي مكة كانوا يقولون اللهم ان كان
هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا
بعذاب اليم فنزلت بقوله قبل بخمسة فيه وجهان احدهما
متعلق بالاستعجال ظرفا له والثاني انه منصوب بالحذر وفي على
انه حال مقدرة من السيئة قاله ابو البقاء وقد اي والحال
انه خلت من قبلهم امثالات جمع مثلة بضم الميم وضم المثلثة
كصدقة وصدقات اي عقوبات امثالهم من الامم التي اخذ
بتكذيب انبيائها وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم والا لم
يترك على ظهرها كما قال تعالى ولو يواخذ الله الناس بما كسبوا
ما ترك على ظهرها من دابة وقال ابن عباس رضي الله عنهما لذو
تجاوز عن المشركين اذا تابوا وان ربك لشديد العقاب لمن
اصر على الشرك الذين ماتوا عليه وقال مقاتل انه لذو
تجاوز عن شركهم فيما خير العذاب عنهم وشديد العقاب اذا
عاقب وما بين سبحانه وتعالى انه الكفاية طمعوا في بيوت النبي

صلى الله عليه وسلم بسبب طعنهم في الحشر والنشر والاسلام طعنوا في
نبوته بسبب طعنهم في صحة ما ينذر به من نزول العذاب
الاستيصال لثاني ثم طعنوا في نبوته بان طلبوا امنة المعجزة والبينة
الثانية وهو المذكور في قوله تعالى ويقول الذين كفروا لولا
انزل عليه اي محمد صلى الله عليه وسلم اية من ربه اي مثل عصا موسى
ويده فتصلح وجه لكونه اعظم الكل واكمل كون القرآن من جنس المعجزات
وقالوا بعد الكتاب مثل سائر الكتب وايتاء الانسان بتصنيف
معين وكتاب معين لا يكون معجزا مثل معجزات موسى وعيسى
عليهما الصلاة والسلام وكان صلى الله عليه وسلم اعطاهم آية
مقترحا تمم السنة التي آياتهم فقال الله تعالى له انما انت
منذر اي ليس عليك الا الانذار والتخويف وليس عليك اتيان
الآيات ولكل قوم هاد اي نبي يدعوهم الى دينهم بما يعطيه من
الآيات لا بما يقترحون وقرأ ابن كثير في الوقف تباع بحذف
الياء في الوصل والوقف مع تنوين الدال وكما سألوا رسول الله صلى الله عليه
وسلم الآيات فبرهم الله تعالى عن علمه وقدرته وكمال علمه بقوله
تعالى الله يعلم ما تحمل كل انثى من ذكر وغيره واحد ومتعدد
وغير ذلك وما تغيض اي تنقص الارحام من مدة الحمل وما تزداد
اي من مدة الحمل قد تكون تسعة اشهر وما زاد عليها الى سنتين
عند ابي حنيفة والى اربع عند الشافعي والى خمس عند مالك
وحكي ذلك عنهم وقيل ان الضحاك ولد لسنتين وهرم بن حيان
بقي في بطن امه اربع سنين ولذلك سمي هرما وقيل ما ينقصه
الرحم عن الاولاد ويزيد فيه منهم ورد قيل ان شيئا كان رابع اربعة

في

في بطن امه وقيل من انقصان الولد ان خرج ناقصا والزيادة تمام خلقة
وقيل ما ينقص بالسقط عن ان يتم وما يزاد بالتمام وقيل ما ينقص
بظهور دم الحيض وذلك انه اذا اسال الدم في وقت الحمل ضعف
الولد وانقص جثته او حبسه ذلك قاله ابن عباس كل ما سال الكف
في وقت الحمل يوما او ازداد فيه يوما اليوم او اليومين والقلة
الامر الا يتخلل جميع ذلك شيء ولا تنافي في تفاوت الاقوال وليدل
لذلك قوله تعالى وكل شيء اي من هذا وغيره من الآيات المقترحات
وغيرها عنده اي في علمه وقدرته بمقدار اي بكيفية وكمية لا يجاوزه
ولا يقصر عنه لان تعالى عالم بكيفية كل شيء وكميته على الوجه المعهد
الكيفي تنبيه قوله تعالى عنده يجوز ان يكون ظرفا لمحذوف
صفة لشيء اي شيء كائن عنده او منصوبا بمقدار فالاستقرار
الذي يتعلق به الجار لو وقع خبرا علم الغيب وهو ما غاب عن
كل مخلوق والشهادة وهو ما شاهده وقيل الغيب هو المعدوم
والشهادة هو الموجود وقيل الغيب ما غاب عن الحس والشهادة
ما حصل في الحس الكبير اي العظيم المتعال عن خلقه بالعلم
المنزه عن صفات النقص فهو تعالى موصوف بالعلم الكامل
والقدرة التامة وقرأ ابن كثير في الوقف والوصل بياء بعد
اللام والباقون بغير ياء وقفا ووصلا ولما كان علمه تعالى
شاملا لجميع الاشياء قال تعالى سواء منكم اي في علمه تعالى
من اسر القول اي اخفى مقاله في نفسه ومن جهر به اي اظهره
فقد استوى في علمه تعالى الكل سر بالقول وجاهر به ومن هو
مستخف اي مستتر بالليل اي بظلامه وساربه اي ظاهر بالنهار
في سرب بالنهار والسرب بفتح السين وسكون الراء هـ

الكرام الكاتبين وقال ابن عباس رضي الله عنهما تزدحم الملائكة بسماء الدنيا بالليل والنهار
مجاهد سواء من يقدم على القبائح في ظلمة الليل ومن يأتي نهارا في
المظاهر الظاهر على سبيل التواري عن الخلق ليس يعود الي منه في
قوله السواء كم من سر الوان ومن جهر يعود ونسخ مستخفي بالليل
اي اليه نسبان معقبات اي ملائكة تعقبه والهاء عليه للجمع لان
انه لما اتبع الملائكة الحفظة لما صح ان وصفهم بها معقبات اما لان
ان ملائكة الليل تعقب ملائكة النهار وبالعكس واما لان
تتعاقب في عمل عبادك العباد ويقولون ما يحفظة والكتبة
وكلهن عمل عملا عن عباد الله فقد عقب على هذا المراد من
المعقبات ملائكة الليل والنهار وروي عن عثمان بن عفان قال قيل يا رسول
الله اخبرنا عن لا نعبد كم معه من ملائكة قال صلى الله عليه
وسلم لملك عن يمينك الحسنات وهو امير على الذي على الشمال
فاذا عملت حسنة كتبت عشرا واذا عملت سيئة قال الذي
على الشمال لصاحب اليمين اكتب قال لعله ان يتوب او
يستغفر فيستأذنه ثلاثا فاذا قال ثلاثا قال اكتب
اراحنا منه فبئس القرين ما اقل مراقبته لربه واستحيائه
منه فهو قوله تعالى له معقبات من بين يديه اي قدامه ومن
خلفه اي وراءه او ملك عن يمينه قاعد على حاسبه فاذا تواضعت
لربك رفعك وان تجبرت قصمك وملكان على شفتيك يحفظان
عليك الصلاة وملك على فيك لا يدع ان تدخل الجنة في
فيك وملك على يمينك فيلقنه عشرة امثاله على كل دمعة
ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فهم عشرون ملكا على كل
آدمي وعن ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله

عليه

عليه وسلم قال تتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار
ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا
فيكم فيسألهم الله تعالى وهو اعلم بكم كيف تركتم عبادي فيقولون
تركناهم وهم يصلون وقال مجاهد ما من عبد الا وله ملك موكل
بحفظه من الجن والانس والهوام في نومه ويقظته فان قيل
الملائكة ذكور فلم ذكر وفي جمع الاناث وهو المعقبات اجيب
بجوابين الاول قال الفراء المعقبات ملائكة معقبة واحدها معقب
ثم جمعت معقبة بمعقبات كما قيل لنساء ثت سعدة ورجال ان جمع
لنساء ورجال والذي على التذكير قوله تعالى يحفظونه والثاني
وهو قول الاخفش انما انث لكثرة ذلك منهم حتى نسابة وعلامة هو
ذكر قوله واختلف في المراد من قوله تعالى من امر الله على اقوال احدها
انه على التقديم والتاخير والتقدير له معقبات من امر الله يحفظونه
ثانيها ان فيه اضمارا اي يحفظونه من امر الله اي مما امر الله
تعالى به فحذف الاسم وابقى خبره وثالثها ان كلمة من دخلت الباء
والتقدير يحفظونه بامر الله وبامانته وقال كعب الاحبار
لولا ان الله تعالى وكل بكم ملائكة يذبون عنكم حتى يسلموكم
لخطفتكم عوادي تخطفكم لكن وقال ابن جريج معنى يحفظونه
اي يحفظون عليه الحسنات والسيئات فان قيل ما الفائدة
في تخصيص هؤلاء الملائكة مع بني آدم وتسليطهم عليهم اجيب
بان الانسان اذا علم ان الملائكة تحصي عليه اعماله كان ذلك
احذر من المعاصي اقرب لان من اعتقد جلالة الملائكة وعلو
مراتبهم فاذا حاول الاقدام على معصية واعتقد انهم شاهدون
زجره الحياء منهم على الاقدام اليها كما يزجره اذا خلص من يعظمه

من البشر واذا علم ان الملايكة تحصي عليه تلك الاعمال كان ذلك ابعد
له عما يدعها واذا علم ان الملايكة يكتبونها كان الورع اكمل ولما
دل ذلك على غاية القدرة والعظمة قال تعالى ان الله مع قدرته
لا يغير ما بقوم لم يسلبهم نعمته حتى يغيروا اي الذي بانفسهم من
الاحوال الجميلة الى الاحوال القبيحة واذا اراد الله بقوم سوءا
اي هلاكا وعذابا فلا مرد له اي لا يقدر احد لامن المعقبات ولا
من غيرها ان يرد ما نزل به من قضائه وقدره وما لهم اي ان
اراد الله بهم سوءا من دونه اي غير الله من وال يلي امرهم ويدفع
عنهم العذاب وقرا ابن كثير في الوقف باثبات الياء بعد
اللام دون الوصل والباقون بغير ياء بعد اللام وقفا ووصلا
ولما خوف الله تعالى بقوله واذا اراد الله بقوم سوءا اتبعه بذكر
آيات تشبه النعم والاحسان من بعض الوجوه بقوله تعالى هو
الذي يريكم البرق خوفا اي للمسافرين من الصواعق وطمعا
اي للحايم في المطر وقيل ان كل شيء يحصل في الدنيا يحتمل الخير
والشر فهو خير بالنسبة الى قوم وشر بالنسبة الى آخرين فكذلك المطر خير فيه حق من يحتاج اليه شر في حق من يضره ذلك
اما بحسب المكان واما بحسب الزمان والبرق معروف وهو
لمعان يظهر ما بين السحاب وينشئ اي يخلق السحاب الثقال
اي بالمطر تنبيه خوفا وطمعا مصدران ناصبهما محذوف اي
تخافون خوفا وتطمعون طمعا ويجوز غير ذلك والسحاب قال
علي بن ابي طالب رضي الله عنه عنان السماء وهو غيم يسير
في السماء وهو اسم جنس جمعي واحده سحابة واكثر المفسرين
على ان الرعد في قوله تعالى ويسبح الرعد بحمده على ان اسم

الملك الذي يسوق السحاب والصوت المسموع منه تسبيحه والا يرد
ذلك عطف الملائكة عليه في قوله والملائكة اي تسبحه من خيفته
اي الله لانه افرد بالذكر تشريفا كما في قوله تعالى وملائكته
ورسله وجبريل وميكال قال ابن عباس اقبلت يهود على النبي
صلى الله عليه وسلم فقالوا اخبرنا عن الرعد ما هو فقال ملك
من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها
السحاب قال ابن الاثير والمخاريق جمع مخراق وهو في الاصل
ثوب يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضا وربما اكذ زجر بها
الملائكة السحاب وتسوقه وقد جاء تفسير المخراق في حديث
آخر وهو سوط من نور تزجر به الملائكة السحاب وعن ابن
عباس رضي الله عنه قال من سمع صوت الرعد فقال سبحان من يسبح
الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير فانه
اصابته صاعقة فذلك ديته وعن عبد الله بن الزبير انه كان
اذا سمع صوت الرعد ترك الحديث وقال سبحان من يسبح
الرعد بحمده والملائكة من خيفته وفي بعض الاخبار يقول الله
تعالى لو ان عبادي اطاعوني لسقيتهم المطر بالليل واطلعت
الشمس عليهم بالنهار ولم اسمعهم صوت الرعد وفي رواية عن
ابن عباس ان الرعد ملك موكل بالسحاب يسوقه حيث يؤمر
وانه يكون اماما في نقرة امامه وانه يسبح الله تعالى اذا سبح
البيقي ملك في السما الرابعة صوته بالتسبيح فتفزعها
ينزل المطر وعن الحسن ان الرعد خلق من خلق الله ليس
بملك وقد اختلفت الروايات في ذلك ففي بعضها انه ملك
موكل بالسحاب وفي بعضها انه ملك ينهق بالغيث

كما يسوق الراعي بغنمه وقيل بعضها انه ملك سمي به وهو الذي تسمعون
صوته وقد مرت الاشارة الى ذلك في البقرة وقيل هو ملائكة
اعوان الرعد جعل الله تعالى له اعوانا فهم خايفون خاضعون
طايعون وقيل المراد بهم جميع الملائكة واستظهره وقوله تعالى
ويرسل الصواعق جمع صاعقة وهي العذاب اي يرسل ملكا تنزل
من البرق فتحرق من تصيبه فيصيب بها من يشاء فيهلكه وهم
يجادلون في الله حيث يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم
والتكذيب التشديد في الخصومة روي ان عامر بن الطفيل
واربد بن ربيعة اخا لبيد وفد الى رسول الله صلى الله عليه
وسلم قاصدين لقتله فاخذ عامر يجادله وواربد من
خلفه ليضربه بالسيف فشيمه الله وسلمه الله صلى الله عليه وسلم
وقال اللهم اكفنيهما بما شئت فارسل الله تعالى على اربد
صاعقة فقتلته ورمي علقم ببثرة فمات في بيت سلولية
فكان يقول غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية
فنزلت وعن الحسن انه قال كان رجل من طواغيت العرب
بعث اليه النبي صلى الله عليه وسلم نفرا يدعونه الى الله
تعالى ورسوله فقال لهم اخبروني عن رب محمد هذا الذي
تدعوني اليه مما هو من ذهب او فضة او حديد او نحاس
فاستعظم القوم مقالته فانصرفوا الى النبي صلى الله عليه
وسلم فقالوا يا رسول الله مار اينا رجلا اكفر قلبا ولا اعتى
على الله منه فقال صلى الله عليه وسلم ارجعوا اليه فرجعوا
اليه مجهل لا يزيدهم على مقالته الاولى وقال اجيبكم
الى رب لا اراه ولا اعرفه فانصرفوا وقالوا يا رسول الله

ما ادناه على مقالته الاولى واخبثه فقال ارجعوا اليه فرجعوا
فبينما هم عنده ينازعونه ويدعونه وهو يقول هذه المقالة
اذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤوسهم فرعدت وبرقت
ورمت بصاعقة فاحرقت الكافرهم جلوس مجادلين
يجادلون رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستقبلهم قوم من
اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا انطلق
صاحبكم فقالوا من اين علمتم فقالوا الوحي من الله الى النبي صلى
الله عليه وسلم ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم
يجادلون في الله وهو شديد المحال واختلف المفسرون
في قوله تعالى وهو شديد المحال فقال علي شديد الاخذ وقال
ابن عباس شديد الحول وقال مجاهد شديد القوة وقال ابو
عبيدة شديد القوة والمبالغة واختلف في قوله تعالى له اي
الله دعوة الحق فقال علي دعوة الحق التوحيد وقال ابن عباس
شهادة ان لا اله الا الله وقال الحسن الحق هو الله تعالى وكل
دعاء اليه دعوة الحق والذين يدعون اي وهم الكفار من دونه
اي غير الله وهي الاصنام لا يستجيبون اي الاصنام لهم اي للكفار
بشيء مما يطلبونه من نفع او دفع ضر الا اي الا استجابة كباسط
اي كاستجابة باسط كفيه الى الماء اي على شفير البئر يدعو
الماء ليطلع ظاهر اي جار تفاعد من البئر اليه وما هو اي الماء ببالغه اي فاه
لبعد الا ان يجاذب الشيء بعلاقة ولا قدرة على اجابته فكذلك
ما لهم بمستجيبين لهم ابدا لان اصنامهم لا تملك ذلك وقيل شبههم
في قلة فايدة دعائهم لا لتهم بمن اذا دعاه لا يعرف الماء بيديه
ليشرب به فيبسط كفيه فاه فلا يناله الماء ولم يصل الى ذلك الماء

ولم يبالغ مطلوبه من مشركي مكة ان تعالى عجز عن انه لا يستجاب لهم
بقوله تعالى **وما دعاء الكافرين الا في ضلال** اي ضياع لا منفعة
فيه لانهم اذ دعوا الله لم يجبهم واذ دعوا الهتهم لم تستطع اجابتهم
وقيل المراد بالدعاء هنا العبادة وقوله تعالى **ولله يسجد من**
في السموات والارض يحتمل ان يراد بالسجود على حقيقته
وهو وضع الجبهة على هذا يكون قوله تعالى **طوعا** للملائكة
والمؤمنين ومن المتذللين حالة الشدة والرخاء وقوله تعالى
وكرها للكافرين ومن المتذللين حالة الشدة والرخاء وقوله تعالى
وكرها للكافرين ومن المتذللين حالة الشدة والرخاء وقوله تعالى
وان يراد به التعظم والاعتراف بالعبودية فكل من في السموات
والارض معترف بعبودية الله تعالى كما قال تعالى ولئن سألتهم
من خلقهم ليقولن الله وان يراد به الانقياد والخضوع وترك
الامتناع وكل من في السموات والارض ساجد لله بهذا المعنى
لان قدرته ومشيئته نافذة في الكل تنبيه قوله تعالى طوعا
وكرها اما منصوبان على الحال اي مطيعين وكارهين
واختلف في تفسير قوله تعالى **وظلالهم بالغدو** اي الملك
والآصال جمع العشي اي اي تسجد فتقول الكفار اي شخص
سجد كان موحدا او كافرا فان ظله يسجد لله قال مجاهد ظل
المؤمن يسجد طوعا وهو طائع وظل الكافر يسجد كرها وهو كاره
وقال الزجاج جاء في التفسير أن الكافر يسجد لغير الله وظله
يسجد لله قال ابن الانباري ولا يسجد الا مخلوق لله تعالى في
الظلال عقولا وافهاما تسجد لله وتخشع وقيل المراد
من سجود الظلال ميلها من جانب الى جانب وطولها حسب
انحطاط الشمس وقصرها بسبب ارتفاع الشمس وهي

متعادة مسلسلة في طولها وقصرها وميلها من جانب الى جانب
وانما خص الغدو والاصال بالذكر لان الظلال انما تعظم وتكثر
في هذين الوقتين تنبيه الغدو جمع غداة كعشي وفتاة وهو
والآصال جمع الاصل والاصل جمع اصيل وهو ما بين
العصر الى غروب الشمس وما بين تعالى ان كل من في السموات
والارض ساجد لله تعالى عدل الى الرد على عبادة الاصنام
بقوله تعالى **قل** يا اشرف المخلوقين على الله تعالى لقومك **من رب**
السموات والارض اي من مالكهما ومدبرهما وخالقهما
قل الله اي اجب عنهم بذلك ان لم يقولوه ولا جواب لهم غيره
ولانه البين الذي لا يمكن المراء فيه ولقنهم الجواب به وذلك
انه لما قال للمشركين ذلك عطفوا عليه وقالوا اجب انت فانه
الله تعالى فاجاب بذلك ثم الزمهم الحجة على عبادتهم للاصنام
بقوله تعالى **قل** لهم **افاتخذتم من دونه** اي غير الله **اولياء** اي
اصناما تعبدونها **لا يملكون لانفسهم نفعا** بجلب منفعة **ولا ضرا**
بدفع مضرة فكيف يملكون لكم ذلك وقرأ ابن كثير وحفص
باظهار الذال في اتخذتم عند التاء والباقون بالادغام ثم ضرب
الله تعالى مثلا للمشركين الذين يعبدون الاصنام والمؤمنين
الذين يعبدون الله فقال تعالى **قل هل يستوي الاعمى والبصير**
قال ابن عباس يعني المشرك والمؤمن وانما مثل الكافر بالاعمى
لانه لا يهتدي سبيلا كذلك الكافر لا يهتدي سبيلا ثم ضرب
الله مثلا للايمان والكفر بقوله تعالى **ام هل تستوي الظلمات**
اي الكفر **والنور** اي الايمان والجواب لا وقرأ نافع وحمزة
والكسائي **يستوي** بالياء على التذكير والباقون بالتا

على الثانية واما اللام من هل هنا فللانذعام على القراءتين ام جعلوا
لله شركاء والهمزة للانكار وقوله تعالى خلقوا كخلقه صفة لشركا
اي خلقوا كخلقه سبحانه وتعالى وشبهوا وقدروا خلقا كخلقه حتى
فتشابه الخلق اي خلق الشركا بخلق الله عليهم من هذا الوجه فلا
يدرون ما خلق الله وللما خلق الهتهم فاعتقدوا استحقاق عبادتهم
بخلقهم وهذا استفهام انكار اي ليس الامر كذلك وللاستحق
العبادة الا الخالق ولما كان من المعلوم قطعا ان جوابهم ان خلق
كله سبحانه وتعالى فقال تعالى قل لهؤلاء المشركين الله خالق كل
شيء ايما يصح ان يكون مخلوقا فهو من العموم الذي اريد به
الخصوص فلا يدخل في ذلك صفات الله تعالى واذا كان الخالق
غيره فلا شيء يشاركه في العبادة احد فوجب ان ينفرد بالالهية كما
قال تعالى وهو الواحد اي الذي لا يجانسه شيء وكل ما سواه لا يخلو
عن مماثل بما ثله وابن رتبة من يماثل من رتبة من لا مثل له
القهار الذي كل شيء تحت قهره فيدخل تحت قضائه ومشيئته
واراد تم ضرب تعالى مثلا للحق والباطل بقوله تعالى انزل
من السماء اي السحاب او السما نفسها ماء اي مطرا فسالت
اودية اي انما رجع واد وهو الموضع الذي يسيل الما فيه
بكثرة فاتسع فيه واستعمل للماء الجاري فيه وتنكير ماء للان
المطر يأتي على تناوب بين البقاع بقدرها اي بمقدارها الذي
علم الله تعالى انه نافع غير ضار او بمقداره في الصغر والكبر
فاحتمل السيل زبدا رابيا اي عاليا عليه هو ما علي وجه
من قذر ونحوه ومما توقدون عليه في النار اي من جواهر
الارض والذهب والفضة والنحاس والحديد ابتغاء اي طلب

حلية

حلية اي زينة او متاع اي ينتفع به كالاواني والاثاث
كالحرث والمقصود من هذا بيان منافعها كذلك مثل
اي مثل زبد السيل وهو خبثه الذي يتبعه الكير ومن للابتدا او
للتبعيض وعن احمد والكسائي بالتاء على الغيبة على ان
الضمير للناس واختاره للعلم به والباقون بالتاء على الخطاب
كذلك اي مثل هذا الضرب العالي الرتبة المتباين الطبقات
يضرب الله اي الذي له الاحاطة الكاملة علما وقدرة الامثال
ينجعلها في غاية الوضوح واذا كانت في غاية الوضوح قال
اهل المعاني هذا مثل ضربه سبحانه للحق والباطل فالباطل
وان علا على الحق في بعض الاوقات والاحوال فانه سيضمحل
ويبطله ويجعل العاقبة للحق واهله كالزبد الذي يعلو على
الما فيذهب الزبد فيبقى الما الصافي الذي ينفع لكما لكه

المتفوقين هذه الجواهر بيقين ويذهب العلو الذي هو الكدر وهو
ما ينفصل الكير مما يذاب من جواهر الارض كذلك الحق والباطل
وقيل هذا مثل للمؤمن واعتقاده وانتفاعه بالايمان كمثل الماء
الصافي الذي ينتفع به الناس ومثل الكافر وخبث اعتقاده
كمثل الزبد الذي لا ينتفع به البتة ثم انه تعالى لما ذكر الحق والباطل
ذكر ما لاجله يحصل الثواب والعقاب فقال تعالى للذين استجابوا
لربهم اي اجابوه الى ما دعاهم اليه من التوحيد والعدل والنبوة
وبعث الامر ات والتزام الشرايع الواردة على لسان رسول
الله صلى الله عليه وسلم الحسنى قال ابن عباس الجنة وقال
اهل المعاني الحسنى هي المنفعة العظمى التي الحسني وهي المنفعة
الخالصة عن شوائب المضرة الدائمة الخالصة عن الانقطاع المقرونة
بالتعظيم والاجلال ولم يذكر تعالى الزيادة ههنا لانه تعالى ذكرها
في سورة اخرى وهي قوله تعالى للذين احسنوا الحسنى وزيادة
هذا اما لاهل الحق واما لاهل الباطل فهي ما ذكره بقوله تعالى
والذين لم يستجيبوا له وهم الكفرة فلهم انواع ثلاثة من العذاب
والعقوبة فالنوع الاول قوله تعالى لو ان لهم ما في الارض جميعا
ومثله معه لافتدوا به اي بجملته فكاك انفسهم نظيره قوله تعالى
لان المحبوب بالذات لكل انسان هو ذاته وكل ما سواه فهو انما يحبه
لكونه وسيلة الى مصالح ذاته فاذا كانت النفس في الهول والكرب
والتعب وكان ما لكل ما سواه في عالم الاجساد والارواح فانه
يرضى بان يجعله فداء نفسه لان المحبوب بالعرض لا بد وان يكون
فداء لما كان محبوبا بالذات والكناية في به عائدة الى ما في قوله
ما في الارض والنوع الثاني من انواع العذاب الذي اعده الله

لهم ما ذكره بقوله تعالى اولئك لهم سوء الحساب وهو المناقشة فيه
والتعذيب بان يحاسب العبد بذنوبه كلها لا يغفر منها شيء وانما يؤخذ
بعضها والذي يدل على ان المراد ما ذكرناه قوله تعالى ومأواهم
والذين هم الذين لا يتوبون ولا يحترزون عن الذنوب فلا يتركون
شيئا من المعاصي الا ويأتون به فلا يبعد ان يقال انهم يؤاخذون
بكل ما عملوه من الذنوب ثم قال تعالى ومأواهم جهنم
اي مقرهم ومسكنهم جهنم ثم قال تعالى ولبئس المهاد
اي المقر والمسكن ثم قال تعالى افمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق
اي افمن يعلم ان ما انزل الله اليك من القرآن هو الحق كمن هو اعمى
لا يبصر شيئا البتة ولا يعلم ان ما انزل الله اليك من القرآن هو الحق
والغرض من هذا الكلام ان يبين ان الذي يعلم ان ما انزل الله
اليك من القرآن هو الحق لا يستوي عند الله مع من هو اعمى لا يبصر الحق ولا يتبعه وانما
يتبع الحق ويتابعه من يبصر الحق ويتبعه ومن هو اعمى لا يبصر الحق ولا يتبعه وانما
يتبع الهوى والباطل ثم قال تعالى انما يتذكر اولوا الالباب اي انما يتعظ
ويعتبر بما ذكر من هذه الامثلة اولوا الالباب اي اصحاب العقول الذين يقلعون عن
كل ما يوجب الخزي والعقاب في الدنيا والعذاب في الآخرة ثم قال تعالى
الذين يوفون بعهد الله اي ما عاهدوا الله عليه من الايمان والطاعة
وقيل ما عهد الله تعالى عليهم في كتبه والذين يصلون ما امر الله به ان يوصل
اي يصلون ما بينهم وبين الله تعالى من الايمان به وبجميع انبيائه
والمعاد فيؤمنون بجميعهم بعد تخصيص والذين يوفون بعهد الله بانبيائهم

اي من الاثام فالرحم وغير ذلك والاكثرون على انها راجعة صلة
الرحم التي بقي فوسي ان عبد الرحمن بن عوف دعا بابل وراحمال
عبد الرحمن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيما يحكي
عن ربه تعالى انا الرحمن وهي الرحم شققت لها اسما من اسمي من
وصلها وصلته ومن قطعها قطعته او قال بتته وروي عن عائشة
ان قطيعة رحم اتت النبي صلى الله عليه وسلم الرحم
معلقة بالعرش تقول اللهم صل من وصلني واقطع من قطعني وقطعة
رواه عن ابيه عن النبي صلى الله عليه وسلم
قال من سره ان يبسط الله في رزقه وان ينسأ له في اثره فليصل
رحمه وعن ابي هريرة ان رجلا قال يا رسول الله ان لي قرابة اصلهم
ويقطعوني واحسن اليهم ويسيئون الي واحلم عنهم فقال لئن
كنت كما قلت فكانما تسفهم المل ولا يزال معك من الله ظهير
عليهم ما دمت على ذلك وعن ابي بكرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ما من ذنب اجدر ان يعجل لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر
له في الاخرة من البغي وقطيعة الرحم وعن ابي عمرو بن العاص
قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليس الواصل
بالمكافئ ولكن الواصل الذي اذا انقطعت رحمه وصلها وعن
رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال تاتي يوم القيمة لها
السنة ذلقة الرحم فتقول اي رب قطعت والاهامة تقول اي
رب تركت والشمعة تقول اي رب كفرت وعن الفضيل بن
عياض ان جماعة عظموا عليه بكلمة فقال من ابن انتم فقالوا
من خراسان قال انتم قوم لا تعرفون حيث سئيتم واعلموا ان
العبد اذا احسن كل الاحسان وكان له رحم قاطعة فاسا اليها
لم يكن من المحسنين ويحيون بهم اي وعيده عمرو عاد لتحيته
حتى يبقى به لعظم ويخافون سوء الحساب خصوصا فيما سبق
انفسهم قبل ذلك سابوا والذين صبروا اي على طاعة

الله تعالى وعن معاصيه وعلى كل ما ينبغي الصبر فيه وقال ابن عباس
صبروا على امر الله وقال عطاء على المصايب والنوائب وقيل صبروا
عن الشهوات وعن المعاصي ويرجع الكل واحد فان الصبر
الحبس وهو يجرع مرارة منع النفس عما تحب مما لا يجوز فعله
ابتغاء اي طلب وجه ربهم اي رضاه لا لطلب غرض من جوار او
سمعة او رياء او لغرض من اغراض الدنيا او نحو ذلك واقاموا
الصلاة اي المفروضة وقيل مطلق الصلاة فيدخل فيه الفرض
والنفل وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية قال الحسن المراد
به الزكاة فان لم يتهم بترك الزكاة فالاولى ان يؤدي بما سرا
وان كان يتهم بترك اداءها فالاولى ان يؤدي بما علانية وقيل
المراد بالسر صدقة التطوع وبالعلانية الزكاة وقيل المراد
بالسر ما يؤديه من الزكاة بنفسه وبالعلانية ما يدفعه الى الامام
ويدرؤن اي يدفعون بالحسنة السيئة كالجهل بالحلم والاذ
بالصبر روي عن ابن عباس قال يدفعون بالصالح من العمل
السيئ من العمل وهو معنى قوله تعالى ان الحسنات يذهبن السيئات
وقوله صلى الله عليه وسلم اذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة
تمحها السر بالسر والعلانية بالعلانية وعن عقبة بن عامر
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان مثل الذي يعمل
السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل عليه درع ضيقة قد خنقه
ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ثم عمل حسنة اخرى فانفكت اخرى
حتى يخرج من الارض وقال ابن عباس يدفعون بالكسن
من الكلام ما يردعلهم من سوء عيونهم وعن الحسن اذا هم
جهلوا اعطوا واذا ظلموا عفوا واذا قطعوا وصلوا وعن

ابن تمام ليس الواصل من وصل ثم وصل تلك مجازاة لكن من قطع ثم وصل وعطف على من ظلم بفضله وليس الحليم من ظلم ثم حلم اذا هيجه قوم انتصاح لكن الحليم من قدر ثم عفى وعن ابن كيسان اذا اذنبوا تابوا وقيل اذا اوا منكرا امروا بتغيير ورويا ان شقيقا البلخي دخل على ابن المبارك منكرا فقال له من اين انت فقال من بلخ فقال وهل تعرف شقيقا قال نعم قال وكيف طريقة اصحابه قال اذا اعطوا شكروا واذا اعطوا استكروا قال ابن المبارك طريقة كلابنا هكذا فقال شقيق فكيف ينبغي ان يكون الامر فقال الكاملون هم الذين اذا اعطوا شكروا واذا اعطوا آثروا اولئك اي العالوا الرتبة لهم عقبى الدار وبتنتها تعالى بقوله جنات عدن اي اقامة لا انفكاك لها يقال عدن بالمكان اذا اقام به ثم استانف بيان تمكنهم بها بقوله تعالى يدخلونها ومن كانت الدار لائقة بدون الاحبة قال تعالى عاطفا على الضمير المرفوع ومن صلح من اباءهم اي الذين كانوا سببا في ايجادهم فيشمل بي ذلك الاتباع والامهات واذ على اوازواجهم وذرياتهم اي الذين تسببوا عنهم والمعنى الذي يلحق بهم من صلح من اهلهم واذا لم يبلغ مبلغ فضلهم بتعالهم وتعظيما لشانهم ويقال ان من اعظم موجبات سرورهم ان يجتمعوا فيتذكروا احوالهم في الدنيا ثم يشكروا ذا سبحانه تعالى على الخلاص منها والفوز بالجنة ولذلك قال الله تعالى في صفة اهل الجنة انهم يقولون يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين وفي ذلك دليل على ان الدرجة تعلو بالشفاعة واذ الموصوفين بتلك الصفات يفترق بعضهم بعضا لما بينهم من القرابة

والوصلة

والوصلة في دخول الجنة زيادة في نعيمهم والتقييد بالصلاح زيادة على ما هو المعتبر في الانتفاع وفسر ابن عباس الصلاح بالتصديق فقال يدخل من صدق بمحاصد قواله ان لم يعمل مثل اعمالهم قال الرازي قوله واذ ازواجهم ليس فيه ما يدل على اكثر من زوج وزوجة ولعل الاولى ما روي انها عجنت له وماتت عنه وما روي عن سودة انها لما اتاها الدور سئل على ربه عليه وسلم بطلاقها فقالت دعني يا رسول الله احشر في جملة نسائك كالدليل على ما ذكرنا انفا وعلى هذا من تزوجت بعده فقيل انما تخير بينهم ثم زاد تعالى في تزيينهم بقوله تعالى والملائكة يدخلون عليهم لانه الاكثار من تردد رسل الملك اعظم في التعزز واكرم في السرور والعز ولما كانت ابنيتهم من الاماكن المعتادة مع القدرة على غيرها ادرج على الادب واكرم قال تعالى من كل باب قال ابن عباس لهم خيمة من درة مجوفة طولها في سبع وعرضها في سبع لها الف باب مصاريعها من ذهب يدخلون عليهم من كل باب يقولون لهم سلام عليكم اي فاحمز القول هنا لدلالة الكلام عليه بما صبرتم على اموالله والبا للسببية اي بسبب صبركم او للبدلية اي بدل ما احتملتم من مشاق الصبر وشاعبه فان قيل بم يتعلق قوله بما صبرتم قال الزمخشري به محذوف تقديره هذا بما صبرتم وقال البيضاوي متعلق بعليكم اي بما صبرتم فان الجنة دار السلام فانها تخبر فاصل مع ان الزمخشري قال ويجوز ان يتعلق بسلام اي تسلم عليكم وتكرمكم بسبب صبركم وهذا اظهر وتقدم الاول بان الممنوع منه انما هو المصدر المؤول بحرف مصدري وفعل والمصدر هنا ليس كذلك ولما تم ذلك تسبب عنه قوله تعالى فنعم عقبى الدار وهي المسكن في قرار المهيئة بالابنية التي يحتاج اليها والمرافق التي ينتفع بها والعقبى

تعالى

ة لانهما الفيء ليدعمه لانه الابتداء من فيء او شرف المجموع عن بالقدم المحذوف
ليعم غضب كمر وعد كل من تعالى صفات السعداء الذين منت عليهم بما
والاحوال الحسنى بالمكرمة ما تبع الوعد بالوعيد والثواب بالعقاب
ليكون البيان كاملا فقال تعالى والذين ينقضون عهد الله
اي فيما يملى من تجاذبي موجبه والنقض التفريق الذي يبقى تالي الفتل
الميثاق من بعد ميثاقه اي الذي اوثقه عليهم من الطاعة اذ اقروا بالقول
ويقطعون ما امر الله به اي الذي امر بوصله وذلك في جملة
من قبل والذين يصلون ما امر الله به ان يوصل وفيه اشعار بان
هؤلاء القطع بالعدد من ذلك الوصل والمراد به قطع ما يوجب
الله تعالى وصله اعم من ان يكون من الخصائص الجليلة او الخفية في
عين الصلاح ويدخل في ذكره وصل الرسل بالله بالايمان
وسلم بالاقوال والافعال ووصل الموحدين ووصل الارحام ووصل
سائر من الرحم ويفسدون اي بتهيئة الفساد في الارض اي
فيما يمكن جزء كان منها بالظلم وتهييج الفتن والدعاء الى غير دين
الله تعالى اولئك اي الجامعون للقبائح لهم اللعنة اي الطرد
والبعد ولهم سوء الدار اي الدار لهم التي هي جهنم كما لهم فيها
الا ما يسوء الصابرين لهما ولما حكم الله تعالى على من نقض عهده
في قبول التوحيد والنبوة بانهم ملعونون في الدنيا ومعذبون
في الاخرة فكانه قيل لو كانوا اعداء الله لما فتح عليهم ابواب
النعم واللذات في الدنيا فاجاب الله تعالى بقوله تعالى الله
يبسط الرزق اي يوسعه لمن يشاء ويقدر اي يقتره لمن يشاء
سواء في ذلك الطائع والعاصي ولا تعلق لذلك بالكفر
اصلا بل ان تعلق بحد الكافر فموسعا عليه دون المؤمن ويوجد
المؤمن موسعا عليه دون الكافر فالدنيا دار امتحان ولما

كانت

كانت الحسنة تعظم الفرح الا عند من وفقه الله تعالى قال الله
تعالى وفرحوا اي الكفار بمكة فرح بطر بالحياة الدنيا اي جاذبها فيها
لا فرح سرور وتوفيق فيه او العاقبة عليهم فلم يتابعوا بالشكر
حتى يستوجبوا النعيم الاخروي وما الحياة الدنيا اي بكلها في الاخرة
الا في جنب الا متاع اي جنب متاع شيء يتمتع به ويذهب كالمتاع
الراكب وفي ما يتجمل به من ثياث وسوقة وما اشبه ذلك او بجنب ذلك
ويقول الذين كفروا من اهل مكة لولا انزل عليه اي على هذا
الرسول اية اي علامة بينة كناقة صالح والعصا واليد
فنوحي الطائفة لهم ليهتدوا به فلم يقترحوا من جهة واقتضت حكمته تعالى ان
يجيبهم فقال قل ان الله يضل من يشاء اضلاله
فلا يهتدي عند الايات ويهدي اليه من اناب اي رجع
اليه اي وفقه من اناب اي رجع طائعا كابي بكر الصديق وغيره
من تبعه من المبشرة المرهوم بالجنة وغيرهم ولو حصلت
اية واحدة فلا تشتغلوا بطلب الايات ولكن تفرغوا الى ما هو المقصود
من طلب الهدايات وهو قوله تعالى الذين امنوا اي بدل من اناب او بيان
بتقدير محذوف وتطمئن اي تسكن قلوبهم بذكر الله اي
عليه وحده ايمانا وتيقنا او بتذكر دلائله الدالة على وجوده وصفاته
من خشيته او بتذكر ما وعد الله تعالى وجوبه والقراءة الذي
هو الاصل محتجة لقول ابن عباس يريد اذا سمعوا القرآن
خشعت قلوبهم واطمأنت فاذا فتل عند ذلك قال الله تعالى في نسق
الكلام انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والوجل
هذا الاطمئنان تكميل لجمع بين ما تقتضي الآيتين ليجتمع بالفهم
انه اذا ذكر العقاب والوعيد وجل القلب من ذلك

ليثبت

يجمل الوجل واما ذكرها وعده بالثواب والرحمة سكنت قلوبهم اليه ذلك
وهيبته فحصل الجمع بينهما **الا بذكر الله** اي الذي له الكمالات والاكرام للذكر
عبد **طوبى** اي استقامة الحال وطيب العيش فيها وقوله تعالى
الذين امنوا وعملوا الصالحات مبتدا خبره **طوبى لهم** واخبث
الحبر في تفسير طوبى فقال ابن عباس فرح لهم وقرة عين وقال
عكرمة نعمى لهم وقال قتادة حسنى لهم وقال الضحاك خير لهم وهو
وكرامة وقال سعيد بن جبير طوبى اسم الجنة بالحبشة قال
الرازي وهذا القول ضعيف لان لسان الحبشة لا يليق بالقرآن الذي هو عربي
لا سيما واشتقاق هذا اللفظ من اللغة العربية ظاهر وعن
ابي هريرة وابي الدرداء انه طوبى شجرة في الجنة تظل الراكب
الجيد ثم تخرقها وقال عبيد بن عمير هي بالحبشية شجرة في الجنة غرسها
في داره النبي صلى الله عليه وسلم وفي كل دار من الجنة غصن منها
لم يخل منه بيت ولا دار ولا قصر الا وفيها منها الا السوداء ولم يخلق الله
فاكهة ولا ثمرة الا وفيها منها ينبع من اصلها عيناء الكافور
والمسك تطرد فاذا قتلوا وقعوا منها تظل امة عليها ملك
يسبح الله تعالى بانواع التسبيح وعن ابي سعيد الخدري
ان رجلا سال النبي صلى الله عليه وسلم ما طوبى قال شجرة
في الجنة مسيرة مائة سنة ثياب اهل الجنة تخرج من اكمامها وعن
معاوية بن قرة عن ابيه يرفعه طوبى شجرة غرسها الله تعالى
بيده ونفخ فيها من روحه تنبت الحلي والحلل وان اعناقها لمن الذهب
الجنة وثمرها سرر الجنة وفي رواية عن ابي هريرة قال ان في
الجنة شجرة يقال لها طوبى يقول لها سر فما يلي لها تفتقي لعبدي عما
شاء فتفتق له عن فرس بسرجه ولجامه وهيئاته عما تمنا

وقيل

وقيل طوبى فعل من الطيب قلبت ياؤه واو لضمة ما قبلها مصدر
لطاب كبشرى وزلفى وعقبى طوبى لك **وحسن مآب** اي حسن
المنقلب اصبت خيرا وطيبا **كذلك** اي مثل ارسال الرسل الذين
قدمنا الاشارة اليهم في اخر سورة يوسف وفي غيرها **ارسلناك**
في امة اي جماعة كثيرة **قد خلت من قبلها** اي تقدمتها **امم** طال اذاهم
لانبيائهم ومن امن بهم واستهزاؤهم بهم في عدم الاجابة حتى
كانهم تواصوا بهذا القول فليس ببدع ارسالك اليهم **لتتلو**
عليهم اي على امتك **الذي اوحينا اليك** من القرآن وشرائع
الدين **وهم** في حال اتيانك اياهم **يكفرون بالرحمن** اي بالبليغ الرحمة
الذي وسعت رحمته كل شيء وقال قتادة هذه الاية مدنية نزلت
في صلح الحديبية وذلك ان سهيل بن عمرو عمل للصلح واتفقوا
على ان يكتبوا كتاب الصلح فقال النبي صلى الله عليه وسلم
لعلي اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال اي سهيل بن عمرو لا نعرف
الرحمن الا صاحب اليمامة يعني مسيلمة الكذاب اكتب كما كنت
تكتب باسمك اللهم فهذا اعني قولهم يكفرون بالرحمن اي
انهم يكفرون به ويجحدونه قال ليغوى والمعروف ان الاية
مكية وسبب نزولها ان اباجهل سمع النبي صلى الله عليه وسلم
وهو في الحجر يدعو يا الله يا رحمن فرجع الى المشركين فقال ان
محمدا يدعو الها ويدعو الها اخر يسمى الرحمن ولا نعرف الرحمن الا
رحمن اليمامة فنزلت هذه الاية ونزل قوله تعالى قل ادعوا
الله او ادعوا الرحمن ايا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى ورد
الضحاك عن ابن عباس انها نزلت في كفار قريش حين
قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم اسجدوا للرحمن قالوا وما

الرحمن قال الله تعالى قل لهم يا محمد انا الرحمن الذي انكرتم معرفته هو
ربي لا اله الا هو عليه توكلت اي بما عجزت عليه في اموري كلها
واليه متاب اي مرجعي ومرجعكم وربي بما انا اهل مكة وقد قاتلني
فتاها الكعبة فاتاهم النبي صلى الله عليه وسلم واقر عن الاسلام
عليهم فقال له عبد الله بن امية المخزومي لقد ضيقت علينا جبال مكة
حتى تتسع المكان علينا واجعل لنا عيونا انفجر لنا انهارا نزرع فيها واحيي
لنا بعض اموات انسانا لعلنا اصدقك بما تقول ان كنت صادقا فقد كان عيسى
يحيي الموتى ويسخر لنا الريح حتى نركبها الى الشام فقد كانت تجري
الريح مسخرة لسليمان فلست باهون على ربك من سليمان
فنزل قوله تعالى ولو ان قرانا سيرت به الجبال اي تقلعت عن اماكنها
او قطعت به الارض اي شققت من سيلها ان
فجعلت انهارا او كلم به الموتى اي بان يحيوا وجواب لو محذوف اي
لكان هذا القران في غاية ما يكون من هذه الصفة ولكنهم بمعزة
السامعين مراده وهذا معنى قول قتادة قال لو فعل هذا
بقران قبل قرانكم لفعل بقرانكم وقيل تقديره لما امنوا ونقل
عن الفراء ان جواب لو في الجملة من قوله ولهم يكفرون وفي الكلام
تقديم وتاخير وما بينهما اعتراض وتقدير الكلام وهم يكفرون
بالرحمن لو ان قرانا سيرت به الجبال او قطعت به الارض او كلم
به الموتى لكفروا بالرحمن ولم يؤمنوا المكتبت من علمنا بانهم فان
قيل لم حذفت التاء في قوله تعالى وكلم به الموتى وثبتت في الفعلين
قبله اجيب بانه من باب التغليب لان الموتى يشمل الذكور
والموتى بل لله الامر اي له القدرة على كل شيء جميعا وهذا اضراب
عما تضمنته لو من معنى النفي اي بل الله قادر على الاتيان بما

اقترحوه

اقترحوه من الايات لكن الارادة لم تتعلق بذلك لحكمة تقتضيها بل لله الفعل
قلوبهم ويؤيد ذلك قوله تعالى افلم ييئس الذين آمنوا عن ايمانهم مع
ظلمهم واذاهم احوالهم وذهب اكثرهم الى ان معناه افلم يعلم الذين
آمنوا الذي بان لو شاء الله اي الذي له صفات الكمال لهدى الناس
جميعا الى الايمان من غير اية ولكنه تعالى لم يشا هداية جميع الخلائق
ولا يزال الذين كفروا اي جميع الكفار تصيبهم بما اي بسبب ما صنعوا
قارعة اي نازلة وداهية تقرعهم بانواع البلايا تارة بالحرب
وتارة بالسلب وتارة بالقتل وتارة بالاسر وغير ذلك واختلف فيه
الكفار على قولين قيل اراد به جميع الكفار لان الوقايع الشديدة
التي وقعت لبعض الكفار من اجل ذلك اوجبت حصول الغم في
قلب بعضهم وقيل المراد بالكفار من اهل مكة والالف واللام لهم هو
السابق ويدل لهذا قول ابن عباس اراد بالقارعة السرايا التي
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثها اليهم او تحل اي تنزل
نزولا ثابتا ذلك القارعة قريبا من دارهم اي فتوهن امرهم
وقيل معناه وتحل انت يا محمد بجيشك قريبا من دارهم بمكة كما حل
بالحديبية حتى ياتي وعد الله اي بالنصر وظهور رسول الله صلى
الله عليه وسلم ودينه بفتح مكة او بالنصر على جميع الكفرة في زمن
عيسى عليه الصلاة والسلام فينقطع ذلك لانه لا يبقى على
الارض كافر وقيل اراد بوعد الله يوم القيمة لان الله يجمعهم فيه
فيجازيهم باعمالهم ان الله لا يخلف الميعاد لامتناع الكذب في
كلامه تعالى ولما كان الكفار يسالون هذه الايات منه صلى الله
عليه وسلم على سبيل الاستهزاء والسخرية وكان ذلك يشق
عليه ويتاذى من تلك الكلمات انزل الله تعالى تسلية له وتصبيرا

لرسلي بسخافة قوله ولقد استهزئ برسل من قبلك كما استهزئ بك
فاملیت للذين كفروا اي اطلت المدة بتاخير العقوبة فكيف كان
عقاب اي تهويل واقع موقعه فكذلك افعل بمن استهزئ بك والاملاء
الامهال بان يترك ملاة من الزمان في راحة وامن كالبهيمة بملاء
لها في المرعى وهذا استفهام معناه التعجيب وفي ضمنه وعيد شديد
لهم وجواب عن اقتراحهم الايات علي رسول الله صلي الله عليه وسلم
علي سبيل الاستهزاء ثم انه تعالي اورد علي المشركين ما يجري مجري
الحجاج وما يكون توبيخا لهم وتعجيبا من عقولهم فقال تعالي
افمن هو قائم اي رقيب علي كل نفس بما كسبت اي عملت من خير
وشر وهو الله تعالي العالم بجميع المعلومات
من الجزئيات والكليات ولابد لهذا الكلام من جواب فان
من موصولة هكذا هو قائم والموصول مرفوع بالابتداء وخبره
محذوف تقديره كمن ليس بهذه الصفة وهي الاصنام التي
لاتنفع ولاتضر دل علي هذا المحذوف قوله تعالي وجعلوا
لله شركاء وتظيره قوله تعالي افمن شرح الله صدره للاسلام الاية
تقديره كمن قسى قلبه يدل عليه قوله فويل للقاسية فلوبهم
من ذكر الله وانما حسن حذف ذكر الخبر مقابلا للمبتدا وقد
جاء مثبتا لقوله تعالي افمن يخلق كمن لايخلق وقوله تعالي قل
سموهم فيه تنبيه علي ان هولاء الشركاء لايستحقون ذلك والمعني
سموهم باسمائهم الحقيقية فانهم اذا عرفت حقايقهم انما محالة
اوعين ذلك مما هو مركز العجز ومحل الفقر عرف ما هم عليه
من سخافة العقول وركاكة الاراء ثم قال ارايتموهم عن ذلك
الانفراد بانهم من جملة عبيده ام تنبؤنه اي تخبرونه بما لايعلم

وعلم

وعلم يحيط بكل شيء في الارض من كونها آلهة ببرهان قاطع ام تسمونهم
شركاء بظاهر من القول اي بحجة اقناعية تتمالبهم وكلما لايعلم
فليس بشيء وهذا احتجاج بليغ علي اسلوب عجيب بناء علي نفسه
بالاعجاز ولما كان التقدير ليس لهم علي شيء من هذا برهان قاطع ولا
قول ظاهر بني عليه قوله تعالي بل زين اي رفع التزيين بامر من
لايرد امره علي بد من كان من شياطين الانس وشياطين
الجن للذين كفروا مكرهم اي امرهم الذي اراد وابه ما يراد بالمكر
من اظهار شيء وابطال غيره وذلك انهم اظهروا ان شركاءهم آلهة
حقا وهم يعلمون بطلان ذلك وليس بهم في الباطن الا تقليد الاباء
واظهروا انهم يعبدونها لتقربهم الي الله زلفي ولتشفع لهم وهم
لايعتقدون بها ولا يتوقعون منها ركل ذلك من فعلهم فعل الماكر
وصدوا غيرهم عن السبيل اي طريق الحق الذي لاينال لغيره
سبيل فان غيره عدم بل العدم خير منه فمن لم يسلكوا السبيل
ولا تركوا غيرهم يسلكه فضلوا واضلوا وليس ذلك بعجيب فان الله
اضلهم ومن يضلل الله اي الذي له الامر ارادة اضلاله فما له
من هاد وقرا ابن كثير بالبات الياء بعد الدال في الوقف دون
الوصل والباقون بغير ياء وقفا ووصلا وكذلك من واق وكذا
ولاواق ولما اخبر الله تعالي بتلك الامور المذكورة بين انه جمع
لهم بين عذاب الدنيا وعذاب الاخرة بقوله تعالي لهم عذاب في
الحياة الدنيا بالقتل والاسر والذم والاهانة واغتنام الاموال
والالم ونحو ذلك مما فيه غمهم ولعذاب الاخرة اشق اي اشد
في المشقة بسبب القوة والشدة وكثرة الانواع والدوام وعدم
الانقطاع ثم بين تعالي انه لايقيهم من عذابه بقوله تعالي وما

لهم من الله من واق اي مانع يمنعهم اذا اراد بهم سوأ في الدنيا ولا
في الاخرة والواقي فاعل من الوقاية وهي الحجز بما يدفع الاذى به
ولما ذكر تعالى عذاب الكفار في الدنيا والاخرة اتبعه بذكر ثواب
المتقين بقوله تعالى مثل اي صفة الجنة اي هي معتزهم التي وعد المتقون
واختلف في اعراب ذلك على اقوال الاول قال سيبويه مثل
الجنة مبتدا وخبره محذوف والتقدير فيما قصصنا عليكم مثل الجنة
والثاني قال الزجاج مثل الجنة جنة من صفتها كذا وكذا والثالث
مثل الجنة مبتدا وخبره تجري من تحتها الانهار كما تقول صفة زيد اسمر
والرابع الخبر اكلها اي مأكولها دايم لانه الخارج عن العادة فقد وصف
الله تعالى الجنة بثلاثة اوصاف الاول تجري من تحتها اي من تحت
قصورها واشجارها الانهار الثاني ان اكلها دايم لا ينقطع ابدا
بخلاف فاكهة الدنيا والثالث قوله تعالى وظلها اي دايم ليس كظل
الدنيا لا تشمسه الشمس ولا غيرها اذ ليس فيها شمس ولا قمر
ولا ظلمة بل ظل ممدود لا ينقطع ولا يزول ثم ان الله تعالى لما وصف
الجنة بهذه الصفات الثلاثة بين تعالى انما للمتقين بقوله تعالى
تلك اي الجنة العالية الاوصاف عقبى اي آخر امر الذين اتقوا
اي الشرك ثم ذكر الوعيد للكافرين بقوله تعالى وعقبى اي
منتهي امر الكافرين النار لا غير وفي ترتيب النظمين اطماع للمتقين
واقناط للكافرين واختلف في قوله تعالى والذين اتيناهم
الكتاب على قولين الاول انهم اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم
والمراد بالكتاب القرآن يفرحون بما انزل اليك من انواع
التوحيد والعدل والنبوة والبعث والاحكام والقصص ومن الاحزاب
اي الجماعات من اليهود والنصارى وسائر الكفار من ينكر بعض

وهذا

وهذا قول الحسن وقتادة فان قيل الاحزاب منكرون كل القرآن
فكيف يقال ينكرون كل ما في القرآن لانه ورد فيه اثبات الله تعالى
واثبات علمه وقدرته تعالى وحكمته واقاصيص الانبياء والاحزاب
لا ينكرون كل هذه الاشياء والقول الثاني ان المراد بالكتاب التوراة
وبأهله الذين اسلموا من اليهود والنصارى كعبد الله بن سلام
واصحابه ومن اسلم من النصارى وهم ثمانون رجلا اربعون بنجران
وثمانية من اليمن واثنان وثلاثون من ارض الحبشة وفرحوا
بالقرآن لانهم آمنوا به وصدقوا والاحزاب بقية اهل الكتاب وسائر
المشركين وقيل كانت ذكر الرحمن قليلا في القرآن في الابتداء
فلما اسلم عبد الله بن سلام ومن تبعه من اهل الكتاب بسببهم
قلة ذكر الرحمن مع كثرة ذكره في التوراة فلما كرر الله تعالى ذكره
في القرآن فرحوا به فانزل الله تعالى والذين اتيناهم الكتاب
يفرحون بما انزل اليك ومن الاحزاب من ينكر بعضه يعني مشركي
مكة حين كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتابه الصلح
بسم الله الرحمن الرحيم قالوا ما نعرف الرحمن الا رحمن اليمامة
يعني مسيلمة فانزل الله تعالى وهم بذكر الرحمن هم كافرون ثم بين
تعالى لنبيه هذا جمع كما يحتاج المرء فيه من معرفة المبدأ والمعاد
وبينه بالفاظ قليلة فقال قل يا اكرم الخلق على الله
تعالى انما امرت اي وقع الي الامر الجازم الذي لا شك فيه والى
غيري ممن لم الامر كله ان اعبد الله اي وحده وكذلك ولا اشرك
به شيئا اليه وحده ادعو والبه مآب اي مرجعي للحق لا الى غيره
وكذلك اي كما انزلنا الكتب على الانبياء بلسانهم كذلك انزلنا اليك
اي القرآن حكما اي حكم فصل الامر على الحق عربيا بلسانك ولسان

قوله كره وانما سمي القران حكما لانه فيه جميع التكاليف والحلال والحرام
والنقض والابرام فلما كان سببا للحكم جعل نفس الحكم على سبيل
المبالغة وروي ان المشركين كانوا يريدون النبي الى ملة اباءه فوعده
الله تعالى على متابعتهم في تلك المذاهب بأن يصلي الى قبلتهم
بعد ما حوله الله تعالى عنها بقوله تعالى ولئن اتبعت اهوائهم
اي اهواء الكفار فيما يدعونك اليه من ملتهم بعد ما جاءك من العلم اي
بانكاره على الحق وانت قبلتك في الكعبة مالك من الله من ولي
ناصر ولا واق اي مانع من عذابه قال ابن عباس الخطاب مع
النبي صلى الله عليه وسلم والمراد امته ونزل لما عيّر النبي صلى الله
عليه وسلم الكفار بكثرة النساء ولقد ارسلنا رسلا من قبلك
وجعلنا لهم ازواجا وذرية اي نساء ينكحون فكان لسليمان عليه
السلام ثلاثمائة امراة وسبعمائة سرية وكان لداود عليه السلام
مائة امراة وذرية اي اولادا فانت مثلهم فكانوا يقولون ايضا
لو كان رسولا من عند الله لكان اي شيء طلبناه منه من المعجزات
اتى به فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى وما كان لرسول ان
يأتي بآية الا باذن الله اي بارادته لان المعجزة الواحدة كافية
في ازالة العذر والعلة وفي اظهار الحجة والبينة واما الزائد
عليها فهو موقوف الى مشيئة الله تعالى ان شاء اظهرها وان
لم يشأ لم يظهرها لا اعتراض للحد عليه في ذلك ولما توعدهم
صلى الله عليه وسلم بنزول العذاب وظهور النصرة له ولقومه رتما من
ذكره عنهم قالوا لو كان نبيا صادقا لما ظهر كذبه فرد الله تعالى
عليهم بقوله تعالى لكل اجل اي مدة كتاب اي مكتوب قدرت فيه
ان امرك ان يكون في وقت كذا من الثواب والعقاب والاحكام

والاتيان

والاتيان بالايات وغيرها رجاء وفسحا على حالة فيه حكمة ولما
اعترضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا ان محمدا يامرنا
اصحابه بامر اليوم ثم ينهانا عنه في الغد او لسبب ذلك الا انه يقوله
من تلقاء نفسه رد الله تعالى عليهم بقوله يمحو الله ما يشاء اثباته
من الشرايع والاحكام وغيرها بالنسخ فيرفعه ويثبت ما شاء اثباته
من ذلك بان يقره ويمضي حكمه كقوله تعالى في الناسخ في الآية التي تليها
الم تعلم ان الله على كل شيء قدير وقرا ابن عامر وعاصم وحمزة
بسكون الثاء وتخفيف الباء على وحدة الفعل والباقون بفتح الثاء وتشديد
الباء على الوحدة تنبيه في هذه الآية تولاه احدهما اعامة
في كل شيء كما يقتضيه ظاهر اللفظ وهو قول عمر وابن مسعود
وغيرهما فانهم قالوا انه ممحو من الرزق ومثبت فيه وكذا القول
في الاجل والسعادة والشقاوة والايمان والكفر روي عن
عمر رضي الله عنه انه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول اللهم
ان كنت كتبتني في اهل الشقاوة فامحني واثبتني في اهل السعادة فانك
تمحو ما تشاء وتثبت وعندك ام الكتاب ومثله عن ابن مسعود
وهذه التاويلات اذا وقعت حيل على عمومها في كل شيء
وفي بعض الآثار ان الرجل ليكون قد بقي من عمره ثلاثون سنة فيقطع
رحما فيمحى ما كتب له من العمر ويثبت له ثلاثون يوما والرجل يكون قد بقي من عمره ثلاثة
ايام فيصل رحما فيمد له ثلاثين سنة وروي ان الله تعالى
ينزل امير امر في اول ثلاث ساعات تبقى من الليل فينظر
في الساعة منهن في ام الكتاب الذي لا ينظر فيه احد غيره فيمحو
ما يشاء ويثبت والقول الثاني ان هذه الآية خاصة في بعض

تسقط ١٤

الاشياء وفي بعضها اختلفوا على هذا القول فقال سعيد بن جبير وقتادة
يمحو الله ما يشاء من الفرائض والفرائض فينسخه ويبدله ويثبت ما
شاء منها فلا ينسخه وقال ابن عباس يمحو الله ما يشاء ويثبت الا
الرزق والاجل والسعادة والشقاوة واستدل بهذا من جوز
حدثنا بندار حدثنا سعيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول
اذا جاء نيسان ولم تنزل قطرة من السماء بعده اعرضوا عنها فانها
خلقة تسمى لوبيا تجيء بحمار وتذهب بالحمار فقال يارب ان كل
انسان يقضي ويكتب ما يشاء ويكتب الملك ثم يقول الملك يارب
رزقه فيقضي ويكتب ما يشاء ويكتب الملك ثم يقول يارب اشقي
ام سعيد فيكتب ما شاء فيكتب عمله واثره واجله ورزقه ثم تطوى
الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص وقال عطاء عن ابن عباس هو الرجل
يعمل بطاعة الله تعالى ثم يرجع الى معصية الله فيموت على ضلاله
فيمحو الله الذي يجوز والذي يشاء يثبت يعمل الرجل بطاعة الله فيموت وهو
في طاعته من قبل ان يثبت وقال الحسن يمحو الله ما يشاء اي
من جاء اجله ذهب به ويثبت من لم يجيء اجله الى اجله وعن
سعيد بن جبير قال يمحو الله ما شاء من ذنوب العبد فيغفرها له
ويثبت ما شاء فلا يغفرها وقال عكرمة يمحو الله ما شاء من الذنوب
بالتوبة ويثبت بدل الذنوب حسنات كما قال تعالى فاولئك
يبدل الله سيئاتهم حسنات وقال السدي يمحو الله ما شاء يعني
الفرض ويثبت ما شاء يعني السنن بيانه قوله تعالى فمحونا اية
الليل وجعلنا اية النهار مبصرة وقال المربع هذا في الارواح
يقبضها الله تعالى عند النوم فمن اراد موته امسكه ومن اراد
بقاءه اثبته ورده الى صاحبه بيانه قوله تعالى الله يتوفى

الانفس

الانشراح يومئذ الآية وقيل ان الله تعالى يثبت في اول كل سنة
حكمه فاذا مضت السنة محاه واثبت حكما آخر للسنة المستقبلة
وقيل يمحو الله الدنيا ويثبت الآخرة وقيل ان الحفظة يكتبون جميع
اعمال بني آدم واقوالهم فيمحو الله من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثواب
ولا عقاب وقيل هذا في الجزاء والمصايب فمهما شاء يثبت في الكتاب
ثم يمحيها بالدعاء والصدقة وعنده تعالى ام الكتاب اصل الكتب
والعرب تسمي كل ما يجري مجرى الاصل للشيء اما وعنه ام الرأس
للدماغ وام القرى مكة وكل مدينة فهي ام لما حولها من القرى
فكذلك ام الكتاب هو الذي يكون اصلا لجميع الكتب وهو
اللوح المحفوظ الذي لا يغير ولا يبدل وجميع
حوادث العالم العلوي والسفلي يثبت فيه عن النبي صلى الله
عليه وسلم انه قال كان الله ولا شيء ثم خلق اللوح واثبت فيه جميع
الاحوال الى قيام الساعة والقول الثاني ان ام الكتاب
اصله الذي لا يغير سنة بسنة وهو الذي كتب في الازل وقال ابن
عباس في رواية عكرمة ما من كتاب الا وان كتاب سوى ام الكتاب يمحو
ما يشاء منه ويثبت وعند علم الكتاب لا يغير منه شيء وعلى هذا
فالكتاب الذي يمحو منه ويثبت هو الكتاب الذي تكتبه الملائكة
على الخلق وعن ابن عباس قال ان لله لوحا محفوظا مسيرة
خمسمائة سنة من درة بيضاء له دفتان من ياقوتة لله فيه في كل يوم
ثلاثمائة وستون لحظة يمحو ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب وسئل
ابن عباس كيف هذا من الكتاب تعالى الله عما يصفون علوا كبيرا
وكما كان من معترضاتهم وطلباتهم لستقرن السيئة مما
توعد وايد وكانت النفس وما عملت وقوع ذلك المبغوض وابتلائه

ليؤمن بعضهم تعذيبا لفضل النزاع قال تعالى **وامانرينك** يا محمد وأكده بتأكيد
الاعلام بانه لاحرج عليه في ضلال من ضل بعد ابلاغه **بعد الذي**
نعدهم ايمن العذاب وانت حي مما نريده او نريد امهالهم **نتوفينك** قبل وفاتك
فذلك شافيك من اعدائك والوعد تخبر عن خير مخصوص والوعيد اخبر
عن شر مخصوص والضمير فيهما عائد على ما عاد عليه وسماه وعدا لتنزيلهم اياه في طلب
نزوله منزلة الوعد **او نتوفينك** اي قبل ان نريك ذلك فلا لوم عليك
ولا عتب **فانما عليك البلاغ** اي ليس عليك الا تبليغ الرسالة اليهم وليس
عليك ان تجازيهم ولا ان تأتيهم بما تقترحات والبلاغ اسم اقيم مقام
التبليغ واما فيراد غام نون ان الشرطية في ما الزائدة **وعلينا الحساب**
اي علينا ان نحاسبهم يوم القيمة فنجازيهم باعمالهم فلا تحتفل باعراضهم
ولا تستعجل بعذابهم تنبيه قالوا الوجهان هما شرطان للاول
المعطوف على الشرط شرط مقيد لكل شرط ما ينبغي ان يكون
جزاء مرتبا عليه والتقدير وامانرينك بعد الذي نعدهم فذلك
شافيك من اعدائك وامانتوفينك قبل حلول ما يعدهم فلا لوم
عليك ولا عتب وقد مرت الاشارة الى ذلك ولما وعد تعالى نبيه
صلى الله عليه وسلم بان يريه بعض ما يعده او يتوفاه قبل ذلك بين
تعالى ان امارجوع تلك الى الواحد وعلامته قد ظهرت وقويت
بقوله تعالى **اولم يروا** اي كفار مكة **انا نأتي الارض** اي نقصد ارض
هؤلاء الكفرة **ننقصها من اطرافها** بما يفتح الله تعالى على المسلمين
من ديار المشركين ارضا بعد ارض حوالي ارضهم هذا قول ابن
مسعود وقتادة ومجاهد وقال مجاهد هو خراب الارض وقبض
اهلها وعن عكرمة قال هو قبض العلماء وعن الشعبي مثله
وعطاء وجماعة تقصانها موت العلماء وذهاب الفقهاء ويؤيد هذا ما

رواه

رواه عمرو بن العاص انه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض
العلماء حتى اذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فافتوا
بغير علم فضلوا واضلوا وقال الحسن قال عبد الله بن مسعود عليكم
بالعلم قبل ان يقبض وقبضه ذهاب اهله وقال علي انما مثل العلم
كمثل الانف اذا انطعنت لم تقد وقال سليمان لا يزال الناس بخير
ما بقي الاول حتى يتعلم الاخر واذا هلك الاول قبل ان يتعلم
الآخر هلك الناس وقيل لسعيد بن جبير ما علامة هلاك الناس
قال هلاك علمائهم ثم اثبت تعالى لنفسه امرا كليا فقال **والله**
ام الملك الاعلا **يحكم** في خلقه بما يريد لا **معقب** اي لا راد لان
التعقيب رد الشيء بعد فصله **لحكمه** وقد حكم للاسلام بالاقبال وعلى
الكفر بالادبار وذلك كائن لا يمكن تغييره تنبيه محل جملة لا معقب
لحكمه النصب على الحال كانه قيل والله يحكم نافذا حكمه كما تقول
جاءني زيد لا عمامة على راسه ولا قلنسوة تريد حاسرا **وهو** عن
وجل مع تمام القدرة **سريع الحساب** فيحاسبهم مما قليل في الآخرة
بعد ما عذبهم بالقتل والاجلاء في الدنيا وقال ابن عباس يريد
سريع الانتقام يعني حسابه للجازات بالكفر والشر فجازات
الكفار بالانتقام منهم ومجازاة المؤمنين بايصال الثواب اليهم
وقد تقدم الكلام في معنى سريع الحساب قبل هذا وقوله تعالى
وقد مكر الذين من قبلهم اي من قبل كفار الامم الماضية قيل
مكروا بانبيائهم مثل نمرود مكر بابراهيم وفرعون مكر بموسى
واليهود مكروا بعيسى فيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وقوله
تعالى **فلله المكر جميعا** اي مكر جميع الماكرين حاصل بتخليقه وارادته

هلاك

لانه تعالى هو الخالق لجميع افعال العباد فالملك لا يفعل الا باذنه ولا يؤثر
الا بتقديره فلو اذن له صلى الله عليه وسلم من مكرهم فكانه يقول
اذا كان احد مؤثرا المكر من الله وتاثيره في المكور به من الله وجب
ان لا يكون شيء الا من الله تعالى لان من احد من المخلوقين وذلك
بعض المفسرين بان المعنى فالمعجزات المكر وذكروا انهم لما مكروا
بالمؤمنين بين الله تعالى انه يجازيهم على مكرهم قال الواحدي
والاولى ان يحمل الوجهين بدليل قوله تعالى يعلم ما تكسب كل نفس
اي ان اكساب العباد معلومة لله تعالى وافعالهم المعلوم يمتنع
الوقوع واذا كان كذلك فلا دلالة لقدرة على الفعل والترك
فكان الكل من الله فيجازيهم على اعمالهم وفي ذلك وعيد وتهديد
للكفار والماكرين ثم انه تعالى اكد ذلك التهديد بقوله تعالى
وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار اي العاقبة المحمودة في الدار
الاخرة اللام للبيني صلى الله عليه وسلم واصحابه وقرا ابن كثير وابو عمرو بالالف بعد الكاف على الافراد والكاف مفتوحة
والفا مكسورة مخففة والباقون بالالف بعد الفا على الجمع
فالكاف مضمومة والفا مفتوحة مشددة فمن قرا بالافراد اراد
الجنس كقوله تعالى ان الانسان لفي خسر ليوافق قراءة الجمع وقال
عطا المستمتعين منهم بمحمد والمفتتحين منهم بمحاربته وقال
وقال ابن عباس يريد ابا جهل قال الزجاج والاول هو الصواب
اي ليوافق قراءة الجمع ثم مر ولما تقدم قوله تعالى ويقول الذين
كفروا لولا انزل عليه آية عطف عليه بعد شرح ما استتبعه قولهم
تعالى ويقول الذين كفروا لست مرسلا اي لكونه لا ياتي بالقرآن
مع انه صلى الله عليه وسلم لم يقل يوما انه قادر على ما اقترحوه

قل

قيل ما اقول لهم فقال تعالى قل لهم كفى بالله الذي له الاحاطة الكاملة
شهيدا اي بليغ العلم في شهادته بالاطلاع على ظاهري وباطن
بيني وبينكم يشهد بتاييد رسالتي وتصحيح مقالتي بما ظهر لي من
الايات واوضح من الدلالة بهذا الكتاب ويشهد بتكذيبكم باد عائكم
القدرة على المعارضة وتركتم لها عجزا وهذا اعلى مراتب الشهادة
لان الشهادة قول يفيد غلبة الظن بان الامر كما شهد به والمعجز
فعل مخصوص يوجب القطع بكونه رسولا من عند الله واختلف
في قوله تعالى ومن عنده علم الكتاب فروى العوفي عن ابن
عباس رضي الله عنهما انهم علماء اليهود والنصارى اي ان كل من
كان عالما من اليهود بالتوراة ومن النصارى بالانجيل
علم ان محمدا مرسل من عند الله لما يجد من الدلايل الدالة
على نبوته فما يشهد بذلك من شهد به وانكره من انكر منهم
والثاني ان المراد شهادة اهل الكتب من الذين امنوا وهم
عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وتميم الداري وقال
الحسن ومجاهد والزجاج وسعيد بن جبير ومن عنده علم
الكتاب هو الله تعالى قال الحسن لا والله لا يعني الا الله والمعنى
كفى بالله الذي يستحق العبادة وبالذي يعلم علم ما في
اللوح الاعلى شهيدا بيني وبينكم وهذا اظهر كما استظهره
البقاعي وان كان عطف الصفة على الموصوف خلاف الاصل
اذ يقال شهد بهذا زيد العفيف لان زيد والعفيف لذاته جايز
في الجملة وقيل ان علم ان القرآن الذي جيتكم به معجز ظاهر
وبرهان باهر لما فيه من الفصاحة والبلاغة والاخبار عن
الغيوب وعن الامم الماضية فمن علم بهذه الصفة كان شهيدا

بيني وبينكم والله اعلم بمراده واسرار كتابه وما رواه البيضاوي بتعاد
للزمخشري وتبعهما ابن عادل من الله صلى الله عليه وسلم قال من قراء
سورة الرعد اعطي من الاجر عشر حسنات بعدد كل سحاب مضى وكل
سحاب يكون الي يوم القيمة وبعث يوم القيمة من الموفين بعهد الله تعالى
حديث موضوع **سورة سيدنا ابراهيم عليه السلام مكية**
الا قوله تعالى الم تر الي الذين بدلوا نعمة الله كفرا الايتين وهي اثنتان
وخمسون اية وعدد كلماتها ثمانمائة واحدى وثلاثون كلمة وعدد
حروفها ثلاثة الاف واربعمائة وثلاثون حرفا **بسم الله**
الرحمن الرحيم قوله تعالى **الر** تقدم الكلام عليها اول يوسف وهود
وقوله تعالى **كتاب** خبر لمبتدا محذوف اي هذا القرآن كتاب او الر
ان قلنا انها مبتدا والجملة بعدها صفة ويجوز ان يرتفع بالابتدا
وخبره الجملة بعده وجاز الابتدا بالنكرة لانها موصوفة تقديرا
تقديره كتاب اي كتاب يعني عظيما من بين الكتب السماوية **انزلناه**
اليك يا سيد الخلق عند الله **لتخرج الناس** اي عامة قومك وغيرهم
بدعائك اياهم **من الظلمات** اي الكفر وانواع الضلالة **الي النور**
اي الايمان والهدي قال الرازي والاية دالة علي ان طرق
الكفر والبدع كثيرة وان طريق الحق ليس الا واحدا لانه
تعالي قال لتخرج الناس من الظلمات وهي صيغة جمع ثم وعبر
عن الايمان والهدي بالنور وهو لفظ مفرد وذلك يدل علي
ان طرق الجهل والكفر كثيرة وان طريق العلم والايمان ليس
الا واحدا تنبيه القائلون بان معرفة الله تعالي لا تحصل الا
من طريق التعليم واجيب بان الرسول صلى الله عليه وسلم
كما نبه وامر المعرفة تحصل من الدليل وقوله تعالى

باذن

باذن ربهم متعلق بالاخراج اي بتيسيره وتسهيله ويبدل من الي النور
الي صراط اي طريق **العزيز** اي الغالب **الحميد** اي المحمود علي كل حال المستحق
لجميع المحامد وفي قوله الله دون اثنان فقرا نافع وابن عامر برفع الكل
وصلا وابتدا علي انه مبتدا خبره **الذي له ما في السموات وما**
في الارض مشكا وخلقا وملكا والموافق بالجر علي انه بدل او عطف
بيان وما بينهما صفة تنبيه ذهب جماعة من المحققين الي ان قولنا
الله جار يجري الاسم العلم لذات الله سبحانه وتعالي وذهب قوم
وهم زمخشري الي انه لفظ مشتق قال الرازي والحق عندنا هو الاول
لان الامة لما اجتمعت علي قولنا لا اله الا الله يوجب التوحيد المحض
المحقق علمنا ان قولنا الله جار يجري الاسم العلم وقد قال تعالي
هل تعلم له سميا اي هل تعلم من اسمه الله غير الله وذلك يدل علي
ان قولنا الله اسم لذات المخصوصة ولذا استشكل قراءة الجر
اذ الترتيب الحسن ان يذكر الاسم ثم يذكر عقبه الصفات كقوله
تعالي هو الله الخالق البارئ المصور وما الخالق فلا يحسن
واجيب عن ذلك بانه لا يبعد ان تذكر الصفة اولا ثم يذكر الاسم
ثم تذكر الصفة مرة اخري كما تقال مررت بالامام الاجل محمد
الفقيه وهو جميل نظير قوله تعالي صراط العزيز الحميد الله
الذي له ما في السموات وما في الارض والاية تفيد الحصر حصر
ما في السموات وما في الارض له لا لغيره وذلك يدل علي انه
لا مالك الا الله ولا حاكم الا الله وانه تعالي خالق للاعمال العباد
لانها حاصلة في السموات والارض فوجب القول بان افعال
العباد له بمعني كونها مملوكة له والملك عبارة عن القدرة فوجب
كونها مقدورة لله تعالي واذا ثبت انها مقدورة لله وجب وقوعها

بقدرة الله والا لكان العبد قد منع الله تعالى من اتباع مقدوره وذلك محال ثم انه تعالى لما ذكر ذلك عطف عليه الكفار بالوعيد فقال تعالى **وويل للكافرين** اي الذين تركوا عبادة من يستحق العبادة الذي له ما في السموات وما في الارض وعبدوا من لا يملك شيئا البتة بل هو مملوك مثله لانه من جملة ما في السموات وما في الارض وويل مبتدا وجاز الابتداء به لانه دعاء كالسلام عليكم وللكافرين خبره وقوله تعالى **من عذاب شديد** اي يعذبهم في الاخرة متعلق بويل ولا يمنع الفصل بالخبر عن وصفهم بقوله تعالى **الذين يستحبون** اي يختارون **الحياة الدنيا على الاخرة** اي يؤثرونها عليها **ويصدون عن سبيل الله** اي يمنعون الناس عن قبول دين الله **ويبغونها** اي السبيل **عوجا** اي معوجة والاصل ويبغون لها زيغا وميلا فحذف الجار وا وصل الفعل الى الضمير **اولئك** اي الموصوفون بهذه الصفات **في ضلال بعيد** اي عن الحق واسناد البعد الى الضلال اسناد مجازي لان البعيد اهل الضلال بميلهم عن الباب التي الثاني فذكر ما يجري مجرى تكميل النعمة والاحسان في الوجهين بقوله تعالى **وما ارسلنا من رسول** اي في زمان من الازمان **الا بلسان** اي لغة **قومه** اي بالنسبة الى الرسول فلانه تعالى بين ان سائر الانبياء كانوا مبعوثين الى قومهم خاصة واما انت يا محمد فمبعوث الى عامة البشر وكان هذا الانعام في حقك اكمل وافضل واما بالنسبة الى عامة الخلق فهو انه تعالى ذكر انه ما بعث رسولا الا بلسان اولئك القوم **ليبين لهم** ما امروا به فيفهموه عنه بيسير وسرعة لان ذلك اسهل لفهم اسرائيل تلك الشريعة والوقوف على دقايقها وابعد عن

الغلط وتخليط المشبه تمسكه طائفة من اليهود بقولهم ان عيسى بن مريم انما كان نبيا الى العرب من جميع الاول ان القرآن لما كان نازلا بلغة العرب لم يعرف كونه معجزة بسبب ما فيه من الفصاحة الا العرب وهم لا يكون القرآن حجة الا عليهم الثاني قالوا ان قوله تعالى وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه المراد بذلك اللسان لسان العرب وذلك يدل على انه مبعوث الى العرب فقط ورد عليهم بان المراد بالقوم اهل دعوته والدليل على عموم الدعوة قوله تعالى يا ايها الناس اني رسول الله اليكم جميعا بل الي الثقلين لان التحدي كما وقع بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ثم بين سبحانه وتعالى ان اله ضلال والهداية بمشيئته بقوله تعالى **فيضل الله من يشاء** اضلاله **ويهدي من يشاء** لهدايته فانه تعالى هو المضل الهادي وليس على الرسول الا التبليغ والبيان والله تعالى هو الهادي المضل يفعل ما يشاء **وهو العزيز** في ملكه فلا راد لحكمه عن مشيئته **الحكيم** في صنعه فلا يهدي ولا يضل الا لحكمة ولما بين انه انما ارسل محمدا عليه الصلاة والسلام الى الناس ليخرجهم من الظلمات الى النور وذكر كمال انعامه عليهم وعلى قومه في ذلك الى رسالة وفي تلك البعثة اتبع ذلك بسرد بعثة سائر الانبياء الى اقوامهم وكيفية معاملة اقوامهم لهم ليكون ذلك تصبرا له صلى الله عليه وسلم على اذى قومه واشارة الى كيفية مكالمتهم ومعاملتهم فذكر تعالى على العادة المألوفة قصص بعض الانبياء عليهم الصلاة والسلام وابتدا بذكر قصة موسى عليه السلام فقال **ولقد ارسلنا موسى بآياتنا** اي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وفلق البحر

والنجار والعيون من الحجر واظلاله كالجبل والكن والسلوى وسائر معجزاته
ان اخرج قومك اي بني اسرائيل من الظلمات اي الكفر والضلال الى
النور اي الايمان والهدى تنبيه يجوز ان تكون ان مصدرية اي
باخراج والباء في بايانا للحال وهو للتعدية ويجوز ان تكون
مفسرة للرسالة بمعنى اي ويكون المعنى اي اخرج قومك من
الظلمات اي قلنا له اخرج قومك كقوله تعالى وانطلق الملا منهم
ان امشوا وذكرهم بايام الله قال ابن عباس بنعم الله وقال
قتادة بوقايع الله في الامم السالفة يقال فلان عالم بايام
العرب اي بوقايعهم وفي المثل من سرّه يوم ساءه يوم قال الراوي ومعناه
من رأى في يوم سروره ما يصرع عنده رأى عنده في يوم آخر ما يصرعه
نفسه وقال تعالى وتلك الايام نداولها بين الناس والمعنى
عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد والترغيب والوعد
ان يذكرهم ما انعم الله عليهم وعلى من قبلهم ممن آمنوا بالرسل
فيما سلف من الايام مثل ما انزل بعاد وثمود وغيرهم من العذاب
لئلا يغتروا بالوعد فيعصوا فوا كيد ردا من الوعيد فيتركوا التذكير
وقيل بايام الله في حق عيسى موسى ان يذكر قومه بايام المحنة
والبلاء حين كانوا تحت ايدي القبط يسومونهم سوء العذاب فخلصهم
الله من ذلك وجعلهم ملوكا بعد ان كانوا مملوكين ان في ذلك اي
التذكير العظيم لايات على وحدانية الله تعالى وعظمته لكل صبار
اي كثير الصبر على الطاعة وعن المعصية شكور اي كثير الشكر
للنعم وانما خص الصبور والشكور بالاعتبار بالايات وان كان
فيها عبرة للكل لانهم المنتفعون بها دون غيرهم فلهذا خصهم
بالاضافة فكانها ليست لغيرهم تمم كقوله تعالى هدى للمتقين

فان

فان الانتفاع لا يمكن حصوله الا لمن يكون صابرا شاكرا اما من لا يكون
كذلك فلا ينتفع بها البتة وكما امر الله تعالى موسى ان يذكرهم
بايام الله حكى عنه انه ذكرهم بها بقوله تعالى واذ قال موسى لقومه
اذكروا نعمة الله عليكم وقوله انا نجاكم من ال فرعون ظرف للنعمة
بمعنى الانعام اي اذكروا انعام الله عليكم في ذلك الوقت يسومونكم
سوء العذاب بالاستيصال ويذبحون اي تذبيحا كثيرا ابناءكم اي الولودين
ويستحيون اي ليتبقون نساءكم احياء وذلك كقوله تعالى نحن قتلنا
مولود اي الولد في بني اسرائيل يكون سبب زوال ملك فرعون فان
قيل لم ذكر تعالى في سورة البقرة يذبحون بغير واو وذكره ههنا مع
الواو اجيب بانها انما حذفت في سورة البقرة لانها تفسير لقوله
يسومونكم سوء العذاب وفي هذا التفسير لا يحسن ذكر الواو وههنا
ادخل الواو وفي لانه نوع آخر لانهم كانوا يعذبونهم بانواع العذاب
غير الذبح فليس تفسيرا للعذاب وفي ذلكم بلاء اي انعام
وابتلاء من ربكم عظيم لان النعمة ابتلاء كما ان المحنة
جميعا ومنه قوله تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة فان قيل
الذبح لا يبقى فيه بلاء اما يستحيي النساء فكيف فيه ابتلاء اجيب
بانهم كانوا يستحيون نساءهم ويتركونهن تحت ايديهم كالاماء فكان
ذلك ابتلاء وقوله تعالى واذ تاذن ربكم فهو ايضا من
كلام موسى عليه السلام وتاذن بمعنى اذن كتوعد واوعد غير
انه ابلغ لما في التفعل من معنى التكلف والمبالغة لئن شكرتم
اي نعمتي باسرائيل نعمتي بالتوحيد والطاعة لازيدنكم نعمة الى نعمة
ولاضاعفن لكم ما آتيتكم فان الشكر قيد الموجود وصيد المفقود والكفر
عبارة عنه لان اعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه وتوطين النفس

على هذه الطريقة ثم انه يرتقي العبد عن تلك الحالة الى ان يصير حمده للمنعم شاغلا له عن الالتفات الى النعمة ولا شك ان منبع السعادات وعنوان كل الخيرات محبة الله تعالى ومعرفته واما الزيادة في النعمة فهي على قسمين روحانية وجسمانية فالاولى بها اذا الشاكر يكون ابدا في مطالعة انعام نعمة الله تعالى والتواضع لفضله وكرمه واما الثانية واما الثانية فلان الاستقراء دل على ان كل من كان استغاله بشكر نعم الله تعالى اكثر كان وصول نعم الله اليه اكثر سأل الله تعالى القيام بواجب شكر النعمة حتى يزيد نا من فضله وكرمه واحسانه ويفعل ذلك باهلينا واحبابنا ثم انه تعالى لما ذكر ما يستحقه الشاكر ذكر ما يستحقه مقابله بقوله تعالى **ولئن كفرتم** اي بجحدتم النعمة بالكفر والمعصية **لاعذبنكم** اي لمن كفر نعمتي ولا يشكرها ومن عادة الكريم الكريم ان يصرح بالوعد ويعرض بالوعيد ولما بين موسى ان الاشتغال بالشكر يوجب تزايد الخيرات في الدنيا والاخرة والاشتغال بكفران النعم يوجب العذاب الشديد وحصول الافات في الدنيا والاخرة بين بعده ان منافع الشكر ومضار الكفران لا تعود الا الى صاحب الشكر وصاحب الكفران واما المعبود والمشكور فانه متعال عن ان ينتفع بالشكر او يتضرر بالكفران فلا جرم قال الله تعالى **وقال موسى ان تكفروا انتم ومن في الارض** وانكره بقوله تعالى **جميعا** اي من الثقلين فانا نضر بذلك ولا يعود على الغير شيء وحرمتها الخير كله **الم يأتكم** يا بني اسرائيل **نبأ** اي خبر **الذين من قبلكم قوم نوح** وكانوا ملاء الارض **وعاد** قوم هود وكانوا اشد الناس ابدانا **وثمود**

وثمود قوم صالح وكانوا اقوى الناس على نحت الصخور وبناء القصور ويحتمل ان يكون من كلام موسى او كلام محمد من الله تعالى لقوم محمد صلى الله عليه وسلم او هو استئناف كلام تقرير لقوله تعالى **والذين من بعدهم** اي بعد هؤلاء الامم الماضية **لا يعلمهم الا الله** فيه قولان الاول انه يكون المراد لا يعلم كنه عقابهم الا الله تعالى لان المذكور في القرآن جملة فاما ذكر العدد والمرة والكمية والكيفية فغير حاصل في القول الثاني ان المراد ذكر اقوام بالغة اخبارهم الصلة كذبوا رسلهم فيهم اصلا لا يعلمهم الا الله ولذلك قال ابن مسعود اذا قرأ هذه الاية قال كذب النسابون يعني انهم يريدون عود عالم الانساب الى آدم وقد نفى الله تعالى علمها عن العباد وعن ابن عباس انه قال بين عدنان واسماعيل ثلاثون ابا لا يعرفون ونظير هذه الاية قوله تعالى وقرونا بين ذلك كثيرا وكلا ضربنا له الامثال وكلا تبرنا تتبيرا وقوله تعالى منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وعنه صلى الله عليه وسلم انه كان في انساب بعض العرب كذب فاحذروا من تعلم انساب الناس فانكم لا تدرون لعل قاطع الرحم كاذب في نسبه او واصل الرحم صادق في نسبه ثم قال تعالى **جاءتهم رسلهم بالبينات** اي الدلائل الواضحات والمعجزات الباهرات اقوا بالوحدانية وما جاءهم به من المعجزات **فردوا** اي الامم **ايديهم في افواههم** وفي ذلك اقوال الاول انه الكفار ردوا ايديهم في افواههم فعض هاهنا مما جاءت به الرسل كقوله تعالى عضوا عليكم الانامل من الغيظ والثاني انهم لما

سمعوا كلام الانبيا عجبوا منه وضحكوا علي سبيل السخرية فعند ذلك
ردوا ايديهم في افواههم كما ينبغي ذلك من غلبة الضحك فيضع يده
علي فيه والثالث انهم وضعوا ايديهم علي افواههم مشيرين بذلك
الي الانبيا ان كفوا عن هذا الكلام واسكتوا عن ذكر هذا الحديث والرابع
انهم لما اشاروا بايديهم الي السنتهم والي افواههم قالوا انا كفرنا بما ارسلتم
الكفر كما حكي الله تعالي ذلك عنهم بقوله تعالي وقالوا انا كفرنا بما ارسلتم
به اي علي زعمكم ان هذا جوابنا لكم ليس عندنا عين هذا ولا اثر
من التصديق بهذا هو الامر الثاني الذي اتوا به وقيل الضمير في ردوا
راجع للرسل عليهم الصلاة والسلام وفيه وجهان احدهما ان الكفار
اخذوا يكذبون الرسل ويضعون ايديهم علي افواههم ليسكتوا ويقطعوا
الكلام والثاني ان الرسل لما ايسوا عنهم سكتوا ووضعوا ايديهم
انفسهم علي افواه انفسهم فان من ذكر كلاما عند قوم وانكروه
وخافهم فذلك المتكلم ربما وضع يده نفسه علي فم نفسه وغرض
ان يعرفهم انه لا يعود الي ذلك الكلام البتة والامر الثالث
قولهم وانا لفي شك مما تدعونا اي الرسل اليه اي من الدين
مريب اي موجب الريبة او موقع في الريبة والتهمة والريبة
قلق النفس وان لا تطمئن الي الامر الذي تشك فيه فان قيل
انهم قالوا اولا انا كفرنا بما ارسلتم به فكيف يقولون ثانيا وانا لفي
شك والشك دون الكفر اجيب بانهم لما صرحوا بكفرهم بالرسل
كلهم حصل لهم بسبب توجب الشك لهم فقالوا انكم ندعونا الجزم
واليقين في كفرنا فلا اقل من ان تكونوا شاكين مرتابين في صحة
دينكم وعلي التقديرين فلا سبيل الي الاعتراف بنبوتكم ولما قال
هؤلاء الكفار للرسل ذلك قالت لهم رسلهم مجيبين افي الله شك

اي

اي هل يتشكون في الله وهو استفهام انكاري اي لا شك في توحيده
للدلايل الظاهرة عليه منها قوله تعالي فاطر اي خالق السموات
والارض اي وما بينهما من الانفس والارواح والارزاق وقرا ابو عمرو
ورسلهم هنا وفيما مر في جاءتهم رسلهم باسكان السين والباقون بالرفع
ولما اقاموا الدليل علي وجود الاله علي ذلك وصفوه بكمال الرحمة
بقولهم يدعوكم اي الي الايمان ببعثنا وقولهم ليغفر لكم اللام
متعلقة بيدعوا اي لاجل غفران ذنوبكم كقوله دعوت لمانا اني مسود
قلبي فلبي يدي ميثور ويجوز ان يكون تعديه كقوله دعوتك لزيد
والتقدير يدعوكم الي غفران ذنوبكم وقولهم من ذنوبكم قال السيوطي
من زايدة فان الاسلام يغفر به ما قبله او تبعيضية نظرا لحقوق العباد اي
والمغفور لهم ما بينهم وبين الله تعالي قال الزمخشري
والعاقل لا يجوز له المصير الي جملة من كلام الله تعالي بانها زايدة
من غير ضرورة انتهي وقال في الكشاف ما علمت جاء هكذا الا في
خطاب الكافر كقوله واتقوه واطيعون يغفر لكم من ذنوبكم يا قومنا
اجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم وقالوا في خطاب المؤمن
ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم وغير ذلك مما يعتبر عليه
الاستقرا وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين ولئلا يستوي بين
الفريقين في الميعاد انه قال الرازي واما قول الكشاف فهو
من باب الظلمات لان هذا التبعيض ان حصل فلا حاجة الي ذكر
هذا الجواب وان لم يحصل كان الكلام فاسدا ويؤخركم اي ان لا يفعل
بكم فعل من تهدد ون من الملوك في المعاجلة في الاهلاك كما
خالفهم بل يؤخرهم الي اجل مسمي اي الي وقت قد سماه وبين مقداره
ببلغكم ان اعمارهم آخذ بها والاعاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت

ان انتم الا انتم قان قيل ليس قال تعالى فاذا جاء اجلهم لا يستاخرون
ساعة ولا يستقدمون فكيف قاله هنا ويوخركم الى اجل مسمى اجيب
بان الاجل على قسمين معلوم ومجهول قالوا اي الامم مجيبين للرسل
ان اي ما انتم ايها الرسل الا بشر مثلنا اي لا تفضلون علينا فلم تخصون
بالنبوة دوننا ولو اراد الله تعالى الى البشر رسولا لارسل الينا ملكا منا
اي نحن البشر في زعم القائلين افضل وتقول الكفار وهم الملائكة
جار على مذهبهم تريدون ان تصدونا عما كان يعبد اباؤنا اي
ما تريدون بقولكم هذا الا صدنا عن الهتنا التي كان اباؤنا يعبدونها
فاتونا بسلطان مبين اي بحجة ظاهرة على صدقكم وانما حكى الله
تعالى عن الكفار شبههم تهم في الطعن في النبوة حكى عن الانبياء عليهم
الصلاة والسلام جوابهم عنها بقوله تعالى قالت لهم رسلهم مجيبين
لهم ان اي ما نحن الا بشر مثلكم كما قلتم نسلم ان الامر كذلك
لكنهم بينوا ان التماثل في البشرية لا يمنع من اختصاص بعض
بمنصب النبوة بقولهم ولكن الله يمن اي يتفضل على من يشاء من
عباده بالنبوة والرسالة فيصطفي من يشاء من عباده لهذا
المنصب العظيم الشريف كما قال تعالى الله اعلم حيث يجعل رسالاته
وما كان اي صح واستقام لنا ان ناتيكم بسلطان الا باذن الله
اي الا بامره فلا نحن عبيد مربوبون فليس لنا الاتيان بالايات
ولا تستبد به استقلالا حتى ناتيكم بما اقترحتموه وانما هو امر
متعلق بمشيئة الله تعالى فله ان يخص كل نبي بنوع من الايات
وعلى الله فليتوكل بامر حتم المؤمنون اي ليثقوا به فلا نخاف
سطوتكم ولا نلتفت الى تهديدكم فان نتوكل على الله
واعتمادنا على فضل الله فان الروح متى كانت مشرقة بالمعارف

الالهية مشرقة باضواء علم الغيب فتعالى بالاحوال الجسمانية
وتعالى تقيم لها وزنا في حالتي السراء والضراء فلهذا ان كلوا اعلى
الله وعولوا اعلى تفضله وتطولوا طمعا منهم عن سواه وعميا الامر
للاشارة الى ما يوجب التوكل وقصد وابه انفسهم الاتريي قولهم وما
لنا الا نتوكل على الله اي اي عذر لنا في ان لا نتوكل عليه وقد
هدانا سبلنا اي وقد عرفنا طريق النجاة وبين لنا الوسائل
فان من فاز بشرف العبودية ووصل الى مقام الاخلاص والمكاشفة
يقبح عليه ان يرجع في امر من الامور الى غير الحق وفي هذه الاية
دلالة على ان تعالى يعصم اولياءه والمخلصين في عبوديته عن كيد
اعدائهم ومكرهم وقرا ابو عمرو ليسكنن الباء والباقون بالرفع
وكذلك لنسلكنهم سكن ابو عمرو والحسين ورفعها الباقون ثم قالوا
ولنصبرن على ما اذيتمونا فان الصبر مفتاح الفرج ومطلع الخيرات
والحق لابد وان يصير غالبا قاهرا والباطل لابد وان يصير
مغلوبا مقهورا ثم قالوا وعلى الله فليتوكل المؤمنون فان قيل
اي فرق بين التوكلين اجيب بان الاول للاستعانة والتوكل
والثاني لطلب دوامه اي فليثبت المتوكلون على ما استحقوه
من توكلهم السبب عن ايمانهم ولما حكى الله تعالى عن الانبياء عليهم
السلام انهم اكتفوا في دفع شرور اعدائهم بالتوكل عليه والاعتماد
على حفظه وحياطته حكى عن الكفار انهم بالغوا في السفاهة
بقوله تعالى وقال الذين كفروا لرسلهم مستهينين لما قصدوا
التجائهم اليه لنخرجنكم من ارضنا اي التي لنا الغلبة عليها او
لتعودن في ملتنا اي حلفوا ليكونن احد الامرين اما اخراجهم
ايها الرسل واما عودكم الى ملتنا اي ديننا فان قيل قد ذكر هنا

ظاهره انهم كانوا على ملتهم قبل ذلك اجيب بان العود هنا بمعنى
الصيرورة وهو كثير في كلام العرب كثرة فاشية لا تكاد تسمع يستعملون
صار ولكن عاد ما عدت اراه عاد لا يكلمني ما عاد لفلان مال وقد
اجمعت الامة على ان الرسل من اول الامر انما نشأوا على التوحيد
لا يعرفون غيره ويجوز ان يكون الخطاب لكل رسول ولمن آمن معه
فغلبوا اجماعات على الواحد وقيل او لتعود في ملتنا الى ما كنتم
عليه فتبلوا دعاء الرسالة من السكوت عند ذكر معايبهم وعدم
التعرض له بالطعن والقدح ولما ذكر الكفار هذا الكلام قال
تعالى فاوحى اليهم اي الرسل ربهم وقوله تعالى لنهلكن الظالمين
اي الكافرين حكاية تقتضي اضمار القول او اجرا الايحاء مجرى القول
لانه ضرب منه ولنسكننكم الارض اي ارضهم من بعدهم اي بعد
اهلاكهم ونظيره قوله تعالى واورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون
مشارق الارض ومغاربها وقوله تعالى واورثكم ارضهم وديارهم
قال الزمخشري وعن النبي صلى الله عليه وسلم من اذا جاره
ورثه الله داره قال وقد عاينت هذا في محلة قريبة كان لي بجانبها
بقلة عظيم القرية التي انا فيها ويوذيني فيه فمات ذلك الظالم
وملكني الله ضيعته فنظرت يوما الى اتباع خالي يترددون فيها
ويامرون وينهون فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم
وحمدت الله وسجدت شكرا لله تعالى ذلك اي النصر والوراثة للارض
لمن خاف مقامي اي موقفي وهو موقف الحساب لانه ذلك الموقف
موقف الله الذي يقفه فيه عباده يوم القيمة ونظيره واما من
خاف مقام ربه وقوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان وقيل
ذلك لمن خاف مقامي اي خافني فالمقام مقحم مثل ما قال سلام

على

على المجلس العالي والمراد السلام على فلان وخاف وعيد قال
ابن عباس ما اوعدت من العذاب وهذا يدل على ان الخوف من
الله غير الكون في وعيده لان العطف يقتضي التغاير وبين
قوله تعالى واستفتحوا قولان احدهما طلب الفتح اي واستنصروا
الله على اعدائهم وهو كقوله تعالى ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح والثاني
الفتح الحكم والقضاء اي واستحكموا الله ورسوله القضاء بينهم وهو
ماخوذ من الفتاحة وهي الحكومة كقوله تعالى ربنا افتح بيننا وبين
قومنا بالحق فعلى القول الاول المستفتح هم الرسل لانهم استنصروا
الله وعوا على قومهم بالعذاب لما ايسوا من ايمانهم قال نوح رب
لا تذر على الارض من الكافرين ديارا وقال موسى ربنا اطمس
على اموالهم وقال لوط انصرني على القوم المفسدين وعلى
القول الثاني قال الزجاج فالاولى ان يكون المستفتح هم الامم
وذلك انهم قالوا اللهم ان كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا
ومن قولك كفار قريش اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر
علينا حجارة من السماء وكقول آخرين ائتنا بعذاب الله ان كنت
من الصادقين وخاب اي خسر وهلك كل جبار اي متكبر عن طاعة
الله وقيل هو الذي لا يرى لله احدا وقيل هو المتعظم في نفسه
المتكبر على اقرانه واختلفوا في قوله تعالى عنيد فقال مجاهد
معاند للحق ومجانبه وقال ابن عباس هو الجائر عن الحق وقال
مقاتل هو المتكبر وقال قتادة هو الذي يابى ان يقول لا اله الا
الله وقيل هو المتجبر بما عنده وبما احكم تعالى على الكافر بالخيبة
وصفه بكونه جبارا عنيدا وصف كيفية عذابه بامور الاول
قوله تعالى من ورائه اي امامه جهنم اي هو صائر اليها قال ابو

عبيدة هو من الاضداد وقال الشاعر عسى الكرب الذي امسيت فيه
يكون وراءه فرج قريب ويقال العنا الوتد وراكل احد وقال تعالى
وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا اي امامهم وقال ثعلب
هو اسم لما توارى عنك سواء كان خلفك ام قدامك فمعنى طلاقها
لقطا الوراء على خلف وقدام وقال ابن الانباري وراك بمعنى بعد
قال الشاعر وليس وراء الله للمرء مذهب وبمعنى الاية على هذا
ان الكافر بعد الحياة يدخل جهنم الامر الثاني ماذكره تعالى بقوله
ويسقى اي في جهنم من ماء صديد وهو ما يسيل من جوف اهل النار
مختلطا بالقيح والدم جعل ذلك شرابا لاهل النار وقال محمد بن كعب
هو ما يسيل من فروج الزناة يستاقه الكافر فاذا قتيل علي ثم عطف
ويسقى اجيب بانه عطف على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقى
فيها ما يلقى ويسقى من ماء صديد يتجرعه اي يتكلفان يبتلعه مرة
بعد مرة لمرارته وبشاعته ولا يكاد يسيغه اي ولا يقدر على ابتلاعه
قال الزمخشري دخل كاد للمبالغة بمعنى ولا يقارب ان يسيغه
فكيف تكون الاساغة كقوله تعالى لم يكد يراها اي لم يقرب من رؤيتها
فكيف يراها فان قيل كيف اجمع على هذا الروح بين يتجرعه ولا يكاد
يسيغه اجيب بجوابين احدهما ان المعنى ولا يكاد يسيغ جميعه كأنه
يتجرع البعض وما اساغ الجميع والثاني ان الدليل الذي ذكر
اقتدر على وصول ذلك الشراب في الحلق واستطابة المتجرع
فالكافر يتجرع ذلك الشراب على كراهية ولا يسيغه اي لا يستطيبه
ولا يسيغ به سيغا بمرة واحدة وعلى هذين الوجهين يصح حمل
لا يكاد على نفي المقاربة الامر الثالث ماذكره تعالى بقوله تعالى
ويأتيه الموت اي اسبابه المتنفية له من انواع العذاب من كل

مكان

وقف لازم لان ما بعده كلام مستأنف

فكان اي من سائر الجهات وقيل من كل مكان من جسده حتى من
اصول شعره وابهام رجله وما هو بميت فيستريح وقال ابن جريج هو
تتعلق نفسه عند حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ولا ترجع الى
مكانها من جوفه فتنغص عليه حياة الامر الرابع ماذكره تعالى بقوله
تعالى ومن ورائه اي ومن بين يديه بعد ذلك العذاب عذاب غليظ
اي شديد كل وقت يستقبله اشد مما قبله وقيل هو الخلود في
النار وقيل هو قطع الانفاس وحبسها في الاجساد ولما ذكر تعالى
انواع عذابهم بين بعده ان سائر اعمالهم تصير باطلة ضائعة
وذلك هو الخسران المبين بقوله تعالى مثل اي صفة الذين
كفروا بربهم اعمالهم اي الصالحة كصدقة وصلة رحم وفك اسير
واقراء ضيف وبر والدين في عدم الانتفاع بها كرماد اشتدت به
الريح في يوم عاصف اي شديد هبوب الريح فجعلته هباء منثورا
لا يقدر على شيء مما كسبوا اي الكفار يوم الجزاء مما كسبوا اي
عملوا في الدنيا على شيء اي لا يجدون لشيء منها ثوابا لتقدير شرط وهو
الايمان وقرأ نافع الرياح بالجمع والباقون بالافراد ذلك اشارة
الى ضلالهم مع حسبانهم انهم يحسنون هو الضلال البعيد اي
الخسران الكبير لان اعمالهم ضلت وهلكت فلا يرجى عودها تنبيه
في ارتفاع قوله تعالى مثل اوجه احدها وهو مذهب سيبويه انه
مبتدأ محذوف الخبر تقديره فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا وتكون
الجملة من قوله تعالى اعمالهم كرماد مستأنفة على تقدير سؤال
سائل يقول كيف تمثلهم فقيل اعمالهم كرماد والثاني وهو
مذهب الفراء التقدير مثل اعمال الذين كفروا بربهم كرماد فحذف
المضاف اعتمادا على ذكره بعد المضاف اليه وهو قوله تعالى

اعمالهم كرماد ومثله قوله تعالى ويوم القيمة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة الثالث ان يكون التقدير صفة الذين كفروا اعمالهم كرماد كقولك صفة زيد عمرو عنده معروف ومثاله سيذكره الرابع ان تكون اعمالهم بدلا من قوله مثل الذين والتقدير مثل اعمالهم وقوله تعالى كرماد هو الخبر وقيل غير ذلك وقوله تعالى الم تر اي تنظر خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به امته وكل واحد من الكفرة على الالتفات ان الله خلق السموات على عظمها وارتفاعها والارض على تباعد اقطارها واتساعها وقوله تعالى بالحق اي بالحكمة والوجه الذي يحق ان تخلق عليه مثلهن يخلق ويترحم عن ذلك والكسائي بالياء بعد الخاء وكسر اللام ورفع القاف وخفض الارض والباقون بغير الف بعد الخاء وفتح اللام والقاف ونصب الارض ان يشأ يذهبكم ايها الناس ويات بدلكم بخلق جديد اطوع منكم رتب ذلك على كونه خالق السموات والارض استدل لانه يعلم فانه من خلق اصولهم وما يتوقف عليه تخليتهم قادر ان يبيد لهم بخلق آخر ولم يمتنع عليه كما قال تعالى وما ذلك على الله بعزيز اي بممتنع فانه قادر بذاته ولا اختصاص له بمقدور دون مقدور من هذا شأنه كان حقيقا ان يومن به ويعبد رجاء ثوابه وخوفا من عقابه بجرم الكبراء ولما ذكر تعالى اصناف عذابه هو آتاء الكفار ذكر عقبه اذ اعمالهم تصير محبطة باطلة ذكر كيفية مجادلتهم عند تمسك اتباعهم بهم وكيفية افتضاحهم عند بقوله تعالى وبرزوا اي الخلق من قبورهم لله جميعا والتعبير فيه وفيما ياتي بالماضي وان كان معناه الاستقبال لتحقق وقوعه لان كل ما اخبر به الله تعالى عنه فهو حق وصدق فكائن لا محالة

تفاد

تفاد كانه قد حصل ودخل في الوجود ونظيره ونادى اصحاب الجنة اصحاب النار تنبيه البروز في اللغة الظهور بعد الاستتار وهو في حق الله تعالى محال فلا بد من تاويله وهو من وجهين الاول انهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون ان ذلك خفي على الله تعالى فاذا كان يوم القيمة انكشفوا لله عند انفسهم وعلموا ان الله تعالى لا تخفى عليه خافية الثاني انهم خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله تعالى وحكمه ثم حكى الله تعالى عنهم ان الضعفا يقولون للرؤساء لقد كنا في الدنيا تقدرون على دفع عذاب الله تعالى عنا بقوله تعالى فقال الضعفا اي الاتباع جمع ضعيف يريد ونه بضعف الراي للذين استكبروا اي المتبوعين الذين تطاولوا الكبر وادعوا انا نستتبعكم بدعوتي تكبروا على الرسل وقوله تعالى انا كنا لكم تبعا يصح ان يكون مصدرا نعت به كما قالوا وعلى اضمار مضاف وان يكون جمع تابع اي تابعين لكم في تكذيب الرسل فكنتم سبب ضلالنا وقد جرت عادة الاكابر بالدفع عن اتباعهم المساعدين لهم على اباطيلهم فهل انتم اي في هذا اليوم مغنون اي دافعون عنا من عذاب الله شيئا من اغنى عنه اذا قام مقامه من شيء فان قيل ما الفرق بين من في عذاب الله ومن في من شيء اجيب بان الاولى للتبيين والثانية للتبعيض كانه قيل هل انتم مغنون عنا بعض شيء هو بعض عذاب الله ويجوز ان يكون للتبعيض مقابا بمعنى هل انتم مغنون عنا بعضي كائن هو بعض عذاب الله وعند هذا حكى الله تعالى عن الذين استكبروا انهم قالوا لو هدانا الله الذي لصفات الكمال لهديناكم اي لو ارشدنا الله تعالى للارشاد نكم ودعوناكم الى الهدى لدعوناكم ولكنه لم يهدنا فضللنا وكنتم لنا تبعا فاضللناكم وما هاهنا الموجب لقولهم

هذا الجزع قالوا سواء علينا اي نحن وانتم اجزعنا ام صبرنا اي مستويا
علينا والصبر والجزع ابلغ من الحزن لان يعبر فيه الانسان عما هو
بصدده ويتطلعه عنه ما لنا من محيص اي مهرب ومعرب مما نحن فيه
من العقاب تنبيه يحتمل ان يكون هذا من كلام المتبوعين وان يكون
كلام العزيزين ويؤيد الثاني ما روي انهم يقولون في النار نقالوا
نجزع فيجزعون فمسافة عام فلا ينفعهم الجزع فيقولون نقالوا
نصبر فيصبرون فمسافة عام فلا ينفعهم الصبر فعند ذلك
يقولون ذلك وقال محمد بن كعب القرظي بلغني ان اهل النار
استغاثوا بالخزنة كما قال الله تعالى وقال الذين في النار لخزنة
جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فردت الخزنة عليهم
ولم تك تاتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قد ردت الخزنة عليهم
ادعوا وما دعاء الكافرين الا في ضلال قلما يئسوا منها عند
الخزنة نادوا يا مالك ليقض علينا ربك سالوا الموت فلم يجبهم
بما بين سنة والسنة ثلاثمائة وستين يوما واليوم كالف
سنة مما تعدون ثم يجيبهم بقوله انكم ماكثون فلما يئسوا منها
عنده قال بعضهم لبعض ذلك ولما ذكر تعالى المناظرة التي
وقعت بين الرؤساء والاتباع من كفرة الانس اردفها بالمناظرة
التي وقعت بين الشيطان وبين اتباعه بقوله تعالى وقال
الشيطان الذي هو اول المتبوعين من الضلال ورأس المضلين
والمستكبرين لما قضي الامر اي احكم وفرغ منه وادخل اهل الجنة
الجنة واهل النار النار اخذ اهل النار في لوم ابليس وتقريعه
وتوبيخه فيقوم فيهم خطيبا قاما متاثل يوقف لم منبر من نار فيحتج
اهل النار اليه يلومونه فيقول لهم ما اخبرا الله تعالى بقوله ان الله

وعدكم

وعدكم وعد الحق اي بالبعث والجزاء على الاعمال ووعدتكم اي الجنة والنار
والحشر والحساب فاخلفتكم اي الوعد فلم اقل شيئا الا كان زينا
فلا تجعلوني مع كوني في عدوكم وتركتكم وربكم وهو وليكم تنبيه في الاية
اضمار من وجهين الاول ان التقدير ان الله وعدكم وعد الحق فصدقكم
كما تقدم تقريره ووعدتكم فاخلفتكم وحذف ذلك لدلالة الحال
على صدق ذلك الوعد لانهم كانوا شاهدوه وعاينوه وليس وراء العيان
بيان ولانه ذكر في وعد الشيطان الاخلاف فدل ذلك على الصدق
في وعد الله تعالى الثاني ان تقول ووعدتكم فاخلفتكم الوعد
يقتضي مفعولا ثانيا وحذف هذا للعلم به والتقدير ووعدتكم
ان لا جنة ولا نار ولا حشر ولا حساب كما تقرر ولما بين عز وجه بتلك
الدلائل القاطعة اعترافهم زيادة في تبكيتهم فقال وما كان لي عليكم من
سلطان اي سلطان ما من زيدت اي قوة وقدرة فاقهركم على الكفر
والمعاصي والجاءكم على ما ابغي وقوله الا ان دعوتكم استثناء
منقطع قال النحويون لان الدعاء ليس من جنس السلطان فمعناه
لكن دعوتكم فاستجبتم لي بمجرد الشهوات لان النفس تدعو الى
هذه الاحوال الدنيوية ولا تصور كيفية السعادات الاخروية
والكمالات النفسانية والله يدعو اليها ويرغب فيها كما قال
والاخرة خير وابقى قال الرازي وعندي انه يمكن ان يقال كلمة لا
ههنا استثناء حقيقي لان قدرة الانسان على حمل الغير على
عمل من الاعمال ثلاثة يكون ذلك بالعنف والقسر وثانية يكون بتقوية
الداعية في قلبه بالقاء الوساوس اليه فهذا النوع من انواع التسليط
انتفى ثم قال لهم فلا تلوموني اي لان ما كان مني الا الدعاء والقاء
الوسوسة ولوموا انفسكم لانكم سمعتم دلائل الله تعالى وحججه

الرسل فكان من الواجب عليكم ان لا تلتفتوا الي قولي ولا تسمعوا قولي فكان يجب عليكم قبول قولي علي الدلايل الظاهرة كان اللوم بكم اولي باجابتي وصنا بقيتي من غير حجة ولا دليل فان قيل لم قال الشيطان فلا تلوموني ولوموا انفسكم والجواب بسبب اقدامه علي تلك الوسوسة الباطلة اجيب بانه اراد ان لا تلوموني علي فعلكم ولوموا انفسكم عليه لانكم عدلتم عما ترجه من هداية الله تعالي ثم قال تعالي حكاية عن الشيطان انه قال **ما انا بمصرخكم** اي بمغيثكم فيما لم يخلصكم من العذاب فان يلصراخكم منه **وما انتم بمصرخي** اي بمغيثيني فيما يخلصني منه وقرا حمزة بفتح الياء مع التشديد وقرا حمزة بكسر الياء مع التشديد علي الاصل في التقاء الساكنين لان ياء الاعراب ساكنة دايما المتكلم اصلها السكون فلما التقيا كسرت لالتقاء الساكنين قال البيضاوي وهو اصل مرفوض في مثله لما فيه من اجتماع يائين وثلاث كسرات مع كراهة الاضافة التي فقوله اصل مرفوض اي متروك عند الفصحاء والا فهو قراة متواترة عند القراء فيجب المصير اليها لانها وردت من رب العالمين علي لسان سيد المرسلين وقول القراء ولعلها من وهم القراء انه قال من سلم منهم من الوهم ممنوع فقد قال ابو حيان هي قراة متواترة نقلها السلف واقتفي اثارهم فيها الخلف فلا يجوز ان يقال فيها انها خطاء او قبيحة او رديئة وقد نقل جماعة من اهل اللغة انها لغة لكن قل استعمالها ونص قطرب علي انها لغة في بني مربوع ونص علي انها صواب ابو عمرو بن العلا لما سئل عنها والقاسم بن معن من وشاء الكوفيين قال الله تعالي حكاية عن الشيطان انه قال **اني كفرت بما اشركتموني من قبل** اي كفرت اليوم بما اشركتموني من قبل هذا اليوم اي في الدنيا

كقوله

كقوله تعالي ويوم القيمة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا وقيل كفرت بما اشركتموني من طاعة الله تعالي وقيل تبرئ منه واستنكاره كقوله انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم روي البغوي بسنده عن عقبة بن عامر عن رسول الله صلي الله عليه وسلم في حديث الشفاعة يقول عيسي ذلك النبي الامي فياتوني فيما ذن الله لي ان اقوم فيثور من مجلسي من اطيب ريح شمها احد حتي آتي ربي فيشفعني ويجعل لي نورا من شعر راسي الي ظفر قدمي ثم يقول الكفار قد وجد المومنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون ما هو غير الشيطان الذي اضلنا فياتونه فيقولون قد وجدنا المومنون من يشفع لهم فمن انت فاشفع لنا فانك اضللتنا فيقوم فيثور في مجلسه اتتن ريح شمها احد فيغفر لهم ويقول عند ذلك ان الله وعدكم وعد الحق الاية قال في الكشاف وقوله **ان الظالمين** اي الكاذبين **لهم عذاب اليم** اي فوقع من كلام الله تعالي ويحتمل ان يكون من جملة قول ابليس وايا ما كان فالله تعالي ما سيقوله في ذلك الوقت ليكون لطفا للسامعين في النظر لعاقبتهم والاستعداد لها لئلا يحل بهم من الوصول اليه وان يتصوروا في انفسهم ذلك المقام الذي يقول فيه الشيطان ما يقول فيتباعدوا ويعملوا ما يخلصهم منه ويتجنبهم ولما بالغ سبحانه وتعالي في شرح حال الاشقيا من الوجوه الكثيرة شرح احوال السعدا وما اعد لهم من الثواب العظيم والاجر الجزيل وذلك ان الثواب منفعة خالصة دايمة مقرونة بالتعظيم فالمنفعة لكونها الهيا الاشارة بقوله تعالي **وادخل الذين امنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار** وكونها دايمة اشير اليها بقوله تعالي **خالدين فيها** وهو حال مقدرة والتعظيم حصل لهم من وجهين احدهما

قوله تعالى باذن ربهم لان تلك المنافع انما كانت تفضلا من الله تعالى
وانعاما والثاني قوله تعالى تحيتهم فيها سلام لان بعضهم يحيي بعضا
بهذه الكلمة والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم والرب
يحييهم العبد بهذه الكلمة كما قال تعالى سلام قولا من رب رحيم وكمل
ان يكون المراد انهم لما دخلوا الجنة سلموا من جميع آفات الدنيا وخسرانها
وفنون الآلام واسقامها وانواع همومها وغمومها لان السلام
مشتق من السلامة ولما شرح سبحانه وتعالى احوال الاشقياء واحواله
السعداء ذكر امثلة يبين احوال هذين القسمين بقوله تعالى الم
تر اي تنظر وخطاب يحتمل ان يكون للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل
معه غيره وان يكون لكل فرد من الناس اي الم تر بعين الانسان
كيف ضرب الله اي المحيط بكل شيء قوله وعملها مثلا سيره بحيث
يعم نفعه والكلمة تقع لمثل قول سائر يشبه فيه حال الثاني
بالاول وبين ذلك بقوله تعالى كلمة طيبة قال ابن عباس واكثر المفسرين
هي لا اله الا الله كشجرة طيبة قال ابن مسعود وانس هي النخلة
وعن ابن عباس هي شجرة في الجنة وعن ابن عمر ان رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال ذات يوم ان من الشجر شجرة مثلها كمثل المؤمن حدثوني ما هي قال عبد الله فوقع الناس في شجر البوادي وكنت
صبيا فوقع في قلبي انها النخلة فاستحييت رسول الله صلى الله عليه
وسلم ان اقولها وانا اصغير القوم ورؤوس فسكتني فلان عمر فانها النخلة
فقال له عمر يا بني لو كنت قلتها لكانت احب الي من حمر النعم
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما النخلة لحكمة في تشبيه الانسان بالنخلة من بين سائر الاشجار ان
النخلة اشبه به منه حيث انها اذا قطع راسها يبست وسائر

الاشجار تشعب من جوانبها بعد قطع راسها وانما تشبه الانسان
بحيث انها لا تحمل الا بالفاح لانها خلقت من فضلة طينة آدم عليه
السلام ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اكرموا عمتكم يعني النخلة ومن
ثمة قال النخلة اصلها ثابت اي في الارض وفرعها اي غصنها
في السماء اي في جهة العلو والصعود ولم يرد الظلة لقولك في الجبل
طويل في السماء فريد اي ارتفاعه وشموخه تؤتي اي تعطي اكلها اي ثمرها
كل حين باذن ربها اي بارادته والحين في اللغة الوقت يطلق على
الكثير والقليل واختلفوا في مقداره فقال مجاهد احد عشر
سنة كاملة لان النخلة تثمر في كل سنة مرة وقال قتادة ستة اشهر
يعني من حين طلعها الى وقت صرامها وقال الربيع كل حين يعني
غدوة وعشيا لان ثمر النخل يوكل ليلا ونهارا وصيفا وشتاء يوكل كل
حاله الجمار والطلع والبلح والخلال والبسر والمنصف والرطب
وبعد ذلك يوكل التمر اليابس الى حين الطري الرطب فهو كلما دام
في كل وقت قال العلماء وجه الحكمة في تمثيل كلمة الاخلاص بالشجرة
لان الايمان ثابت في قلب المؤمن كثبوت اصل هذه الشجرة في الارض
وعمله يصعد الى السماء كما قال تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل
الصالح يرفعه فكذلك فرع هذه عال في السماء وتناله بركته
وثوابه كل وقت فالمؤمن كلما قال لا اله الا الله صعدت الى السماء
وناله بركتها وخيرها وثوابها ومنفعتها ولان الشجرة لا تكون شجرة
الا بثلاثة اشياء عرق راسخ واصل قائم وفرع عال كذلك الايمان
لا يتم الا بثلاثة اشياء تصديق القلب وقول اللسان وعمل بالابدان
ثم نبه تعالى على عظم هذا المثل ليتقبل على تدبره ليعلم المراد منه
فيلزم فقال ويضرب الله اي الذي له الاحاطة الكاملة الامثال

للناس لعلهم يتذكرون اي يتعظون فان في ضرب الامثال زيادة
افهام وتذكير وتصوير للمعاني العقلية بمحصل الفهم التام والوصول
الى المطلوب ولما ذكر مثل حال السعيد اتبعه بمثل حال الشقي فقال
ومثل كلمة خبيثة هي كلمة الكفر كشجرة خبيثة هي الحنظلة وقيل
الثوم وقيل الكشوث بمثلثة في آخره قال الجوهري نبت يتعلق
باغصان الشجر فيمتص عيدانها يضرب به المثل في الارض قال الشاعر
هي الكشوث لا اصل ولا ورق ولا ينمي ولا ظل ولا ثمر وقيل شجرة
الشوك اجتثت اي استوصلت من فوق الارض اي عرقها قريبة منه
ما لها من قرار اي ثبوت اصل ولا عرق فكذلك الكفر باسم تعالى ليس
له حجة ولا ثبات ولا ثمرة وعن عبادة انه قيل لبعض العلماء ما تقول في
كلمة خبيثة فقال ما اعلم لها في الارض مستقرا ولا في السماء مصعدا
الا انك تلزم عنق صاحبها حتى يوافي بها يوم القيمة ولما
وصف سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة في الآية المتقدمة اخبر
بقوله تعالى يثبت الله الذين امنوا بالقول الثابت انه تعالى
يثبتهم بما في الحياة الدنيا اي في القبر وقيل قبل الموت وفي الآخرة
اي يوم القيمة عند البعث والحساب وقيل في القبر على القول
الثاني ولما وصف الكلمة الخبيثة في الاية المتقدمة اخبر بقوله
تعالى ويضل الله الظالمين اي الكفار انه تعالى لا يهديهم للجواب
الصواب ويفعل الله ما يشاء اي ان شاء هدى وان شاء اضل
لا اعتراض عليه روي عن البراء بن عازب ان رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال المسلم اذا سئل في القبر يشهد ان لا اله
الا الله وان محمدا رسول الله فذلك قوله تعالى يثبت الله الذين
امنوا بالقول الثابت وروي عن انس ان رسول الله صلى الله عليه

وسلم

وسلم قال ان العبد اذا وضع في القبر وتولى عنه اصحابه ليسمع قرع
نعالهم اتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول في هذا
الرجل لمحمد صلى الله عليه وسلم فاما المؤمن فيقول اشهد انه عبد الله
ورسوله فيقال له انظر الى مقعدك من النار قد ابدلك الله به مقعدا
من الجنة قال النبي صلى الله عليه وسلم فيراهما جميعا قال قتادة
ذكر لنا انه يفسح له في قبره ثم رجع الى حديث انس قال واما المنافق
والكافر فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل فيقول لا ادري كنت
اقول ما يقول الناس فيه فيقال ما دريت ولا تليت ثم يضرب بمطرقة
من حديد ضربة بين اذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير
الثقلين وعن ابي هريرة رضي الله عنه قال شهدنا جنازة مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما فرغنا من دفنها وانصرف الناس
قال انه الآن ليسمع خفق نعالكم اتاه منكر ونكير اعينهما مثل قدور
النحاس وانيابهما مثل صياصي البقر واصواتهما مثل الرعد فيجلسانه
فيسأله اول ما كان يعبد وعن نبيه فان كان ممن يعبد الله تعالى قال
كنت اعبد الله وبنبي محمد صلى الله عليه وسلم جاءنا بالبينات
والهدى فآمنا واتبعناه فذلك قوله تعالى يثبت الله الذين
آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة فيقال له
على اليقين حييت وعليه مت وعليه تبعث ثم يفتح له باب الى
الجنة ويوسع له في حفرته وان كان من اهل الشك قال لا ادري
سمعت الناس يقولون شيئا فقلته فيقال له على الشك حييت
وعليه مت وعليه تبعث ثم يفتح له باب الى النار ويسلط عليه
عقارب وتنانين لو فتح احدهم في الدنيا ما انبتت شيئا فتنهشه
وتؤمر الارض فتنضم عليه حتى تختلف اضلاعه فسأل الله لنا

الثبات ولو الدنيا ولا حبا بنا في الدنيا واللحقة انه كريم جوادهم انه تعالى عاد الى وصف الكافرين فقال الم تر اي تنظر ببصرك او بقلبك الخطاب ما تقدم الى الذين بدلوا والتبديل جعل الشيء مكان غيره نعمة الله اي التي اسبغها عليهم من كلمة التوحيد ومن جميع النعم الدنيوية والدينية وتيسير القرآن وغير ذلك بان جعلوا مكانه شكرها كفرا وهم يد عون انهم اشكر الناس للاحسان واعلاها هما في الوفا وابعدهم عن الجفا واحلوا اي انزلوا قومهم اي الذين تابعوهم في الكفر باضلالهم اياهم دار البوار اي الهلاك مع ما دعاهم انهم ان به الناس عن الكبار افضلا عن الاهل ردي الجبار في التفسير انهم كفار اهل مكة وقوله تعالى جهنم عطف بيان يصلونها اي يدخلونها ويبس القرار اي المقر الذي وجعلوا لله اي الذين يعلمون بانه لا شريك له في خلقهم ولا في رزقهم لان له الكمال كله اندادا اي شركا وقوله تعالى ليضلوا عن سبيله اي دين الاسلام فيه قراءتان قرأ ابن كثير وابو عمرو بفتح الياء من ضل يضل والباقون بضم الياء من اضل يضل وليس الضلال والاضلال عنهم في اتخاذ الاندادلكن لما كان نتيجته حمل كالغرض والحكمة قال لتنبيه على انه عنهم هذه الانواع الثلاثة من الاعمال القبيحة قال لنبيه صلى الله عليه وسلم قل اي لهم لعلهم انهم لا يشكون في ذلك وانا عاندوا تمتعوا ايها كفرة قليلا فان مصيركم اي مرجعكم الى النار في الاخرة ولما امر الله تعالى الكافرين على سبيل التهديد والوعيد بالتمتع بنعيم الدنيا امر المؤمنين بترك التمتع بالدنيا والمبالغة في المجاهدة بالنفس والمال بقوله تعالى قل لعبادي فوصفهم بالايمان وعابهم واضافهم الى ضميره الشريف تحبيبا لهم فيه ثم اتبع هذا الوصف ما ينبيء عن سببه من مدحهم لسببهم بقوله تعالى الذين امنوا اي اوجدوا هذا الوصف

يقيموا

يقيموا الصلاة وينفقوا امالزنة قبلهم فيه وجهان احدهما يصح ان يكون جوابا للامر محذوف تقديره قل لعبادي الذين امنوا اقيموا الصلاة وانفقوا يقيموا الصلاة وينفقوا والثاني يصح ان يكون معمولا مقولا لمحذوف فعند اللام اي ليقيموا يصح تعلق القول بهما وانما حسن ذلك ههنا ولم يحسن في قوله تعالى ولا تحسبن نفسك كل نفس اذا احاطت من شيء بحالة اي تتعالى به اي تكثرت به لدلالة قل عليه سرا وعلانية اي ينفقون اموالهم في حالة السر والعلانية وقيل المراد بالسر صدقة التطوع وبالعلانية اخراج الزكاة الواجبة تنبيه في انتصاب سرا وعلانية وجوه احدها ان يكون على الحال اي ذوي سر وعلانية بمعنى محسنين ومعلنين والثاني على الظرف اي وقت سر وعلانية وقائمها عليه المصدر اي انفاق سر وانفاق علانية ولما امرهم تعالى باقامة الصلاة والانفاق اشار الى عدم انتهاء وقته بذلك بقوله من قبل ان يأتي يوم اي عظيم جدا ليس كاليوم من الايام التي تقرفونها لا بيع فيه اي فيشتري المقصر ما يتدارك به تقصيره او فيه يبذل نفسه والخلة اي مخالة اي صداقة تنفع في ذلك اليوم قال سفيان قتل انما هو يوم لا بيع فيه ولا شراء ولا مخالة ولا قرابة كما قال تعالى اتقوا اموالكم في الدنيا حتى تجدوا ولي ثواب ذلك الانفاق في ذلك اليوم الذي لا يحصل فيه مبايعة ولا مخالة ونظير هذه الاية قوله تعالى في سورة البقرة لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة فان قيل كيف نفى تعالى المخالة في هاتين الايتين مع انه تعالى اثبتها في قوله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين اجيب بان الاية الدالة على نفي المخالة محمولة على نفي المخالة بسبب سبل الطبع ورغبة النفي والاية الدالة على حصول المخالة المحاصلة بسبب هبوبية الله تعالى

باجابة دعائي **اجعل هذا البلد** اي مكة **آمنا** اي ذا امن وقد اجاب
الله تعالى دعاءه فجعله حرما لا يسفك فيه دم انسان ولا يظلم فيه
احد ولا يصاد صيده ولا يختلى خلاه فان قتل اي فرد بين قوله اجعل
هذا البلد آمنا وبين قوله اجعل هذا البلد اجيب بان المسئول
في الاول ان يجعله من جملة البلاد التي يامن اهلها ولا يخافون
وفي الثاني ان يزيل عنها الصفة التي كانت حاصلة لها وهي كونها
بحيث لم تكن تلك الصفة وهي الامن فانه قال هو بلد بحيث فاجعل
آمنا فانه تعالى كيف اجاب الله تعالى دعاءه مع ان جماعة من الجبابرة
قد اغاروا عليها واخافوا اهلها اجيب بوجهين احدهما ان ابراهيم
عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة دعا بهذا الدعاء والمراد
منه جعل مكة آمنة من الخراب وهذا موجود بحمد الله تعالى فلم
يقدر احد على اخراب مكة فان قيل يرد على هذا ما ورد عنه
صلى الله عليه وسلم انه قال يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة
اجيب بان قوله اجعل هذا البلد يعني الى قرب القيمة وخراب
الدنيا وهو علم مخصوص بقصة ذي السويقتين فلا تعارض
بين النصين والجواب الثاني ان المراد جعل اهلها امنين كقوله
تعالى واسال القرية اي اهلها وهذا الجواب عليه اكثر المحققين
وعلى هذا فقد اختص اهل مكة بزيادة الامن في بلدهم كما اخبر
الله تعالى بقوله ويتخطف الناس من حولهم واهل مكة امنون
من ذلك حتى ان من التجا الى مكة امن على نفسه وماله وحتى
ان الوحوش اذا كانت خارجة الحرم استوحشت واذا كانت
داخلة الحرم استانست لعلمها انه لا يهيجها احد في الحرم وهذا
القدر من الامن حاصل بحمد الله بمكة ومن حولها **واجنبني** ابعدني **وبني**

وبني اي عن **ان نعبد الاصنام** اي اجعلني في جانب عن جانب عبادتها
فان نبينا الانبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون فما الفائدة
في قوله اجنبني عن عبادة الاصنام اجيب بانه عليه الصلاة والسلام
انما سال ذلك لنفسه واظهارا للحجة والفاقة الى فضل الله
في كل المطالب وفي ذلك دليل على ان عصمة الانبياء بتوفيق الله
تعالى وحفظه اياهم فان قيل كان كفار قريش من ابنائه مع انهم
كانوا يعبدون الاصنام فكيف اجيب دعاؤه اجيب بان المراد
من كان موجودا حال الدعاء ولا شبهة ان دعوته كانت مجابة فيهم
او ان هذا الدعاء مخصوص بالمومنين من اولاده والدليل عليه
انه قال عليه الصلاة والسلام في آخر الاية فمن تبعني فانه مني
وذلك يفيد ان من لم يتبعه على دينه فانه ليس منه ويقربه قوله
تعالى انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح والصنم ممنوع على خلقة
البشر وما كان ممنوعا على غير خلقة البشر فهو وثن قال الطبري
ولذا ما سيل ابن عيينة كيف عبدت العرب الاصنام فقال ما عبد
احد من بني اسماعيل صنما واحتج بقوله تعالى واجنبني وبني ان نعبد
الاصنام انما كانت اصاب الحجارة لكل قوم قالوا البيت حجر فجئ
لصنا جي فهو بمنزلة البيت فكانوا يدورون بذلك الحجر اي يطوفون
به اسابيع تشبيها بالكعبة وليسوا الدوار بضم الدال المشددة
وقد تفتح قال الجوهري دوار بالضم صنم وقد تفتح فاستحب
ان يقال طاف بالبيت ولا يقال دار بالبيت قال الرازي وهذا
الجواب ليس بقوي لانه عليه الصلاة والسلام لا يجوز ان يريد بهذا
الدعاء الا عبادة يختص اسم الكفر بها كالصنم فبقي ذلك ثم حكى الله تعالى
عن ابراهيم انه قال **رب انهن** اي الاصنام **اضللن كثيرا من الناس**

بعبادتهم لها تنبيه انفق كل الفرق على ان قوله اضللن مجاز لانهما جماد
وجماد لا يعقل غير البتة الا انه لما حصل عند عبادتها ما اضيف اليها كما
تقوله فتنتهم الدنيا وغرتهم اي افتتنوا بها واغتروا بسببها ثم قال
فمن تبعني على التوحيد فانه مني اي فانه على ديني مجتمع بعض تفرط
اختصاصه بي وقربه مني ومن عصاني اي في غير الدين فانك غفور
رحيم وهذا صدر كي في طلب الرحمة والمغفرة لاولئك العصاة واذا
ثبت حصول هذه الشفاعة في حق ابراهيم عليه السلام ثبت حصولها
في حق محمد صلى الله عليه وسلم لانه مامور بالاقتداء به كما قال تعالى
واتبع ملة ابراهيم وقيل ان هذا الدعاء كان قبل ان يعلم ابراهيم انه لا
يغفر الشرك وقيل انك قادر ان تغفر له وترحمه بان تنقله من
الكفر الى الاسلام وقيل المراد من هذه المغفرة انك لا يعاجلهم
بالعقاب فلا يمهلهم حتى يتوبوا قال الرازي واعلم ان هذه الالفاظ
ضعيفة واريتني سائقرارا ولا تنبيه حكى الله تعالى عن ابراهيم
عليه السلام في هذا الموضع انه طلب من الله سبعة امور الاول
طلب من الله تعالى الامان وهو قوله اجعل هذا البلد آمنا المطلوب
الثاني ان يرزقه الله التوحيد ويصونه عن الشرك وهو قوله
واجنبني وبني ان نعبد الاصنام المطلوب الثالث قوله ربنا اني
اسكنت من ذريتي اي بعض ذريتي او ذرية من ذريتي فحذف
المفعول على هذا القول وهم اسماعيل ومن ولد منه فاسكانه
منهن لاسكانهم بواد هو وادي مكة المشرفة لكونه في فضاء
يختطف بين جبال تجري فيه السيول غير ذي زرع اي لا يكون
فيه من الزرع قط فانه مجرى لا ينبت كقوله تعالى قرانا عربيا
غير ذي عوج عند بيتك المحرم اي الذي حرمت التعرض له والتهاون

به وجعلت ما حوله حرما لمكانه اولانه لم يزل ممنعا عن تراميا به كل جبار
كالشيء المحترم الذي حقه ان يجتنب اولانه محترم عظيم الحرمة لا يحصل
انتهاكه اولانه حرم على الطوفان اي منع منه كما سمي عتيقا لانه اعتق
منه فلم يستو زعليه اولانه امر الصابرين اليه ان يحرموا على انفسهم
اشياء كانت تحل لهم من قبل اولانه حرم موضع البيت حين خلق السموات
والارض وحفه بسبعة املاك وهي مثل البيت المعمور الذي بناه آدم
فرفع الى السماء السادسة وروي انه هاجر كانت امة لسارة فوهبتها
لابراهيم عليه السلام فولدت منه اسماعيل فقالت سارة كنت اريد ان
يهب الله لي ولدا من خليله فمنعتنيه وبرزقد خادمتي وغارت عليهما
وقالت لابراهيم بعدها مني وناشدته بالله ان يخرجها من عندها
فنقلها الى مكة واسماعيل رضيع حتى وضعهما عند البيت عند دوحة
فوق زمزم في اعلا المسجد وليس بمكة يومئذ احد وليس بها ماء
فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم
قفى ابراهيم منطلقا فتبعته ام اسماعيل وقالت يا ابراهيم اين
تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه انيس ولا شيء فقالت
له ذلك مرارا وهو لا يلتفت اليها فقالت له الله امرك بهذا قال نعم
قالت اذا لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق ابراهيم حتى اذا كان عند الثنية
حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع
يديه وقال ربنا اني اسكنت من ذريتي حتى بلغ يشكرون ورجعت ام
اسماعيل ترضعه وتشرب من ذلك الماء حتى اذا نفد ما في
السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر اليه يتلوى او قالت
يتلبط فانطلقت كراهية ان تنظر اليه فوجدت الصفا اقرب جبل
في الارض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى

من احد فلم تراحدا فعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس قال النبي
صلى الله عليه وسلم فلذلك سعي الناس بينهما فلما اشرفت على المروة
سمعت صوتا فقالت صه تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت ايضا فقالت
قد اسمعت ان كان عندك غواث فاذا بي بالملك عند موضع زمزم
فبحث بعقبه او قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول
بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد
ما تغرف قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم يرحم الله
اسماعيل لو تركت زمزم او قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم
عينا معينا قال فشربت وارضعت ولدها فقال الملك لا تخافوا
الضيعة فان ههنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وابوه وان الله لا يضيع
اهله وكان البيت مرتفعا من الارض كالرابية ياتيه السيل فياخذ
عن يمينه وشماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم او
اهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا في اسفل مكة
فنظروا طائرا فقالوا ان الطائر ليدور على الماء لعهدنا بهذا
الوادي وما فيه ماء فارسلوا جريا او جريين فاذا هم بالماء فرجعوا
فاخبروهم فاقبلوا وام اسمعيل عند الماء فقالوا اتاذن لنا ان
ننزل عندك فقالت نعم ولكن لا حق لكم في الماء قالوا نعم قال ابن
عباس قالت ذلك ام اسمعيل وهي تحب الانس فنزلوا وارسلوا
الى اهليهم فنزلوا معهم حتى اذا كان بها اهل ابيات منهم وشب
الغلام وتعلم العربية منهم وانفسهم واعجبهم حتى شب فلما ادرك
زوجوه امراة منهم وماتت ام اسمعيل فجاء ابراهيم بعد ترده
اسمعيل وتقدم تمام هذه القصة في سورة البقرة ثم قال ربنا
ليقيموا الصلاة اللام لام كي متعلقة باسكنت اي ما اسكنتهم

بهذا

الوادي المقفر الذي لا شيء فيه الا لاقامة الصلاة عند بيتك المحرم
ويعمروه بذكرك وعبادتك وما تعمر به مساجدك ومتعبداتك
متركبين بالبقعة التي سرفتها على البقاع مستعبدين بجوارك الكريم
متقربين اليك بالعكوف عند بيتك والطواف به والركوع والسجود
حوله مستنزلين الرحمة التي انزلت بها سكان حرمتك وتكريرا لدعاء
ويؤيد للاشعار بانهم المقصود بالذات من اسكانهم هناك والمقصود
من الدعاء توفيقهم لما فاجعل افئدة اي قلوبا محترقة بالاشواق
من الناس ومن للتبعيض بالمعنى واجعل افئدة بعض الناس تهوي
اي تميل اليهم ويدل عليه ما روي عن مجاهد لو قال افئدة الناس
لزحمتكم عليه فارس والروم والترك والهند وقال سعيد بن جبير
لو قال افئدة الناس لحجت اليهود والنصارى والمجوس ولكنه قال
افئدة من الناس فهم المسلمون وقال ابن عباس لو قاله افئدة الناس
لحنت اليه فارس والروم والناس كلهم ولكنه دعا لهم بالدون دعا لهم
بالرزق فقال وارزقهم من الثمرات ولم يقل وارزقهم الثمرات وذلك
يدل على ان المطلوب بالدعاء ايصال بعض الثمرات اليهم ويحتمل ان يكون
المراد بايصال بعض الثمرات اليهم ايصالها عليهم على سبيل التجارات
كما قال تعالى يجبى اليه ثمرات كل شيء حتى توجد فيه الفواكه الصيفية
والربيعية والكرمية في يوم واحد وليس ذلك من هذه الآية ببعيد
وان لم يكن المراد هذا فالقرى بالقرب منها لتحصيل تلك الثمار وعن
ابن عباس رضي الله عنهما انه قال كانت الطائف من ارض فلسطين
فلما قال ابراهيم ذلك رفعها الله فوضعها حيث وضعها رزقا للحرم
لعلهم يشكرون يدل على ان المقصود للعاقل من منافع الدنيا
ان يتفرغ لاداء العبادات واقامة الطاعات فان ابراهيم عليه السلام

بين انه انما طلب تيسير المنافع على اولاده الا لاجل ان يتفرغوا
لاقامة الطاعات واداء الواجبات ولما طلب عليه السلام من
الله تعالى تيسير المنافع لاولاده وتسهيلها عليهم ذكر انه
لا يعلم عواقب الاحوال وغايات الامور في المستقبل فانه تعالى
هو العالم بها والمحيط باسرارها فقال ربنا انك تعلم ما نخفي
اي نسر وما نعلن وهذا هو المطلوب والرابع والمعنى انك
اعلم باحوالنا ومصالحنا ومفاسدنا مما قبل ما نخفي من الوجد
بسبب حصول الفرقة بيني وبين اسماعيل وما نعلن من
البكاء وقيل ما نخفي من الحزن الممكن في القلب وما نعلن
يريد ما جرى بينه وبينهاجر حين قالت له عند الوداع
الى من تكلنا قال الى الله الكلكم قالت الله اعرف بهذا قال
نعم اذا لا يضيعنا واختلف في قوله تعالى وما يخفى على الله
من شيء في الارض ولا في السماء فقيل من تتمة قول
ابراهيم عليه السلام يعني وما يخفى على الله الذي هو
عالم الغيب من شيء اي شيء كان والاكثرون على انه
من قول الله تعالى تصديقا لابراهيم فيما قال كقوله تعالى
وكذلك يفعلون وكلمة من تفيد الاستغراق كانه
قيل وما يخفى عليه شيء قال ثم ان ابراهيم عليه السلام
ما دعا به اتبعه الحمد على ما رزقه من النعمة بقوله تعالى
الحمد لله اي المستجمع لصفات الكمال الذي وهب لي
اي اعطاني على الكبر اي وهب لي وانا كبير آيس من
الولد فيه الهبة بحال الكبر استعظاما للنعمة واظهارا
لما فيه من المعجزة اسماعيل واسحاق وهذا ذلك السن

غير

على معلوم من القرآن وانما يرجع فيه الى الروايات فقال
ابن عباس ولد اسماعيل لابراهيم وهو ابن تسع وتسعين
سنة وولد له اسحاق وهو ابن مائة وابنتي عشرة سنة
فان قيل ان ابراهيم عليه السلام انما ذكر هذا الدعاء
عند ما اسكن اسماعيل وامه في ذلك الوادي وفي ذلك الوقت
ما ولد اسحاق فكيف يمكنه ان يقول ذلك اجيب بان هذا
يقتضي ان ابراهيم انما ذكر هذا الكلام فيمن من آخر لاعقب
ما تقدم من الدعاء قال الرازي ويمكن ايضا ان يقال انه
عليه السلام انما ذكر هذا الدعاء بعد كبر اسماعيل وظهور
اسحاق وان كان ظاهر الروايات بخلافه انتهى تنبيه
قوله على الكبر بمعنى مع كقوله اني على ما ترين من كبر سني
اعلم من حيث يوكل الكتف وهو في موضع الحال ولما
ذكر الدعاء على سبيل التمني والتعريض لا على وجه الافصاح
والتصريح قال ان ربي اي المحسن الي سميع الدعاء اي لمجيبه
فان قيل الله يسمع كل دعاء اجابه او لم يجبه اجيب بان هذا
من قولك سمع الملك كلامي اذا اعتد به وقبله وعنه سمع
الله لمن حمده المطلوب الخامس من قوله رب اجعلني مقيم
الصلاة اي معدا لها مواظبا عليها تنبيه في الاية دليل
على ان افعاله العباد مخلوقة لله تعالى لانه قول تعالى حكاية عن
ابراهيم عليه السلام واجنبني وبني ان نعبد الاصنام يدل
على ان تركه الممنيات لا يحصل الا من الله تعالى وقوله رب
اجعلني مقيم الصلاة يدل على ان فعل المامورات لا يحصل
الا من الله تعالى وذلك تقريع بان ابراهيم عليه الصلاة والسلام

كان حصرا على ان الكلام من الله تعالى وقوله ومن ذريتي عطف
على المنصوب في اجعلني اي واجعل بعض ذريتي كذلك لان
كلمة من في قوله ومن ذريتي للتبعيض لانه علم باعلام الله
تعالى انه يكون في ذريته جمع من الكفار وذلك قوله تعالى
لا ينال عهدي الظالمين المطلوب السادس انه عليه الصلاة
والسلام لما دعا الله تعالى في المطالب المذكورة دعا الله
تعالى في ان يتقبل دعاءه فقال ربنا وتقبل دعاء قال
ابن عباس يريد عبادتي بدليل قوله تعالى واعتزلكم وما
تدعون من دون الله وقيل دعائي المذكور المطلوب السابع
قوله ربنا اي ايها المالك لامورنا المدبر لنا اغفر لي فان قيل
انه طلب المغفرة انما يكون بعد سابقة ذنب اجيب بان
المقصود من ذلك الالتجاء الى الله تعالى وقطع الطمع الا من
تفضله وكرمه ورحمته ثم اشرك معه اقرب الناس اليه
واحقهم شكره فقال ولوالدي فان قيل كيف جاز ان
يستغفر لوالديه وكانا كافرين اجيب بوجوه الاول ان المنهي
عنه لا يعلم الا بتوقيف فلعله لم يجد منه منعا وظن كونه
جائزا الثاني اراد بوالديه آدم وحواء الثالث كان ذلك بشرط
الاسلام وقارب بعضهم كانت امه مؤمنة ولذلك خصها باه
بالذكر في قوله فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه ثم عاد ممن
تبعه في الدين من ذريته وغيرهم بقوله وللمؤمنين اي الفريقين
في هذا الوصف يوم يقوم اي يبدو ويظهر الحساب وقيل اراد
يوم يقوم الناس فيه للحساب فاكتفى بذكر الحساب لكونه
مفهوما عند السامع وهذا دعا للمؤمنين بالمغفرة

والله

والله تعالى لا يرد دعا خليله ابراهيم عليه السلام وفيه بشارة
عظيمة للمؤمنين بالمغفرة فنسأل الله تعالى ان يغفر لنا ولوالدينا
ولمشايخنا ولاحبابنا ولمن نظر في هذا التفسير ودعا لمن
كان سببا في المغفرة ولما بين تعالى دلائل التوحيد ثم حكى
عن ابراهيم عليه السلام انه طلب من الله تعالى ان يصونه
عن الشرك وطلب منه ان يوفقه للاعمال الصالحة وان
يخصه بالرحمة والمغفرة في يوم يقوم تعالى مخاطبا لنبيه صلى
الله عليه وسلم ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون
لان الغفلة معنى يمنع الانسان عن الوقوف على حقايق
الامور وقيل حقيقة الغفلة سهو يعتري الانسان منه
قلة التحفظ والتيقظ وهذا في حق الله تعالى محال والمقصود
من ذلك التنبيه على انه ينتقم من المظلوم من الظالم ففيه
وعيد وتهديد للظالم واعلام له بانه لا يعامله معاملة
الغافل عنه بل ينتقم منه ولا يتركه مغفلا عنه وعن مجازاته
ابن عيينة فيه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم وقيل لهذا
من قاله فغضب وقال انما قاله من علمه فانه قيل كيف يليق
بصلى الله عليه وسلم ان يحسبن الله موصوفا بالغفلة وهو
اعلم الناس به اجيب بوجوه الاول ان المراد به التثبت على
ما كان عليه من انه لا يحسب الله غافلا كقوله لا تدع مع الله
الها آخر والثاني ان المقصود منه بيان انه لو لم ينتقم لكان
عدم الانتقام لاجل غفلته عن ذلك الظلم والثالث ان
المراد ولا تحسبنه معاملهم معاملة الغافل عما يعملون
ولكنه معاملة الرقيب عليهم المحاسب على النقير والقطمير

والرابع ان يكون هذا الكلام كان خطابا مع النبي صلى الله عليه
وسلم في الظاهر الا انه يكون في الحقيقة خطابا مع الامة ثم
بين تعالى انه انما يؤخرهم اي عذابهم ليوم توصف بخمس صفات
الصفة الاولى قوله تعالى تشخص فيه الابصار اي ابصارهم لاتقر
مكانها من هول ما ترى في ذلك اليوم الصفة الثانية قوله
مهطعين اي مسرعين الي الداعي او مقبلين بابصارهم لا
يطرفون هيبة وخوفا وقيل انهم مطلع بخاضع الذليل
الساكن الصفة الثالثة قوله تعالى مقنعي رؤسهم اي رافعي
اذ الاقناع رفع الراس الي فوق فاهل الموقف من صفتهم
انهم رافعوا رؤسهم الي السماء وهذا بخلاف المعتاد لان من
يتوقع البلا يطرق بصره الي الارض وقال الحسن وجوه الناس
يوم القيمة الي السماء لا ينظر احد الي احد والصفة الرابعة قوله
تعالى لا يرتد اليهم طرفهم اي بل تبقى عيونهم شاخصة
لا يطرفون بعيونهم ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحرك
للاجفان قد شغلهم ما بين ايديهم الصفة الخامسة قوله تعالى
وافئدتهم اي قلوبهم هواء اي خالية من العقل لفرط الحيرة والدهشة
وقال قتادة خرجت قلوبهم عن صدورهم فصارت في حناجرهم
فلا تخرج من افواههم ولا تعود الي اماكنها شبه اختلاطها في
وقت حصول هذه الصفات وقيل انما عدد انما سبعة بدليل
الله تعالى انما ذكر هذه الصفات عقب وصف ذلك باليوم
يقوم الحساب وقيل انما تحصل عند ما يتميز فريق عن فريق
فالسعداء يذهبون الي الجنة والاشقياء الي النار وقيل يحصل
عند اجابة الداعي والقيام من القبور قال الرازي والاول

اولي

اولي وانذر الناس يا محمد اي خوفهم يوم القيمة وهو قوله تعالى يوم
يأتيهم العذاب اي الذي تقدم ذكره وهو شخوص الابصار هم
وكونهم مهطعين مقنعي رؤسهم فيقول الذين ظلموا اي كفروا
ربنا اخرنا اي ياخر نزدنا الي الدنيا الي اجل قريب اي امهد
واحد من الزمان قريب نجب دعوتك اي بالتوحيد ونتدارك
لما فرطنا فيه ونتبع الرسل فيما يدعوننا اليه فيقال لهم توبيخا
اولم تكونوا اقسمتم اي حلفتم من قبل في الدنيا ما لكم والكلام
التفاتي بقوله من زوال اي ما لكم عما انتم فيه من النعيم ولا بعث ولا
نشور كما قال تعالى في اية اخري واقسموا بالله جهد ايمانهم
لا يبعث الله من يموت وكانوا يقولون لا زوال لنا من هذه الحياة
الي حياة اخري وبعد هذه الدار الي دار المجازاة لانهم كانوا ينكرون
ان يزول عن حياة الي موت او عن شباب وهرم او عن غني الي
فقر ثم الله تعالى زادهم توبيخا آخر بقوله تعالى وسكنتم في
الدنيا في مساكن الذين ظلموا انفسهم بالكفر من الامم
السابقة وتبين لكم كيف فعلنا بهم اي وظهر لكم بما تشاهدون
في مساكنهم من اثار ما نزل بهم وما توارثتم عنهم من اخبارهم
وضربنا وبينا لكم الامثال في القرآن اي عاقبتهم عادت الي
الوبال والحزن والنكال بما يعلم به انه قادر علي الاعادة كما
قدر علي الابتداء وقادر علي التعذيب المؤجل كما يفعل المعاجل
المعجل وذلك في كتاب الله تعالى كثير ولما ذكر تعالى صفة
عقابهم اتبعه بذكر كيفية مكرهم بقوله تعالى وقد مكروا مكرهم
اي الشديد العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم واختلف في عود
الضمير في مكرهم علي وجوه الاول انه يعود الي الذين سكنوا

في مساكن الذين ظلموا انفسهم لان الضمير يعود الى اقرب مذكور
والثاني الى قوم محمد صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى واذ
اليك يا محمد الناس وقد مكر قومك مكرهم وذلك المكر هو الذي
ذكره الله تعالى في قوله واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك او
يقتلوك او يخرجوك وعند الله مكرهم اي ومكرهم عند الله
فعلمهم فهو مجازاتهم عليه بمكر هو اعظم منه وقيل ان مكرهم لا يزيل
امر محمد صلى الله عليه وسلم الذي هو ثابت كثبوت الجبال وقد
حكي عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه في الاية قولا آخر وهو
انها نزلت في نمرود الجبار الذي حاج ابراهيم في ربه فقال
نمرود ان كان ما يقول ابراهيم حقا فلا انتهي حتى اصعد الى السما
فاعلم ما فيها ثم امر نمرود صاحبه فاتخذ لنفسه تابوتا وجعل
له بابا من اعلاه وبابا من اسفله وربط قوائمه الاربع باربعة
نسور وكان قد جوعها ورفع فوق اجوائب الاربع من التابوت
عصيا اربعة وعلق على كل واحدة منها قطعة لحم ثم انه جلس
مع صاحبه في ذلك التابوت فلما ابصرت النسور تلك اللحوم
تقاعدت في جو السما فطارت يوما حتى بعدت في الهوا فقال
نمرود لصاحبه افتح الباب الاسفل وانظر الى الارض كيف
تخمل فقال ارى الارض مثل اللجة والجبال مثل الدخان
قال فطارت النسور يوما اخر وارتفعت حتى حالت الريح
بينها وبين الطيران فقال نمرود لصاحبه افتح الباب الاعلى
ففتح فاذا السما كهيئتها وفتح الباب الاسفل فاذا الارض
سوداء مظلمة ويؤدي ايما الطاغي اين تريد قال عكرمة كان في
التابوت غلام قد حمل القوس والنشاب فرمى بسهم فعاد

اليهم

اليهم الى السهم ملطخا بالدم بدم سمكة قد نتن نفسها من بحر في الهوا
وقيل طار اصابه السهم فقال كفيت اله السما فنكس تلك
العصا التي علق عليها اللحوم فشغلت النسور وهبطت الى
الارض فسمعت الجبال حفيق التابوت والنسور وفزعت
وظنت ان قد حدث حدث في السماء وان القيمة قد قامت
فكادت تزول عن اماكنها فذلك قوله تعالى وان كان مكرهم اي
من القوة والضخامة لتزول منه الجبال قال الرازي ولا حاجة
في تاويل الاية الى هذا فانه لم يجي فيه خبر صحيح معتمد الله فالمراد
بالجبال هنا قيل حقيقتها وقيل سرايا الاسلام المشبهة بها في
القرار والثبات وقرا الكسائي بفتح اللام الاولى ورفع الاخيرة
والباقون بكسر الاولى وفتح الثانية والتقدير على القراة الاولى
وان كان بحيث ان تزول منه وقيل ان نافية واللام لتاكيد
النفي فلا تحسبن الله الخطاب له صلى الله عليه وسلم والمراد
امته مخلف وعده رسله من النصر واعلا الكلمة واظهار
الدين كما قال تعالى انا لننصر رسلنا وقال تعالى كتب الله لاغلبن
انا ورسلي فان قيل هلا قال مخلف وعده رسله ولم قدم
المفعول الثاني على الاول اجيب بانه تعالى قدم ذلك ليعلم
انه لا يخلف الوعد اصلا كقوله تعالى ان الله لا يخلف الميعاد
ثم قال رسله ليدل به على انه تعالى لم يخلف وعده احدا
وليس من شانه اخلاف المواعيد فكيف يخلف رسله الذين هم
خير ته وصفوته ان الله اي ذا الجلال والاكرام عزيز اي
غالب لا يقدر ولا يقدر عليه ذو انتقام اي ممن عصاه وقوله تعالى
يوم تبدل الارض غير الارض بدل من يوم ياتيهم او ظرف

ت

للانتقام والمعنى يوم تبدل هذه الارض التي نعرفها ارضا اخرى
غير هذه المعروفة وقوله تعالى والسموات عطف على الارض
وتقديره والسموات عن السموات والتبديل التغيير وقد يكون
في الذوات كقوله بدلت الدراهم والدنانير ومنه بدل لناهم جلودا
غيرها وبدلناهم بجنتيهم جنتين وفي الاوصاف كقوله بدلت
الحلقة خاتما اذا اذبتها وسويتها خاتما فتعقلتها من شكل الى
شكل اخر ومنه قوله تعالى فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات
والاية محتملة لكل واحد من هذين المعنيين وعن ابن عباس
رضي الله عنهما في تلك الارض وانما تغير وتسير
وهي الناس بالناس الذين عهدتم ولا الدار بالدار التي كنت
تعلم فتبدل اوصافها فتسير عن الارض جبالها وتفجر بحارها
وتستوي فلا ترى فيها عوجا ولا امتا وتبدل السماء بانشقاق
كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها
ابوابا وقد دل لذلك قوله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم
القيمة على ارض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها علم
لاحد اخرجاه في الصحيحين العفراء البياض المشوبة وبي
البيضاء الى حمرة ولهذا تشبهها بالقرصة النقي وهو اجود
الابيض الجيد الفائق المائل الى الحمرة وقوله ليس فيها
علم لاحد يعني ليس فيها علامة لاحد لتبديل هيئتها وصفتها
وزوال جبالها وجميع بنائها فلا يبقى فيها امر يستدل به
وعن ابن مسعود انه قال تبدل الارض بارض كالفضة البيضاء
نقية لم يسفك فيها دم ولم يعمل عليها وقال علي بن ابي طالب
رضي الله عنه الارض من فضة والسماء من ذهب وقال محمد

ابن

ابن كعب وسعيد بن جبير تبدل الارض خبزة بيضاء يأكل المؤمن
من تحت قدميه وعن الضحاك البياض من فضة كما لهيا اليك وعن
عائشة رضي الله عنها قالت سألت رسول الله صلى الله عليه
وسلم عن هذه الاية فاين تكون الناس يومئذ يا رسول الله
فقال على الصراط اخرجه مسلم وروى ابو داود الطيالسي من حديث ابن المهدي
سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم اين تكون الناس يوم تبدل
الارض غير الارض قال هم في الظلمة دون الجسر قال الرازي
واعلم انه لا يجب ان يقال المراد من تبديل الارض والسموات
هو انه تعالى يجعل الارض جهنم والسموات الجنة والدليل عليه
قوله تعالى كلا ان كتاب الابرار لفي عليين وقوله تعالى كلا
ان كتاب الفجار لفي سجين وبرزوا اي خرجوا من قبورهم
لله اي لحكمه والوقوف بين يديه للحساب الواحد الذي
لا شريك له القهار اي الذي لا يدافع عن مراده كما قال
تعالى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار وانما وصف نفسه
سبحانه وتعالى بكونه قهارا بعد كونه مجرما وذلتهم بقوله تعالى وترى
المجرمين اي تبصر المجرمين اي الكافرين يومئذ اي يوم القيمة
وذكر تعالى من صفات مجرميهم وذلتهم امورا الصفة الاولى قوله
تعالى مقرنين اي مشدودين فيها الاصفاد جمع صفد وهو القيد
قال الكلبي كل كافر مع شيطان في غل وقال عطا هو معنى
قوله تعالى واذا النفوس زوجت اي قرنت فتقرن نفوس
المؤمنين بنفوس الحور العين ونفوس الكافرين بقرنائهم من
الشياطين وقيل هو قرن بعض الكفار ببعض فتضم تلك
النفوس الشقية والارواح المدلهمة الظلمانية بعضها الى بعض

لكونهما متشاكلة متجانسة وتنادي ظلمة كل واحدة منها الى الاخرى وقال
ابن زيد قرنت ايديهم وارجلهم الى رقابهم بالاغلال الصفة الثانية قوله تعالى
سرابيلهم اي قمصهم جمع سربال وهو القميص من قطران وهو شي يتحلب
من شجر يسمى الابهل فيطبخ وتطلى به الابل الجرب فيحرق الجرب بحرارته
وحدته وقد تصل حرارته الى داخل الجوف ومن شانه ان يتسارع
فيه اشتعال النار وهو اسود اللون منتن الريح فتطلى به جلود
اهل النار حتى يصير ذلك الطلا كالسرابيل فيحصل بسببها اربعة
انواع من العذاب لذع القطران وحرقته واسراع النار في جلودهم
واللون الوحش ونتن الريح وايضا التفاوت بين النارين الصفة
الثالثة قوله تعالى وتغشى اي تعلو وجوههم النار ونظيره قوله
تعالى افمن يتقي بوجهه سوء العذاب وقوله تعالى يوم يسحبون في
النار على وجوههم ولما كان موضع العلم والجهل هو القلب وموضع
الفكر والوهم هو الراس واثر هذه الاحوال تظهر في الوجه
فلهذا خص الله تعالى هذه الاعضاء بظهور اثار العقاب فيها
فقال في القلب نار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة وقال
في الوجه وتغشى وجوههم النار وقوله تعالى ليجزي الله متعلق
ببرزوا كل نفس ما كسبت اي من خير او شر وهذا اولى من قول
الواحدي المراد منه انفس الكفار لان ما سبق ذكره لا يليق
ان يكون جزاء ولما كان حساب كل نفس جديرا بان يستعظم
قال ان الله سريع الحساب اي لا يشغله حساب نفس عن حساب
نفس اخرى ولا شان عن شان وقوله تعالى هذا اشارة الى القران
الذي يخرج الناس من الظلمات الى النور نزل منزلة الحاضر وقيل
الى السورة بلاغ اي كاف في غاية الكفاية في الايصال للناس والوعظ

لهم

لهم وقوله تعالى ولينذروا به اي وليخوفوا به عطف على محذوف وفي ذلك
المحذوف وجه متعلق ببلاغ تقديره لينصحوا ولينذروا به وقيل اللام
[illegible] يتعلق بمحذوف لا يتعلق ببلاغ وليعلموا بما فيه من الحجج على وحدانية
الله تعالى انما هو اله واحد [illegible] تدل على ان
الله واحد لا شريك له وليذكر [illegible] المعاني [illegible]
يتعظ اولوا الالباب اي اصحاب العقول الصافية من شوائب [illegible]
والتعلق بالعلم الصحيح [illegible] سبحانه وتعالى
لهذا البلاغ ثلاث فوائد وهي مستفادة من قوله تعالى لينذروا به
وهذا ينبه على ان الحكمة في انزال الكتب تكميل الرسل للناس واستكمال
القوة النظرية التي منتهى كمالها التوحيد واستصلاح القوة
العملية التي هي التدرع بلباس التقوى جعلنا الله تعالى من
الفائزين بهما بمحمد واله وذلك [illegible] الدنيا [illegible]
[illegible] صلى الله عليه وسلم
ان من قرا سورة ابراهيم اعطي من الاجر عشر حسنات بعدد كل
من عبد الاصنام وعدد من لم يعبد حديث موضوع [illegible]
[illegible] عن ابي بن كعب [illegible]
سورة الحجر مكية [illegible] وهي تسع وتسعون اية
[illegible]
[illegible] بسم الله الرحمن الرحيم الر [illegible]
[illegible] الر [illegible]
[illegible] الكلام

على اوايل السور في اوايل سورة يوسف وقيل بمعناه انا الله ارى
المبين وقوله تعالى تلك اشارة الى ايات هذه السورة اي هذه
الايات ايات الكتاب اضيف الى المعرف اذ والاضافة بمعنى من وقوله تعالى
وقرآن مبين اي مظهر للحق من الباطل عطف بزيادة صفة
وقيل المراد بالكتاب هو السورة وكذا القرآن وقيل المراد
بالكتاب جملة التوراة والانجيل وبالقرآن هذا الكتاب ثم بين بجانبه
تعالى حال الكفار يوم القيمة بقوله تعالى ربما يود اي يتمنى
الذين كفروا بما عاقبوا حالهم وحال المسلمين في ذلك اليوم لو كانوا
مسلمين وقيل حين يعاينون اهوال المسلمين عيانا فرحا البشر وطول
الموقف رب للتكثير فانه كثر منهم تمنى ذلك وقيل للتقليل فان
الاهوال تدهشهم فلا يفيقون حتى يتمنوا ذلك الا في احيان قليلة
فانه قيل لهم خلدت رب على المصادع عوفد البرد لو انها الاعلى
الحاضي اجنبيان المتروت في اعباء سرها اي بعد من لمة
الملحق المستلم ع به في التحقيق كما به قتيل مر عاود وقرأ عاصم
وما نافع بتخفيفها بارعا والباقون بالتشديد وقال ابو جعفر اهل
الحجاز يخففون لعمار قيس وتميم يشددون وكذا العرب ان وقيل المراد
طيبا نفسهم قاله ابن عباس في الجنيد هذي بسر عليه وصيل ذرهم اي
دعهم عن النهي عما هم عليه والصد عنه بالتذكرة والنصيحة
وخلهم يأكلوا ويتمتعوا بدنياهم وتلهيهم امانيهم والتمتع
بالتلذذ فيه وطلب الراحة هنا لا بقاطال كما ترتب في اثر طلب
القربة حالا بعد حال ويلههم الامل اي يشغلهم بتحصيل
ما يطول به الامال يا تستقامت الاحوال عند اخذ فيعلم من السعاد
وعند الاستعداد للمعاد وقرأ ابو عمرو في الوصل بكسر الهاء

واليم

والميم وحمزة والكسائي برفع الهاء والميم وكسر الهاء ورفع
الميم واما الوقف فالجميع بكسر الهاء والكلام على الهاء الثانية
كالكلام على الهاء الاولى فيكسرونها للجميع وقفا ووصلا وكما هذا
الامر الشاغل به الاحق تسبب عنه التهديد بقوله تعالى فسوف
يعلمون اي حالهم بعد ما شغلتهم الهم عن الاهتمام من سوء
صنيعهم وهذا امر لهم بالاعراض عنهم والمتاركة لهم فيه دليل على ان
الاشتغال بالتلذذ والتنعم في الدنيا بالتودد الى طول الامل ليس من
اخلاق المؤمنين وعن بعضهم التمتع في الدنيا من اخلاق
البهائم الكيس والاحمق الذي يذم الامل كثيرة منها قوله صلى الله عليه
وسلم يهرم ابن ادم ويشب معه اثنان الحرص على المال والحرص
على العمر وعن علي رضي الله عنه انما اخشى عليكم اثنين طول
الامل واتباع الهوى فان طول الامل ينسي الاخرة واتباع الهوى يصد عن
الحق وما اهلكنا من قرية اي من القرى
والمراد اهلها وصف من قرية بالاتيان بما يوكد الزجر بقوله تعالى الا
ولها كتاب معلوم اي اجل مضروب
محدود يكتب في اللوح المحفوظ لهلاكها صفة المستثنى
محذوفة والمعنى ما اهلكنا قرية من القرى الا وقت اهلاكها
معلوم ثابت في اللوح المحفوظ لا يتقدم ولا يتاخر والواو في
تعالى الا ولها كتاب معلوم لتاكيد لصوق الصفة
بالموصوف كما تقول ما جاءني الا راكب عليه ثوب وعليه
ثوب فالواو تفيد ان الراكب جاءني وعليه ثوبان وليست
الواو في قوله تعالى ما تسبق من زائدة كما زعم بعضهم
والمراد بالكتاب الاجل بقوله تعالى اجلها اي الذي قدر لها

تسبق

وما يستاخرون اي عنهم تنبيه امته الاحقاب لا يؤخرون كرر هذا الخبر
حملا على اللفظ في الاول وعلى المعنى في الثاني قاله التعالبي
وانما ذكره ليثبت ما يعيرونه الي خطابه صلى الله عليه وسلم انه تنبأ
وفي الاية دليل على ان كل من مات او قتل فانما مات باجله
ورد من قال يجوز ان يموت قبل اجله بخطوة ولما بالغ تعالى في
تهديد الكفار ذكر شبههم في انكار نبوته صلى الله عليه وسلم
بقوله تعالى وقالوا يا ايها الذي نزل عليه الذكر اي القرآن
في زعمه انك لمجنون انما سموه بذلك لانه جاء بما لا يعرفونه اما لانهم كانوا يتعجبون
كل العجب ويضحكون من عقول ابناء جنسهم اذا سمع كلاما حسنا جدا
من غير معرفة بما قاله به جنون واما لانه عليه الصلاة والسلام
كان يظهر عليه عند نزول الوحي حالة يشبهها الغشي فظنوا انها
جنون ودليل عليه قوله تعالى اولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ثم
استدرك على سبيل التهديد فقال لو ما تاتينا
بالملائكة اي حين نقترح عليك بانك رسول من عند الله صحقا ان كنت من
الصادقين في ادعائك بالرسالة واتيانك بهذا القرآن من عند الله
والملائكة يطلق لهم اجرام اخاذة من الله تعالى عجز قولهم التالية
لانه اقرب بقوله تعالى ما ننزل الملائكة الا بالحق
ملتبسا بالحكمة والمصلحة والحكمة في انزالهم
متاهبة وهم وبين عدم انزالكم بعد قطع النبي صلى الله عليه وسلم
فيكم بموته عن استطراد اضرب آخر من تعنتهم وقولهم وما خلقنا
السموات والارض وما بينهما الا بالحق وقيل الا بكلمة الوجود
الحق ابدي وقرا بشعبة بضم التاء وفتح الزاي وقرئ تنزل الملائكة
وحفص وحمزة والكسائي بنونين الاولى مضمومة والثانية

منقوحة

مفتوحة وكسر الزاي ونصب الملائكة والباقون بالتاء مفتوحة
مع فتح الزاي ورفع الملائكة وشد النون البزي فيما لو وصل
واما الزاي فهي مشددة للجميع من يفتح ومن يكسر وما كانوا اي
الكفار اذا اي اذ اتاهم الملائكة منظرين اي لم يزل عنهم الامهال
وعذبوا في هذا الوقت ولم يمهلوا وقيد قوله وكان حتم بقوله
تعالى من تاخير بهم واخراج من ارادنا ايمانه من اصلابهم ثم اجاب
تعالى عن الاول بقوله تعالى مؤكدا لتكذيبهم انا نحن
نزلنا الذكر والقرآن العظيم والقينا له على لسان جبريل عليه
السلام الذكر اي القرآن وانا له لحافظون اي من التبديل
والتغيير بالزيادة والنقصان وتقديم قوله تعالى ولو كان
من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا فلم يقدروا العظيم
بحفظه من هذه الاشياء كلها لا يقدر احد من جميع الخلق من الجن
والانس ان يبدل ويغير منه كلمة واحدة او حرفا واحدا وهذا يخص
بالقرآن العظيم بخلاف سائر الكتب المنزلة فانه قد دخل على بعضها
الخلل فيه والتبديل والزيادة والنقصان فان قيل فلم اشتغلة
الصحابة بجمع القرآن في المصحف وقد وعد الله تعالى بحفظه
وما حفظه الله تعالى فلا حاجة فيه اجيب بانا جمعهم القرآن
في المصحف كان من جملة ما تعبدنا بحفظ الله تعالى اياه فانه تعالى لما
اراد حفظه ألهمهم لذلك قال اصحابنا في هذه الاية دلالة
قوية على كون البسملة اية من اول كل سورة لان الله تعالى
قد وعد حفظ القرآن والحفظ لا معنى له الا ان يبقى مصونا
عن الزيادة والنقصان ولو لم تكن البسملة اية من القرآن لما
كان القرآن مصونا من التغيير ولما كانت محفوظا عن الزيادة

ولو جاز ان يقال بالصحابة اعنم زاد واجاز ان يظن بهم الفساد
وذلك يوجب خروج القرآن عن كونه حجة وقيل الضمير في سلكه
راجع الى النبي صلى الله عليه وسلم والمعنى واما الجرم لما فطروا
ممن اراد به سوءا فهلا كقوله تعالى والله يعصمك من الناس وطالما
سماه الكفار عليه صلى الله عليه وسلم في الاولى وحاطوه
بالسفاهة وقالوا انك لمجنون وكان عادة الله جرت بذلك مع
جميع الانبيا قال سبحانه وتعالى تسلية له على وجه زاد اعلمهم
ولقد ارسلنا من قبلك اي رسلا فحذف ذكر الموصل لدلالة
الارسال عليه وقوله تعالى في شيع اي فرق الاولين من باب
اضافة الصفة الى الموصوف كقوله تعالى حق اليقين سمي شيعا
لمشابهة بعضهم بعضا في الاحوال التي تجتمع على مثلها في الزمن
الواحد والشيع جمع شيعة وهي الفرقة المجتمعة كلمتهم
على مذهب وطريقة وقال الفرا الشيعة هم الاتباع وشيعة
الرجل اتباعه وقيل الشيعة من يتقوى بهم الانسان وما
ياتيهم عبر بالمضارع على حكاية الحال الماضية اي ما كان
يحل على مضارع الا وهو في معنى الحال والا على ما كان الا
وهو قريب من الحال والا فعل وما كان يأتيهم من رسول
على اي وجه كان الا كانوا به حيلة وطبعا يستهزؤن كما يستهزأ
في مكة فاصبروا فاصبرهم صبروا كذلك اي مثل ذلك السلك
في قوله تعالى المستهزئين بالرسل نسلكه اي ندخله في
قلوب المجرمين اي كفار مكة المستهزئين لا يؤمنون به اي
بالنبي صلى الله عليه وسلم وقيل بالقرآن وفي الآية دليل
على ان الله تعالى يخلق الباطل في قلوب الكفار والسلك

ادخال

ادخال الشيء في الشيء كالخيط في المخيط والرمح في المطعون ومنه
قوله تعالى ما سلككم في سقر وقيل الضمير في نسلكه يعود للذكر
كما ان الضمير في به يعود اليه وجملة لا يؤمنون به حال من ذلك
الضمير والمعنى على هذا مثل ذلك السلك نسلك الذكر
في قلوب المجرمين مكذبا غير مؤمن به قال البيضاوي وفي هذا
الاستدلال ضعف اذ لا يلزم من تعاقب الضمائر توافقها
في المرجوع اليه اهـ وما اعدت الضمير عليه في ذلك هو ما قاله
ابن الكمال رد وجرى عليه الجلال السيوطي وقوله تعالى وقد
خلت سنة الاولين اي سنة الله فيهم من تعذيبهم بتكذيبهم انبيائهم
وعيد شديد لكفار مكة بانه ينزل بهم مثل ما نزل بالامم الماضية
المكذبة وقال الضحاك قد مضت سنة الاولين في ان يسلك
الكفر الضلال في قلوبهم قال الرازي وهذا اليق بظاهر اللفظ
وقرا عمر وحمزة والكسائي بادغام تاء التانيث في السين
والباقون بالاظهار وقوله تعالى ولو فتحنا عليهم بابا من
السماء الاية هو المراد في سورة الانعام في قوله تعالى ولو نزلنا
عليك كتابا في قرطاس الاية اي ان الذين يقولون لولا انزل
الملائكة فلو انزلنا الملائكة فظلوا فيه اي ظلت الملائكة
يعرجون اي يصعدون في الباب وهم يرونها عيانا لقالوا اي من
عتوهم في الكفر انما سكرت ابصارنا اي تحيرت عن الابصار الحق
او من السكر وبد لعليه قراة ابن كثير بالتخفيف او حيرت
من السكر وبد لعليه قراة الباقين بالتشديد بل نحن قوم
مسحورون اي قد سحرنا محمد بذلك كما قالوه عند ظهور غير
من الايات كانشقاق القمر وما جابه النبي صلى الله عليه وسلم

من القرآن المعجز الذي لا يستطيع الجن والانس ان ياتوا بمثله
وقيل الضمير في يرجعون للمشركين اي فظل المشركون يصعدون
في ذلك الباب فينظرون في ملكوت السموات وما فيهما من العجايب
لما اسسوا بنيانهم وكفرهم وقالوا انما سكرت ابصارنا وقيل الكفار يا دغام
اللام في الجبوت والطاغوت بالاظهار ولما اجاب الله تعالى عن
شبههم بتكرير البينة والقول بالبينة متفرع على القول
بالتوحيد ودلايل التوحيد منها سماوية ومنها ارضية بدا بها
بذكر الدلايل السماوية فقال فضمتها بحرف التوقع ولقد
جعلنا اي انا من العظمة والقدرة الباهرة في السما بروجا
قال الليث البروج واحدها برج من بروج الفلك والبروج
هي النجوم الكبار ياخوذة من الظهور يقال لبرجت المراة
اذا اظهرت وابدت محاسنها ومنه المنازل التي تنزل بها الشمس والقمر
والكواكب السيارة وهي اثنا عشر برجا الحمل والثور والجوزا
والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب
والقوس والجدي والدلو والحوت وهي منازل الكواكب
السبعة السيارة التي لها الحمل والعقرب والزهرة
لها الثور والميزان وعطارد وله الجوزا والسنبلة والقمر
وله السرطان والشمس ولها الاسد والمشتري وله
القوس والحوت وزحل وله الجدي وقيل الدلو وهذه البروج
منقسمة على ثلاثة ايام وثمانين درجة لكل برج منها
ثلاثة درجة تقطعها الشمس في كل سنة وبها تتم دورة
الفلك ويقطعها القمر في ثمانية وعشرين يوما قال ابن عباس
في هذه الاية يريد بروج الشمس والقمر يعني منازلهما وقال

عطية

عطية هي نقوش في السما عليها الكرسي وقال مجاهد هي النجوم
العظام قال ابو اسحاق يريد نجوم هذه البروج وهذا قول ابن
كيسان وابن ذكوان وعاصم بالظهار والمد عند العجم والباقون
بالادغام وزيناها اي السما بالشمس والقمر والنجوم والاشكال
البهية للناظرين اي المعتبرين المستدلين لها على توحيد
خالقها ومبدعها وهو الله الذي اوجد كل شي وخلقه وصوره
وحفظناها من كل شيطان رجيم اي مرجوم وقيل ملعون
قال ابن عباس كانت الشياطين لا يحجبون عن السموات
وكانوا يدخلونها ويسمعون اخبار الغيوب من الملايكة ثم
يلقونها الى الكهنة فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا
من ثلاث سموات فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا
من السموات كلها فما منهم من احد يريد استراق السمع الا
رمي بشهاب فلما منعوا تلك المقاعد ذكروا ذلك لابليس
فقال لقد حدث في الارض حدث فبعثهم ينظرون فوجدوا
رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن فقالوا والله هذا
حدث وقوله تعالى الا من استرق السمع بدل من كل شيطان
رجيم وقيل استثنا منقطع اي لكن من استرق السمع
واستراق السمع اختلاسه قال ابن عباس يريد بخطفة
اليسارة وذلك ان الشياطين يركب بعضهم بعضا الى سما
الدنيا ليستروق السمع من الملايكة فيرمون بالكواكب
كما قال تعالى فاتبعه شهاب ثاقب وهو شعلة من نار
ساطعة وقد تطلق للكواكب نفسها وقيل ما خيل من البرق يشبه شهاب
النار فلا يخطي فمنهم من يقتله ومنهم من يحرق وجهه وجنبه

والشياطين ٢

وبه حيث شاء الله ومنهم من يخطفه فيصير عن لا فيضل الناس
في البوادي روي ابو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم اذا قضى الامر في السما ضربت الملئكة باجنحتها
خضعانا لقوله كانه سلسلة على صفوان فاذا فزع عن
قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير
فيسمعها مسترق السمع ومسترقة السمع هكذا بعضهم فوق
بعض ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين اصابعه
فيسمع الكلمة فيلقيها الى من تحته ثم يلقيها الاخر الى من
تحته حتى يلقيها الى لسان الساحر او الكاهن وربما ادركه
الشهاب قبل ان يلقيها وربما القاها قبل ان يدركه فيكذب
معها مائة كذبة فيقال اليس قد قال لنا يوم كذا وكذا فيصدق
بتلك الكلمة التي سمعها من السما فاذا قيل اذا اراد ان يسمع
الشيطان اخبار الغيوب من الملائكة خرج الاخبار عن المقياد
عن كونه معجزا دليلا على الصدق لان كل عيب يجوز عند النبي
صلى الله عليه وسلم قام فيه الاحتمال وخرج عن كونه معجزا
دليلا على الصدق اجيب بانا انبتنا كون محمد صلى الله عليه
وسلم رسولا بسائر المعجزات ثم بعد العلم بنبوته يقطع بان
الله تعالى يمنع الشياطين عن تلقف الغيب بهذا الطريق
وعند ذلك يصير الاخبار عن الغيب معجزا ولما شرح الله تعالى
الدلايل السماوية في تقرير التوحيد اتبعها بذكر الدلايل
الارضية وهي انواع النوع الاول قوله تعالى والارض مددناها
قال ابن عباس بسطناها على وجه الماء قال البغوي يقال
بينهما مسيرة خمسمائة سنة في مثلها وحيث منحت الكعبة

فان

قال فان قيل فهل يدل ذلك على انها بسيطة او كرة عظيمة على ما
يقوله ارباب الهيئة اجيب بان ليس في الاية دلالة على شيء
من ذلك لان الارض على تقديركونها كرة فهي في غاية العظمة
والكرة العظيمة ترى كالسطح المستوي وتقدم الكلام على
ذلك في سورة البقرة وسياتي زيادة على ذلك ان شاء الله
تعالى في سورة والنازعات النوع الثاني قوله تعالى والقينا
فيها رواسي اي جبالا ثوابت واحدها راسي وجمع راسية
وجمع الجمع رواسي وهو كقوله تعالى والقى في الارض رواسي
ان تميد بكم قال ابن عباس لما بسط الله الارض على الماء
مالت باهلها كالسفينة فارساها الله تعالى بالجبال الثقال
لكيلا تميد باهلها وقيل ان الله تعالى خلقها لتكون دلالة للناس
على طرق الارض وتواريخها لانها كالاعلام فلا تميل الناس عن
الجادة المستقيمة ولا يقعون في الضلال النوع الثالث قوله
تعالى وانبتنا فيها واختلف في عود ضمير فيها فقيل يعود الى الارض
لان انواع النبات الممتنع به يكون في الارض وقيل الى الجبال
لانها اقرب مذكور وقوله تعالى من كل شيء موزون وما يوزن
ما يتوزن من الجبال والاولى عوده لهما واختلفوا في المراد
بالموزون فقال ابن عباس اي معلوم وقال مجاهد اي مقدار
معين تقتضيه حكمته وقال الحسن اعني به الشيء الموزون
كالذهب والفضة والرصاص والحديد ونحو ذلك مما يستخرج
من المعادن والاولى ان جميع ما ينبت في الارض والجبال لان
ذلك نوعان احدهما يستخرج من المعادن وجميع ذلك موزون
والثاني النبات فبعضه موزون بالكيل وهو يرجع الى الوزن

لان الصاع والمد مقدران مقدران بالوزن **وجعلنا لكم فيها** اي
انعاما منا وتفضلا عليكم **معايش** وهي لغة صريحة من غير
مدجمع معيشة وهي ما يعيش به الانسان مدة حياته في الدنيا
من المطاعم والملابس والمعادن وغيرها **وجعلنا لكم من لستم**
له برازقين من العبيد والانعام والدواب والطير فانكم
تتخذون مما لستم لها برازقين لان رزق جميع الخلق على
الله تعالى وبعض العيال يظنون في اكثر الامم انهم هم الذين يرزقون
العيال كالخدم والعبيد وغير ذلك فان الله هو الرزاق يرزق
المخدوم والخادم والمملوك والمالك لانه تعالى خلق الاطعمة
والاسرزبة واعطى القوة الغاذية والهاضمة والالام يحصل
الاحرزق فان قيل صيغة من مختصة بمن يعقل اجيب بانها
تعالى اثبت لجميع الدواب رزقا على الله حيث قال وما من
دابة في الارض الا على الله رزقها فغلب من يعقل على غيرهم
وذكي حكي ان الماء قد قل في بعض الاودية والجبال واشتد
الحر فاذا بعضهم رايت بعض ذلك الوحش رفعت رؤسها الى
السماء عند اشتداد عطشها قال فرايتها اليوم قد اقبلت
وامطرت واستلات الاودية تنبيه قيل لا يجوز ان يكون
ومن لستم له برازقين مجرورا عطفا على الضمير المجرور
لانقال اخذت منك وزيدا لاباعادة الخافض كما في قوله
واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك وهو من نوح والجواب
الجواز كما ترى في قوله تعالى تساءلون به والارحام بالخفض
في القراءات السبع وقد اعظم جدل وما بين سبحانه وتعالى
انه انبت لهم كل شيء موزون وجعل لهم معايش استفزبذكر

ما هو

ما هو السبب لذلك فقال تعالى **وان** اي وما **من شيء** اي مما ذكر وغيره
من الاشياء الممكنة وهي لا نهاية لها **الا عندنا خزائنه** اي قادرون
على ايجاده وتكوينه اضافها وجد منه فضرب له الخزائن مثلا
لاقتداره على كل مقدور وروي جعفر بن محمد عن ابيه عن جده
قال في العرش تمثال جميع ما خلق الله في البحر والبر والخزائن
جمع خزانة وهي اسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء وقيل اراد
مفاتيح الخزائن وقيل المطر لانه سبب الارزاق لبني آدم والوحش
والطير والدواب ومعنى عندنا اي في حكمه تعالى وتقديره وتدبيره **وما ننزله** من ينابيع القدرة **الا بقدر معلوم** اي على
حسب الحاجة وقيل ان لكل ارض حدا ومقدارا من المطر فلا تنزل
من السماء قطرة مطر الا ومعها ملك يسوقها الى حيث شاء الله
ولما تم ما اراد من آيتي السماء والارض وختمه بشمول قدرته لكل
شيء اتبعه ما ينشأ عنهما مما هو بينهما مورعا في حز ابن قدرته
بقوله تعالى **وارسلنا الرياح** جمع ريح وهو جسم لطيف جنس
في الجو سريع الحركة **لواقح** اي حوامل لانها تحمل الماء الى السحاب
فهي لاقحة يقال ناقة لاقحة اذا حملت الولد وقال ابن مسعود
يرسل الله الريح فتحمل الماء فتمجه في السحاب ثم تمر به فتذرره كما
تذر اللقحة ثم تمطر وقال عبيد بن عمير يبعث الله تعالى الريح
المثيرة فتثير السحاب ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب
بعضه الى بعض فتجعله ركاما ثم يبعث الله اللواقح تلقح الشجر
وعن ابن عباس قال ما هبت ريح قط الا جثى النبي صلى الله
عليه وسلم على ركبتيه وقال اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها
ريحا وعن عائشة رضي الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم

كان اذا عصفت الريح قال اللهم اني اسالك خيرها وخير ما فيها وخير
ما ارسلت به واعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما ارسلت
به وقرا حمزة بالافراد والباقون بالجمع وانزلنا اي بعظمتنا بسبب
تلك السحاب التي هي لها الريح من السما اي الحقيقة او جهتها او
السحاب لان الاسباب المترائية يسند الشي تارة الي القريب
منها وتارة الي البعيد ماء وهو جسم تنايع تسيل به حياة كل حيوان
من نشاة الاعتدال فاسقيناكموه اي جعلناه لكم سقيا يقال
سقيته ماء يشرب به واسقيته اي مكنته منه ليستقي ما شيته ومن
يريد ونفي سبحانه وتعالي عن غيره ما اثبته او لا لنفسه بقوله
وما انتم له اي لذلك الماء بخازنين اي ليست خزانيه بايديكم
والخزن وضع الشي في مكان مهيئا للحفظ فثبت ان القادر
عليه واحد مختار ومن دلايل التوحيد الاحياء والاماتة كما قال
تعالي وانا لنحن نحيي اي لنا هذه الصفة علي دوم العظمة فنحيي
بها من نشاء من الحيوان بروح البدن ومن الروح بالمعارف
ومن النبات باليبس وان كان احدها حقيقة والاخر مجازا
لان الجمع جايز ونميت اي لنا هذه الصفة فنبرز بها من عظمتنا
ما نشاء ونحن الوارثون اي الارث التام اذا مات الخلايق
الباقون بعد كل شي كما كنا ولا شي فليس لاحد تصرف بامانة
ولا احيا فثبت بذلك الوحدانية والفعل بالاختيار فلما ثبت
بهذا كمال قدرته وكانت اثار القدرة لا تكون محكمة الا بالعلم
قال تعالي ولقد علمنا المستقدمين منكم وهو من قضيت
بموته اولا من لدن آدم فيكون في موته كانه يسارع الي التقدم
اليه وان كان هو وكل من اهلك يجتمعون بالعلاج في تاخيره ولقد

علمنا

علمنا المستاخرين اي الذين عدني اعمارهم فتوخر موتهم حتي يكونوا
كانهم يسابقون الي ذلك وان عالجوا الموت بشرب سم او نحوه
عالجه لهم غيرهم بضرب بسيف او غيره فعرف من ذلك قطعا
ان الفاعل واحد مختار وقال ابن عباس اراد بالمستقدمين
الاموات وبالمستاخرين الاحياء وقال عكرمة المستقدمين من
خلق الله والمستاخرين من لم يخلق وقال الحسن المستقدمين
في الطاعة والخير والمستاخرين المتباطيون عنه وقيل المستقد
في الصفوف والمستاخر من تاخر عنها وقيل ذلك ان النساء كن يخرجن
الي الجماعة فيتقدم خلف الرجال من كان في الرجال من في
قلبه ريبة فيتاخر الي آخر صف الرجال ومن النساء من في قلبها
ريبة فتتقدم الي اول صف النساء لتقرب من الرجال فقال النبي
صلي الله عليه وسلم خير صفوف الرجال اولها وشرها آخرها
وخير صفوف النساء اخرها وشرها اولها تنبيه في سبب نزول
هذه الاية قولان احدهما ان امراة حسناء كانت تصلي خلف
النبي صلي الله عليه وسلم فكان بعضهم يستقدم حتي يكون في
اول الصف حتي لا يراها ويتاخر بعضهم حتي يكون في آخر الصف
فاذا ركع نظر من تحت ابطه فنزلت والثاني ان النبي صلي
الله عليه وسلم حرض علي الصف الاول فازدحموا عليه وقال
قوم بيوتهم قاصية عن المسجد لتبعين دورنا ولنشترين
دورا قريبة من المسجد حتي ندرك الصف المقدم فنزلت وان
ربك هو يحشرهم اي المستقدمين والمستاخرين للجزاء وتو
الضمير للدلالة علي انه القادر والمتولي لحشرهم لا غيره ويقدر
الجملة بايء ليتحقق الوعد والتنبيه علي انه ما سبق من الدلالة

من

سقط

علي كمال قدرته وعلمه بتفاصيل الاشياء بدل على صحة الحكم كما صرح به بقوله **انه حليم** اي باهر الحكمة متقن في افعاله **عليم** اي وسع علمه كل شيء ولما استدل سبحانه وتعالى بتخليق الحيوانات على صحة التوحيد في الاية المتقدمة اردفه بالاستدلال على هذا المطلوب بقوله تعالى **ولقد خلقنا الانسان** قال الرازي والمفسرون اجمعوا على ان المراد منه آدم عليه السلام ونقل في كتاب الشفية عن محمد بن علي الباقر انه قال لقد التقى قبل آدم الذي هو ابونا الف الف آدم او اكثر يسمي انسانا لظهوره وادراك البصر اياه وقيل من الانسال لانه محمد اليد فنسي **من صلصال** اي من الطين الشديد اليابس الذي لم تصبه نار اذا نقرته سمعت لصلصلة اي صوتا وقال ابن عباس هو الطين اذا اصاب عليه الماء تشقق فاذا حرك تقعقع وقال مجاهد هو الطين المنتن واختاره الكسائي وقال الفراء هو طين خلط برمل فصار له صوت عند نقره وقال الرازي قال المفسرون خلق الله تعالى آدم من طين فصوره وتركه في الشمس اربعين سنة فصار صلصالا لا يدري احد ما يراد به ولم يروا شيئا من الصور يشبهه الى ان نفخ فيه الروح **من حمإ** اي طين اسود منتن **مسنون** اي مصور بصورة الآدمي وقاله ابن عباس هو التراب المبتل المنتن وقال مجاهد هو المنتن المتغير وقال البغوي وفي بعض الآثار ان الله تعالى خمر طينة آدم وتركها حتى صار منتنا اسود ثم خلق منه آدم عليه السلام قال ابن الخازن والجمع بين هذه الاقوال على ما ذكره بعضهم ان الله تعالى لما اراد خلق آدم عليه السلام قبض قبضة من

تراب

تراب الارض واليه الاشارة بقوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم ان ذلك التراب بله بالماء وجاء حتى اسود وانتن ريحه وتغير واليه الاشارة بقوله تعالى من حما مسنون ثم ان ذلك الطين الاسود المتغير صوره الله انسانا اجوف فكان جوفه ويبس كانت تدخل فيه الريح فيسمع له صلصلة واليه الاشارة بقوله تعالى من صلصال كالفخار وهو الطين اليابس تنخر في الشمس ثم نفخ فيه الروح فكان بشرا سويا ولما ذكر سبحانه وتعالى خلق الانسان ذكر ما خلقه قبل من الجان فقال تعالى **والجان** قال ابن عباس هو ابو الجن كما ان آدم عليه السلام ابو البشر وابليس ابو الشياطين وهي الجن مسلمون وكافرون ويشربون ويأكلون ويجيئون ويموتون كبني آدم واما الشياطين فليس فيهم مسلمون ولا يموتون الا اذا مات ابليس وقال وهب ان من الجن من يولد له ويأكلون ويشربون بمنزلة الادميين ومن الجن من هو بمنزلة الريح لا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون وهم الشياطين قال ابن الخازن وهذا هو الاصح ان الشياطين نوع من الجن لاستتارهم في الاستتار سموا بذلك لتواريهم واستتارهم عن الاعين من قولهم جن الليل اذا استتر والشيطان هو العاتي المتمرد الكافر والجن منهم المؤمن ومنهم الكافر وانتصاب الجان بفعل يفسره **خلقناه من قبل** اي قبل خلق الانسان **من نار السموم** اي من ريح حارة تدخل مسام الانسان فتقتله من فوة حرارتها قاله الرازي فالريح الحارة فيها نار وبها فيح كما ورد في الخبر انها من فيح جهنم الله ويقال السموم بالنهار والحرور بالليل وقال الكلبي عن ابي صالح السموم نار لا دخان لها والصواعق

تكون منها وبين نار تكون بين السماء وبين الحجاب فاذا احدث الله
تعالي امرا حرقت الحجاب فهوت الي ما امرت به فالسموم التي
تسمون حرق ذلك الحجاب وعن ابن عباس هذه السموم جزء من
سبعين جزءا من السموم التي خلق منها الجان وتلي هذه الاية وعن
الضحاك عن ابن عباس كان ابليس من حي من الملايكة يقال
لهم الجن خلقوا من نار السموم وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن
من مارج من نار واما الملايكة فخلقوا من النور ولما ذكر الله
تعالي حدوث الانسان الاول واستدل بذكره علي وجود الاله
القادر المختار ذكر بعده واقعته بقوله تعالي **واذ** اي واذكر
يا اشرف اخلق قول ربك عز وجل اذ **قال ربك** اي المحسن اليك
بتشريفك **للملايكة اني خالق بشرا** اي حيوانا كثيفا يباشر
ويلاقي والملايكة والجن لا يباشرون للطف اجسامهم عن ابشا
البشر والبشرة ظاهر الجلد من كل حيوان وقوله تعالي **من صلصال**
من حما مسنون تقدم تفسيره **فاذا سويته** اي عدلته واتممته
وهيأته لنفخ الروح فيه من الفعل **ونفخت فيه من روحي** اي خلقت
الحياة فيه وليس ثم نفخ ولا منفوخ وانما هو تمثيل واضافة
الروح اليه تشريفا كما يقال بيت الله وهو ما يصير به الروح عالما
واشرف منه ما يصير به العالم عالما حاشا وسيأتي الكلام
علي الروح ان شاء الله تعالي في سورة سبحان عند قوله تعالي ويسألونك
عن الروح **فقعوا** اي سقطوا له تعظيما حال كونهم **ساجدين** وتقدم
في سورة البقرة الكلام علي من المخاطب بالسجود وهل هو
كل الملايكة او ملايكة السموات او ملايكة الارض وهل هو سجود
انحناء وغيره **فسجد الملايكة** وقوله تعالي **كلهم اجمعون** قال

سيبويه

سيبويه تاكيد بعد تاكيد وسئل المبرد عن ذلك فقال لو قال فسجد
الملايكة احتمل ان يكون سجد بعضهم فلما قال كلهم زال هذا الاحتمال
فظهر انهم باسرهم سجدوا ثم عند هذا بقي احتمال وهو انهم سجدوا
دفعة واحدة او سجد كل واحد في وقت آخر فلما قال اجمعون ظهر
ان الكل سجدوا دفعة واحدة قال الزجاج وقول سيبويه اجود
لان اجمعين معرفة فلا يكون حالا وقوله تعالي **الا ابليس** اجمعوا
علي ان ابليس كان مامورا بالسجود لادم واختلفوا في انه هل
كان من الملايكة ام لا وقد سبقت هذه المسئلة علي الاستقصا
في سورة البقرة وقوله تعالي **ابي ان يكون مع الساجدين**
اي لادم استيناف وتقديره ان قائلا قال فهل سجد فقيل ابى
ذلك واستكبر **قال** الله تعالي له **يا ابليس مالك ان لا تكون**
ابي ان تكون ولا من بدة اي حاسنعك ان تكون **مع الساجدين**
لادم **قال لم اكن لاسجد لبشر** جسماني كثيف واللام لتاكيد
النفي اي لا يصح مني ومني في حالتي ان اسجد وانا ملك روحاني
لبشر **خلقته من صلصال من حما مسنون** وهو احسن الفاصل
وخلقتني من نار وهي اشرفهما استنقص ادم باعتبار النوع
والاصل وقد سبق الجواب عنه في سورة الاعراف **قال**
قال بعض المتكلمين ان تعالي اوصل هذا الخطاب الي ابليس علي
لسان بعض رسله وضعف لان ابليس قال في الجواب لم اكن
لاسجد لبشر خلقته من صلصال فقوله خلقته خطاب الحضور
لا خطاب الغيبة وظاهر هذا ان الله تعالي تكلم مع ابليس بغير
واسطة وان ابليس تكلم مع الله بغير واسطة فكيف يقبل
هذا مع ان مكالمة الله بغير واسطة من اعظم المناصب

واشرف المراتب فكيف يتقبل حصوله لراس الكفرة ورئيسهم واجيب
بان مكالمة الله تعالى انما تكون منصبا عاليا اذا كانت على سبيل
الاكرام والاعظام واما اذا كانت على سبيل الاهانة فلا اذ لا
فلا قال الله تعالى له فاخرج منها اي من الجنة وقيل من السموات وقيل
من زمرة الملائكة وقد تقدم الكلام على ذلك الهباني سورة الاعراف
فانك رجيم اي مطرود من الخير والكرامة فان من يطرد يرجم بالحجر
او شيطان رجيم بالشهب ونحو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته
وان عليك اللعنة اي هذا الطرد والابعاد الى يوم الدين قال
ابن عباس يريد يوم الجزاء حيث يجازي العباد باعمالهم مثل قوله
تعالى مالك يوم الدين فان قيل كلمة الى تفيد حد انتهاء الغاية
فهذا يفيد بان اللعن لا يحصل الا الى يوم الدين وعند القيمة
يزول اللعن اجيب بجوابين الاول ان المراد التابيد وذكر
القيمة لبعد غايته ذكرها الناس في كلامهم كقولهم ما دامت
السموات والارض في التابيد والثاني انه مذموم مدعو عليه
باللعن في السموات والارض الى يوم القيمة من غير ان يعذب
فاذا جاء ذلك اليوم عذب عذابا يفوق اللعن حتى يصير
اللعن حينئذ كالزائل بسبب ان شدة العذاب تذهل عنه ولما
جعله الله تعالى رجيما ملعونا الى يوم القيمة كان قابلا ان يقول
عند ذلك فيقبل قال رب فاعترف بالعبودية والاحسان
اليه فانظرني اي اخرني والانظار تاخير المحتاج للنظر في امره
والفاء مفصحة بمحذوف دل عليه فاخرج منها فانك رجيم الى
يوم يبعثون اي الناس اراد ان يجد فسحة في الاغواء نجاة من
الموت اذ لا موت بعد وقت البعث قال الله تعالى مجيبا للاول دون

الثاني

الثاني بقوله تعالى فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم وهو
المسمى عند الجلك عند الله تعالى وهو النفخة الاولى وما يتبعها من
موت كل مخلوق لم يكن له بد من الخلد فانه قيل كيف اجابه الله تعالى
الى ذلك الا جهل اجيب بانا انما اجابه لذلك من زيادة في بلائه
وشقائه وعذابه لا لاكرامه ورفع مرتبته ولما اجيب لذلك كانه
قيل فماذا قاله فقيل قال رب اي ايها الموجد والمدبر لي وقوله
بما اغويتني الباء للقسم وما مصدرية
وجواب القسم لازينن اي اقسم باغوائك اياي لازينن لهم في
الارض حب الدنيا ومعاصيك كقولك لم تفعل كذا لاغوينهم اجمعين
الا انه في ذلك الموضع اقسم بعزة الله وهي من صفات الذات وهنا
اقسم باغوائه الله وهي من صفات الافعال والمفهم قالوا القسم
بصفات الذات صحيح واختلفوا في القسم بصفات الافعال فالاكثرون
فيها الصحة والا غوينهم اي بالاضلال عن الطريق الحميدة بالقاء الوسو
في قلوبهم ولاحملنهم اجمعين على الغواية وقوله الا عبادك منهم
المخلصين قراه ابن كثير وابو عمرو وابن عامر بكسر اللام اي الذين
اخلصوا دينك عن الشوائب وقراه الباقون بفتحها اي الذين
اخلصهم الله تعالى بالهداية فانما استثنى ابليس المخلصين لانه
علم اذ كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلون منه قال الرازي والذي يحمل
على هذا الاستثناء انه لا يصير كاذبا في دعواه فلما اخبر ابليس
عن الكذب علمنا ان الكذب في غاية الخساسة فنبه الله قال
ورد الاخلاص في العمل هو ان لا يريد صاحبه عنه عوضا
من الدارين ولا عوضا من الملكين وقال الجنيد الاخلاص سر
بين العبد وبين الله تعالى لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده

ولا هو فيميله وذكر القشيري وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم انه
قال سالت جبريل عليه السلام عن الاخلاص ما هو فقال سالت عنه رب
العزة عز وجل ما الاخلاص يا هو قال سر استودعته قلب من احببته من
عبادي وما ذكر ابليس انه يغوي بني ادم الا من عصمه الله بتوفيقه
وتضمن هذا الكلام تقوية الامور الى الله تعالى واليه ارادتم قال
تعالى هذا اي الذي ذكرته من حال المستثنى والمستثنى منه
صراط اي طريق علي مستقيم اي لا اعرف عنه لاني وفقت به
وهديت بتحليلك وعليهم ولو لم تقل انت ولما قال ابليس لاغوينهم
لهم في الارض ولاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين اوهم
هذا انه سلطان على عباد الله غير المخلصين فبين تعالى
كذبه ان ليس لوجه سلطان على احد من عبيد الله سواء كانوا مخلصين
ام لم يكونوا مخلصين بل ومن اتبع منهم ابليس باختياره صار تبعا
له وكان تلك الاتباعات ايضا ليس لاجل ابليس وادعائه انه سلطان
عباد الله سلطانا فبين تعالى كذبه وذكر تعالى انه ليس لابليس ولا لغيره
منهم سلطان ولا قدرة اصلا بقوله تعالى ان عبادي اي الموصوفين كلهم
ليس لك اي بوجه من الوجوه عليهم سلطان اي لترديهم كلهم معا
في غيي ويظهر هذه الاية قوله حكاية تعالى عن ابليس وما كان
لي عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لي وقال تعالى في
اية اخرى ليس له سلطان على الذين امنوا وعلى ربهم يتوكلون
انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون الا من
اتبعك اي بتعمد منه ورغبة في اتباعك من الغاوين اي
وحاد عن عين توبة فاني جعلت لك عليهم سلطانا تليقهم في مذهب
يضيق عنه عني وقيل ان الاضافة للتشريف فلا تشمل الا

المخلصين فيجوز ان يكون الاستثناء منقطعا وقال سيبويه لقال الا ستثنا
على توهم ان قوله ان عبادي في معنى ما لهم عليهم سلطان والرفع
والاضافة اليه والرجوع عن اتباع الغاوي الا قبال عليه لان ذوي الانفس
الابية والهمم العلية يابون ان يسوسوا في ذلك المقام ويرضوا بما هو
اعلا مرام والذين اتبعوك منهم اي الغاوين وهم ابليس ومن
تبعه ثم بين تعالى انهم مختلفون في ذلك بقوله تعالى لها اي لجهنم
سبعة ابواب اي برسم طبقات قال علي رضي الله عنه ان الله تعالى
كيف ابواب النيران هكذا ووضع احدى يديه على الاخرى اي سبعة
ابواب بعضها فوق بعض والله تعالى وضع الجنات على العرض وهي
ثمانية ابواب بعضها على بعض قال ابن جريج النار يسبع دركات اولها جهنم
ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية تتبعه
تحقيق العدد لان الله تعالى لما بعث فرق وقتل جعلت سبعة على وفق
السبعة الاعضاء من العين والاذن واللسان والبطن والفرج
واليد والرجل لانها مصادر السيئات وكانت غراء ها الابواب
السبعة وكما كانت هي جهنم مصادر السيئات بشرط التوبة وتبين
من اعمال القلب زادت الاعضاء واحدا فجعلت ابواب الجنان ثمانية
قال الله تعالى لكل باب اي منهم اي الغاوين خاصة لاشتراكهم
فيها فمن جزء اي نصيب وقرء بضمتين بهمز الزاي والباقون
بالتسكين مقسوم اي معلوم فلكل دركة قوم يستكنون فيها قال
الضحاك في الدركة الاولى اهل التوحيد الذين ادخلوا النار
بذنوبهم ثم اخرجوا بشفاعة نوعلم بن ثم جوزوا وفي الثانية اليهود وفي
الثالثة النصارى وفي الرابعة الصابئون وفي الخامسة المجوس
وفي السادسة اهل الشرك وفي السابعة المنافقون كذلك

قوله تعالى ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار وروى عن عمر رضي الله
عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل هل يقتل الولد بابيه
منا لمن سل السيف على اخيه او قال على اخته محمد ولما شرح تعالى
احوال اهل العقاب اتبعه بتعريف اهل الثواب بقوله تعالى مؤكدا للانكار
المكذبين بالبعث ان المتقين اي الذين اتقوا الشرك بالله سبحانه وتعالى
كما قال جمهور الصحابة والتابعين وهو الصحيح لان المتقي هو الذي
يأتي التقوى مرة واحدة كما ان الضارب هو الذي ضرب مرة واحدة
والقاتل هو الذي قتل مرة واحدة فكما انه ليس من شرط صدق الوصف
صدق الوصف بكونه ضاربا او قاتلا كونه آتيا بجميع انواع الضرب
والقتل ليس من شرط صدق الوصف بكونه متقيا كونه آتيا بجميع
انواع التقوى لان الذي يفرد واحد من افراد التقوى يكون آتيا
بالتقوى لان كل فرد من افراد الماهية يجب كونه مشتملا على تلك
الماهية في جنات اي بساتين قال الرازي سماها بالجنات اربعة لقوله
تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان ثم قال ومن دونهما جنتان
فيكون المجموع اربعة وقوله ولمن خاف مقام ربه جنتان مؤكد ما
قلناه لان من آمن بالله لا ينفك قلبه من الخوف من الله تعالى وقوله
ولمن خاف يكفي في هذه الحصول هذا الخوف مرة واحدة وقوله
تعالى وعيون قال الرازي يحتمل ان يكون بعضها ما ذكره الله تعالى في
قوله مثل الجنة التي وعد المتقون فيها انهار من ماء غير آسن وانهار
من لبن لم يتغير طعمه وانهار من خمر لذة للشاربين وانهار من عسل
مصفى ويحتمل ان يكون المراد من هذه العيون منافع مغايرة لمنافع
تلك الانهار فان قيل هل كل واحد من المتقين مختص بعيون هذه الجنات
تلك العيون بعضها الى بعض اجيب بان كل واحد من الوجهين

يحتمل

يحتمل فيجوز ان يختص كل واحد بعين ينتفع هو بها ومن يختص به من
الحور والولدان ويكون ذلك على قدر حاجاتهم وعلى حسب
سهام اتهم ويحتمل ان يجري من بعضها الى بعض لان غم يظهر ورد من يحقد
ويحسد وقرا نافع وابو عمرو وهشام وحفص برفع العين والباقون
بالكسر وقرا بكسر التنوين في الوصل ابو عمرو وابن ذكوان وعاصم
وحمزة والباقون بالضم ولما كان المنزل لا يحسن الا بالسلامة
والامن قال تعالى ادخلوها اي يقال لهم ذلك بسلام اي سالمين من
كل آفة من حبا يكرم آمنين من ذلك دائما ولما كان الانس لا يكمل الا
بالجنس مع كمال المودة وصفاء القلوب عن الكدر قال تعالى
ونزعنا اي بما لنا من العظمة والقدرة ما في صدورهم من غل
اي حقد كامن في القلب ويطلق على الشحناء والعداوة والحسد
والبغضاء فكل هذه الخصال المذمومة داخلة في الغل للامة كما منة
في القلب يريد ان المؤمنين يجلسون على باب الجنة فينتقي بعضهم
بعضا ثم يؤمر بهم الى الجنة وقد نقى قلوبهم من الغل والحقد
والحسد حالة كونهم اخوانا اي متصاحبين حال كونهم على سرر
جمع سرير وهو مجلس رفيع موطنا للسرور وهو ما اخوذ منه
لانه مجلس سرور وقال ابن عباس رضي الله عنهما يريد على سرر
من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت والسرير مثل ما
بين صنعا الى ايلة متقابلين لا يرى بعضهم قفا بعض فان التقا
التواجه وهو يقتضي التدابر ولا شك ان المواجهة اشرف الاحوال
وعن مجاهد رضي الله عنه تدور بهم الاسرة حيث ما داروا فيكونون
في جميع احوالهم متقابلين تنبيه ليس المراد الاخوة في النسب
بل المراد الاخوة في المودة والمخاطبة كما قال تعالى الاخلاء يومئذ

بل

بعضهم لبعض عدو الا المتقين وعن الجنيد رضي الله عنه انه قال ما احلى
الاجتماع مع الاحباب وما امر الافتراق مع الاعداد وقوله تعالى لا يمسهم
فيها نصب اي اعياء وتعب وجهد ومشقة استيناف اوحال بعد حال
اوحال من الضمير في متقابلين وقوله تعالى وما هم منها بمخرجين المراد
به كونه خلود دار بلا زوال وبقاء بلا فناء وكمال لا بلا نقصان وفوز لا بلا
حرمان ولما ذكر تعالى احوال المتقين واحوال غيرهم اتبع ذلك
بقوله تعالى نبئ اي اخبر يا افضل الخلق عبادي اخبارا جليلا اني انا
اي وحدي الغفور اي للمؤمنين الرحيم بهم وقرا نافع وابن كثير وابو
عمرو بفتح الياء من عبادي وابن والباقون بالسكون واما الهمزة في
نبئ لم يبد لها الا همزة في الوقف فقط وكذا الهمزة من نبئهم ونقل عن
حمزة كسر الهاء في الوقف وانه هو عذابي اي وحدي للعصاة هو العذاب
الاليم تنبيه في هذه الاية لطائف الاولى انه سبحانه وتعالى اضاف
العباد الى نفسه وهذا تشريف عظيم الا ترى انه قال لنبيه محمد
صلى الله عليه وسلم سبحان الذي اسرى بعبده ليلا الثانية انه تعالى
لما ذكر المقصر بالغ في التاكيد اتى بالفاظ ثلاثة اولها قوله
تعالى اني وثانيها انا وثالثها ال دخال حرف الالف واللام على قوله
تعالى الغفور الرحيم ولما ذكر تعالى العذاب لم يقل اني انا المعذب
وما وصف نفسه بذلك قال وان عذابي هو العذاب الاليم الثالثة
انه امر رسوله صلى الله عليه وسلم ان يبلغ اليهم هذا المعنى
فكانه اسند رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة
الرابعة انه لما قال نبئ عبادي كان معناه بنبي كل من كان محققا
بعبودية وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع كذلك يدخل فيه المؤمن
العاصي وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله تعالى وعن

ابي

ابي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول ان الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فامسك عنده منها عنده
تسعة وتسعين وارسل في خلقه رحمة فلو يعلم الكافر بكل الذي
عند الله من العذاب لم يأمن من النار وعن عبادة رضي الله عنه
قال بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لو يعلم العبد
قدر عفو الله ما تورع من حرام ولو يعلم قدر عذابه لكفر نفسه الى قتلها
وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه مر بنفر من اصحابه وهم
يضحكون فقال اتضحكون وقد ذكر الجنة والنار بين اظهركم فنزل لي
عبادي اني انا الغفور الرحيم ولما بالغ تعالى في تقرير النبوة
اراد ان يذكر دلائل التوحيد ثم ذكر تعالى عقيب احوال القيمة
ووصف الاشقياء والسعداء اتبع ذلك بقصص الانبياء ليكون سماعها
مرغبا في العبادة الموجبة للفوز بدرجات الانبياء ومحذرا عن
المعصية الموجبة لاستحقاق دركات الاشقياء وافتتح من ذلك
بقصة ابراهيم عليه السلام فقال تعالى ونبئهم اي اخبر يا سيد المرسلين
عبادي عن ضيف ابراهيم وهم ملائكة اثنى عشر او عشرة
او ثلاثة منهم جبريل عليه السلام فان قيل الضيف لغة المنضم الى
غيره لطلب القرى اجيب بان هؤلاء سموا بهذا الاسم لانضمام على
صورة الضيف فهو من دلالة المتضمن وقيل ايضا ان من يدخل
دار انسان ويلتجئ اليه يسمى ضيفا وان لم ياكل اذ دخلوا عليه
اي ابراهيم وكان يكنى ابا الضيفان كان لقصره اربعة ابواب لكي
لا يفوته احد فقالوا سلاما اي نسلم عليك سلاما او سلمت سلاما
قال ابراهيم عليه السلام بلسان الحال او المقال انا اي انا او من
عندي منكم وجلون اي خائفون وكان خوفهم لامتناعهم من الاكل

الا عتقاد الصحيح فيما زعم من تمام التصديق وان لا تقرنه معصية ولا
تنفعه طاعة وقرا ابو عمرو والكسائي بكسر النون والباقون
بفتحها والمحتفين عليه السلام البشرى وراى انهما بشرا هم جميعين
على غير الصفة التي ياتي الملك للوحي وكان هو وغيره من
العارفين باسم عالمين بانه ما ينزل الملك الا باحق وكان ذلك
سببا لان يسالهم عن امرهم ليزول وجله كلمه ولذلك قال عليه الصلاة
والسلام فما بقاء السبب خطبكم اي شانكم قال ابو حيان واخطب
لا يكاد يقال الا في الامر الشديد اه وقال الرماني انه الامر الجليل
ايها المرسلون فانكم ما جيتم الا لامر عظيم يكون فصلا بين هالك
وناج قالوا انا ارسلنا اي ارسلنا العزيز الحكيم الذي انت اعرف
الناس في هذا الزمان به الى اهلاك قوم اي ذوي صفة مجرمين
اي كافرين وهم قوم لوط وقوله تعالى الا ال لوط فيه وجهان احدهما
انه استثناء متصل على انه مستثنى من الضمير المستكن في مجرمين
بمعنى اجرموا كلهم الا آل لوط فانهم لم يجرموا ويكون معنى قوله انا
لمنجوهم اجمعين اي لانهم استيناف اخبار بنجاتهم لكونهم لم
يجرموا ويكون الارسال حينيذ شاملا للمجرمين وللآل لوط لا
هلاك الملك وانجاء هؤلاء والثاني انه استثناء منقطع لان
آل لوط لم يندرجوا في المجرمين البتة ويكون قوله تعالى انا لمنجوهم
اجمعين جرى مجرى جنود لكن في اضماله بآل لوط لان المعنى لكن ال
لوط منجوهم وقرا حمزة والكسائي بسكون النون وتخفيف الجيم
والباقون بفتح النون وتشديد الجيم وقوله تعالى الا امراته استثنا
من آل لوط او من ضميرهم على الاول وعلى الثاني لا يكون الا من
ضميرهم لاختلاف الحكمين اللهم الا ان يجعل انا لمنجوهم اعتراضا

اولا نهم دخلوا بغير اذن وبغير وقت والوجل اضطراب النفس لتوقع
مانكره قالوا لا توجل اي لا تخف انا رسل ربك نبشرك بغلام
اي ولد ذكر في غاية القوة ليس كاولاد الشيوخ ضعيفا وقراجزة
بفتح النون وسكون الباء وهمز الشين مخففة والباقون بضم النون
وفتح الباء وكسر الشين مشددة عليم اي ذي علم كثير هو
اسحاق عليه السلام كما ذكر في هود وتقدم ذكر القصة هناك
باسرها قال ابراهيم عليه السلام ابشرتموني اي بالولد على ان مسني
الكبر حال اي مع حسه اياي فبم تبشرون قال فبم اي فباي
شيء تبشرون اي بشيوا التي ذلك بيانا شافيا مع انهم قد بينوا ما
يبشرون به وما فايدة هذا الاستفهام اجيب بانه اراد ان يعرف ان
الله تعالى هل يعطيه الولد مع بقايه على صفة الشيخوخة او يقلبه
شابا ثم يعطيه الولد والسبب في هذا الاستفهام ان العادة
جارية بانه لا يحصل في حالة الشيخوخة التامة وانما يحصل في
حالة الشباب وانه استفهام تعجب وبدل لذلك قولهم قالوا
بشرناك بالحق قال ابن عباس يريدون بما هناه الله تعالى
والمعنى انا امره تعالى هنا ان يخرج من صلب ابراهيم اسحق
ويخرج من صلب اسحق ذريه مثل ما اخرج من صلب ادم
وقولهم فلا تكن اي بسبب تبشيرنا من القانطين اي الايسين يعني
لا يبراهيم عليه السلام عن القنوط ومعنى الانسان عن الشيء
لا يد ان يعلي كونه فاعلا للمنهي عنه كما في قوله تعالى ولا تكونن
الكافرين والمنافقين ثم حكى الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام
انه قال ومن يقنط اي يياس من هذا الياس من رحمة ربه
اي الذي لم يزل احسانه عليه الا الضالون اي المخطئون طريق

الاعتقاد

وقوله تعالى قدرنا قراءة شعبة بتخفيف الدال والباقون بالتشديد
انها لمن الغابرين اي الباقين في العذاب لكفرها تنبيه معنى
التقدير في اللغة جعل الشيء على مقدار غيره يقال قدر هذا الشيء
بهذا اي اجعله على مقداره وقد اسند تعالى الافعال اي جعلها
على مقدار الكفاية ويفسر التقدير بالعقد فيقال وقفني الله تعالى
عليه وقدره عليه اي جعله على مقدار ما يكفي في الخير والشر وقيل
معنى قدرنا كتبنا وقال الزجاج دبرنا فان قيل لم اسند الملائكة
فعل التقدير الى انفسهم مع ان الله عز وجل اجيب بانهم انما ذكروا
هذه العبارة لما لهم من القرب والاختصاص بالله تعالى كما تقول
خاصة الملك دبرنا كذا وامرنا والمدبر والآمر هو الملك لا هم وانما
يريدون بهذا الكلام اظهار ما لهم من الاختصاص بذلك الملك
فكذا نسنا ولما بشرت الملائكة عليهم السلام ابراهيم عليه السلام
بالولد واخبرته بانهم مرسلون بعذاب قوم مجرمين ذهبوا بعد
ابراهيم الى لوط واله وهذه هي القصة الثانية المذكورة في
هذه السورة قال تعالى فلما جاء آل لوط المرسلون هاهنا هم تان
مفتوحتان من كلمتين فقرأ قالون والبزي وابو عمرو باسقاط
واحدة منهما مع المد والقصر وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية
وابدالها حرف مد والباقون بتحقيق الهمزتين وكذا وجد اهل
المدينة قال لهم انكم قوم منكرون لانهم دخلوا عليه بغتة فانكرهم
وخاف من دخولهم لاجل شر يوصلونه اليه ولاجل انهم كانوا
شبابا مردا احسان الوجوه فخاف ان يعجم قوم عليهم بسبب
طلبهم فقاله هذه الكلمة وقيل ان النكر ضد المعرفة فقوله عليه
الصلاة والسلام انكم قوم منكرون اي لا اعرفكم ولا اعرف

انكم

انكم من اي الاقوام انتم ولاي شيء عرض دخلتم علي فعند ذلك قالوا اي
الملائكة بل جئناك بما اي بالعذاب الذي كانوا اي قومك فيه يمترون
اي يشكون في نزوله وانما اجابهم بوصف بالشك وان كان مكذبا من
جملة ما يعرض له من حيث انه لا يرجع الى نفسه بنفي ما هو عليه ثم
اكد ما ذكروه بقولهم وآتيناك بالحق اي باليقين الذي لا شك فيه
ثم اكد هذا التاكيد بقولهم وانا لصادقون اي فيما اخبرناك به
فاسر باهلك اي فاذهب بهم في الليل بقطع من الليل اي طائفة
من الليل وقيل بآخره قال الشاعر اهتممت الباب وانظر في النجوم
كما علينا من قطع ليل بهيم كانه طال عليه الليل فخاطب صحبته
بذلك وكان يحب طول الليل للوصال وقرأ نافع وابن كثير بوصل
همزة فاسر بعد الفاء من السرى والباقون بالقطع وهما بمعنى واتبع
ادبارهم اي وكن على اثار اهلك وسر خلفهم وتطلع على احوالهم
ولا يلتفت منكم احد اي لبلاء يراه اليم ما نزل بهم من البلاء وقيل فرجعل
تركه الالتفات علامة لمن ينجو من آل لوط وامضوا حيث تؤمرون
اي الى المكان الذي امركم الله بالمضي اليه قال ابن عباس هو الشام
وقال الفضيل حيث يقول لكم جبريل وذلك ان جبريل امرهم ان
يمضوا الى قرية معينة ما عمل اهلها عمل قوم لوط وقيل الى الاردن
وقيل الى مصر تنبيه حيث هاهنا على بابها من كونها ظرف
مكان بهم ولا بهما مما تقدم اليها الفعل من غير واسطة وقضينا
اي واوحينا اليه ولما ضمن قضينا معنى الايحاء تعدى بالى ومثله
قضينا الى بني اسرائيل وقوله تعالى ذلك الامر بهم تفسيره
ان دابر هؤلاء مقطوع اي مستاصلون عن اخرهم حتى لا يبقى
منهم احد وقوله تعالى مصبحين حال من هؤلاء ومن الضمير

في مقطوع وجمعه للحمل على المعنى فان دابر هؤلاء في معنى مدبري
هؤلاء اي يتم استيصالهم في الصباح وجاء اهل المدينة اي مدينة
من مدائن قوم لوط وهي سدوم بسين مهملة وذال معجمة وخطا
من قال بمهملة يستبشرون اي باضياف لوط طمعا فيهم وليس في
الاية دليل على المكان الذي جاءوه الا ان الفقهة تدل على انهم جاءوا
دار لوط وقيل ان الملائكة لما كانوا في غاية الحسن اشتهر خبرهم
حتى وصل الى قوم لوط وقيل امرأته اخبرتهم بذلك قال الرازي
وبالجملة فالقوم قالوا ان نزل بلوط ثلاثة من المرد ما رأينا قط اصبح
وجها ولا احسن شكلا منهم فذهبوا الى دار لوط طلبا منهم للوطء
المرد والاستبشار اظهار السرور ولما وصلوا اليه قال لهم لوط
ان هؤلاء ضيفي اي وحق علي الرجل اكرام الضيف فلا تفضحون
بهم بقتال ففضحه يفضحه اذا اظهر من امره ما يلزم به العار واذا
قصد الضيف بسوء كان ذلك اهانة لصاحب المحل كما ذكر ذلك
بقوله واتقوا الله اي خافوه في امرهم ولا تخزون اي ولا تخجلوني بفعلهم
بتعدهم اياهم بفعل الفاحشة من اكرمه فقد اكرمني او لا تذلوني
بسببهم من الخزي وهو الهوان قالوا اي قومه في جواب قوله لهم
اولم ننهك عن العالمين اي عن ان تضيف احدا من العالمين
وقيل اولم ننهك ان تدخل الغرباء المدينة فانا نطلب منهم الفاحشة
وقيل اولم ننهك ان تمنع بيننا وبينهم فانهم كانوا يتعرضون
لكل احد وكان لوط عليه السلام يمنعهم عنهم بقدر وسعه قال لهم
هؤلاء بناتي اي نساء القوم لان كل امة اولاد نبيها ردا لهم بنوه
ونساؤهم بناته فكانه قال لهم هؤلاء بناتي فانكحوهن ودعوا اتيان
فلا تشرعوا لهم ان كنتم فاعلين اي ما اقول لكم او فقنا الشهوة

والكلام

والكلام في ذلك قد مر مرارا لا سيما في سورة هود وقرأ نافع بفتح تا
بناتي والباقون بكسرها قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم
على لسان ملائكته لعمرك اي وحياتك وما اقسم بحياة احد غيره
وذلك يدل على انه اكرم الخلق على الله تعالى انهم لفي سكرتهم اي
شدة غفلتهم التي ازالت عقولهم يعمهون اي يتحيرون والخطاب للوط
عليه السلام قالت له الملائكة ذلك اي فكيف يفعلون تلك
ويلتفتون الى نصيحتك تنبيه لعمرك مبتدأ محذوف الخبر وجوبا
وانهم ومابعده جواب القسم وتقديره لعمرك قسمي او يميني انهم
والعمر والعمر بالفتح والضم واحد لكن هو للبقاء الا انهم خصوا القسم
بالفتح لمفتوح الايثار الاخف فيه وذلك لان الحلف كثير الدور
على الستهم بلعمري ولعمرك فاخذتهم الصيحة اي صيحة هائلة مهلكة
وقيل هي صيحة جبريل عليه السلام قال الرازي ليس في الاية دلالة
على ذلك فانه ثبت بدليل قوي قيل به والا نبس في الاية دليل
الى انها جاءتهم عظيمة مهلكة وقوله تعالى مشرقين اي داخلين
في وقت الشروق وهو بزوغ الشمس حال من مفعول اخذتهم
ثم بين سبحانه وتعالى ما تسبب عن الصيحة معقبا لها بقوله تعالى
فجعلنا اي بما لنا من العظمة والقدرة عاليها اي مدائنهم سافلها
اي رفعها جبريل عليه السلام الى السماء واسقطها مقلوبة الى
الارض وامطرنا عليهم اي اهل المدائن التي قلبت لاجلهم
حجارة من سجيل اي طين طبخ بالنار وتنبيه دلت الاية الكريمة
على ان الله تعالى عذبهم بثلاثة انواع من العذاب احدها
الصيحة الهائلة المنكرة وثانيها انه جعل عاليها سافلها وثالثها
انه امطر عليهم حجارة من سجيل وتقدمت الاشارة الى ذلك في سورة

هود ان في ذلك اي المذكور من هذه الانواع لايات اي دلالات على
وحدانية الله تعالى للمتوسمين اي للناظرين المعتبرين من جمع متوسم وهو
الناظر في السمة حتى يعرف حقيقة الشيء بسمته وانها اي هذه المدائن
لبسبيل اي طريق قريش الى الشام مقيم اي لم يندرس بل هي شاخصة يرد
ذلك ويرونه افلا يعتبرون ثم قال سبحانه وتعالى مشيرا الى
زيادة الحث على الاعتبار بالتاكيد ان في ذلك اي هذا الامر العظيم
لاية اي علامة عظيمة في الدلالة على وحدانيته تعالى للمؤمنين اي
كل من آمن بالله وصدق الانبياء والرسل عرف ذلك انما كان لاجل
ان الله تعالى انتقم للانبياء من اوليائه بالجهال اما الذين للوجود ن
بالله فانهم يحملون على حوادث العالم ووقائعه ثم ذكر تعالى القصة
الثالثة وهي قصة شعيب عليه السلام بقوله تعالى وان مخففة
من الثقيلة اي وانه كان اي جبلة وطبعا اصحاب الايكة وهم قوم
شعيب عليه السلام وقد ذكر الله تعالى قصصهم في سورة الشعراء
والايكة الشجر الممتكاثف وقيل السجر الملتف وقال ابن عباس هي
شجرة المقل وقال الكلبي الايكة الغيضة اي عنيضة شجر بقرب مدين
لظالمين اي عريقين في الظلم بتكذيبهم شعيبا عليه السلام فانتقمنا
منهم اي بسبب ذلك قال المفسرون استكثر فيهم ايام اضطرم
عليهم المكان نارا فهلكوا عن آخرهم وقوله تعالى وانهما فيه قولان
الاول المراد قرى قوم لوط والايكة والقول الثاني ان الضمير للايكة
ومدين لان شعيبا كان مبعوثا اليهما فلما ذكر الايكة دل بذكرها على
مدين فجاء ضمير هما لهما بامام اي بطريق مبين اي واضح والامام اسم ما
يؤتم به قال الفراء انما جعل الطريق اماما لانه يؤم ويتبع وقال ابن
قتيبة لان المسافر يأتم به حتى يصل الى الموضع الذي يريده ثم ذكر

تعالى

تعالى القصة الرابعة وهي قصة صالح عليه السلام بقوله تعالى ولقد كذب
اصحاب الحجر وهي ثمود قوم صالح عليه السلام وديارهم بين المدينة
الشريفة والشام المرسلين اي كلهم بتكذيب رسلهم كما كذب هؤلاء المرسلين
بتكذيبك لان الرسل يشهد بعضهم لبعض بالصدق فمن كذب واحدا
منهم فقد كذب الجميع وهم في اثبات الرسالة والمعجزة على حد سوا
ثم انتج ذلك قوله تعالى واتيناهم اي بما لنا من العظمة والقدرة على
يد رسلهم صالح عليه السلام اياتنا اي ايات الكتاب المنزل على نبيهم
او معجزات كالناقة وكان فيها ايات كثيرة كخروجها من الصخرة وعظم خلقها
وقرب ولادها وغزارة لبنها وانما اضاف الايات اليهم وان كانت لنبيهم
صالح عليه السلام لانه مرسل من ربهم اليهم بهذه الايات فكانوا عنها
اي الايات معرضين اي تاركينها غير ملتفتين اليها لاستنكرون فيها
ثم زجر تعالى انهم كانوا امثل هؤلاء في الامن من العذاب والغفلة عما
يراد بهم مع انهم كانوا اشد منهم فقال تعالى وكانوا ينحتون من الجبال
قلع جزء بعد جزء من الجسيم على سبيل المنحت من الجبال اي التي تقدم
انا جعلنا هارواسي بيوتا امنين عليها من الانهدام وبعد اللصوص
وتخريب الاعداء وتاقتها لا كبيوتكم التي لا بقاء لها على ادنى رجة
وقرا ورش وابو عمرو وحفص بترقيق الباء والباقون بتفخيمها فاخذتهم
الصيحة اي صيحة العذاب مصبحين اي وقت الصبح فما اغنى اي ما دفع عنهم
العذاب والبلاء ما كانوا يكسبون اي يعملون من بناء البيوت الوثيقة
واستكثار الاموال والعدد وعن جابر رضي الله عنه لما مر رسول
رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لنا لا تدخلوا مساكن
الذين ظلموا انفسهم الا ان تكونوا باكين حذرا ان يصيبكم مثل ما اصاب هؤلاء
ثم زجر رسول الله صلى الله عليه وسلم راحلته فاسرع حتى خلفها وما ذكر

تعالى بهذه القصص تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم فانه اذا سمع ان الامم السالفة كانوا يعاملون انبياء الله بمثل هذه المعاملة سهل عليه تحمل تلك السفاهة
قال تعالى **وما خلقنا السموات** على عالمها من العلو والسمو **والارض** على عالمها من المنافع والغرايب **وما بينهما** من هولا المشركين المكذبين وغيرهم ومن المياه والرياح والسحاب المسبب عن النبات وغير ذلك **الا بالحق** اي الا خلقا ملتبسا بالحق فيتفكر فيه من وفقه الله تعالى ليعلم النشاة الاخرى بهذه النشاة الاولى **وان الساعة** اي القيامة **لاتية** لا محالة فيجازي الله تعالى كلا حسب عمله ثم ان الله تعالى لما صبره على اذى قومه عرفه بعد ذلك كيف الصفح عن سيئاتهم بقوله تعالى **فاصفح الصفح الجميل** اي اعرض عنهم اعراضا لا جزع فيه ولا تحمل بالانتقام منهم وهذا منسوخ باية السيف قال الرازي وهو بعيد لان المقصود من ذلك ان يتعلم الخلق الحسن والصفح لتتكيف بكيف يصير مستوخا النبي والاول جرى عليه النبوي وجماعة من المفسرين ثم علل تعالى هذا الامر بقوله **ان ربك** اي المحسن اليك الآمر لك بهذا **هو** اي وحده **الخلاق** اي المتقن لهذا الفعل **العليم** اي البالغ العلم بكل المعلومات فليست اقوالهم وافعالهم الا عند سبحانه وتعالى لانه خالقها وقد علمت انه لا يضيع مثقال ذرة فاعتمد عليه في اخذ حقك فانه نعم المولى ونعم النصير وكما صبره الله تعالى على اذى قومه وامره ان يعفو عنهم الصفح الجميل اتبع ذلك بتذكير النعم العظيمة التي خص الله تعالى افضل خلقه بها بقوله تعالى **ولقد اتيناك** يا افضل الخلق بما لنا من العظمة والقدرة **سبعا** من آيات صاحبك عليه السلام ما تقدم **سبعا** يكون كل سبع منها كالجملة بما تحلا تتباب من ابواب النيران السبعة وهي ام القران الجامعة لجميع معاني القران التي امرنا باعادتها في كل ركعة زيادة في حفظها وتيسير

بلفظها

بلفظها وتذكر المعاني فيها تخصيصا لها عن بقية الذكر الذي تكلفنا بحفظه والسبب في وقوع هذا الاسم على الفاتحة لانها سبع ايات وهذا ما عليه اكثر المفسرين روي ان النبي صلى الله عليه وسلم قرأ الفاتحة وقال هي السبع المثاني روي ابو هريرة وقيل المراد سبع سور وهي الطوال واختلف في السابعة فقيل الانفال والبراءة لانهما في حكم السورة الواحدة لذلك لم يفصل بينهما بآية البسملة وقيل الحواميم السبع وقيل سبع صحايف وهي الاسباع وقوله تعالى **من المثاني** صفة للسبع وهي جمع واحده مثناة والمثناة كل شيء ثنيتي اي بجعل اثنين من نوعه ثنيته التي تثنيتا اي عطفته وضممت اليه اخرى ومنه يقال لركبتي الدابة ومرفقيها مثانيا لانه يثنى بالفخذ والعضد ومثاني الوادي معاطفه اما تسمية الفاتحة بالمثاني فلوجوه الاول انها تثنى في كل صلاة بمعنى انها تقرا في كل ركعة الثاني انها تثنى بما بعدها فيما يقراهما الثالث انها قسمت من قسمين اثنين لما روي انه صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين والعبد ما سئل وقد ذكرته في رجم فقسمتها صلاة عند ذكرها الرابع انها قسمان ثناء ودعاء والينا النصف الاول منها حق الربوبية وهو الثناء والنصف الثاني حق العبودية وهو الدعاء الخامس ان كلمة ما مثناة مثل الرحمن الرحيم اياك نعبد واياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم واما السور والاسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك والمراد فيها من الثناء كما مر تثنى على الله تعالى بافعاله العظيمة وصفاته الحسنى تنبيه من في المثاني اما للبيان او للتبعيض اذ الاردت

السباع قال الزمخشري ويجوز ان تكون كتب الله كلها مثاني لانها تثني عليه لما فيه من المواعظ المكررة ويكون القرآن بعضها وقوله تعالى والقرآن العظيم اي الجامع لجميع معاني الكتب السماوية المتكفل بخير الدارين مع زيادات لا تخفى فيه او جه احدها انه من عطف بعض الصفات على بعض اي الجامع بين هذين النعتين الثاني انه من عطف العام على الخاص اذ المراد بالسبع اما الفاتحة او الطوال فكانه ذكر مرتين تتميما للفرض ثم بان راجح في العموم الثالث ان الواو مقحمة ولما عرفه سبحانه وتعالى رسوله عظيم نعمه عليه فيما يتعلق بالدين وهو انه آتاه مسجا من المثاني والقرآن العظيم نهاه عن الرغبة في الدنيا بقوله تعالى لا تمدن عينيك اي لا تشغل سرك وخاطرك بالالتفات الاحاد متقنا به ازواجا منهم اي اصنافا من الكفار والزوج في اللغة الصنف وقد اوتيت القرآن العظيم الذي فيه غنى عن كل شيء قال ابو بكر رضي الله عنه من اوتي القرآن فرأى ان احدا اوتي من الدنيا افضل مما اوتي فقد صغر عظيما وعظم صغيرا وتاول سفيان بن عيينة هذه الاية بقول النبي صلى الله عليه وسلم ليس منا من لم يتغن بالقرآن اي لم يستغن وقال ابن عباس رضي الله عنهما لا تمدن عينيك اي لا تتمن ما فضلنا به احدا من متاع الدنيا وقيل اتت من بعض البلاد بسبع قوافل ليمرد قرظة والنضير فيها انواع البرد والطيب واجواهر وسائر الاحتعة فقال المسلمون لو كانت هذه الاموال لنا لتقوينا بها وانفقناها في طاعة الله فقال الله تعالى لقد اعطيتكم سبع ايات هي خير من هذه القوافل السبع وقد اوا حرب هذا المعنى فقال انما يكون مادا عينيه الى الشيء اذا ادام النظر نحوه وادامة النظر على الشيء

تدل

تدل على استحسانه وتمنيه وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا ينظر الى ما يستحسن من متاع الدنيا ويرى انه نظر الى نعم بني المصطلق وقد عرست في ابوالها وابعارها وهو اذ يجف ابوالها وابعارها على اتخاذها اذا تركت من العمل ايام الربيع فتكثر شحومها ولحومها وهي اتحسن ما تكون وعن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا الى من هو اسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فانه اجدر ان لا تزدروا نعمة الله عليكم وقوله تعالى ولا تحزن عليهم يعني لعدم الالتفات اليهم ان لم يؤمنوا فتخلصوا انفسهم من النار ولما نهاه سبحانه وتعالى عن الالتفات الى اولئك الاغنياء من الكفار امره بالتواضع لفقراء المسلمين بقوله تعالى واخفض جناحك اي الزمهم للمؤمنين اي الفريقين من هذا الوصف واصبر نفسك معهم وارفق بهم ولما امر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالزهد في الدنيا والتواضع للمؤمنين امره بتبليغ ما ارسل به اليهم بقوله تعالى وقل اني انا النذير من عذاب الله ان بين لكم ان لم تؤمنوا وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون المبين اي البين الانذار وقوله تعالى كما انزلنا اي العذاب على المقتسمين قال ابن عباس هم اليهود والنصارى سموا بذلك لانهم آمنوا ببعض القرآن وكفروا ببعضه فما وافق كتبهم امنوا به وما خالف كتبهم كفروا به وقال عكرمة انهم اقتسموا سور القرآن فقال واحد هذه السورة لي وانما فعلوا ذلك استهزاء به وقال مجاهد اقتسموا كتبهم فآمن بعضهم ببعضها وكفر بعضهم ببعض وقال قتادة اراد المقتسمين كفار قريش قال سموا بذلك لانهم اقتسموا في القرآن فقال بعضهم انه سحر وزعم بعضهم انه كهانة وزعم بعضهم انه اساطير الاولين وقال ابن السايب

سموا بالمقتسمين لانهم اقتسموا طرق مكة وذلك انا الوليد بن المغيرة
بعث رهطا من اهل مكة حيث تمر بكم فيال ستة عشر وقيل اربعين
وقال انطلقوا فتفرقوا على طرق مكة حيث يمر بكم اهل الموسم فاذا
سالوكم عن محمد فليقل بعضكم انه مجنون وليقل بعضكم انه كاهن
وليقل بعضكم انه ساحر وليقل بعضكم انه كاهن وشيعر شاعر
فذهبوا وقعدوا على طرق مكة يقولون ذلك لمن يمر بهم من حجاج الكفار
وقعد الوليد بن المغيرة على باب المسجد بموسم فسوه حكما فاذا اجاء
سالوا عما قال او ليك فيقول صدقوا انا هلكم الله تعالى يوم بدر
وقوله تعالى الذين جعلوا القرآن عضين نعت للمقتسمين وقال
ابن عباس هم اليهود والنصارى جزوا القرآن اجزاء فامنوا
بما وافق التوراة وكفروا بالباقي وقال مجاهد قسموا كتاب الله
فرقوه وبددوه وقيل كانوا يستهزؤن به فيقول بعضهم للبقرة لي ويقول
قائله بعضهم بسورة آل عمران لي وقيل اقتسموا القرآن
فقال بعضهم سحر وقال بعضهم شعر وقال بعضهم كذب وقال بعضهم
اساطير الاولين وقيل هم اهل الكتاب اقروا ببعض كتبهم وكفروا
ببعض على ان القرآن ما تقرؤنه من كتبهم فيكون ذلك تسلية
لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم
وقولهم سحر وشعر واساطير الاولين باذ غيرهم من الكهنة بغلوا
بغيره من الكتب نحو فعلهم تلبيته عضين جمع عضة وهي الفرقة
والعضين القرآن وتقدم معنى جعلهم القرآن كذلك وقيل
العضة السحر بلغة قريش يقولون هو عضة وهي عاضهة وفي
الحديث لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم العاضهة والمستعضهة
اي الساحرة والمستسحرة وقيل هو من العضه وهي الكذب والبهتان

يقال

يقال عضه عضها وعضيهة اذا رماه بالبهتان وقيل جمع عضو ماخوذ
من قولهم عضيت الشيء اعضه اذا فرقته وجعلته اجزاء ذلك انهم جعلوا
القرآن اعضاء متفرقة فقال بعضهم سحر وبعضهم اساطير الاولين ثم قسم
سبحانه وتعالى بنفسه على الله بيسالهم يوم القيامة المقتسمين الذين جعلوا القرآن
عضين بقوله تعالى فوربك لنسالنهم اجمعين عما كانوا يعملون فيكون
الضمير عائدا على المقتسمين لانه الاقرب ويحتمل ان يعود على جميع الكفار
لان ذكرهم تقدم في قوله تعالى وقل اني انا النذير المبين اي لجميع
الخلق قال جماعة من المفسرين يسالون عن لا اله الا الله وقال ابو
العالية يسالون عما كانوا يعبدون وما اجابوا المرسلين فان قيل كيف
الجمع بين قوله تعالى فوربك لنسالنهم اجمعين وبين قوله تعالى فيومئذ
لا يسال عن ذنبه انس ولا جان اجيب بان الناس يغترف
الى بعض الاوقات والاماكن الى وقت آخر كذلك يوم القيامة يوم طويل
وفيه مواقف يسالون في بعضها ولا يسالون في بعض اخر وتخييره
قوله تعالى هذا يوم لا ينطقون وقال في اية اخرى ثم انكم يوم القيمة
عند ربكم تختصمون ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فاصدع اي
اجهر بما تؤمر وسنة فارق بين الحق والباطل وقرا حمزة والكسائي
باسكان الصاد الساكنة قبل الدال والباقون بالصاد الخالصة بما اي
بسبب ما تؤمر به امر النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الاية باظهار
الدعوة روي عن عبد الله بن عبيدة قال كان مستخفيا حتى نزلت
هذه الاية فخرج هو واصحابه واعرض اي اعراض من لا يبالي عن المشركين
بالصفح الجميل عن الاذى والاجتهاد في الدعاء ولا تلتفت على لومهم
اياك على اظهار الدعوة قال بعض المفسرين كالبغوي وهذا منسوخ
باية القتال قال الرازي وهو ضعيف لان معنى هذا الاعراض

تركه المبالات بهم فلا يكون هستهزا ولما كان هذا الصدع في غاية السدة
عليه صلى الله عليه وسلم لكثرة مايلقى منه من الاذى حفظه عنه سبحانه
وتعالى بقوله مسلاة له انا اي بعظمتنا وقدرتنا كفيناك المستهزئين
اي بسنا الذين بهم عزيتون في الاستهزاء بهم خمسة نفر من رؤساء قريش
الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وعدي بن قيس والاسود بن
عبد المطلب والاسود بن عبد يغوث وصفهم سبحانه وتعالى بقوله
بقوله تعالى الذين يجعلون مع الله الها آخر وقيل ليس بصفة بل مبتدا
ولتضمنه معنى الشرط دخلت الفاء في خبره وهو فسوف يعلمون اي عاقبة
امرهم في الدارين ولما ذكر سبحانه وتعالى ان قومه يستهزءون عليه
ولا سيما اولئك المقتسمون قال له تعالى ولقد نعلم انه يضيق وقوع علمنا
انك اي مع ما لك من علم وسعة البطان يضيق صدرك اي يوجد
ضيقه وتجد دعا بقولهم اي من الاستهزاء والتكذيب بك وبالقرآن
لان الجبلة البشرية والمزاج الانساني يقتضي ذلك فعنده هذا
قال تعالى فسبح حامدا بحمد ربك اي نزهه عن صفات النقص وقال
الضحاك قل سبحان الله وبحمده وقال ابن عباس فصل بامر ربك
وكن من الساجدين اي المصلين روي انه صلى الله عليه وسلم كان
اذا حزبه امر فزع الى الصلاة وقد مضت معناه في سورة البقرة وتنبيه
اختلف الناس كيف صار الاقبال على الطاعات سببا لزوال ضيق
القلب والحزن فقال العارفون المحققون اذا اشتغل الانسان
بمثله الانواع من العبادات ينور باطنه ويشرق عليه ويفيض
وينشرح صدره فعند ذلك يعرف ذلة الدنيا وحقارتها فلا يلتفت
اليها وقال بعض الحكماء اذا نزل بالانسان بعض المكاره فليفزع الى
الطاعات فكانه يقول يا رب بحب علي عبادتك سواء عطيتني اجرات

او لم تعطني في الحال وهات فانا عبدك بين يديك فاعمل اي ما شئت واعبد
ربك حتى ياتيك اليقين قال ابن عباس يريد الموت وسمي الموت يقينا
لانه امر متيقن وهذا استدلال بقوله تعالى في سورة مريم واوصاني بالصلاة
والزكاة ما دمت حيا وروي البغوي باسناده عن جبير قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم ما اوحى الله الي اذا جمع المال واكون من التاجرين
ولكن اوحى الي ان سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى
ياتيك اليقين فان قيل اي فائدة لهذا التوقيت مع ان كل احد يعلم انه
اذا مات ستقطع عنه العبادات اجيب بان المراد منه واعبد ربك في
جميع زمان حياتك فلا تخل لحظة من لحظات الحياة بمثله العبادات وعن
عمر رضي الله عنه قال لما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مصعب بن
عمير مقبلا وعليه اهاب كبش قد تنطق به فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم انظروا الى هذا نور الله قلبه لقد رايته بين ابويه يغذانه
باطيب الطعام والشراب ولقد رايت عليه حلة سراها ارقا التاسعة
له بما يتبين من هذا حب الله ورسوله الى ما ترون وما رواه
البيهقي في شعب الايمان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال من
قرا سورة النحل كان له من الاجر عشر حسنات بعدد كل مهما جر بين والمهاجرين
والمستهزئين محمد صلى الله عليه وسلم حديث موضوع

سورة النحل مكية

الا قوله تعالى وان عاقبتم الى آخر السورة
وحكي الاصم عن بعضهم انها كلها مدنية وقال اخرون من اولها الى
قوله كن فيكون مدني وما سواه مكي وعن قتادة بالعكس وتسمى
سورة النعم والمقصود من هذه السورة الدلالة على انه تعالى تام
القدرة والعلم فاعل بالاختيار منزه عن سوء النقص وادلة على
ذلك في هذه السورة اكثر من سائر السور فمن ذلك قوله تعالى

بيوتها ورحبها وسائر امرها من اختلاف الرياح وما يمزج منها من اعمالها
وجعله شفاء لكل ما من الحمى الخافقة والصداع وغير ذلك من الامور
وسلمها بالنهي واضح وبي حماية وثمانية عشر اية والثانية وثمانية
والعشرون كلمة وعدد حروفها مئة الف وسبعة وثمانون وسبعة احرف
بسم الله اي المحيط بجميع الكمال فما شاء فعل الرحمن اي الذي عمت
نعمته جليل خلقه وحقيره وكبيره الرحيم اي الذي خص اولياءه
بنعمة الجنة مما يستحقه بما يراه وقوله تعالى الى امر الله فيه وجهان
احدهما ان ما هو ظاهر لفظا مستقبل معنى اذ المراد به يوم القيمة والثاني
البر به في صورة ما وقع والتحقق تحقيقا له والصدق المخبر به والتالي
الله علي بابه والمراد عقد مانة قواوايله وهو نص رسول الله صلى
الله عليه وسلم اذ جاء امر الله ودين وقرنه فالله يقال في الكلام
المعتاد الله ذا اتي وقرنه بر الملجب وقوعه بجري الواقع يقال
لمن طلب الاعانة وقرب حصولها جاءك الغوث اي اتى امر الله وعدا
فلا تستعجلوه وقوعا قبل مجيئه فانه واقع لا محالة روي انه صلى
الله عليه وسلم قال بعثت انا والساعة كهاتين واشار باصبعيه
السبابة والوسطى قال ابن عباس كان بين رسول الله صلى
الله عليه وسلم وبين اشراط الساعة ولما مر جبريل باهل السموات
مبعوثا الى النبي صلى الله عليه وسلم قالوا الله اكبر قامت الساعة
وروي انه لما نزل اقتربت الساعة قال الكفار بعضهم لبعض ان
هذا ابن ابي كبشة يزعم ان القيمة قد اقتربت فامسكوا عن بعض ما يقول
حتى ينظر ما هو كائن فلما تاخرت قالوا ما نرى شيئا فنزل اقترب
للناس حسابهم فامسكوا وانتظروا فلما امتدت الايام قالوا يا محمد
ما نرى شيئا مما تخوفنا به فنزل اتى امر الله فوثب رسول الله صلى الله

عليه

عليه وسلم ورفع الناس رؤسهم وظنوا انها قد اتت حقيقة فنزل لا
تستعجلوه فاطمانوا فقال الكفار قد سلمنا لك يا محمد الا انا نعبد هذه
الاصنام لتشفع لنا عند الله تعالى فنخلصنا من هذا العذاب المحكوم
به فاجابهم الله تعالى بقوله سبحانه تنزيها وتعالى عما يشركون اي
تبرا عن سبحانه وتعالى بالاوصاف الحميدة عن ان يكون له شريك في ملكه
وقرا حمزة والكسائي اتيا بالامالة وقرا ورش بالفتح وبين اللفظين
والباقون بالفتح وقرا حمزة والكسائي عما يشركون في الموضعين بالتا
على وفق قوله فلا تستعجلوه والباقون بالياء على الغيبة على تلوين
الخطاب او على ان الخطاب للمؤمنين او لهم ولغيرهم ولما اجاب سبحانه
الكفار عن تلبسهم بقوله تنزيها لنفسه عما يشركون وكان الكفار
قالوا هب ان الله تعالى تغنى على بعض عبيده بالشر وعلى اقرانه
بالكبر ولكن كيف يمكنك ان تعرف هذه الامور التي لا تعلمها الا الله تعالى
وكيف صرت بحيث تعرف اسرار الله تعالى واحكامه في ملكه وملكوته
فاجابهم الله تعالى بقوله ينزل الملائكة قال ابن عباس يريد بالملائكة
جبريل وحده قال الواحدي يسمي الواحد باسم الكل اذا كان ذلك الواحد
رئيسا وقرا ابن كثير وابو عمر وبتخفيف الزاي والباقون بتشديدها
والمراد بالروح الوحي اي القرآن فان القلوب تحيى به من موت
الجهالات وقوله تعالى من امره اي بارادته حال من الروح على من
يشاء من عباده وهم الانبياء ان انذروا اي خوفوا الكافرين بالعذاب
واعلموهم انه اي الشان لا اله الا انا اي لا اله غيري وقوله تعالى
فاتقون اي خافوني في رجوع الي بحاطبتهم بما هو المقصود تنبيه
من قوله تعالى أن في أن انذروا ثلاثة اوجه احدها انها المفسرة
لان الوحي فيه ضرب من القول والانذار بالروح عبارة عن الوحي

قال تعالى وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا الثاني اينما المختفة من
الثقيلة واسمها ضمير الشان محذوف الثالث اينما المصدرية التي من
شانها نصب المضارع وصلت بالامر كقولهم كتبت اليه ان قم والاية
تدل على ان نزول الوحي بواسطة الملائكة وان النبوة عطائية ولما
وحد سبحانه وتعالى نفسه ذكر تعالى الايات الدالة على وحدانيته
من حيث انها تدل على ان تعالى اوجد لوصول العالم وفوزه على
وفق الحكمة والمصلحة بقوله تعالى خلق السموات اي التي هي السقف المظلل
والارض اي التي هي البساط المقل بكن اي اوجد هما على مقدار وكمل
واوضاع وصفات مختلفة قدرها وخصها بحكمته تعالى اي تعالى فاذ
الوصف عما يشركون فيه من الاصنام ولما خلق السموات والارض جعلها
لتقدمهما وكان خلق الانسان على هذه الهيئة سماوية فتكون
اقوى في الدلالة على وحدانيته تعالى قال تعالى خلق الانسان
اي هذا النوع من نطفة اي آدم عليه السلام من مطلق الماء ومن
تفرع منه بعد زوجه حوا من ما مقيد بالدفق الذي هو صبه قويا
شديدا فاذا هو خصيم اي شديد الخصومة مبين اي بينها روي ان
ابي بن خلف الجمحي وكان ينكر البعث جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم
بعظم رميم فقال اترعم يا محمد ان الله تعالى يحيي هذا العظم بعد ما
قد رم فنزلت هذه الاية ونزل فيه ايضا قوله تعالى قل يحييها الذي
العظام وهي رميم قال الخازن في تفسيره والصحيح ان الاية عامة
في كل ما تقع فيه الخصومة في الدنيا ويوم القيامة وهما على
العموم اولى ولما كان اشرف الاجسام الموجودة في العالم السفلي
بعد الانسان سائر الحيوانات واشرفها الانعام ذكرها بقوله
تعالى والانعام اي الازواج الثمانية الضان والمعز والابل والبقر

ونفسه

ونفسه بفعل يشبه خلقها قال الواحدي تم الكلام عند قوله والانعام
خلقها ثم ابتدا فقال لكم فيها دفء اي ما يدفئ به من الملابس والا
كسية ونحوها المتخذة من الاصواف والاوبار والاشعار قال وجوز ان
ان يكون تمام الكلام عند قوله والانعام خلقها لكم ثم ابتدا فقال فيها
دفء قال الرازي قال صاحب النظم واحسن الوجهين ان يكون الوقف
عند قوله تعالى خلقها والدليل عليه انه عطف عليه ولكم فيها جمال
والتقدير لكم فيها دفء ولكم فيها جمال ولما ذكر تعالى الانعام ذكر لهما انوا
من المنافع الاول قوله تعالى لكم فيها في النوع الثاني قوله تعالى ومنافع
اي ولكم فيها منافع من نسلها ودرها وركوبها والحمل عليها وساير
ما ينتفع به من الانعام وانما عبر تعالى عن ذلك بلفظ المنفعة وهو
اللفظ الدال على الوصف الاعم لان الدر والنسل قد ينتفع به في
الاكل وقد ينتفع به في البيع بالنقود وقد ينتفع به بان يبدل بالثياب
وسايز الضروريات فعبر عن جملة هذه الاقسام بلفظ المنافع لتناول
الكل النوع الثالث قوله تعالى ومنها تاكلون فان قيل لقد قدم
الظرف يفيد الحصر لان تقديم الظرف يوذن بالاختصاص وقد لوكل
من غيرها اجيب بان الاكل من هذه الانعام هذا الذي يعتمده
الناس في معاشهم واما الاكل من غيرها كالدجاج والبط والاوز
وصيد البر والبحر فليس بمعتد به في الاغلب والكلة يجري مجرى
الغالب في الاكل من هذه الانعام فان قيل منفعة الاكل مقدمة على
منفعة اللباس فلم قدم منفعة اللباس عليه اجيب بان منفعة اللباس
اكثر من منفعة الاكل فلهذا قدمت على الاكل ولكم فيها جمال اي زينة
حين ترجعون اي ترد ونها من مراعيها الى مراحها بالعشي وحين تسرحون
اي تخرجونها بالغداة الى المرعى فان الانعية تتزين بهما في الوقتين

وتجمل الهما في اعين الناظرين اليها فان قيل لم قدمت الاراحة على
التسريح اجيب بان الجمال في الاراحة اظهر اذا اقبلت ملاء البطون
حافلة الضروع ثم اردت الى الحظائر حاضرة لاهلها فيفرح اهلها بها
بخلاف تسريحها الى المرعى فانها تخرج جائعة البطون خامرة الضروع
ثم تاخذ في التفرق والانتشار الى المرعى في البرية فليس في التسريح
تجمل كما في الاراحة الوزع الرابع قوله تعالى وتحمل اثقالكم جمع ثقل وهو
متاع المسافر الى بلد اي غير بلدكم اذا اردتم السفر اليها لم تكونوا
بالغيه اي غير واصلين اليها على غير الابل الا بشق الانفس
اي الا بكلفة ومشقة والشق بكسر الشين نصف الشيء اي لم تكونوا
الا بتنقصات قوة النفس وذهاب نصفها وقال ابن عباس يريد من
مكة الى اليمن والى الشام والى مصر قال الواحدي والمراد كل بلد
لو كلفتم بلوغه على غير الابل شق عليكم وخص ابن عباس هذه البلاد
لانه متاجر اهل مكة كانت الى هذه البلاد فان قيل امر ادخل في قوله
تعالى والانعام خلقها الابل فقط به لبيان انه وصفها الى آخر الاية
بقوله وتحمل اثقالكم الى بلد وهذا الوصف لا يليق الا بالابل اجيب
بان المقصود من هذه الايات تعديد منافع الانعام فبعضها
حاصلة في الكل وبعضها مختص بالبعض والدليل عليه ان قوله ولكم
فيها جمال حاصلة في البقر والغنم مثل حصوله في الابل تنبيه اصح
شكر واكرامات الاولياء بهذه الاية فانها تدل على ان الانسان
لا يمكنه الانتقال من بلد الى بلد الا بشق الانفس وحمل الاثقال على
الابل وحشوا الكرامات يقولون ان الاولياء قد ينتقلون من بلدة
الى بلد آخر بعيد في ليلة واحدة من غير تعب وتحمل مشقة وكان
ذلك على خلاف هذه الاية فيكون باطلا واذا بطل القول

بالكرامات

بالكرامات في هذه الصور بطل القول بها في سائر الصور اذ لا قائل
بالفرق واجاب المبتدعون بان تخصيص عموم هذه الاية بالادلة الدالة
على وقوع الكرامات ان ربكم اي الموجد لكم والمحسن اليكم لرؤف اي
بليغ الرحمة لمن يتوسل اليه بما مر وقرا ابو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي
بقصر الهمزة والباقون بالمد رحيم اي بليغ الرحمة بسبب وبغير
سبب وقوله تعالى والخيل اي الخاصلة وهو اسم جنس لا واحد له
كالابل والرهط والنفر والخيل اي المتولدة بينها وبين الحمر والبغال اي الفارهة
عطف على الانعام اي وخلق لكم هذه الحيوانات لتركبوها اي للجل
ان تركبوها وفي نصب قوله تعالى وزينة اوجه احدها انه مفعول له
اجله وانما وصل الفعل اليه الاول وهو السبب باللام في قوله تعالى لتركبوها الى
هذا لنفسه لاختلال شرط في الاول وهو عدم اتحاد الفاعل فان
الخالق هو الله والراكب انما يطيق بخلاف الثاني انما منصوبة على
الحال وصاحب الحال اما مفعول خلقها واما مفعول لتركبوها
فهو مصدر اقيم مقام الحال الثالث ان ينتصب بتقدير يفعل ذلك له
الزمخشري بقوله وخلقها زينة وقدله ابن عطية وغيره بقوله
وجعلها زينة الرابع انها مصدر لفعل محذوف اي وتتزينون بها
زينة تنبيه اصح القائلون وهم ابن عباس ومالك وابو حنيفة
ومالك بتحريم لحوم الخيل بهذه الاية قالوا منفعة الاكل اعظم من
منفعة الركوب فلو كان اكل لحم الخيل جائزا لكان هذا المعنى اولى
بالذكر فحيث لم يذكره تعالى علمنا انه محرم اكله لان الله تعالى خص
الانعام بالاكل حيث قال وقد منا ما اكلون وخص هنه بالركوب فقال
لتركبوها فعلمنا انما مخلوقة للركوب لا للاكل واصح القائلون
باباحة اكل لحم الخيل وهم سعيد بن جبير وعطاء وشريح والحسن

والثاني بما روي عن اسماء بنت ابي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت نحرنا على
عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا ونحن بالمدينة وبما روي عن جابر
رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الاهلية واذن
في الخيل وفي رواية الكلبي رخص في لحوم الخيل وحرم الوحشي نهى النبي صلى
الله عليه وسلم عن اكل الحمار الاهلي هذه رواية البخاري ومسلم وفي رواية
ابي داود قال ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير ولكنا قد اهانا بنا
مخصصة فيما نا النبي صلى الله عليه وسلم عن البغال والحمير ولم ينهنا عن
الخيل واجابوا عن هذه الاية بان ذكر الركوب والزينة لا يدل على
ان ما عداهما مختصة بذلك وانما خصهما بالذكر لانهما
معظم المقصود ولهذا سكت عن حمل الاثقال على الخيل مع قوله تعالى
في الانعام وتحمل اثقالكم وليلزم من ذلك تحريم حمل الاثقال على الخيل
وقال الواحدي لو دلت هذه الاية على تحريم هذا الحيوان لكان
تحريم اكلها معلوما في مكة لاجل ان هذه السورة مكية ولو كان
الامر كذلك لكان قول عامة المفسرين والمحدثين ان لحوم الحمر
الاهلية حرمت يوم خيبر اي وذلك في المدينة باطلا لان التحريم
لما كان حاصلا قبل هذا اليوم لم يكن لتخصيص هذا التحريم بهذه
السنة فائدة قال الرازي وهذا جواب حسن مبين وقال ابن
الخازن والدليل الصحيح المعتمد عليه في اباحة لحوم الخيل ان السنة
مبينة للكتاب ولما كان نص الاية يقتضي ان الخيل والبغال والحمير
مخلوقة للركوب والزينة كان الكل متروكا عنه وان الامر فيه
على الاباحة والتحريم فورد السنة باباحة لحوم الخيل وتحريم لحوم
البغال والحمير اخذا بالجمع بين النصين ولما ذكر سبحانه وتعالى
هذه الانواع من الحيوان ذكر باقيها على سبيل الاجمال بقوله تعالى

ويخلق

ويخلق ما لا تعلمون وذلك لان انواعها واصنافها واقسامها كثيرة
خارجة عن العد والاحصاء ولو خاض الانسان في شرح عجايب احوالها
لكان المذكور بعد كتبه المجلدات الكثيرة كالقطرة في البحر فكان احسن
الاحوال في ذكرها الاجمال كما ذكر الله تعالى في هذه الاية وروي عطا
ومقاتل والضحاك عن ابن عباس انه قال ان عن يمين العرش نهرا
من نور مثل السموات السبع والارضين السبع والبحار السبعة يدخل
منه جبريل كل سحر ويغتسل ويزداد نورا الى نوره وجمالا الى جماله ثم
ينتفض فيخلق الله تعالى من كل نفضة تقع من ريشه كذا وكذا الف
ملك يدخل منهم كل يوم سبعون الفا البيت المعمور وفي الكعبة الفا
سبعون الفا لا يعودون اليه الى ان تقوم الساعة سبحان من لهذا
الملك العظيم قال تعالى وما يعلم جنود ربك الا هو وفسر قتادة
الاية بالسوس بالنبات والدود في الفواكه ونسبها بعضهم بما
اعد الله تعالى للاهل الجنة في الجنة مما لا عين رات ولا اذن سمعت
ولا خطر على قلب بشر ولما شرح الله تعالى دلائل التوحيد قال
تعالى وعلى الله اي الذي له الاحاطة بكل شيء قصد السبيل اي
بيان الطريق المستقيم اما ذكرت هذه الدلائل وشرحها ان لله
للعذر وانا لله للعلة ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي
عن بينة والمراد بالسبيل الجنس ولذلك اضاف اليها القصد وقال
ومنها اي السبيل جاير اي حايد عن الاستقامة فان قيل هذه الاية
تدل على ان الله تعالى يجب عليه الارشاد والهداية الى الدين والزاحة
العلل والاعذار كما قال به المعتزلة لانه تعالى وعد الله قصد
السبيل وكلمة على للوجوب قال تعالى ولله على الناس حج البيت
اجيب بانه المراد على الله تعالى بحسب الفضل والكرم ان يبين

الدين اكمل والمذهب الصحيح فان قيل لم عدل اسلوب الكلام حيث قال في
الاول وعلي الله قصد السبيل وفي الثاني ومنها جائر ولم يقل وعليه جائر
اجيب بان المقصود بيان سبيله وتقسيم السبل الي القصد والجائر
انما جاء بالفرض ثم قال تعالي وليشاهدا تكم الهدا تكم الي قصد السبيل
اجمعين فتهتدون اليه باختيار منكم قال الرازي وهذا يدل علي ان
الله تعالي ما شاء هداية الكفار وما اراد منهم الايمان لان كلمة لو
تفيد انتفاء الشي لانتفاء غيره ولما ذكر تعالي نعمه علي عباده بخلق
الحيوانات للاجل الانتفاع والزينة عقبه بذكر انزال المطر لانه من
اعظم النعم علي عباده فقال هو اي لا غيره مما يدعي فيه الالهية الذي
انزل اي بقدرته الباهرة من السما اي من نفسها او من غيرها او من
جهتها او من السحاب كما هو مشاهد ماء اي واحد يحسونه بالذوق
والبصر لكم منه اي من ذلك الما شراب اي تشربونه وقد بين تعالي في
اية اخري ان هذه النعمة جليلة فقال وجعلنا من الماء كل شي حي
فان قيل ظاهر هذا ان شرابنا ليس الا من المطر اجيب بان لفظ تعالي
لم ينف ان نشرب من غيره وبتقدير انحصر لا يمتنع ان يكون الما العذب
تحت الارض من جملة ماء المطر سلكن هناك بدليل قوله في سورة
المومنين وانزلنا من السماء ما بقدر فاسكناه في الارض وهنا اي
من الما شجر اي ينبت بسببه والشجر هنا كل نبات من الارض حتي
الكلا وفي الحديث لا تاكلوا من الشجر فانه سحت يعني الكلا فان
قيل قال المفسرون في قوله تعالي والنجم والشجر يسجدان والمراد من
النجم ما ينجم من الارض مما ليس له ساق اجيب بان عطف الجنس
علي النوع وبالعكس مشهور وايضا فلفظ الشجر يشعر بالاختلاط
قال تشاجر القوم اذا اختلطت اصوات بعضهم ببعض وتشاجرت

الرياح

الرماح اذا اختلطت وقال تعالي فيما يحكم بينهم فيما شجر بينهم ومعني
الاختلاط حاصل في العشب والكلا فوجب اطلاق لفظ الشجر عليه
ويصح ان يكون المراد بالشجر هنا ما له ساق لان الابل تقدر علي رعي
ورق الاشجار الكبار وقيل فاطلاق الشجر علي الكلا مجاز فيه اي الشجر
تسيمون اي ترعون من اسمت الماشية اذا خليتها ترعي
وسامت هي اذا رعت حيث شاءت قال الزجاج اخذ ذلك من السومة
وهي العلامة لانها ترعي في الارض بر عيها علامات وقال غيره لانها
تعلم الارسال في المرعي ولما ذكر تعالي الحيوانات تفصيلا واجمالا ذكر
في الثمار تفصيلا واجمالا بقوله ينبت اي الله لكم به اي بذلك الما الزرع
والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات فبدا بذكر الزرع وهو
الحب الذي يتقات به كالحنطة والشعير والارز لانه قوام البدن
وثني بذكر الزيتون لما فيه من الادم والدهن وبارك فيه وثلث
بذكر النخيل لان ثمرها غذا وفاكهة وختم بذكر الاعناب لانه يشبه
النخيل في المنفعة من التفكه والاغذية ثم ذكر تعالي سائر الثمار
اجمالا ليشبه بذلك علي عظيم قدرته وجزيل نعمته علي عباده
لان الحبة الواحدة تقع في الطين فاذا مضي عليها مقدار معين
من الوقت تغذي في داخل تلك الحبة اجزاء من رطوبة الارض
وهوائها فتنفتح الحبة فينشق اعلاها واسفلها فيخرج من اعلا
تلك الحبة شجرة صاعدة من داخل الارض الي الهوي ومن اسفلها
شجرة اخري غائصة في قعر الارض وهذه الغائصة تدعي المسماة
بعروق الشجرة ثم ان تلك الشجرة لا تزال تزداد وتنمو وتتوسع ثم
يخرج منها الاوراق والازهار والاكمام والثمار ثم ان تلك الثمرة
تشتمل علي اجزاء مختلفة الطبائع مثل العنب فان قشره وعجمه

باردان يابسان كثيفان ولحمه وحاره حار رطب لطيف والي ذلك
الاشارة بقوله تعالي ان في ذلك لاية اي بينة علي ان فاعل ذلك قام
القدرة يقدر علي الاعادة وانه مختار يفعل ذلك في الوقت الذي
يريده وانما تحصل معرفة ذلك لقوم يتفكرون فيما ذكر من دلايل قدرته
ووحدانيته ثم ذكر سبحانه وتعالي اشيا تدل علي انه الفاعل
المختار بقوله تعالي وسخر لكم اي ايها الناس لاصلاح احوالكم الليل للسكني
والنهار للمعاش ثم ذكر اية النهار فقال والشمس اي لمنافع اختصاصها بكم
ذكر اية الليل والنهار والقمر لامور علقها به والنجوم اي الايات نصبها
لهما علي تقديرها بقوله تعالي مسخرات اي بانواع التغيير لما خلقها له
علي اوضاع دبرها بامره ايها مبادرات تسيرا لصلاحكم وصلاح ما به
قوامكم دلالة علي وحدانيته تعالي وفعله تعالي بالاختيار ولو شا
تعالي لاقام اسبابا غيرها واغني عن الاسباب وقرا ابن عامر برفع
الاربع وهي الشمس والقمر والنجوم ومسخرات علي الابتدا والخبر وقرا
حفص في الاثنين الاخيرين والنجوم مسخرات لاغير والباقون بالخفض
اي بنصبن بالخفض عطفا علي ما قبله في الثلاث الاول وفي الرابع
وهو مسخرات دل علي الحال ولما ذكر سبحانه وتعالي هذه الاشيا وجعلها
مسخرات لمنافع عباده ختم ذلك بقوله ان في ذلك اي التسخير العظيم
لايات اي دلالات متعددة كثيرة عظيمة لقوم يعقلون اي يتدبرون
فيعلمون ان جميع الخلق تحت قدرته وتسخيره لما اراده منهم
وقوله تعالي وما ذرا اي خلق لكم في الارض عطف علي الليل اي وسخر
لكم ما خلق لكم فيها من حيوان ونبات وقيل انه في موضع نصب
بفعل محذوف اي وخلق هكذا قدره ابو البقا وكانه استعد تسلط
سخر علي ذلك فقدر فعلا للبقا وقوله مختلفا حال منه وقوله تعالي الوانه

اي في الخلقة والهيئة والكيفية فاعل به ان في ذلك لاية لقوم يذكرون
اي يتعظون تنبيه ختم تعالي الاية الاولي بالتفكر لان ما فيها يحتاج
الي تامل ونظر وختم الثانية بالعقل لان مدار ما تقدم عليه وختم
الثالثة بالتذكر لانه سهل بما تقدم وجمع الاليات في الثانية دون الاولي
والثالثة لان معانيها اكثر ولذلك ذكر معها العقل ولما استدل سبحانه
وتعالي علي ايجاد الالهة اولا باجرام السموات والارض وثانيا بايجاد
الانسان وثالثا بايجاب خلقة الحيوان ورابعا بايجاب النبات ذكر
خامسا ايجاب العناصر وبدا بالاستدلال بعنصر الماء بقوله تعالي
وهو اي لاغيره وقرا نافع وابو عمرو والكسائي بسكون الهاء والباقون
بضمها الذي سخر البحر اي ذلله وهياه لصيد ما فيه من الحيوان وتكون
الجواهر وغير ذلك وقال علما الهيئة ثلاثة ارباع كرة الارض
غامرة في الماء فاكره هو البحر المحيط وجعل في هذا الربع المسكون
سبعة ابحر قال تعالي والبحر يمده من بعده سبعة ابحر والبحر الذي
سخره الله تعالي للناس هو هذه البحار فمن تسخيرها للخلق ما امر
ومنه جعلها بحيث يتمكن الناس من الانتفاع بها بالركوب والغوص
وغيره لكم منها منافع البحار كثيرة وذكر سبحانه وتعالي منها ثلاثة منافع
الاولي قوله تعالي لتاكلوا منه اي بالاصطياد وغيره من لحوم الاسماك
لحما طريا لا تجد انعم منه ولا الين وهو رطب اللحوم فيسرع اليه
الفساد فيبادر الي اكله عذبا ففي ذلك دلالة علي قدرته تعالي
وذلك ان السمك لو كان كله مالحا لما عرف به من قدرة الله تعالي ما
يعرف بالطري لانه لما خرج من البحر المالح اللحم الطري في غاية
العذوبة علم انه تجلي اسمه قدرته لا بحسب الطبع وعلم بذلك ان الله
تعالي قادر علي اخراج العذب المنفعة من المالح المضرة الثانية قوله تعالي وتستخرجوا

منه اي يجمد كمرفي الغوص وما يشبهه حلية اي اللولو والمرجان كما قال تعالى يخرج منهما اللولو والمرجان تلبسونها اي نساؤكم وهن بعضكم فكانه اللابق بكم والذ بزينة النساء بالحلي انما هو لاجل الرجال فكانه ذلك زينة لهم المتفقة الثالثة قوله تعالى وترى الفلك اي السفن مواخر اي جواري اي تشقه بجريها فيه اي مقبلة ومدبرة وذلك انك ترى سفينين احداهما تقبل والاخرى تدبر بريح واحدة وقال مجاهد تخر السفن بهبوبها اذا جرت يسمع لها صوت وقال الكسائي مواخر يعني ممتلوة متاعا وقوله تعالى ولتبتغوا اي لتتطلبوا اعطف على تاكلوا وما بينهما اعتراض وقيل عطف على محذوف تقديره لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا من فضله اي من سعة رزقه حين كون لكم التجارة والوصول الى البلدان النائية ولعلكم تشكرون الله على هذه النعم التي لولا تسخيره لكم لما ذكر بعض النعم التي خلقها الله تعالى في الارض بقوله تعالى والقى في الارض رواسي كيلا تميد بكم اي ان تميد وتضطرب بكم وقيل لئلا تميل بكم والاول اقرب والثاني قد زالها الكوفيون وقد تقدم مثل ذلك في قوله تعالى يبين الله لكم ان تضلوا اردي ان الله تعالى خلق الارض فجعلت تمور فقالت الملائكة ما هي بمقر احد على ظهرها فاصبحت وقد ارست الجبال لم تدر الملائكة بم خلقت وقوله تعالى وانهارا عطف على رواسي لان الالقاء بمعنى التخليق وجعل الاثري انه تعالى ذكر في اية اخرى وجعل فيها رواسي من فوقها وقال تعالى والقيت عليك محبة مني وذكر تعالى الانهار بعد الجبال لان معظم عيون الانهار واصولها تكون بين الجبال وجعل لكم فيها سبلا اي طرقا مختلفة تسلكونها في اسفاركم والتردد في حوائجكم من بلد الى بلد ومن مكان الى مكان

لعلكم

لعلكم تهتدون اي بتلك السبل الى مقاصدكم والى معرفة الله تعالى قال تعالى وعلامات اي من الجبال وغيرها جمع علامة تستدل بها اي استدلالا كما كانت الدلالة بالنجم انفع الدلالات واوضحها لبرا وبحر الليلا وكما ذانبه على عظمها بالالتفات الى مقام الغيبة للاهتمام العموم لما يظن ان المخاطب محفوظ حسه والامر لا يتعداه فقال تعالى وبالنجم الجنس هم اي اهل الارض كلهم برا وبحرا في الناس بذلك المخاطبة وهم قريش كما مر العرب كلها لنزاحم رحلتهم بالنجوم يهتدون وقدم الجار لتنبيهها على ان الدلالة غيرها بالنسبة اليه سائغة وقيل المراد بالنجم الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدي وقيل الغيم لقرينة كلما اكثيرة في الاسفار للتجارة مشهورين بالاهتداء بسائرها بالنجوم ولما ذكر سبحانه وتعالى من عجايب قدرته وبديع خلقه ما ذكر على الترتيب الاحسن والنظم الاكمل وكانت هذه الاشياء المخلوقة المذكورة في الايات المتقدمة كلها دالة على كمال قدرة الله ووحدانيته وانه تعالى المنفرد بخلقها بجميعها قال على سبيل الانكار على من ترك عبادته واشتغل بعبادة هذه الاصنام العاجزة التي لا تضر ولا تنفع ولا تقدر على شيء افمن يخلق اي هذه الاشياء الموجودة وغيرها كمن لا يخلق شيأ من ذلك بل على ايجاد شيء ما فكيف يليق بالعاقل ان يشتغل بعبادة من لا يستحق العبادة وترك عبادة من يستحقها والله تعالى انما قيل ذلك الزام للذين عبدوا الاوثان وسموها الهة تشبيها بالله فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق فكان حق الالزام ان يقال افمن لا يخلق كمن يخلق اجيب بانهم لما جعلوا غير الله مثل الله تعالى في تسميته باسمه والعبادة له وسووا بينه وبينه فقد جعلوا المدرك من جنس المخلوقات وشبهوها بها فانكر عليهم ذلك بقوله تعالى افمن يخلق كمن لا

بخالق فان قيل من لا يخالق انما يريد به جميع ما عبد من دون الله كان ذكر
من واضحا لان العاقل يغلب على غيره فيعبر عن الجميع بمن ولو جي الينا
بما لجاز وان اريد به الاصنام فلم جي بمن الذي هو لاولي العلم اجيب
بانهم سموها الهة وعبدوها فاجروها مجرى اولي العلم الاترى الى
ترتيبه لي قوله تعالى ايزه والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيا
وهم يخلقون فانه راجع الى قول الشاعر بكيت الى سرب القطا اذ مررن بي
فقلت ومثلي بالبكا جدير سرب القطا هل من يعير جناحه
لعلي الى من قد هويت اطير فاوقع من علي السرب لما عاملها معاملة
العقلاء وقيل للمشاكلة بينه وبين من يخالق وقيل المعنى ان من
يخالق ليس كمن لا يخالق من اولي العلم فكيف بمن لا علم عنده كقوله
تعالى الهم ارجل يمشون بها يعني الاصنام والهم منخطة فمن حال من له
ارجل واياد واعين وقلوب لانه هو لاء احياء وهم اموات فكيف تقع
لهم العبادة الا انما لو صحت لهم هذه الاعضاء لصح ان يعبد واذا لما كان
لله القدر ظاهرا غير خاف على احد فلا يحتاج فيه الى تذكير الفكر
والنظر بل مجرد التذكر فيه كفاية لمن فهم وعقل فجمه تعالى ذلك
بقوله تعالى افلا تذكرون عاتشاهدونه من ذلك ولمن من بعض
الوجوه فتؤمنون تنبيه احتج اهل السنة بهذه الاية على ان العبد
غير خالق لافعال نفسه لانه تعالى ميز نفسه عن الاشيا التي يعبد
بصفة الخالقية لان الغرض من قوله تعالى افمن يخالق كمن لا يخالق بيان
تبيينه عن هذه الاشيا بصفة الخالقية وانه انما استحق الالهية والعبو
لكونه تعالى خالقا وهذا يقتضي ان العبد لو كان خالقا لشيء لوجب
كونه الها معبودا ولما كان ذلك باطلا علمنا ان العبد لا يقدر على
الخلق والايجاد ولما كانت المقدورات لا تحصر واكثر هاتعم على العباد

مذكرة لهم بجا لعتهم قال ممتنا عليهم باحسانه من غير سبب منهم وان تعدوا
كلمة نعمة الله اي انعام الملك الاعظم الذي لا ريب غيره عليكم من صحة
البدن وعافية الجسم واعطا النظر الصحيح والعقل السليم وبطش
اليدين ومشي الرجلين الى غير ذلك مما تنعم به عليكم وتاخلق لكم
مما تحتاجون اليه من امر الدنيا حتى لو رام احدكم معرفة ادنى نعمة
من هذه النعم ليعجز عنها وعن معرفتها وحصرها فان شعبها يفوت الحصر
لا تحصوها اي لا تضبطوا عددها ولا تبلغوا طاقتكم مع كفرها واعرا
جلة عن شكرها والعبد وان اتعب نفسه في القيام بالطاعات
والعبادات وبالغ في شكر نعم الله تعالى فانه يكون مقصرا لان نعم الله
كثيرة واقسامها عظيمة وعقل المخلوق قاصر عن الاحاطة بعباد بعما
فضلا عن غاياتها لكن الطريق الى ذلك ان يشكر الله تعالى على جميع
نعمه مفصلها ومجملها ان الله لغفور اي لتقصيركم في القيام بشكرها
يعني النعمة كما يجب عليكم رحيم بكم فوسع عليكم النعم ولم يقطعها عنكم
بسبب التقصير والمعاصي وقوله تعالى والله يعلم ما تسرون وما
تعلنون فيه وجهان الاول ان الكفار مع كفرهم كانوا يسرون اشيا
وهو ما كانوا يكيدون به النبي صلى الله عليه وسلم وما يعلنون اي
وما يظهرون من اذاه صلى الله عليه وسلم فاخبر الله تعالى
بانه عالم بكلا حوالهم سرها وعلانيتها لا تخفى عليه خافية وآن
دقت وخفيت الثاني انه تعالى لما ذكر الاصنام وذكر عجزها في
الاية المتقدمة ذكر في هذه الاية ان الاله الذي يستحق العبادة
يجب ان يكون عالما بكل المعلومات سرها وجهرها وهذه ٥م
الاصنام ليست كذلك فلا تستحق العبادة ثم وصف تعالى هذه
الاصنام بصفات الاولى مذكورة في قوله تعالى والذين تدعون اي

تعبدون من دون الله اي الاصنام وتنحتونها آلهة وقرأ عاصم بالياء
على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب لا يخلقون شيأ وهم يخلقون
اي يصورون من الحجارة وغيرها قال وقيل قوله تعالى في الاية المتقدمة
افمن يخلق كمن لا يخلق يدل على ان هذه الاصنام لا تخلق شيأ وهم يخلقون
وهذا هو المعنى المذكور في تلك الاية المذكورة فما فايدة هذا التكرار
اجيب بانه فايدته ان المعنى المذكور في الاية المتقدمة انهم لا يخلقون
شيأ فقط والمذكور في هذه الاية انهم لا يخلقون شيأ وهم يخلقون
كغيرهم فكان هذا زيادة في المعنى وهو فايدة التكرار فكانه تعالى
بدا بشرح نقصهم في ذاتهم وصفاتهم فبين اولا انهم لا تخلق شيأ ثم بين
ثانيا انهم كما لا تخلق غيرها فهي مخلوقة كغيرها الصفة الثالثة قوله
تعالى اموات اي جمادات لا روح لها غير احياء اذ الاله الذي يستحق ان يعبد
هو الحي الذي لا يموت فان قيل علم من قوله اموات انها غير احياء فما
الفايدة في ذكره اجيب بان من الاموات ما يقبل حياة
كالنطف التي ينشئ الله تعالى حيوانا واجسادا كحيوانات التي
تبعث بعد موتها واما الجمادات فاموات لا يقبل موتها حياة وذلك
اعرف في موتها وقيل ذكر للتاكيد لان الكلام مع الكفار الذين
يعبدون الاوثان وهم في غاية الجهالة والضلالة ومن يكلم مع
اكابر اهل العمى فقد يعبر عن المعنى الواحد بالعبارات الكثيرة
وعن هذه الاعلام يكون المخاطب في غاية العمى وقيل انه لا يفهم
المعنى المقصود بالعبارة الواحدة الصفة الثالثة قوله تعالى وما
يشعرون اي الاصنام ايان وقت يبعثون اي وما يعلم هؤلاء الائمة
متى تبعث الاحياء منهم لانها جمادات محال فكيف تشعر
ما لا يعلم حي الا الحي القيوم سبحانه وتعالى وقيل الضمير راجع

للاصنام

للاصنام قال ابن عباس ان اسرع بعث الاصنام لهلاس واجح وهما
شيطانين فيؤمر بهما الى النار وقيل المراد بقوله تعالى والذين تدعون
من دون الله الملايكة وكان ناس من الكفار يعبدونهم فقال الله تعالى
انهم اموات اي لا بد لهم من الموت غير احياء اي باقية حياتهم وما يشعرون
اي لا علم لهم بوقت بعثهم والمازيف سبحانه وتعالى طريقة عبدة
الاصنام وبين فساد مذهبهم قال تعالى الهكم اي ايها الخلق جميعا
المعبود حق الله اي متصف بالالهية على الاطلاق بالنسبة الى
كل اوان وكل زمان وكل مكان واحد لا يقبل التعدد الذي هو مناف
النقص بوجه من الوجوه لان التعدد يستلزم امكان التمانع المستلزم
للعجز المستلزم للبعد عن رتبة الالهية فالذين اي فتسبب عن هذا
ان الذين لا يؤمنون بالاخرة اي دار الجزاء ومحل اظهار الحكم الذي
هو غرة الملك والعدل الذي هو مدار الفضيلة قلوبهم منكرة اي جاحدة
للوحدانية وهم اي والحال انهم بسبب انكارهم ذلك مستكبرون اي متكبرون
عن الايمان بها لا جرم اي حقا ان الله يعلم علما غيبيا وشاهديا ما
يسرون اي يخفون مطلقا وما بالنسبة الى بعض الناس وما يعلنون
اي يظهرون فيجازيهم بذلك وفي لما كان في ذلك معنى التهديد علل ذلك
بقوله انه اي الغالم بالسر والعلن لا يحب المستكبرين اي على خلقه
فما بالك بالمستكبر على التوحيد واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم
ومعنى عدم محبتهم انه يعاقبهم وعن ابن مسعود رضي الله عنه ان النبي
صلى الله عليه وسلم قال لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من
كبر فقال رجل يا رسول الله ان الرجل يحب ان يكون ثوبه حسنا قال
ان الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمص الناس ومعنى بطر
الحق انه يتكبر عند سماع الحق فلا يقبله ومعنى غمص الناس استقاصهم

واذ رأيتهم ولما بالغ سبحانه وتعالى في دلايل التوحيد واورد الدلا
القاهرة في ابطال مذهب عبدة الاصنام قال تعالى عاطفا على
قالوا بهم منكرة **واذا قيل لهم** اي لهولاء الذين لا يوحدون بالالهية وقوله
تعالى **ما** استفهامية **وذا** موصولة اي ما الذي **انزل ربكم** على محمد صلى
الله عليه وسلم واختلفوا في قايل هذا القول فقيل كلام بعضهم لبعض
وقيل قول المسلمين لهم وقيل قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل
مكة يقفون على رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سالهم وفود
الحاج كما انزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم **قالوا** مكابرين
في انزال القران **هو اساطير** اكاذيب **الاولين** مع علمهم بعجزهم بعد تحديهم
عن معارضة اقصر سورة منه مع علمهم بانهم افصح الناس وانه لا يكون
من احد من الناس متقدم او متاخر قول الا قالوا ابلغ منه فان قيل
هذا الكلام متناقض لانه لا يكون منزلا من ربهم واساطير اجيب
بانهم قالوا على سبيل السخرية كقولهم ان رسولكم الذي ارسل اليكم
لمجنون واللام في قوله تعالى **ليحملوا** لام العاقبة كما في قوله تعالى فـ
فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وذلك لما وصفوا
القران بكونه اساطير الاولين كان عاقبتهم بذلك ان يحملوا **اوزارهم**
اي ذنوب انفسهم وانما قال تعالى **كاملة** ليدل على انهم انه يكفر عنهم بعض
بسبب البلايا التي اصابتهم في الدنيا بل يعاقبون بكل اوزارهم **يوم**
القيمة الذي لا شك فيه ولا محيص عن اتيانه قال الرازي وهذا
يدل على انه تعالى قد يقسط بعض العقاب عن المومنين اذ لو كان هذا
المعنى حاصلا في قوله الكلام يكن لتخصيص هولاء الكفار بذلك فايدة
ويحملوا ايضا **من** جنس **اوزار** الجملة الفعلية **الذين يضلونهم**
وقوله تعالى **بغير علم** حال من مفعول يضلونهم اي يضلونهم من يعلم

انهم ضلال او من الفاعل وانما وصف بالضلال واحتمال الوزر من اضلهم
وان لم يعلم لانه كان عليه ان يبحث وينظر بعقله حتى يميز بين المحق والمبطل
وانما حصل للرؤساء الذين اضلوا غيرهم وصدوهم عن الايمان مثل اوزار
الاتباع لانهم دعوهم الى الضلال فاتبعوهم فاشتركوا في الاثم وعن ابي
هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من دعى
الى الهدى كان له من الاجر مثل اجور من تبعه لا ينقص ذلك من اجورهم
شيا ومن دعى الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل اثام من تبعه لا ينقص
ذلك من اثامهم شيا اخرجه مسلم ومعنى الاية والحديث ان الرئيس
والكبير اذا سن سنة حسنة او سيئة فتبعه عليها جماعة فعملوا
بها فان الله تعالى يعطيهم ثوابه وعقابه يكون ذلك الثواب والعقاب بازاء
كل ما يستحقه كل واحد من الاتباع الذين عملوا بتلك الحسنة او القبيحة
وليس المراد بان الله يوصل جميع الثواب والعقاب الذي يستحقه الاتباع الى
الرؤساء ويدل لذلك قوله تعالى وان ليس للانسان الا ما سعى بتنبيه
قال الواحدي لفظة من في قوله تعالى ومن اوزارهم ليست للتبعيض لانها
لو كانت لذلك لتقصر عن الاتباع بعض الاوزار وقد قال صلى الله عليه وسلم
لا ينقص ذلك من اثامهم شيا لكنها للتجنيس كما قدرت ذكره في الاية الكريمة
اي ليحملوا من جنس اوزار الاتباع وقيل انها للتبعيض وجرى عليه
البيضاوي تبعا للزمخشري **الا ساء** اي بئس **ما يزرون** اي يحملون حملهم
هذا وفي هذا وعيد لهم شديد فان قيل ان الله تعالى حكى هذه الشبهة
عن القوم ولم يجب عنها بل اقتصر على محض الوعيد فما السبب في ذلك
اجيب بان السبب فيه انه تعالى بين كون القران معجزا بطريقين الاول
انه صلى الله عليه وسلم تحداهم تارة بكل القران وثانيا بعشر سور
وثالثا بسورة واحدة بعد ان عجزوا عن المعارضة وذلك يدل

على كونه معجزا الثاني انه تعالى حكى هذه الشبهة بعينها في اية اخرى
وبين قوله تعالى اكتتبها فهي تملى عليه بكرة واصيلا وابطلها بقوله تعالى
قل انزله الذي يعلم السر في السموات والارض ومعناه ان القرآن
يشتمل على الاخبار بالغيوب وذلك لا يتاتى الا من يكون عالما
بسر السموات والارض ولما ثبت كون القرآن معجزا بهذين الطريقين
وتكرر شرح هذين الطريقين مرارا كثيرة لا جرم اقتصر في هذه الآية
على مجرد الوعيد ولم يذكر ما يجري مجرى الجواب عن هذه الشبهة
ثم انه بالغ في وصف وعيد هؤلاء الكفار بقوله تعالى **قد مكر الذين**
من قبلهم اي ممن راوا اثارهم ومروا خلوا في ديارهم **فاتى الله** اي امره
بنيانهم من القواعد اي من جهة العمد التي بنوا عليها حكم هم **فخر**
اي تسقط **عليهم السقف من فوقهم** وصار سبب هلاكهم وقرا ابو
عمرو في الوصل بكسر الهمزة والميم وحمزة والكسائي بضم الهمزة والميم
والباقون بكسر الهمزة وضم الميم واما الوقف فحمزة بهم الهمزة على
اصله والباقون بالكسر **واتاهم العذاب من حيث لا يشعرون**
اي من جهة لا تخطر ببالهم وهذا على سبيل التمثيل اي التشبيه به
والتخييل لافساد ما ابرموه من المكر بالرسل فجعل امرهلاكهم
فيما ابرموه كحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالاساطين فاتى البنيان
من الاساطين بان تضعضعت فسقط عليهم السقف فهلكوا او كحال
من حفر لاخيه جبا وقع فيه منكبا وقيل هو نمرود بن كنعان
حين بنى الصرح ببابل ليصعد الى السماء قال ابن عباس كان طول
الصرح في السماء خمسة الاف ذراع وقال كعب كان طوله فرسخين فاهبت
الله تعالى الريح فالقت راسه في البحر وخر عليهم الباقي وهم تحته
قال البغوي ولما سقط الصرح تبلبلت السن الناس يومئذ من

الفزع فتكلم ثلاثة وسبعون لسانا فلذلك سميت بابل وكان لسان
الناس قبل ذلك بالسريانية فذلك قوله تعالى فاتى الله بنيانهم من
القواعد اي اتى امره فخر بنيانهم من اعلاها واصولها فخر عليهم وعلى
قومهم السقف اي اعلى البيوت من فوقهم فهلكوا فتنبيه قال
ابن الخازن في قول البغوي وكان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية
فلا يدفعها كما عليه السلام كان قبلهم هود كان يتكلم بالعربية وكان اهل
اليمن عرب منهم جرهم الذي نشا اسماعيل بينهم وتعلم منهم العربية وكان
بها بالحجاز العرب طايفة قديمة قبل ابراهيم اه وقد يقال ان كان لسان
اكثر الناس بالسريانية فلا ينافي ذلك فان قبائل فانه يقتضي قوله تعالى
فخر عليهم السقف من فوقهم والسقف من في قعر الجب بانهم قد لا يكونون
تحته قيل قال تعالى في علو السقف من فوقهم دل على انهم كانوا تحته
وهو يفيد هذا الكلام لان الابنية قد تهدم وهم ما تحتها وذكر
تعالى حال المكر في الدنيا ذكر حالهم في الاخرة بقوله تعالى **ثم يوم**
القيمة يخزيهم اي يذلهم ويهينهم بعذاب النار **ويقول** لهم اسقط على
لسان الملائكة توبيخا **اين شركاي** اي في زعمكم واعتقادكم **الذين**
كنتم تشاقون تحادون المومنين **فيهم** اي في شانهم وقرا نافع بكسر
النون والباقون بفتحها **قال** اي يقول **الذين اوتوا العلم** اي من الانبياء
والمومنين وقال ابن عباس يريد الملائكة **ان الخزي** اي الذلة والعذاب
اليوم اي يوم الفصل الذي يكون للفائز فيه العاقبة الحسنى **والسوء**
اي كل ما يسوء **على الكافرين** اي المقيمين على الكفر الذين
تكبروا في غير موضع التكبر وفايدة قولهم اظهار الشماتة وزيادة
الاهانة وحكايته للاكون لطفا لمن سمعه تنبيه في الاية دلالة على
انها هية الخزي وماهية السوء في يوم القيمة مختصة بالكافرين وهذا

ينجي حصول هذه الماهية في حق غيرهم ويؤكد هذا القول قوله عليه السلام انا
قد أوحي الينا ان العذاب على من كذب وتولى ثم انه تعالى وصف عذاب
هؤلاء الكافرين من وجه آخر فقال سبحانه وتعالى الذين تتوفاهم الملائكة
اي يقبض ارواحهم ملك الموت واعوانه وقراءة حمزة في هذه الاية وفي الاية
الاتية بالياء في الموضعين على التذكير لان الملائكة مذكور والباقون
بالتاء على التانيث لان لفظ الجمع مؤنث ظالمي انفسهم اي بانعرضوها
للعذاب المخلد بكفرهم فالقوا السلم اي استسلموا وانقادوا حين عاينوا الموت
قايلين ما كنا نعمل من سوء اي شرك ومعاص فتقول لهم الملائكة بلى
اي بلى كنتم تعملون اعظم السوء ثم اعلم الله تعالى بانهم يقولون
بما كنتم تعملون اي فلا فايدة لكم في انكاركم فيجازيكم به ولما كان هذا
القول مع العلم سبب الدخول اجابهم فقال تعالى فادخلوا ابواب جهنم
خالدين فيها اي جهنم لا يخرجون منها وانما قال تعالى هذا لمزيد تحقيرهم
بعض ما قال تعالى ولبئس مثوى اي مأوى المتكبرين عن قبول التوحيد
وسائر ما اتت به الرسل وما يتبع ذلك ثم بين تعالى احوال المكذبين بعد ذكر
احوال المصدقين بقوله تعالى وقيل للذين اتقوا اي خافوا عقاب الله
ماذا انزل ربكم قالوا خيرا اي انزل خيرا وذلك ان اهل
العرب كانوا يبعثون ايام الموسم من يأتيهم بخبر النبي صلى الله عليه وسلم
فاذا جاء سأل الذين قعدوا على الطرق عنه فيقولون تارة كما هو
كذاب مجنون ولو لم تلقه فرأيك فيقول السابل انا شر وقد اذ رجت
الجن في دورنا اذ ظهر بمكة والقاه في خلد مكة فيرجع اصحاب النبي صلى
الله عليه وسلم فيخبرونه بصدقه وانه نبي مبعوث من عند الله تعالى فذلك قوله
تعالى وقيل للذين اتقوا ماذا انزل ربكم الاية فاذا قيل لهم رفع الاول

وهو

وهو قولهم اساطير الاولين ونصب الثاني وهو قولهم خيرا اجيب بما هذا ذكر
ذلك للفصل بين جواب المقر وجواب الجاحد حتى ذلك انهم لما سألوا الكفار
عما انزل على النبي صلى الله عليه وسلم عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا اساطير
الاولين وليس هو من الانزال في شيء لانهم لم يعتقدوا والكون من الله ساكتوا
الموحدين عن انزل على النبي صلى الله عليه وسلم لم يتعلق اوطابق الجواب
عن السؤال بينا ممكوفا مفعولا للانزال لفظا لواخرا اي انزل خيرا وترك الكلام عند
قوله خيرا فهو وقف تام ثم ابتدا بقوله تعالى للذين احسنوا في هذه الدنيا
حسنة اي حياة طيبة او ان للذين اتوا الاعمال الصالحات الحسنة لهم في الدنيا
حسنة مضاعفة من الواحة الى العشرة الى الاضعاف الكثيرة
والله تعالى بين ان اعترافهم بذلك احسان في هذه الدنيا حسنة اي جزاء
لهم على احسانهم فجزاء الاحسان الا الاحسان ولما كانت هذه الدار
منقطعة الزوال اخبر عن حالهم في الاخرة فقال ولدار الاخرة اي الجنة
خير اي مما اعد الله لهم في الجنة خير مما حصل لهم في الدنيا ثم مدحها ومدحهم
بقوله تعالى ولنعم دار المتقين اي دار الاخرة وقد تقدم ذكرها وقال
الحسن هي الدنيا لان اهل التقوى يتزودون فيها للاخرة وقوله تعالى جنات
اي بساتين عدن اي اقامة هي مبتدا محذوف ويجوز ان يكون المحذوف خبرا مدح
يدخلونها اي تلك الجنات حال كونها تجري من تحتها اي من تحت غرفها الانهار
لهم فيها ما كانت تسأل الانسان عما فيها من الثمار وغيرها فاجيب بانهم لهم فيها ما
يشاؤون اي ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين مع زيادات غير ذلك فهذه
الاية تدل على حصول كل الخيرات والسعادات التي يبلغ اليها قوله تعالى
وفيها ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين لانه هذين القسمين داخلان
في قوله لهم فيها ما يشاؤون مع اقسام اخر وعلى الانسان لا يجد
كل ما يريده في الدنيا لان قوله لهم فيها ما يشاؤون يفيد الحصر كذلك اي

مثل هذا الجزاء العظيم يجزي الله اي الذي له الكمال كله المتقين اي الراسخين
في صفة التقوى ثم شرع تعالى في حكاية حالة التوفي بالتنبيه على ان
العبرة بحال الموت فقال الذين تتوفاهم الملائكة اي تقبض ارواحهم وقوله
تعالى طيبين كلمة مختصرة جامعة للمعاني الكثيرة وذلك لانه يدخل فيه اتباعهم
بكل ما امروا به واجتنابهم عن كل ما نهوا عنه ويدخل فيه كونهم موصوفين
بالاخلاق الفاضلة مبرئين عن الاخلاق الرذيلة ويدخل فيه كونهم
مبرئين عن العلائق الجسمانية متوجهين الى حضرة القدس ويدخل فيه اندفاع
بعض الارواح في العالم تقبض الامم السيئة بالخيبة حتى صاروا كانهم
مشاهدون لها ومن هذه حالة لا يتألم بالموت واكثر المحشرين على ان هذا
التوفي هو قبض الارواح كما مر وان كان الحس يقول ان وفاة تحشر على الحالة
واستدل بقوله ادخلوا الجنة لانه لا يقال عند قبض الارواح في الدنيا ادخلوا
الجنة واجاب الاكثرون بانه قيل عند قبض الارواح في الدنيا ادخلوا
الجنة بمعنى ان ابوابها تفتح لهم عند الموت فيرون منازلهم فيها وقيل
بين تعالى ان الملائكة يقولون لهم عند الموت سلام عليكم فتسلم عليهم او تبلغهم
السلام من الله تعالى كما روي انه العبد المؤمن اذا اشرف على الموت
جاءه ملك فقال السلام عليك يا ولي الله يقرئك السلام عليك
السلام ويبشره بالجنة ويقال لهم في الآخرة هذا جواب الآخرين ادخلوا
الجنة بما كنتم تعملون او انهم لما بشروهم بالجنة صارت الجنة كانها دارهم
وكانهم فيها فكانوا مأمورين بقولهم ادخلوا الجنة اي مع خاصة لكم كما انكم تنهون
وتأمرون الكفار في الآخرة بقولهم لسائر الاولين وذكروا النوع الثاني للتهديد
والوعيد ثم اتبعه بذكر الوعد لمن وصف القرآن بكونه جزاء عاد الى بيان
ان اولئك الكفار عند كفرهم واقوالهم الباطلة لا اذا جاءتهم الملائكة او
اتاهم امر ربك فقال تعالى هل ينظرون الا ان تاتيهم الملائكة لقبض
ارواحهم وقرأ حمزة والكسائي بالياء على التذكير والباقون بالتاء على

التانيث

التانيث وتقدم توجيه ذلك او ياتي امر ربك اي يوم القيمة وقيل العذاب
وقيل لما طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم ان ينزل الله تعالى ملكا من السماء
يشهد عليهم بصدقه في ادعاء النبوة فقال تعالى هل ينظرون في التصديق
بنبوتك الا ان تاتيهم الملائكة شاهدين بذلك وعلى كلا التقديرين فقد
قال تعالى كذلك اي مثل ما فعل هؤلاء هذا الفعل القبيح فعل الذين
من قبلهم من الامم السالفة كذبوا رسلهم فاهلكوا وما ظلمهم الله باهلاكهم
بغير ذنب ولكن كانوا انفسهم يظلمون بتكذيبهم وتكذيبهم الرسل فاستوجبوا
ما نزل بهم فاصابهم اي فتسبب عن ظلمهم لانفسهم ان اصابهم سيئات
اي عقوبات او جزاء سيئات ما عملوا وحاق اي نزل بهم ما كانوا به يستهزءون
تكرار عن قوله اتى فحاط بهم جزاء وكيف لا يستعمل الا في الشر وقراء
حاق حمزة بالامالة والباقون بالفتح وقال الذين اشركوا للنبي صلى الله
عليه وسلم استهزاء ومنعا للبعثة والتكليف لو شاء الله ما عبدنا من
دونه من شيء نحن ولا اباؤنا لانهم اعتقدوا ان كون الامر كذلك يمنع من
جواز بعثة الرسل وهو اعتقاد باطل فلذلك استحقوا عليه الذم والوعيد
ثم قالوا لهم ولا حرمنا من دونه من شيء اي من السوائب والبحائر
والحامي فنحن راضون به وعشيته روح فلا فائدة في بعثتك هي في ايامك
وفي هذا عين ما حكي عنهم في سورة الانعام في قوله تعالى سيقول
الذين اشركوا لو شاء الله الآية قال الله تعالى كذلك فعل الذين من قبلهم
اي من تقدم هؤلاء من الكفار من الامم الماضية كانوا على هذه الطريقة
وهذا الفعل الخبيث فانكار بعثة الرسل كان قديما في الامم الخالية
ففي ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وكذلك في قوله تعالى
فهل على الرسل الا البلاغ اي الابلاغ المبين اي البين فليس عليهم
هداية احد انما عليهم تبليغ ما ارسلوا به الى من ارسلوا اليه ثم

يبين تعالي ان البعثة امر جرت به السنة الالهية في الامم كلها سببا لهدي
من اراد اهتداءه وزيادة لضلال من اراد ضلاله كهذا الصلح فانه ينفع
المزاج السوي ويقويه ويضر المزاج المنحرف ويفنيه بقوله تعالي ولقد
اي والله لقد بعثنا اي بما لنا من العظمة التي مني اعترف عليها نفوسهم
في كل امة من الامم الذين من قبلكم رسولا اي كما بعثنا فيكم محمدا صلي الله
عليه وسلم ان اعبدوا الله اي الملك الاعلا وحده وقرا ابو عمرو
وعاصم وحمزة بكسر النون في الوصل والباقون بالضم واجتنبوا الطاغوت
اي الاوثان ان تعبدوها فمنهم من هدى الله اي وفقهم للايمان بما دعاه
ومنهم من حقت اي وجبت عليه الضلالة اي في علم الله تعالي فلم ينفعهم
ولم يرد هداهم تنبيه في هذه الاية ابين دليل علي ان الهادي والمضل
هو الله تعالي لا احد لمتعرف في عباده بمجرد من شاء ويضل من شاء لا
اعتراض عليه فيما حكم به لسابق علمه ثم التفت سبحانه وتعالي الي انهم لم
يبق بعد هذا الدليل القطعي في نظر البصيرة الا الدليل المحسوس للبصر
فقال تعالي فسيروا اي فانه كثيرا ايما ما طبون في شكهم من اخبار
الرسل فسيروا في الارض اي حيثما فانظروا اي اذا سرتم تروا بديار
المكذبين وآثارهم مما يدل تعالي بالاستفهام الجاري احوالهم
مما يجب ان يسال عنه للاتعاظ به فقال كيف كان عاقبة اي آخر امر
المكذبين اي من عاد وثمود بعدهم من الذين تلقيتم اخبارهم ممن
قبلكم تموتهم في الكفر من انسلافكم لعلكم تعتبرون ولما كان من المحقق
ان ليس بعد الايصال في الاستدلال الي الامر المحسوس الا العناد اراح
عنهم ملتفتا الي الرؤوف بهم الشفيق عليهم محمد صلي الله عليه وسلم
فقال مسليا ان تحرص علي هداهم فتطلبه غاية جهدك واجتهادك
وقد اضلهم الله تعالي لا قدرة لك علي ذلك ثم قال الله تعالي فان الله لا يهدي

من

والكافرين والذي اختلفوا فيه نوعان ولیعلم الذين كفروا انهم كانوا
كاذبين في قولهم لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء وقوله لا يبعث
الله من يموت وقيل يجوز ان يتعلق بقوله ولقد بعثنا في كل امة رسولا
اي بعثناه ليبين لهم ما اختلفوا فيه وانهم كانوا على الضلالة قبله
مفترين على الله الكذب ثم بين سبحانه وتعالى تيسير الاعادة بقوله
تعالى انما قولنا اي بما لنا من العظمة والقدرة لشيء اذا اراد اعادة اذا
اردناه ان نقول له كن فيكون اي يتسبب عن ذلك القول انه يكون
تنبيه قوله تعالى قولنا مبتدا وان نقول خبره فيكون ركن من كان
التامة التي بمعنى الحدوث والوجود اي اذا اردنا احدوث شيء
فليس الا ان نقول له احدث فيحدث عقب ذلك من غير توقف
فان قيل قوله تعالى كن ان كان خطابا مع المعدوم فهو محال وان كان
خطابا مع الموجود فكان امرا بتحصيل الحاصل وهو محال اجيب بان
هذا تمثيل لنفي الكلام والغايات وخطاب مع الخلق بما يعقلون فليس
هو خطاب المعدوم لان ما اراد تكوينه كائن على كل حال وعلى ما اراد
من الاسراع ولو اراد تعالى خلق الدنيا والاخرة بما فيهما من السموات
والارض في قدر لمح البصر لقدر على ذلك ولكن خاطب تعالى
العباد بما يعقلون وعن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى يشتمني ابن ادم
وما ينبغي له ان يشتمني ويكذبني وما ينبغي له اما شتمه اياي
فيقوله اتخذ لي ولدا واما تكذيبه فيقوله ليس يعيدني كما بداني
وفي رواية كذبني ابن ادم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له
ذلك فاما تكذيبه اياي فيقوله لن يعيدني وليس اولى بالخلق
بالهون علي من اعادته واما شتمه اياي فيقوله اتخذ الله ولدا

وانا

وانا الله الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد وقرا ابن
عامر والكسائي بفتح النون من يكن عطفا على يقول اوجوابا للامر
والباقون بالرفع والحاكي الله تعالى عن الكفار انهم اقسموا باجهد
ايمانهم على انكار البعث والقيمة دل على ذلك على انهم تمادوا في الغي
والجهالة والضلال وفي هذه الحالة لا يبعد اقدامهم على ايذاء
المسلمين وانزال العقوبة بهم وقع يلزم على المؤمنين ان يهاجروا من
تلك الديار والمساكن فبين تعالى حكم المهاجرة وما لهم وللمهاجرين
من الحسنة في الدنيا والاخرة بقوله تعالى والذين هاجروا في الله
اي في حقه ولوجهه لاقامة دينه من بعد ما ظلموا وهم رسول الله صلى
الله عليه وسلم واصحابه رضي الله عنهم ظلمهم اهل مكة فضربوا بعضهم الى
الله منهم من هاجر الى الحبشة ثم الى المدينة فجمع الله تعالى بين
الهجرتين ومنهم من هاجر الى المدينة او المحبوسون المعذبون بمكة
بعد تهجم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم بلال وعهيب وخباب
وعمار وعياش وابو جندل وسهيل اخذهم المشركون بمكة فجعلوا
يعذبونهم ليرجعوا عن الاسلام الى الكفر فاما بلال فكان اهله
مجزوعة الى بطحاء مكة في شدة الحر ويشدونه ويجعلون على صدره
الحجارة وهو يقول احد احد فاشتراه منهم ابو بكر رضي الله عنه
واعتقه واشتري منهم ستة نفر اخرى واما صهيب فقال انا رجل
كبير ان كنت معكم لم انفعكم وان كنت عليكم لم اضركم فافتدى منهم
بماله وهاجر فلما راه ابو بكر قال له ربح البيع يا صهيب وقال له هم
الرجال صهيب لو لم يخف الله لم يعصه وهو ثنا عظيم يريد لو لم يخف
الله نار لاطاعه لنبوئنهم اي لننزلنهم في الدنيا دار احسنة وهي
المدينة وقيل نحسن اليهم في الدنيا بان يفتح لهم مكة ويمكنهم منها

اهلها الذين ظلموهم واخرجوهم منها وقيل ارادبالحسنة في الدنيا التوفيق
والهداية الى الدين وللاجر الاخرة وهي الجنة والنظر الى وجهه الكريم اكبر
اي اعظم لو كانوا يعلمون اي الكفار والمتخلفون عن المهاجرين سالمين مهاجرين
من الكراهة لوافقوهم وقيل انه راجع الى المهاجرين اي لو كانوا يعلمون
ذلك لزادهم في اجتهادهم وصبروا وراوا ان عمر بن الخطاب رضي الله
عنه كان اذا اعطى الرجل من المهاجرين عطاء يقوله خذ بارك الله لك
فيه هذا ما وعدك به في الدنيا وما ادخر لك في الاخرة افضل ثم تلا
هذه الاية وقوله تعالى الذين صبروا اي على الشدايد وعلى مفارقة
الوطن الذي هو حرم الله وعن اتمها دين وبذل الاموال والانفس
في سبيل الله محله رفيع على بهم او نصب على المدح ويجوز ان يكون تابعا
للمضمون قبله نعتا او بدلا او بيانا فمحله محله وعلى ربهم يتوكلون
اي مستقيمين اليه موحدين الامر كله اليه تنبيه ذكر الله تعالى في هذه
الاية الصبر والتوكل وهما عبد السلوك الى الله تعالى ومنتهاه اما
الصبر فحمل النفس وحبسها عن اتباع الهوى وسائر الطاعات
واجتناب الاثم من الخلق واما التوكل فهو الانقطاع عن الخلق بالكلية
والتوجه الى الحق كما مرت الاشارة اليه فالاول هو عبد السلوك والثاني
هو آخر الطريق ومنتهاه ونزل لما انكر مشركو مكة بنوة محمد صلى
الله عليه وسلم وقالوا الله اعظم واجل ان يكون رسوله بشرا فحمد الله تعالى
على كلا الينا وما ارسلنا من قبلك يا محمد الى الامم من طوائف البشر
الا رجالا لا ملائكة جال آدميين نحي بالغاية اللائقة بالصبر والتوكل
الذي هو محط الرجال يوحى اليهم بواسطة الملائكة عادة الله جارية
مستمرة من اول ميلاد الخلق الى الآن لم يبعث رسوله الا من البشر
فاسئلوا اهل الذكر اي اهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ان كنتم

امر بعباده الله تعالى بسؤالهم لان كفار مكة كانوا يعتقدون ان اهل الكتاب اهل
علم وقد ارسل اليهم رسلا مثل موسى وعيسى عليهما السلام من البشر
وكانوا ببشرا مثلهم فاذا سالوهم فلا بد ان يخبروهم ان الرسل الذين ارسلوا
اليهم كانوا بشرا فاذا اخبروهم بذلك من غير التفات هذا السبب وقال
ابن عباس يريد اهل التوراة والدليل عليه قوله تعالى ولقد كتبنا في
الزبور من بعد الذكر يعني التوراة والذكر هو التوراة وقال الزجاج
معناه اسئلوا كل من يتذكر بخبر وتحقيق وانما كان عندهم احسن من
ذلك سماع اخبار الامم فلهم اشار اليهم بقوله ان كنتم اي جبلة وطبعا
لا تعلمون ذلك فانتم بعلمه وانتم الى تصديقه اقرب من تصديق المرسل
محمد صلى الله عليه وسلم وقوله بالبينات متعلق بمحذوف وقع جوابا لسؤال
مقدر كانه قيل بم ارسلوا قيل ارسلوا بالبينات وقوله تعالى وانزلنا
اليك الذكر خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والذكر هو القرآن وانما سمي
ذكرا لانه موعظة وتذكير لتبين للناس كافة اي اعطاك الله تعالى من
الفهم الذي فتت فيه جميع الخلق واللسان الذي هو اعظم الالسنة
وافهمها وقد اوصلك الله تعالى فيه الى رتبة لم يصل اليها احد ما نزل
اي ما وقع بتنزيله اليهم من هذا الشرع المودي الى سعادة الدارين
بتبيين المجمل وشرح ما اشكل من علم اصول الدين الذي راس التوحيد
ومن البعث وغيره فان القرآن فيه محكم وفيه متشابه فالمحكم يجب
ان يكون مبينا والمتشابه هو المجمل فيطلب بيانه من السنة ولعلهم
يتفكرون فيما انزل اليهم اذا نظروا واستدلوا بالطريقة الصحيحة وهي ادلة العقل
الواضحة فيعتبرون فان قيل هذه الاية تدل على ان المبين لكل الشكاك
والاحكام هو النبي صلى الله عليه وسلم فالقياس ليس بحجة اجيب بانه
صلى الله عليه وسلم لما بين ان القياس حجة فمن رجع في تبيين الاحكام

والتكاليف الى القياس كان ذلك في الحقيقة رجوعا الى بيان النبي صلى
الله عليه وسلم وقوله تعالى افامن الذين مكروا السيئات عند اعتماد
تقديم المكرات السيئات وهم كفار قريش مكروا بالنبي صلى الله عليه
وسلم واصحابه وبالقرآن في اذيتهم والمكر عبارة عن السعي بالفساد
على سبيل الاخفاء ثم انه تعالى ذكر في تهديدهم اربعة انواع الاول لقوله
تعالى ان يخسف الله بهم الارض كما خسف بقارون واصحابه فانهم
حي بطنها لا يقدرون على نوع تقليب لجنايتهم ولا يجزها الثاني قوله
تعالى او يأتيهم العذاب على غير تلك الحال من حيث لا يشعرون
به فيأتيهم بغتة فيهلكهم كما فعل بقوم لوط عليه السلام الثالث قوله
تعالى او يأخذهم اي الله بهذا به في حالة تقلبهم ومشاعرهم حاضرة
وقواهم مستجمعة وفي تفسير هذا التقليب وجوه اولها انه تعالى
يأخذهم بالعقوبة في اسفارهم فالله تعالى قادر على هلاكهم في
السفر كما انه قادر على هلاكهم في الحضر فما هم بمعجزين اي بفائتين
العذاب بسبب ضربهم في البلاد البعيدة بل يدركهم الله تعالى حيث
كانوا ثانيها انه تعالى يأخذهم بالليل والنهار وفي حال اقبالهم
وادبارهم وذهابهم ومجيئهم وثالثها ان الله تعالى يأخذهم في
حال ما يتقلبون فرحا فما يأتون بحكم فيحول الله بينهم وبين اتمام
تلك الحيل وحمل لفظ التقليب على هذا المعنى ماخوذ من قوله تعالى
وقلبوا لك الامور فانهم اذا قلبوها فقد تقلبوا فيها الامر الرابع
قوله تعالى او يأخذهم على تخوف وفي تفسير التخوف قولان الاول
التخوف التنقص من الخوف يقال خفت الشيء وتخوفته والمعنى ان الله تعالى
لا يأخذهم بالعذاب الا بعد ان يخيفهم اولا ثم يعذبهم بعده وتلك
الاخافة هو انه تعالى يملك قرية فتخاف التي تليها فيأتيهم العذاب

والثاني

والثاني التخوف بمعنى التنقص اي انه تعالى ينقص شيئا بعد شيء في انفسهم
واموالهم حتى يهلكوا من تخوف اذا تنقصه روي ان عمر رضي الله عنه
قال على المنبر ما تقولون في هذه الاية فسكتوا فقال شيخ من هذيل
هذه لغتنا التخوف التنقص فقال عمر هل يعرف العرب ذلك في اشعارها
قال نعم قال شاعرنا ابو كبير يتخوف اي تنقص الرحل اي رحلنا ناقته
منها تامكا اي سناما من دابة مثل احمارها ومرتقما وهو نبت كوذان الرآكما
تخوف عود النبعة السفن والنبعة بالفتح واحدة النبع وهو شجر
يتخذ منه القسي والسفن بفتح السين والفاء ما يحفت به الشيء وهو فاعل
تخوف ومفعوله عود فقال عمر على المنبر يا ايها الناس ما تعدون ما قال شيء
في الجاهلية فقد تفسير كتابكم ومعاني كلامكم ومعنى البيت ان رحلنا ناقته
ينقص سنامها اعتمالكم واسفارنا تنعم كما ينقص السفن عود النبعة فان
ربكم اي المحسن اليكم بالهلاك من يريد وابقاء من يريد وقوله تعالى
لرؤف قراءة ابو عمرو وشعبة وحمزة بالقصر والباقون بالمد ومعناه
بليغ الرحمة لمن يتوسل اليه بنوع وسيلة ولذا حن قاطمة ثم عقاطعه
واليه اشار بقوله رحيم اي حيث لم يعاجلهم بالعذاب ولما خوف سبحانه
وتعالى المشركين بهذه الانواع الاربعة المذكورة من العذاب اردفه
بذكر ما يدل على كمال قدرته في تدبير احوال العالم العلوي والسفلي
وتدبير احوال الارواح والاجسام ليظهر لهم ان مع كمال هذه القدرة
القاهرة والقوة القوية لم يستكثر عليه ان يعجل عن ايصال العذاب الهم على
احد تلك الاجسام الاربعة بقوله تعالى اولم يروا الى ما خلق الله من
شيء اي من الاجرام التي لها ظل كثير وجبل تتفيؤ اي تتميل ظلاله عن
اليمين والشمايل جمع شمال اي عن جانبي كل واحد منها وشقيه
قرأ حمزة والكسائي بالتاء قبل الخطاب على نسق ما قبله والباقون بالياء

على الغيبة الى ما خلق استعارة من يمين الانسان وشماله بجانبي الشيء اي
ترجيع الظلال من جانب الى جانب منقادة مسخرة عن ممتنعة عليه فيما
يسخرها له وقال قتادة والضحاك اما اليمين فاول النهار واما الشمائل
فاخره لان الشمس وقت طلوعها الى وقت انتهايها الى وسط الفلك
تقع الاظلال الى الجانب الغربي وقع الظلال في الجانب الشرقي والا
ظلال في اول النهار مبتدأ من يمين الفلك على الربع الغربي من الارض
ومن وقت انحدار الشمس من وسط الفلك يبتدأ من شمال الفلك وتقع
على الربع الشرقي من الارض فان قيل ما السبب في ذكر اليمين بلفظ
الواحد والشمائل بصيغة الجمع اجيب بان الاول انه وحد اليمين
والمراد الجمع ولكنه اقتصر في اللفظ على الواحد كقوله تعالى ويولون
الدبر الثاني قال الفراء كانه اذا وحد ذهب الى واحد من ذوات
الاظلال واذا جمع ذهب الى كلها وذلك لان قوله الى ما خلق الله من
شيء لفظه واحد ومعناه الجمع على ما مر فيحتمل كلا الامرين الثالث ان
العرب اذا ذكرت صيغتي جمع عبرت عن احديهما بلفظ الواحد كقوله تعالى
وجعل الظلمات والنور وقوله تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم
تنبيه الهمزة للاستفهام وهو استفهام انكاري اي قد راوا فتيال فتية
الفتيان فما بالهم ان تتفكر وا فيه ليظهر لهم كمال قدرته وقهره
فيخافوا فيه وحامو صولة للابهمة بمعنى الذي ومن شيء بيان لها
فان قيل كيف يبين الموصول وهو مبهم بشيء بل ابهمها اجيب بان ذلك
قد اقتضى وظهر بوصفه بالجملة بعده وهو تتفيؤ ظلاله وقيل بيان
لما وقوله تعالى يسجد الله حال من الظلال لانها جمع ساجد كشاهد وشهد
وراكع وركع واختلف في المراد من السجود على قولين احدهما ان
المراد منه الاستسلام والانقياد يقال سجد البعير اذا اطاطاء

راسه

راسه ليركب وسجدت النخلة اذا مالت لكثرة الحمل ويقال اسجد للقرد
في زمانه اي اخضع له وقال الشاعر ترى الاكم فيها سجدا للحوافر
اي متواضعة والثاني ان هذه الاظلال واقعة على الارض منتقلة
بما على هيئة الساجد فلما كانت الاظلال تشبه شكلها شكل الساجد
اطلق الله تعالى عليها هذا اللفظ وكان الحسن يقول اما ظلك تسجد
لربك واما انت فلا تسجد لربك بيس ما صنعت وعن مجاهد ظل
الكافر يصلي وهو لا يصلي وقيل ظل كل شيء يسجد لله سوى الكافر ذلك ساجد
الم تر قال الرازي والاول اقرب الى الحقايق العقلية والثاني اقرب
الى التشبيهات الظاهرة وقوله تعالى وهم داخرون اي صاغرون
حاله ايضا من الظلال فينتصب عنه حالان وقيل حال من الضمير
المستتر في سجدا تعني حال منه اخلة فان قيل الظلال ليست من
العقلاء فكيف جاء جمعها بالواو والنون اجيب بان الله تعالى لما وصفها
بالطاعة والدخول اشبهت العقلاء وان في جملة ذلك من يعقل
فغلب وايضا حكم على الظلال بما يعم اصحابها من جماد وحيوان وكان الحيوان
اشرف من الجماد رقي الحكم اليه بخصوصه فقال ولله يسجد ما في السموات
وما في الارض وقوله تعالى من دابة يجوز ان يكون تبيانا لما في السموات
وما في الارض جميعا على ان في السموات خلقا لله يدبون فيها كما تدب
الاناسي في الارض وان يكون بيانا لما في الارض وحدها واراد بما
في السموات الخلق الذي يقال له الروح وان يكون بيانا لما في الارض
واراد بما في السموات الملايكة وكررذكرهم بقوله والملايكة خصوصا
من بين الساجدين لانهم اطوع الخلق واعبدهم ويجوز ان يراد بما في
السموات ملايكتها وبقوله تعالى والملايكة ملايكة الارض من الحفظة
وغيرهم فان قيل سجود المكلفين مما تتظمه هذا الكلام خلاف سجود غيرهم

فكيف عبر عن النوعين بلفظ واحد اجيب بان المراد بسجود الملئكة
طاعتهم وعبادتهم وسجود غيرهم انقياده لارادة الله تعالى وانما عبر
ممتنعة عليهما وكلا السجودين يجمعهما معنى الانقياد فلذلك
جاز ان يعبر عنهما بلفظ واحد فان قيل هلا جيئ بمن دون ما تغليبا للعقلا
من الدواب على غيرهم اجيب بانه لو جيئ بمن لم يكن فيه دليل على
التغليب لكان مستداولا للعقلاء خاصة فجيئ بما هو ضامن للعقلاء وغيرهم
ارادة للعموم ويخافون اي الملئكة المستكبرون على عبادته مع علو رتبتهم
بقوله تعالى دلالة على انهم كغيرهم في الوقوف بين الخوف والرجاء يخافون
ربهم اي الموجد لهم المدبر لامورهم المحسن اليهم خوفا مبتدا من فوقهم
اشارة الى علو الخوف عليهم وغلبته لهم او ان يرسل عليهم عذابا من
فوقهم او يخافونه وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى وهو القاهر فوق
عباده وقوله تعالى وانا فوقهم قاهرون والجملة حال من الضمير في
لا يستكبرون او بيان له وتقرير لان من خاف الله لا يستكبر عن عبا دته
ويفعلون ما يومرون اي من الطاعة والتدبير وفي ذلك دليل
على ان الملئكة مكلفون مامورون على الامر والنهي والوعد والوعيد
كسائر المكلفين بين الرجاء والخوف كما مرت الاشارة اليه وانهم معصومون
من الذنوب لانه قوله تعالى وهم لا يستكبرون يدل على انهم منقادون
لحكم الله فهم وانهم ما خالفوا في امر من الامور كما قال تعالى لا يسبقونه
بالقول وهم بامره يعملون ولما بين تعالى ان ما سوى الله سوا كان
من عالم الارواح ام من عالم الاجساد فهو منقاد خاضع لجلال الله
تعالى وكبريائه اتبعه بالنهي عن الشرك وبالامر بان كلا ما سواه فهو
ملكه ومتكلم وانه غني عن الكل بقوله تعالى وقال الله مفتتح للاخبار تفخيم
القائم بالاسم الاعظم الخاص لا تتخذوا اي لا تكلفوا فطرتكم الاولى

السليمة

السليمة المجبولة على معرفة ان الاله واحد اي ان تاخذوني اعتقادها
الهين اثنين فان قيل انما جمع بين العدد والمعدود فيما ورد الواحد والاثنين
فقالوا عندي رجال ثلاثة وفرس اربعة لان المعدود عارض للدلالة على
العدد الخاص فاما رجل ورجلان وفرس وفرسان فمعدودات فيها دلالة
على العدد فلا حاجة الى ان يقال رجل واحد ورجلان اثنان فما وجه
قوله تعالى الهين اثنين اجيب بانه اولى لما قال الرازي وهو الاقرب
عندي ان الشيء اذا كان مستنكرا مستبعدا ممن اراد المبالغة في
التعجب عنه بعبارات كثيرة ليصير توالي تلك العبارات مسببا لوقوف
العقل على ما فيه من القبح والعقل يوجود الهين مستقبح في العقول
فان احدا من العقلاء لم يقل بوجود الهين متساويين في الوجود
والقدم وصفات الكمال فلا مقصود من تكرير اثنين تاكيد التقبيح وتوقيف
العقل على ما فيه من القبح الذاتي ان قوله تعالى الهين لفظ واحد يدل
على امرين ثبوت الاله وثبوت التعدد فاذا قيل لا تتخذوا الهين لم
يعرف من هذا اللفظ ان النهي وقع عن اثبات الالهين او عن اثبات
التعدد او عن مجموعهما فلما قال لا تتخذوا الهين اثنين ظهر ان قوله لا تتخذ
وا
ني عن اثبات التعدد فقط الثالث في الاثنين تقديم وتاخير والتقدير
لا تتخذوا اثنين الهين الرابع ان الاسم الحاصل لمعنى الافراد والتثنية
دال على شيئين على الجنسية والعدد المخصوص فاذا اريد
الدلالة على ان المعنى به منهما والذي يساق اليه الحديث هو
العدد استغنى بما يوكد ويدل به على القصد اليه والعناية به لا ترى
انك لو قلت انما هو اله ولم توكده بواحد لم يحسن وقيل انما ثنيت
الالهية للوحدانية ثم علل تعالى ذلك النهي بما اقتضاه السياق
من الوحدانية فقال تعالى انما هو اي الاله المفهوم من لفظ الهين

الذي لايستحق غيره ان يطلق عليه هذا الضمير لانجاز الله لا يطلق اطلاقا
حقيقيا الاعلي وجوده من ذاته الاه اي مستحق هذا الوصف علي الاطلاق
واحد لايمكن ان يثني بوجه وللان يجز العقاية المطلق عن كل شيئ واحيا ج
كما شي اليه ولما دلت الدلايل علي انه لابد للعالم من اله وثبت ان القول
بوجود الهين محال وثبت انه لا اله الا هو الواحد الفرد الصمد قال تعالي
فاياي فارهبون اي خافوني دون غيري والرهب مخافة مع حزن
واضطراب وانما نقل الكلام من الغيبة الي الخطاب الحضور وهو من طريقة
الالتفات لانه ابلغ في الترهيب من قوله فاياه فارهبوه ومن اين يجي ما
قبله علي لفظ التكلم ولما ثبت بالدليل الصحيح والبرهان الواضح ان
الاله العالم لاشريك له في الالهية يجب ان يكون جميع المخلوقات تحت عبوديته
وفي ملكه وقهره وتحت قوله وذلك قوله تعالي له اي الله واعاد الضمير
في قوله تعالي له علي ان الله الاسم العالم الجامع لجميع الاسماء الحسني ما في
السموات والارض اي ما تقدم ذكره وغيره فكيف يتصور ان تكون شيئ
من ذلك الها وهو مملوك مع كونه محتاجا الي الزمان والمكان وغيرهما
وله الدين اي الطاعة وقوله تعالي واصبا اي دايما حال من الدين والعامل
فيه ما في الظرف من معني الفعل قال ابن قتيبة ليس من احد يدان
له ويطاع الا وانت تقطع ذلك في حال السبب الحياة الموت الا الحق
سبحانه وتعالي فانه واجبة ابدا لكونه المنعم علي عباده المالك
الملك لهم فكانت طاعته واجبة دايمة ابدا وقوله تعالي افغير الله اي الذي
له العظمة كلها تتقون استفهام انكار والمعني انكم بعد ما عرفتم ان الاله
العالم واحد وعرفتم ان كل ما سواه محتاج في وجوده دايما اليه وبقايه
فبعد العلم بذلك كيف يعقل ان يكون للانسان رغبة في غير الله او
رهبة من غير الله ولما بين تعالي ان الواجب علي العاقل ان لا يتقي غير

الله

الله بين انه يجب عليه ان لا يشكر احد الا الله تعالي بقوله تعالي وما بكم من
نعمة اي من نعمة الاسلام وصحة الابدان وسعة الارزاق وكل ما اعطا
من مال او ولد او جاه فمن الله تعالي لمتفضل علي عباده فيجب شكره
علي جميع العباد لان الشكر انما يجب عليه ان لا يخاف وان لا يشكر الا
الله تنبيه احتج اصحابنا بهذه الاية علي ان الايمان حصل بخلق الله
تعالي لان الايمان نعمة وكل نعمة فمن الله ينتج ان الايمان من الله وايضا
النعمة عبارة عن كل ما يكون منتفعا به واعظم الاشياء في النفع هو
الايمان فثبت ان الايمان نعمة والمسلم لا يطلق عليه وقلنا كم دل علي
نعمة الايمان والنعم اما دينية واما دنيوية اما النعم الدينية فهي اما
معرفة الحق لذاته واما معرفة الخير لاجل العمل به والنعم الدنيوية
اما نفسانية واما بدنية واما خارجية وكل واحد من هذه الثلاثة
جنس تحته انواع خارجة عن الحصر كما قال تعالي وان تعدوا نعمة
الله لا تحصوها وقد مرت الاشارة الي ذلك عند ذكر هذه الكلمات
اذا عرفت هذا فنقول ان الله تعالي ذكر في هذه الاية انواعا من نعمه
التي لا يمكن لاحد ان يدعي شيئا منها ثم ذكر بعد ذلك ما يدل علي
التفاوت والبعد في قوله تعالي ثم اذا مسكم اي اصابكم الضر بزوال نعمة
مما انعم به عليكم وقال ابن عباس يريد الاسقام والامراض والبلايا
فاليه اي لا الي غيره تجئرون اي ترفعون اصواتكم بالاستغاثة لكشفه
فيه مظنة ان الاولي ان يقال ان من لا ملجا ولا مفزع له الا الله تعالي
ثم اذا كشف سبحانه وتعالي الضر اي الذي مسكم عنكم وقع علي مساءة
الانسان في الكفران فقال اذا فريق اي جماعة منهم اهل فرقتهم ضلال
منهم اي ايها العباد بربهم الذي تفرد بالانعام عليهم يشركون اي يقولون
الاسرائيل بعبادة غيره ليكفروا بما اتيناهم اي من النعم تنبيه في
هذه اللام وجهان الاول انها لام كي فيكون المعني علي هذا انهم

انما اشركوا بالله ليجحد والنعمه عليهم في كشف الضر انما لام العاقبة
كما في قوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا والمعنى
عاقبتنا مرهم بعد كفرهم بما اتيناهم من النعماء وكشفنا عنهم الضراء
والبلاء ثم الله تعالى وبخ عدهم بعد ذلك بقوله تعالى فتمتعوا اي باجتماعكم
على عبادة الاصنام وهذا لفظ امر والمراد التهديد كقوله تعالى
كلوا وتمتعوا قليلا وقوله تعالى فمن شاء فليكفر
ومن شاء فليكفر فسوف تعلمون عاقبة امركم وما ينزل بكم من العذاب والنكال
بالدلايل القاهرة فساد قول اهل الشرك والتشبيه شرح تفاصيل
اقوالهم وبين فساد كل واحد منها بانواع الادلة قوله تعالى ويجعلون اي المشركون
لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم من الحرث والانعام بقولهم هذا لله
وهذا لشركائنا تنبيه العليم في قوله تعالى لما لا يعلمون عايد على
الاصنام اي ان الاصنام لا تعلم شيئا البتة لانها جماد والجماد لا علم
له وقيل عايد الى المشركين ومعنى لا يعلمون انهم يسمون عند الحاجة بعض
ما جعلوا لالهتهم تتقرب وتشفع لهم وليس الامر كذلك ثم اقسم
سبحانه وتعالى بنفسه على نفسه انه سيسالهم يوم القيمة بقوله تعالى
تالله لتسئلن سوال توبيخ وفيه التفات من الغيبة الى الحضور وهو
من بديع الكلام وبليغه عما كنتم تفترون على الله من انه امركم بذلك
نفسه في وقت السواك احتمالان الاول انه يقع عند القرب من الموت
الثاني انه يقع في الاخرة قال الزجاج وهذا اولى لان الاول قد لم يقع
ويجعلون لله البنات وتقرير قوله تعالى وجعلوا الملايكة الذين
هم عباد الرحمن اناثا كان خزاعة وكنانة يقولون الملايكة بنات
الله قال الواحدي اظن ان العرب انما اطلقوا لفظ البنات على
الملايكة لاستتارهم عن العيون فالحقوهم النساء في الاستتار فاطلقوا

عليهم البنات قال ابن عادل وهذا الذي ظنه ليس بشيء فان الجن ايضا
مستترون عن العيون ولم يطلقوا عليهم لفظ البنات والحاكي الله تعالى
عنهم هذا القول قال تعالى سبحانه وتنزيه وجهان الاول ان يكون المراد
تنزيه ذاته عن نسبته الولد اليه الثاني تعجيب الخلق من هذا الامر
الجهل العريض وهو وصف الملايكة بالانوثة ثم نسبتهما بالولد تعالى
الله تعالى تيزا في التفسير معناه معاذ الله وذكر مقاتل الوجه الاول
وما ذكر الله تعالى ما جعلوا له مع الغنا المطلق بين ما نسبوا الا قسم
مع لزوم الكراهة والضعف بقوله تعالى ولهم ما يشتهون من البنين
وقد يكونون اعدا اعدايهم بما انه تعالى ذكر ان الواحد من هولا المشركين
لا يرضى بالولد البنت لنفسه كيف ينبته سبحانه تعالى فقال واذا بشر
احدهم بالانثى اي اخبر بولادتها ظل وجهه اي صار اويدام النهار
كله مسودا من الكابة والحيا من الناس واسوداد الوجه كناية عن
الاغتمام والتخجيل كما ان بياض الوجه واشراقه كناية عن الفرح
والسرور وهو كظيم اي مملوء غيظا على المراة ولاذ بهما بوجه الشاة
في اصل اللغة الخبر الذي يغير البشرة من حزن او سرور ثم خص في
عرف اللغة بالسرور فلا يكون الا بالخبر الاول فالمراد بالبشارة
هنا الاخبار كما مر وقد دل الزجاج ان اطلاقه على الخبر والشر داخل
في التحقيق خلافا للجمهور يتوارى اي يستخفي من القوم اي من الرجال
الذي هو فيهم من سوء ما بشر به خوفا من التعيير وذلك ان العرب
كانوا في الجاهلية اذا قرب ولادة زوجة احدهم تراه يتوارى عن القوم
الى ان يعلم ما ولد له فان ولد له ذكر افتخر وبشر بذلك وظهر وان
كانت انثى حزن ولم يظهر ايام مترددا ماذا يفعل بذلك الولد
ايمسكه اي يتركه بغير قتل على هون هوان وذل ام يدسه في التراب

وذكر الضمير في عيسكه ويدسه نظرا للفظ الولد او تكون الانثى ولدا كما علم مما مر قال ابن سلق قال المفسرون كانت المراة اذا اد دكها المخاض احتفرت حفرة وجلست فيها على شفيرها فان وضعت ذكرا اظهرته وظهر السرور على اهله وان وضعت انثى استانست مستولدها فان شاء امسكها على هوى وان شاء امرها بالقائها في الحفرة وردت التراب عليها وهي حية لتموت او عن قيس بن عاصم انه قال يا رسول الله اني واريت ثمان بنات في الجاهلية فقال له صلى الله عليه وسلم اعتق عن كل واحدة منهن هديا وروي ان رجلا قال يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما اجد حلاوة الاسلام منذ قد اسلمت فقد كانت لي الجاهلية ابنة فامرت امرتي ان تزينها فاجتها فلما انتهت الحي واد فيه بئر بعيد القعر القيتها فيها فقالت يا ابت قتلتني فما ذكر قولها لم ينفعني حتى قفال صلى الله عليه وسلم ما كان في الجاهلية فقد هدمه الاسلام وما في الاسلام يهدمه الاستغفار وكانوا في الجاهلية مختلفين من قتل البنات فمنهم من يحفر الحفرة ويدفنها فيها الى ان تموت ومنهم من يرميها من شاهق جبل ومنهم من يغرقها في الماء من يد بحها وكانوا يفعلون ذلك خاتة للفقر وانحمية خوفا من ان يطعم من عيلها الكفاف وتارة خوفا من الفقر وكثرة العيال ولزوم النفقة وكان الذي منهم يريد ان يحيي ابنته تركها حتى تكبر كم يلبسها جبة من صوف او شعر ويجعلها ترعى الابل والغنم في البادية قال الله تعالى الا ساء اي بئس ما يحكمون حكمهم هذا وذلك لانهم في الاستكاف من البنت الى اعظم الغايات قاولها انه يسود وجهه وثانيها انه يختفي من القوم من شدة نفرته عن البنت وثالثها ان الولد محبوب بحسب الطبيعة ثم انه بسبب نفرته عنها يقدم على قتلها وذلك يدل على

ان

ان النفرة عن البنت والاستنكاف عنها قد بلغ مبلغا لا يزاد عليه فكيف يليق بالعاقل ان ينسب ذلك الى عالم المقدس العالي عن مشابهة جميع المخلوقات وتظير هذه الاية قوله تعالى الكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة ضيزى ثم قال تعالى للذين لا يؤمنون بالاخرة وهم الكفار مثل السوء اي الصفة السوء يعني القبيحة وهي قتلهم البنات مع احتياجهم اليهن للنكاح ولله المثل الاعلى اي الصفة العليا وهو الله تعالى الاله الواحد الذي جميع صفات الكمال والجمال من العلم والقدرة والبقاء السرمدي وغير ذلك من الصفات التي وصف الله بها نفسه وقال ابن عباس مثل السوء النار والمثل الاعلى شهادة ان لا اله الا الله فان قيل كيف جاء المثل الاعلى مع قوله تعالى فلا تضربوا لله الامثال اجيب بان المثل الذي يجوز به الله تعالى حق وصدق والذي يذكره غيره باطل وهو العزيز الذي لا يمتنع عليه شيء فلا نظير له الحكيم الذي لا يوقع شيئا الا في محله والحاكي تعالى عن القوم عظيم كفرهم وقبيح قولهم بين تعالى انه مع هول هذه الكفار ولا يعاجلهم بالعقوبة اظهارا للتفضل والرحمة والكرم بقوله تعالى ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم اي بسبب كفرهم ومعاصيهم ما ترك عليها اي على الارض وانما اضمر ذكرها من غير ذكر لدلالة الناس والدابة عليها من دابة اي ان الله تعالى لو اخذ الناس بظلمهم لاهلك جميع الدواب التي على وجه الارض فان قيل اسم الناس جنس يشمل الكل فيدخل في ذلك الانبياء فبم ارذلك على عدم عصمتهم اجيب بان ذلك عام مخصوص بقوله تعالى ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله فالمذكور في هذه الاية اما كل العصاة المستحقين العقاب او الذين تقدم ذكرهم من المشركين ومن الذين ابتغوا لله البنات او جميع

الكفار يد ليل قوله تعالى ان شر الدواب عند الله الذين كفروا وقال قتادة قد
فضل الله تعالى ذلك في زمن نوح عليه السلام فاهلك جميع الدواب التي على
وجه الارض الا من كان في السفينة مع نوح عليه السلام روي ان ابا هريرة
رضي الله عنه سمع رجلا يقول ان الظالم لا يضر الا نفسه فقال بئس ما قلت
ان الحبارى تموت هزلا من ظلم الظالم وقال ابن مسعود ان الحبارى لتمرغ
في وجرها بذنب ابن آدم والحبارى بضم الجيم وفتح العين دويبة قاله
الجوهري وقيل في معنى الاية ولو يؤاخذ الله الاباء الظالمين بسبب
ظلمهم لانقطع النسل ولم توجد الابناء ولم يبق في الارض احد ولكن
يؤخرهم اي يمهلهم بفضله وكرمه وحلمه الى اجل مسمى اي الى ان تمتاز اجالهم
وانفاسهم فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة عنه ولا يستقدمون
اي لا يتوخر وقت ساعة من الاجل الذي جعله الله تعالى لهم ولا يتقدمون فيه
تنبيه تمم ثلاث مفتوحات من كلمتين فقرا قالون والبزي وابو عمرو
باسقاط احدى الهمزتين مع المد والقصر وقرا ورش وقنبل بتسهيل الثانية
وابدال المد حرف مد والباقون بتحقيق الهمزتين النوع الثالث من الاقاويل
الفاسدة التي كانت بين ذكرها الكفار وحكاها الله تعالى عنهم بقوله ويجعلون
لما لا يكرهون اليه انفسهم من البنات وازدل الاهوال والشركاء في
الرياسة ثم وصف الله تعالى جرأتهم مع ذلك بقوله تعالى وتصف اي تقول
السنتهم الكذب اي مع ذلك مع انه قول لا ينبغي ان يتخيله عقل ثم بينه
بقوله تعالى ان لهم الحسنى اي عنده اي الجنة كقوله تعالى ولئن رجعت الى ربي
ان لي عنده للحسنى ولا جعل اعظم ولا احكم سوا من ان تقطع بان من تجعل
له ما يكرهه ان يجعل لله ما يحب فكانه قيل ما لهم عنده فقيل لا جرم اي لا اظن
ولا تردد ان لهم النار اي جزاء الظالمين وقيل لا جرم يمين حقا وانهم مفرطون
اي متروكون فيها او مقدمون اليها وقرا نافع بكسر الراي مشددا وزيد احمد

والباقون

والباقون بالفتح فان قيل انهم لم يقروا بالبعث فكيف يقولون ان لنا الحسنى
عند الله اجيب بانهم قالوا ان كان محمد صادقا في البعث بعد الموت وان لنا
الجنة وقيل انهم كانوا في العرب جميع بقوذ بالبعث واليتمة واتهم كانوا يريدون
البير النفيس على غير الميت ويتركونه الى ان يموت ويقولون انذلك اليت
اذا حسن فانه يحشر معه مركوبه ثم بين تعالى مثل هذا الصنيع الذي هو بعيد
من مكي ترتيب قد عدد من سائر الامم السابقين في حق الانبياء المتقدمين
بقوله تعالى تالله اي الملك الاعلى لقد ارسلنا اي بما لنا من العظمة رسلا
من الماضين الى امم من قبلك كما ارسلنا هولاء فزين لهم الشيطان اعمالهم
الخبيثة من الكفر والتكذيب كما زين لهولاء فضلوا فاهلكناهم
وهذا يجري مجرى التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم فيما كان يناله من الغم
بسبب جهالات القوم والمزين في الحقيقة هو الله تعالى هذا مذهب اهل السنة
وانما جعل الشيطان الة لانه الموسوس في قلوبهم وليس له قدرة على ان
يضل احدا او يهدي احدا وانما اله الوسوسة فقط ثم من ارأه تعالى
شقاوته سلطه عليه حتى يقبل وسوسته فهو وليهم اليوم اي في الدنيا وغيرها
لا يخرج عن زمانها اي فهو وليهم حين كان يزين لهم او يوم القيمة على ان حكايته
حال ماضية او آتية اي للذي لهم غيره وهو عاجز عن نصر نفسه فكيف
ينصرهم وقيل الضمير لقريش اي فزين الشيطان تلك الكفرة المتقدمين اعمالهم
وهو ولي هولاء القوم فيضرهم ولا ينفعهم وقيل يجوز ان يقدر مضاف اي فهو
ولي امثالهم والولي المزين والناصر فيكون نفيا للناصر لهم على
ابلغ الوجوه ولهم عذاب اليم اي مولم في الاخرة ثم ذكر تعالى انه مع هذا
الوعيد الشديد قد اقام الحجة وازاح العلة بقوله تعالى وما انزلنا
عليك يا محمد من عظمة العلو الكتاب اي القرآن الا لتبين لهم اي للناس الذي اختلفوا فيه من امر الدين مثل

التوحيد والشرك واثبات المعاد ونفيه فانه كان فيهم من ينكر البعث ومنهم
من يؤمن به ومنهم عبد الطلب وشرائع تحريم الحلال كالبحيرة والسائبة
وتحليلهم اشياء محرمة كالميتة فان قيل اللام في لتبين لهم تدل على
ان افعال الله تعالى معللة بالاغراض كقوله تعالى كتاب انزلناه اليك
لتخرج الناس وقوله وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون اجيب بانه لما
ثبت بالعقل امتناع التعليل وجب صرفه الى التاويل وقوله تعالى وهدى
ورحمة اي وذكرا ما بجميله معطوفان على محل لتبين الا انهما انتقسا
على انهما مفعول لهما فعلا الذي انزل الكتاب ودخلت اللام على لتبين
لانه فعل المخاطب لافعل المنزل وانما ينتصب مفعولا له ما كان فعل
فاعل الفعل المعلل ولما كان ذلك وما سيلهم ويعم على هذا لهم بقاءه
بقوله تعالى لقوم يؤمنون ونظيره قوله تعالى في اول البقرة هدى للمتقين
وانما خص المؤمنين بالذكر من حيث انهم قبلوه وانتفعوا به كما في قوله
تعالى انما انت منذر من يخشاها الا انه انما انتفع بانذاره هذا القوم
فقط ولما اقتضى الدليل على ان قلوبهم مشركة استكبارا وما يتعلق
به وضمنه بما اجيي به القلوب في الايمان والعلم بعد موتها بالكفر واكمل
وكان المقصود الاعظم من القرآن تقرير اصول اربعة الالهيات والنبوات
والمعاد واثبات القضاء والقدر والفعل بالاختيار وكان اجل هذه
المقاصد الالهيات سرع في ذكر الوحدانية والقدرة والفعل بالاختيار
المستلزم للقدرة على البعث على وجه غير المتقدم لعلم ان اداة
ذلك اكثر من اوراق الاشجار واجلى من ضياء الانوار فعطف على
قوله وانهم ما تسرون وما تعلنون قوله جامعا في الدليل بين
العالم العلوي والعالم السفلي وانه اي الذي له الامر كله انزل من
السما في الوقت الذي يريده ماء بالمطر والثلج والبرد فاجيي به اي

بذلك الماء الارض بانواع النبات بعد موتها اي يبسها ان في ذلك
لآية اي دلالة واضحة على كما له قدرته تعالى لقوم يسمعون اي سماع
تدبر وانصاف ونظر لان سماع القلوب هو النافع لا سماع الاذان نحن نسمع
ايات القرآن بقلبه وتدبرها وتفكر فيها انتفع ومن لم يسمع بقلبه فكانه
اصم لم يسمع فلم ينتفع بالايات ومن الدلائل المذكورة في هذه الاية الاكتفاء
بجايب احوال الحيوانات ونحو قوله وان لكم في الانعام لعبرة اي اعتبارا
اذا تفكرتم فيها وعرفتم كما له قدرتنا وقوله تعالى نسقيكم مما في بطونه
استيناف ببيان العبرة وانما ذكر الضمير لان لفظ الانعام مفرد ومعنى
لافادة الجمع كالرهط والقوم ولا من اللبس والدلالة على قوة المعنى
لكونها سرقة النعم والله في سرقة الموصوف للمعنى فان الانعام اسم
جمع ولذلك عده سيبويه في باب ما لا ينصرف في الاسما المفردة الوارد
على افعال كقولهم نؤبه اكياش بيا تحتية وسين معجمة ضرب من
الثياب يغزل مرتين ومن قال انه جمع نعمر جعل الضمير للبعض فان اللبن
لبعضها دون بعض جميعها وقرا نافع وابن عامر وشعبة بفتح النون
تقول سقيته حتى روي قال تعالى وسقاهم ربهم شرابا طهورا والباء
بمعنى من فوائد استفاه اذا جعل له شرابا كقوله تعالى واسقيناكم ماء فراتا
ولما كان في موضع العبرة تخليص اللبن من عين ذكر قوله تعالى من
بين فرث وهو الثفل الذي نزل الى الكرش فاذا خرج منه لم يسم فرثا
ودم لبنا خالصا اي صافيا خلقه الله وسطا بين الفرث والدم بكتفانه
وبينه وبينهما برزخ من قدرته لا يبغي عليه احدهما بلون او رائحة او
طعم روي عن ابن عباس رضي الله عنهما اذا اكلت البهيمة العلف
واستقر في كرشها طبخته فكان اسفله فرثا واوسطه لبنا واعلاه دما
والكبد مسلطة على هذه الاصناف الثلاثة تقسمها فتجري الدم في

العروق واللبن في الفرع ويبقي العزة في الكرش فسبحان الله ما اعظم
قدرته واللطف حكمته لمن تفكر وتامل وسلم مشيقته عن الاخلاص
فقال تميز الجعل من الجيوب كتميز اللبن من بين فرث ودم سايغا
للشاربين اي سهل المرور في الحلق وقيل لم يغص احد باللبن قط
تنبيه قال اهل التحقيق اعتبار حدوث اللبن كما يدل علي وجود العا
المختار فكذلك يدل علي امكان الحشر والنشر وذلك لان هذا
العشب الذي ياكله الحيوان انما يتولد من الماء والارض فخالق
العالم دبر تدبيرا اخر يقلب ذلك الدم لبنا ثم دبر تدبيرا اخر احدث
من ذلك اللبن السمن ويتبين لهذا الاستقراء يدل علي انه تعالي قادر
علي ان يقلب هذه الاجسام من صفة الي صفة ومن حالة الي حالة فاما
كان كذلك لم يمتنع الجائز ان يكون قادرا علي ان يقلب اجزاء الافراد
ابدان الي صفة الحياة والعقل كما كانت قبل ذلك فبهذا الاعتبار
يدل من هذا الوجه علي ان البعث والقيامة امر ممكن غير ممتنع
وفي حدوث اللبن في الضرع والتقاطه بالصفات التي باعتبارها
يكون موافقا للتغذية الطفل مشتملة علي حكمة عجيبة ليتمهد
صريح العقل بانها لا تحصل الا بتدبير الفاعل الحكيم المدبر وبيانه
من وجوه الاول انه تعالي خلق في اسفل المعدة منفذا اجزاء من
ثفل الغذاء اذا تناول الانسان غذاء وسرايا انطبق ذلك
المنفذ انطباقا كليا لا يخرج منه شيء من ذلك المأكول والمشروب
الي ان يكمل ابنضاجه في المعدة ويجذب ما صفي منه الي الكبد
ويبقي الثفل هناك فحينئذ ينفتح ذلك المنفذ وينزل منه ذلك
الثفل وهذا من العجايب التي لا يمكن حصولها الا بتدبير الفاعل
الحكيم المدبر لانه متي كانت الحاجة الي خروج ذلك الجسم من

المعدة

المعدة انفتح المنفذ المعهود الانطباق تارة والانفتاح تارة اخري بحسب الحاجة
وبقدر المنفعة مما لا يخفي الا بتقدير الفاعل الحكيم الثاني عند تولد
اللبن في الضرع يحدث الله تعالي في حملة الذكر مثلا صغيرا ومساما
ضيقة وجعل بحيث اذا القمل المعي واكتسب بتلك الحملة الفصل اللبن عنها
ولما كانت تلك المسام ضيقة جدا كان لا يخرج منها الا ما كان في
غاية الصفاء واللطافة واما الاجزاء الكثيفة فانه لا يمكنها الخروج
من تلك المنافذ الضيقة فتبقي في الداخل فالحكمة في احداث تلك
الثقب الصغيرة والمنافذ الضيقة في راس حملة الذكر انما تكون كذلك
لصفاة فكلما كان لطيفا خرج وكلما كان كثيفا احتبس في الداخل فلم
يخرج فبهذا الطريق يصير اللبن خالصا موافقا لحدث الطفل سايغا
للشاربين الثالث انه تعالي لما سمي ذلك الطفل في الحال ياخذ في المص
ولولا ان الفاعل المختار الرحيم لما سمي ذلك الطفل الصغير ذلك العمل
المخصوص واللم يحصل الانتفاع بتخليق ذلك اللبن في الثدي وقوله
تعالي ومن ثمرات النخيل والاعناب متعلق بمحذوف تقديره ونسقيكم
من ثمرات النخيل والاعناب اي من عصيرهما وحذف لدلالة نسقيكم
عليه وقوله تعالي تتخذون منه سكرا بيان وكشف عن كنه الامتنا
قال الواحدي الاعناب عطف علي الثمرات لا علي النخيل لانه يعصر
التقدير ومن ثمرات الاعناب والعنب بنفسه ثمرة وليس له ثمرة اخري
ورزقا حسنا كالتمر والزبيب والدبس والخل تنبيه في تفسير
السكر وجوه الاول وهو الاكثر سميت بالمصدر من سكر يسكر سكرا وسكرا
نحو رشد رشدا ورشدا فان قيل الخمر محرمة فكيف ذكرها الله تعالي
في معرض الانعام اجيب عن ذلك بوجهين احدهما ان هذه السورة
مكية وتحريم الخمر انما نزل في سورة المايدة فكان نزول هذه الاية كانت

في الوقت الذي كانت الخمر غير محرمة وممن قال بهذا الحنفي والشيخ الثاني
ان الاية جامعة بين العتاب والمنة فالعتاب بالنسبة الي السكر والمنة
بالنسبة الي الرزق فاحسنا الوجه الثاني ان السكر هو النبيذ وهو غير الخمر
والتمر فانه اطبخ حتي يذهب ثلثاه ثم يترك حتي يشتد وهو حلال عند ابي
حنيفة رحمه الله تعالي الي حد السكر ويحتج بهذه الاية وبقوله صلي الله
عليه وسلم الخمر حرام لعينها وهذا يقتضي ان يكون السكر بعضا من الخمر
وكل من اثبت هذه المقالة قال انه النبيذ المطبوخ والوجه الثالث ان
السكر هو الطعام قاله ابو عبيدة واحتج بقول الشاعر جعلت اعراض
الكرام سكرا اي تتقلب باعراضهم بان جعلتهم هتلا وشتما والنقل
ما ينتقل علي الشراب قال البلوي واولي الاقاويل ان قوله تعالي
تتخذون منه سكرا منسوخ اه ويدل لذلك ان ذكر الله نعمته في
الخمر قبل ان يحرمها عليهم وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال السكر
ما حرم من ثمرها والرزق الحسن ما احل من ثمرها وروي عنه ايضا
السكر حرام منه والرزق رزقه وعنه وعنافعه ثم قال تعالي ان في
ذلك المذكور لاية اي دلالة علي قدرته تعالي لقوم يعقلون
اي يستعملون عقولهم بالنظر والتامل في الايات فيعلمون ان هذه الاشياء
لا يقدر عليها الا الله تعالي فيحتج بحصولها علي وجود الاله القادر الحكيم
ولما بين تعالي ان اخراج الالبان واخراج السكر والرزق الحسن من
ثمرات النخيل والاعناب دليل قاطع وبرهان ساطع علي ان لهذا
العالم الها قادرا مختارا حكيما ذكر ان اخراج العسل الذي جعله الله
تعالي شفاء للناس من دابة ضعيفة وهي النحل دليل قاطع وبرهان
ساطع علي اثبات هذا المقصود بقوله تعالي واوحي ربك الي النحل
وهي الهام قال الضحاك الهمها ولم يرسل اليها رسولا والمراد من الالهام

انه تعالي قدر في نفسها بهذه الاعمال العجيبة التي يعجز عنها العقلاء من
البشر وبيانه من وجوه الاول ما ذكره الله تعالي بقوله ان اتخذي اي بان
اتخذي ويجوز ان تكون مفسرة لان في الايحاء معني القول من الجبال
بيوتا اي اوي اليها وانما سمي ما تبنيه لتتعسل فيه بيتا تشبيها ببيت
الانسان فتبني البيوت المسدسة من اضلاع متساوية لا يزيد بعضها
علي بعض بمجرد طبعها والعقلاء من البشر لا يمكنهم مثل تلك البيوت الا
بالات والة ودقيقة الثاني انه ثبت في الهندسة ان تلك البيوت
لو كانت مشكلة باشكال سوي المسدسات كان كانت مدورة او
مثلثة او مربعة او غير ذلك من الاشكال فانه يبقي بالضرورة فيما
بين تلك البيوت فرج خالية ضائعة فاهتدي ذلك الحيوان الضعيف
الي هذه الحكمة الخفية والدقيقة اللطيفة من الاعاجيب الثالث ان
النحل يحمل بيتها واحد كالريش للبقية وذلك الواحد يكون اعظم
جثة من الباقي ويكونا قد احكم علي تلك البقية وسمج مونه
ويحملونه عند تعبه وذلك ايضا من الاعاجيب الرابع انها اذا انفردت
عن وكرها ذهبت مع اجمعيتها الي موضع آخر فاذا اراد اعودها
الي وكرها ضربوا الطبول والالات الموسيقي وبواسطة تلك الالحان
يقدرون علي رد ها الي اوكارها وهذا ايضا حالة عجيبة فلما اتضح
هذا الحيوان بهذه الخواص العجيبة الدالة علي مزيد الذكاء والكياسة
ليس الا علي سبيل الالهام وهو حالة شبيهة بالوحي والوحي قد يرد
في حق الانبياء كقوله تعالي وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا او من وراء
حجاب وفي حق الاولياء قال تعالي واذ اوحيت الي الحواريين وبمعني
الالهام في حق البشر قال تعالي واوحينا الي ام موسي وفي حق سائر
الحيوانات خاص قال الزجاج ويجوز ان يقال سمي هذا الحيوان بخلاف ذلك

الله تعالى بخلال الناس العسل الذي يخرج من بطونها وقال غيره النحل يذكر
ويؤنث وبه سمي في لغة الحجاز ولذلك انثها الله تعالى وكذلك كل
جمع ليس بينه وبين واحده الا الهاء واتخذي من الشجر اي الصالحة بيوتا
و اتخذي مما يعرشون اي الناس يبنون تلك الاماكن ولذلك ان
النحل منه وحشي وهو الذي يسكن الجبال والشجر والكروم ومنه اهلي
وهو الذي يأوي الى البيوت وتربيه الناس عندهم وقد جرت العادة
ان الناس يبنون للنحل الاماكن حتى يأوي اليها وذكر ذلك بحرف
التبعيض لانها لا تبني في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش من الكروم
او سقف ولا في كل مكان منها وقرا ابن عامر وشعبة بضم الراء والباقون
بكسرها تنبيه ظاهر قوله تعالى اتخذي امر وقد اختلفوا فيه فمن
الناس من يقول لا بعد ان يكون لها هذه الحيوانات عقول ولا بدع ان يلقي
عليها من الله سر وعي وقال اخرون بل المراد منه انه تعالى خلق فيها
غرائز واطباعا يوجب هذه الاحوال وسيأتي الكلام على ذلك ان
شاء الله تعالى في سورة النمل عند قوله تعالى يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم
ولما كان اهم شيء بعد الراحة منهم المقتل اكل شيء فيه تعالى ثم كلي من
كل الثمرات اي من كل ثمرة يشتهيها مرعاها وحلوها وذكر بعد ذلك حرف
الزاي اشارة الى عجيب الصنع في ذلك وتيسيره لها تنبيه لفظ
من هذه للتبعيض او لابتداء الغاية ولما اذن لها في ذلك كله وذلك
من المعلوم عادة ان تقاطيه لا يكون الا بمشقة عظيمة في معاناة
السير اليه نبه على خرق العادة في تيسيره لها بقوله تعالى فاسلكي
سبل ربك اي الطرق التي الهمك الله تعالى ان تسلكيها وتدخلي فيها
لاجل طلب الثمار وقوله تعالى ذللا جمع ذلول حال من السبل اي
مسخرة لك فلا يعسر عليك وان توعرت ولا تمتنعي عن العود فيها

وان

لانه لو كان طلا لكان على لون واحد وقوله كل يخرج في داخل البدن يسمى بطنا خلاف الظاهر لان لفظ البطن اذا اطلق لم يرد به الا العضو المعروف مثل بطن الانسان وغيره فيه اي للشراب الذي يخرج من بطون النحل شفاء للناس من الاوجاع كما قال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم اما لبعضها كما دل عليه تنكير شفاء واما لكلها بضميمته الى غيره اذ قلما يجدي من المعاجين لم يذكر الاطباء فيه العسل او بدونها بينته وكمذا سقط ما قيل انه يضر باصحاب الصفراء لهيجها الحرارة ويضر بالشباب المحرورين ويعطش قال ابن عباس شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما في الصدور وفي رواية عنه عليكم بالشفاءين القرآن والعسل وروي نافع ان ابن عمر ما كانت قرحة ولا شيء الا لطخ الموضع بالعسل ويقرا يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس وعن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال اخي يشتكي بطنه فقال صلى الله عليه وسلم اسقه العسل فذهب ثم رجع فقال قد سقيته فما نفع فقال اذهب فاسقه العسل فقد صدق الله وكذب بطن اخيك فسقاه فشفاه الله فبرا فكانما انشط من عقال فقوله صلى الله عليه وسلم صدق الله وكذب بطن اخيك يحتمل انه صلى الله عليه وسلم علم ببرء الوحي الالهي ان العسل الذي امره بسقيه سيظهر نفعه بعد ذلك فلما لم يظهر نفعه في الحال قال صدق الله يعني فيما وعده من ان فيه شفاء للناس وكذب بطن اخيك يعني باستعجالكم للشفاء في اول مرة وقال مجاهد الضمير في فيه شفاء للناس راجع للقرآن لان فيه الشفاء من امراض الشرك والجهالة والضلالة وهو هدى ورحمة للناس وعلى هذا تمت قصة توله العسل من النحل عند قوله تعالى يخرج من بطونها شراب

مختلف

مختلف الوانه ثم ابتدا وقال فيه شفاء للناس اي في هذا القرآن قال الرازي وهذا قول ضعيف ويدل عليه وجهان الاول ان الضمير في قوله تعالى فيه شفاء للناس يجب عوده الى اقرب المذكورات وما ذاك الا قوله تعالى شراب مختلف الوانه واما تكلم بعود هذا الضمير الى القرآن مع انه غير مذكور فيما سبق فهو غير مناسب والثاني في حديث ابي سعيد الخدري المتقدم ثم ان الله تعالى ختم الآية بقوله تعالى ان في ذلك اي المذكور لآية لقوم يتفكرون اي في اختصاص النحل بتلك الطعوم الدقيقة واللطائف الخفية ومثل هذا البيوت المسدسة وغير ذلك فيعتبروا ويتوسلوا بما ذكرنا على وحدانيتنا وقدرتنا وذكر في هذه السورة اضافة الآيات الى المخاطبين بالافراد تارة بالجمع وتوسيطها تارة بالعقل وتارة بالفكر وتارة بالذكر وتارة بغيرها هم الله تعالى لما اعظمهم من رقدتهم وبنهم على عظم غفلتهم ثني بعض ما في انفسهم من الادلة على ذلك فقال والله اي المحيط بكل شيء قدرة وعلما خلقكم اي اوجدكم من العدم واخرجكم الى حيز الوجود ولم تكونوا شيئا ثم يتوفاكم اي عند انقضاء اجالكم على اختلاف الانسان فلا يقدر الصغير ان يؤخر ولا الكبير على ان يقدم فمنكم من يموت على حال قوته ومنكم من يرد الى ارذل العمر اي اخسته من الهرم والخرف قال بعض العلماء عمر الانسان له اربع مراتب سن الطفولية والنمو وهو اول العمر الى بلوغ ثلاث وثلاثين وهو غاية الشباب وبلوغ الاشد ثم المرتبة الثالثة سن الوقوف وهو من ثلاثة وثلاثين سنة الى اربعين سنة وهو غاية القوي وكمال العقل والمرتبة الثالثة سن الكهولة وهو من الاربعين الى الستين وهذه المرتبة يشرع الانسان في النقص ويكون آخرها الخرف قال علي بن ابي طالب رضي الله عنه ارذل

العمر خمسة وستون سنة وقال قتادة تسعون وعن انس رضي الله عنه
قال كان رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول اللهم اني اعوذ بك
من العجز والهرم والبخل واعوذ بك من عذاب القبر وفتنة المحيا
والممات وفي رواية عنه كان يقول اللهم اني اعوذ من البخل
والكسل وارذل العمر وعذاب القبر وفتنة المحيا والممات **لكيلا**
يعلم بعد علم شيئا اي ليفضي الي حالة شبيهة بحال الطفولية في نقصان
الفهم والعقل وسوء الفهم تنبيه هذا ذلك عام في المسلم والكافر
او مختص بالكافر فيه قولان احدهما انه عام والقول الثاني انه مختص
اذ المسلم لا يزداد بطول العمر الا كرامة علي الله تعالي ولا يقال في
حقه انه رد الي ارذل العمر قاله الرازي والدليل عليه قوله تعالي
ثم رددناه اسفل سافلين الا الذين امنوا وعملوا الصالحات ما ردد
الي اسفل سافلين وقال عكرمة من قرأ القرآن لم يصر الي هذه الحالة
وقال في قوله تعالي الا الذين امنوا وعملوا الصالحات ثم الذين قرؤا
القرآن وقال ابن عباس قوله ثم رددناه اسفل سافلين يريد
الكافرين ثم استثني الموحدين فقال الا الذين امنوا وعملوا الصالحات
ثم ذا بويد ثم **ان الله عليم قدير** يميت الشاب الناشيط ويبقي
الهرم الثاني وفي ذلك تنبيه علي ان تفاوت احوال الناس ليس
الا بتقدير قادر حكيم ركب ابنيتهم وعدد امزجتهم علي قدر معلوم
ولو كان مقتضي الطباع كما يقوله الطبايعيون لم يبلغ التفاوت
هذا المبلغ ولما ذكر تعالي المفاوتة في الاعمال المتأدية بابطال
الطبايع الموجبة للمسابقة الي الاعتبار يا ولي الابصار للخوف كل لحظة
من مصيبة الموت بالمفاوتة في الارزاق فقال **والله** اي الذي له
الامر كله **فضل بعضكم** ايها الناس **علي بعض في الرزق** فمنكم غني ذو

فقير ومنكم مالك ومنكم مملوك كل ذلك بتقدير العزيز الحكيم فيجعل
الضعيف العاجز اغنى من القوي المحتال العالم ويغري الكيس الفاضل
واكثرهم عقلا يغني عمره في طلب القليل من الدنيا ولا يتيسر له ذلك
ويرى اجهل الخلق واقلهم عقلا وفهما تفتح له ابواب الدنيا كل شيء يحاوله
يحاوله ادار في خياله فانه يحصل له بسهولة ولو كان السبب في ذلك
هو جهل الانسان وعقله لوجب ان يكون الاعقل افضل في هذه الاحوال
فلما رأينا ان الاعقل اقل نصيبا وان الاجهل الاخس اوفر نصيبا علمنا
ان ذلك بسبب قسمة القسام كما قال **أهم يقسمون رحمة ربك نحن**
قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا فاتقوا الله واجملوا في طلب
الرزق واقبلوا الي جميع ما يكسبكم علي ما ينفعكم من الاستبصار وانشد
سفيان بن عيينة يقول كم من قوي قوي في تقلبه ممدد الرأي عند الرزق
ومن ضعيف ضعيف العقل مختلط كأنه من خليج البحر يغترف وحكي
ان سليمان المهلبي ارسل الي الخليل احد بجاية الف درهم فردها الخليل
وكتب اليه هذه الابيات ابلغ سليمان اني عنه في سعة وفي غنى
غير اني لست ذا مال سمحي بنفسي اني لارى احدا يموت جوعا
ولا يبقي علي حال فالعجز عن قدرها العجز بنيقه ولا نريد كثيره
رحل محتال والفقر في النفس لا في المال تعرفه ومثل ذا كان الغنا
في النفس لا المال وقال الشافعي رحمه الله تعالي ومن الدليل علي
القناعة كونه بؤس اللبيب وطيب عيش الاحمق تنبيه هذا التفاوت
ليس مختصا بالمال بل هو حاصل في الذكاء والبلادة وحسن القبح
والعقل والحمق والصحة والسقم والاسم الحسن والاسم القبيح وهذا
مجمل لا ساحل له قال الرازي وقد كنت مصاحبا لبعض الملوك فرأيته في بعض
الاسفار وكان ذلك الملك كثير المال والجاه فكانت الجمايل الكثيرة

تتناول بين يديه وما كان يمكنه ركوب واحد منها وربما حضرت الاطعمة الشهية
والفواكه الكثيرة العطرة عنده وما كان يمكنه ان يتناول شيأ منها
وكان من الفقراء من هو صحيح المزاج وقوي البنية كامل القوة وما
كان يجد ملاء بطنه طعاما فذلك الملك وان كان يفضل هذا الفقير
في المال الا انه هذا الفقير كان يفضل ذلك الملك في الصحة والقوة
وهذا باب واسع اذا اعتبره الانسان عظم تعجبه فيه فنسأل الله
تعالى ان يغنينا عن فضله وان يرضينا بما قسم لنا انه كريم جواد ثم ضرب
الله تعالى مثلا للذين جعلوا لله شركا بقوله تعالى فما الذين فضلوا اي في
الرزق وهم الموالي برادي رزقنا هم علي ما ملكت ايمانهم اي جعلا عاما
رزقناهم من الاموال وغيرها بينهم وبين مماليكهم فهم اي انما ليك والموالي
فيه سواء اي شركاء يقول الله تعالى هم لا يرضون ان يكونوا هم ومماليكهم
فيما رزقناهم شركاء فكيف يجعلون بعض عبيدي شركاء لي في ملكي وسلطاني
وقيل معنى الاية ان الموالي والمماليك الله رازقهم جميعا فهم في رزقه
سواء فلا تحسبن الموالي يردون ارزاقهم علي مماليكهم من عند انفسهم
بل ذلك رزق الله اجراه علي ايدي الموالي للمماليك والمقصود منه
بيان ان الرازق هو الله تعالى لجميع خلقه وان الموالي والمماليك في
ذلك الرزق سواء وان كان المالك لا يرزق المملوك وانما ذلك رزق
اجريته اليهم علي ايديهم فالرازق للمالك والمملوك هو الله تعالى وله
در سبحانه وتعالى هذه الدلائل وبينها واظهرها بحيث يفهمها
كل عاقل كان ذلك انعاما عظيما منه علي الخلق فعند هذا قال
افبنعمة الله في تقرير هذه البيانات وايضاح هذه البينات يجحدون
اي يكفرون وفي ذلك انكار علي المشركين حيث يجحدون النعمة ويعبدون
غيره وصلوا الشرك كما يضيفون اليهم بعض ما انعم به عليهم فيشركون
بينهم

بينهم وبينه في ذلك وتراشبه بالتفات علي الخطاب والباقون بالياء علي
الغيبة ثم انه تعالى ذكر نوعا آخر من احوال الناس ليستدل به علي وجود
الاله المختار الحكيم وتبينها علي انعام الله تعالى علي عبيده بمثل هذا النعم
بقوله تعالى والله اي الذي له تمام القدرة وكمال العلم جعل لكم من انفسكم
ازواجا اي من جنسكم لتانسوا بها ولتكون اولاد كل منكم مخلوقة حوا من ضلع
آدم وسائر النساء من نطف الرجال والنساء من خطاب عام فتحقيقه
بآدم وحوا تفظ خلقان الدليل والمعنى ان الله تعالى خلق النساء ليتزوج
بهن الذكور ومعنى من انفسكم كقوله تعالى فاقتلوا انفسكم وسلموا علي
انفسكم اي بعضكم بعضا ونظيره قوله تعالى وجعل لكم من ازواجكم بنين
وحفدة واحفاده جمع حافد وهو المسرع بالخدمة والمسارع اي
الطاعة ومنه قول القانت والينا نسعى ونحفد اي نسرع الي الطاعة
هذا اصله في اللغة واختلف فيه اقوال المفسرين فقال ابن مسعود
والنخعي الحفدة اختان الرجل علي بناته وعن ابن مسعود انهم اصهاره
فهو بمعني الاول وعلي هذا يكون معني الاية وجعل لكم من ازواجكم
بنين وبنات تزوجن فيحصل لكم بسببهن الاختان والاصهار وقال
الحسن وعكرمة والضحاك هم الخدم وقال مجاهد هم الاعوان وكل
من اعانك فهو حفدك وقال عطاء هم ولد الرجل الذين يعينونه
ويجزمونه وقال الكلبي ومقاتل البنون هم الصغار والحفدة كبار
الاولاد الذين يعينون الرجل الذين ليسوا منه اي اولاد المراة
من الزوج الاول قال الرازي والاولي دخول الكل فيه لان اللفظ
محتمل للكل بحسب المعني المشترك قال الزمخشري ويجوز ان يراد
بالحفدة البنون انفسهم كانه قيل جعل لكم منهن اولادا هم بنون
وهم حافدون اي جامعون بين الامرين الله ومع هذا فالمشهور

ان الحامل ولد الولد من الذكور والاناث قال الاطباء واهل الطبيعة
المني اذا انصب الى الخصية اليمنى من الذكر ثم انصب الى الجانب الايمن
من الرحم كان الولد ذكرا تاما في الذكورة واذا انصب من الخصية اليسرى
ثم انصب الى الجانب الايسر من الرحم كان الولد انثى تاما في الانوثة
واذا انصب من الخصيتين اليمنى والنصب منهما الى الجانب الايسر من الرحم
كان ذكرا في طبيعة الاناث واذا انصب الى الخصية اليسرى ثم انصب
منها الى الجانب الايمن من الرحم كان هذا الولد انثى في طبيعة الذكور
وحاصل كلامهم ان الذكور الغالب عليهم الحرارة واليبوسة والفاعل
على الاناث البرودة والرطوبة وهذا لعلة صفيقة فانثى النساء
من مزاجها في غاية السخونة وفي الرجال من مزاجه في غاية البرودة
فخالق الذكر والانثى الاله القادر الحكيم ولما ذكر تعالى انعامه على
عبيده بالمنكوح وما فيه من المنافع والمصالح ذكر انعامه عليهم
بالمطعومات الطيبة فقال ورزقكم من الطيبات سواء كانت من النبات
وهي الثمار والحبوب والادوية او كانت من الحيوانات والمراد بالطيب
المستلذ او الحلال وبين في من الطيبات للتبعيض لان كل الطيبات
في الجنة وما طيبات الدنيا الا انموذج منها واختلف في تفسير قوله
تعالى افبالباطل يؤمنون فقال ابن عباس يعني بالاصنام وقال
مقاتل يعني بالشيطان وقال عطاء يصدقون ان لي شريكا وصاحبة
وولدا وبنعمة الله هم يكفرون اي بان يضيفوها الى غير الله تعالى
ويتركون اضافتها الى الله تعالى وقيل الباطل ما سول لهم الشيطان
من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما وبنعمة الله ما احل لهم من الطيبات
وتحريم الخبائث فان قلت رسمت نعمة هنا بالتاء ووقف عليها ابن
كثير وابو عمرو والكسائي بالهاء والباقون بالتاء والكسائي ينزاء

بالامالة

بالامالة ولما شرح الله تعالى الدلائل على صحة التوحيد وابتهما بذكر
انتشار النعم العظيمة اتبعها بالرد على عبدة الاصنام فقال ويعبدون
من دون الله اي غيره ما لا يملك لهم رزقا اي تاركين عبادة من بيده
جميع الارزاق وهو ذو العلو المطلق الذي رزقهم من الطيبات ويعبدون
غيره ثم بين تعالى جهة الرزق بقوله تعالى من السموات والارض اما الرزق
الذي يأتي من جانب السماء فالمطر واما الذي من جانب الارض فالنبات
والثمار التي تخرج منها وقوله تعالى شيئا فيه ثلاثة اوجه احدها انه منصوب
على المصدر اي لا يملكون لهم شيئا قال ابن عادل وهذا غير مفيد اذ من
المعلوم ان الرزق شيء من الاشياء ويؤيد ذلك ان البدل لا يأتي الا لاحد
معنيين البيان او التاكيد وهذا ليس فيه بيان لانه اعم ولا تاكيد
الثالث انه منصوب برزقا على انه اسم مصدر واسم المصدر يعمل عمل
المصدر على خلاف في ذلك ولما كان من لا يملك شيئا قد يكون موصوفا
باستطاعة ان يتملك بطريق من الطرق نفى الله تعالى عنهم ذلك بقوله
تعالى ولا يستطيعون اي وليس لهم نوع استطاعة اصلا فان قيل
انه تعالى قال ويعبدون من دون الله ما لا يملك فعبر عن الاصنام
بصيغة ما وهي لغير العاقل ثم جمع بالواو والنون فقال ولا يستطيعون
وهو مختص بمن يعقل اجيب بانه عبر عنها تارة اعتبارا باعتقادهم
انها العقلاء وهي تفسير قوله تعالى فلا تضربوا لله الامثال وجهان
الاول قال اكثر المفسرين لا تشبهوا الله بخلقه فانه واحد لا مثل له
ولا شبيه ولا شريك من خلقه لانه لا خالق لكم غيره وفي ملكه
فكيف يشبه الخالق بالمخلوق والرازق بالمرزوق والقادر بالعاجز
الثاني انه عبدة الاوثان كانوا يقولون ان الله العالم اجل واعظم من
ان يعبده الواحد منا بل نحن نعبد الكواكب او نعبد هؤلاء الاصنام

ثم ان الكواكب والاصنام عبيد الآلة الاكبر الاعظم كما ذاصاح الناس يحذفون
الكبير صفة الملوك واليك الاكابر كانوا يحذفون الملوك فكذا هنا ان
الله اي الذي له الامر كله ولذا مر لغيره يعلم اي حظا ما انتم عليه من فرض
الامثال له وانتم لا تعلمون ذلك وقيل معناه وانتم للمتقولون ما عليكم
من العقاب العظيم بسبب عبادة هذه الاصنام ولو علمتم لتركتم
عبادتها ثم لما ختم تعالى ابطال مذهب عبدة الاصنام ببسلب العلم
الذي هو مناط السداد عنهم اكد ذلك بضرب مثل بقوله تعالى ضرب
الله اي الذي له كمال العلم وتمام القدرة مثلا بالاحرار والعبيد عبدا
وقيده بقوله تعالى مملوكا ليخرج الحر لان العبد يطلق على اكثر بالنسبة
الى الله تعالى وقيده بقوله تعالى لا يقدر على شيء ليخرج المكاتب ومن
فيه شائبة حرية وبهذا مثل بشركائهم ثم عطف على عبدا قوله ومن
اي حرا نهى نكرة موصوفة ليطابق عبدا رزقناه منا رزقا حسنا اي
واسعا طيبا فهو ينفق منه ايما وهو بمعنى قوله تعالى سرا وجهرا اي
يتصرف فيه كيف شاء وهذا امثل الآلهة وله المثل الاعلى ثم بكتهم الكفار
عليهم بقوله تعالى هل يستوون اي هذان الفريقان المتمايزان كما لان الجنس
فاذا كان لا يسوغ في عقل ان يسوي بين مملوكين احدهما
حر مقتدر والاخر مملوك عاجز فكيف يسوي بين حجر من حيوان اتخذ
وبين الله تعالى الذي له القدرة التامة على كل شيء وقيل ذلك قيل
للكافر المحذوف والكرمن الموفق تنبيه جواب هل يستوون وبي
لا يستوون وقوله تعالى بل اكثرهم قال ابن عباس اكثرهم على ما فعل
بأوليائه وانعم عليهم بالتوحيد وقيل المعنى ان كل اكثرهم وليس كل
شيء من اكثرهم للاصنام ولانه لا نعمة لها على احد لانها جماد عاجزة اي
انما اكثرهم لا لغيره فيجب على جميع العباد حمده لانه تعالى اهل لكل حامد
والشاكر

والشاكر من كانهم قالوا لمن نعلم ذلك فقيل بل اكثرهم اي الكفار لا يعلمون لكون نعم
يسوون غيرهم ومن نفي عنه العلم الذي هو اعلا صفات الكمال كان في عداد
الانعام فهم لذلك يشبهون به ما ذكر ويغيرون له الامثال الباطلة
ويضيفون نعمه الى غيره ثم ان الله تعالى ضرب لعبدة الاوثان مثلا اخر بقوله
تعالى وضرب الله مثلا ثم ابدل منه رجلين ثم استانف البيان الاجمالي فقال
احدهما ابكم وهو الذي ولد اخرس وليس كل اخرس ابكم وروي ثعلب
عن ابن الاعرابي الابكم الذي لا يسمع ولا يعقل ووصف الله تعالى هذا الرجل
بصفة ثانية بقوله تعالى لا يقدر على شيء لانه لا يفهم ولا يفهم وفي ذلك
اشارة الى العجز التام والنقصان الكامل ثم وصفه تعالى بصفة ثالثة
بقوله تعالى وهو اي ذلك الابكم العاجز كل على مولاه اي ثقيل على من ولي
امره وبقوله قال اهل المعاني اصله من الغلظ الذي هو نقيض الحدة فقال
كل السكين اذا غلظت شفرته فلم تقطع وكل اللسان اذا غلظ فلم يقدر
على الكلام وكل فلان عن الامر اذا ثقل عليه فلم ينتهض ثم وصفه تعالى
بصفة رابعة بقوله اينما يوجهه اي يرسله ويصرفه في ذلك الوجه لا يات
بخير لانه عاجز لا يحسن ولا يفهم قيل هذا مثل سر كايهم الذين هم عيال
وبال على عبدتهم وبختم الله تعالى بقوله هل يستوي هو اي هذا الموصوف
بهذه الصفات الاربع ومن اي ورجل آخر على ضد صفته فهو ناطق
قادر عالم نظن قوي خير صالح يأمر اي ورجل آخر بما مر عاله
من العلم والعدالة بالعدل اي ببذل النفيس لغيره وهو في نفسه ظاهرا
وباطنا على صراط اي طريق واضح مستقيم اي عامل فيه بما يأمر به قيل
هذا مثال المعبود بالحق الذي يكفي عابديه جميع المؤن وهو دال على كمال
علمه وتمام قدرته وقيل المراد من هذا الابكر عبد لعثمان بن عفان رضي
الله عنه كان ذلك العبد يكره الاسلام وما كان فيه خير ومولاه وهو

عثمان يامر بالعدل وكان على الدين القويم والصراط المستقيم وقيل المراد كل
عبد موصوف بهذه الصفة المذكورة وكل حر موصوف بتلك الصفات
الحميدة وهذا القول كما قال الرازي اولى من الاول لان وصفه تعالى اياهما
بكونهما رجلين يمنع من حمل ذلك على الرسل وكذلك بالعلم وبالكمال وبما
التوجه في جهات المنافع وكذلك وصف الاخر بانه على صراط مستقيم
يمنع من حمله على الله تعالى وايضا المقصود تشبيه حوله بحوله في امر
من الامور وذلك التشبيه لا يتم الا عند كون احدى الصورتين مغايرة
للاخرى واما القول المنافي فضعيف ايضا لان المقصود بانه التفرقة
بين رجلين موصوفين بالصفات المذكورة وذلك غير مختص بشخص معين
بل انما حصل التفاوت بالصفات المذكورة فانه انما يحصل المقصود ثم ذكر
سبحانه وتعالى نفسه بكمال العلم بقوله تعالى ولله اي لا لغيره غيب السموات
والارض وهو ما غاب فيهما عن العباد بان لم يكن محسوسا ولم يدل
عليه محسوس وقيل الغيب هنا هو قيام الساعة فان علمها غائب عن
اهل السموات والارض منهم وعن سبحانه وتعالى كما لا وقدرته بقوله
تعالى وما امر الساعة وهو الوقت الذي يكون فيه البعث الا كلمح
البصر اي الا كرجع الطرف من اعلى الحدقة الى اسفلها والمعنى وما امر
قيام الساعة في السرعة والسهولة الا كطرف العين والمراد منه
تقدير كمال القدرة ومعنى قوله تعالى او هو اقرب ان لمح البصر عبارة
عن انتقال الجسم المسمى بالطرف من اعلى الحدقة الى اسفلها ولا
شك ان الحدقة قوسية فتكون اجزاء لمح البصر عبارة عن المرور على جملة
تلك الاجزاء التي منها تالف الحدقة ولا شك ان تلك الاجزاء كثيرة
والازمان التي يحصل فيها لمح البصر مركبة من آنات متفاوتة والله
تعالى قادر على اقامة القيمة في آن واحد من تلك الآنات فلذلك

قال

قال او هو اقرب الا انه لما كان اسرع الاحوال والحوادث في عقولنا وافكارنا
هو لمح البصر لاجرم ذكره ثم قال او هو اقرب تنبيها على ما مر ولانه يشبهه
في انه ليس المراد طريقه الشك والمراد اذا او هو اقرب وقال الزجاج
المراد به الابهام على المخاطبين لان الله تعالى ياتي بالساعة اما بتقدير لمح
البصر او بما هو اسرع وقيل معناه ان قيام الساعة وان تراخى فهو عند
الله كالشيء الذي تقولون فيه هو كلمح البصر او هو اقرب بمبالغة كقوله تعالى
وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون ان الله اي الملك الاعظم على
كل شيء قدير فيقدر على ان يحيي الخلائق دفعة واحدة كما قدر على احيائهم
فانه تعالى مهما اراد شيئا كان في اسرع ما يكون ثم انه تعالى عاد الى الدلائل
الدالة على وجود الصانع المختار فعطف على قوله تعالى والله جعل لكم
من انفسكم ازواجا قوله تعالى والله اي الذي له العظمة كلها اخرجكم بقدرته
وحكمته من بطون امهاتكم حال كونكم عند الاخراج لا تعلمون شيئا من
الاشياء قل ولا جلا تعالى الذي اخرجكم منها قادر على اخراجكم من بطون
الارض بلا فرق بل بطريق الاولى وقرا حمزة والكسائي بكسر الميم من
والباقون بضمها وقرا حمزة بكسر الميم والباقون بضمها ثم عطف على اخرجكم
قوله تعالى وجعل لكم السمع والابصار والافئدة الآلات الادراك بكم مل الذي
وقت الولادة عليه وفتق مواضعها وسواها وعدلها وانتم في البطون
حيث لا تقدرون على شيء ولا تتمكنون من شيء بشيء منه بآلة فالذي قدر على
ذلك في البطن ابدا عاقادر على اعادته في بطن الارض بطريق
الاولى قال البقاعي ولعله تعالى جمعهما اي الابصار والافئدة دون السمع
لان التفاوت فيهما اكثر من التفاوت فيه بما لا يعلمه الا الله تعالى والافئدة
هي القلوب التي هيأها الله تعالى للفهم واصلاح البدن بما اودعها من
الحرارة اللطيفة لمعاني الدقيقة لعلكم تشكرون اي لتصيروا عارفين

القلوب التي وهكذا هي اذا سمعتم المواعظ وابصرتم الايات في حال يرجى فيها
شكركم لما افاض عليكم من لطائف صنعه بان تقروا له من انعامه
والقدرة فانه انما انعم عليكم بهذه الحواس لتستعملوها في شكر من انعم
بها عليكم فان قيل عطف وجعل لكم السمع على اخرى حكم يقتضي جعل السمع
والبصر متاخرا عن الاخراج من البطون مع ان الامر ليس كذلك اجيب
بان حرف الواو لا يوجب الترتيب والبناء على اذ احملنا السمع على الاكتساب
والانتصار على الرؤية زال السؤال ثم انه تعالى ذكر دليلا اخر على
كماله قدرته وحكمته بقوله تعالى الم يروا الى الطير مسخرات اي هذه الآلات
للطيران في جو السماء اي في الهواء بين السماء والارض فقيدن عما لا يقدر عليه
بوجه من الوجوه مع مشاركتكم لها في السمع والبصر وزيادة تكم عليها
بالعقول فعلم قطعا انه تعالى اعطى الطير جناحا يبسطه مرة ويكسره مرة
اخرى مثل ما يعمل السابح في الماء وخلق فيه خلقة لطيفة فيه ولولا
ذلك لما كان الطيران ممكنا ومع ذلك لا يمسكهن في جو الهواء وقوع
الا الله اي الملك الاعظم فان جسد الطير جسم ثقيل والجسم الثقيل
يمتنع بقائه في الجو معلقا من غير دعامة تحته والاعلاقة فوقه
فوجب ان يكون الممسك له في ذلك الجو هو الله تعالى وقرا ابن عامر
وحمزة بالتاء على انه خطاب العامة والباقون بالياء على الغيبة
ان في ذلك المذكور لايات اي دلالات لقوم يومنون وخصهم بذلك
لانهم هم المنتفعون بها وان كانت هذه الايات لايات لكل العقلاء ثم انه
ذكر تعالى نوعا آخر من دلايل التوحيد بقوله تعالى والله اي الذي
له الحكمة البالغة جعل لكم من بيوتكم واصل البيت المأوى ليلا ثم اتسع
فيه سكنا اي موضعا تسكنون فيه تنبيه البيوت التي يسكن الانسان فيها
على قسمين احدهما البيوت المتخذة من الخشب والطين والآلات التي

يمكن تسقيف البيوت واليها الاشارة بقوله تعالى والله جعل لكم من بيوتكم
سكنا وهذا القسم من البيوت لا يمكن نقلها بل الانسان ينتقل اليها والقسم
الثاني الخباء والخيام والفساطيط واليها الاشارة بقوله تعالى وجعل لكم
من جلود الانعام بيوتا المتخذة من الادم ويجوز ان تبنى وله المتخذة من
الوبر والصوف والشعر فانها من حيث انها ثابتة على جلودها يصدق
عليها انها من جلودها تستخفونها اي تتخذونها خفيفة يخف عليكم حملها
وتقلها يوم ظعنكم اي وقت ترحالكم وعبر باليوم لان الترحال في الغالب
ويوم اقامتكم اي وقت الحضر او وقت النزول وهذا القسم من البيوت
يمكن نقلها وتحويلها من مكان الى مكان وقرا نافع وابن كثير وابو عمرو
بفتح العين والباقون بالسكون واضافوا قوله تعالى ومن اصوافها
واوبارها واشعارها الضمير الى الانعام لانها من جملتها قال المفسرون
واهل اللغة الاصواف للضان والاوبار للابل والاشعار للمعز اثاثا
اي ما يلبس ويفرش ومتاعا اي ما يتجر به وقيل الاثاث ما يكتسي به
المرء ويستعمله في الفطاء والوطاء والمتاع ما يفرش في المنازل ويتزين
به واختلف في معنى قوله تعالى الى حين فقيل الى حين يبلى وقيل الى
حين الموت وقيل الى يوم القيمة تنبيه في نصب اثاثا وجهان احدهما
انه منصوب عطفا على بيوتا اي وجعل لكم من اصوافها اثاثا والثاني
انه منصوب على الحال واعلم انه للانسان اما ان يكون مقيما او مسافرا
والمسافر اما ان يكون غنيا يستصحب معه الخيام او لا في القسم الاول
اشار اليه تعالى بقوله جعل لكم من بيوتكم سكنا واشار الى القسم الثاني
بقوله تعالى وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا واشار الى القسم الثالث
بقوله تعالى والله اي الذي له الجلال والاكرام جعل لكم اي من غير حاجة
منه تعالى مما خلق من شجر وجبال وابنية وغيرها وقوله تعالى ظلالا

جمع ظل تتفيؤ به سئلة اكن وقوله تعالى وجعل لكم مع غناه المطلق
من اجبال اكنانا جمع كن موضع تسكنون فيه من الكهوف والبيوت
المنحوتة فيها وجعل لكم اي فتنا منه عليكم سرابيل جمع سربال من قميص
او درع او جوشن او غيره اي وسوى اكان من صوف او كتان او
قطن او غيرذلك تقيكم اكر ولم يقل تعالى واثر د لتقدمها في قوله
تعالى لكم فيها دفئ وقيل الله اكتفى باحد المتقابلين وقيل كان الخطاب
بهذا الكلام العرب وبلادهم حارة فكان لحاجتهم الى مايدفع اكر
فوق حاجتهم الى مايدفع البرد كما قال تعالى ومن اصوافها واوبارها
واشعارها وسائر انواع الثياب اشرف الى انه ذكر ذلك النوع
لانه كان في العهد بما اشد واعتادهم للبسها اكثر ولما كانت السرابيل
نوعا واحدا لم يكن رجعل تقاتل وسرابيل اي درعا من حديد و
غيرها تقيكم باسكم اي حربكم اي في الطعن والضرب فهما ولما عدد
الله تعالى انواع نعمه قال كذلك اي كاتمام هذه النعمة المتقدمة
يتم نعمته عليكم في الدنيا والدين بالبيان والهداية لطريق
النجاة والمنافع والتنبيه على دقائق ذلك لعلكم يا اهل مكة
تسلمون اي تخلصون لله الربوبية وتقلعون عن الله لا يقدر على هذه
الانعامات احد سواه وقيل لعلكم تسلمون من الجراح بلبس الدروع
فان تولوا فلم يقبلوا منك وآثروا لذات الدنيا ومتابعة الآباء في
المعاندات في الكفر فانما عليك البلاغ يا افضل الخلق المبين هذا
جواب الشرط وفي الحقيقة جواب الشرط محذوف اي فقد عهد
عذرك بعد ما ادّيت ما وجب عليك من التبليغ فذكر السبب
الحامل وهو الابلاغ ليدل على المسبب وذلك لان تبليغه سبب في
عذره فاقيم السبب مقام المسبب وهذا قبل الامر بالقتال ثم ان الله
تعالى

تعالى ذمهم بانهم يعرفون نعمة الله اي الملك الاعظم التي تقدم عد بعضها في
هذه السورة وغيرها ثم ينكرونها بعبادتهم غيره ممن لم ينعم بها وقيل نعمة الله هي
محمد صلى الله عليه وسلم انكروه وكذبوه وهو اعظم النعم التي انعم الله تعالى
بها على عباده ثم ان كفار مكة انكروه وجحدوه واختلف في معنى قوله تعالى
واكثرهم الكافرون مع انهم كلهم كانوا كافرون على وجه الاولى انما قال
تعالى واكثرهم لانه كان فيهم من لم تقم عليه الحجة ممن لم يبلغ حد التكليف
او كان ناقص العقل فاراد بالاكثر البالغين الاصحاء الثاني ان يكون المراد
بالكافر الجاحد المعاند وكان فيهم من لم يكن معاندا بل كان جاهلا بصدق
الرسول وما ظهر له كونه نبيا حقا من عند الله الثالث انه ذكر الاكثر واراد
الجميع وهذا اقوى لقوله تعالى اكثرهم لا يعقلون ولما بين تعالى من حال
القوم انهم عرفوا النعمة ثم انكروها وذكر انهم اكثرهم كافرون
اتبعه بالوعيد وذكر حال يوم القيمة بقوله تعالى ويوم اي واحذرهم يوم
او واذكر لهم يوم نبعث بعد البعث من كل امة شهيدا هو نبيها كما قال
تعالى فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا
يشهد بنبوتهم لها وعليها يوم القيمة لتحكم تعالى بقوله اجرا للامر على ما
يتعارفونه واذكان تعالى غنيا عن شهيد وقوله تعالى ثم لا يؤذن
للذين كفروا فيه وجوه احدها لا يؤذن لهم في الاعتذار لقوله تعالى ولا
يؤذن لهم في الرجوع الى دار الدنيا والى التكليف رابعها لا يؤذن لهم في
حال شهادة الشهود بل يسكت اهل الجمع كلهم ليشهد الشهود فان قيل
ما معنى ثم ها هنا اجب بانها هنا انهم يمتحنون اي يقبلون بغير
شهادة الانبياء عليهم الصلاة والسلام بما هو اعلم منها وانهم يمنعون الكلام
فلا يؤذن لهم في القاء عذر ولا ادلاء بحجة ولا هم يستعتبون اي لا
تزال عتابهم وهي ما يتعتبون عليها ويلامون بقبائح استنبت فلانا

بمعنى اعتبته اي ازلت عتباه **واذا راى الذين ظلموا** اي ظلموا انفسهم
بالكفر والمعاصي **العذاب** هي عذابهم بعد الموقف وشهادة الشهداء
فلا يخفف عنهم ذلك العذاب **ولا هم ينظرون** اي يمهلون وما بين قوله
فاصل امرهم في البعث وما بعده وكان من اهم امرهم امر شركائهم في الموقف
مع شركائهم الذين كانوا يرجونهم عطف على ذلك بقوله تعالى **واذا**
راى اي بالعين يوم القيمة **الذين اشركوا شركاءهم** اي الاصنام التي
كانوا يعبدونها شركاء من الشياطين وغيرها **قالوا ربنا** اي يا من نحن
البناء وربانا **هؤلاء شركاؤنا** اضافوهم الى انفسهم لانه لا حقيقة لشركتهم
سوى تسميتهم لها الموجب لغرورهم بينوا المراد بقولهم **الذين كنا ندعوا**
اي نعبدهم **من دونك** ليتبرؤنا اليك فاكرمنا لاجلهم جريا على دنياهم
في الدنيا في بحملهم والعبادة لخذان شركاءهم من عوابد هذا القول
والاقرار عليه سطوات الغضب **فالقوا** اي الشركاء **اليهم** اي المشركين
القول بهت بادر وابه حتى كان اسراعه اليهم اسراع شيء يثقل يلقى
من علو والكذب قولهم فقالوا **انكم لكاذبون** في جعلنا شركاء وانكم
عبدتمونا حقيقة وانما عبدتم اهواءكم كقوله تعالى كلا سيكفرون بعبادتهم
بعبادتكم ولا يبعد ان تنطق الاصنام بذلك يوحيد في انهم حملوهم
على الكفر والزموهم اياه كقوله وما كان لي عليكم من سلطان الا
ان دعوتكم فاستجبتم لي **والقوا** اي الشركاء **الى الله** اي الملك الاعلا
يومئذ اي يوم القيمة **السلم** اي الاستسلام لحكمه بعد الاستكبار في
الدنيا **وضل** اي غاب **عنهم** اي الكفار **ما كانوا يفترون** اي من ان
الهتهم تشفع لهم وما ذكر تعالى وعبد الذين كفروا واتبعوا غيره
من ضم الى كفرهم صد الغير عن سبيل الله بقوله تعالى **الذين كفروا وصدوا**
عن سبيل الله اي هؤلاء مع كفرهم انهم منعوا الناس عن الدخول في

الايمان بالله وبرسوله **زدناهم عذابا** لصدهم **فوق العذاب** المستحق
بكفرهم **بما كانوا يفسدون** اي بكونهم مفسدين وقيل زدناهم عذابا
بحيات وعقارب كما مثال البحث يستغيثون بالهرب منها الى النار ومنهم
من ذكر لكل عقرب سبعماية نقرة في كل نقرة ثلاثماية قتلة من سم وقيل
عقارب لها انياب كالنخل الطوال ثم كرر سبحانه وتعالى التحذير من
ذلك اليوم على وجه يزيد على ما فهمته الاية السابقة وهو ان
الشهادة تقع على الامم للامم وتكون بجميعهم فقال **ويوم** اي واذكر لهم
او اذكر لهم **يوم نبعث** اي بما لنا من القدرة **في كل امة** من الامم الماضية
عبارة عن القرن والجماعة **شهيدا عليهم** قال ابن عباس يريد الانبياء
قال المفسرون كل نبي شاهد على امته وهو اعدل شاهد على **من**
انفسهم اي منهم لان كل نبي انما بعث من قومه الذين بعث اليهم بما
فعلوا من كفر وايمان وطاعة وعصيان **وجئنا بك** اي يا اشرف الرسل
شهيدا على هؤلاء اي الذين بعثناك اليهم ويعم اهل
الارض واكثرهم ليس من قومه صلى الله عليه وسلم ولذلك لم يقيد بعثته
بنبي وقال ابو بكر الاصم المراد بذلك الشهيد هو انه تعالى ينطق
عشرة من الاعضاء الانسان حتى انها تشهد عليه وهو الاذنان
والعينان والرجلان واليدان والجلد واللسان قال والدليل عليه
ما قاله في هذه الشهيد انه من انفسهم وهذه الاعضاء للانسان انما
من انفسهم ورد بانه تعالى قال شهيد عليهم فيجب ان يكون غيرهم
والعينا قال من كل امة فيجب ان يكون ذلك الشهيد من الامة
واحد هذه الاعضاء لا يعم وصفها بانها من الامة ثم بين تعالى انه
انما علمهم فيما كلفوا به فلا حجة لهم ولا معذرة بقوله تعالى **ونزلنا**
اي بعظمتنا بحسب التدريج والتنجيم **عليك** يا خير خلق الله **الكتاب**

اي القران الجامع للهدي تبيانا اي بيانا بليغا لكل شئ فان قيل كيف كان
القران تبيانا لكل شئ اجيب بان المعنى من كل شئ من امور الدين حيث
كان نصا على بعضها واحالة على السنة حيث امر فيها باتباع النبي صلى
الله عليه وسلم وطاعته وقد قال تعالى وما ينطق عن الهوى وحث
على الاجماع في قوله تعالى ويتبع غير سبيل المومنين وقد رضي رسول
الله صلى الله عليه وسلم لامته اتباع اصحابه والاقتداء باثارهم وقد
اجمعوا دارفاسوا وطيوا طرق القياس والاجتهاد فكانت السنة
والاجماع والقياس والاجتهاد مستندة الى تبيان الكتاب فمن ثم كان
تبيانا لكل شئ وهدى من الضلالة ورحمة لمن امن به وصدقه وبشرى بالجنة
للمسلمين اي الموحدين خاصة ولما استقصى سبحانه وتعالى في امر الوعد
والوعيد والرغبة والترهيب اتبعه بقوله ان الله الملك المستجمع
لصفات الكمال يامر بالعدل قال ابن عباس في بعض الروايات العدل
شهادة ان لا اله الا الله والاحسان اداء الفرايض وقال في رواية
اخرى العدل خلع الانداد والاحسان ان تعبد الله كانك تراه
وان تحب للناس ما تحب لنفسك فان كان مومنا احببت له ان
يزداد ايمانا وان كان كافرا احببت له ان يكون اخاك في الاسلام
وقال في رواية ثالثة العدل هو التوحيد والاحسان هو الاخلاص
فيه وقال آخرون يعني بالعدل في الافعال والاحسان في الاقوال فلا
تقول الا ما هو عدل ولا تقول الا ما هو احسان واصل العدل المساواة
في كل شئ من غبن وزيادة ولا نقصان فالعدل هو المساواة في المكافاة
ان خيرا فخير وان شرا فشر وعن السدي قال عيسى بن مريم
انما الاحسان ان تحسن الى من احسن اليك وعن محمد بن كعب
القرظي قال دعاني عمر بن عبد العزيز قال صف لي العدل فقلت

نخ نخ

نخ نخ سالت عن امر جسيم كن لصغير الناس اباه ولكبيرهم ابنا وللمثل منهم اخا
وللنساء كذلك وايتاء اي ومن الاحسان ايتاء ذي القربى اي القرابة القريبي
والبعيدي فيندب ان تعطيهم من فضل ما رزقك الله فان لم يكن لك فضل
فدعا حسن وتودد وروى ابو كدينة عن ابيه ان رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال ان اعجل الطاعة ثوابا صلة الرحم ان اهل هذا البيت ليكونون
فجارا فتنمي اموالهم ويكثر عددهم اذا وصلوا ارحامهم ولما امر الله
تعالى بالمكارم نهى عن المساوي بقوله تعالى وينهى عن الفحشاء قال ابن
عباس الزنا فانه افحش احوال الاستاد واشنعها وقال غيره الفحشاء
ما قبح من القول والفعل فيدخل فيه الزنا وغيره من جميع الاقوال
والافعال المذمومة والمنكر قال ابن عباس الشرك والكفر وقال غيره
المنكر ما لا يعرف في شريعة او سنة والبغي هو الاستيلاء على الناس
والتجبر عليهم قيل اذا اعجل الناس عقابا البغي ولو ان جبلين بغى
احدهما على الاخر لدكه الباغي ونص تعالى على البغي مع دخوله تحت
المنكر اهتماما به كما بدا بالفحشاء وقال ابن قتيبة في هذه الاية العدل
استواء السر والعلانية والاحسان ان تكون سريرته خيرا من علانيته
والفحشاء والمنكر والبغي ان تكون علانيته احسن من سريرته
وقال بعض العلماء ان الله تعالى ذكر من المامورات ثلاثة اشياء ومن
المنهيات ثلاثة اشياء فذكر العدل وهو الانصاف والمساواة في
الاقوال والافعال وذكر في مقابلته الفحشاء وهو ما قبح من الاقوال
والافعال وذكر الاحسان وهو ان يعفو عمن ظلمه ويحسن الى من اساء
اليه وذكر في مقابلته المنكر وهو ان يشكر احسان من احسن اليه
وذكر ايتاء ذي القربى والمراد به صلة القرابة والتودد اليهم والشفقة
عليهم وذكر في مقابلته البغي وهو ان يتكبر عليهم او يظلمهم لحق يجب لهم

ولما كان هذا المذكور من ابلغ المواعظ نبه عليه بقوله تعالى **يعظكم** اي
يأمركم بما يرقق قلوبكم من مصاحبة الثلاثة الاولى وهي العدل والاحسان
وايتاء ذي القربى ومجانبة الثلاثة الاخيرة وهي الفحشاء والمنكر
والبغي **لعلكم تذكرون** اي لكي تتعظوا فتعملوا بما فيه رضى الله تعالى
وقرأ حفص وحمزة والكسائي بتخفيف الذال والباقون بالتشديد
وفيه ادغام التاء في الاصل في الذال وفي اليماني في شعب
الايمان عن ابن مسعود انه قال اعظم اية في كتاب الله تعالى الله لا اله
الا هو الحي القيوم واجمع اية في كتاب الله للخير والشر الاية التي
في النحل ان الله يأمر بالعدل والاحسان واكثر اية في كتاب الله
تفويضا ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب
واشد اية في كتاب الله يا عبادي الذين اسرفوا على
انفسهم الآية وقال اهل المعاني لما قال الله تعالى في الاية الاولى
وانزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء بين في هذه الاية المأمور به
والمنهي عنه على سبيل الاجمال فما من شيء يحتاج اليه الناس في امر
دينهم مما يجب ان يوتى به او يترك الا وقد اشتملت عليه هذه الاية
وعن قتادة ليس من خلق حسن كان في الجاهلية يعملون به
ويعظمونه ويحثون عليه الا امر الله به وليس من خلق سيء كانوا يتعايرون به
بينهم الا نهي عنه وعن عكرمة ان النبي صلى الله عليه وسلم قرأ على
الوليد بن المغيرة ان الله يأمر بالعدل والاحسان الى آخر الاية فقال
له يا ابن اخي اعد علي فاعادها عليه فقال الوليد والله ان له لحلاوة
وان عليه لطلاوة وان اعلاه لمثمر وان اسفله لمغدق وما هو بقول
البشر وانما تقرر في هذه الجمل التي جمعت بجمعها امورا ونواهي
ما تضيق عنه الدفاتر والصدور وتشهد لها العقائد ودين من بلغاء

العرب

العرب انها بلغت من البلاغة مبلغا يجهل به غاية السر وذكر بعض تلك
الاقسام وبدا بما هو مع جمعه اتم وهو الوفاء بالعهد بقوله تعالى **واوفوا**
اي اوقعوا الوفاء الذي لا وفاء في الحقيقة غيره **بعهد الله** اي الملك الاعلى
الذي عاهدكم عليه بادلة العقل من التوحيد والبيع والايمان وغير
من اصول الدين وفروعه **اذا عاهدتم** بتعهدكم له باذعانكم لاشتماله
ولا تنقضوا الايمان واحترز عن لغو اليمين بقوله تعالى **بعد توكيدها** اي
تشديدها بتحتموها فيما وفي ذلك دليل على ان المراد بالعهد غير اليمين
لانه اعم منه وقرأ ابو عمرو بادغام الدال في التاء بخلاف عنه **وقد**
جعلتم الله به الذي له العظمة كلها **عليكم كفيلا** اي شاهدا
ورقيبا وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان باظهار الدال عند الجيم
والباقون بالادغام وعن جابر قال نزلت هذه الاية في بيعة النبي
صلى الله عليه وسلم كان من اسلم بايع على الاسلام فقال تعالى
واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها قد
جعلتم كفيلة محمد واصحابه وكثر المشركين ان تنقضوا البيعة التي
بايعتم على الاسلام **ان الله** اي الذي له الاحاطة الكاملة **يعلم ما تفعلون**
من وفاء العهد ونقضه ثم ضرب الله تعالى لنقض العهد مثلا فقال
ولا تكونوا اي في نقض العهد **كالتي نقضت غزلها** اي ما غزلته فهو
مصدر بمعنى المفعول **من بعد قوة** اي ابرام واحكام وقوله تعالى **انكاثا**
جمع نكث وهو ما ينتقض من الغزل واكمل قال مقاتل هذه امرأة
من قريش يقال لها ريطة وقيل ريطة وتلقب بجوا وكانت خرقاء
حمقاء وسوسة اتخذت مغزلا قدر ذراع وصنارة مثل اصبع
وفلكة عظيمة على قدرها فكانت تغزل من الصوف والشعر والوبر
على وجوارحها من الغداة الى الظهر ثم تامرهن فينقضن ما غزلن

وكان هذا ايمانها وقال السلوي كانت امراة عجلة تسمى حرقا تغزل فاذا
برمت غزلها نقضته وقال مجاهد نقضت حبلها بعد ابرامها اياه وقال
قتادة لو سمعتم بامراة نقضت غزلها من بعد ابرامه لقلتم ما احمق هذه
وهذا مثل ضربه الله لمن نكث عهده وقال ابي قوله تعالى تتخذون ايمانكم
دخلا بينكم خيانة وغدرا الله والدخل ما يدخل في الشيء على سبيل
الفساد وقيل الدخل والدغل ان يظهر الرجل الوفا بالعهد ويبطن
نقضه وانما كانوا يفعلون ذلك ان اي بسبب ان تكون او مخافة ان
تكون وتكون يجوز ان تكون تامة — فيكون امة اي جماعة فاعلها
وان تكون ناقصة فيكون امة اسمها وهي مبتدا وان هي اي اكثر من
امة خبرها بمعنى ان هي محال يغلب على بعض الامم الاول وهي موضع
اخبر على الثاني وازكى ما خوذ من زكا الشيء يزكو اذا زاد وهذه
الزيادة قد تكون في العدد وفي القوة وفي الشرف قال مجاهد كانوا
يخالفون الحلفا فلم يجدوا من كان اعز منهم واشرف فينقضون حلفنا
الاولين ويخالفون هؤلاء الذين هم اعز منهم اراهم الله تعالى عن ذلك
انما يبلوكم الله الذي له الملك كله اي يختبركم به اي بما ملكم معاملة
المختبر ليظهر للناس عسكم بالوفاء واخلاقكم عنه واعتمادا على
كثرة انصاركم وقلة انصار من نقضتم عهده من المومنين او غيرهم مع
قدرته سبحانه وتعالى على ما يريد فبنى شكه ان يعاملك بالمخالفة
فيضعف القوي ويقلل الكثير ويكثر القليل وليبينن لكم اي
اذا تجلى لفصل القضا يوم القيمة ما كنتم فيه تختلفون اي اذا جازاكم
على اعمالكم بالثواب والعقاب فاحذروا يوم العرض على مالك الملك
والارض وان من توقش الحساب يملك ولو شا الله اي الملك الاعلى
الذي لا احد من الاحد معه ان يجعلكم امة واحدة لا اختلاف بينكم في

اصول

اصول الدين والا لزوعه لجعلكم امة واحدة اي متفقة على امر واحد وهو
دين الاسلام ولكن لم يشا ذلك بل شا اختلافكم فهو تعالى يضل من يشا
عدلا منه تعالى لانه تام الملك ولو كان الذي افعله على احسن الحالات
ويهدي بفضله من يشا ولو كان على احسن الحالات والاحوال فبذلك
تكونوا مختلفين لا يسال عما يفعل سبحانه وتعالى ولتسئلن عما كنتم تفترون
في الدنيا فيجازي المحسن باحسانه ويعاقب المسيء بعدله تعالى
والمراد بقوله تعالى عن نقض العهد والايمان مطلقا قال تعالى ولا تتخذوا
ايمانكم دخلا اي فسادا وحكى وخديعة بينكم وليس المراد منه التحذير
عن بعض مطلق الايمان والالزم التكرار كما مر عن الغالبي في موضع
واحد بل المراد نهي اولئك الاقوام المخاطبين بهذا الخطاب عن
بعض ايمان مخصوصة اقدموا عليها فلهذا المعنى قال المفسرون
المراد في الذين بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم عن نقض العهد لان
قوله تعالى وتزل اي فيكون ذلك سببا للزلل المتقدم هي في غاية الفظاعة
بعد ثبوتها اي عند مركزها التي كانت به من دين او دنيا فلا يصير اليها
فزا رفتسقط عنه هربته لا يليق بنقض عهد قبله وانما يليق
بنقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الايمان بعد تبين امره
تنبيه فتزل منصوب بما ضمار ان على جواب النهي وذلك القدم
مثل يذكر لكل من وقع في بلاء بعد عافية او سقط في ورطة بعد
سلامة او محنة بعد نعمة وتذوقوا السوء اي العذاب في الدنيا بما
اي بسبب ما صددتم انفسكم ومنعتم غيركم بايمانكم التي اردتم للاغترار
لاخفا الحق عن سبيل الله اي دينه وذلك ان من نقض العهد سهل على
غيره طريقة نقض العهد فيستحق به ولكم مع ذلك عذاب عظيم اي
ثابت غير منفك اذا متم على ذلك ثم اكد سبحانه وتعالى هذا التحذير

د

بقوله تعالى ولا تشتروا اي ولا تكلفوا انفسكم لجاجا وتركا للنظر ان تاخذوا وتستبدلوا بحمد الله الذي له الكمال كله ثمنا قليلا اي حطام الدنيا وان كنتم ترونه كثيرا ثم علل قلته بقوله تعالى انما عند الله اي الذي له الجلال والاكرام من ثواب الدارين هو خير لكم والبعد عن الخير الى غير ما له وجوه ناقص العقل ثم شرط علم خيريته لكونهم من ذوي العلم بقوله تعالى ان كنتم تعلمون اي ان كنتم من اهل العلم والتمييز فتعلموا ان افضل ما بين العوضين ثم علل ذلك بقوله ما عندكم اي من متاع الدنيا ولذاتها ينفد اي يفنى نفاسة منفص العيش اشد ما يكون به اعتباطا بالقطاعه وما عند الله اي الذي له الامر كله من ثواب الاخرة ونعيم الجنة باق اي دايم روى عن ابي موسى الاشعري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من احب دنياه اضر باخرته ومن احب اخرته اضر بدنياه فاثروا ما يبقى على ما يفنى وقرا ابن كثير وما عاصم بالتاء والباقون بالياء والسبعة وقف بغير ياء وما في الوصل فابو عمرو بالتنوين وليجزين الذين صبروا على الوفاء بما يرضيه في الاوامر والنواهي في السراء والضراء اجرهم اي ثواب صبرهم باحسن ما كانوا يعملون اي يجزيهم احسن من اعمالهم ايجزيهم على احسن اعمالهم وذلك لان المؤمن قد ياتي بالمباحات وبالمندوبات وبالواجبات ولا شك ان المندوبات والواجبات مما يثاب على فعلها لا على فعل المباحات وقرا ابن كثير وعاصم بالياء قبل الجيم اي وليجزين الله تعالى رغب المؤمنين في الايمان بكل ما كان من شرايع الاسلام بقوله تعالى من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن اذ لا اعتداد باعمال الكفار في استحقاق الثواب وانما المتوقف عليها التخفيف العذاب فان قيل من عمل صالحا يفيد العموم فما فايدة ذكر او اني اجيب بانه ذكر هنا للتخصيص باحد الفريقين واختلف في قوله تعالى فلنحيينه حياة طيبة

فقال

فقال سعيد بن جبير وعطاء هي الرزق الحلال وقال مقاتل هي القيس في الطاعة وقال الحسن هي القناعة لان عيش المؤمن في الدنيا وان كان فيها اطيب من عيش الكافر وان كان غنيا لان المؤمن لما علم ان رزقه من عند الله وذلك بتقديره وتدبيره تعالى وعرف ان الله محسن كريم حكيم يمنع الاشياء لحكمها كان المؤمن راضيا بقضاء الله وبما قدره له ورزقه اياه وعرف ان مصلحته في ذلك القدر الذي رزقه فاستراحت نفسه من الكد والحرص فطاب عيشه بذلك واما الكافر والجاهل بهذه الاصول اكب على طلب الرزق فيكون ابدا في حزن وتعب وعناء وحرص وكذلك في الدنيا ولا ينال من الرزق الا ما قدر له فظهر بهذا ان عيش المؤمن القنوع اطيب من عيش وقال السدي الحياة الطيبة انما تحصل في القبر لان المؤمن يستريح بالموت من كد الدنيا وتعبها وقال مجاهد وقتادة هي الجنة لانها حياة بلا موت وغنى بلا فقر وصحة بلا سقم وملك بلا هلاك وسعادة بلا شقاوة فاثبت بهذا ان الحياة الطيبة لا تكون الا في الجنة ولا مانع من ان المؤمن الكامل يحصل له جميع ذلك ثم ان الله تعالى ختم الاية بقوله تعالى وليجزينهم اجرهم اي في الدنيا والاخرة باحسن ما كانوا يعملون اي من الطاعة ولما قال تعالى وليجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون ارشد به الى العمل الذي به يخلص اعمالهم من الوسواس بقوله تعالى فاذا قرات القران اي اردت قراءته فاستعذ اي ان شئت جهرا وان شئت سرا قال الشافعي رضي الله عنه والاسرار اولى في الصلاة وفي قول يجهر كما يفعل خارج الصلاة بالله اي بسؤال الله الذي له الكمال كله ان يعيذك من الشيطان اي المتمرد بالغنة الرجيم اي المطرود عن الرحمة من ان يصيبك ببرساوسه عن اتباعه ويدخل في جميع ذلك المرة من

الشياطين لانه لهم قدرة على القاء الوسوسة في قلوب بني آدم باقدار
الله تعالى على ذلك وقيل المراد ابليس خاصة والاستعاذة تأبى الاعتصام
به والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه غيره من امته وظاهر
الاية وجوب الاستعاذة واليه ذهب عطاء سرا كانت القراءة في الصلاة
ام في غيرها واتفق سائر الفقهاء على انها في الصلاة سنة وغيرها
والعمار في لهذا الامر عند الوجوب احاديث كثيرة منها القراءة يدرء
ذكر بقرة الحديث البخاري وغيره عن ابي سعيد بن المعلا رضي الله عنه
ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ما منعك ان تجيبني قال كنت اصلي
قال الم يقل الله استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم ثم قال لاعلمنك
سورة هي اعظم سورة في القرآن الحمد لله رب العالمين وفي رواية ابي سعيد
انه صلى الله عليه وسلم نادى ابيا وانه قال له كيف تقرأ اذا افتتحت
الصلاة قال ابي فقرأت الحمد لله رب العالمين حتى اتيت الي اخرها
وظاهر الاية يدل على ان الاستعاذة بعد القراءة واليه ذهب جماعة
من الصحابة والتابعين وهو قول ابي هريرة واليه ذهب مالك وابن
الظاهري قالوا الان قارئ القرآن يستحق هذا بلفظها وربما وصل
الوسواس في قلب القاري هل حصل له ذلك الثواب ام لا فاذا
استعاذ بعد القراءة اذهبت تلك الوساوس وبقي الثواب بخلصا والله
ذهب الاكثرون من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الائمة وهم
الامصار ان الاستعاذة مقدمة على القراءة قالوا ومعنى الاية اذا اردت
ان تقرأ القرآن فاستعذ بالله وتبعتهم على ذلك فلهذا قدرت ذلك
في الاية الكريمة ومثله ذلك قوله تعالى اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا
وجوهكم ومثله من الكلام اذا اكلت فسم اي اذا اردت ان تاكل فقل
بسم الله الرحمن الرحيم واذا سافرت فتاهب اي اذا اردت السفر

فتاهب

فتاهب والهنا الوسوسة انما تحصل في اثناء القراءة فتقديم الاستعاذة
على القراءة لتذهب الوسوسة عنه اولي من تاخيرها عن وقت الحاجة
اليها ولما امر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة من الشيطان
وكان ذلك يوهم ان للشيطان قدرة على التقرب في الاتيان الانسان
ازال الله تعالى ذلك الوهم وبين انه لا قدرة له البتة الا على الوسوسة
بقوله تعالى انه ليس له سلطان اي بحيث لا يقدر المسلط عليه على
الانفكاك عنه على الذين امنوا اي بتوفيق ربهم لهم وعلى ربهم وحده
يتوكلون اي على اولياء المؤمنين به والمتوكلين عليه فانهم لا يقبلون
منه ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته وعن سفيان الثوري
قال ليس له سلطان على ان يحملهم على ذنب لا يغفر لهم ثم وصل تعالى
ذلك ما يفهمه من ان له سلطانا على غيرهم بقوله انما سلطانه اي الذي
يتمكن به غاية التمكين بامكان الله تعالى له على الذين يتولونه اي
يحبونه ويطيعونه والذين هم به اي بالله مشركون وقيل الضمير
راجع الى الشيطان والمعنى بسببه مشركون بالله والمكان المشركون
اذا نزلت اية فيها شدة ثم نزلت اية ناسخة لها يقولون ان محمدا يلعب
باصحابه يامرهم اليوم بامر وينهاهم عنه غدا ما هو الا مفتر يتقوله
من تلقاء نفسه فنزل واذا بدلنا اي بقدرتنا بالنسخ اية سهلة
كالعفو باربعة اسهم دون عشر وقتال الواحد من المسلمين لمائتين من الكفار
او مائة لكثرتهم الخمر واجاب الصلوات الخمس مكان اية شاقة
كالعفو بحول ومصابرة عشرة من الكفار او سهلة كالايات المتضمنة
لاباحة الخمر والشديل برفع الشيء ووضع غيره مكانه والله اي الذي
له الاحاطة الشاملة اعلم بما ينزل من المصالح بحسب الاوقات والاحوال
بنسخ لدغيره قالوا اي الكفار انما انت يا محمد مفتر اي مختلق على الله تعالى

تامر نبيي عم يريد ولكن نتبين عنه وهو جواب اذا والله اعلم بما ينزل اعتراض
والمعنى الله اعلم بما ينزل من الناسخ والمنسوخ والتغليظ والتخفيف
اي هو اعلم بجميع ذلك في مصالح العباد وهذا توبيخ للكفار على قولهم
انما انت مفتر اي اذا كان هو اعلم بما ينزل فما لهم يتسبونه محمدا الى
الافتراء لاجل التبديل والنسخ بل اكثرهم اي عدم التبين على الكفر لا يعلمون
حكمة فائدة النسخ والتبديل ولا يميزون بخطأ من الصواب فان الله
تعالى اعلم بمصالح العباد كما ان الطبيب يامر المريض بشربة ثم بعد
مدة ينهاه عنها ويامره بغيرها بحسب تلك الشربة ثم امر الله تعالى
نبيه صلى الله عليه وسلم بالرد عليهم بقوله تعالى قل اي لهم ردا لحكمك
بذلك منهم نزله اي القرآن بحسب التدريج لاجل اتباع المصالح
لاحاطة علم المتكلم به روح القدس اي جبريل عليه الصلاة والسلام
واضافة الروح الى القدس وهو المطهر كما يقال حاتم لجود زيد
للخير والمراد الروح المقدس من الملائم من ربك بالحكمة
ليثبت الذين امنوا اي ليثبت بالقرآن قلوب الذين امنوا فيزدادوا
ايمانا ويقينا وهدى اي بيانا واضحا وبشرى للمسلمين اي المنقادين
لكن قيل ظاهر القرآن لا ينسخ بالسنة لقوله تعالى واذا بدلنا
آية مكان آية اذ مقتضاها ان الآية لا تنسخ الا بآخر بي احسب
بان هذه الآية دلت على انه تعالى يبدل آية بآية وللدلالة فيها
على انه لا يبدل آية الا بآية والجواب ان جبريل عليه السلام ينزل
بالسنة كما ينزل بالآية ولما كان المشركون يقولون ان محمدا انما يتعلم
هذه القصص وهذه الاخبار من انسان آخر وهو اعجمي مثلا وليس
هو من عند الله كما يزعم فنزل قوله تعالى ولقد نعلم علما مستمرا انهم
يقولون انما يعلمه بشر واختلف في البشر الذي قال المشركون

ان النبي صلى الله عليه وسلم يتعلم منه فقيل هو عبد لبني عامر بن لوي يقال
له يعيش كان يقرأ الكتب وقيل عداس غلام عتبة بن ربيعة وقيل عبد
لبني الحضرمي صاحب كتب وكان اسمه جبر وكانت قريش عبد بني الحضرمي
يسلم حذيفة وحذيفة يقبل محمدا وقيل كان عبدة نصرانيا اعجميا اللسان اسمه
بلعام وقيل ابن ميسرة يتكلم بالرومية وقيل سلمان الفارسي وبالجملة
فلا فائدة في تعداد هذه الاسماء والحاصل ان القوم اتهموه بانه يتعلم هذه
الكلمات من غيره ثم الله تعالى يظهرها من نفسه ويزعم انه انما عرفها
بالوحي وهو كاذب فيه فاجاب الله تعالى عنه تكذيبا لهم فيما رموا به رسول
الله صلى الله عليه وسلم من الكذب بقوله تعالى لسان الذي يلحدون
اليه يميلون اليه او يشيرون اليه اي انه يعلمه اعجمي اي لغة العرب وهو
مع ذلك الكفر في النهاية غير مبين وهذا اي القرآن لسان عربي مبين
اي ذو بيان وفصاحة فكيف يعلمه اعجمي وروي ان الرجل الذي كانوا يشيرون
اليه اسلم وحسن اسلامه ان الذين لا يؤمنون اي لا يصدقون كل تصديق
معتد به بآيات الله اي الذي له العظمة كلها لا يهديهم الله اي لا يريد هدايتهم
ولا يوفقهم للايمان ولهم عذاب اليم اي مولم في الآخرة ثم اخبر الله تعالى
ان الكفار هم المفترون بقوله تعالى انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون
بآيات الله اي القرآن بقولهم هذا من قول البشر واولئك اي المتصفون
بالصفات هم الكاذبون اي الكاملون في الكذب لان تكذيب آيات الله
اعظم من الكذب واولئك هم عادتهم الكذب لا يبالون به في كل شيء لا يحجمهم
عنه مروءة ولا دين ولما ذكر تعالى الذين لا يؤمنون مطلقا اتبعهم
صنفا منهم هم اشد كفرا بقوله تعالى من اي اي مخلوق وقع له انه
كفر بالله اي الذي له صفات الكمال بان قال او عمل ما يدل على الكفر
من بعد ايمانه بالله ورسوله على الله عليهم الا من اكره على متلفظ

بالكفر فتلفظ به وقلبه مطمئن بالايمان فلا شيء عليه لان محل الايمان هو القلب روي ان قريشا اكرهوا عمارا وابويه ياسرا وامه سمية على الاسلام فربطوا سمية بين بعيرين وقالوا انك اسلمت من اجل الرجال فقتلت وقتل ياسر وهما اول قتيل في الاسلام واعطاهم عمار بلسانه ما ارادوا مكرها وهو كاره فتجلبه فاخبر النبي صلى الله عليه وسلم انه كفر فقال صلى الله عليه وسلم كلا ان عمارا امتلا ايمانا فما قرنه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه فجاء الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه ويقول ما لك ان عادوا لك فقل لهم ما قلت تنبيه في الاية دليل على اباحة التلفظ بالكفر وان كان الافضل ان يجتنب عنه اعزازا للدين كما فعل ابواه ولما روي ان مسيلمة اخذ رجلين فقال لاحدهما ما تقول في محمد فقال رسول الله فقال فما تقول في قال انت ههنا فخلاه وقال للاخر ما تقول في محمد فقال رسول الله فقال فما تقول في قال اذا اصم فاعاد عليه ثلاثا فاعاد جوابه فقتله فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اما الاول فقد اخذ برخصة الله واما الثاني فقد صدع بالحق فهنيئا له واختلف الائمة في وقوع الطلاق بالاكراه فقال الشافعي واحمد رضي الله تعالى عنهما لا يقع وقال ابو حنيفة رحمه الله تعالى الاكراه في الدين ولا يمكن ان يكون المراد نفي ذاته لان ذاته موجودة فوجب حمله على نفي اثاره اي لا اثر له ولا عبرة به وقال عليه الصلاة والسلام رفع عن امتي الخطاء والنسيان وما استكرهوا عليه وقال العينا الاطلاق في اغلاق اي الاكراه وعند ابي حنيفة بقوله تعالى فان طلقها فلا تحل له وهذا قد طلقها واجيب بان الاية مخصوصة بغير ذلك جمعا بين الادلة **ولكن من شرح بالكفر صدرا** فتحه ووسعه لقبول الكفر واختاره ورضي به **فعليهم غضب**

اي

اي غضب لم يبين جهة عظيمة لكونه **من الله** اي الملك الاعظم **ولهم** اي بظواهرهم وبواطنهم **عذاب عظيم** في الاخرة للارتداد مع علمي اعقابهم **ذلك** اي الوعيد العظيم **بانهم** اي بسبب انهم **استحبوا** اي اختاروا حبا عظيما **الحياة الدنيا** الكائنة الحاضرة الفانية **فاثروها على الاخرة** الباقية الفاخرة لانهم راوا ما فيه من المومنين من الضيق والكافرين من السعة **وان الله** اي الذي له الغنى المطلق **لا يهدي القوم الكافرين** اي لا يرشدهم الى الايمان فضلا يوفقهم للعمل **اولئك** اي البعداء البغضاء **الذين طبع الله** اي الملك الذي لا امر لاحد معه **على قلوبهم** اي ختم عليها واستوثق ولما كان الختم في السمع نادرا وحده بقوله تعالى **وسمعهم** او عبر بي احدهما لمناسبة قوله تعالى **وابصارهم** فضاربا بدم انتفاعهم بهذه المشاعر كانهم لا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون **واولئك** اي الابعاد من كل خير **هم الغافلون** عما يرادبهم من العذاب في الاخرة **لا جرم** اي لا شك **انهم في الاخرة هم الخاسرون** اي اتم الناس خسارة لان الله تعالى وصفهم بست صفات الاولى انهم استوجبوا غضب الله تعالى الثانية انهم استوجبوا العذاب الاليم الثالثة انهم استحبوا الحياة الدنيا على الاخرة الرابعة ان الله تعالى حرمهم من الهداية الخامسة انه تعالى طبع على قلوبهم وسمعهم وابصارهم السادسة انه جعلهم من الغافلين عن العذاب الشديد يوم القيمة اذ كل واحدة من هذه الصفات من اعظم الاحوال ايما من الفوز بالخيرات والسعادات ومعلوم انه تعالى انما ادخر الانسان في الدنيا ليكون كالتاجر الذي يشتري بطاعته سعادة الاخرة فاذا حصلت هذه الموانع الثلثة علم حسرانه فلهذا السبب حكم تعالى عليهم بالخسران ولما ذكر تعالى حال من كفر بالله من بعد ايمانه وحال من اكره على الكفر ذكر تعالى حال من هاجر من بعد ما فتن بقوله تعالى

لغة

ثم ان ربك اي المحسن اليك للذين هاجروا الي المدينة الشريفة بالولاية
والنصرة وقوله تعالي من بعد ما فتنوا قرا ابن عامر بفتح الفاء والتاء
علي اسناد الفعل الي الفاعل والباقون بضم الفاء وكسر التاء علي فعل
ما لم يسم فاعله ووجه القراءة الاولي انه ان عاد الضمير علي المؤمنين فالمعني
فتنوا انفسهم بما اعطي المشركين من القول ظاهرا وانهم لما صبروا علي
عذاب المشركين تمتعوا ظاهرا في فتنوا المؤمنين لانهم اولياء المفتونين
هم المستضعفون الذين حملهم اقوياء المشركين علي الردة والرجوع
عن الايمان فبني تعالي انهم هاجروا ثم جاهدوا وصبروا علي الطاعة
ان ربك من بعدها اي لغفور رحيم ثم ذكر يوم القيمة
ليهم ويرحمهم تنبيه حذف خبر ان الاولي لدلالة خبر الثانية عليه او مقدرا
بما مر يوم اي اذكر يوم تاتي كل نفس اي وان عظم جرمها تجادل اي
تحاج عن نفسها لا يهمها غيرها وهو يوم القيمة فان قيل ما معني النفس
المضافة الي النفس اجيب بانه يقال لعين الشيء وذاته نفسه وفي
نقيضه غيره والنفس بالجملة كما هي في النفس الاولي هي الجملة والذات
عينها وعداتها فكانه قيل يوم ياتي كل انسان يجادل عن ذاته لا
يهمه شان غيره كل يقول نفسي نفسي ومعني المجادلة الحاجة هنا الاعتذار
عنها كقولهم هؤلاء اضلونا وما كنا مشركين وتوفي كل نفس صالحة او غير
صالحة ما عملت اي جزاءه من جنسه وهم لا يظلمون شيأ وما هذه تعالي
الكفار بالوعيد الشديد في الاخرة لعدد نعم الهنيا بانات الدنيا وهي
الوقوع في الجوع والخوف بقوله تعالي وضرب الله اي المحيط بكل شيء مثلا ويبدل
منه قرية هي مكة والمراد اهلها كانت آمنة اي ذات امن وامان به
اهلها في زمن مخوف قال تعالي اولم يروا انا جعلنا حرما آمنا ويتخطف
الناس من حولهم والامن في مكة كان كذلك لان العرب كان بغير

بعضهم

بعضهم علي بعض دون اهل مكة فانهم كانوا اهل حرم البيت والعرب كانوا يحجون
ويعظمونهم بالتعظيم والتكريم مطمئنة اي قارة باهلها لا يتجاوزون فيها
الي بقعة وانتقاله بسبب زيادة الامن بكثرة العدد وقوة المدد وكف
الناس عنها ووجود ما يحتاج اليه اهلها فان قيل الاطمينان هو الامن
فيلزم التكرار اجيب بان قوله آمنة اشارة الي الامن وقوله تعالي
مطمئنة لا يحتاج فيها الي بقعة كما مر وقيل اشار تعالي بذلك الي الصحة
لان هواء ذلك البلد كان ملائما لاهله فلذلك اطمانوا اليه واستقروا
قالت الفقلاء دلالة ليس لها نهاية الامن والصحة والكفاية يأتيها اي
علي سبيل التجدد والاستمرار رزقها رغدا اي واسعا طيبا من كل مكان
برا وبحرا بتيسير الله تعالي ولما كانت السعة تجر الي البطر عقبها بانبه
تعالي علي ذلك بقوله تعالي فكفرت بانعم الله اي الذي له الكمال كله
وانعم جمع نعمة قال الزمخشري علي ترك الاعتداد بالتاء كذرع وان
وقال قطرب هي جمع نعم والنعم والنعمة كبئس وبؤس فان قيل الانعم جمع قلة
فكان تلك القرية كفرت بانعم قليلة من نعم الله فعذبها الله تعالي
فلم لم يقل تعالي كفرت وانعم عظيمة فاستوجبوا العذاب اجيب بان
المقصود التنبيه بالادني علي الاعلي فان كفر النعم القليلة لما
اوجب العذاب فبكفران النعم الكثيرة اولي وبان الله تعالي انعم عليهم
بالنعمة العظيمة وهو محمد صلي الله عليه وسلم فكفروا به وبالقرآني
اليه فاذاقها الله اي المحيط بكل شيء لباس الجوع بعد رغد
العيش سبع سنين وقطعت العرب عنهم الميرة بامر رسول الله صلي
الله عليه وسلم حتي جهدوا واكلوا العظام المحرقة والجيف والكلاب
الميتة وقيل انها القرية غير مكة لانها ضربت مثلا لمكة ومثل

مكة يكون غير مكة والخوف بسرايا النبي صلى الله عليه وسلم تنبيه
استبعد الذوق لادراك اثر الضرر واللباس لما غشيهم واشتمل عليهم
من الجوع والخوف وارقيم الاذاقة عليه بالنظر الى المستعار له
كقوله كثير عزه غمر الرداء اذا تبسم ضاحكا غلقت لضحكته رقاب
المال فانه استعار الرداء المعروف لانه يعود عرض صاحبه عن
الرداء لما يلقى عليه واضاف اليه العرض الذي هو وصف المعروف
والنوال لاوصف الرداء نظرا الى المستعار له ولو نظر الى المستعار
لقال صافي الرداء اي سابغة ومعنى البيت اذا ضحك المسؤول
ضحكة ابقن السائل بذلك التبسم استلة رقاب ماله ويعطي
بلا حلاف وقد ينظر الى المستعار له كقوله نيابة عني رداء عبقري
رديء كريا اخا عمرو بن بكر الى اشمل الذي ملكت يميني ودونك
فاعتجز منه حبشلة استعار الرداء للسيف ثم قال وقاعتجز
الى المستعار له ولو نظر الى المستعار منه لقال كعقاليني في الاية
وكساهم لباس الجوع والخوف ولقال كثير صافي الرداء اذا التبسم
ضاحكا وهذا الغاية ما يقال في الاستعارة وقال ابن عطية
لما بارح ذكره عارا كاللباس وهذا كقول الاعشى
اذا ما الضجيع ثنى جيدها ... تثنت عليه فكانت لباسا
وقوله تعالى هن لباس لكم وانتم لباس لهن ومثله قول الشاعر
وقد لبست بعد الزبير بجاشع ... لباس التحيا حاضت ولم تفعل
الدم كان العار لما بارحهم ولصق بهم كالصق بهم نسبهم وقوله تعالى
فاذاقهم نظير قوله تعالى ذق انك انت العزيز الكريم ونظير قوله
الشاعر وذقت حاجبيت فاحسن وذت وقوله تعالى بما كانوا يصنعون
يجوز ان تكون مصدرية اي بسبب صنعهم او بمعنى الذي والعايد

محذوف اي بسبب الذي كانوا يصنعونه والواو في يصنعون عايد على اهل البلد
وقيل قرية نظير قوله تعالى او هم قايلون بعد قوله تعالى وكم من قرية
اهلكناها والمذكر اراد تعالى المثل ذكر الممثل له فقال تعالى ولقد
جاءهم اي اهل هذه القرية رسول منهم من نسبهم يعرفونه باصله
ونسبه وهو محمد صلى الله عليه وسلم فكذبوه فاخذهم العذاب قال
ابن عباس يعني الجوع الذي كان بمكة وقيل القتل الذي كان يوم
بدر وهم ظالمون اي في حال التباسهم بالظلم كقوله تعالى الذين
توفاهم الملايكة ظالمي انفسهم نعوذ بالله من مفاجاة النعمة
والموت على الغفلة وقرا نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم
بالظاء ودال قد عند الجيم والباقون بالادغام ثم قال تعالى فكلوا
ايها المومنون مما رزقكم الله قال ابن عباس يريد من الغنايم
وقال الكلبي ان رؤساء مكة كلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم
حين جهدوا وقالوا عادت الرجال مما بال النساء والصبيان وكانت
الميرة قد قطعت عنهم فاذن في الحمل عليهم فحمل الطعام اليهم فقال
الله تعالى كلوا مما رزقكم الله قال الزمخشري والقول ما قال ابن عباس
يدل عليه قوله تعالى بعد هذه الاية انما حرم عليكم الميتة يعني انكم
انما امنتم وتركتم الكفر فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا وهو الغنيمة
واتركوا الخبايث وهي الميتة والدم ولما امرهم الله تعالى باكل الحلال
امرهم بشكر النعمة بقوله تعالى واشكروا نعمت الله ان كنتم اياه
تعبدون اي تطيعون رسمت نعمت بالتاء وقرا ابن كثير وابو عمرو
بالهاء والباقون بالتاء والكسايي بتنت بالامالة وتقدم تفسير
قوله تعالى انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل
لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم في

سورة البقرة فلا فائدة في اعادة تفسير ذلك وقرا ابو عمرو وعاصم وحمزة
فمن اضطر بضم الواو وصل بكسر النون والباقون بالضم تنبيه حصر المحرمات
في هذه الاشياء الاربعة مذكور ايضا في سورة الانعام عند قوله قل
لا اجد فيما اوحي الي محرما علي طاعم يطعمه الاية وفي سورة
المايدة في قوله تعالى احلت لكم بهيمة الانعام الا ما يتلى عليكم واجمعوا
علي ان المراد بقوله تعالى الا ما يتلى عليكم هو قوله تعالى في سورة
البقرة حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل به لغير الله
وقوله تعالى في المايدة والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة
وما اكل السبع الا ما ذكيتم فهذه الاشياء داخلة في قوله تعالى
وما اهل به لغير الله فثبت ان هذه السور الاربعة دالة على
حصر المحرمات في هذه الاربعة سورتان مكيتان وسورتان
مدنيتان فان سورة البقرة مدنية وسورة المايدة من آخر ما انزل
الله بالمدينة فمن انكر حصر التحريم في هذه الاية الماخوذ
الاجماع والدلايل العقلية القاطعة كان في محل ان يحكم عليه
لان هذه السورة دلت على ان حصر المحرمات في هذه الاربعة
كان مستمرا عاما ثابتا في اول زمان مكة واخره واول زمان
المدينة وانه تعالى اعاد هذا البيان في هذه السور الاربعة
فقط للاعتذار عن الة الشبهة ولما حصر تعالى المحرمات في هذه
الاربع بالغ في تاكيد ذلك الحصر ونهى طريقة الكفار في الزيادة
على هذه الاربعة تارة وفي النقصان عنها اخرى بقوله تعالى
ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام
لما لم يحلله الله ولم يحرمه فانتم كانوا يحللون اشياء كثيرة من البحيرة والسايبة
والوصيلة والحام وكانوا يقولون ما في بطون هذه الانعام

خالصة

خالصة لذكورنا ومحرم علي ازواجنا فقد زاد في المحرمات وزاد ايضا
في المحللات لانهم حللوا الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل به لغير
الله فبين الله تعالى ان المحرمات هي هذه الاربعة وبين ان الاشيا
التي يقولون هذا حلال وهذا حرام كذب وافتراء على الله تعالى
تنبيه في انتصاب الكذب وجهان احدهما قاله الكسائي ما مصدرية
والتقدير ولا تقولوا لاجل وصف السنتكم الكذب هذا حلال وهذا
حرام نظيره ان يقال لا تقولوا للكذا وكذا وكذا افاد قيل هل الاية
على هذا يودي الى التكرار لان قوله تعالى لتفتروا على الله الكذب
عين ذلك اجيب بان قوله لما تصف السنتكم الكذب ليس فيه بيان
ان كذب على الله فاعاده ليحصل فيه هذا البيان ونظيره في القران
كثير وهو انه تعالى يذكر كلاما يفيده بعينه مع فائدة زايدة الثاني
ان تكون ما موصولة والتقدير ولا تقولوا للذي تصف السنتكم
الكذب فيه هذا حلال وهذا حرام وحذف لفظ فيه لكونه معلوما
وقيل في لتفتروا لام العاقبة كما في قوله تعالى ليكون لهم عدوا
وحزنا فان قيل ما معنى وصف السنتهم الكذب اجيب بان
ذلك من فصيح الكلام وبليغه حيل قولهم كانه عين الكذب بحيث
واذا نطقت به السنتهم فقد حليت الكذب بحليته وصورته
بصورته كقولهم وجهها يصف الجمال اي هي جميلة وعينها تصف
السحر اي هي ساحرة فلما اراد المبالغة في وصف الوجه
بالجمال ووصف العين بالسحر عبر وابذلك ثم ان الله تعالى وعد
المفترين بقوله تعالى ان الذين يفترون على الله اي الذي
لا املك كملكه الكذب منكم ومن غيركم لا يفلحون اي لا يفوزون
بخير لانا الفتري ينتزع لتحصيل مطلوب ونفي عنه تعالى

الفلاح لان العوذ بالجن والنجاح بهم بين تعالى ان حالهم فيه من نعيم
الدنيا يزول عنهم عن قرب بقوله تعالى **متاع قليل** اي منفعة قليلة
تنقطع عن قرب لفنائه وان امتد الى اخر الايام **ولهم** بعد **عذاب اليم**
اي مولم في الاخرة والمبين تعالى ما يحل ويحرم لاهل الاسلام اتبعه
ببيان ما يخص اليهود بقوله تعالى **وعلى الذين هادوا** اي اليهود **حرمنا**
عليهم عقوبة لهم بعد وانعم وكذلك بهم على
زعم **ما قصصنا عليك** يا اجل المرسلين **من قبل** اي في سورة
الانعام وهو قوله تعالى وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر
الاية **وما ظلمناهم** اي بتحريم ذلك عليهم **ولكن كانوا** اي دايما طبعا
لهم وخلقا مستمرا **انفسهم** خاصة **يظلمون** بالبغي والكفر فيفقدنا
عليهم معاملة بالعدل وعاملناكم انتم حيث ظلمتم بالعفو فاشكروا
النعمة الدينوية عطف عليها نعمة هي اكبر منها حيدا استجلابا
لكل ظالم وبين عظمتها بجرف التراخي فقال **ثم ان ربك** اي المحسن
اليك **للذين عملوا السوء** وهو ما ينبغي تركه
فيشمل الكفر وسائر المعاصي **بجهالة** اي بسببها او متلبسين
بها لعيم الجهال بالله وبقضاياه وعدم التدبر في العواقب فكل
من عمل سوءا فانما يفعله بالجهالة اما الكفر فلان احدا لا يرضى
به مع العلم بكونه كفرا لانه لو لم يعتقد كون الله حقا فلانه لا يختار
ولا يرتضيه واما المعصية فلان العالم لم يصدر عنه المعصية
ما لم تقهر الشهوة غالبة للعقل فثبت ان كل من كان من عمل السوء
فانما يقدم عليه بسبب الجهالة **ثم تابوا من بعد ذلك** اي الذنب
ولو كان عظيما واقترفوا غلي ما اذن فيه خالقهم **واصلحوا** بالاستمرار
على ذلك **ان ربك** اي المحسن اليك بتسهيل دينك وتيسيره

من

من بعدها اي التوبة **لغفور** اي بليغ الستر لما عملوا من السوء **رحيم** اي بليغ
الرحمة المحسن بالاكرام فضلا عنه ونعمة ولما اذن عظيم الله تعالى ابي بكار الا
خلاق وبهاهم عن مساوئها بقبوله لمن اقبل اليه وكان ابراهيم عليه الصلاة والسلام
رئيس الموحدين لائق بذكره الله تعالى في اخر هذه السورة وصفة بتسع صفات
الصفة الاولى قوله تعالى **ان ابراهيم كان امة** اي لكامله واستجماعه فضائل
لا تكاد توجد الا متفرقة في اشخاص كثيرة كقول القائل وليس ذلك على الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد اي ان يجمع صفاتهم التي شخص واحد وقال
مجاهد كان مؤمنا وحده والناس كلهم كانوا كفارا فلهذا المعنى كان وحده
امة واحدة وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في زيد بن عمرو بن نفيل
يبعث الله امة واحدة وعن سفيان بن عيينة لم تبق الارض الا وفيها اربعة
عشر يدفع الله تعالى بهم عن اهل الارض الا زمن ابراهيم فان كان وحده
وقيل امة فعلة بمعنى مفعول كالدخلة والمخبئة من امه اذا قصده واقتدى
به وان الناس كانوا يؤمونه للاستفادة ويقتدون بسيره كقوله تعالى
اني جاعلك للناس اماما وقراءة هشام انا ابراهيم وملتا ابراهيم
بالالف بعد الهما فيهما والباقون بالياء فيهما الصفة الثانية قوله
تعالى **قانتا لله** اي مطيعا له قائما بامره الصفة الثالثة قوله تعالى
حنيفا اي مائلا عن الباطل قال ابن عباس انه اول من اختتن واقام
مناسك الحج وصحي بهذه الصفة الحنيفية الصفة الرابعة قوله تعالى
ولم يك من المشركين اي انه عليه الصلاة والسلام كان من الموحدين في
الصغر والكبر وقد اظهر عبادة الاصنام والكواكب بقوله لاحب الافلين
ثم كسر تلك الاصنام التي الى الاخر الي ان العوام القوه في النار وذلك
دليل اثبات الصانع مع ملكه زمانه وهو قوله ربي الذي يحيي ويميت
ثم طلب من الله تعالى ان يريه كيفية يحيي الموتى ليحصل له زيادة الطمانينة

قال الرازي ومن وقف على علم القرآن علم ان ابراهيم عليه الصلاة والسلام
كان عز تعالى علم التوحيد الصفة الخامسة قوله تعالى شاكرا لانعمه فان
قيل لفظ الانعم جمع قلة ونعمة الله تعالى على ابراهيم كانت كثيرة فلم قال
شاكرا لانعمه اجيب بانه ذكر القلة للتنبيه على انه كان لا يخل بشكر القليلة
فكيف بالكثيرة وروي انه عليه الصلاة والسلام كان لا يتغذا الا مع ضيف
فلم يجد ذات يوم ضيفا فاخر غذاه فاذا هو بقوم من الملائكة في صورة البشر
ضعايم الى الطعام فحملوا له انهم جذاما فقال الآن وجبت مؤاكلتكم
شكرا لله على انه عافاني وابتلاكم بهذا البلاء لصفة السادسة قوله تعالى
اجتباه اي اصطفاه للنبوة واختاره لخلة الصفة السابعة قوله تعالى وهداه
الى صراط مستقيم اي هداه الى دين الاسلام لانه الصراط المستقيم والدين
القويم ونظيره قوله تعالى وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه الصفة الثامنة
قوله تعالى واتيناه في الدنيا حسنة قال قتادة حببه الى الناس حتى انهم ان كان
الملك يتولونه ويتنوون عليه اما المسلمون واليهود والنصارى فظاهر
واما كفار قريش وسائر العرب فلانهم لا بد وتحقيق القول ان الله
تعالى اجاب دعاءه في قوله واجعل لي لسان صدق في الاخرين وقال اخرا
هو قوله الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسمعيل واسحاق ان ربي لسميع
الدعاء على الكبر الصفة التاسعة قوله تعالى وانه في الاخرة لمن الصالحين
في الجنة فان قيل لم يقل تعالى في اعلا مقامات الصالحين اجيب بانه تعالى
حكى عنه انه قال رب هب لي حكما والحقني بالصالحين فقال تعالى وانه في
الاخرة لمن الصالحين يتلوها يحتمل ان الله تعالى اجاب دعاءه مرة ان كونه من
الصالحين يقتضي ان يكون في اعلا مقامات الصالحين فان الله تعالى
بين ذلك في اية اخرى وهي قوله تعالى وتلك حجتنا اتيناها ابراهيم على
قومه نرفع درجات من نشاء ولما وصف الله تعالى ابراهيم بهذه الصفات

العالية

العالية الشريفة امر نبيه صلى الله عليه وسلم في اتباعه مشيرا
الى علو مرتبته بحرف التراخي بقوله تعالى ثم اوحينا اليك يا اشرف
الرسل وقيل اتى بثم للتراخي ايماء الى تراخي ايامه عن ايام ابراهيم عليهما
الصلاة والسلام ان اتبع ملة ابراهيم في التوحيد والدعوة اليه
بالرفق وايراد الدلايل متسقة بعد اخرى والمجادلة مع كل احد على
حسب فهمه ولا بعد في ان يفهم من ذلك المجموع امرا وقيل كانت
النبي صلى الله عليه وسلم مامورا بشريعة ابراهيم عليهما الصلاة
والسلام الا ما نسخ منها وما لم ينسخ صار شرعا لمحمد وقوله تعالى
حنيفا حال من النبي صلى الله عليه وسلم ويجوز ان يكون من ابراهيم
عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى وما كان من المشركين كررت
رد اعلى زعم اليهود والنصارى انهم على دينه وقوله تعالى انما
جعل السبت على الذين اختلفوا فيه فيه قولان الاول روى
الكلبي عن ابي صالح عن ابن عباس انه قال امر هم موسى بالجمعة
وقال تفرغوا لله في كل سبعة ايام يوما واحدا وهو يوم الجمعة
ولا تعملوا فيه شيئا من اعمالكم فابوا ان يقبلوا ذلك وقالوا لا نريد
الا اليوم الذي فرغ الله فيه من الخلق وهو يوم السبت فجعل
عليهم السبت وشدد عليهم فيه فلما جاء عيسى عليه السلام امرهم
بالجمعة فقالت النصارى لا نريد ان يكون عيدهم اي اليهود بعد
عيدنا فاتخذوا الاحد وروى ابو هريرة عن النبي صلى الله
عليه وسلم انه قال كتب يوم الجمعة على من كان قبلكم فاختلفوا
عليه وهدانا الله له فهم لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى
بعد غد فان قيل هل في العقل وجه يدل على ان الجمعة
افضل من السبت والاحد قلنا اهل الملل اتفقوا على ان

تعالى خلق العالم في ستة ايام وبدا تعالى بالخلق والتكوين في يوم
الاحد وتم في يوم الجمعة وكان يوم السبت يوم الفراغ فقالت
اليهود كنا نرى ربنا في تركه الاعمال تعبنا يوم السبت لهذا
المعنى وقالت النصارى ابتداء الخلق والتكوين يوم الاحد فنجعل
هذا اليوم عيدنا فهذا ان الوجهان معقولان لكنا نرجح جعل يوم
الجمعة عيدا اجيب بان يوم الجمعة هو يوم التمام والكمال وحصول
التمام والكمال يوجب الفرح الكامل والسرور فجعل يوم الجمعة يوم
العيد اولى من هذا الوجه القول الثاني اختلافهم في السبت
هو انهم اخلوا العيد فقد تالة وحرموه تالة وكان اوجب عليهم
ان يشتغلوا في تحريمه على كمال فاحقه **اذ ربك** اي المحسن اليك
بجزاء اصحابك لك **يحكم بينهم** اي هؤلاء المختلفين **يوم القيمة**
وهو يوم اجتماع جميع الخلايق **فيما كانوا فيه يختلفون** فيحكم
للمحق بالثواب وللمبطل بالعقاب ولما امر الله تعالى محمدا صلى
الله عليه وسلم باتباع ابراهيم عليه الصلاة والسلام بين النبي
الذي امره بمتابعته بقوله تعالى **ادع** اي كل من تمكن من
دعوته ممن بعثت اليه **الى سبيل ربك** اي المحسن اليك في
تسهيل السبيل الذي تدعوا اليه والشاعة وهو الاسلام في
الذي هو الملة الحنيفية **بالحكمة** اي المعاملة المحكمة وهو
الدليل الواضح المزيل للشبهة **والموعظة الحسنة** اي بالدعا
الى الله تعالى بالترغيب والترهيب بالخطابات المتقنة في
والعبارات النافعة والاولى لدعوي خواص الامة في
الطالبين للحقايق والثانية لدعوي عوامهم **وجادلهم**
اي وجادل معاندهم **بالتي** اي بالمجادلة التي **هي احسن**

كالدعا

كالدعا الى الله تعالى بالاياة والدعا الى حجه بالطريقة التي هي
احسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير عنف ولا تعسف
فان ذلك انفع في تسكين لهبهم وتبيين شغبهم وقيل المراد بالحكمة
القراني اي ادعهم بالقران والموعظة الحسنة الرفق واللين في
الدعوة وفي بالمجادلة التي هي احسن الاعراض عن اذاهم وعدم
التقصير في تبليغ الرسالة والدعا الى الحق وعلى هذا القول قال
بعض العلما التفسير هذا منسوخ باية السيف وقيل ان الناس
خلقوا وجبلوا على ثلاثة اقسام القسم الاول العلما الكاملون
وهم اصحاب العقول الصحيحة والبصاير الثاقبة الذين
يطلبون معرفة الاشيا على حقايقها فهولا هم المشار اليهم
بقوله تعالى ادع الى سبيل ربك بالحكمة بالدلايل القطعية
اليقينية حتى يعلموا الاشيا كما هي عليها وينفعوا الناس وهم
خواص العلما من الصحابة وغيرهم القسم الثاني اصحاب الفطر
السليمة والخلقة الاصلية وهم غالب الناس الذين لم
يبلغوا حد الكمال ولم يزولوا الى حضيض النقصان فهم
اوساط الاقسام وهم المشار اليهم بقوله تعالى والموعظة
الحسنة اي ادع هولا بالموعظة الحسنة القسم الثالث
اصحاب جدال وخصام ومعاندة وهولا المشار اليهم بقوله
تعالى وجادلهم بالتي هي احسن اي حتى ينقادوا الى الحق
ويرجعوا اليه **ان ربك** المحسن اليك بالتخفيف عنك
هو اعلم اي من كل من يتوهم فيه علم **عن ضل عن سبيله**
وهو اعلم بالمهتدين اي فهو سبحانه وتعالى اعلم بالفريقين
فمن كان فيه خير كفاه الوعظ والنصيحة اليسيرة ومن

لاجرم فيه عجزت عنه الحيل وكالمك تقرب في حديد بارد فما
عليك الا البلاغ والدعوة واما حصول الهداية والضلال
والمجازاة عليهما فليس ذلك اليك وهذا قبل الامر بالقتال
وذكر في قوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به اقوال
احدها وهو قول ابن عباس في رواية عطا وابي بن كعب والشعبي
ان النبي صلى الله عليه وسلم لما راى عمه حمزة بن عبد المطلب
وقد جدعوا انفه واذنه وقطعوا مذاكيره وبقروا بطنه
واخذت هند بنت عتبة قطعة من كبده فمضغتها ثم استرطتها
لتاكلها فلم تلبث في بطنها حتى رمتها فبلغ ذلك النبي فوقف على
الله عليه وسلم فقال اما انها لو اكلتها لم تدخل النار ابدا لحمزة
اكرم على الله من ان يدخل شيئا من جسده النار فلما نظر
رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه نظرا لم ينظر اليه شيء قط
ادجع لقلبه منه فقال النبي صلى الله عليه وسلم رحمة الله
عليك فاني ما علمتك الا فعالا للخيرات وصولا للرحم ولولا
حزن من بعدك عليك لسرني ان ادعك حتى تحشر من
افواج شتى اما والله لئن ظفرني الله بهم لامثلن بتسعين
منهم مكانك فنزلت فامسك رسول الله صلى الله عليه وسلم
عما اراد وكفر عن يمينه فنزلت وقال المسلمون لما راوا ما
فعل الله كون بعثتلا لهم يوم احد من تبقير البطون والمثلة
السيئة حتى لم يبق احد من قتلى المسلمين الا مثل به الا
حنظلة بن الراهب فان اباه اعا عامر الراهب كان مع ابي
سفيان فترك احنظلة لذلك فقال المسلمون حين راوا
ذلك لئن ظفرنا عليهم لنزيدن عليهم يعني على صنيعهم به
ولنمثلن

ولنمثلن بهم مثلة لم يفعلها احد من العرب باحد القول الثاني ان
هذا كان قبل الامر بالسيف وايجابها وحتى كان المسلمون قد
امروا بالقتال مع من يقاتلهم ولا يبتدوا بالقتال وهو قوله
تعالى وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا وهذه الاية
امر الله تعالى امر الله تعالى ان يقاتلوا بمثل ما يصيبهم من العقوبة
ولا يزيدوا والقول الثالث انه المعتصى من هذه الاية هي المظلوم
عند استيفاء الزيادة من الظالم وهذا قول مجاهد والنخعي وابن
سيرين قال الرازي وحمل هذه الاية على قصة لا تعلق لها
بما قبلها توجب حصول سوء الترتيب في كلام الله تعالى وهو في
غاية البعد بل الاصوب عندي ان يقال ان الله تعالى امر محمدا
صلى الله عليه وسلم بدعوة الخلق الى الدين الحق
باحدى الطرق الثلاثة وهي الحكمة والموعظة الحسنة
والجدال بالطريق الاحسن ثم اذا تلك الدعوة تتضمن
امرهم بالرجوع عن دين ابايهم واسلافهم والحكم عليهم
بالكفر والضلالة وذلك مما يشوش قلوبهم ويوحش
صدورهم ويحملهم على فقد ذلك الداعي للقتل
تارة وبالضرب تارة وبالشتم ثالثا ثم ان ذلك الداعي
المحق اذا سمع تلك السفاهات لابد وان يحمله طبعه على
تاديب اولئك السفهاء تارة بالقتل وتارة بالضرب فهذا
امر المحقين في هذا المقام برعاية العدل والانصاف وترك
الزيادة فهذا هو الوجه الصحيح الذي يجب حمل الاية عليه فان
قيل فهل يقدحون فيما روي انه عليه الصلاة والسلام
ترك العزم على ترك المثلة وكفر عن يمينه بسبب هذه

الاية اجيب بانه لاحاجة الى القدح في تلك الرواية لان
تلك الواقعة داخلة في عموم هذه الاية فيمكن التمسك في
تلك الواقعة بعموم هذه الاية وذلك لا يوجب سوء الترتيب
في كلام الله تعالى بتنبيه امر الله تعالى برعاية العدل
والانصاف في هذه الاية وترتيب ذلك عليها باربع مراتب
الاولى قوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم
به اي ان رغبتم في استيفاء القصاص فاقنعوا بالمثل
ولا تزيدوا عليه فان استيفاء الزيادة ظلم والظلم ممنوع
منه في عدل الله تعالى ورحمته وفي قوله تعالى وان عاقبتم
فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به دليل على ان الاولى له ان لا
يفعل كما انك اذا قلت للمريض ان كنت تاكل الفاكهة فكل
التفاح كان معناه ان الاولى بك ان لا تاكله فذكر تعالى بطريق
الرمز والتعريض ان الاولى تركه المرتبة الثانية
الانتقال من التعريض الى التصريح وهو قوله تعالى ولئن
صبرتم لهو خير للصابرين وهذا تصريح بان الاولى ترك
ذلك الانتقام لان الرحمة افضل من القسوة والاستماع
افضل من الانتقام وقرا لهو قالون وابو عمرو والكسائي
بسكون الهاء والباقون بروم ها المرتبة الثالثة وهو
الامر بالمجرم بالترك وهو قوله تعالى واصبر لانه
في المرتبة الثانية ذكر ان الترك خير واولى وفي هذه
المرتبة الثالثة صرح بالامر بالصبر في هذا المقام
ولما كان الصبر في هذا المقام شديدا شاقا ذكر بعده
ما يفيد سهولته بقوله تعالى وما صبرك الا بالله

اي الملك

اي الملك العظيم الذي يشرع لك هذا الشرع الاقوم فذلك
بتوفيقه ومعونته وهذا هو السبب الكلي الاصلي ذكر
ما بعده ما هو السبب الجزئي القريب بقوله تعالى ولا تحزن
عليهم اي في شان كفرهم فتبالغ في حرص الباخع للنفس
ولا تك في ضيق ولو قل كالهوح اليه بتنوين التحقير مما
يمكرون اي من استمرار مكرهم بك واعبد ربك حتى ياتيك
اليقين ولا تك به وقد اتى فاصبر فان الله معزك ومظهر
دينك وقرا ابن كثير بكسر الصاد والباقون بنصبها تنبيه
هذا من الكلام المقلوب لان الضيق صفة والصفة
تكون حاصلة في الموصوف ولا تكون الموصوف حاصلا
في الصفة فكان المعنى ولا يكن الضيق فيك الا ان
العالية في قوله تعالى ولا تك في ضيق هو ان الضيق اذا
عظم وقوي صار كالشيء المحيط بالانسان من كل جوانبه
وصار كالمعتقل المحيط به فكانت العالية في ذكر هذا
اللفظ هذا المعنى المرتبة الرابعة قوله تعالى
ان الله الجامع لصفات الكمال بلطفه وعونه مع الذين
اتقوا اي وجد منهم الخوف من الله تعالى واجتنبوا المعاصي
والذين هم محسنون في اعمالهم والشفقة على خلقه
وهذا اخير اي بحري التهديد لان في المرتبة
الاولى رغبة في ترك الانتقام على سبيل
الرمز وفي الثانية عدل عن الرمز الى
التصريح وهو قوله تعالى ولئن صبرتم لهو
خير للصابرين وفي المرتبة الثالثة

امر بالصبر على سبيل الجزم وفي هذه المرتبة الرابعة
كانه ذكر الوعيد على فعل الانتقام فقال ان الله مع الذين
اتقوا عن استيفاء الزيادة والذين هم محسنون في ترك اصل
الانتقام فكانه تعالى قال ان اردت ان اكون معك فكن
من المتقين ومن المحسنين وهذه الملاطفة بالرحمة والفضل
والتربية وفي قوله تعالى اتقوا اشارة الى التعظيم لامر
الله وفي قوله تعالى والذين هم محسنون اشارة الى الشفقة
على خلق الله تعالى قيل لمهرم بن حيان عند قرب وفاته
اوصني فقال ان الوصية في المال ولا مال لي ولكن اوصيكم
بخواتيم سورة النحل هذا تنبيه قال بعضهم اذ قوله تعالى
وان عاقبتم الى قوله خير للصابرين منسوخ بآية السيف
قال الرازي وهذا في غاية البعد لان المقصود من هذه
الآية تعليم حسن الادب في كيفية الدعوة الى الله وترك
التعدي وطلب الزيادة ولا تعلق لهذه الاشياء بآية
السيف وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري من انه
صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة النحل لم يحاسبه
الله تعالى بما انعم عليه في دار الدنيا وان مات في يوم تلاها
او ليلة كان له من الاجر كالذي مات واحسن الوصية
حديث موضوع قال الرازي في آخر هذه السورة
يقول مصنف الكتاب الحق عزيز والطريق بعيد هـ
والمركب ضعيف والقرب بعد والوصول عجز والحقائق
مصونة والاسرار فيما وراء اقفال العزة مخزونة وبيد
الخلق العيل والقال والكلام في الاسم الذي للجلال والاكرام والله اعلم

سورة

سورة الاسرا او تسمى سبحان وهي مكية الا ثلاث آيات
الى قوله مذموما مدحورا وهي مائة واحدى عشرة آية والف وخمسمائة وثلاث وثلاثون
كلمة واحد وخمسون الفا وستمائة حرف بسم الله الملك
الملك لجميع الامور الرحمن لكل ما اوجده بما اراده الرحيم لمن خصه بالزام
العمل بما يرضاه وقوله تعالى سبحان اسم بمعنى التسبيح الذي هو التنزيه
وقد يستعمل عما له فينقطع عن الاضافة ويمنع الصرف للعلمية وزيادة
الالف والنون قال الاعشى في مدح عامر بن الطفيل قد قلت لما جاءني
كبره ساجد من علقمة الطاحر انك لم تلحق بمجد ولم تسبق احدا بشيء فوق
سبحان من كذا الا تجب منه الشاهد في سبحان الله حيث جعل علما
على التنزيه فمنعه العرفة والعلمية اذ كونه علما في قدم على رسول
الله صلى الله عليه وسلم وهو يتغدى فسلم وبايع واستقاله عمر بن الخطاب
على هوان فما تعدى اسرى بعبده الذي اسرى بعبده هو محمد صلى الله عليه
وسلم الذي هو اشرف عباده على الاطلاق واحقهم بالاضافة اليه وقرأ
ابو عمرو وحمزة والكسائي اسرى بالامالة المحضة وورش بين بين والباقي
بالفتح وقوله تعالى ليلا انتصب على الظرف والاسرى سير الليل وانما
ذكر الاشارة بقليل الى تقليل مدته فكان هذا الامر كان في جزء
يسير من الليل وانما اسرى به عليه الصلاة والسلام ليتجلى له الاسرار
والعروج الى سدرة المنتهى وسماع الكلام من العلي الاعلى الحي
رياضة لصيام والبيض بركات مهما لذ كلة متاهلا له فاقامه تعالى
من الفرش الى العرش من المسجد الحرام اي بعينه وهو الذي يدل
عليه لفظ الاسرا في القرآن وروي ان النبي صلى الله عليه وسلم قال
بينا انا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان
اذ اتاني جبريل بالبراق وقيل كما كنا نبايع تحت الشجرة وقيل في بيت ام

ها في بيت ابي طالب قال البقاعي وهو قوله ايجاز وهو والمراد بالمسجد الحرام
لانه فنا المسجد الى المسجد الاقصى اي بيت المقدس الذي هو ابعد
المساجد فتح وابعد المسجدين الاعظمين معلقا من مكة المشرفة بينهما اربعون
ليلة يصلي بالانبياء كلهم ابراهيم وموسى ومن سواهما على جميعهم افضل
الصلاة والسلام وراي من اياتنا الكبرى ما قدر له تعالى كما ياتي في حديث
المعراج ومرجع الى بين اظهركم الى المسجد الاقرب فتكم يحيذ لك ابخ السير
من الليل وانتم تقربون اكباد الابل في بعد المسافة سيرا ذهابا
وسيرا ايابا ثم وصفه تعالى بما يفيد في تعظيمه وانه اهل المعجد بقوله تعالى
الذي باركنا حوله اي بما لنا من العظمة بالمياه والاشجار وقال مجاهد
سماه مباركا لانه مقر الانبياء ومهبط الملائكة والوحي وهو بحيرة الناس
يوم القيمة وموطن العبادات وحدائق الفواكه والارزاق والبركات
وباركه تعالى حوله لاجله فما ظنك به نفسه فهو ابلغ من باركنا فيه
ثم رفعه الى السموات العلا الى سدرة المنتهى الى ما لم ينله بشر غير محمد صلى
الله عليه وسلم قال البقاعي ولعل حذف ذكر المعراج من القرآن
هنا لقصور فهم من فهم من ادراك ادلته لو انكره بخلاف الاسرا
فانه اقام دليله عليهم بما شاهدوه من الاثار التي وصفها لهم
وهم قاطعون بانه صلى الله عليه وسلم لم يرها قبل ذلك فلما اياه
صدقه بما ذكر من الاخبار بعد ذلك مما اراه الله تعالى بالمعراج
ثم ذكر سبحانه وتعالى الغرض من الاسرا بقوله تعالى لنريه بعينه وقلبه
من اياتنا اي مما يسيء قدرتنا السماوية والارضية كما اريناه اباه خليل
عليه الصلاة والسلام ملكوت السموات والارض انه اي عبدنا هو السميع
لجميع الاقوال البصير اي العالم باحوال عباده فيكرم ويثيب من يقربه من
شاء منهم وقيل انه اي هذا العبد الذي اخترقناه بالاسرا هو اي

خاصة

خاصة السميع اي لما قاله قريش للعجابة لما وصف الله عز وجل لهم من
بصره وبصيرته بدليل ما اخبر به من الايات وصدقه من الدلالات حتى
علم خاصتهم منه من بيت المقدس وصفا لم يعرفوه عن احد مما هو مثبت
في قصة الاسرا اختلف هل اسري بروحه وجسده صلى الله عليه وسلم
من عالم الشهادة وهي حياته تعالى عنها كما ستعرفه لما عرف جسد النبي صلى
الله عليه وسلم ولكن اسري بروحه والاكثرون على انه اسري بجسده
في اليقظة ولتواتر الاخبار الصحيحة عليه ثم لك شهما قوله صلى الله عليه
وسلم اوتيت بالبراق وهو دابة ابيض فوق الحمار ودون البغل يقع
حافره عند منتهى طرفه فركبته فسار بي حتى اتيت بيت المقدس فربطت
الدابة بالحلقة التي يربط بها الانبياء ثم دخلت فصليت فيه ركعتين
ثم خرجت فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال
جبريل عليه السلام هديت الفطرة قال صلى الله عليه وسلم ثم عرج
بنا الى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل من انت قال جبريل قيل ومن
معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح فاذا
انا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا الى
السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل من انت قال جبريل قيل ومن
معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا انا
بيحيى وعيسى فرحبا بي ودعوا لي بخير ثم عرج بنا الى السماء

الخامسة فاستفتح جبريل فقيل من انت فقال جبريل فقيل ومن معك قال
محمد فقيل قد ارسل اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا انا بهارون فـ
رحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا الى السما السادسة فاستفتح جبريل
فقيل من انت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد فقيل وقد بعث اليه
قال قد بعث اليه فاذا انا بموسى فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا الى السما
السابعة فاستفتح جبريل فقيل من انت قال جبريل فقيل ومن معك
قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا انا بابراهيم
فاذا هو مستند الى البيت المعمور واذا هو يدخله كل يوم سبعون الف
ملك ثم لا يعودون اليه ثم ذهب بي الى سدرة المنتهى فاذا
ورقها كاذان الفيلة واذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من امر الله ما غشيها
تغيرت فما احد من خلق الله يستطيع ان ينعتها من حسنها قال صلى الله عليه
وسلم فاوحى الى عبده ما اوحى وفرض علي في كل يوم خمسين صلاة فنزلت
حتى انتهيت الى موسى فقال ما فرض ربك على امتك قلت خمسين صلاة
في كل يوم وليلة قال ارجع الى ربك فاساله التخفيف فان امتك
لا تطيق ذلك واني قد بلوت بني اسرائيل وخبرتهم قال فرجعت الى
ربي فقلت يا رب خفف عن امتي فحط عني خمسا فرجعت الى موسى
فقال ما فعلت فقلت قد حط عني خمسا قال ان امتك لا تطيق ذلك
فارجع الى ربك فاساله التخفيف لامتك لا تطيق ذلك قال فلم
ازل ارجع بين ربي وبين موسى ويحط عني خمسا خمسا قال يا محمد
هن خمس صلوات في كل يوم وليلة بكل صلاة عشر فتلك خمسون
صلاة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له
عشرا ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب فان عملها كتبت سيئة واحدة
فنزلت حتى انتهيت الى موسى فاخبرته فقال ارجع الى ربك فاساله

التخفيف

التخفيف لامتك فان امتك لا تطيق ذلك قلت قد رجعت الى ربي حتى استحييت
رواه الشيخان نحوه وفي رواية قال بعد ذلك ولكن ارضى واسلم فلما جاوزت
نادى مناد امضيت فريضتي وخففت عن عبادي ثم ادخلت الجنة فاذا
فيها جنابذ اللؤلؤ واذا ترابها المسك وروي انه لما وصل الى سدرة
المنتهى قال اذا في اصلها اربعة انهار نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت ما
هذان يا جبريل قال اما الباطنان فنهران في الجنة واما الظاهران
فالنيل والفرات ثم رفع الى البيت المعمور ثم اوتيت باناء من خمر واناء
من لبن واناء من عسل فاخذت اللبن فقال هي الفطرة التي انت عليها
وامتك قال ثم فرضت علي الصلاة خمسين صلاة كل يوم فرجعت فمررت
على موسى وساق الحديث ومنها ما رواه الحاكم في المستدرك عن ابن
عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رايت ربي عز وجل قال
هي رؤيا عين اريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة اسري به الى
بيت المقدس قال والشجرة الملعونة في القران هي شجرة الزقوم ومنها
ما رواه قتادة عن انس بن مالك رضي الله تعالى عنه ان مالك بن صعصعة
ان نبي الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة الاسرا قال بينا انا
في الحطيم وربما قال في الحجر مضطجعا ومنهم من قال بين النائم واليقظان
وذكر بين رجلين واتيت بطست من ذهب مملوة حكمة وايمانا فشق
من النحر الى مراق البطن واستخرج قلبي وغسل ثم حشي ثم اعيد
قال سعيد وهشام ثم غسل البطن بما زمزم ثم ملي ايمانا وحكمة
ثم اتيت بالبراق وهو دابة ابيض طويل فوق الحمار ودون البغل
يضع حافره عند منتهى طرفه فركبت ثم ساق بقية الحديث ومنها ما
روي انه صلى الله عليه وسلم كان نائما في بيت ام هاني بعد صلاة
العشا فاسري به ورجع من ليلته وقص القصة على ام هاني وقال

مثل لي الصبيون فصليت بهم وقام ليخرج الى المسجد فتشبثت ام هاني
بثوبه فقالت له مالك قالت اخشى ان ينكد بك الناس وقد مكث اذا خرج هم
قال يا ام هاني كان بوبي ان يخرج الى الحمر وزعم انه لما رجع صلى الله عليه وسلم
ليلة اسري به وكان بذي طوى تخوف ان يخبر بذلك اشقى من الاولين فزعم
قال ليفعلن فمكث ابو طالب وهو الحرون قال ابن عباس وعلى ذلك ترك
الله صلى الله عليه وسلم لما كانت تسري بي فاصبحت بمكة فظعت
بامري وظننت ان الناس يكذبوني فزعم ان الله عليه الصلاة والسلام
قعد معتزلا حزينا فمر عليه ابو جهل فجاء حتى جلس اليه فقال كالمستهزئ بشيء
هل استفدت شيئا قال نعم قال ما هو قال اسري بي الليلة قال الى اين قال
الى بيت المقدس قال ثم اصبحت بين ظهرانينا قال نعم فقال ابو جهل
يا معشر بني كعب بن لؤي هلم فحفزوا اليه المجالس فجاءوا
حتى جلسوا اليهما قال حدث قومك ما حدثتني قال نعم اني قد اخبرتهم
الليلة قال يا معشر بني كعب بن لؤي قالوا الى بيت المقدس قالوا ثم اصبحت
بين ظهرانينا ظاعنا قال نعم فمن بين مصفق وواضع يده على رأسه
تعجبا للكاذب قالوا وتراه ذاهبا فيما يذكر انه جاءه ويسعى رجال الى
ابي بكر فقالوا هل لك في صاحبك يزعم انه اسري به الليلة
الى بيت المقدس قال اوقد قال ذلك قالوا نعم قال ان كان قال ذلك
لقد صدق قالوا اتصدقه على ذلك قال اني لاصدقه على ابعد
من ذلك اصدقه على خبر السماء في غدوة او روحة فلذلك سمي الصديق
قال ونفى القوم من كان يأتي المسجد الاقصى فقالوا اتستطيع
ان تنعت لنا المسجد الاقصى قال نعم فما زلت انعت وانعت
فما زلت اتيت على بعضه فكربت كربة ما كربت مثلها قط قال فرفع لي
وضع دور عقيل فنعته وانا انظر اليه فقال القوم

اما

اما النعت فقال والله لقد اصاب ثم قالوا يا محمد اخبرنا عن عيرنا فهي
اهم الينا هل لقيت منها شيئا قال نعم مررت على عير بني فلان بنوبيي
بالروحاء وقد اضلوا بعيرا لهم وهم في طلبه وفي رحالهم قصعة من ماء
فعطشته فاخذت فشربته ثم وضعته كما فعلت فاسئلوهم هل وجدوا
ذلك في القدح حين رجعوا اليكم قالوا نعم قال ومررت بعير بني
فلان وفلان وفلان راكبان قعودا لهما فنفر بعيرهما فسقطا فانكسرت يد
فلان فان انكسرت يده فاسئلوهما عن ذلك متى قالوا واحدة قالوا
فاخبرنا عن عيرنا متى تجيء قال مررت بها بالتنعيم قالوا فما عدتها
وما حملها وما اجمالها وما لونها قال فهيئتهما كذا وكذا وفيها
فلان وفلان يقدمها جمل اورق عليه غرارتان محيطتان تطلع
عليكم عند طلوع الشمس قالوا وهذه اية ثم خرجوا يشتدون
في الثنية وهم يقولون والله لقد قص محمد فيما بيننا وبينهم حتى انوا كدا
فجلسوا عليه فجعلوا ينظرون متى تطلع الشمس فيكذبونه اذ
قال قائل منهم هذه الشمس وجدته قد اشرقت فقال اخر والله
وهذه العير قد اقبلت يقدمها جمل اورق كما قال محمد ثم لم يؤمنوا
وقالوا اما قوله الا سحر مبين والله ما هو فيما نعلم الا الابل الذي في لونه
بياض الى سواد وهو اطيب الابل لحما قاله ابو هريرة ومما
روى عن انس بن مالك قال كان ابو ذر يحدث ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال فرج سقف بيتي وانا بمكة فنزل جبريل
ففرج صدري ثم غسله من ماء زمزم وجاء بطست من ذهب ممتلئ
حكمة وايمانا فافرغها في صدري ثم اطبقه ثم اخذ بيدي فعرج
بي الى السماء فلما جينا الى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء
افتح قال ومن معك قال جبريل قال هل معك احد قال نعم معي محمد

و

قال قال رسول الله ثم عرج فلما علوا السماء الدنيا فاذا رجل عن يمينه
اسودة وعن يساره اسودة فاذا نظر قبل يمينه ضحك واذا نظر قبل شماله
بكى فقال مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح قال قلت يا جبريل من هذا
قال هذا آدم وهذه الاسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فاهل
اليمين منهم اهل الجنة والاسودة التي عن شماله اهل النار واذا نظر
عن يمينه ضحك واذا نظر قبل شماله بكى ثم عرج بي جبريل حتى اتى السماء
الثانية فقال لخازنها افتح فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء
الدنيا ففتح قال انس فذكر انه وجد في السموات ادم وادريس
وموسى وعيسى وابراهيم وهو يبين كيف منازلهم غير انه ذكر انه وجد
ادم في السماء الدنيا وابراهيم في السماء السادسة قال فلما مر جبريل
ودنى هو وآله صلى الله عليه وسلم يا ادريس قال مرحبا بالاخ الصالح
والنبي الصالح قال قلت من هذا قال هذا ادريس فسلمت عليه
فقال مرحبا بالنبي الصالح والاخ الصالح قال قلت من هذا قال هذا
موسى فقال مرحبا بالنبي الصالح والاخ الصالح قال قلت من هذا قال هذا
عيسى فقال مرحبا بالنبي الصالح والاخ الصالح قال قلت من هذا قال هذا ابراهيم
قال ابن شهاب اخبرني ابن حزم ان ابن عباس كان يقول كان النبي
صلى الله عليه وسلم يقول ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى اسمع فيه
صريف الاقلام وروى معمر عن قتادة عن انس عن النبي صلى الله
عليه وسلم اتي بالبراق لجاما اسرجا مسرجا فاستصعب
عليه فقال اجبريل ابهذا تفعل هذا فما ركبك احد اكرم على الله منه
فارفض عرقا وقال ابن ابي نجيح عن ابيه قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم انه انتهيت الى بيت المقدس فاتاني جبريل باصبعه على حجر فشق به

وشد

وشد به البراق وفي رواية انه جاء جبريل بالبراق الى النبي صلى الله عليه
وسلم فقال له يا محمد اركبه فركبه صلى الله عليه وسلم ومعه جبريل وطاد
به البراق في الهواء فاخذ بعنقه النبي فقطش صلى الله عليه وسلم واحتاج
الى الشرائع فاتاه ميكائيل بانائين احدهما خمر وهو ذلك قبل تحريم الخمر
فعرضهما عليه فتناول اللبن فقال له جبريل عليه السلام اصبت الفطرة
اصاب ربك بك امتك الحنيفية وانها حرمت عليكم وعلى امتكم صلى الله
عليه وسلم يتناول اللبن يا محمد فلما وصلا الى السماء الدنيا استفتح الي ان قال
عرج به الى سدرة المنتهى وهي في السماء السابعة وهي التي ينتهي اليها
ما يهبط من فوقها فيقبض منها وينتهي اليها ما يصعد من اسفلها فيقبض
منها قال تعالى اذ يغشى السدرة ما يغشى فراش من ذهب وعليها
ملائكة كالغربان وعليها ملك من الملائكة على صورة الآدميين وهو
كان معه وتاخر عنه فلما بلغ اليها تاخر عنه جبريل فقال له جبريل
كلمة لا يتعداها فكبر قبل ما بلغ اليها الملك الذي لا يتعداها فرجع
الرفرف الذي صار الى مقامه لا يتعداه ترجمه على اليمين فيمر من الفردوس
جميع نواحيه واعلى عمله الكوثر عن يمينه يعالج منه ثم ارتفع به حتى لا اله
الا الله عن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله

رب

عليه وسلم لقد رايتني وانا في الحجر وقريش تسالني عن مسراي فسالتني
عن اشيا من بيت المقدس لم اثبتها فكربت كربا ما كربت مثله قط فرفعه
الله لي انظر اليه فما يسالوني عن شي الا انباتهم به وقد رايتني في جماعة
من الانبيا فاذا موسى قايم يصلي فاذا رجل جعد كانه من رجال
شنوءة واذا عيسى بن مريم قايم يصلي اقرب الناس به شبها عروة
ابن مسعود الثقفي واذا ابراهيم قايم يصلي اشبه الناس به صاحبكم
يعني نفسه صلى الله عليه وسلم فحانت الصلاة فاممتهم فلما فرغت
قال قايل يا محمد هذا مالك خازن النار فسلم عليه فالتفت اليه
فبداني بالسلام وعن جابر انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول لما كذبني قريش قمت الى الحجر فجلى الله لي بيت المقدس وذكر
الحديث وعن انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اتيت موسى
ليلة اسري بي عند الكثيب الاحمر وهو قايم يصلي في قبره فان قيل
راى رسول الله صلى الله عليه وسلم موسى يصلي في قبره وكيف تصلي
الانبيا بعد الموت وهم في دار الاخرة اجيب بان صلاته صلى الله عليه
وسلم بالانبيا عليهم الصلاة والسلام ببيت المقدس يحتمل ان الله تعالى
جمعهم له ليصلي بهم ويعرفوه فضله وتقدمه عليهم ويحتمل ان الله تعالى
اراه اياهم في السموات على مراتبهم ليعرف رتبتهم وفضلهم واما
مروره بموسى وهو قايم يصلي في قبره عند الكثيب الاحمر فيحتمل انه
كان بعد رجوعه من المعراج وانما حكم صلاة الانبيا وهم في الدار
الاخرة فهم في حكم الشهدا بل هم افضل منهم وقد قال الله تعالى ولا تحسبن
الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احيا فالانبيا بعد الموت احيا واما
حكم صلاتهم فهم لا تعبدا الذكر والدعا وذلك من اعمال الاخرة قال
تعالى دعواهم فيها سبحانك اللهم وقد ورد في الحديث ان اهل الجنة يلهمون التسبيح كما

يلهمون

يلهمون النفس ويحتمل ان الله تعالى خصهم بخصايص في الاخرة كما خصهم
في الدنيا بخصايص لم يخص بها غيرهم منها انه صلى الله عليه وسلم اخبر
انه رآهم يلبون ويحجون فكذلك الصلاة والله اعلم بحقايق الامور ورد
عن شريك بن عبد الله قال سمعت انس بن مالك يقول ليلة اسري
برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة انه جاه ثلاثة نفر
قبل ان يوحى اليه وهو نايم في المسجد الحرام فقال اولهم ايهم هو فقال
اوسطهم هو خيرهم فقال اخرهم خذوا خيرهم وساق حديث المعراج
بقصته قال فاذا هو في السما الدنيا بنهرين يطردان فقال هذا النيل
والفرات عنصرهما ثم مضى به في السما فاذا هو بنهر آخر عليه قصر من
لولو وزبرجد فضرب بيده فاذا هو مسك اذفر قال ما هذا يا جبريل
قال هذا الكوثر الذي خبا لك ربك وذكر في اخر حديثه انه صلى
الله عليه وسلم قال في اخر الحديث ثم علا بي حتى جا سدرة المنتهى
ودنا الجبار رب العزة فتدلى فكان منه قاب قوسين او ادنى
فاوحى اليه وذكرت عايشة ان الذي دنا فتدلى جبريل عليه السلام
وسياتي الكلام على ذلك ان شا الله تعالى في سورة النجم فان
قيل قوله تعالى لنريه من اياتنا الكبرى يدل على انه تعالى ما اراه
الا بعض الايات لان كلمة من تفيد التبعيض وقال في حق ابرهيم
وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون ملكهما فيلزم
ان يكون معراج ابراهيم افضل من معراج محمد صلى الله عليه وسلم اجيب
بانه لما اضيفت تلك الايات الى الله تعالى دل على انها افضل مما
راه ابراهيم تنبيهات قال النووي في شرح مسلم قد جا في رواية
شريك في حديثه اوهام انكرها عليه العلما منها قوله وذلك قبل
ان يوحى اليه وهو غلط لم يوافق عليه وان الاسرا اقل ما قيل فيه انه

كان بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر شهرا وقال الحربي كان
ليلة سبع وعشرين من ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة وقال الزهري كان بعد
مبعثه صلى الله عليه وسلم بخمس سنين قال ابن اسحاق اسري به صلى
الله عليه وسلم وقد فشا الاسلام بمكة والقبائل وقيل كان الاسراء
في رجب وقيل في رمضان قال النووي واشبه الاقوال قول الزهري
وابن اسحاق ومما يدل على انه اسري بجسده صلى الله عليه وسلم قوله
تعالى اسري بعبده ولفظ العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد وقوله
صلى الله عليه وسلم اوتيت بالبراق وهو اسم للدابة وهي التي ركبها رسول
الله صلى الله عليه وسلم ليلة اسري به وانشقاقه من البرق لسرعته
او لسنة ضيائه وبياضه ولمعانه وتلالؤه نور في الجنة بالسكان
اللام ويجوز فتحها والمراد بربط البراق بالحلقة الاخذ بالاحتياط
في الامور وتعاطي الاسباب وان ذلك لا يقدح في التوكل اذ التوكل
الاعتماد على الله وقوله جاءني جبريل بإناءين من خمر وإناء من لبن فاخترت
اللبن فيه اختصار والتقدير قال لي اخترت فاخترت اللبن وقوله اجرياه
اخرت الفم اي يعني فطرة الاسلام وقبل اللبن علامة للفطرة الصحيحة
السلامة لكونه سهلا طيبا سالغا للشاربين وانه سلم العاقبة
بخلاف الخمر فانها ام الخبائث وحالبة لانواع الشر وقوله ثم عرج
بي حتى اتي السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقال من انت قال جبريل فيه
بيان الادب لمن استاذن ان يقول انا فلان ولا يقول انا فقط فانه
مكروه وفيه ان للسماء ابوابا وبوابون على ما ورد وقوله وبي اب السماء
وقد ارسل اليه وفي الرواية الاخرى وقد بعث اليه معناه للاستفهام
وصعود السماء وليس مراده الاستفهام عن اصل البعثة والرسالة
فان ذلك لا يخفى عليه الي هذه المدة وقوله فاذا انا بآدم وذكر جماعة

من

من الانبياء فيه استحباب للقاء اهل الفضل والصلاح بالبشر والترحيب
والكلام الحسن واذا كان الزائر افضل من المزار وفيه جواز مدح
الانسان في وجهه اذا امن عليه من الاعجاب وغيره من اسباب الفتنة
وقوله فاذا انا بابراهيم مسندا ظهره الي البيت المعمور فيه دليل
على جواز الاستناد الي القبلة وتحويل ظهره اليها وقوله ذهب
بي الي السدرة المنتهى هذا وقع في هذه الرواية بالالف وفي
باقي الروايات الي سدرة المنتهى قال ابن عباس وغيره من المفسرين
سميت بذلك لان علم الملائكة ينتهي اليها ولم يجاوزها احد غير رسول الله
صلى الله عليه وسلم وقال ابن مسعود سميت بذلك لكونه ينتهي اليها ما
يهبط من فوقها وما يصعد من تحتها من امر الله عز وجل وقوله
واذا ثمرها مثل القلال هو بكسر القاف جمع قلة بضمها وهي الجرة
الكبيرة التي تسع قربتين او اكثر وقوله فرجعت الي ربي فقال
النووي معناه رجعت الي الموضع الذي ناجيته فيه اولا فناجيته
فيه ثانيا وقوله فلم ازل اراجع بين موسى وبين ربي معناه الي
بين موضع مكالمة ربي ومناجاته وقوله فمر علي امتي خمسين صلاة
اي فوقوله فوضع عني خمسا وفي رواية سطرها وفي رواية عشر البس
بين هذه الروايات منافاة لان المراد بالسطر الجزء وهو الخمس
وليس المراد منه التضعيف واما رواية العشر فهي رواية شريك
ورواية الخمس رواية قتادة وهو اثبت من شريك والمراد حط عني
خمسا ثم قال هن خمس وهن خمسون يعني خمسين في الاجر والثواب
لان الحسنة بعشر امثالها واحتج العلماء بهذا الحديث علي جواز نسخ الشيء
قبل فعله وفي الحديث انه شق صدره ليلة المعراج وقد شق صدره
في صغره وهو عند حليمة التي كانت ترضعه فالمراد بالشق

ب

الثاني زيادة التظهير لما يراد به من الكرامة ليلة المعراج وقوله اتيت بطشت
من ذهب وقد يتوهم انه يجوز استعمال الذهب لنا وليس الامر كذلك لان
هذا الفعل من فعل الملائكة وهو مباح لهم استعمال الذهب او يكون
هذا قبل تحريمه وقوله ممتلئ حكمة وايمانا فافرغ في صدري ثم
يقال الحكمة والايمان من المعاني والافراغ صفة الاجسام فما معنى
ذلك اجيب بانه يحتمل انه جعل في الطشت شيء يحصل به كمال
الايمان والحكمة وزيادتهما سمي ايمانا وحكمة لكونه سببا لهما وهذا
من احسن المجاز وقوله في صفة آدم فاذا رجل عن يمينه اسودة
وعن يساره اسودة هو جمع سواد وقد فسره في الحديث بانه نسم
بنيه يعني ارواح بنيه فان قيل ارواح المؤمنين في السماء واما ارواح
الكفار فمحلها الارض السفلى فكيف تكون نسما في السماء اجيب بانه
يحتمل ان ارواح الكفار تقرض على آدم عليه الصلاة والسلام
وهو في السماء في وقت عرضها على آدم مرور النبي صلى الله
عليه وسلم فاخبر بما رآى وقوله اذا نظر عن يمينه ضحك واذا نظر
عن شماله بكى فتنبيه بسنة الوالد على ولده وبسروره
بحسن حال المؤمن منهم وحزنه على حال الكافر منهم وقوله في آدم
مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح قد تقدم الوعد بانه احفوج
جد نوح فيكون جد النبي صلى الله عليه وسلم كما ان ابراهيم جد فكان
ينبغي ان يقول بالنبي الصالح والابن الصالح كما قال آدم وابراهيم
واجيب بانه قيل ان ادريس المذكور هنا هو الياس وهو من
ذرية ابراهيم فليس هو جد النوح قاله القاضي عياض وقال الزرقاني
ليس في هذا الحديث ما يمنع كون ادريس ابا للنبينا صلى الله عليه وسلم
وان قوله الاخ الصالح يحتمل ان يكون قاله تلطفا وتاديا وهو اخ وان

كان

كان ابا لان الانبياء اخوة والمؤمنون اخوة اهـ وانما اطلت في بيان ذلك لان
الكلام مع الاحبة يحلو ولو لاحوف الملل ما اقتصرت على ذلك فقد قال
بعض المفسرين لا اعلم في الكتاب العزيز سورة تضمنت من خفايا بعثه
التي فضلت بها كرامة الانبياء ما تضمنته هذه ولكن في هذا القدر
كفاية لاولي الالباب ولما ثبت بمنه الخارقة ما اجرى به صلى الله عليه
وسلم عن هذه نفسه المقدسة من عظيم الفضل وما جاء به صلى الله
عليه وسلم من الايات البينات في هذا الوقت اليسير اتبعه ما منح في
السير من مصر الى الارض المقدسة من الايات التي مدد اطول الحدا
موسى عليه الصلاة والسلام الذي كان اعظم الانبياء بركة على نفوذ
الامة ليلة الاسراء طما ارشد النبي صلى الله عليه وسلم اليه من مراجعة
الله تعالى في تخفيف الصلاة حتى رجعت من خمسين الى خمس مع اجر
خمسين فقال واتينا اي بعظمتنا موسى الكتاب اي التوراة وجعلناه
اي الكتاب بما لنا من العظمة هدى لبني اسرائيل باكمل على العدل
في التوحيد والاحكام واسرينا بموسى عليه السلام وتقدم من
مصر الى بلاد المسجد الاقصى فاقاموا سابرين اليها اربعين سنة
ولم يصل اولا مات كل من خرج الا الثنتين الوفين بالعهد فقد
بان الفضل بين الاسرائين كما بان الفضل بين الكتابين فتذكر
الاسراء ولا دليل على حذف نظمه اي لا فالا يقتضي الاحتباك ثم
نبه على ان المراد من ذلك كله التوحيد اعتقادا او عبادة بقوله تعالى
ان لا اي لئلا تتخذوا على قراءة ابي عمرو بالتاء على البقية وقراءة
بالتاء على ان لا تتخذوا والقول كتبت اليه اذ فعل كقال من دوني وكيلا
اي ربا تكلون اليه امركم وذلك هو التوحيد فلا معراج اعلى ولا درجة
اشرف ولا نعمة اعظم من ان يصير المرء عزيزا في بحر التوحيد واذا لا

نقول في امر من الامور الا علي الله تعالي فان نطق بذكر الله وان
تفكر تفكر في دلائل توحيد الله وان طلب طلب من الله فيكون كلامه
لله وبالله والي الله وقوله تعالي ذرية نصب علي الاختصاص في قراءة
ابي عمرو وعلي النداء عند الباقين اي يا ذرية من حملنا في
السفينة بتعظيمنا علي ظهر ذلك الماء الذي طبق ما تحت آدم السماء
وتنبيه تعالي علي منة تمهم وتمام نعمتهم بقوله تعالي مع نوح في ذلك
تذكيرا بانعام الله تعالي عليهم وانجاء ابائهم من الغرق بحملهم مع نوح في
السفينة قال قتادة الناس كلهم من ذرية نوح لانه كان معه في السفينة
ثلاثة بنين سام وحام ويافث فالناس كلهم من ذرية اولئك قال
البقاعي لان الصحيح ان من كان معه من غير ذريته ماتوا ولم يبق الا
بقل ذرية نوح ليتم لهم اعظم عقب اولاده المومنين لتكون تلك المنة
اجزي ممن الله تعالي انثني علي نوح فناهيك الاقتداء به في التوحيد
اقتدي به ابا وكرمي ذلك بقوله تعالي انه كان عبدا شكورا اي مبالغا
في الشكر الذي هو صرف العبد جميع ما انعم الله تعالي به عليه لما خلق
له روي انه عليه الصلاة والسلام كان اذا اكل قال الحمد لله الذي اطعمني
ولو شاء اجاعني وفي روايته انه يسمي اذا اكل ويحمد اذا فرغ واذا
شرب قال الحمد لله الذي اسقاني ولو شاء اظمانني واذا اكتسي قال
الحمد لله الذي كساني ولو شاء اعراني واذا احتذي قال الحمد لله الذي
ولو شاء احفاني واذا قضى حاجته قال الحمد لله الذي اذهب عني اذاه
في عافية ولو شاء حبسه وفي روايته انه كان يقول الحمد لله الذي
اذاقني لذته وابقى في منفعته في جسدي واخرج عني اذاه
وفي روايته انه كان اذا اراد الافطار عرض طعامه علي من حضره
فان وجده محتاجا آثره به وكما ذكر تعالي انعامه علي ابني اسرايل

بانزال

بانزال التوراة عليهم وبانه جعل التوراة هدي لهم بين امرهم ما احتاجوا
بعده اليه بل وقعوا في الفساد بقوله تعالي وقضينا اي اوحينا الي بني
اسرايل اي الي عبدنا يعقوب عليه السلام الذي كان اطوع اهل
زمانه وحيا مقطوعا مثبوتا في الكتاب اي التوراة التي اوصلناها
اليهم علي لسان موسي عليه السلام وقيل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ
وقوله تعالي لتفسدن جواب قسم محذوف ويجوز اذ يجري القضاء المبني
مجري القسم فيكون لتفسدن جوابا له كانه قال اوقعنا التفسد في
الارض اي ارض الشام قال السيوطي وقال الرازي ارض مصر ويوافق
الاول قول البقاعي اي المقدسة التي لستم فيها كانها الارض مرتين اي
اساديتين قال في الكشاف اولاهما قتل زكريا عليه السلام وحبس
ارميا حين انذرهم بسخط الله تعالي والاخري قتل يحيي بن زكريا وقصد
قتل عيسي بن مريم وقال البيضاوي الاولي مخالفة احكام التوراة
وقتل شعيبا وقيل ارميا وثانيهما قتل زكريا ويحيي وقصد قتل
عيسي عليهم السلام ولتعلن اي بما صار منهم اليه من البطر لنسيان المنعم
علوا كبيرا بالظلم والتمرد لانه يقال لكل متكبر قد علا وتعظم فاذا
جاء وعد اولاهما اي اولي مرتين في الفساد وهو الوقت الذي
حددنا لهم الانتقام فيه بعثنا عليكم عبادا لنا اي لابد ان لكم بهم كما
قال تعالي اولي باس شديد اي اصحاب قوة في الحرب واختلف فيهم
فقال في الكشاف سنجاريب وجنوده وقيل بخت نصر وعن ابن عباس
بالموت فقتلوا علمائهم واحرقوا التوراة وخربوا المسجد وسبوا منهم
سبعين الفا وقال البيضاوي عباد لنا بخت نصر وعامل لهم استف
علي بابل وجنوده وقتل جالوت الخزري وهو بجالوت اي هو
مفتوحتين فالنسبة الي الخز وهو ضيق العين وصغرها وهو

الذي قتله داود وجيل من الناس وذكر الرازي في ذلك قولين الاول
ان الله تعالى سلط عليهم بخت نصر فقتل منهم اربعين الفا ممن يقرا التوراة
وذهب ببقية الى ارض نفسه فبقوا هناك وفي الذل الثاني ان الله تعالى
القى الرعب من بني اسرايل في قلوب المجوس فلما كرت المآتي فيهم ازال
الله ذلك الرعب عن قلوب المجوس فقصد وهم بالقوافي قتلهم وافنائهم
واهلاكهم واخرج ابن ابي حاتم عن عطية قال افسدوا المرة الاولى
فارسل الله عليهم جالوت فقتلهم وافسدوا المرة الثانية فقتل يحيى
ابن زكريا فبعث الله عليهم بخت نصر وعن ابن مسعود قال كان اول
الفساد من قتل زكريا فبعث الله عليهم تلك السبط وعن علي بن ابي
طالب قال الاولى قتل زكريا والاخرى قتل يحيى قاله الرازي واعلم
انه لا يتعلق كثير غرض في معرفة اولئك الاقوام باعيانهم بل المقصود
بيان ما كرر واني المعاصي سلط الله عليهم اقواما فقتلوهم وافنوهم
ممن قال الله تعالى فجاسوا اي تردد والطلبكم خلال الديار اي وسطها
للقتل والغارة قال البيضاوي فقتلوا كبارهم وسبوا صغارهم وحرقوا
التوراة وخربوا المسجد والمعنى لما منعوا تسليط الكافر على ذلك
اولوا البعث بالتخلية اه وفي ذلك مقنع بين بالزمخشري فان قال في
كشافه فان قلت كيف جاز ان يبعث الله الكفرة على ذلك وسلطهم
عليهم قلت معنا سخلينا بينهم وبين ما فعلوا ولم نمنعهم على ان
الله عز وجل اسند بعث الكفرة عليهم الى نفسه من قوله وكذلك
نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون وكان اي ذلك البعث وعد
العقاب به مفعولا مفعولا اي قضاء كائنا لازما لا شك في وقوعه
ولا بد ان يفعل ثم رددنا لكم الكرة اي الدولة والغلبة عليهم حيث
تبتم عن ذنوبكم ورجعتم عن الفساد في زمن داود وتبتلة جالوت ذلك

بعد مائة سنة وامددناكم باموال تستعينون بها على قتال عدوكم
وبنين تتقوون بهم وجعلناكم اكثر نفيرا من عدوكم نفيرا اي عشيرة تنفرون معكم
عند ارادة القتال وغيره من المهمات والنفير من ينفر مع الرجل من قومه
وقيل جمع نفر وهم المجتمعون للذهاب الى العدو والمعنى ان الله تعالى لما
لما عصوا سلط الله عليهم اقواما فقد وسم بالقتل والنهب والسبي ولما
تابوا رد الله لهم تلك المحنة واعلم ان الله تعالى لما ذكر ان بني اسرايل
ان اطاعوا الله فقد احسنوا الى انفسهم وان اصروا على المعصية فقد
اساءوا على انفسهم وقد تقرر في العقول ان الاحسان عائد الى النفس
فمن مطلوب وان الاساءة اليها مهربة فلهذا المعنى قال تعالى ان احسنتم
اي ببعثكم الطاعة على حسب الامر في الكتاب الداعي الى العدل والاحسان
احسنتم لانفسكم لان ثواب ذلك عائد اليكم وان اسأتم بتركها فلها
اي الاساءة فلا ضرر بها الا عليها قال النحويون وانما قال وان اسأتم فلها
للتقابل والمعنى فالها او عليها كما يوضع ان حرف الاضافة يقوم بعضها
مقام بعض كقوله تعالى يوحي ربك لها بان ربك اوحى اليها
الها تنبيه قال اهل الاشارات ان هذه الآية تدل على ان حسنات
العبد على نفسه وسيئاته عليها حكى عن بعض الاصحاب ان ذكر مرتين
في قوله تعالى ان احسنتم احسنتم لانفسكم وان اسأتم فلها حكى عن بعض الاصاغر انه قصر
على ذكرها مرة واحدة فقال الله تعالى وان اسأتم فلها ولو لم ان جاءت
المرة الثانية لكان الكلام ركيكا فقال فاذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا
مرتين في المسئلة وهو الوقت الذي حدد نا الله الانتقام فيه ليسوءوا
بالبناء للمفعول عطف على بعثنا وجوابكم لما فعلتم بالاساءة
في كل مرة معاقبة اللام لان الاول علة لبعثهم والثاني علة لفعل محذوف
تقديره بعثناهم ليسوءوا وجوهكم اي ليجعل اثر المساءة ظاهرا
فيكم وصرح بمفعول اللام لان الاول لما كان علة لبعثهم والثاني علة لفعل
محذوف صار مفعولا له وقرئ ليسوء على الافراد وليدخلوا المسجد
اي بيت المقدس كما دخله اولئك اول مرة يعني ليدخلوه دخولا مثل
دخول اولئك في الاستيلاء والغلبة وليتبروا ليخربوا ما علوا
اي غلبوا عليه تتبيرا اي تخريبا وتدميرا

واما الهمزة التي بعد الواو التي بعد السين فقرا نافع وابن كثير وابو عمرو
وحفص بهمز الهمزة ومدها والباقون بفتح الهمزة والمد وقوله تعالى
وليدخلوا المسجد عطف على ليسوءوا والمراد بالمسجد الاقصى الذي
سقناكم اليه من مصر بعد تلك المدد الطوال واعطيناكم بلاده بالتدريج
وجعلناه محل عزكم لا منكم ثم جعلناه محلا للاكرام اشرف خلقنا بالاسرا
به اليه وجمع ارواح النبيين فيه وصلاته بهم وهذا القريب من بعيد لكن
بانهم انكروا حبوا البدل امنهم في اكرم حوف فاوعز بهم ذلا وادخل عليهم جنود الاقل
لهم عما وقد فعل ذلك عام الفتح لكنه فعل اكرام لا اهانة بركة هذا النبي
الكريم صلى الله عليه وسلم **كما دخلوه** اي الاعداء **اول مرة** بالسيف
ويقهروا جميع جنودكم دفعة واحدة **وليتبروا** اي يهلكوا ويدمروا تدميرا واسع
التفظيع والتغريب **ما علوا** اي عليه من ملكهم وقبل ما معمورية اي
مدة علوهم **تتبيرا** اي اهلاكا كما قال الزجاج وكل شيء جعلته مفتتا اهلكته
فقد تبرته ومنه قيل تبر الزجاج وتبر الذهب لمكسرهم ومنه قوله تعالى
ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون قال الرازي وهذه المرة
الاخيرة هي اقدام علي قتل زكريا ويحيى عليهما السلام قال البيضاوي
وذلك بان سلط الله عليهم انطيوس مرة اخرى فقتل بهم ملكا بابل من ملوك
الطوائف اسمه جردوت وقيل هردوس فتل دخل صاحب البيت فذبح
قرابينهم اي جمع قربان فوجد دمها يغلي فسالهم عنه فقالوا دم قربان
لم يقبل منا فقال ما صدقوني فقتل عليه الوفا فمنهم فلم يهدا الدم ثم
قال ان لم تصدقوني ما تركت منكم احدا فقالوا دم يحيى فقال لمثل هذا ينتقم
ربكم منكم فقال يا يحيى اي يحيا بالدم قد علم ربي وربك ما اصابوا بقومك
من اجلك فاهدا باذن الله قبل ان لا يبقى احد منهم فهدا اي سكن
وقال الواحدي فبعث الله تعالى بخت نصر البابلي المجوسي ابغض خلقه

اليه

اليهم فسبى بني اسرائيل وخرب بيت المقدس قال المراغي وما قاله التواريخ
تشهد انه بخت نصر كان قبل وقت عيسى ويحيى وزكريا بينهما مسافة طويلة
ومعلوم ان الملك الذي انتقم من اليهود ملك الروم بقيادة قسطنطين
الملك والله اعلم بما جرى لهم ولا يتعلق غرض من اغراض التشريع التراث
بمعرفة اعيان هؤلاء الا في ايام الله ولما انتقم ذلك الملك كما ذكر قيل لهم
بني لهم نصرة على عدوهم فقال تعالى **عسى ربكم ان يرحمكم** يا بني اسرائيل
بعد انتقامه منكم فترد الدولة اليكم بعد ان اذلكم فرحمهم بقوله تعالى
وان عدتم الى التوبة والطاعة **عدنا** اي الى ضرب البلاء عليكم في الصغار
اقول قال القفال واما جعلنا هذه الاية على معنى ان ابقاء الدنيا كقوله تعالى في
سورة الاعراف جزاء عن بني اسرائيل واذ تاذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم
القيمة من يسومهم سوء العذاب ان ربك لسريع العقاب وانه لغفور رحيم
وهو التكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم وكتمانهم ما وجدوا في التوراة والانجيل
فاذا الله تعالى عليهم بالتعذيب على ايدي المغرب فجرى على بني النضير
وقريظة وهي بني قينقاع وعلى يد خير ما جرى من القتل واسكانهم الباقي
بينهم معمورة وذات بكرة لا ملك لهم ولا سلطان ثم قال تعالى **وجعلنا**
اي بعد ذلك بعظمتنا **جهنم** اي التي داخلها بالتجهم والكره **للكافرين**
وذكر الوصف الظاهر موضع الضمير ليبان تعلق الحكم به على سبيل الرمز
سواء فيه ذلك الظلم وغيره **حصيرا** يحتمل ان يكون فعيلا بمعنى
الفاعل اي جعلنا جهنم حاصرا لهم ويحتمل ان يكون بمعنى مفعولا اي
جعلناها موضعا محصورا لهم والمعنى ان عذاب الدنيا وان كان شديدا
قويا الا انه قد يتطلب بمعز الناس عنه والذي يتبع في ذلك العذاب
يخلص منه اما بالموت واما بطريق اخر واما عذاب الاخرة فانه يكون
حاصرا للانسان محيطا به لا رجاء في الخلاص عنه فهو لاء الاقوام لهم من

عذاب الدنيا ما وصفناه ويكون لهم بعد ذلك من عذاب الاخرة ما يكون
محيطا بهم من جميع الجهات ولا تجتلصون منه ابدا ولما بين سبحانه وتعالى
كتاب موسى عليه السلام الذي انزل عليه تمامي مشروحا في التوراة المقدس
في تلك المدة فانه دلالة وهدى لبني اسرائيل صادقا للوعد والوعيد
بين تعالى كتاب محمد صلى الله عليه وسلم الذي عليه في نسبه حسبه
اليه في ذلك ووصفه بثلاثة انه اعم من الصفات الاولى فقوله تعالى ان
هذا القرآن اي الجامع لكل حق والفارق بين كل متلبس يهدي اي التي
هي اطوع الطرق التي هي اقوم اي اصوب من كل طريق فقوله تعالى التي هي
اقوم نعت لموصوف محذوف تقديره ان يقص الملة والشريعة التي هي اقوم
الى الملة والشريعة التي هي اقوم الملك والبرايم ومثل هذه الكناية
كثيرة الاستعمال في القرآن كقوله تعالى ادفع بالتي هي احسن وقصد
الى الكلمة التي هي اعدل وهي شهادة ان لا اله الا الله تنبيها لفظا اخر
وترجا جميعي انها تحل كقولنا الله اكبر اي الله اكبر كبيرا وكقولنا الاشج
والناقص اعدلا بين مرواحة فاقوم يحتمل ان يكون كذلك وان يبقى
على ظاهره الصفة الثانية قوله تعالى ويبشر المؤمنين اي الراسخين
في هذا الوصف ولهذا قيد بمن يأتي اليهم بقوله الذين اي يعبدون قولنا ايمانهم
بالغيب يعملون اي على سبيل التجدد والاستمرار والمثابرة على العمل
الصالحات من التقوى والاحسان انا لهم اجرا كبيرا هو الجنة والنظر الى
وجه الله تعالى وقرأ الجمهور والكسائي بفتح الياء وسكون الباء الموحدة وكسر
السين مشددة فان قيل قال هنا اجرا كبيرا وفي الكهف اجرا حسنا
اجيب بوقوع ذلك لموافقة الفواصل قبله وبعده وكل منهما الصفة
الثالثة قوله تعالى وان الذين لا يؤمنون بالاخرة اعتدنا اي اعددنا
وهيأنا لهم عذابا اليما وهو النار في الاخرة وهي عطف على ان لهم

اجرا

اجرا كبيرا والمعنى ان الله تعالى يبشر المؤمنين بنوعي من المثابة ثواب الجنة
وبعقاب اعدائهم تقريعا توبيخا شديدا بما نسب عليهم وبانه عرفهم ويعينهم
لانه قيل كيف يليق لفظ الثابة بالعذاب اجيب بان هذا من باب ما ذكر
على سبيل التهكم اذا تقرر من باب ما اتفق اجتماع الضدين على الاخر كقوله تعالى
وجزاء سيئة سيئة مثلها اذ على سبيل التهكم اما ان يكون خبر فاخبر هذه الاية
واردة في شأن اليهود وهو ما كانوا يقولون ويدعون الايمان بالاخرة اجيب
بان اكثر اليهود ينكرون ذلك والعقاب الكبير هو ما هيئ وعد لهم قال الذين
يستحقون النار الا ايا ما معدودة وما ذكر ضمن بذلك هذا والله اعلم ثم بين
بين سبحانه وتعالى ان هذا القرآن يهدي التي هي اقوم والانسان قد يدعو
على ما لا فائدة فيه بيانه بقوله تعالى ويدع الانسان بالشر عند
هنا على نفسه واهله وماله ادعاء الذي يقال له عليه بالخير ولو استجيب
له في الشر كما يستجاب له في الخير لهلك وروي انه صلى الله عليه وسلم دعا
على نسوة بمكة زعمن انه اضل فقال بان في الليل فقالت له ماذكر
فبكى وبكى فرحمته فاخبرته كما قد فهرب فلما اصبح النبي صلى الله عليه
وسلم دعى به فاعلم بما فعلت فصلى الله عليه وسلم اللهم اطعم لدمها
فدفعت سودة بيدها لقمة فقمت ان فيها لحم فاخبرته فقدم النبي صلى الله عليه
وسلم وقال اللهم انما انا بشر اغضب كما يغضبون فمن دعوت عليه من
دعاي رحمة فاجعل الدعاء رحمة لذلك المراد النضر بن الحارث حيث قال اللهم ان كان
هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم فانزل الله
فيه وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون وكان
بعضهم يقول ايتنا بعذاب الله واخرون يقولون غفرانك ربنا هذا الوعد ان
كنت صادقين وانما فعلوا التجهيل ولا عتقادهم انه محال كاذب فما يقول وقيل
المراد ان الانسان قد يدعو بالخير فيما يتضح فيه الدعاء طالبا الشيء يعتقد انه خير وبنية
سيء ان ذلك الشيء منبع الشر ومضرة وهو يبالغ في طلبه لجهله بحال

ذلك الشيء فانما يقدم على مثل هذا العمل لكونه عجولا متسرعا ولو نظر
الاخير وعلم ما تنتهي عنه عاقبته لتأنى واستبرء لامره كما قال تعالى وكان الانسان
اي الجنس عجولا اي يسارع الى كل ما يخطر بباله ولا ينظر الى عاقبته وقيل
المراد آدم عليه السلام فانه لما انتهى الوحي الى سدرة المنتهى ذهب ليتناول من
ثمرتها قبل ان يؤمر به فحذف وقيل يدع اي الانسان في دعائه بالشر على نفسه
وولده في حال ضجره وقلة صبره دعاءه بالخير اي كدعائه بالخير في
جميع المحاسن ولا موجب لحمله على الخلل في التركيب بل يمكن المحافظة على الظاهر
في اللفظ بحمله على ما يطابق قوله تعالى سندع الزبانية وقوله ويدع الانسان
ويدع الله الموحدين ويوم يناد المناد وما نحن فيه قال الفاضل ولو كان
ذلك بالواو والياء لكان صوابا وقال الرازي اقول هذا يدل على
ان سبحانه وتعالى قد عظم هذا القرآن المجيد عن التحريف والتغيير
فلهذا اثبات الواو والياء في اكثر الالفاظ المقروءة وعدم اثباتها في
هذه المواضع المعدودة يدل على ان هذين القرآنين نزلا كما سمع وان
احدا لم يقدر على تغييره بمقدار ذرة من ذرات عمله وقوة عقله وكما بين تعالى ما اوجد
من نور الدين وهو القرآن اتبعه بما اوجد من نور الدنيا فقال
وجعلنا الليل والنهار آيتين دالتين على تمام العلم وشمول القدرة
اية الليل كالايات المتتابعة المتوالية المتماثلة المتساوية في الظلمة
حتى ان المقصود من التكليف لا يتم الا بتكرار الحكم في اغلب ايامه لان ذكر الزمان لا يتم
الانتفاع به الا بتمام يتين الايتين فمحونا اي بظلمتها المتباعدة اياته
الليل اي طمسنا عينيها بان خلقناهما على هيئة قابلة لان يعرض لها
ظلمة الليل بان يحجب الكواكب عنها او نحو ذلك وجعلنا اية
النهار مبصرة اي مضيئة بالضوء فلا تزال هذه الدار النافعة في
تنتقل من ضوء الى ظلمة ومن الظلمة الى النور كحالات الانسان بحيلته
التي يدعو اليها ما طبع عليه وتأديه الداعي اليه فحذفه منه لانتقال من نقصان

الى

الى كمال ومن كمال الى نقصان كما ان القمر الذي هو افقص من الشمس كيفا وكما
قال ابن عباس رضي الله عنهما نور الشمس سبعين جزءا ونور القمر كذلك الا انه محي
من نور القمر تسعة وستين جزءا فجعلهما مع نور الشمس وعلى هذا دل
تعالى امر جبريل فامر جناحه على وجه القمر ثلاث مرات فطمس عنه
الضوء وبقي فيه النور وسال ابن كوا عليا رضي الله عنه عن
السواد الذي في القمر قال هو اثر المحو وتنبيه المراد من الايتين محو بعض
الليل والنهار فالاضافة تبيانية اي اية هي الليل والنهار دليلين للخلق على
مصالح الدين والدنيا اما الدين فلان كل واحد منهما مغاير للاخر متغاير
لجميع كونهما مستقيمين على الدوام من غير تفاوت في الطول والدلالة على
انهما غير موجودين بذواتهما لا بد لهما من فاعل يديرهما ويتصرف فيهما
بالمقادير المخصوصة واما في الدنيا فلان مصالح الدنيا لا تتم الا بالليل
والنهار فلولا الليل ما حصل السكون والراحة ولولا النهار لما حصل
الكسب والتصرف وتبين الليل والنهار ظرفا لمحو والتغيير وجعلنا اية
الليل والمراد بالايتين على هذا هما الشمس والقمر واما تكوين
هذا على هذا وهذا على هذا ثم ذكر تعالى بعض المنافع المترتبة على
ذلك بقوله تعالى لتبتغوا اي تطلبوا طلبا شديدا فضلا من ربكم اي
المحسن اليكم فيما بينا هنا تارة وفي بعض اخر تارة ولتعلموا بتحصيل هذا عن
هذا عدد السنين والحساب لان الحساب يبتني على اربع مراتب
الساعات والايام والشهور والسنين فالعدد للسنين والحساب
لما دون السنين وهي الشهور والايام والساعات وبعد هذه المراتب
الاربعة لا يحصل الا بالتكرار كما ثم ربتوا العدد على اربع مراتب الاحاد
والعشرات والمائات والالوف وليس بعدها الا التكرار والباقي
تعالى احوال اية الليل والنهار وهما من وجه دليلان قاطعان على

التوحيد ومن وجه اخر نعمتان عظيمتان من الله تعالى على اهل الدنيا وقد
ذكر تعالى في القرآن آيات كثيرة في منافعهما كقوله تعالى وجعلنا الليل لباسا وجعلنا
النهار معاشا وكقوله تعالى جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا
من فضله وتمدح تعالى بخلقهما وبخلق ما بينهما من وجوه الدلائل على
الهيته ومن وجوه النعم العظيمة على الخلق كان ذلك تفصيلا نافعا
وبيانا كاملا فلا جرم قال تعالى وكل شيء اي لكم اليه حاجة في مصالح
دينكم ودنياكم فصلناه تفصيلا اي بيناه تبيينا ونحوه كقوله تعالى ما فرطنا
في الكتاب من شيء وكقوله ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وقوله
تدمر كل شيء بامر ربها وانما ذكر التفصيل لاجل تاكيد الكلام وتقريره كانه
قال فصلناه حقا ولما بين تعالى انه اوصل الى الخلق اصناف الاشياء النافعة
لهم في الدنيا والدين مثل آيتي الليل والنهار وغيرهما كان منعما عليهم
بوجوه النعم وذلك يقتضي وجوب اشتغالهم بخدمته وطاعته فلا جرم
كل من ورد عرصة القيامة فانه يكون مسئولا عن اعماله واقواله فقال
تعالى وكل انسان الزمناه طائره اي عمله الذي قدرناه
عليه من خير وشر لان العرب كانوا اذا ارادوا الاقدام على عمل من الاعمال
وارادوا ان يعرفوا ان ذلك العمل يسوقهم الى خير او الى شر اعتبروا
احوال الطير وهو انه يطير بنفسه او يحتاج الى ازعاجه واذا طار فهو
يطير متيامنا او متياسرا او صاعدا الى الجو الى غير ذلك من الاحوال التي
كانوا يعتبرونها ويستدلون بكل واحد منها على احوال الخير والشر والسعد
والنحس فلما كثر ذلك منهم سموا نفس الخير والشر بالطائر تسمية
للشيء باسم لازمه بقوله تعالى وكل انسان الزمناه طائره في عنقه اي
وكل انسان الزمناه عمله في عنقه الذي هو محل التزين بالقلادة ونحوها
ومحل الشين بالغل ونحوه فان كان عمله خيرا كان كالقلادة والحلي في العنق

وهذا

وهذا مما يزينه وان كان عمله شرا كان كالغل في عنقه وهو مما يشينه وقال
مجاهد ما من مولود يولد الا وفي عنقه ورقة مكتوب فيها شقي او سعيد
قال المحققون في هذا التحقيق في هذا الباب انه تعالى خلق الخلق وخص كل واحد
منهم بمقدار مخصوص من العقل والفهم والعلم والعمر والرزق والسعادة
والشقاوة [illegible] لا يمكنه ان يتجاوز عن ذلك المقدار [illegible] كان يحرف
[illegible] ما يتحصل اليه [illegible] بحسب الكمية والكيفية فتلك
الاشياء [illegible] تطير اليه [illegible] فلهذا المعنى لا يبعد ان
يعبر عن تلك الاحوال المقدرة بلفظ الطائر فقوله تعالى وكل انسان الزمناه
طائره في عنقه كناية عن ان كل ما قدره الله ومضى في علمه حصوله
له فهو لازم له واصل اليه غير منحرف عنه [illegible] ولهذا قال صلى
الله عليه وسلم جف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة او ما يجري مجراه ثم قال ونخرج
له يوم القيامة كتابا اي مكتوبا فيه عمله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها
[illegible] بصحائف لكم [illegible] مكتوب [illegible] عن يمينكم وعن
شمالكم [illegible] عن يمينكم [illegible] عن يساركم
[illegible] عليكم [illegible] حتى اذا [illegible]
[illegible] حتى [illegible] لكم يوم القيامة وقوله تعالى يلقاه منشورا صفتان
لكتابا وقرأ ابن عامر بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف على البناء
للمفعول [illegible] بفتح الياء وسكون اللام
وتخفيف القاف [illegible] بعد القاف [illegible]
بالنصب [illegible] ثم [illegible] يوم القيامة [illegible]
[illegible] اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا [illegible]
[illegible] جميع [illegible]
[illegible]

[illegible]

قيل

محمد صلى الله عليه وسلم وآمن به في عالم الغيب وقسم اتبع ملة حق ممن تقدمه
وقسم طالع في كتب الانبياء فعرف بشر محمد صلى الله عليه وسلم فآمن به
وقسم آمن بنبيه الذي ارسل اليه وادرك رسالة محمد صلى الله عليه وسلم
وآمن به فله اجران واما الاستثناء فقسم عطل لا عن نظر بل عن تقليد
وقسم عطل بعد ما ثبت لا عن استقصاء بشغل وقسم اشرك عن تقليد
محض وقسم عطل اكتفى وعاند واما الذي تحت المشيئة فقسم عطل قبل بلوغ
برجوده عن نظر قاصر لضعف في مزاجه وقسم اشرك عن نظر اخطأ فيه
وقسم عطل بعد ما ثبت لا عن نظر بلغ فيه اقصى القوة هكذا قسم
محيي الدين ابن العربي في الباب العاشر من الفتوحات نقل ذلك عن
شيخ وقته الشيخ عبد الوهاب الشعراني ونقل عن السيوطي انه ابوي
النبي صلى الله عليه وسلم لم تبلغهما الدعوة والله تعالى يقول وما كنا
معذبين حتى نبعث رسولا وحكم من لم تبلغه الدعوة انه يموت ناجيا
والصحيح انه يدخل الجنة قال وهذا مذهبنا لا خلاف فيه بين المحققين
من اصحابنا لشافعي في الفقه والاشاعرة في الاصول ونص على
ذلك الامام الشافعي رضي الله عنه واتبعه على ذلك الاصحاب
قال السيوطي وتواردت في احد جزئي ابن ابنه تعالى احيا ابويه حتى آمنا به
وعلى ذلك جماعة من الحفاظ منهم الخطيب البغدادي وابو القاسم بن
عساكر وابو جعفر بن شاهين والسهيلي والقرطبي وابن المنير وابن
سيد الناس وابن ناصر الدمشقي والصفدي وغيرهم والادلة لذلك
الاعسال كثيرة ذكرتها في ذلك فان الله تعالى لم يكلفنا بذلك وذكر الامر في
ذلك الى الله تعالى ونقول كما قال النووي لما سئل عن طائفة ابن الغرس
تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون
والله اعلم ونعوذ بالله تعالى من عذاب المخالفين ونسأله حسن الخاتمة

قوله

قوله لا يمنع حقوق العذاب بقوله تعالى واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها
في الدنيا والاخرة القيامة في قلوب اهلها امتثال اوامرنا والتقيد باتباع
رسلنا واذا اردنا ان نهلك قرية في الزمن المستقبل امرنا امجاري عبادنا
من القدرة التامة الشاملة مترفيها اي منعميها الذين لهم الامر والنهي
قال الاكثرون امرهم الله تعالى بالطاعة واجرى على لسان رسله ففسقوا
فيها اي خرجوا عن طاعة الله ورسوله وقال صاحب الكشاف ظاهر
اللفظ يدل على انه تعالى يامرهم بالفسق ففسقوا لكن هذا مجاز
ومعناه انه يفتح عليهم ابواب الخيرات والبركات فيفعلون ذلك تمردوا وطغوا
وبغوا قال والدليل على ان ظاهر اللفظ يقتضي ما ذكرناه ان المامور
به محذوف لان قوله ففسقوا يدل عليه يقال امرته فقام وامرته
فقام لا يفهم الا ان المامور به فيما ما وقرأة ابي امرناهم بالفسق
تفسقوا فيها وجب ان يكون المعنى امرناهم بالفسق ففسقوا لا يقال
يشكل هذا بقولهم امرته فعصاني وخالفني فان هذا الكلام لا يفهم منه
ان امرته بالمعصية والمخالفة لانا نقول ان المعصية منافية للامر
ومناقضة له فيكون كونها مامورا بها مخالفا فلهذه الضرورة تركنا
هذا الظاهر اه قال الرازي ولقايل ان يقول كما ان قوله امرته
فعصاني يدل على ان المامور به شيء غير المعصية من حيث ان المعصية
منافية للامر ومناقضة له فكذلك قوله امرته ففسق يدل على
ان المامور به غير الفسق لان الفسق عبارة عن الاتيان به فكونه
فسقا ينافي كونه مامورا به كما ان قوله معصية ينافي كونه مامورا به فوجب
ان يدل هذا اللفظ على ان المامور به ليس بفسق وهذا الكلام
في غاية الظهور ولم ار احدا من اصحاب الكشاف على قوله مع ظهور
سقوطه فثبت ان اقصى ما ذكر الكلام وهو ان المعنى امرناهم بالاعمال

الصالحة وهي الايمان والطاعة والقوم خالفوا ذلك الامر عنادا واقدموا على
الفسق فحق عليها القول اي الذي توعدناهم به على لسان رسولنا
فدمرناها تدميرا اي اهلكناها باهلاك اهلها وتخريب ديارها وخص المترفين
بالذكر لان غيرهم يتبعهم ولانهم اسرع الى الحماقة واقدر على الفجور وقيل
معناه كثرنا وروى الطبراني وغيره حديث خير المال سكة مابورة ومهرة
مامورة اي كثيرة النتاج والسكة بكسر السين وتشديد الكاف الطريقة
المصطفة من النخل والمابورة المصلحة الملقحة وروي ان رجلا من
المشركين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم اني ارى امرك هذا حقير
فقال صلى الله عليه وسلم انه سيامر اي سيكثر ويستكثر وعن ام
المومنين زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم
دخل عليها فزعا يقول لا اله الا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم ٢
من ردم ياجوج وماجوج مثل هذه وحلق بين اصبعيه الابهام والتي
تليها قالت زينب فقلت يا رسول الله انهلك وفينا الصالحون قال نعم
اذا كثر الخبث اي الشر وقيل يقال لمن وقع في مهلكة او اشرف ان
يقع فيها وقوله تعالى وكم اهلكنا اي بما لنا من العظمة وبين مدلول
كم بقوله تعالى من القرون اي المكذبين من بعد نوح كعاد وثمود من الامم
الماضية يخوف به الكفار اي كفار مكة قال عبد الله بن ابي اوفى القرن
عشرون ومائة سنة وقيل مائة سنة وروي عن محمد بن القاسم
عن عبد الله بن بسر المازني ان النبي صلى الله عليه وسلم وضع يده
على راسه وقال يعيش هذا الغلام قرنا قال محمد بن القاسم ما زلنا
نعد له حتى تمت له مائة سنة ثم مات وقال الكلبي القرن ثمانون سنة
وقيل اربعون ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وكفى
بربك اي المحسن اليك بذنوب عباده خبيرا بصيرا اي عالما ببواطنها

وظواهرها

وظواهرها فكم من انسان كنتم ترونه من اكابر الصالحين ثم استقرت عاقبته
على خلاف ذلك وكم من شخص ترونه مجتهدا في العبادة فاذا خلا بارز
ربه بالعظائم وتقديم الخبر لتقدم متعلقه ولما قرر انه سبحانه وتعالى
عالم ببواطن عباده وظواهرها قسمهم الى قسمين الاول قوله تعالى
من كان يريد العاجلة اي الدنيا مقصورا عليها همه عجلنا له فيها اي
العاجلة بان نفضلنا عليه من منافعها ما نشاء اي من البسط والتقتير
لمن نريد اي ان نفعل به ذلك فقيد تعالى الامر بقيدين احدهما تقييد
المعجل بارادته ومشيئته والثاني تقييد المعجل له بارادته وهكذا
الحال ترى كثيرا من هولاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون الا بعضا منها وكثير
منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر
الاخرة تنبيه لمن نريد بدل بعض من كل من الضمير في له باعادة
العامل تقديره لمن نريد تعجيله له وقيل ان الاية في المنافقين
كانوا يراءون المسلمين ويغزون معهم ولم يكن غرضهم الا مساهمتهم في
الغنائم ونحوها وهذا هو المناسب لقوله تعالى ثم جعلنا له جهنم يصلاها ها
اي في الاخرة مذموما اي مفعولا بالذم مدحورا اي مدفوعا مطرودا
مبعدا وان ذكر البيضاوي بصيغة قيل ثم ذكر تعالى القسم الثاني
وشرط فيه ثلاثة شروط الاول قوله تعالى ومن اراد الاخرة اي اراد
بعمله ثواب الاخرة فانه ان لم يرد ذلك لم ينتفع بذلك العمل لقوله تعالى
وان ليس للانسان الا ما سعى وقوله صلى الله عليه وسلم انما
الاعمال بالنيات الثاني قوله تعالى وسعى لها سعيها وذلك يقتضي
ان يكون ذلك العمل من باب القرب والطاعات وكثير من الضلال
يتقربون بعبادة الاوثان ولهم فيها تاويلات احدها انهم يقولون اله
العالم اجل واعظم من ان يقدر الواحد منا على اظهار عبوديته وخدمته

ولكن غاية ما قدرنا انه يشتغل بعض المقربين من عباد الله عن ان يشتغل
بعبادة كوكب او ملك من الملائكة ثم ان الملك او الكوكب يشتغل بعبادة
الله تعالى فهو لا يتقرب بذلك اليه سبحانه الا لهذا الطريق وهذا طريقة فاسدة
فلا جرم انه لم ينتفع بها ثانيا انهم قالوا اتخذنا هذه التماثيل على صورة
الانبياء والاولياء والمراد من عبادتها ان تصير تلك الانبياء والاولياء
شفعاء لنا عند الله وهذا الطريق ايضا فاسد فلا جرم لم ينتفع بها
ثالثها انه نقل عن المهندسين انهم يتوسلون الى الله بتقسيم الدوائر
وباحراز الاقسام احرزي وهذه الطريقة ايضا فاسدة فلا جرم لم
ينتفع بها وكذا القول في جميع الفرق المبطلين الذين يتقربون الى
الله تعالى بما ذكروه الباطلة الثالث قوله تعالى وهو هو من
لان الشرط في كون اعمال البر مقتضية للثواب هو الايمان واذا لم يوجد
لم يحصل المشروط وقد روي عن بعض المتقدمين انه من لم يكن معه ثلاث لم ينتفعه
عمله ايمان ثابت ونية صادقة وعمل مصيب وتلا هذه الآية ثم ان الله
تعالى اخبر عند وجود هذه الشروط بقوله تعالى فاولئك كان الله قال الواحدي
الرتبة لجمعهم الشرائط الثلاثة كان سعيهم مشكورا اي مقبولا
مثابا عليه بالتضعيف ويغفر لهم ينتج له ابواب الدنيا مع ذلك كذلك
وكيلهان عليهما السلام ويستعمله فيها بما فيه من مئات الله تعالى
ويغفر لهم يزوى عنهم عنه كرامة له لا هوانا به فزعا كان الغفر جزاء له
واعون على مراده فالحاصل انهما ان وجدت عند الولي لم تشرفه
وان عدمت عنده لم تحترم وانما التشريف وغيره عند الله تعالى
بالاعمال تنبيه كل من اتى بفعل اما ان يقصد به تحصيل خيرات الدنيا
واما ان يقصد به خيرات الاخرة واما ان يقصد به مجموعهما واما ان يقصد
به واحدا منهما فان قصد به تحصيل الدنيا فقط او تحصيل الاخرة فقط

فاسد

فاسد ذكر حكم هذين القسمين في هذه الاية واما القسم الثالث فينقسم
ثلاثة اقسام اما ان يكون طلب الاخرة راجحا او مرجوحا او يكون الطلبان
متعادلين فان كان طلب الاخرة راجحا فهل يكون هذا العمل مقبولا عند
الله تعالى فيه روايتان احدهما انه غير مقبول لقوله صلى الله عليه وسلم
حاكيا عن الله تعالى انه قال انا اغنى الاغنياء عن الشرك من عمل عملا
اشرك فيه غيري تركته وشركه والثاني طلب رضوان الله اما ان يكون
سببا مستقلا بكونه باعثا على ذلك الفعل او داعيا اليه واما ان لا يكون
فان كان الاول امتنع ان يكون لغيره مدخل في ذلك البعث والداعي
لان الحكم اذا اسند لسبب تام كامل امتنع ان يكون لغيره مدخل فيه
وان كان الثاني فيكون الداعي الى ذلك الفعل هو المجموع وذلك المجموع ٤
ليس هو طلب رضوان الله لان المجموع انما حصل من الشيء ومن غيره يجب
ان لا يكون مغايرا لطلب رضوان الله فوجب ان لا يكون مقبولا الرابع
الثاني انه مقبول لان طلب الاخرة لما كان راجحا على طلب الدنيا
تقارن المثل بالمثل بقي القدر الزايد داعية خالصة لطلب الاخرة
فوجب كونه مقبولا واما اذا كان طلب الدنيا وطلب الاخرة متعادلين
او كان طلب الدنيا راجحا فقد اتفقوا على انه غير مقبول الا انه على
كل حال خير مما اذا كان طلب الدنيا خاليا بالكلية عن طلب الاخرة
واما القسم الرابع وهو الاقدام على الفعل من غير داعي فهذا مبني على
ان صدور الفعل من القادر هل يتوقف على حصول الداعي ام لا فالذين
يقولون انه متوقف على حصول الداعي قالوا هذا القسم ممتنع الحصول
والذين قالوا لا يتوقف قالوا هذا الفعل لا اثر له في الباطن وهو
محرم في الظاهر لانه عبث ثم ان الله تعالى قال كلا اي من الفريقين
مريد الدنيا ومريد الاخرة نمد اي بالعطاء ثم ابدل من كلا قوله

هؤلاء اي الذين طلبوا الدنيا نمد وهؤلاء اي الذين طلبوا الاخرة نمد
من عطاء ربك اي المحسن اليك ان ضيق على مؤمن فبالحماية من الدنيا
الفانية التي انما هي لعب ولهو وان وسع فبالاستدراج فيما على حسب
ما يرى فيه وما كان عطاء ربك اي الموجد لك المدبر لامرك محظورا اي
ممنوعا في الدنيا عن مؤمن ولا كافر بل هو ملاء السهل والجبل من الذهب
والفضة والحديد والنحاس والجواهر والثمار واقوات الناس والبهائم
وغير ذلك مما لا يحصيه الا الله تعالى حتى لو اجتمع كل الناس على جمعه
ليلا ونهارا ولم يكن له شغل سوى ذلك لاعياهم ولم يقدروا عليه
فسبحان الجواد والمعطي المانع ثم انه تعالى امر بالنظر في عطاياه هنا
على وجه مرغب في الآخرة من زهد في الدنيا بقوله تعالى انظر اي
ايها الانسان او يا محمد كيف فضلنا بعضهم على بعض فاوسعنا على
مؤمن وقترنا على مؤمن آخر واوسعنا على كافر وقترنا على كافر آخر وبين
سبحانه وتعالى وجه الحكمة في التفاوت في سورة الزخرف بقوله تعالى
نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض
درجات الآية وقال تعالى في آخر سورة الم نشرح ورفعنا بعضهم فوق
بعض درجات تنبيه كيف نصبت اما على التشبيه بالكاف واما
على الحال وهي معلقة لانظر بمعنى فكر او ابصر ولما نبه تعالى على
ان ما تراه من التفضيل انما هو بمجرد قدرته اخبر على انه ما بعد
الموت كذلك بقوله تعالى ولدار الاخرة اكبر اي اعظم درجات واكبر
تفضيلا من درجات الدنيا ومن تفضيلها فان نسبة التفاضل في
درجات الاخرة الى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الاخرة الى
الدنيا فان كان الانسان تشتد رغبته في طلب الاخرة اقوى لانها
دار المقامة روي ان قوما من الاشراف ممن دونهم اجتمعوا بباب عمر

رضي

رضي الله تعالى عنه فخرج الاذن لبلال وصهيب فشق على ابي سفيان
فقال سهيل بن عمر وانما اوتينا من قبلنا انتم دعوا ودعينا يعني الى
الاسلام فاسرعوا وابطانا وهذا بابه عمر فكيف التفاوت في الآخرة
وما بين تعالى ان الناس فريقان من يريد بعمله الدنيا فقط وهم اهل
العذاب ومنهم من يريد طاعة الله تعالى وهم اهل الثواب ثم شرط في
ذلك ثلاثة شروط فصل تلك المجملات وبداء والاشرح حقيقة
الايمان واشرف اجزاء الايمان هو التوحيد ونفي الشرك والاضداد
بقوله تعالى لا تجعل مع الله اي الذي له جميع صفات الكمال الها
آخر قيل الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره والاولى
انه للانسان فيكون خطابا عاما لكل من يصلح ان يخاطب به فتقعد
اي فتسبب عن ذلك ان تقعد اي تصير في الدنيا قبل الاخرة مذموما
مخذولا لان المشرك كاذب والكاذب يستوجب الذم والخذلان
ولانه قد ثبت بالدليل ان لا اله ولا مدبر الا الله تعالى فلم تكون جميع
النعم حاصلة من الله تعالى فمن اشرك بالله فقد اضاف بعض تلك
النعم الى غير الله فاستحق الذم والخذلان تنبيه قال الواحدي
قوله تعالى فتقعد النقيض لا يرفع بعد الفاء جوابا للنهي والنصب به
بامتناع ان تقول لا تنقطع عنا فتجيئنا والتقدير لا يكن منك ترك
انقطاع فيحصل ان تجيئنا فما بعد الفاء متعلق بالجملة المتقدمة متجردة
الفاء وانما سماه النحويون جوابا لكونه مشابها للجزاء وان الثاني مسبب
عن الاول كما تقرر مرارا ولما ذكر تعالى ما هو الركن الاعظم في الايمان اتبعه
بذكر ما هو من شعار الايمان وثمراته وذلك انواع الاول ان
يشتغل الانسان بعبادة الله تعالى ويتحرز عن عبادة غيره وهذا هو
المراد من قوله تعالى وقضى اي امر ربك اي المحسن اليك وقوله

تعالى ان لا تعبدوا اي امر ربك وحكم بجميع الناس الا اياه
وفيه وجوب عبادة الله تعالى والمنع من عبادة غيره لان العبادة عبارة
عن الفعل المشتمل على نهاية التعظيم وغاية التعظيم لا تليق الا بمن
له الانعام والافضال على عباده ولا منعم الا الله تعالى فكان هو المستحق
للعبادة لا غير ثم تنبيه روي ميمون بن مهران عن ابن عباس انه قال
في هذه الاية كان الاصل ووصى ربك فالتقت احدى الواوين
بالقضاء فقرئ وقضى ربك ثم قال ولو كان على العقبا ما عصى الله
احد قط لان قضاء الله ممتنع وهذا القول كما قاله الرازي
بعيد جدا اذ لو فتح هذا الباب لارتفع الامان عن القرآن وذلك
يخرجه عن كونه حجة ولا شك انه طعن عظيم في الدين ويندفع ما
قاله بما فسر قضى به ولما امر تعالى بعبادة نفسه اتبعه بالامر بر
الوالدين بقوله تعالى وبالوالدين اي واحسنوا اي اوقعوا الاحسان
بهما احسانا اي بان تبروهما ليكونا لكم معكم فانه مع الذين اتقوا
والذين هم محسنون وتنبيهان احدهما المناسبة بين الامر بعبادة الله
تعالى والامر ببر الوالدين من وجوه الاول ان السبب الحقيقي لوجود
الانسان هو تخليق الله تعالى وايجاده والسبب الظاهر هو الابوان
فامر الله تعالى بتعظيم السبب الحقيقي ثم اتبعه بالامر بتعظيم السبب
الظاهر الثاني ان الموجود اما قديم واما محدث ويجب ان يكون
معاملة الانسان مع الموجود القديم بالتعظيم والعبودية ومع المحدث
باظهار الشفقة وهو المراد من قوله صلى الله عليه وسلم التعظيم لامر الله
والشفقة على خلق الله واحق الخلق بالشفقة الابوان لكثرة انعامهما
على الانسان فقوله تعالى وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه اشارة الى
التعظيم لامر الله وقوله تعالى وبالوالدين احسانا الى الشفقة على خلق

الله

الله الثالث ان الاشتغال بشكر المنعم واجب ثم المنعم الحقيقي هو الخالق
سبحانه وتعالى وقد يكون بعض المخلوقين منعما عليك وشكره ايضا واجب
لقوله صلى الله عليه وسلم من لم يشكر الناس لم يشكر الله وليس احد
من المخلوقين نعمته على الانسان مثل الابوين لان الولد قطعة من
الوالدين قال صلى الله عليه وسلم فاطمة بضعة مني وانها شفقة
الوالدين على الولد عظيمة وايصال الخير الى الولد مهما امر طبيعي واحترازا
عن ايصال الضرر اليه امر طبيعي ايضا فوجب ان يكون تعظم الوالدين على
الولد كثير جدا بل هي اكثر من كل نعمة تصل من الانسان الى الانسان وانعم
حال ما يكون الانسان في غاية الضعف وغاية العجز يكون اقدام الابوين
في ذلك الوقت واصلة الى الولد واذا وقع الانعام على هذا الوجه كان
موقعه عظيما وايضا فايصال الخير الى الغير قد يكون لداعية ايصال الخير
اليه وايصال الخير الى الولد ليس لهذا الغرض فكان الانعام فيه اتم واكمل
ثبت بهذه الوجوه ان ليس لاحد من المخلوقين نعمة على غير مثل ما
للوالدين على الولد فلهذا امر الله بشكر نعمة الخالق وهو قوله تعالى
وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه ثم اردفه بشكر نعمة الوالدين وهو
قوله تعالى وبالوالدين احسانا فان قيل الولد انما طلبا تحصيل
اللذة لانفسهما فلم يرتفع دخول الولد في الوجود ودخوله في عالم الفنا
والمخالفة فاي القائم للوالدين على الولد حتى ان نفع المتسمى
بالحكمة كان يعذب اباه ويقول هو الذي ادخلني في عالم الكون والفساد
وعرضني للموت والفقر والعمى والزمانة وقيل لابي العلا المعري ما ذا
تكتب عند قبرك فقال اكتبوا على قبري هذا جناية ابي علي فما
جنيت على احد وقال في تركه التزوج والولد وتركه فيهم نعمة العدم
التي فيهم لقد سعيت لغير العاجل ولو انهم ولدوا لعانوا شدة تزري بهم

زهما

فيه مواقيت الآجل وهذا لاستدراك ذكر نعمة اعظم عليك منهم والديك ذكر فقال
الاستاذ اعظم منه لانه تحمل انواع الشدايد عني تعلمي فاوقعني في نور العلم
واما الوالد فانه طلب تحصيل لذة الوقاع فاخرجني الى افاته عالم الكون
والفساد ومن الكلمات المانوسة المشهورة خير الآباء من علمك احسب
بانه وان كان له في اول الامر طلب لذة الوقاع الا ان الاهتمام بامر الصغير
كثيرا ما يقع الافاقة عنه من اول وهلة في الوجود الى وقت بلوغ
الكبر اليس الله من جميع ما يصل اليه من هذه الخيرات والمبرات فسقط
هذه الشبهات التنبيه الثاني ان لفظ الاية يدل على معان كثيرة
كل واحد منها يوجب المبالغة في الاحسان الى الوالدين منها انه تعالى قال
في الاية المتقدمة ومن اراد الاخرة وسعى لها سعيها وهو مومن فاولئك
كان سعيهم مشكورا ثم اردفه بهذه الاية المشتملة على الاعمال التي لولاها
يحصل الفوز بسعادة الاخرة وجعل من جملتها البر بالوالدين وذلك يدل
على ان هذه الطاعة من اصول الطاعات التي تفيد سعادة الاخرة ومنها
انه تعالى بدا بذكر الامر بالتوحيد وثنى بطاعة الله وثلث ببر الوالدين
وهذه درجة عالية ومبالغة عظيمة في تعظيم هذه الطاعة ومنها انه
تعالى لم يقل واحسانا بالوالدين بل قال وبالوالدين احسانا فتقديم
ذكر بهما يدل على شدة الاهتمام بهما ومنها انه تعالى قال احسانا بلفظ
التنكير والتنكير يدل على التعظيم اي احسانا عظيما كاملا لان احسانهما
اليك قد بلغ الغاية العظيمة فوجب ان تكون احسانك اليهما كذلك
ثم على جميع التقديرات لا تحصل المكافاة لان انعامهما عليك على سبيل
الابتداء في الاصل المشمول لقوله ان الله يامر بالعدل والاحسان وانعامك
عليهما على سبيل المكافاة ولما كان سبحانه وتعالى علم بما في الطباع من ميلان الولد لهما عند اخذهما في السن
قال تعالى اما مؤكدا بانخا لها على ان الشرطية لزيادة التقرير للمعنى

اهتماما بشان الوالدين يبلغن عندك الكبر اي كانا يصيران اليك في حالة
الضعف والعجز فلا تكن لهما كما قال عيسى فيصير اعتمادك في اخر العمر كما كنت عندهما
في اوله احدهما او كلاهما وقراحمزة والكسائي بالف بعد الغين وكسر النون
فالالف ضمير الوالدين لتقدم ذكرهما واحدهما بدل منه وكلاهما عطف عليه
فاعلا او بدلا فانه يقبل هذا كان كلاهما تاكيدا لا بد للاجب بانه
معطوف على ما لا يصح ان يكون تاكيدا لشيء فوجب ان يكون مثله فان
قيل لم لا يجوز ان يكون احدهما بدلا وكلاهما تاكيدا ويكون ذلك
عطفا للتاكيد على البدل اجيب بان العطف يقتضي المغايرة فجعل
احدهما بدلا والاخر تاكيدا خلاف الاصل وقرا الباقون بغير الف وفتح
النون والاعراب على هذا ظاهر وجميع القراء شددوا النون ثم الله تعالى
امر الانسان في حق والديه بخمسة اشياء الاول منها قوله تعالى فلا تقل
لهما اف اي لا تضجر منهما قال الزجاج اف معناه التنتن وهذا قول المجاهد
لانه قال معنى قوله فلا تقل لهما اف اي لا تتقذر منهما كما انهما لا يتقذران
حين كنت تخرجه وتبوله وفي رواية اخرى عن مجاهد اذا وجدت منهما
رائحة تؤذيك فلا تقل لهما اف فلقد بالغ سبحانه وتعالى بالوصية بهما
حيث نهى الانسان اليهما بوجوهه ونظمهما في سلك الاشياء مما هو من
صميم الامر في مراعاتهما حتى يرجع في ادنى كلمة تتفلت من التضجر
مع موجبات الضجر ومقتضياته ومع احوال لا يكاد يخلو صبر الانسان
عنها في الاستطاعة وقد قال صلى الله عليه وسلم ايا كم وعقوق
الوالدين فان ريح الجنة يوجد ريحها من مسيرة الف عام ولا يجد ريحها عاق
ولا قاطع رحم ولا شيخ زان ولا جار ازاره خيلاء الا الكبر ياء لله رب العالمين
وسئل الفضيل بن عياض عن بر الوالدين فقال لا يقوم الى حدمتهما عن
كسل وقرا نافع وحفص بالتنوين في الفاتح الكسر وابن كثير وابن عامر

بفتح الفا من غير تنوين والباقون بكسر الفا من غير تنوين الثاني قوله تعالى
ولا تنهرهما اي لا تزجرهما مما يتباطيانه مما لا يعجبك يقال نهره وانتهره اذا
استقبله بكلام يزجره قال تعالى واما السايل فلا تنهر فان قيل المنع من
الثاني فيه دليل على المنع من الاول بالاولى فما فايدة ذكره اجيب بان المراد
بالمنع من الثاني تحقيق المنع من اظهار الضجر بالقليل والكثير والمراد من منع
الاول المنع من اظهار المخالفة في القول على سبيل الرد عليهما والتكذيب
لهما الثالث قوله تعالى وقل لهما قولا كريما اي حسنا جميلا كما لقيناه يقتضيه
حسن الادب معهما قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه هو ان يقول يا ابتاه
يا اماه وسيل سعيد بن المسيب عن القول الكريم فقال هو قول العبد
المذنب للسيد الفظ الغليظ وعن علي انه قال هو ان يتكلم معهما ببشر
ان لا يرفع اليهما نظره وذلك ان هذين الفعلين ينافيان القول الكريم فان
قيل ابراهيم الخليل عليه السلام قال لابيه اني اراك وقومك في ضلال
مبين مع انه عليه السلام من اعظم الناس ادبا وعلما وكرما اجيب
بان حق الله تعالى مقدم على حق الابوين فلما قدام ابراهيم على ذلك لانه
انما كان تقديما لحق الله تعالى آل الرابع قوله تعالى واخفض لهما جناح الذل من
الرحمة اي لا من اجل الاتكال بالامر وحوف النار فقط بل من اجل الرحمة
لهما بان لا تزال تذكر نفسك بالاوامر والنواهي وبما تقدم لهما من الاحسان
اليك والمقصود المبالغة في التواضع وهنا استعارة بليغة قال المقال
وفي تقريره وجهان الاول ان الطاير اذا اراد ضم فرخه اليه للتربية خفض
له جناحه فلما صار خفض الجناح كناية عن التربية فكانه قال للولد لين
الفعل والديك بان تضم هما الي نفسك كما فعلا ذلك بك حال صغرك والثاني
ان الطاير اذا اراد الطيران نشر جناحيه ورفعهما ليرتفع فاذا اراد تركه
الطيران خفض جناحيه فجعل خفض الجناح كناية عن التواضع واللين فان

جنس ع

قيل

قيل كيف اضاف الجناح الي الذل والذل لا جناح له اجيب بوجهين الاول
انه اضيف الجناح الي الذل كما يقال حاتم الجود فكما ان المراد هناك حاتم الجواد
فكذلك هنا المراد اخفض لهما جناحك الذليل الثاني ان هذا الاستعارة
على الخيلات فمنها تخيل للذل جناحا خفيضا كما جعل لليد الشمال يدا ولليسرة
زماما في قوله وعذاة ريح قد كشفت وقرة اذا اصبحت بيد الشمال زمامها
فاثبت لشمال يدا ولليسرة زماما ووضع زمامها في يد الشمال فكذا هنا
ومن طريق ما حكي ان ابا تمام لما نظم قوله لا تسقني ماء الملام فانني
صب قد استعذبت ماء بكاي جاء رجل بقصعة وقال له اعطني بثلاثين مما
الملام فقال له رحمك الله ما تبغي بريشة من جناح الذل يريد ان هذا من باب استعارة
لذلك وقال بعضهم راشوا اجنحاني راسوا اجناحي ثم قبلوه بالنداء فلما استعلم
منهم علي ابا الخامس من قوله تعالى وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا
اي لا تكتفي برحمتك عليهما التي لا بقاء لهما وادع الله ان يرحمهما رحمة الباقية
واجعل ذلك جزاء لرحمتهما عليك في صغرك وتربيتهما لك هذا اذا كانا مسلمين
فان كانا كافرين فان الدعا لهما بالرحمة منسوخ في قوله تعالى ما كان للنبي
والذين امنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولي قربى بل يدعو الله
لهما بالهداية والارشاد فاذا هداهما فقد رحمهما وسيل بعضهم عن بر
الوالدين فقال ان ترفع صوتك عليهما ولا تنظر اليهما شزرا ولا تريا منه
مخالفة في ظاهر ولا باطن وان ترحم عليهما ما عاشا وتدعو لهما اذا ماتا
وتقوم بحمد مواعدها من بعدهما لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم انه قال
من اذا البر ان يصل الرجل اهل ود ابيه لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم
تنبيه قد ورد في بر الوالدين احاديث كثيرة منها ما روي عن ابي هريرة
رضي الله تعالى عنه انه قال لجا رجل الي النبي صلى الله عليه وسلم فقال
يا رسول الله من احق الناس بحسن صحبتي قال امك ثم امك ثم امك ثم ابوك ثم ادناك

عمر ادناك فادناك ومنها عنه ايضا انه قال سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول رغم انف رغم انف رغم انف قيل من يا رسول الله قال من ادرك والديه او احدهما عند الكبر فلم يدخل الجنة ومنها
مارويه عنه ايضا انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجزي
ولد والده الا ان يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه ومنها مارويه عن عبد
الله بن عمرو بن العاص انه قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه
وسلم يستاذنه في الجهاد فقال احي والداك قال نعم قال ففيهما فجاهد
ومنها مارواه الترمذي انه صلى الله عليه وسلم قال رغم انف ثم رغم انف ثم رغم انف
الوالدين وسخط الرب في سخط الوالدين ومنها مارويه عن ابي الدرداء
انه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم الوالد اوسط ابواب الجنة
فحافظ ان شئت او ضيع ومنها مارويه عن ابن مسعود رضي الله تعالى
عنه انه قال سالت رسول الله صلى الله عليه وسلم اي العمل احب الى الله
تعالى قال الصلاة في وقتها قلت ثم اي قال بر الوالدين قلت ثم اي قال
الجهاد في سبيل الله وسئل ابن عيينة عن الصدقة عن الميت فقال ذلك
واصل اليه ولا شيء انفع له من الاستغفار ولو كان شيء افضل منه
للعركم به في الوالدين ولقد كرر سبحانه وتعالى في كتابه العزيز
الوصية بالوالدين ومنها مارويه انه صلى الله عليه وسلم قال رضي
الله في رضي الوالدين وسخطه في سخطهما ومنها مارويه عن سعيد
ابن المسيب ان البار بوالديه لا يموت ميتة سوء ومنها مارويه ايضا ان
رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابوايا بلغا من الكبر اني
اليهما ما وليا مني في الصغر فهل قضيتهما قال لا فانهما كانا يفعلان
ذلك بك وانت تفعل ذلك وانت تريد موتهما ومنها مارواه
ابو هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم رغم انف رجل اتى عليه

شهر

شهر رمضان فلم يغفر له ورغم انف رجل ادرك ابويه الكبر فلم يدخلا الجنة
ومنها مارويه ان رجلا شكى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم اباه وانه
ياخذ ماله فدعاه فاذا هو شيخ يتوكا على عصى فساله فقال انه كان ضعيفا
وانا قوي وفقيرا وانا غني فكنت لا امنعه شيئا من مالي واليوم انا ضعيف
وهو قوي وانا فقير وهو غني ويبخل علي بماله فبكى رسول الله صلى الله
عليه وسلم وقال ما من حجر ولا مدر يسمع لهذا الا بكى ثم قال للولد انت ومالك
لابيك وشكى اليه آخر سوء خلق امه فقال لم تكن سيئة الخلق حين حملتك
تسعة اشهر قال اجل قال اما سيئة الخلق قال لم يكن كذلك حين اسهرت لكي ليلها
واظمات لكي نهارها قال لقد جازيتها قال ما فعلت قال بلى قال فحجتك على
عنقي قال ما جزيتها وعن ابن عمر انه راى رجلا في الطواف يحمل امه
ويقول انا لها مطيته لا تذعر ان اذعر كابيه فترت لا تنفر ما حملت
وارضعتني اكثر انت بذاك والجلال الاكبر تظنني جزيتها يا ابن عمر
قال لا والله ولا زفرة واحدة ولما كان ما ذكر في حق الوالدين عسر جدا
جيء من اجله بما يشار به اشار بقوله تعالى ربكم اي المحسن اليكم في الحقيقة
فانه هو الذي عطف عليكم من ربكم وهو الذي اعانهم على ذلك اعلم
اي من كل احد بما في نفوسكم من قصد البر بهما وغيره فلا يظهر احد منكم غير
ما يليق فان ذلك لا ينفعه ولا يجديه الا ان يحمل نفسه على ما يكون
سببا لرحمتهما ان تكونوا صالحين اي متقين محسنين في نفس الامر والصالح
استقامة الفعل على ما يدعو الدليل اليه واشار تعالى الى انه لا يكون
ذلك الا بمجالجة النفس وترجيمها كرة بعد كرة بقوله تعالى فانه كان
للاوابين اي الراجعين الى اكثر مرة اثر مرة بعد جماح انفسهم عنه غفورا
اي بالغ الستر ممن وقع منه تقصير فرجع عنه فانه مغفور له والحاصل
تعالى على الاحسان للوالدين بالخصوص عم بالامر بالاحسان لكل

ذي قرابة وبرحم وعنه بقوله تعالى **وآت ذا القربى** من جهة الاب او الام
واذ بعد حقه والخطاب لكل احد اذ يوتى اقاربه حقوقهم من صلة الرحم
والمودة والزيارة وحسن المعاشرة والمعاضدة ونحو ذلك وقيل اذ كانوا
محتاجين ومحاويج وهو يوسر لزومه الانفاق عليهم عند ابي حنيفة وقال
الشافعي لا يلزم الا نفقة الوالد على ولده والولد على والده وقيل المراد
بالقرابة في آية رسول الله صلى الله عليه وسلم **وآت المسكين**
حقه واذ لم يكن قريبا **وآت ابن السبيل** وهو المسافر المنقطع عن ماله
ليكون له حقا محققا محسنا ولما رغب تعالى في العدل وكافة النفس قل ما يكون
فعلهما قوامها بين الاوراط والتفريط اتبع ذلك بقوله تعالى **ولا تبذر**
بتفريق المال سرفا وهو بذله في ما لا ينبغي وقد كانت الجاهلية يبذرون
اموالهم في الخمر والسمعة وتذكر ذلك في اشعارها فامر الله تعالى بالنفقة
في وجوهها ما يقرب منه ويزلف اليه وفي قوله تعالى **تبذيرا** تنبيه
على ان الارتفاع عن ساحة التبذير اولى من الهبوط الى ضفتي
الشح والتقتير والتبذير بسط اليد في المال على حسب الهوى وقد
سئل ابن مسعود عن التبذير فقال انفاق المال في غير محله واما
الجود فهو اتباع امر الله تعالى في حقوق المال وعن مجاهد لو انفق
الانسان ماله كله في الحق ما كان تبذيرا ولو انفق مدا في باطل
كان تبذيرا وقد انفق بعضهم نفقة في خير فاكثر فقال له صاحبه
لا خير في السرف فقال لا سرف في الخير وعن عبد الله بن عمر قال مر
رسول الله صلى الله عليه وسلم بسعد وهو يتوضا فقال ما هذا السرف
يا سعد قال اني الوضوء سرف قال نعم وان كنت على نهر جار يعني انه
تعالى على قبح التبذير باضافته اياه الى افعال الشياطين بقوله
تعالى **ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين** على طريقتهم او هم اخوانهم

واحد قادهم

واحد فاوبهم لانهم يطيعونهم فيما يامرونهم به من الاسراف او يهم قرناؤهم
وهم في النار على سبيل الوعيد مع انه تعالى بين صفة الشيطان بقوله تعالى
وكان الشيطان اي هذا الجنس البعيد من كل خير المحترق بكل شر **لربه**
اي الذي احسن اليه بايجاده وتربيته **كفورا** اي بستوجبا على ستره من اياته
الظاهرة ونعمته الباهرة مع الحجة فلا ينبغي ان يطاع لانه لا يدعو الا
مثل فعله قال بعض العلماء خرجت هذه الاية على وفق عادة العرب وذلك
لانهم كانوا يجمعون الاموال بالنهب والغارة ثم كانوا ينفقونها في الخيلاء
والتفاخر وكان المشركون من قريش وغيرهم ينفقون اموالهم ليصدوا
الناس عن الاسلام ويقوون اهله واعانة اعدائه فنزلت هذه الاية
تنبيها على قبح افعالهم في هذا الباب وقوله تعالى **فاما ترضن عنهم ابتغاء**
رحمة من ربك ترجوها نزل في مهجع وبلال وصهيب وسالم وخباب
وكانوا يسالون النبي صلى الله عليه وسلم في الاحايين ما يحتاجون اليه
ولا يجد فيعرض عن عمهم حياء منهم ويمسك لانتظار رزق من الله تعالى
يرجوه ان ياتيه فيعطيهم **فقل لهم** اي حالة الاعراض **قولا ميسورا**
اي ذا يسر يسرح صدورهم ويبسط رجاءهم لان ذلك اقرب الى طريق
اليقين المحسن قال ابو حيان روي انه عليه الصلاة والسلام كان بعد
نزول هذه الاية اذا لم يكن عنده ما يعطي وسيل قال يقول يرزقنا
الله واياكم من فضله اه وقد وقع هذه الابتغاء موضع الفقر لان فاقد
الرزق يبتغي له فكانه الفقر بسبب الابتغاء والابتغاء مسببا عنه فوضع
المسبب موضع السبب ثم امر تعالى نبيه بما وصف له عبادة المومنين
في الانفاق في سورة الفرقان بقوله تعالى والذين اذا انفقوا لم يسرفوا
ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما فقال تعالى **ولا تجعل يدك** اي
بالبخل **مغلولة** اي كانما بالغل ممنوعة مشدودة بالغل **الى عنقك** اي لا تستطيع

عنها اي لاتمسك عن الانفاق بحيث تضيق على نفسك واهلك في وجوه
صلة الرحم وسبيل الخيرات والمعنى لاتجعل يدك في انقباضها كالمغلولة
الممنوعة من الانبساط ولاتبسطها بالبذل كل البسط فتبذر بحيث لايبقى
في يدك شيء ذكر ذلك كما في كتب الاخلاق ان لكل خلق طرفي افراط وتفريط
وهما مذمومان وخلق الفاضل هو العدل والوسط فالبخل افراط
في الامساك والتبذير افراط في الانفاق وهما مذمومان والمعتدل
هو الوسط وعن جابر اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم صبي فقال
يا رسول الله ان امي تستكسيك درعا اي قميصا ولم يكن لرسول الله
صلى الله عليه وسلم الا قميصه فقال للصبي من ساعة الى ساعة
هذا متعلق بمحذوف اي اجز سوالك من ساعة ليس فيها درع الى
ساعة يظهر لنا فيها درع فقد الينا فذهب الى امه فقالت له قل له
ان امي تستكسيك الدرع الذي عليك فدخل رسول الله صلى
الله عليه وسلم ونزع قميصه فاعطاه وقعد عريانا اي في ازاره
ونحوه فاذن بلال بالصلاة فانتظروه فلم يخرج فشغل قلوب اصحابه
فدخل عليه بعضهم فراه عريانا فانزل الله ولا تجعل يدك مغلولة
الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد جميع ما عندك تتبسه ماذكر
عن جابر تبعا للكشاف والبيضاوي والرازي وغيرهم قال العراقي
لم اقف عليه وكذا قال الحافظ ابن حجر وقد يقال من حفظ
حجة على من لم يحفظ فتقعد اي توجد كالمتعد ملوما اي بليغ الرسن
فيما يلام بسببه عند الله لان ذلك مما نهى الله عنه عند نفسك
وعند الناس لانه يلوم نفسه واصحابه وايضا يلوم من نهاه على تضييع
المال بالكلية محسورا اي منقطعا بك لذهاب ما تتوى به قال
القفال شبه حال من انفق كل ماله بمن انقطع في سفره بسبب انقطاع

مطيته لان ذلك المقدار من المال كانه مطية تحمل الانسان الى اخر
الشهر والسنة كما ان ذلك البعير يحمله ويبلغه الى آخر المنزل فاذا
انقطع ذلك البعير بقي في وسط الطريق عاجزا متحيرا فكذلك الانسان
اذا انفق مقدار ما يحتاج اليه في مدة شهر بقي في وسط ذلك
الشهر عاجزا متحيرا ومن فعل ذلك لحقه اللوم من اهله والمحتاجين
الى انفاقه عليهم بسبب سوء تدبيره وتركه التدبر في مهمات معاشه
ثم قال تعالى لتنبيه صلى الله عليه وسلم ان ربك اي المحسن اليك
يبسط الرزق اي يوسعه لمن يشاء البسط دون غيره ويقدر اي يضيقه
سواء قبض يعلم بسطها لان الرب هو الذي يربي المربوب ويقوم باصلاح
مهماته ورفع درجاته على مقدار الصلاح في الصواب فيوسع الرزق
على البعض ويضيقه على البعض لان ذلك هو الصلاح قال تعالى
ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض ولكن ينزل بقدر ما يشاء
انه كان بعباده خبيرا اي بالغ الخبر بصيرا اي بالغ البصر بما يكون من كل من
القبض والبسط لهم مصلحة ومفسدة فالتفاوت في انه اتى الغنا
ليس لاجل بخل بل لاجل رعاية مصلحته لا يعلم بها العبد سبحان المقتدر
في عباده كيف شاء ولما امر سبحانه وتعالى الوصية بالاصول ذكر
مع ذلك اوصى بالفروع بقوله تعالى ولا تقتلوا اولادكم فذكرهم
بلفظ الواحد الذي هو داعية الى العطف والعطف خشية املاق
اي فقر متوقع لم يقع بعد ثم وصل بذلك استيناف بقوله تعالى نحن
نرزقهم وايا كم معتمدا على ضمير الاولاد لكون الاملاق مترقبا من
الانفاق عليهم ثم علل تعالى ذلك بما هو اعم منه فقال تعالى ان
قتلهم اي مطلقا كمنه او لغيره كان خطا اي اثما كبيرا اي عظيما وقرا
ابن كثير بفتح الطاء وبعدها الف مدا متصلا وقرا ابن ذكوان بفتح الخاء والطاء

ولا حد بعد الطاء والباء تون بكسر الخاء وسكون الطاء قال الرماني الخطا بكسر
ثم سكون لا يكون الا تعمدا الى خلاف الصواب والخطا اي بحركا قد يكون
من غير تعمد وانما وجب بر الاولاد لامور احدها انهم في غاية الضعف
والكافل لهم غير الوالدين وانما وجب بر الوالدين مكافاة لما صدر منهما
من انواع البر الى الوالد الثاني اذ امتناع الاباء من البر بالاولاد
يقتضي حراب العالم الثالث اذ قرابة الولادة قرابة لجزئية والبعضية
والبر من اعظم الموجبات للمحبة فلو لم تكفل المحبة دل ذلك على غلظ
شديد في الروح وقسوة في القلب وذلك من اعظم الاخلاق المذمومة
الذميمة نزعه الله تعالى في الاحسان الى الاولاد ازالة لهذه
الخصلة الذميمة وغير تعالى بالاولاد ليشمل الاناث فان العرب
كانوا يقتلون البنات لعجز البنات عن الكسب وقلة البنين عليه
بسبب اقدامهم على النهب والغارة وايضا كانوا يخافون ان يسبين بعد
كبرهن تفتقد اكفاؤهن فيحتاجون الى نكاحهن من غير اكفاء وفي ذلك
عار شديد فنهاهم الله تعالى عن ذلك فان الموجب للرحمة الشفقة
هو كونه ولدا وهذا المعنى وصف مشترك بين الذكور والاناث
واما ما يخاف من الفقر في البنات فقد يخاف مثله في الذكور في
حال الصغر وقد يخاف ايضا في العاجزين من البنين وكما انه سبحانه
وتعالى يفتح ابواب الرزق على الذكور فكذلك على الاناث ولما
كان في قتل الاولاد حظ من الخجل وفي فعل الزنا نوع من الاشاعة
والفضيحة فقال تعالى ولا تقربوا الزنا اي لا تقربوا شيئا من مقدماته
وانما ابقى تعالى بالقربان تنفيرا له لما فيه من المفاسد اضافة الى
القتل بالقتل وتفضيح النسب والتسبب في ايجاد نفس بالباطل وغير
ذلك ثم علل تعالى النهي عن ذلك بقوله تعالى مؤكدا ابلاغا في التنفير

عنه

عنه لما للنفس من شدة الداعية اليه انه كان فاحشة اي فعلة ظاهرة
القبح من الديانة وقد نهانا كرما لله تعالى عن الفحشاء في قوله تعالى ان الله
يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء وساء
اي وبئس الزنا سبيلا اي طريقا طريقه ثم نهى سبحانه وتعالى عن
القتل مطلقا عن التقييد بالاولاد بغير حق بقوله تعالى ولا تقتلوا
النفس التي حرم الله بالاسلام والعهد الا بالحق وهو المبيح للقتل
من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لا يحل دم امرء مسلم الا باحدى
ثلاث رجل كفر بالله من بعد ايمانه وزنا بعد احصانه او قتل نفسا
بغير حق ومثل انتقال المسلم من دين الاسلام الى دين الكفر انتقال
كافر من دين الى دين آخر سواء كان ذلك الدين يقر عليه ام لا ومن
ذلك قوله تعالى قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر
وقوله تعالى انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في
الارض فسادا ان يقتلوا او يصلبوا واختلف الفقهاء في اشياء
غير ذلك منها اذا تارك الصلاة كسلا هل يقتل فعند الشافعي
يقتل بشروط معلومة وعند ابي حنيفة لا يقتل التارك كالزاني
ومنها اذا عمل اللواط هل يوجب القتل فعند الشافعي يوجب قتل
الفاعل كالزاني وعند ابي حنيفة لا يوجبه ومنها ان الساحر اذا
قال قتلت فلانا بسحري عمدا هل يوجب القتل فعند الشافعي يوجبه
وعند ابي حنيفة لا يوجب ومنها ان القتل بالمثقل هل يوجب
القصاص فعند الشافعي يوجب وعند ابي حنيفة لا يوجب ومنها
الامتناع من اداء الزكاة هل يوجب القتل واختلفوا فيه في زمان
ابي بكر ومنها اذا تيان البهيمة هل يوجب القتل فعند اكثر الفقهاء
لا يوجب وعند قوم يوجبه وكل من ذكر دلة يستدل بها رضي الله

تعالي عنهم ثم قال تعالي ومن قتل مظلوما اي باي ظلم كان من غير ان
يرتكب ما يبيح قتله فقد جعلنا لوليه اي سواء كان قريبا ام بعيدا سلطانا
اي امرا مسلطا وقوله تعالي فلا يسرف في القتل فراجع والكسائي
بالتاء على الخطاب اي ايها الولي والباقون بالياء على الغيبة اي الولي
وفسر الاسراف بوجوه الاول ان يقتل القاتل وغير القاتل وذلك
ان اولياء المقتول كانوا اذا قتل واحد من قبيلة شريفة قتلوا خلقا
من القبيلة الدنية فنهي الله تعالي عنه وحكم بقتل القاتل وحده
الثاني ان الاسراف هو ان لا يرضي بقتل القاتل فان ذلك كان حاصلا عليه كانوا
يقصدون اشرف القبائل ثم يقتلون منهم قولا ما معينين ويتركون
القاتل الثالث الاسراف هو ان لا يكتفي بقتل القاتل بل يقتله
ثم يمثل به ويقطع اعضاءه قال القفال ولا يبعد حمله على الكل
لان حمله على هذه المعاني مشتركة في كونها اسرافا واختلف
في رجوع الهاء الي ماذا في قوله تعالي انه كان منصورا فقال
مجاهد راجعة الي المقتول في قوله تعالي ومن قتل مظلوما اي
ان المقتول منصور في الدنيا في الدنيا بايجاب القود على قاتله
وفي الاخرة بتكفير خطاياه وايجاب النار لقاتله وقال قتادة
راجعة لولي المقتول اي انه منصور على القاتل باستيفاء
القصاص او الدية فليكتف بهذا القدر ولا يطمع في الزيادة
وقيل راجعة الي القاتل المظلوم اي ان القاتل يكتفي منه
باستيفاء القصاص ولا يطلب منه زيادة لانه منصور من جهة
الله تعالي في ثم بعد طلب الزيادة منه او انه اذا عوقب في الدنيا
بازيد مما فعل نصر في الاخرة وقيل راجعة الي الدم وقيل الي التحي ولما
ذكر تعالي النهي عن اتلاف النفوس اتبعه بالنهي عن اتلاف الاموال

لان

لان اعز الاشياء بعد النفوس الاموال واحق الناس بالنهي عن اتلاف
اموالهم هو اليتيم لانه لصغره وضعفه وكمال عجزه يعظم ضرره باتلاف
ماله فلهذا السبب خصهم الله تعالي بالنهي عن اتلاف اموالهم بقوله
تعالي ولا تقربوا مال اليتيم عبر بالقرب الذي هو قبل الاخذ تعظيما للمنهي
فهو ابلغ من قوله تعالي ولا تاكلوها اسرافا وبدارا في تفسير قوله تعالي
الا بالتي هي احسن وجهان الاول الا التصرف الذي يتميه ويكثره الثاني
روي عن مجاهد عن ابن عباس انه قال اذا احتاج اكل بالمعروف فاذا
ايسر قضاه فان لم يوسر فلا شيء عليه والولي تبقى ولايته على اليتيم
حتى يبلغ اشده وهو ايناس الرشد منه بعد بلوغه كما بين تعالي
ذلك في اية اخري وهو قوله تعالي وابتلوا اليتامي حتى اذا بلغوا النكاح
فان انستم منهم رشدا فادفعوا اليهم اموالهم والمعني بكماله وبتعالي
عن ثلاثة اشياء وهي الزنا والقتل واكل مال اليتيم انهما ثلاثة اوامر
الاول قوله تعالي واوفوا بالعهد اي اذا عاهدتم الله تعالي على فعل
المامورات وترك المنهيات او الناس على فعل او قول جائز وفي
تفسير قوله تعالي ان العهد كان مسئولا وجوه الاول ان يراد ان صاحب
العهد كان مسئولا فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه كقوله
تعالي واسال القرية ثانيها ان العهد كان مسئولا اي مطلوبا
يطلب من المعاهد ان لا يضيعه وينبغي ان يكون هذا تخييلا
كانه قيل للعهد لم نكثت وعلاما وفي اي ذنب نكثت كما يقال
للموؤدة باي ذنب قتلت وكقوله تعالي ليسئل عليه السلام والانكار
علي غير الامر الثاني في قوله تعالي واوفوا الكيل اذا كلتم اي لغيركم فان
كيلكم لانفسكم فلا جناح عليكم اذا نقصتم عن حقكم ولم تنوا الكيل الامر
الثالث قوله تعالي وزنوا اي وزنا ملتبسا بالقسطاس اي ميزان

العدل الذي هو اقوم الموازين وزاد في تاكيد معناه فقال المستقيم
دون شيء من الحيف تنبيه القسطاس رد علي عرب ولا يقدح ذلك
في عربية القرآن لان العجمي اذا استعملته العرب واجرته مجري كلامهم
في الاعراب والتعريف والتنكير ونحوها صار عربيا وتراجعوا
وحمزة والكسائي بكسر القاف والباقون بضمها ذلك اي الامر العالي
الرتبة الذي اخبرنا كم به من الايفاء بالتمام والكمال خير لكم في الدنيا
الدنيا والاخرة من التطفيف بالكيل والوزن من حيث ان
الانسان يتخلص بواسطة عن الذكر القبيح في الدنيا والعذاب
الشديد في الاخرة وان تراي الكمران التطفيف واحسن تاويلا
اي عاقبة في الدارين اما في الدنيا فلانه اذا اشتهر بالاحتراز
عن التطفيف عول الناس عليه ومالت اليه القلوب وحصل
له الاستغناء في الزمان القليل وكم رايناه من الفقراء اشتهر عند
الناس بالامانة والاحتراز عن الخيانة انقلبت القلوب عليهم
وحصلت الاموال الكثيرة لهم واما في الاخرة فالفوز بالثواب
العظيم والخلاص من العقاب الاليم والتاويل وهو تفعيل من
الاول وهو الرجوع وافعل التفضيل هنا للاستعمال التعفة
يا رخا العنان اي علي تقدير ان يكون في كل منهما خير فهذا المعنى
الذي ذكرناه ان يدخر والعاقل لا يرضى لنفسه بالدون وتما
شرح الله تعالى الاوامر الثلاثة عاد الي ذكر النواهي فنهي عن
ثلاثة اشياء اولها قوله تعالى ولا تقف اي لا تتبع ايها الانسان
ما ليس لك به علم من قول او فعل وحاصله يرجع الي النهي عن
الحكم بما لا يكون معلوما وهو قضية كلية يندرج تحتها انواع
كثيرة واختلف المفسرون فيها فقال ابن عباس لا شهادة الا بما

رايته

رايته عيناك وسمعته اذناك ووعاه قلبك وقال قتادة لا تقل
سمعت ولم تسمع ورايت ولم تر وعلمت ولم تعلم وقيل المراد النهي عن
القذف وقيل المراد النهي عن الكذب وقيل المراد نهي المشركين عن
اعتقاداتهم وتقليدهم اسلافهم لان الله تعالى نبههم في تلك العقايد
الي الدليل الجلي فقال تعالى ان هي الا اسماء سميتموها انتم وابائكم
ما انزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوي الانفس وقيل
التقفو هو البهت واصله من القفا كانه يقال خلفه وهو في معني الغيبة
قال صلي الله عليه وسلم من قفا مومنا بما ليس فيه حبسه الله
تعالي في ردغة الخبال رواه الطبراني وغيره وردغة بسكون الدال
وفتحها عصاره اهل النار وقال الكميت ولا ارمي البرايا بغير ذنب
ولا اقفي الحواصنات بغيبا بينا تقفيا للمفعول والحواصنات النسا
العفايف واللفظ عام يتناول الكل فلا معني للتقييد تنبيه يقال
فوت اثر فلان اقفوا اذا اتبعت اثره وسميت قافيه الشعر قافية
لان البيت يقفو البيت وسميت القبيلة المشهورة بالقافة لانهم
يقفون اثار اقفاريهم او اثار اقدام الناس ويستدلون بها علي
احوال الناس وقال تعالى ثم قفينا علي اثارهم برسلنا وسمي القفا
قفا لانه موخر بدن الانسان فان مشي تبعه ويقفوه فان قيل
ان هذه الاية تدل علي منع القياس فانه لا يفيد الظن والظن
مغاير للعلم اجيب بان ذلك عام دخله التخصيص فان الحكم
في الدين بمجرد الظن جايز باجماع الامة وبان المراد بالعلم هو الاعتقاد
الراجح المستفاد من سند سواء كان قطعيا ام ظنيا واستعماله
بهذا المعني شايع ذايع وقد استعمل في مسايل كثيرة منها ان العمل
بالشهادة عمل بالظن ومنها الاجتهاد في طلب القبلة ولا يفيد الا

الظن ومنها قسم المتلف تواريث الجنايات لا سبيل بها الا بالظن ومنها
بعث الحكمين في الشقاق قال تعالى وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا
حكما من اهله وحكما من اهلها وحصول ذلك الشقاق مظنون لا معلوم
ومنها الحكم على الشخص المعين بكونه مؤمنا مظنون ويبنى على هذا
الظن احكام كثيرة منها حصول التوارث ومنها الدفن في مقابر المسلمين
ومنها الاعتماد على صدق الاحد قاد وعدالة الاعداكلها مظنونة وبنا
الامر على تلك الظنون وقال صلى الله عليه وسلم نحن نحكم بالظاهر
والله يتولى السرائر وذلك تقريح بان الظن معتبر فبطل قول من يقول
لا يجوز بنا الامر على الظن ثم علل تعالى النهي بحرفا بقوله تعالى ان
السمع والبصر وسماطريقا الادراك والفواد الذي هو آلة الادراك
ثم قول تعالى الامر بقوله تعالى كل اولئك هذه الاشياء العظيمة
العالية المكتنفة البديعة التكوين تنبيه اولا على جميع اسماء الاشياء
بشارة بما للعاقل وغيره كقول الشاعر: ذم المنازل بعد منزلة اللوى
والعيش بعد اولئك الايام: يجوز في ذم فتح الميم وكسرها وضمها
وقوله بعد منزلة اللوى اي بعد مفارقتها والاضافة في منزلة اللوى
للبيان وهو ممدود ولكن قصره هنا للضرورة والعيش عطف
على المنازل والايام صفة لاسم الاشارة فعطف بيان له كان
عنه اي بوعد لا خلف فيه مسئولا بسؤال يخصه تنبيه ظاهر
الاية يدل على ان الجوارح مسئولة وفيه وجوه الاول معناه ان
صاحب السمع والبصر والفواد وهو المسئول لان السؤال لا يصح
الا ممن كان عاقلا وهذه الجوارح ليست كذلك بل العاقل القائم
هو الانسان كقوله تعالى واسئل القرية اي اهلها والمعنى اذا قال
يقال للانسان لم سمعت ما لم يحل سماعه ولم نظرت ما لم يحل نظره ولم

عزمت

عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه الثاني ان تقدير الاية انا اولئك
الاقوام كلهم مسئولون عن السمع والبصر والفواد فيقال لهم استعملتم
السمع فيما ذا اني الطاعة ام في المعصية وكذا القول في بقية الاعضاء
وذلك لان الحواس آلات النفس والنفس كالامير لها والمستعمل لها في
معاصيها فاذا استعملها في المحرمات استوجب العقاب وان استعملها
في الطاعات استحق الثواب الثالث ان الله تعالى يخلق الحياة في الاعضاء
ثم انها تسأل لقوله تعالى يوم تشهد عليهم السنتهم وايديهم وارجلهم
بما كانوا يعملون فكذلك لا يبعد ان يخلق العقل والحياة والنطق
في هذه الاعضاء ثم انها تسأل روي عن شكل بن حميد قال اتيت النبي
صلى الله عليه وسلم فقلت يا نبي الله علمني تعويذا اتعوذ به فاخذ
بيدي ثم قال قل اعوذ بك من شر سمعي وشر بصري وشر لساني
وشر قلبي وشر منيي قال فحفظتها قال سعد المنيي ماؤه الفهم التاكيد
قوله تعالى ولا تمش في الارض اي جنسها مرحا اي ذا مرح وهو شدة الفرح
والمراد من الاية النهي عن ان يمشي الانسان مشايدل على الكبر يا
والعظمة قال الزجاج ولا تمش في الارض مختالا فخورا ونظيره قوله
تعالى في سورة الفرقان وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض
هونا وقال تعالى في سورة لقمان واقصد في مشيك واغضض من صوتك
وقال تعالى فيها ولا تمش في الارض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور
ثم علل تعالى النهي عن ذلك بقوله تعالى انك لن تخرق الارض اي
تقطعها حتى تبلغ اخرها بكبرك ولن تبلغ الجبال طولا اي بتطاولك
وهو تهكم بالمختال لان الاختيال حماقة مجردة لا يفيد شيا ليس في التذلل
وفي ذلك اشارة الى ان العبد ضعيف لا يقدر على خرق ارض ولا وصول
الى جبال فهو محاط به من فوقه وتحته بنو عين من اتجاه الله وهو ضعيف

منهما كثير والضعيف المحصور لا يليق به التكبر كما قيل له تواضع ولا تتكبر
فانك خلق من خلق الله محصور بين حياة وتراب فلا تفعل فعل المقدور
القوي وقيل ذكر ذلك لان من مشى خيلاء يمشي مرة على عقبيه ومرة
على صدور قدميه فقيل له انك لن تثقب الارض ان مشيت على عقبيك
ولن تبلغ الجبال طولا ان مشيت على صدور قدميك قال علي رضي الله
تعالى عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مشى تكفأ تكفيا كانما
ينحط من صبب وروى ابو هريرة رضي الله تعالى عنه قال ما رايت احدا
من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان الشمر تجري من وجهه وما رايت
احدا اسرع في مشيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم كانما الارض
تطوي له انا لنجتهد انفسنا وانه غير مكترث وقوله تعالى كل ذلك
اشارة الى ما نهي عنه مما تقدم فان الذي تقدم منهيات وما مورات
وجملة ذلك من قوله تعالى ولا تجعل مع الله الها الى هنا خمسة وعشرة
وها انا اسردها لك تسهيلا عليك فاولها لا تجعل مع الله الها اخر
وثانيها وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه لاستثنائه على تاكيد
الامر بعبادة الله تعالى والنهي عن عبادة غيره ايها وبالوالدين احسانا
خامسها فلا تقل لهما اف سادسها ولا تنهرهما سابعها وقل لهما قولا كريما
ثامنها واخفض لهما جناح الذل من الرحمة تاسعها وقل رب ارحمهما كما ربياني
صغيرا عاشرها وآت ذا القربى حقه حادي عشرها والمسكين
ثاني عشرها وابن السبيل ثالث عشرها ولا تبذر تبذيرا رابع عشرها
فتقعد ملوما خامس عشرها ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك
سادس عشرها ولا تبسطها كل البسط سابع عشرها ولا تقتلوا اولادكم
ثامن عشرها ولا تقتلوا النفس تاسع عشرها ومن قتل مظلوما فقد جعلنا
لوليه سلطانا عشرونها فلا يسرف في القتل حادي عشرينها واوفوا بالعهد

ثالث عشرينها وزنوا بالقسطاس المستقيم رابع عشرينها ولا تقف ما ليس لك
به علم خامس عشرينها ولا تمش في الارض مرحا فكل هذه الكليات بعضها
اوامر وبعضها نواهي فالمنهي عنه هو الذي قال تعالى فيه كان سيئة
عند ربك مكروها اي بيغضه والعاقل لا يفعل ما يكره المحسن اليه
وقرا نافع وابن كثير وابو عمرو بفتح الهمزة وبالتاء منونة منصوبة
وقرا الباقون بضم الهمزة والهاء مضافة من غير تنوين والمعنى على هذا
ظاهر اي ان سيئ تلك الاقسام يكون مكروها واما على القراءة
الاولى فسيئة خبر كان وانث حملا على معنى كل ممنوع قال مكروها حملا على
لفظها وقال الزمخشري انث السيئة في حكم اللام بمنزلة الذنب
والاسم زال عنه حكم الصفات فلا اعتبار بتانيثه ولا فرق بين سيئة
وسيات الا ترى انك تقول الزنا سيئة كما تقول السرقة سيئة فلا فرق
بين اسنادها الى مذكر ومونث وفي نصب مكروها وجهان احدهما انه خبر
ثان لكان الثاني انه بدل من سيئة وضعف لان البدل بالمشتق قليل
الثالث انه حال من الضمير المستتر في عند ربك ولو قوبه صفة لسيئة
الرابع انه نعت لسيئة واعاد ذكر لان تانيثه تانيث موصوفه مجازي
ورد بان ذلك انما يجوز حيث اسند الى المونث المجازي اما اذا اسند
الى ضمير فلا نحو الشمس طالعة فلا يجوز طالع وقوله تعالى ذلك
اشارة الى الاحكام المستفادة في الاوامر والنواهي مما اوحى اليك
يا اشرف الخلق ربك الى المحسن اليك من الحكمة التي هي معرفة الحق
لذاته والخير للعمل به وانما سميت هذه الامور حكمة لوجوه الاول ان حاصلها
يرجع الى الامر بالتوحيد وانواع الطاعات والخيرات والاعراض عن
الدنيا والاقبال على الاخرة فالاتي بمثل هذه الشريعة لا يكون
داعيا الى دين الشيطان بل الفطرة الاصلية تشهد بانه يكون داعيا

الي دين الرحمن الثاني ان هذه الاحكام المذكورة في هذه الايات شرايع
واجبة الرعاية في جميع الملل والاديان ولا تقبل النسخ والابطال
فكانت محكمة وحكمة بين هذا الاعتبار الثالث ان المحكمة عبارة عن
معرفة الحق لذاته والخير للعمل به كما مرت الاشارة اليه فامر
بالتوحيد عبارة عن القسم الاول وسائر التكاليف عبارة عن
تعليم الخيرات حتى يواظب عليها ولا يحزن عما فاتته ان الاشياء
المذكورة من هذه الايات عين الحكمة وعن ابن عباس رضي الله
تعالى عنهما ان هذه الايات كانت في الواح موسى عليه السلام وجعل
سبحانه وتعالى فاتحتها قوله تعالى ولا تجعل مع الله الها آخر
وخاتمتها قوله تعالى ولا تجعل مع الله الها آخر تنبيها على ان التوحيد
مبدا الامور ومنتهاها واذا من فقد بعد ان وزل عن صراط مستقيم
والله راس الحكمة ومالكها ورتب عليه ما هو غاية الشرك في قوله
تعالى اولا ولا تجعل مع الله اي في الدنيا وثانيا ما هو نتيجته في
العقبى فقال فتلقى في من الالقاء فيه وعدم القدرة على التمالك
التدارك فعل من التي من حال حال كونك ملوما اي تلوم نفسك
مدحورا اي مبعدا من رحمة الله تنبيه ذكر سبحانه وتعالى في
الاية الاولى بقوله تعالى من موما محذولا وفي هذه ملوما مدحورا
والفرق بين الذم واللوم هو ان يذكر له ان الفعل الذي اقدم عليه
قبيح ومنكر فهذا معنى قولنا مذموما ثم يقال له فعلت هذا الفعل
القبيح وما الذي حملك عليه فهذا هو اللوم فالاول الامر بصير
مذموما واخره يصير ملوما والفرق بين المخذول والمدحور هو ان
المخذول عبارة عن الضعيف يقال تخاذلت اعضاؤه اي ضعفت
والمدحور هو المطرود والطرد عبارة عن الاستخفاف والاهانة

فكونه

تكونه محذولا عبارة عن تركه اعانته وتفويضه الى نفسه وكونه مدحورا
عبارة عن اهانته وتبعيدا ولا الامر قد حورا واخره مدحورا محذولا
واخره مدحورا وقوله تعالى افاصفاكم ربكم بالبنين خطاب للذين
قالوا الملايكة بنات الله والهمزة للانكار اي افخصكم ربكم على وجه
الخلوص والصفا بافضل الاولاد وهم البنون ولم يجعل فيهم نصيبا
لنفسه واتخذ من الملايكة اناثا اي بنات لنفسه وبعد اخلاف يا
عليه معقولكم وعاداتكم فان العبيد لا يستاثر دونهم اجود الاشياء واصفاها
من النسوب ويكونون اردا اها واردءها للسادات انكم لتقولون قولا عظيما
باضافة الاولاد اليه لان اثبات الولد يقتضي كونه تعالى مركبا من
الاجزاء والابعاض وذلك يقدح في كونه قديما واجب الوجود لذاته
وايضا فانه يقتضي ترجيح الولد فقد جعلوا اشرف القسمين للمخلوق
اخس القسمين للخالق وهذا اجهل عظيم وايضا جعلوا الملايكة الذين من
اشرف خلق الله الذين منهم من يقدر على حمل الارض وقلبها اسفلها
على اعلاها اناثا في غاية الركاكة ولما كان في هذا من البيان
ما لا يخفى على انسان ولم يرجعوا استدل الى انهم مثل هذا الاعراض
عن امثال هذا البيان فقال تعالى ولقد صرفنا اي بينا بيانا عظيما
بانواع طرق البيان من العبر والحكم والامثال والاحكام والاعلام
في قوالب الوعد والوعيد والامر والنهي والحكم والمثابة التي ذكرت
في هذا القرآن اي في مواضع منه من الامثال كما قال تعالى ولقد صرفنا
للناس في هذا القرآن من كل مثل قيل لفظة في زايدة كما في قوله
تعالى واصلح لي في ذريتي ورددنا في القرآن وعاذكرنا وكما
يقال ان شاء الله تعالى في الاخبار عن المستقبل لقد صرفنا التي من جهة الى
اخرى بمرارا كناية عن التبيين قال ابو حيان وقوله تعالى ليذكروا

متعلق بعرفنا وقراءة والكسائي بسكون الذال ورفع الكاف من غير
تشديد من الذكر الذي هو بمعنى التذكر والباقون بفتح الذال والكاف مع
تشديدهما وما بينهم اي التعريف الا قليلا اي تباعدا عن الحق وقلة
طمأنينة اليه وعن سفيان كان اذا قرأها قال زادني لك خضوعا
لما زاد احمد الا بعدا يحكى ان عمر قال لنبي صلى الله عليه وسلم ما اقل
اي لعمر الا تعجبين ولا تيأس من رجوع بعضهم لو كان معه آلهة كما تقولون
من هذه الاقوال التي لو قالها احمق اعلمكم في حق ادناكم وهو بريد بها
حقيقتها لصار ضحكة للعباد اذا لابتغوا اي طلبوا طلبا عظيما الى ذي العرش
اي صاحب العرش الاعظم المحيط الذي من تا لكان منفردا بالتدبير سبيلا
اي طريقا ساكا يتوصلون به اليه ليقهروه ويزيلوا ملكه كما تروني
فلا ملوك الدنيا بتعظمهم مع بعض او ليتخذوا عنده يدا يتقربهم اليه وقرأ
ابن كثير وحفص بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب وادغم
ابو عمرو والكسائي من العرش في السين بخلاف عنه سبحانه وتعالى
نفسه فقال عز من قائل سبحانه اي تنزه التنزه الاعظم عن كل شائبة
نقص وتعالى اي علي اعلى العلو بصفاته الكمال عما يقولون اي من هذه
المقالات التي لا يرضاها لنفسه احد من عقلاء خلقه علوا اي تعاليا
كبيرا اي متباعدا غاية البعد مما يقولون فان تعالي في اعلا مراتب
الوجود وهو كونه واجب الوجود والبقاء الذاتي تنبيه جبل العلو
مصدر التعالي ومصدره تعاليا كما قدرته فهو المراد وتقديره قوله
تعالي وانبتكم من الارض نباتا فان قلت ما الفائدة في
وصف ذلك العلي بالكبر اجيب بان المقامات قد يعبر عن ذاته وصفاته
سبحانه وقد يعبر بنوعه المقابل له كالولد والشركاء للاضداد والاندادا
مقامات بلغت في القوة والكمال الى حيث لا يقبل الزيادة عليها فلا

المقامات

المقامات بين الواجب لذاته والممكن لذاته وبين القديم والمحدث وبين
الغني والمحتاج مقامات لا تقبل الزيادة عليها فلهذا السبب وصف الله
تعالى ذلك العلو بالكبر وقراءة والكسائي بالتاء على الخطاب والباقون
بالياء على الغيبة ثم استانف تعالى بيان عظمة هذا التنزيه مقرونا
بالوصف بالكمال فقال تسبح اي توقع التنزيه الاعظم له اي الاله
الاعظم الذي تقدم وصفه بالجلالة والاكرام خاصة السموات السبع
والارض اي السبع ومن فيهن من ذوي العقول وان اي وما وان زائدة
في النفي فقال ما من شيء اي ذي عقل او غيره الا يسبح بحمده اي يقول
سبحان الله العظيم وبحمده او يقول سبحان الله وبحمده وقال ابن عباس
ما من شيء حي الا يسبح وقال قتادة يعني الحيوانات والنامیات
وقال عكرمة الشجرة تسبح والاسطوانة تسبح وعن المعتمر بن علي
الزاب يسبح ما لم يبتل فاذا ابتل ترك التسبيح والورقة تسبح
ما دامت على الشجرة فاذا استطلقت تركت التسبيح والماء يسبح ما دام
جاريا فاذا ركد ترك التسبيح والثوب يسبح ما دام جديدا فاذا اوسخ
ترك التسبيح وقال السيوطي في جواب سؤال في جواب سئل عن
ذلك وهو خصوصية بالاسرائيليات وصف الحياة كوطب الزرع والشجر
فيابس مات لا تسبيح فيه كذا ما زال عن موضع كالقطع للحي وقال
ابراهيم التيمي ما من شيء جماد رطب الا يسبح بحمده حتى هذر الباذ
وتنفيض الستف وقال مجاهد كل الاشياء تسبح سوى الانام كانوا جادا
وتسبيحها سبحان الله وبحمده يدل على ذلك ما روي عن ابن مسعود كنا
نعد الايات بركة وانتم تعدونها تخويفا كنا مع رسول الله صلى الله
عليه وسلم في سفر فقل الماء فقال صلى الله عليه وسلم اطلبوا
فضلة من ماء فجاؤا باناء فيه ماء قليل فادخل يده صلى الله عليه وسلم

في الانام قال حي على الطهور المبارك والبركة من الله فلقد رايت الماء
ينبع من بين اصابعه صلى الله عليه وسلم ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو
يؤكل وعن جابر بن سمرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان
بمكة حجرا كان يسلم علي ليالي بعثت اني لاعرفه الان وعن ابن عمر انه
صلى الله عليه وسلم كان يخطب الى جذع فلما اتخذ له المنبر تحول اليه
فحن الجذع فاتاه فمسح يده عليه وفي رواية فنزل فاحتضنه وساره
بشيء وفي هذه الاحاديث دليل على ان الجمادات تتكلم والله يسبح وقال
بعض اهل المعاني تسبيح السموات والارض والجمادات والحيوانات كل
العقلاء بلسان الحال حيث تدل على الصانع وقدرته ولطيف حكمته
فكأنها تنطق بذلك ويصير لها بمنزلة التسبيح قال البغوي والاول
هو المنقول عن السلف وقال ابن الخازن القول الاول اصح لما
دلت عليه الاحاديث ولانه منقول عن السلف قال البغوي والعلم
الله تعالى علما في الجمادات لا يقف عليها غيره وينبغي ان يوكل علمه
اليه **ولكن لا تفقهون** ايها المشركون **تسبيحهم** ايها لانه ليس بلغتكم **انه كان**
حليما غفورا لما ذكر سبحانه وتعالى اثبات الالهية اتبعه بذكر
تقرير النبوة بقوله تعالى **واذا قرأت القرآن** اي الذي لا يدانيه ولا عظ
ولا سيما بين معجز وغير معجز **جعلنا** اي بما لنا من العظمة **بينك**
وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا اي يحجبه قلوبهم عن فهم
ما تقرأه عليهم والانتفاع به قال قتادة هو الاكنة والمستور بمعنى
الساتر لقوله تعالى كان وعده مأتيا بمعنى فاعل ويجوز مستورا
عن اعين الناس فلا يرونه وقيل بعثهم بالحجاب عن الايمان الظاهر
كما روي عن سعيد بن جبير انه لما نزلت تبت يدا ابي لهب وتب
ابي لهب ومعها حجر والنبي مع ابي بكر فمرت فقالت لابي بكر اين

صاحبك

صاحبك لقد بلغني انه هجاني فقال والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله فرجعت
وهي تقول قد علمت حيث بمنه الحق لاوحد به راسه فقال ابو بكر ما رات
يا رسول الله قال لا لم يزل ملك بيني وبينها يستتري **وجعلنا** اي بما لنا
من العظمة **على قلوبهم اكنة** اي اغطية كراهة **ان يفقهوه** اي يفهموا
القرآن حتى تفهمه **وفي اذانهم وقرا** اي ثقلا يمنع سماعهم وعن ابن عباس
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا ومعه ابو بكر اذ اقبل اخنس بن شريق
ابو الاخنس ومعه جماعة من بني الرسول صلى الله عليه وسلم وهي تقول
مذمما ابينا ودينه قلينا وامره عصينا فقال ابو بكر يا رسول الله معها
من تراجنيا ما عليك فتلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الاية
فجاءت وما رات رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت اني رايت قرشا
قد علمت اني ابنة سيدها فان صاحبك هجاني فقال لها ابو بكر لا ورب
ورب هذا البيت ما هجاك ورأى ابن عباس ان ابا سفيان والنضر
ابن الحارث واما جهل وعتبة كانوا يجالسون النبي صلى الله عليه وسلم
ويسمعون حديثه فقال النضر يوما ما ادري ما يقول محمد غير اني ارى
شفتيه تحركان بشيء وقال ابو سفيان اني لارى بعض ما يقوله لاحقا
وقال ابو جهل هو مجنون وقال ابو لهب هو كاهن وقال رجل بن عبد
الغزى هو شاعر فنزلت هذه الاية وكان رسول الله صلى الله عليه
وسلم اذا اراد تلاوة القرآن قرأ قبلها ثلاث ايات وهي في سورة
الكهف وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفي اذانهم وقرا وفي النحل
ام ابرم الذين طبع الله على قلوبهم وفيهم اجانته ارايت من اتخذ الهه
هواه الى اخر الاية فكان الله يحجبه ببركة هذه الايات عن عيون المشركين
واذا ذكرت ربك اي المحسن اليك وحده **في القرآن وحده** اي مع الاعراض
عن المهتمر كانه قلت وانت تتلو القرآن لا اله الا الله تنبيه في نصب

وحده وجهان احدهما انه منصوب على الحال واذ كان معرفة لفظا فانه في قوة
النكرة اذ هو في معنى منفردا والثاني انه منصوب على الظرف **ولوا على ادبارهم**
نفورا اي هربا من استماع التوحيد تنبيه في نفورا وجهان احدهما مصدر
من غير اللفظ موكد لان التولي والنفور بمعنى والثاني انه حال من فاعل
ولوا وهو جمع نافر كقاعد وقعود وشاهد وشهود والضمير في ولوا
يعود على الكفار وقيل يعود الى الشياطين وان لم يجر لهم ذكر قال المفسرون
ان القوم كانوا عند استماع القرآن على اقسام منهم من كان يفهمه عند
استماعه روي انه عليه والصلاة والسلام كان كلما قرأ القرآن قام
عن يمينه وعن يساره اخوان من ولد قصي يصغون ويفهمون ويحفظون
عليه بالاسفار ومنهم من كان اذا سمع من القرآن ما ليس فيه ذكر الله تعالى
يتواجمون لا يفهمون عنه شيأ ومنهم من سمع ايات فيها ذكر الله وذم
المشركين ولوا نفورا وتركوا ذلك المجلس ولما كانوا ربما ادعوا السمع
والفهم فنكلوا بعض من لم يرسخ ايمانه اتبعه تعالى بقوله تعالى **نحن**
اعلم اي من كل عالم **بما يستمعون** اي بما لاجله في الاصغاء والميل لتعمد
السمع **به** من الاذان والقلوب او بسببه ولاجله من الهمز وبك
وبالقرآن **اذ يستمعون** اي يصغون بجهدهم **اليك** اي الي قرائتك **واذ** اي
حين **هم نجوى** اي بيتاجون اي يرفع كل منهم سره الي صاحبه بعد
اعراضهم عن الاستماع ثم ذكر تعالى ظرف النجوى بقوله تعالى **اذ** وهو
بدل من اذ قبله **يقول الظالمون** ونبقول لهم **ان** اي ما **تتبعون الا رجلا**
مسحورا اي مغلوبا على عقله روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
امر عليا ان يتخذ طعاما ويدعو اليه اشراف قريش من المشركين ففعل
ذلك ودخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن
ودعاهم الي التوحيد وقال قولوا لا اله الا الله حتى تطيعكم العرب وتدين

بكم

بكم العجم فقاموا عليه ذلك وكانوا عند استماعهم من النبي صلى الله عليه وسلم
القرآن يطلبون عيبه فيما بينهم يقول بعضهم لبعض انه شاعر الا نجد كلاما مسجوعا
فاذ قيل انهم لم يتبعوا من ستوك انه صلى الله عليه وسلم ذكر انه يجوز ان يقولوا
انه تبعوه في الدين لا مسحورا والجيب ان معناه واذ هم نجوى فحذف المبتدأ
رجلا مسحورا وقرأ ابو عمرو بخلف عنه اذ يكسر الذال وهي لغة تميم في
الوصل والباقون بالضم ثم قال تعالى **انظر كيف ضربوا لك الامثال** اي هذه الاقوال
ومعظم ذلك ان بعضهم يقول عن الحق في جميع ذلك **فضلوا** اي فتسبب عن ذلك انهم
لا يستطيعون سبيلا اي وصولا الي طريق الحق وهذا اجمع ما يمكن قاله القرآن بانواعه
التوحيد والنبوة والمعاد وقدم الدلالة على الاولين وهي بانواع تحيل ليتم
في النبوة مع ظهورها بما يتبع ذلك احراجا لهم في ضلالهم عن السبيل في
اسر المعاد وقوله تعالى **للمفترين** تحقير لهم حتى لا يعظم عليك امرهم
وقالوا اي المشركون عند ما حكم وعند التوحيد والنبوة والبعث **ءاذا كنا عظاما**
ورفاتا اي حطاما مكسرا مفتتا **ءانا لمبعوثون خلقا جديدا** تنبيه تنزيل هذه
سؤالهم على ظاهرها انهم انما سألوا حيث اعظاما ورفاتا وتمزقت في
جوانب العالم واختلطت بتلك الاجزاء بصائر اجزاء العالم من الاجزاء المائية
مختلطة بها ما العالم والاجزاء الترابية مختلطة بالمرابة والاجزاء الهوائية

مختلفة بالهوا فكيف يعقل اجتماعها باعيانها لاجرم اجرى هذا التقرير شبهة اخرى
عجيبة وهي انها لو اجتمعت لاجتمعت خفية كما لو علم تعالى ان في كل قدرته
قادرا على ايجاد العالم فانه تعالى يعلم ان في كل قدرته قادرا على ايجاد العالم
والعقل الى هذا الجواب اميل فانا نسلم كمال علم الله تعالى وكمال قدرته
ونقول التعدد انما يعلم بالمشاهدة او بالكلية ولم يكن كذلك قيل فما ذا تقول لهم في الجواب
فيقال لهم ولا يشرف الخلق لانكون لانا ذا قابل لكونه اصلب التراب حجارة
اي شيء في غاية اليبس او حديدا اي شيء في غاية اليبس والصلابة لا لشدة العقل
الا جزا تشبيه ليس المراد به احد الوجوه بل المراد انكم لو كنتم كذلك لما
اعجزتم الله تعالى عن الاعادة وذلك كقول القائل لغلامه اخلع في وانا خلاف
فيقول لست بخليق كن ابن الخليفة فساطلب منك خيطا او خلقا اعجزه ذلك عما
يكبر اي يعظم عظمة كبيرة في صدوركم اي مما يكبر عندكم عن قبول الحياة
لكونه بعيدا عن رحمة الله تعالى قادرا على اعادة الحياة اليها وقال ابن عباس
ومجاهد وعكرمة والاكثرون الحجر بن اي الموت فانه ليس في نفس ابن آدم
شيء اكبر من الموت اي لو كنتم الموت بعينه لاميتكم ولابعثكم وقيل السموات
والارض وجميع ما لا يعلم الا الله من اعظم الخلق وانه فسيقولون من يعيدنا
انكارا لكمال علمه فطركم اي ابتدأكم اول مرة ولم تكونوا شيئا يعيدكم
بالنسبة الينا فسينغضون اليك رؤسهم اي يحركونها استهزاء وانكارا
تعجبا واستهزاء كما يفعل في شدة تعجبهم على غاية البعد عما يقولونه
والنغض والانغاض تحريك بارتفاع وانخفاض ويقولون استهزاء متى هو
اي البعث والقيامة قال الرازي واعلم ان هذا السؤال فاسد لانهم حكموا
بامتناع الحشر والنشر بناء على الشبهة التي تقدمت ثم ان الله تعالى بين
بالبرهان الباهر كونه ممكنا في نفسه فقولهم متى هو كلام لائق لهذا المحل

فانه

فانه لما ثبت بالدليل العقلي كونه ممكن الوجود بالذات فهو في نفسه واجب الاعراض
بالكلية فاما انه متى يوجد فذلك لا يمكن اثباته من طريق العقل بل انما
يمكن اثباته بالدليل السمعي فانه اخبر انه يوجد عن قريب كما قال تعالى
عسى ان يكون قريبا والاقلاب سيل الى معرفته لانه تعالى بين في القرآن انه لا يطلع احدا
من الخلق على وقته المعين فقال تعالى ان الله عنده علم الساعة وقال
انما علمها عند ربي وقال تعالى انه الساعة اتية اكاد اخفيها فاخبر تعالى
تعالى قل عسى ان يكون قريبا قال المفسرون عسى من الله تعالى واجب
ومعناه انه قريب اذ كل آت قريب وما هو متى وعسى من الكفار
اماله محضة ومرسى بالفتح بين الخطين والباقون بالفتح وقوله تعالى
يوم يدعوكم بدل من قريبا والمعنى عسى ان يكون وقت البعث يوم يدعوكم
اي بالبعث الذي يسمعكم وهو النفخة الاخيرة كما قال تعالى يوم ينادي المناد من
مكان قريب وقيل انه اسرافيل ينادي هيا ايها العظام البالية والعظام
المتحرقة والاجزاء المتفرقة عودي كما كنتي فتستجيبون اي تجيبون دعوته
وانتم الداعي فيما دعي اليه وهي الاجابة لا ان الاستجابة تقتضي طلب
الموافقة فهي اكد من الاجابة واختلف في معنى قوله تعالى بحمده فقال
ابن عباس بامره وقال سعيد بن جبير تجيبون من قبوركم وتقولون
الهنا بحمدك وتسبحك وتقولون سبحانك اللهم وبحمدك فيعرفون عند ذلك
الحمد قال قتادة بمعرفته وطاعته وقال اهل المعاني يستجيبون بحمده
اي يستجيبون بحامدين كما تقول جاء بفرسه اي جاء فارسا وركب الامير
بسيفه اي ومعه سيفه وقال الزمخشري بحمده حال منهم اي حامدين وفي
الآية دليل على فساد قول من ينكر البعث كتوله لمن تامره بركوب ما يشق عليه فيابى
ومن يمتنع ستركبه وانت حامد شاكر يعني انك تحمل عليه وتقسر عليه قسرا
حتى انك تليمن لين المسيح الراعف فيه الحامد عليه وتظنون ان لبثتم الا قليلا

الدنيا تتكبرون وتطولون لتتكبروا في الدنيا وتحسبون انا نموت بعد يوم وعن قتادة
تخاترت السنيا في انفسهم حتى عاينوا النار فقد قال الحسن صدقه والله تقريب وقته
اليوم فكأنك بالرجل قد نبا ربع تكبره ومبالاجزة ولم تزل فهذا يرجع الى استقلال
مدة اللبث في الدنيا وقيل المراد استقلال مدة لبثهم في برزخ القيمة لان
لما كان عاقبة امرهم الوحول في النار استقصروا لبثهم في برزخ القيمة ثم
وقرأ نافع وابن كثير وعاصم بإظهار الثاء المثلثة عند التاء المثناة والباقون
بالادغام والمذكر تعالى الحجة البيضة في صحة المعاد وهو قوله تعالى
قل الذين صلحوا لعبادي الآية قال تعالى وقل يا محمد لعبادي اي المؤمنين لان
لفظ العباد في اكثر المواضع القرآنية مختص بالمؤمنين قال تعالى فبشر عباد
الذين يستمعون القول ويتبعون احسنه وقال تعالى فادخلي في عبادي
وقال تعالى عينا يشرب بها عباد الله يقولوا للكفار الذين كانوا يؤذونهم
الكلمة التي هي احسن والمعنى قل لهم على سبيل الوجوب لا يقولوا لهم الا
وكان هذا قبل الامر بالقتال وقيل نزلت في عمر رضي الله عنه حين خاطب سفيه
الكفار فاهوى الله تعالى بالعفو وقيل امر المؤمنين بان يقولوا ويفعلوا
الخلة التي هي احسن وقيل الاحسن قولوا لا اله الا الله ثم علل تعالى
بقوله تعالى انا الشيطان اي البعيد عن الرحمة المحترق بالنعمة ينزغ
بينهم اي يفسد ويغري بعضهم على بعض ويوسوس لهم ليقع بينهم
المشاررة والمشاتمة واصل النزغ الطعن ويستعمل في غيره مخصوصا بقرينة
اذ يأتي بها الانسان بسبب الحال ثم علل هذه العلة بقوله تعالى ان الشيطان
كان اي في قديم الزمان واصل الطبع كونه هو مجبولا عليه للانسان عدوا
يتحين الفرصة حتى اي يبغي الفساد ثم فسر تعالى التي هي احسن مما علمهم
ربهم من الصفة بقوله تعالى ربكم اعلم بكم فعلم ان قوله ان الشيطان الخ
جملة اعتراضية بين المفسر والمفسر وسكن ابو عمر الميم واختلسها عنه الباقون

تخلان عنه وكذا العلم بمن لم ار تعالى ان يشا اي يرحمكم برحمكم اي
بهدايتكم او ان يشا يعذبكم يعذبكم اي بإضلالكم فلا تختروا ايها المؤمنون
المشركين فتقاتلوا بأمرهم من اهل النار فيعيره بعد ذلك فانه يجر الى غيظ
القلوب فلا فائدة لان الخاتمة مجهولة ولا تتجاوزوا فيهم ما امر الله به من
نزل ونحو ثم رفع الله الخطاب الى اعلا الخلق ورأس اهل الشرع ليكون
مراده اولى بالمعنى منه فقال تعالى وما ارسلناك اي مع ما لنا من العظمة
الشيئة عن كل شيء عليهم وكيلا اي حفيظا وكفيلا تقسرهم على ما يرضي
الله وانما ارسلناك علي حسب ما نامرك به بشيرا ونذيرا فادوهم وزي
اصحابك بعد ان تمرر وقد مر ان هذا قبل الاذن في القتال ولما امرهم بان
يبشروا الاعلمية بهم الجهة تعالى اخبر بما هو اعم من ذلك قاصر الخطاب
على اعلم خلقه بقوله تعالى وربك اي المحسن اليك بان جعلك اكمل الخلق
اعلم بمن في السموات والارض فعلمه غير مقصور عليكم بل متعلق بجميع الموجودات
والمعدومات ومتعلق بجميع ذات الارضين والسموات فيعلم تعالى حال كل
احد ويعلم ما يليق به من المفاسد والمصالح ويعلم اختلاف صورهم وادبارهم
واحوالهم واموالهم وجميع ما لهم عليه سبحانه وتعالى لا يخفى عليه خافية
فيفضل بعض الناس على بعض على حسب احاطة علمه وبمقدار رتبه
وبعض النبيين على بعض كما قال تعالى ولقد فضلنا بعض
النبيين بسواكن ارسالهم لا على بعض بعد ان جعلنا كلا مفضلا لتفاوت
كل منهم في احسانه فخص بعضنا كلا منهم بفضيلة كموسى بالكلام وابراهيم
بالخلة ومحمد صلى الله عليه وسلم بالاسراء فلا ينكر احد من العرب او بني
اسرائيل او غيرهم تفضيلنا لهذا النبي الكريم الذي صدرنا السورة
بتفضيله على جميع الخلائق فاذا تفكر ما نشأ عنا من العقلة التامة
والعلم الشامل وقرأ نافع بالهمزة والباقون بالياء ووقف على اصله

بعد علي الهمزة ويوسط ويقصر وآتينا موسى التوراة وداود زبورا وعيسى
الانجيل فلم يبعد ايتاء الذي محمدا صلى الله عليه وسلم القرآن ولم يبعد
ان تفضله على جميع الخلق فان قيل ما السبب في تخصيص داود عليه السلام
بالذكر هنا اجيب بأوجه الاول انه تعالى ذكر انه فضل بعض النبيين على
بعض ثم قال وآتينا داود زبورا يعني ان داود اوتي ملكا عظيما ثم انه تعالى
لم يذكر ما اتاه من الملك وذكر ما اتاه من الكتاب تنبيها على ان التفضل
الذي ذكره قبل ذلك المراد منه التفضيل بالعلم والدين لا بالمال الثاني
ان الله تعالى كتب في الزبور ان محمدا خاتم الانبياء وان امته محمد خير الامم قال
تعالى ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون
وهم محمد صلى الله عليه وسلم وامته فان قيل هلا عرفه كقوله تعالى
ولقد كتبنا في الزبور اجيب بأن التنكير هنا لابد لعلي تعظيم حال الذي
الزبور عبارة عن المزبور فكان معناه الكتاب وكان معنى انه كامل
في كونه كتابا ويجوز ان يكون مزبورا علما فاذا دخلت عليه ال كقوله
تعالى ولقد كتبنا في الزبور كانت للمح الاصل كعباس والعباس وفضل
والفضل الثالث ان كفار قريش ما كانوا اهل نظر وجدل بل كانوا اقرب
الى اليهود في استخراج الشبهات واليهود كانوا يقولون انه لا نبي بعد
موسى ولا كتاب بعد التوراة فنقض الله تعالى عليهم كلامهم بانزال
الزبور على داود وروى البخاري في التفسير عن ابي هريرة ان النبي
صلى الله عليه وسلم قال خفف على داود القرآن فكان يأمر بدابته
لتسرج فكان يقرأ قبل ان يفرغ اي القرآن قال البقاعي ومن اعظم
المناسبات لتخفيف داود عليه السلام وذبوره بالذكر هنا ذكر البيت
الذي هذا مقامه فيه صريحا وكذا ذكر النار مع خلو التوراة عن ذلك
اما البيت فلا ذكر له فيها اصلا واما النار فلم يذكر في شيء مما يدل عليها الا

الحجر في موضع واحد وهو قوله الزبير فمن ذكر فيه النار والهاوية والحجر في
غير موضع الا وقد اجابوا بضم الزاي والباء وقد بالفتح واختلفوا في سبب
نزول قوله تعالى قل ادعوا الذين زعمتم اي زعمتم انهم آلهة من دونه اي من
سواه كالملائكة وعزير والمسيح وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو وابن عامر
وعاصم والكسائي بضم اللام من قبل وكسرها عاصم وحمزة كل هذا في حال
الوصل واما الابتداء فالجميع يبتدئ بهمزة مضمومة فلا يملكون كشف
الضر اي البؤس الذي من شأنه ان يعرض الجسم كله بحيث لا يدع منه
شيئا سليما الا الله تعالى يقدر على كشفه والتحويل له الى غيره فقال ابن عباس انما نزلت في الذين عبدوا
المسيح وعزيرا والملائكة والشمس والقمر والنجوم وقيل انزلت في ناس عبدوا
نفرا من الجن فاسلم النفر من الجن وبقوا على دينهم فلم يضر ذلك المسلمين
فلم تنفعهم عبادة الاولين وقيل ان المشركين اصابهم قحط شديد حتى اكلوا
الكلاب والجيف فاستغاثوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ليدعو لهم فنزل
قل للمشركين ادعوا الذين زعمتم انهم آلهة من دونه وليس المراد الاصنام
لان الله تعالى قال في وصفهم اولئك الذين يدعون اي يدعو هم الكفار
وهو الهم يبتغون اي يطلبون طلبا عظيما اي زلفى اي القرب الجميل
الوسيلة اي المنزلة والدرجة والقربة لاعمالهم الصالحة وابتغاء الوسيلة
الى الله تعالى لا يليق بالاصنام البتة وقرأ ابو عمرو وفي الوصل بكسر الهاء
والميم وقرأ الباقون بكسر الهاء وضم الميم تنبيه اولئك مبتدأ وضمير
يبتغون ويكون الموصول نعتا او بيانا او بدلا والمراد باسم الاشارة الانبياء
والملائكة الذين عبدوا من دون الله والمراد بالواو العباد لهم ويكون
العائد على الذين محذوفا والمعنى اولئك الانبياء الذين يدعوهم المشركون
لكشف ضرهم يبتغون الى ربهم الوسيلة ايهم اقرب اي يسابقون بالاعمال
الصالحة من يطلب كل منهم ان يكون اليه اقرب ولديه افضل ويرجون رحمته

رغبة فيما عنده ويخافون عذابه فهم كغيرهم موصوفون بالعجز والحاجة فكيف
يدعون فهم الهمة وقيل معناه ان الكفار يتقلبون اكثر اتقلب الى اهله تعالى فيتوسل
به هم تجلك خوفهم بما ذكر عالم بقوله تعالى ان عذاب ربك اي المحسن اليك
برفع انتقام الاستيصال منه عن امتك كان اي كونا لازما محذورا
جديرا بان يحذر كل احد من سلك مسلكه وفي هذا تسلية عظيمة له صلى الله عليه
وسلم بما سيحل باهل مكة من العذاب بسبب تكذيبهم له وقوله تعالى ما عذاب ربك كان
يحتمل ان يكون بمعنى قوله تعالى وما اهلكنا من قرية الا لها منذرون ذكرى
المعنى وما اهلكنا قرية من القرى الماضية ولما قال تعالى اما عذاب ربك كان
محذورا بين بقوله تعالى وان اي ما من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم
القيمة او معذبوها عذابا شديدا ان كل قرية اي اهلها لابد واقعين تحت
حالهم التي اهم عليها من الاهلاك بالموت والاستيصال واما العذاب
بالقتل وانواع البلاء وقال مقاتل اما الصالحة بالموت واما الطالحة فبالعذاب
وقال عبد الله بن مسعود اذا ظهر الزنا والربا في قرية اذن الله تعالى
في هلاكها كان ذلك اي الامر العظيم في الكتاب اي اللوح المحفوظ مسطورا
اي مكتوبا قال عبادة بن الصامت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول ان اول ما خلق الله القلم فقال اكتب فقال وما اكتب قال القدر
ما كان وما هو كائن الى الابد الابد لخرجه الترمذي ولما كان كفار قريش
قد تكرر اقتراحهم للايات وكان صلى الله عليه وسلم لشدة حرصه على
ايمان كل احد يحب ان الله تعالى يجيبهم الى مقترحهم طمعا في ايمانهم فاجابهم
الله تعالى بقوله وما منعنا اي علينا لما من العظمة التي لائقة بها
شيء وما يمنعها مانع ان نرسل بالايات اي التي اقترحوها كما حكى الله تعالى
عنهم ذلك في قولهم فاتينا بآية كما ارسل الاولون وقال اخرون لن نؤمن
لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا الايات وقال سعيد بن جبير انهم قالوا
انك تزعم انه كان قبلك انبياء منهم من سخرت له الريح ومنهم من احيى الموتى
فاتنا بشيء من هذه المعجزات فكان كانه لا ايات عندهم سوى ذلك الا

علمنا

علمنا في عالم الشهادة بما وقع من ان كذب بها اي المقترحات الاولون
وعلمنا في عالم الغيب ان هؤلاء مثل الاولين ان اقترحت عليهم لا يؤمنون بالمقترحات
كما لم يؤمن من قبلهم وانه تقول فيها ما قال في غيرها من انها سحر ونحو ذلك
والسيد لا يحتاج في ايمانه الى فكر اجبناه الى مقترحه فاذا ذاك اهل
العناد لملة الاكفر اخذناهم لانه نستأجرنا ان لا نمهل بعد الاجابة الى
المقترحات فمن كذب بها قاله ابن عباس سأل اهل مكة النبي صلى الله عليه
وسلم ان يجعل لهم الصفا ذهبا وان ينحي الجبال عنهم ليزرعوا فقال الا
اعطيك ما سألت صلى الله عليه وسلم ذلك من الله تعالى فاوحى الله تعالى اليه
ان شئت فعلت ذلك لكن بشرط ان لم يؤمنوا اهلكتهم فقال صلى الله عليه
وسلم لا اريد ذلك فبفضل الله كرمه هذه الامة وتشريفه لنبيها على الامم
السالفة لعدم استيصالها لما يخرج من اصلاب كفرتها من خلق عباده
فلهذا السبب ما اجابهم الله تعالى الى مطلوبهم فقال جل ذكره وبالساعة
موعدهم والساعة ادهى وامر عز ذكره تعالى من تلك الايات التي اقترحها
الاولون ثم كذبوا بها اما ارسلنا اليهم فاهلكوا لما ذكره تعالى بقوله تعالى
واتينا ثمود الناقة حال كونها مبصرة اي مضيئة بينة جديدة بان يتبصر
بها كل من شاهدها فيستدل بها على صدق قول ذلك النبي فظلموا بها
اي ظلموا انفسهم بتكذيبها وقال ابن قتيبة جحدوا بانها من الله تعالى
فاهلكناهم فكيف ظنكم بنا هؤلاء على سبيل الافتراض والتحكم على الله تعالى
وحين تعالى هذه الاية بالذكر لانه آثارها هلاكهم في بلاد العرب فترتيبه
من حدود دمشق بعيرها صادرين وواردين عز قال تعالى وما نرسل
بالايات اي المقترحات وغيرها الا تخويفا للمرسل اليهم بما فان خافوا نجوا
والا اهلكتهم بعذاب الاستيصال من كذب بالايات المقترحة وبعذاب الاخرة
من كذب بغيرها كالمعجزات وآيات القرآن فاوامر بعده اليهم هو خرابي يوم

القيمة فان قيل المقصود الاعظم من اظهار الايات ان يستدل بها على صدق
المدعي فكيف جعل المقصود من اظهارها هنا التخويف اجيب بانه لما
كان هو الحامل والغالب على المقترحين فكانه هو المقصود ولما طلب
القوم من النبي صلى الله عليه وسلم تلك الايات المقترحات واجاب الله تعالى
بان اظهارها ليس بمصلحة صار ذلك سببا لجراءة اولئك الكفار بالطغيان فيقولوا
ان
لو كنت رسولا حقا من عند الله لاتيت بهذه المعجزات التي اقترحناها
كما اتي به موسى وغيره من الانبياء فعند هذا توعدهم الله تعالى قبلهم وبين
له انه يفعل ويريد فقال تعالى واذكر يا اشرف الخلق اذ قلنا لك ان
ربك احاط بالمشتغلين بالاهانة اليك بالرفق لامتك احاط بالناس علما
وقدرة فهم في قبضته وقدرته لا يقدرون على الخروج من مشيئته فلا
يقدرون على امر من الامور الا بتعنايه وقدرته وهو حافظك وحافظهم
فلا تهتم ولا تحزن بما ترى منهم في امرك به من تبليغ الرسالة فمنو يفركشو يتوبك
على ذلك كما وعدك بقوله تعالى والله يعصمك من الناس وقيل اذ المراد
بالناس اهل مكة يعني انه يقهرهم ويقتلهم روي انه لما رأى الزقاق
يوم بدر ورسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش مع ابي بكر كان يدعو
ويقول اللهم اني اسالك عهدك ووعدك اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد
في الارض وكان يعرض
الناس ويقول سيهزم الجمع ويولون الدبر وكان صلى الله عليه وسلم يقول
حين ورد بدرا والله كاني انظر الى مصارع القوم وهو يومي الى الارض
ويقول هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان فحدثني من مات منهم ممن قتل يومئذ
الى النبي صلى الله عليه وسلم ثم عطف تعالى على ما ارسل بالايات قوله
تعالى وما جعلنا الرؤيا التي اريناك اي التي شاهدتها ليلة الاسرا الا فتنة
اي امتحانا واختبارا لانه صلى الله عليه وسلم لما ذكر لهم قصة الاسرا كذبوه
وكفر به كثير ممن كان قد امن به وازداد المخلصون ايمانا فلهذا السبب كانت

امتحانا

امتحانا ورد في البخاري في التفسير عن ابن عباس انه قال هي رؤيا عين ابصرها
رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة اسري به وتقدم انه قول الاكثرين منهم
سعيد بن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة وابن جريج وما
قاله بعضهم من ان الرؤيا تدل على انها رؤيا منام ضعيف اذ لا فرق بين
الرؤية والرؤيا في اللغة يقال رايت بعيني رؤية ورؤيا فائدة قال بعض
العلماء كانت اسرا الله صلى الله عليه وسلم اربعا وثلاثين مرة واحدة بجسده
والباقي بروحه رؤيا رآها قال ومما يدل على ان الاسرا ليلة فرض الصلاة
كانت بالجسم ما ورد في بعض طرق الحديث ان الله صلى الله عليه وسلم استوحش
لما عرج به الى السموات ولم ير معه احدا ان الارواح لا توصف بالوحشة ولا بالاسي ان
قال ومما يدل لذلك على ان الاسرا كان بجسمه ما وقع له من العطش فان الارواح
المجردة لا تعطش ولما كان قد اجرى صلى الله عليه وسلم في شجرة الزقوم تبسة في
اصل الجحيم وكان ذلك في غاية القرابة ضمنها الى الاسرا في ذلك بقوله تعالى
والشجرة الملعونة في القرآن لانها امتحانا الضعيف
بها على التقديم والتاخير والتقدير وما جعلنا الرؤيا التي اريناك
والشجرة الملعونة في القرآن الا فتنة للناس واختلف في هذه الشجرة
فالاكثرون قالوا انها شجرة الزقوم طعام الاثيم كانت الفتنة في ذكرها
الشجرة من وجهين الاول ان ابا جهل قال زعم صاحبكم ان نار جهنم تحرق
الحجارة حيث قال وقودها الناس والحجارة ثم يقول في النار شجرة والنار
تاكل الشجر فكيف يولد فيها الشجر الثاني قال الزبير ما نعلم الزقوم
الا التمر والزبد فيئوا منه فانزل الله تعالى حين عجبوا ان تكون في
النار شجرة انا جعلناها فتنة للظالمين الآيات وما قدروا الله حق قدره
من قال ذلك فان الله تعالى قادر على ان يجعل الشجرة من جنس لا ياكله
النار كما هذا والبرسمذ وهو دبية ببلاد الترك يتخذ منه عناديل

اذا اتسخت طرحت في النار فتذهب الوسخ ويبقى عالما للاتعمل فيه النار وترب
النعامة تبلع الجمر وتبلع الحديد الجمر باجار النار فلا تقربها ثم اقرب من ذلك
انه تعالى جعل في الشجر نارا فما تحرقها قال تعالى الذي جعل لكم من الشجر
الاخضر نارا واذا فانه قيل ليس في القرآن لعن هذه الشجرة اجيب
عن ذلك بوجوه الاول المراد لعن الكفار الذين يأكلونها لان الشجرة
لا ذنب لها حتى تلعن على الحقيقة وانما وصفت بلعن اصحابها على المجاز
الثاني ان العرب تقول لكل طعام ضار انه ملعون الثالث ان اللعن في
اللغة الابعاد ولما كانت هذه الشجرة مبعدة عن صفات الجنة سميت
ملعونة وقيل ان الشجرة الملعونة في القرآن هي اليهود لقوله تعالى لعن
الذين كفروا وقيل هي الشيطان وقيل ابو جهل وعن ابن عباس هي الكشوثا
التي تنادي بالشجر تحمل في الشراب ولما ذكر سبحانه وتعالى انه يرسل
بالايات تخويفا قال هنا انفا **ونخوفهم فما يزيدهم** اي الكافرين والتخويف
بالقرآن **الا طغيانا كبيرا** اي تجاوز الحد هو في غاية العظم فتقدير
ان يظهر الله تعالى لهم المعجزات التي اقترحوها لم يزدادوا بها الا تمادا
في الجهل والعناد فاقتضت الحكمة ان لا يظهر الله لهم ما اقترحوه من
الايات والمعجزات تعالى نخوفهم بعذاب الدنيا وهو القتل يوم بدر
وخوفهم بعذاب الاخرة وشجرة الزقوم فما تزيدهم الا خوفا فقوم هذه
حالهم بارسال ما يقترحون من الايات ولما نازع القوم رسول الله
صلى الله عليه وسلم وعاندوه واقترحوا عليه الاقتراحات الباطلة
لاحرين الكبر والحسد اما الكبر فلانه تكبر عليهم كان يمنعهم من الانقياد
واما الحسد فلانهم كانوا يحسدونه على ما اتاه الله من النبوة فبين
تعالى ان الكبر والحسد هما اللذان حملا ابليس على اكثر منه عن الايمان
والدخول في الكفر بقوله تعالى **واذ** اي واذكر اذ **قلنا** بالنا من العظمة

التي

التي لا يتخلف مرادها **اسجدوا لآدم** اي اعتنوا لامري **فسجدوا الا ابليس**
ابى ابا ان يسجد لكونه ممن حقت عليه الكلمة ولم ينفعه ما يعلم من قدرة الله
وعظمته وذلك معنى قوله تعالى **قال** اي منكرا متكبرا **ءاسجد** اي
اخضع **لمن خلقت** حال كونه اصله **طينا** فكفر بنسبته لنا الى الجور متخيلا
انه افضل من آدم عليه السلام من حيث ان الفرع ترجع الى الاصول
وان النار التي هي اصله اكرم من الطين الذي هو اصل آدم وذهب
عنه ان الطين انفع من النار وعلى تقدير التنزل فالجواهر كلها من
جنس واحد والله تعالى هو الذي اوجدها من العدم يفضل بعضها على بعض
بما يجده فيها من الاعراض وقد ذكر الله تعالى هذه القصة في تسع سور
هي البقرة والاعراف والحجر وهذه السور لقوله الكهف وطه وص والكلام
المستقصى فيها قد تقدم في البقرة ولعل هذه القصة انما كررت تسلية
للنبي صلى الله عليه وسلم فانه كان في محنة عظيمة في قومه والعقل
بانه فكانه تعالى يقول الاترى انا اذا اردنا الانبيا هو آدم عليه السلام
ثم انه كان في محنة شديدة من ابليس وان الكبر والحسد كل منهما بلية
عظيمة ومحنة عظيمة للخلق وقرا نافع وابن كثير وابو عمرو وبتحقيق
الاولى وتسهيل الثانية وادخل قالون وابو عمر وبينهما الفا ولم
يدخل ورش وابن كثير بينهما الفا ولورش فيه ابدال الثانية واذا
وقفه حمزة سهل الثانية كقراءة ابن كثير وقرا هشام بالتحقيق
في الثانية والتسهيل وادخال الف بينهما وقرا الباقون بتحقيقهما
بلا ادخال ولما اخبر تعالى بتكبرهم كانه قيل ان هذه الوقاحة
عظيمة واجترا على الكتاب الاعلا فهل كان منه غير ذلك **قال ارءيتك**
ايها المخبر في وقرا نافع بتسهيل الهمزة بعد الرا ولورش وجهان
ابدالها الفا واسقطها الكسائي والباقون بالتحقيق **هذا الذي كرمت**

علي اكرمته علي مع ضعفه وقوتي فكانه قيل لعدائي بالغاية في اساءة
الادب فما كان بعد هذا فتيل مقتضيا لاجل استبعاد ان يجتري احد هذه
الجراءة علي الملك الاعلا لين اخرتني اي ايما الملك الاعلا اخر لمحمدا
الي يوم القيمة حيا صحيحا وجواب القسم المحذوف اله باللام لاحتنكن
اي بالاغوا ذريته اي لاستولين عليهم استيلا من جعل في حنك
الدابة الاسفل هبلا يقود به فلانا بي وقرانا نعم وابو عمر وبزيادة
يا بعد النون في اخرتني عند الوصل وحذفها في الوقف واثبتها ابن
كثير وقنبل ووصلا وحذفها وقفا ورويس وصلا اتباعا للرسم ولما علم انه
لا يقدر علي الجميع قال الا قليلا وهم اولياؤك الذين حفظتهم مني
كما قال تعالي ان عبادي ليس لك عليهم سلطان فان قيل كيف ظن
ابليس هذا الظن الصادق بذرية آدم اجيب بوجه الاول انه
سمع الملايكة يقولون اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدما فمن
هذه الاحوال الثاني انه وسوس الي آدم ولم يجد له عزما فقال الظاهر
ان اولاده يكونون مثله في ضعف العزم الثالث انه عرف الذرية
من قوة بهيمية شهوية وقوة وهمية شيطانية وقوة عقلية
ملكية وقوة سبعية غضبية وعرف ان بعض تلك القوي تكون
هي المستولية في بعض اولاد الخلقة ثم ان القوة العقلية انما تكمل
في آخر الامر ومن كان كذلك كان ما ذكره ابليس لازما لهم كما انه
قيل لقد طال عدو الله الاجل انما قال له ربه بعد ذلك فقيل
قال محمد اله اذهب اي امض لما قصدته وهو طرد وتخلية بينه وبين
ما سولت له نفسه وتقدم في الحجر انه انما يوخر الي يوم الوقت المعلوم
وهو يوم النفخ لا انه يوخر الي يوم القيمة كما طلبه قرا ابو عمرو وحمزة
والكسائي بادغام الباء الموحدة في التاء واظهرها الباقون ولما

حكم

حكم تعالي بشقاوته وشقاوة من اراد طاعته له تسبب عنه قوله تعالي
فمن تبعك منهم اي اولاد آدم عليه السلام فان جهنم اي الطبقة التي
اليق بهم داخلها جزاوكم اي جزاوك وجزا اتباعك تجوزوا بذلك
جزا موفورا اي مكملا وافيا مما يستحقون علي اعمالكم الخبيثة ولما طلب
ابليس اللعين من الله تعالي الامهال الي يوم القيمة لاجل ان يحتنك
ذرية آدم ذكر الله تعالي له اشيا الاول اذهب اي امض لما عزمت عليه
امهلتك هذه المدة وليس من الذهاب الذي هو ضد المجي الثاني قوله
تعالي واستفزز اي استمل من استطعت منهم ان تستفزهم ثم الذين
سلطناك عليهم بصوتك قال ابن عباس معناه بدعايتك الي معصيتي
اسوكل داع الي معصية الله فهو من جند ابليس وقيل اراد بصوتك
الغنا واللهو واللعب الثالث قوله تعالي واجلب اي صح عليهم من
الجلبة وهي الصياح بخيلك ورجلك واختلفوا في الخيل والرجل علي
اقوال الاول روي ابو الضحي عن ابن عباس انه قال كل راكب او راجل
في معصية الله وعلي هذا فتخيله ورجله كل من شاركه في الدعا الي
المعصية الثاني يحتمل ان يكون لابليس جيش من الشياطين بعضهم
راكب وبعضهم راجل الثالث ان المراد منه ضرب المثل كما يقال للرجل
المجد في الامر جد بالخيل والرجل قال الزاجز وهذا اغرب وقال
الزمخشري هو كلام ورد هو ورد التمثيل مثل في تسلطه علي من يغويه
بغوار وقع علي قوم فقوت بهم صوتا يستفزهم من اماكنهم وتقلقلهم
عن مراكزهم واجلب عليهم بخيله من خيالة ورجالة حيث اساصلهم
والخيل تقع علي الفرسان قال صلي الله عليه وسلم يا خيل الله اركبي
وقد تقع علي الافراس خاصة وتراحضر عن عاصم بكسر الجيم وسكونها
الباقون جمع راجل كصاحب وصحب وراكب وركب ورجل بالكسر والضم

لغتان مثل جذر وجذر وهو معزد اريد به الجمع الرابع قوله تعالى **وشاركهم في الاموال والاولاد** اما المشاركة في الاموال فقال مجاهد كل ما اصيب من حرام او انفق في حرام وقال قتادة هو جعلهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وقال الضحاك هو ما يذبحون لالهتهم وقال عكرمة هو تبتيكهم اذان الانعام وقيل هو جعلهم من اموالهم شيأ لغير الله كقولهم هذا لله وهذا لشركائنا ولا منافاة بين جميع هذه الاقوال واما المشاركة في الاولاد فقال عطا عن ابن عباس هو تسمية الاولاد بعبد شمس وعبد العزى وعبد الدار ونحوها وقال الحسن هو انهم يهودوا اولادهم ومجسوهم وروي عن جعفر بن محمد ان الشيطان يتعقد على ذكر الرجل فاذا لم يقل بسم الله اصاب معه امراته او انزل في فرجها كما ينزل الرجل ويقال في جميع هذه الاقوال ايضا ما تقدم وروي ان رجلا قال لابن عباس ان رجلا استيقظت وفي فرجي شهوة نار قال ذاك من وطيء اهلي وفي الاثار ان ابليس لما خرج الى الارض قال يا رب اخرجتني من الجنة لاجل آدم فسلطني عليه وعلى ذريته قال انت مسلط قال لا استطيع الا بك فزدني قال استعذ مني استطعت منهم بصوتك قال لا دم يأتي سلطت ابليس علي وعلى ذريتي واني لا استطيعه الا بك قال لا ولد لك ولد الا وكلت به من يحفظه قال زدني قال الحسنة بعشرة امثالها والسيئة بمثلها قال زدني قال التوبة مبسوطة ما دام الروح في الجسد قال زدني فقال يا عبادي الذين اسرفوا الاية وفي اخبار ان ابليس قال يا رب بعثت انبيا وانزلت كتبا فما قرائي قال الشعر قال فما كتابي قال الوشم قال ومن رسولي قال الكهنة قال اين طعامي قال ما لم يذكر عليه اسمي قال فما شرابي قال كل مسكر قال واين مسكني قال الحمامات قال واين مجلسي قال الاسواق قال وما هبا يلي

قال

قال النسفي قال وما اذا في قال المزمار الخامس قوله تعالى **وعدهم** اي من المواعيد الباطلة مما يستخفهم ويغرهم من ذلك وعدهم بان لا جنة ولا نار ومن ذلك شفاعة الائمة والكرامة على الله بالانساب الشريفة وتسويف التوبة وايثار العاجل على الآجل ونحو ذلك من قوله تعالى **وما يعدهم الشيطان** من باب الالتفات واقامة الظاهر مقام المضمر ولو جرى على سنن الكلام الاول لقال وما يعدهم بالتاء من فوق وقوله تعالى **الا غرورا** فيه اوجه احدها انه نعت مصدر محذوف وهو نفسه مصدر الاصل الا وعدا غرورا الثاني انه مفعول من اجله اي ما يعدهم من الاماني الكاذبة الا لاجل الغرور الثالث انه مفعول به على الاتساع اي ما يعدهم الا الغرور نفسه والغرور تزيين الباطل بما يلين للحق فان قيل كيف ذكر الله تعالى هذه الاشياء لابليس وهو يقول ان الله لا يامر بالفحشاء اجيب بان هذا على طريق الوعيد له كقوله تعالى اعملوا ما شئتم وكقول القايل اعمل ما شئت فسوف ترى وكما يقال اجمد حمدك فسوف ترى ما يزل بك ولما قال تعالى له افعل ما تقدر عليه قال تعالى **ان عبادي** اي الذين اصلتهم للعبادة للاضافة الي فتقول الواجب عبوديتي بالتقوى والاحسان **ليس لك عليهم سلطان** اي فلا تقدر ان تقويهم وتحملهم على ذنب لا يغفر فاني لا اقبلهم للتوكل علي فكفيتهم امرك **وكفى بربك** اي الموجد لك **وكيلا** اي حافظا لهم منك ولما ذكر تعالى انه الوكيل الذي لا كافي غيره اتبعه بعض افعاله الدالة على ذلك بقوله تعالى **ربكم** اي المتعرف فيكم هو **الذي يزجي** اي يجري **لكم الفلك** وهي التي حملكم فيها مع ابيكم نوح عليه السلام **في البحر لتبتغوا** اي لتطلبوا **من فضله** الربح وانواع الاسعة التي لا تكون عند كثير علل ذلك بقوله تعالى **انه** اي فضل ذلك لانه **كان** اي ازلا

وابدأ بكم رحيما حيث هيأ لكم ما تحتاجون اليه وسهل عليكم ما يعسر عليكم
من اسبابه تنبيه الخطاب في قوله ربكم وفي قوله تعالى انه كان بكم
عليم في حق الكل والمراد من الرحمة منافع الدنيا ومصالحها واما قوله تعالى
واذا مسكم الضر اي الشدة في البحر خطاب للكفار بدليل قوله تعالى ضل
اي غاب عن ذكركم وخواطركم من تدعون اي تعبدون من الالهة الا
اياه وحده فاخلصتم له الدعاء علما منكم انه لا ينجيكم سواه فلما نجاكم من
الغرق واوصلكم بالتدريج الى البر اعرضتم عن الاخلاص له ورجعتم الى
الاشراك وكان الانسان اي هذا النوع كفورا اي مجحود النعم بسبب انه
عند الشدة يتمسك بفضله ورحمته وعند الرخاء والراحة يعرض عنه
ويتمسك بقوله تعالى افامنتم الهمزة فيه للانكار للعطف على محذوف
تقديره ايجوز تم من البحر فامنتم بعد حزوجكم منه ان يخسف بكم جانب
البر فيغيبكم في اي جانب كان منه لان قدرتنا على التغييب في الكل
على السواء فعلى العاقل ان يستوي خوفه من الله تعالى في جميع الجوانب
او امنتم ان نرسل عليكم من جهة الفوق شيئا من امرنا حاصبا اي نمطر
عليكم حجارة من السماء كما امطرناها على قوم لوط قال الله تعالى انا
ارسلنا عليهم حاصبا وقيل الحاصب الريح ثم لا تجدوا اي ايها الانسان
لكم وكيلا يحميكم من ذلك ومن غيره كما لم تجدوا في البحر وكيلا غيره ام
امنتم اي جاوزتم لكم البتة وقد رأيتم ذلك فلم يجز واذ ذاك ان نعيدكم فيه
اي البحر الذي نصفر لكم اليه ذلك فنتسركم عليه وان كررهم تارة اخرى
بأسباب تقتضي كرهم الى ان ترجعوا فتركبوه فنرسل عليكم قاصفا من
الريح اي ريحا شديدة لا تبقي الا تقطعه فتكسر فلكهم فنغرقكم في البحر
الذي اعدناكم فيه بقدرتنا بما كفرتم اي بسبب اشراككم وكفرانكم نعمة
الانجاء ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا اي مطالبا يطالبنا بما فعلنا بكم

تنبيه

تنبيه قرأ ابن كثير وابو عمرو وابن عامر وحفص عن عاصم بنون العظمة
وباقي السبعة بالياء الغيبية والقراءة الاولى على نسق الالتفات عن الغائب
في قوله تعالى ربكم الذي الخ والقراءة الثانية على ما تقدم من الخفية ان
الله تعالى ذكر نعمتا اخرى رفيعة جليلة على الانسان وذكر فيها اربعة انواع
النوع الاول قوله تعالى ولقد كرمنا اي بعظمنا فكرمنا عظيما بني آدم وحذف
متعلق التكريم ففي اختلاف المفسرون فيه فقال ابن عباس كرمنا
بأكل بعضه لا ابن آدم فانه يأكل بيده وعن الرشيد انه احضر طعاما
فلما قدما بالملاعق وعندنا ابو يوسف فقال له خاني تفسير جدك
ابن عباس ولقد كرمنا بني آدم جعلنا لهم اصابع يأكلون بها فاهقر
الملاعق فردها ولكل باطل تابعة وروي عن ابن عباس انه قال
بالعقل وقال الضحاك بالنطق والتمييز وقيل على سائر الظبي بالكون
بالنهي وعلى النامي بالحياة وعلى سائر الحيوان بالنطق وقال
عطا بتعديل القامة واستدارها والدواب منكبة على وجوهها
قال بعضهم وينبغي ان يشترط مع هذا الشرط وهو طول القامة مع
اكمال القوة العقلية والحسية والحركية والا فالاشجار اطول
قامة من الانسان وقيل الرجال بالمحاريب والنساء بالذوائب وقيل
بأن سخر لهم سائر الاشياء وقيل بأن منهم جزامة اخرجت للناس وقيل
بحسن الصورة قال تعالى وصوركم فاحسن صوركم ولما ذكر تعالى
خلقة الانسان قال فتبارك الله احسن الخالقين قال الرازي وان
شئت فتامل عضوا واحدا من اعضاء الانسان وهي العين فخلق الحدقة
سوداء ثم احاط بتلك السواد ببياض العين ثم احاط بذلك البياض

سواد الاشفار ثم احاط بذلك السواد بياض الاجفان ثم خلق فوق بياض
الجفن سواد الحاجبين ثم خلق فوق ذلك السواد بياض الجبهة ثم خلق فوق
ذلك البياض سواد الشعر وليكن هذا المثال الواحد انموذجا لذلك في هذا
الباب اه واستدل به لشرف الانسان بان الموجود اما ان يكون ازليا
وابديا وهو الله تعالى واما ان لا يكون ازليا ولا ابديا وهو عالم الدنيا مع
كل ما فيه من المعادن والنبات والحيوان وهذا احسن الاقسام واما ان
يكون ازليا ولا يكون ابديا وهذا ممتنع الوجود لان ما ثبت قدمه امتنع
عدمه واما ان لا يكون ازليا ولكنه يكون ابديا وهو الانسان والملك
ولا شك ان هذا القسم اشرف من القسم الثاني والثالث وذلك
يقتضي كون الانسان اشرف من اكثر المخلوقات النوع الثاني قوله تعالى
وحملناهم في البر على الدواب وغيرها وفي البحر على السفن وغيرها
من حملته حملا اذ اجعلنا له ما يركبه او حملناهم بنيها حتى لم تخسفا بهم
الارض ولم نغرقهم في الماء النوع الثالث قوله تعالى ورزقناهم من الطيبات
اي المستلذات من الثمرات والاقوات وذلك لان الاعذية اما حيوانية
واما نباتية وكلا القسمين فان الانسان انما يتغذى بالطف انواعها
واشرف اقسامها بعد التنقية التامة والطبخ الكامل والنضج البالغ
وذلك مما لا يحصل الا للانسان النوع الرابع قوله تعالى وفضلناهم
في القسم باحسان الشكل وفي صفاتهم بالعلم المنتج لسعادة الدارين
على كثير ممن خلقنا اي بعظمتنا التي خلقناهم بها وآكد الفعل
بالمصدر اشارة الى اغراقهم في الفضيلة فقال تعالى تفضيلا
تنبيه ظاهر الاية يدل على فضلهم على كثير من خلقه لا على الكل وقال
قوم فضلوا على جميع الخلق الا على الملائكة وهو قول ابن عباس واختيار
الزجاج على ما رواه الواحدي في بسيطه وقال الكلبي فضلوا على

جميع

جميع الخلائق كلهم الا على طائفة من الملائكة جبريل وميكائيل واسرافيل
وملك الموت واشباههم وقالوا لقوم فضلوا على جميع الخلق وعلى الملائكة
كلهم وقد يوضع الاكثر موضع الكل كقوله تعالى هل انبئكم على من تنزل
الشياطين الى قوله تعالى واكثرهم كاذبون اي كلهم وروي جابر بن عبد
قال لما خلق الله تعالى آدم وذريته قالت الملائكة يا ربنا خلقتهم يأكلون
ويشربون وينكحون فاجعل لهم الدنيا ولنا الاخرة فقال تعالى لا اجعل
من خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له كن فكان والاول
اولى قاله بعض المحققين كالنبوي وابن عادل اذ يقال عوام الملائكة
افضل من عوام المكلفين وخواص المؤمنين افضل من خواص الملائكة
قال تعالى ان الذين امنوا وعملوا الصالحات اولئك هم خير البرية وروي
عن ابي هريرة قال المؤمن اكرم على الله من الملائكة عند رواه البيهقي
ورواه الواحدي في البسيط فان قيل قال تعالى في اول الاية ولقد
كرمنا بني آدم وقال في اخرها وفضلناهم فلا بد من الفرق بين التفضيل
والتكريم والا لزم التكرار اجيب بانه تعالى وفضل الانسان على سائر
الحيوانات بامور خلقية طبيعية ذاتية كالعقل والفطنة والحذاقة والصورة
الحسنة والقامة المديدة ثم اتبعه سبحانه وتعالى عرضه بواسطة العقل
والفهم لاكتساب العقائد الحقة والاخلاق الفاضلة والمآثر تعالى
انواع كرامات الانسان في الدنيا شرح احواله درجاتهم في الاخرة
بقوله تعالى يوم اي اذكر يوم ندعو اي بتلك العظمة كل اناس
اي منكم بامامهم الامام في اللغة من ائتم به قوما كانوا على هدى
او ضلالة فالنبي امام امته والخليفة امام رعيته والقرآن امام
المسلمين وامام القوم هو الذي يقتدون به في الصلاة وذكر واني
تفسير الامام هنا اقوالا احدها امامهم نبيهم روي ذلك من قوله الا بو

عربية عن النبي صلى الله عليه وسلم فينادي يوم القيمة يا امة ابراهيم يا امة
موسى يا امة عيسى يا امة محمد صلى الله عليه وسلم فيقوم اهل الكتب الذين
استنوا الالف فيأخذون كتبهم بايمانهم ثم ينادي الاتباع يا اتباع عوذيا اتباع
فيعودون بلا اتباع فلا ادفى فلا ادنى من رؤسا الضلالة واكابر الكفر الثالثة
اما سمعت كتابهم الذي انزل عليهم فينادي في القيمة يا اهل القرآن يا اهل
التوراة يا اهل الانجيل الثالثة اسلموا كتابه اعلموا قال تعالى في كل
شيء احصيناه في امام مبين فحصى الله تعالى هذه الكتب اجمعها قال
الزمخشري ومن بديع التفاسير ان الامام هو جميع ما يؤتم به الناس
يدعون يوم القيمة بامهاتهم دون ابائهم وان الكلمة الرعاية حق عيسى
واظهار شرف الحسن والحسين وانه لا تفضح اولاد الزنا قال ولبعضهم
شعر في امثال البدع البدع الصحيفة لغة ام بها حكمة قال ابن عادل وهو
مهجور لان امثال الامام على امام هذا القول من الايوف الصحائف ولا
لغة العرب فمن اوتي اي من المدعوين كتابه اي كتاب عمله بيمينه وهم
المسعدا اولوا البصائر في الدنيا فاولئك يقرؤن كتابهم ابتهاجا
وتيمنا بما يرون فيه من الحسنات ولا يظلمون ينقص حسنة ما من ظالمها
فتيلا اي مثل في غاية القلة والحقارة بل يزاد وتبه بحسب احوال
النبات وطهارة الاخلاق وزكاء الاعمال بتنبيه الفتيل القشرة
التي في شق النواة سمي بذلك لانه اذا ازيل الانسان اخراجه
الفتيل وهذا مثل يضرب للشيء الحقير التافه ومثله القطمير وهو
القلفة التي في ظهر النواة والفتيل هي النقرة التي في ظهر النواة
وروي مجاهد عن ابن عباس قال الفتيل هو الوسخ الذي يتتله
الانسان بين سبابته وابهامه فان قيل لم خص اصحاب اليمين ببراءة
كتابهم مع ان اهل الشمال يقرؤنه اجيب بانه اصحاب الشمال

اذا

اذا طالعوا كتابهم وجدوه مشتملا على اتم ملكات العظيمة والقبائح الكاملة
فيتولى الخوف على قلوبهم ويشغل لسانهم فيعجزون عن القراءة الكاملة
واما اصحاب اليمين فامرهم على عكس ذلك لاجرم انهم يقرؤن كتابهم على
احسن نمط لا تفيعون نبقراتهم وحدهم بل يقوله القاري لاهل المحشر هاؤم
اقرؤا كتابيه جعلنا الله وجميع احبابنا منهم ثم قال ومن كان منهم
في هذه اي الدار اعمى اي صار لا يتهدى في الافعال بعقل الا يعمى فيأخذ
الاعيان لا يهتدي الى اخذ ما ينفعه ويترك ما يضره ولا يميز بين حسن
وقبيح فهو في الاخرة اعمى اي اشد عمى مما كان عليه في هذه الدار
لا يهتدي لقصد ولا يهتدي لصواب ولم يقل فهو اعمى اشد عمى كما يقال في الكلفي
الالزمة لي الذ واحدة مثل العور والحمر فهو اسود ونحوها لان هذا مراد
به عمى الذي من شانه التزايد والحدوث في كل لحظة شيأ بعد شيء واضل
سبيلا لان هذه الدار دار الاكتساب والترقي في الاسباب وما ملكه
فليس فيها شيء من ذلك وقال عكرمة جاء نفر من اهل اليمن الى ابن عباس
فسأله رجل عن هذه الاية فقال اقرأ ما قبلها فقرأ ربكم الذي يزجي
لكم الفلك الى قوله تفضيلا فقال ابن عباس من كان اعمى في هذه
النعم التي قد رأى وعاين فهو في الاخرة التي لم يعاين ولم ير اعمى واضل
سبيلا وعلى هذا فالاشارة في قوله هذه الى النعم المذكورة في الايات
المتقدمة وحمل بعضهم العمى الثاني على عمى العين والبصر كما قال ونحشره يوم القيمة اعمى قال رب لم حشرتني اعمى وقد كنت بصيرا قال
كذلك اتتك اياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وقال تعالى ونحشرهم
يوم القيمة على وجوههم عميا وبكما وصما وهذا العمى زيادة في عقوبتهم
ولما عدد تعالى في الايات المتقدمة اقسام نعمه على خلقه وانبهم
بذكر وجوه اخلق في الاخرة وشرح احوال السعداء ردفه بما يجري

مجرى تحذير السعداء عن الاغترار بوسواس ارباب الضلال والانخداع
بكلماتهم المشتملة على المكر والتلبيس فقال تعالى وان كادوا اي قاربوا
في هذه الحياة الدنيا لمساعيهم في التشهير عن عصمة الله تعالى لك ولما
كانت اذ هي المخففة من الثقيلة اتي باللام الفارقة بينها وبين النافية
بقوله تعالى ليفتنونك اي ليحملونك بمحالطة تمليكك الى جمعة قصدهم
لكثرة حذاقهم واختلف في سبب نزول هذه الاية فروي عطاء عن
ابن عباس قال نزلت هذه الاية في وفد ثقيف اتوا رسول الله
صلى الله عليه وسلم وقالوا نبايعك على ان تعطينا ثلاث خصال قال
وما هن قالوا ان لا نجبى في الصلاة بفتح الجيم والباء الموحدة المشددة
اي لا ننحني فيها ولا نكسر اصنامنا الا بايدينا وان لا تمتعنا من اللات
والعزى سنة من عين ان نعبدها فقال النبي صلى الله عليه وسلم
لا خير في دين لا ركوع فيه ولا سجود واما ان تكسروا اصنامكم بايديكم
فذلك لكم واما الطاغية يعني اللات والعزى فاني عين ممتعكم بها
وفي رواية وحرم واديكم كما حرمت مكة شجرها وطيرها وحشيشها فابى
ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجبهم فقالوا يا رسول الله
انا نحب ان تسمع العرب انك اعطيتنا ما لم تعط غيرنا فان خشيت
ان تقول العرب اعطيتهم ما لم تعطنا فقل الله امرني بذلك فسكت
النبي صلى الله عليه وسلم فطمع القوم في سكوته ان يعطيهم ذلك
ففاتح عليهم عمر وقال اما ترون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد
امسك عن الكلام كراهة لما تذكرونه فانزل الله تعالى هذه الاية
وقال سعيد بن جبير كان النبي صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر الاسود
فمنعه قريش وقالوا لا ندعك حتى تستلم بالهتنا وتمسها فحدث صلى
الله عليه وسلم نفسه ما علي ان افعل ذلك والله يعلم اني لها كاره

بعد

بعد ان يدعوني حتى يستلم الحجر فانزل الله تعالى هذه الاية وروي ان ثقيفا
قالوا له اجعل اية رحمة اية عذاب واية عذاب اية رحمة حتى نؤمن بك
فنزلت وان كادوا ليفتنونك عن الذي اوحينا اليك من اوامرنا
ونواهينا ووعدنا ووعيدنا لتفتري اي لتقول علينا غيره اي ما لم نقله
واذا اي لو مِلتَ الي ما دعوك اليه لاتخذوك اي بغاية الرغبة خليلا اي
لوالوك وصافوك واظهروا للناس انك موافق لهم على كفرهم وراض بشركهم
ومن يكن خليل الكفار لم يكن خليل الله تعالى ولكنك ابيت ربك
فلزمت امر الله واستمررت على عصمتنا اياك انما هو التفضيل لك على كل مخلوق
ولولا ان ثبتناك اي على التحقق بعصمتنا اياك لقد كدت اي قاربت تركن
اي تميل اليهم اي الى الاعداء شيئا اي ركونا قليلا لمحبتك في هداهم
وحرصك على منفعتهم ولكنا عصمناك فمنعناك ان تقرب من
الركون فضلا من ان تركن اليهم لان كلمة لولا تفيد انتفاء الثاني لثبوت
غيره تقول لولا زيد لهلك عمرو ومعناه ان وجود زيد مانع من حصول
الهلاك لعمرو فكذلك ها هنا قوله تعالى ولولا ان ثبتناك لقد كدت
تركن اليهم معناه لو لا حصل تثبيت الله محمدا صلى الله عليه وسلم لكان
تثبيت الله مانعا من حصول قرب الركون وهذا صريح في انه عليه
الصلاة والسلام ما هم بما جاءتهم مع قوة الداعي اليها ودليل على ان
العصمة بتوفيق الله وحفظه اذا اي لو قاربت الركون الموصوف اليهم
لاذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات اي مثلي ما يعذب
به غيرك في الدنيا والاخرة وكان اصل الكلام عذابا ضعيفا في الحياة
وعذابا ضعيفا في الممات ثم حذف الموصول واقيمت الصفة مقامه ثم
اضيفت كما يضاف موصوفها وقيل المراد بضعف الحياة عذاب الاخرة
وضعف الممات عذاب القبر والسبب في تضعيف هذا العذاب ان

انتقام الله تعالى في حق الانبياء عليهم الصلاة والسلام اكثر كانت ذنوبهم
اعظم كانت العقوبة المستحقة عليها اكثر ونظير قوله تعالى يا نساء النبي
من يات منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وقيل الضعف
من اسماء العذاب ثم لا تجد لك اي وان كنت اعظم الخلق واعلاهم مرتبة
وهمة علينا نصيرا اي مانعا يمنعك من عذابنا واختلفوا في مرجع قوله
تعالى وان اي وانهم كادوا اي الاعداء ليستفزونك اي ليقلعونك
من الارض ليخرجوك منها فقال ابن عباس ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم لما هاجر الى المدينة حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم
فقالوا يا ابا القاسم ان الانبياء انما بعثوا بالشام وهي بلاد مقدسة
وكانت مسكن ابراهيم فلو خرجت الى الشام آمنا بك واتبعناك وقد
علمنا انه لا يمنعك من الخروج الا خوف الروم فان كنت رسول الله
فالله يمنعك منهم فعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على اميال
من المدينة وقيل بذي الخليفة حتى يجتمع له اصحابه ويراه الناس
عازما على الخروج الى الشام فيدخلوف في دين الله فنزلت هذه
الاية فرجع وهذا قول الكلبي وعلى هذا قال الاية مدنية والمراد
بالارض ارض المدينة وقال قتادة ومجاهد الارض ارض
مكة والاية مكية يعني المشركون ان يخرجوا رسول الله صلى الله
عليه وسلم من مكة فكفهم الله تعالى عنه حتى امره بالهجرة فخرج
بنفسه قال ابن عادل تبعا للرازي وهذا اليق بالاية لانه ما
قبلها خبر عن اهل مكة والاية مكية السورة مكية وهذا اختيار
الزجاج وكثير في التنزيل ذكر الارض والمراد منها مكان مخصوص كقوله
تعالى او ينفوا من الارض اي من مواضعهم وقوله تعالى حكاية عن اخوة
يوسف فلن ابرح الارض يعني الارض التي كان قصدها الطلب الميرة

فان

فان قيل قوله تعالى وكاين من قرية هي اشد قوة من قريتك التي اخرجتك
يعني اهل مكة واراد اهلها فذكر تعالى انهم اخرجوه وقال تعالى وان
كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها فكيف الجمع بينهما اجيب
بانهم لما اجرأهم على ما فعلوه من اخراجه صلى الله عليه وسلم ما خرج بسببه اخرجوه وانما
يخرج ما اراده الله تعالى ويحتمل ان قوله تعالى وان اي وان الاخراجك لا يلبثون
خلفك اي بعد اخراجك لو اخرجوك الا زمنا قليلا اي وقد كان كذلك
على القول الثاني فانهم اهلكوا ببدر بعد هجرته وعلى القول الاول
قتلوا بعد هجرته قراءة ابي عمرو بخلف عنه بالاشمام وقرا نافع وابن كثير وابو
عمرو وشعبة بفتح الخاء وسكون اللام والباقون بكسر الخاء وفتح اللام
وبعد هذا قال الشاعر عفت الطيار اي اندرست وبعد خلافهم
اي خلفهم وكانما بسطت لك بها من حصير الشواطب النساء اللاتي
يشققن الجريد لينسجن منه حصيرا وسن ذيادا طلاحية بعدهم وانما
غير ملموسة كما بسط في سنن النحل ولما اخبره بذلك اعلمه الله سنة
من جميع الرسل بقوله تعالى سنة اي كسنة او سنتنا سنة من قد
ارسلنا قبلك اي من الانبياء الماضية كلما عوتبوا اعادهم كل
امة الى جواب رسولهم فمن بين ظاهر ومن الحسنة بعد واضافها الى الرسل
لانها من احكامهم ودليل عليه قوله تعالى ولا تجد لسنتنا تحويلا اي تغييرا
ولما ذكر تعالى الالهيات وما يتعلق بالمعاد والنبوات اردفها بذكر الامر بالطاعات
فامر في الطاعات بعد الايمان بالصلاة فقال تعالى لنبيه صلى
الله عليه وسلم اقم الصلاة بفعل جميع اركانها وشرائطها حيث تصير
كاملة تنهى فاعلها عما يضادها من المنهيات والاعراض
عن كل غير وفنا كل سوى بما استرق من الوارد لتحضر التي اضمحل الكل
الكل فافهم في ذلك اشارة عظيمة الى ان الصلاة اعظم ناصر على

عات

الا عداء الذين يريدون بعكوسهم استغزال الاولياء ولذا كان صلى الله عليه وسلم
اذا حزبه امر فزع الى الصلاة ثم عينى لم الاوقات بقوله تعالى لدلوك
الشمس في هذه اللام قولان احدهما انها بمعنى بعد اي بعد دلوك
الشمس ومثله قوله تعالى فلما انتزعناها كافي وجه الكلام لطول اجتماع لم بيت
ليلة معا والثاني انها على بابها لانها انما تجب بزوال الشمس والدلوك
يعتبر ذلك الشمس وفيه اقوال احدها انه الزوال وهو قول ابن عباس
وابن عمر وجابر واكثر التابعين ويدل لذلك قوله صلى الله عليه وسلم
اتاني جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر وقول اهل
اللغة معنى الدلوك في كلام العرب الزوال ولذلك قيل للشمس اذا
زالت نصف النهار دالكة والثاني انه الغروب وهو قول ابن مسعود
ونقله الواحدي في البسيط عن علي رضي الله تعالى عنه وبه قال
ابو هريرة النخعي والضحاك والسدي وهو احتيار الفراء وكما يقال للشمس
اذا زالت ينصف النهار دالكة يقال لها اذا غربت دالكة لانها في
الحالين زائلة قال اللازهري والثالث انه من الزوال الى الغروب
وقال في القاموس دلكت الشمس غربت او اصفرت او زالت او
زالت عن كبد السماء فيحتمل لسما فيحتمل في هذه اللفظة دلالة على الظهر
والعصر والمغرب من استعمال المشترك في معانيه اما في الظهر والمغرب
فواضح لما مر واما في العصر فلان اول وقتها اول اخذ الشمس في
الاصفرار والدليل على ذلك انه تعالى عبر باللاقامة لوقت القضاء
بقوله تعالى الى غسق الليل اي ظلمته وهو وقت صلاة عشاء
الاخرة والغاية ليست هنا داخلة لما سياتي وقد اجمعوا على ان المراد من
قوله تعالى وقرآن الفجر اي صلاة الصبح وهو منصوب قيل على الاغراء
اي وعليكم بقرآن الفجر ورد بان اسم الافعال لا تعمل مضمرة وقال الفرا

انه منصوب بالعطف على الصلاة في قوله تعالى اقم الصلاة والتقدير اقم
الصلاة واقم قرآن الفجر وح تدخل الصلوات الخمس في هذه الاية قال
ابن عادل كالرازي وحمل كلام الله تعالى على ما يكون اكثر فائدة اولى
اه وسميت صلاة الصبح قرآنا لانتظامها عليه لانه تطول فيها القراءة حتى لا
يطول في غيرها فالمقصود من قوله تعالى وقرآن الفجر الحث على طول القرآ
فيها اكثر من غيرها لان التخصيص بالذكر يدل على كونه اكمل من غيره ولما
كان القيام عند الامام يشتق عليهم ويطول عليهم اظهر غيره عظم لان المقام مقام
تعظيم فقال ان قرآن الفجر كان مشهودا اي تشهده ملائكة الليل
وملائكة النهار يزكيه هؤلاء ويصعد هؤلاء فيتوفى اخر ديوان الليل واول
ديوان النهار وقال الرازي ثم ان ملائكة الليل اذا صعدت قالت ملائكة
النهار تركنا عبادك يصلون ذلك ويقول لهم ملائكة النهار ربنا اتيناهم عباد
ربهم يصلون فيقول الله تعالى لملائكته اشهدوا باني قد غفرت لهم
وقال ابو هريرة رضي الله تعالى عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول تفضل صلاة الجمع صلاة احدكم وحده بخمس وعشرين درجة
ويجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر ثم يقول ابو هريرة
اقرؤا ان شئتم ان قرآن الفجر كان مشهودا ولو هذا يدل على ان التغليس
افضل من التنوير لان الانسان اذا شرع في صلاة اول الوقت ففي ذلك
الوقت ظلمة باقية فتكون ملائكة الليل حاضرة ثم اذا امتدت الصلاة
بسبب ترتيل القرآن وتكثير ركعاتها زالت الظلمة وظهر الضوء وحضرت
ملائكة النهار واما اذا ابتدا بعد الصلاة في وقت التنوير فهناك
لم يبق احد من ملائكة الليل فلا يحصل المعنى المذكور بقوله كان مشهودا
يدل على ان التغليس افضل وايضا الانسان اذا شرع في صلاة الصبح
من اول هذا الوقت كانت الظلمة القوية في العالم فاذا امتدت القراءة

ففي اثناء الوقت ينقلب العالم من الظلمة الي الضوء والغفلة مناسبة للموت
والعدم والضوء مناسبة للحياة والوجود فالانسان لما قام من مناصه
فكانه انتقل من الموت الي الحياة ومن العدم الي الوجود ومن السكون
الي الحركة وهذه الحالة العجيبة تشهد العقول بانه لا يقدر على هذا
التقليب الا الخالق المدبر بالكلية الباسط فيستنير العقل بنور عند
المعرفة ويتجلى من موضع قلبه فان اكثر الخلق وقعوا في امراض القلوب
وهي حب الدنيا والحرص والحسد والتفاخر والتكاثر وهذه الدنيا مثل
دار المرضى اذ الكافة مملوة من المرضى والانبياء كالاطباء الحاذقين والمربين
لما كان قد يتوهم مرضه فلا يعود الي الصحة الا بمعالجات قوية وربما كان
المربي جاهلا فلا يستفاد للطبيب ولا لغيره في اكثر الامر لان الطبيب
اذا كان متفاحذا فانه يسعى في ازالة ذلك المرض بكل طريق
يقدر عليه واذا لم يقدر عليه وانه يقدر على ان التدانه يسعى في
تقليله وفي تخفيفه فلما كان مرض الدنيا مستوليا على الخلق ولا علاج
له الا الدعوة الي معرفة الله سبحانه وتعالى وحده ومحبته وطاعته وهذا
علاج شاق على النفوس وقل من يقبله وينقاد له للجزم ان الانبياء
اجتهدوا في تقليل هذا المرض فجعلوا الخلق على الشروع في الطاعة والعبودية
في اول وقت الفطام من النوم لانه ما ينفع في ان التعهد المرضى ثم حث كله
وتعالى على التهجد لافضليته وارشد اليه بقوله تعالى ومن الليل اي فتهجد
او قم بعض الليل فتهجد اي دع النوم وترك الكسل للصلاة يقال تهجد
نام ليلا او سهر وتهجد وتهجد سهر فهو من الاضداد ومنه قيل لصلاة الليل
التهجد قاله في الصحاح والضمير في به لمطلق القرآن والمراد من الآية قيام
الليل لصلاة النافلة فلا يحصل التهجد الا بصلاة تغاير النوم وكانت فريضة
على النبي صلى الله وعلى آله في الابتدا بقوله تعالى يا ايها المزمل قم الليل

الا قليلا ثم نسخ بما في آخرها ثم نسخ بما في الصلوات الخمس وبقي قيام
الليل على الاستحباب بقوله تعالى فاقرؤا ما تيسر منه وبقي الوجوب في حقه
صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى به نافلة لك اي زيادة لك مختصة
بك وروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم قال
ثلاث هن علي فرائض وهن سنة لكم الوتر والسواك وقيام الليل والصحيح
انه نسخ في حقه ايضا ودليل النسخ رواه مسلم وقد ورد احاديث كثيرة في
قيام الليل منها ما روي عن المغيرة بن شعبة انه قام صلى الله عليه وسلم
حتى انتفخت قدماه فقيل له اتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك
وما تأخر قال افلا اكون عبدا شكورا ومنها ما روي عن زيد بن خالد
الجهني انه قال لارمقن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة فتوسد
عتبته او فسطاطه فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم صلى ركعتين طويلتين
ثم ركعتين طويلتين ثم ركعتين طويلتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم اوتر فذلك
ثلاث عشر ركعة فهذا قيل انه اكثر الوتر وهو احد قولي
الشافعي والمرجح عنده ان اكثره احدى عشر ركعة لما رواه ابو سلمة انه
سال عائشة رضي الله تعالى عنها عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم
قالت ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على احدى عشر ركعة اي وترا
يصلي اربعا فلا تسال عن حسنهن وطولهن ثم يصلي اربعا فلا تسال عن
حسنهن وطولهن ثم يصلي ثلاثا قالت عائشة رضي الله تعالى عنها فقلت
يا رسول الله اتنام قبل ان توتر فقال يا عائشة ان عيني تنام ولا ينام
قلبي ومنها ما روي عن انس بن مالك قال ما كنا نشاء ان نرى رسول الله صلى الله
عليه وسلم في الليل مصليا الا رايناه وما شاء ان نراه نائما الا رايناه
وفي رواية غيره قال وكان يصوم من الشهر حتى نقول لا يفطر منه شيا وتيفطر
حتى نقول لا يصوم منه شيا ثم قال تعالى عسى ان يبعثك ربك اي المحمود

البك مقاما محمودا اتفق المفسرون على ان كلمة عسى من الله واجب قال اهل
اللغة كل ترج في القرآن فهو حقيق تفيد الاطماع في من اطمع انسانا في شيء ثم حرمه
كان ذما لله تعالى والله اكرم من ان يطمع احدا في شيء ثم لا يعطيه ذلك واما المقام
المحمود فقال الواحدي اجمع المفسرون على ان المقام المحمود هو الشفاعة كما قال
صلى الله عليه وسلم في هذه الاية هو المقام الذي اشفع فيه لامتي
وقال مجاهد يجمع الناس في صعيد واحد فلا تكلم نفس فاول من يدعى محمد
صلى الله عليه وسلم فيقول لبيك وسعديك والخير بيديك والشر ليس اليك والمهدي
من هديته وعبدك ببابك وبك واليك لا ملجأ ولا منجا منك الا اليك
تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت فهذا هو المراد من قوله تعالى عسى
ان يبعثك ربك مقاما محمودا ويدل للاول احاديث منها ما روي عن
ابي هريرة انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل نبي دعوة مستجابة
واني اختبأت دعوتي شفاعة لامتي وهي نائلة منكم ان شاء الله تعالى من
مات لا يشرك بالله شيئا ومنها ما روي عن جابر انه قال ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة
التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما
محمودا الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيمة ومنها ما روي عن
انس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يحبس المؤمنون يوم القيمة
حتى يهموا بذلك فيقولون لو استشفعنا الى ربنا فيريحنا من مكاننا
فيأتون آدم فيقولون انت آدم ابو البشر خلقك الله بيده واسكنك
جنته واسجد لك ملائكته وعلمك اسماء كل شيء اشفع لنا عند ربك حتى
يريحنا من مكاننا هذا فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي اصاب
اكله من الشجرة وقد نهي عنها ولكن ائتوا نوحا اول نبي بعثه الله الى
اهل الارض فيأتون نوحا فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي اصاب

سؤاله

سؤاله بغير علم ولكن ائتوا ابراهيم خليل الرحمن فيأتون ابراهيم فيقول
لست هناكم ويذكر ثلاث كذبات كذبهن ولكن ائتوا موسى عبدا اتاه الله
التوراة وكلمه وقربه نجيا فيأتون موسى فيقول لست هناكم ويذكر
خطيئته التي اصاب قتله النفس ولكن ائتوا عيسى عبد الله وكلمته قال
فيأتون عيسى فيقول لست هناكم ائتوا محمدا عبدا غفر الله له ما تقدم من
ذنبه وما تأخر فيأتوني فاستأذن على ربي فيؤذن لي فاذا رأيته
وقعت ساجدا فيدعني ما شاء الله ان يدعني فيقول ارفع راسك يا محمد
وقل يسمع واشفع تشفع وسل تعطه قال فارفع راسي فاثني ثناء وتحميدا
يعلمنيه فيحد لي حدا فاخرج فادخلهم الجنة ثم اعود فاقع ساجدا
مثله فيدعني ما شاء الله ان يدعني فيقول ارفع يا محمد وقل تسمع واشفع
تشفع وسل تعطه قال فارفع راسي فاثني علي ربي بمحامد وتحميد يعلمنيه
قال ثم اشفع فيحد لي حدا فاخرج فادخلهم الجنة قال فلا
ادري في الثالثة او الرابعة فاقول يا رب ما بقي الا من حبسه القرآن
اي وجب عليه الخلود وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما مقاما محمودا
يحمده فيه الاولون والآخرون وتشرف فيه على جميع الخلائق وتسأل
فتعطى وتشفع فتشفع ليس احد الا تحت لوائك فهذه الاخبار في الشفاعة
كثيرة وفي هذا القدر كفاية لاولي البصائر حملنا الله واحبابنا من
اهلها الداخلين تحت شفاعة سيد الانبياء والمرسلين امين واختلف
اهل التفسير في قوله تعالى وقل رب ادخلني مدخل صدق واخرجني مخرج
صدق فقال ابن عباس والحسن ادخلني مدخل صدق المدينة واخرجني
مخرج صدق مكة لما امره الله بالهجرة وقال الضحاك
اخرجني مخرج صدق مكة آمنا من المشركين وادخلني مدخل صدق ظاهرا
عليها بالفتح وقال مجاهد ادخلني في امرك الذي ارسلتني به من النبوة

مدخل صدق واخرجني من الدنيا وقد قمت بما وجب علي من حقها مخرج صدق
من مكة وقيل ادخاله القبر واخراجه منها الماد وقيل ادخلني في امر ادخل صدق
الجنة واخرجني مخرج صدق من مكة وقيل ادخلني في القبر مدخل صدق وادخلني
مرضيا واخرجني منه عند البعث مخرج صدق ملقى مكنني بالكرامة
واكمل لي هذه الاقوال ما جرى عليه البيضاوي في تفسيره بقوله في كل مقام
تريد ادخالي فيه حسبي وهو ثوبي دنيا واخرجني عند خروج صدق وتحقيق الادخال
فيه ان تقال له انت صادق في كل ما تفعله وتفعل بي فاذنه الوجيه لا يكون شفعه
الله وجيها واخرجني من كل ما تخرجني منه مخرج صدق اه واكراد من المدخل
والمخرج الادخال والاخراج ومعنى اضافة المدخل والمخرج الى الصدق مدحهما
كانه سال الله تعالى ادخالا حسنا واخراجا حسنا لا يرى فيه ما يكره ثم سال
الله ان ينصره بالحجة وبالقهر والقدرة فقال واجعل لي من
لدنك اي عندك سلطانا نصيرا اي حجة بينة تنصرني بها على جميع من خالفني
وقد اجاب الله تعالى دعاءه واعلمه الله بقوله من الناس بقوله تعالى
والله يعصمك من الناس وقال تعالى الا ان حزب الله هم الغالبون وقال
تعالى ليظهره على الدين كله وعده تعالى ووعده ليظهره على الدين كله وعده
تعالى ليمين عن هلكه مفارين والردم فيجعله له وعنه صلى الله عليه وسلم
انه استعمل عتاب بن اسيد على اهل مكة وقال انطلق فقد استعملتك على
اهل الله فكان شديدا على المريبين المنافقين ليتاء على الى مين وقال
والله لا اعلم متخلفا عن الصلاة الا منافقا فقالوا اهل مكة يا رسول الله قد
استعملت على اهل الله عتاب بن اسيد اعرابيا جافيا فقال صلى الله عليه
وسلم اني رايت فيما يرى النائم كان عتاب بن اسيد اتى باب الجنة فاخذ
بحلقة الباب فقلقلها قلقلة الا شديدا حتى فتح له فدخلها فاعز الله الاسلام
لنصرته المسلمين بحق من يريد ظلمهم فذلك السلطان النصير عز اهله الله تعالى ان

يجبر

وقل اي لاوليائك واعدائك جاء الحق وهو ما امر به ربي وانزله الي وزهق اي اضمحل وبطل وهلك الباطل وهو كل ما يخالف الحق ثم علل زهوقه بقوله تعالى ان الباطل اي وان ارتفعت له دولة وصولة كان في نفسه بجبلته وطبعه زهوقا اي لا يبقى بل يزول على اسرع الوجوه وقته واسرع رجوع فقناه الله تعالى من الازل روى البخاري في التفسير عن ابن مسعود قال دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنما صنم كل قوم بجيالهم فجعل يطعنها بعود في يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل فجعل الصنم ينكب لوجهه وعن ابن عباس كانت لقبايل العرب اصنام يحجون اليها ويجزرون لها فشكى البيت الى الله تعالى فقال اي رب الي ممن تعبد هذه الاصنام حولي دونك فاوحى الله تعالى الي البيت اني ساحدث لك تن به جديدة فاملاك حدود بعدد ايدي فوفك الي الشور ويحنوك اليك وحنين الطير الى بيضها لهم عجيج حولك بالتلبية ولما نزلت هذه الاية يوم الفتح جاء جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم خذ مخصرتك ثم القها فجعل ياتي صنما صنما وهو ينكث بالمخصرة في عينه ويقول جاء الحق وزهق الباطل ينكب الصنم لوجهه حتى القاها جميعا وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة كان من نحاس اصفر فقال يا علي اركم به فحمله علي الله عليه وسلم حتى صعد وحتى به فكسره فخبار اهل مكة يتعجبون ويقولون ما كنا نرى رجلا اسحر من محمد قال الزمخشري وكناية البيت والوحي اليه تخييل وتمثيل وتبيين سبحانه وتعالى الالهيات والنبوات والحشر والنشر واثبات القضاء والقدر ثم اتبعه بالامر بالصلاة وبنبه على ما فيها من الاسرار وكان القرآن هو الجامع لجميع ذلك اتبعه ببيانه كونه شفاء ورحمة بقوله تعالى وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمومنين اي ما هو شفاء في تقويم دينهم واستصلاح

كلمة وقال تعالى ليست في الاصل فتنبه

نفوسهم كالدوآ الشافي للمريض تنبيه في من هذه ثلاثة اوجه احدها
لبيان الجنس قاله الزمخشري والبيضاوي وابن عطيه وابو البقاء ورد
عليهم ابو حيان بان التي للبيان لابد ان يتقدم
عليه وهنا قد وجد تقديمها عليه الثاني انها للتبعيض وانكره ايضا
لانه يلزم ان لا يكون بعضه شفاء واجاب ابو البقاء بان منه ما يشفي
من المرض وهذا قد وجد بدليل رقية بعض الصحابة سيد الحي الذي لدغ
بالفاتحة فشفي من المرض فيكون التبعيض بالنسبة للامراض الجسمانية والا
فهو كله شفاء للابدان وللقلوب من الاعتقادات وغيرها الثالث انها
لابتداء الغاية وهو كما قال ابن عادل واضح ومن العجيب ان هذا الشفاء
لا يزيد الظالمين وهم الذين يضعون الشيء في غير موضعه باعراضهم عما يجب
قوله الا خسارا اي بنقصان لانه اذا جاءهم وقامت به الحجة عليهم اعرضوا
عنه فكان اعراضهم ذلك زيادة في كفرهم كما ان قبول المؤمنين له وانقيادهم
على تدبر منهم زيادة في ايمانهم وفي الدارمي عن قتادة قال ما جالس احد
القرآن فقام عنه الا بزيادة او نقصان ثم قرأ هذه الآية ثم ان الله تعالى ذكر
السبب الاصلي في وقوع هؤلاء الجاهلين الضالين في اودية الضلال
وقطعان الخزي والنكال وهو حب الدنيا والرغبة في المال والجاه
واعتقادهم ان ذلك مما يحصل بسبب جدهم واجتهادهم فقال تعالى
واذا انعمنا اي عاما من العظمة على الانسان اي هذا النوع هو والاعم
وقال ابن عباس ان الانسان ها هنا هو الوليد بن المغيرة قال الرازي
وهذا بعيد بل المراد اي نوع الانسان اذا انعمنا عليه اعرض اي عن ذكرنا
وردعنا اذ شان نوع الانسان انه اذا فاز بمقصوده وصل الى مطلوبه
اعتز وصار غافلا عن عبودية الله ممتدا عن طاعة الله كما قال تعالى ان
الانسان ليطغى ان راه استغنى ونأى عن ذكر الله بجانبه اي لوى عطفه

وبعده

وبعد نفسه كانه مستغن بامره ويجوز ان يكون كناية عن الاستكبار لانه
من عادة المستكبرين ومعنى النأي في اللغة البعد والاعراض اذ يوليه
عرض وجهه وقرا ابن ذكوان بالف ممدودة بعد النون وتاخير الهمزة مثل
جاء وفي هذه القراءة تخريجان احدهما من ناى ينوء اي نهض والثاني انه مقلوب
من ناي فيكونان بمعنى قال ابن عادل ولكن متى امكن عدم القلب فهو
اولى وقرا الباقون بالهمزة بعد النون والف بعد همزة وامال الالف بعد
الهمزة السوسي وشعبة وخلف بخلف عنه مخالف عن السوسي واما الهمزة
ورش بين بين واما الهمزة والنون محققة خلف والكسائي وفتح الباقون
واذا مسه الشر اي هذا النوع وان قل كان يؤسا اي شديد اليأس مما
عهد من رحمة ربه والحاصل انه ان فاز بالنعمة والدولة اغتر بها ونسي
ذكر الله وان بقي في الحرمان عن الدنيا استولى عليه الاسف والحزن
ولم يتفرغ لذكر الله فهذا المسكين محروم ابدا عن ذكر الله ونظيره قوله تعالى
فاما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فاكرمه ونعمه فيقول ربي اكرمن واما
اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي اهانن وكذلك ان الانسان
خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا من حفظهم
الله وشرفه بالاضافة اليه فليس للشيطان عليه سلطان ثم قال تعالى
لنبيه صلى الله عليه وسلم قل كل من الشاكر والكافر يعمل على شاكلته
اي على طريقته التي تشاكل روحه وتشاكل ما طبعناه عليه من خير وشر
فربكم اي فتسبب عن ذلك الذي خلقكم وصوركم اعلم من كل احد بمن هو
منكم اهدى سبيلا اي اوضح طريقا واتباعا للحق فيشكر ويصبر احتسابا
فيعطيه الثواب وبمن هو منكم اضل سبيلا فيجعل له العقاب لانه بما
طبعهم عليه في اصل الخلقة وبغيره تعالى انما يعلم امور الناس في طرق التهم
بالتجربة وقد رضي الامام احمد لكن بسند منقطع عن ابي الدرداء رضي

الله تعالى عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا اسمتم بجبل زال عن مكانه فصدقوا واذا اسمتم برجل تغير عن طبعه فلا تصدقوا فانه يصير الى ما جبل عليه واختلف في سبب نزول قوله تعالى **ويسالونك** اي تعنتا وامتحانا **عن الروح** فعن عبد الله بن مسعود قال بينما انا امشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتوكأ على عسيب معه فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض اسالوه عن الروح وقال بعضهم لا تسالوه لا يجيء بشيء تكرهونه فقال بعضهم لنسالن فقام رجل منهم فقال يا ابا القاسم ما الروح فسكت فقلت انه يوحى اليه فقمت فلما انجلى عنه قال **ويسالونك عن الروح قل الروح من امر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلا** قال بعضهم لبعض قد قلنا لكم لا تسالوه وقال ابن عباس ان قريشا اجتمعوا فقالوا ان محمدا امسانا بالصدق والامانة وما اتهمناه بكذب وقد ادعى ما ادعى فابعثوا نفرا الى اليهود بالمدينة واسالوهم عنه فانهم اهل كتاب فبعثوا اجاءهم فقالت اليهود سلوه عن ثلاثة اشياء فان اجاب عن كلها او لم يجب عن شيء منها فليس بنبي وان اجاب عن اثنين فهو نبي فسالوه عن فتية فقدوا في الزمن الاول ما كان امرهم فانه كان لهم حديث عجيب وعن رجل بلغ مشرق الارض ومغربها وعن الروح فسالوا النبي صلى الله عليه وسلم فقال اخبركم بما سالتم عنه غدا ولم يقل ان شاء الله فلبث الوحي قال مجاهد اثني عشر ليلة وقيل خمسة عشر يوما وقيل اربعين يوما واهل مكة يقولون وعدنا محمد غدا وقد اصبحنا لا يخبرنا بشيء حتى حزن صلى الله عليه وسلم من حبس الوحي عنه وشق عليه ما يقوله اهل مكة ثم انزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله ونزل في الفتية ام حسبت ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا من اياتنا عجبا ونزل فيمن بلغ المشرق والمغرب **ويسالونك عن**

عن ذي القرنين ونزل في الروح **ويسالونك عن الروح** قل الروح من امر ربي وقال الرازي ومن الناس من طعن في هذه الرواية من وجوه وذكر من جملة ذلك كيف يليق به ان يقول اني لا اعرف هذه المسئلة مع انها من المسايل المشهورة المذكورة في جميع الاديان خلق عيسى لا لائق لان ذلك كان علامة على نبوته قال الزمخشري فبين لهم القصتين واعلم امر الروح وهو مبهم في التوراة فدلوا على سوالهم اه وقد اختلفوا في الروح الذي وقع السوال عنه فعن ابن عباس انه جبريل عليه السلام وهو قول الحسن وقتادة وروي عن علي انه قال ملك له سبعون الف وجه لكل وجه سبعون الف لسان يسبح الله تعالى بكلها وقال مجاهد خلق على صورة بني آدم لهم ايدي وارجل ورؤس وليسوا بملائكة ولا ناس ياكلون الطعام وقال سعيد بن جبير لم يخلق الله تعالى خلقا اعظم من الروح غير العرش لو شاء الله ان يبتلع السموات السبع والارضين السبع ومن فيهن بلقمة واحدة لفعل صورته كصورة الملائكة ووجهه على صورة وجه الادميين يقوم يوم القيمة على يمين العرش وهو اقرب الخلق الى الله تعالى عنه اعجى السبعين واقرب الى الله تعالى وهو ممن يشفع لاهل التوحيد ولولا ان بينه وبين الملائكة ستر من نور لاحرق اهل السموات من نوره وقيل الروح هو القرآن وقيل المراد به عيسى فانه روح الله تعالى وكلمته ومعناه انه ليس كما تقوله اليهود ولا كما تقوله النصارى وقال بعضهم هو الروح المركب في الخلق الذي يحيى به الانسان قال البغوي وهو الاصح وتكلم فيه قوم فقال بعضهم هو الدم لان من شان الحيوان اذا مات لا يفوت منه الا الدم وقال قوم هو نفس الحيوان به ليل انه يموت بامتناع النفس وقال قوم عرض وقال قوم هو جسم لطيف وقال بعضهم الروح معنى اجتمع فيه النور والطيب والعلم

والعلو والبقا الا ترى انه اذا كان موجودا يكون الانسان موصوفا بجميع هذه
الصفات واذا خرج ذهب قال البغوي والاولى الاقاويل ان يوكل علمه
الى الله تعالى عز وجل وهو قول اهل السنة قال عبد الله بن بريدة ان
الله تعالى لم يطلع على الروح ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا بدليل قوله تعالى
قل الروح من امر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلا اي في جنب علم الله تعالى
تنبيه اختلف في المخاطب بقوله تعالى وما اوتيتم من العلم الا قليلا
فقيل هو النبي صلى الله عليه وسلم وقيل اليهود فانهم يقولون اوتينا
التوراة وفيها العلم الكثير وقيل عام روي ان رسول الله صلى الله عليه
وسلم لما قال لهم ذلك قالوا انحن مختصون بهذا الخطاب ام انت معنا فيه
فقال نحن وانتم لم نوت من العلم الا قليلا فقالوا ما اعجب شانك ساعة
تقول ومن يوت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا وساعة تقول هذا فنزلت
ولو ان ما في الارض من شجرة اقلام والبحر يمده الاية قال الزمخشري
وليس ما قالوه بلازم لان القلة والكثرة يدوران مع الاضافة فيوصف
الشي بالقلة مضافا الى ما فوقه وبالكثرة مضافا الى ما تحته فالحكمة
التي اوتيها العبد خير كثير في نفسها الا انها اذا اضيفت الى علم الله
فهي قليلة وقيل كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم معنى الروح
ولكن لم يخبر به لان ترك اخبارها كان علم النبوته قال البغوي والاول
اصح ان الله تعالى استاثر بعلمه وعن ابي يزيد لقد مضى النبي صلى
الله عليه وسلم وما يعلم الروح وقال الرازي قوله قل الروح من امر ربي
من فعل ربي وهذا الجواب يدل على انهم سالوه ان الروح قديمة او
حادثة فقال بل هي حادثة وانما حصلت بفعل الله وتكوينه وايجاده
ثم احتج على احداث الروح بقوله وما اوتيتم من العلم الا قليلا بمعنى
الروح في مبدا الفطرة تكون خالية عن العلوم والمعارف ثم يحصل المعارف

والعلوم

والعلوم فهي لا تزال تكون في التغير من حال الى حال وفي التبديل من نقصان
الى كمال والتغير والتبدل من امارات الحدوث فقوله قل الروح من امر
ربي يدل على انهم سالوه ان الروح هل هي حادثة او قديمة فاجاب
بانها حادثة واقعة بتخليق الله تعالى وتكوينه وهو المراد من قوله قل
الروح من امر ربي ثم استدل على حدوث الارواح بتغيرها من حال الى حال
وهو المراد بقوله وما اوتيتم من العلم الا قليلا هذا ما قوله في هذا
الباب اه وهو بعيد لطيف ولما بين سبحانه وتعالى انهم ما اوتوا من العلم
الا قليلا بين انه لو شا ان ياخذ منهم ذلك القليل انه لقادر عليه
بقوله تعالى ولئن شئنا اي وعزتنا لو شئنا لانتباهها شي واللام موطئة للقسم
وجاء عن القسم بما اغنى عن جواب الشرط فقال لنذهبن اي لنمحوان
من القطعة ذهابا محققا بالذي اوحينا اليك بان نمحو حفظه من القلوب
وكتابته من الكتب وهذا وان كان امرا مخالفا للعادة الا انه تعالى
قادر عليه ثم اي بعد الذهاب به لا تجد لك به علينا وكيلا اي لا تجد
من تتوكل عليه في رد شي منه واعادته مسطورا محفوظا وقوله تعالى
الا رحمة من ربك استثنا منفصل لانه مندرج في قوله وكيلا والمعنى
الا ان رحمة ربك تردها عليك او منقطع فتقدر بلكن عند البصريين وببل
عند الكوفيين والمعنى ولكن رحمة من ربك او بل رحمة من ربك
تركته غير مذهوب به وهذا امتنان من الله تعالى ببقا القران قال
الرازي وهذا تنبيه على ان الله تعالى على جميع العلماء نوعين من
المنة احدهما تسهيل ذلك العلم عليهم والثاني ابقا حفظه عليهم فعلى
كل ذي علم ان لا يغفل عن هذين النعمتين والقيام بشكرهما وبما امتن
الله تعالى عليه بحفظ العلم ورسوخه في صدره ومنته عليه في بقاء
المحفوظ فان قيل كيف يذهب القران وهو كلام الله تعالى اجيب

باب المراد بجمعها في المصاحف واذهاب ما في الصدور قال عبد الله بن مسعود
اقرؤا القرآن قبل ان يرفع فانه لا تقوم الساعة حتى يرفع قيل هذه
المصاحف ترفع فكيف ما في الصدور قال يسري عليه ليلا
فيرفع ما في صدور هم فيصبحون لا يجدون منه شيئا ولا يجدون في المصاحف
شيئا ثم يقفون في الشعر وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال لا تقوم
الساعة حتى يرفع القرآن من حيث نزل له دوي تحت العرش كدوي
النحل فيقول الرب ما لك فيقول الهي ولا يعمل بي وفي رواية لابن مسعود
اول ما تفقدون من دينكم الامانة واخر ما تفقدون الصلاة وليصلين
قوم لا دين لهم وان هذا القرآن تبيت يوما وما فيكم منه شيء فقال
رجل كيف ذلك وقد اثبتناه في قلوبنا واثبتناه في مصاحفنا وعلمه
ابناءنا وتعلمه ابناءنا ابنائهم فقال يسري عليه ليلا فيصبح الناس
منه فقرا ترفع المصاحف ويترع ما في القلوب وقوله تعالى ان فضله
كان اي ولم يزل عليك كبيرا حيث قولان احدهما المراد بهذا ان
فضله كان عليك كبيرا بسبب انك العلم والقرآن عليك ثابتان فيهما ان
المراد ان فضله كان عليك كبيرا بسبب انه جعلك سيد ولد آدم
وختم بك النبيين واعطاك المقام المحمود وقفا نهم عليك انفيا
بانك العلم والقرآن عليك ودين لتحي قال الكفار للنبي صلى الله
عليه وسلم لو شئنا لقلنا مثل هذا القرآن قل اي لهم قولا البعد الذي
اجتمعت الانس الذين تقرؤنهم وتقرؤون ما اوتوا من البلاغة والحكمة
والذين لا تقرؤنهم والجن الذين يأتونكم فتعلمونهم ويعلمونكم بعض اخبار
عنهم وغيرهم وتركب الملائكة لانهم لا عهد لهم بشيء من التفضيل والكلام
كانوا يسارقون على ان يأتوا بمثل ما عارضه القرآن في البلاغة وحسن النظم
وكمال المعنى لا يأتون بمثله اي لا يقدرون على ذلك فالقرآن معجز

في

في النظم والتاليف والاخبار عن الغيوب وهو كلام فيما على طريقة الجلالة غير
لا يشبه كلام الخلق ولو كان مخلوقا لقدروا على مثله تنبيه في قوله تعالى لا يأتون
بمثله قولان اظهرهما انه جواب للقسم الموطأ له باللام والثاني انه جواب
للشرط واعتذروا عن رفعه بان الشرط ما يغلب ونحو قوله وان
اتاه خليل اي فقير يوم مسغبة يقول لا غائب مالي والحرم جر ان الرزم
وقع ماضيا وناقشه ابو حيان بان هذا ليس مذهب سيبويه ولا
الكوفيين والمراد انه مذهب سيبويه في مثل ان النية به التقديم وذهب
الكوفيين والمراد انه على حذف الفاء وهذا احد مذهبي الشافعي انه يغتفر ان
ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا اي معينا يعضهم اقوى ما فيه الى اقوى ما في
صاحبه تنبيه قد تقدم في سورة البقرة ان الله تعالى قال فاتوا بسورة
من مثله وقدمنا الكلام على ذلك وفي وجه كون القرآن معجزا قولان
احدهما انه معجز في نفسه والثاني انه ليس معجزا الا لانه تعالى لما صرف
دواعيهم عن الاتيان بمعارضته وكان الداعي متوفرا على الاتيان
بمثله المعارضة مع التقدير ان لا كونه تكون نقضا للعادة فيكون
معجزا والقول الاول اظهر ولقد صرفنا اي بينا بوجوه مختلفة زيادة في
التقدير والبيان للناس في هذا القرآن من كل مثل اي من كل معنى
هو كالمثل في غرابته ووقوعه موقعا في النفس وقيل معناه من كل
وجه من العبر والاحكام والوعد والوعيد والقصص وغيرها وقيل
صفة لمحذوف اي مثلا من جنس كل مثل ليتعظوا فابى اكثر الناس
وهم من لم يؤمن في هذه الناس كفار قريش وقد سبق امثالهم الا كفورا
اي جحودا فان قيل كيف جاز فابى اكثر الناس الا كفورا ولم يجز ضربت
الا زيدا اجيب بان ابى شابه دعا بالنفي كانه قيل فلم يرضوا الا كفورا
وما تبين بالدليل اعجاز القرآن علي وفق دعوى محمد صلى الله عليه وسلم

والمراجم الحجة وغلبوا اخذ كل يتعلل ويتباقتراح الآيات فنزل اليهم وفد اليهود المتقدم
ذكرهم فاذا هم اكثر عددا وامن ذلك ستة انواع من المعجزات اولها وقالوا اي
كفار مكة وترتيبي وهن والاقسم لما تؤمن لك حتى تجا اي تجير اعلينا لنا من الارض
ينبوعا اي عينا غزيرة الماء من شأنها ان تنبع بالماء ولا ينضب ماؤها
وهي قراءة عاصم وحمزة والكسائي بفتح الفاء وهي اكثر مخففة والباقون بضم
الجيم وفتح الفاء وكسر الجيم مشددة ثانيهما قولهم او تكون لك اي وحدك
جنة اي بستان وعنب اي وانما ذكر عنب عبر عنه بالجمع لان الانتفاع منه
بغير ما قليل فتفجر الانهار اي الكثيرة خلالها اي وسطها تفجيرا اي تشقيقا
والفجر شق الظلام عن عمود الصبح والفجور شق جلباب الحياء بما يخرج الى
الفساد ثانيها قولهم او تسقط السما اي تفعلها كما زعمت فيما تتوعدنا به
علينا كسفا اي قطعا جمع كسفة وهي القطعة وقرأ نافع وابن عامر
وعاصم بفتحة السين مثل قطعة وقطع وسدرة وسدر وهو يقسم على الحال في القراءتين جميعا
كأنه قيل اسقطها علينا مقطعة ارادوا بذلك قولهم فاسقط علينا كسفا من السماء
ان كنت من الصادقين ثالثها قولهم او تأتي بالله اي الملك الاعظم والملائكة قبيلا اي عيانا وقابلة تنظر اليه
لا يخفى علينا منه شيء وقال الضحاك هو جمع قبيلة اي اصناف
الملائكة قبيلة قبيلة قال ابن هاني كفيلا اي يكفلون ما تقول كما
قولهم او يكون لك اي خاص لك بيت من زخرف اي ذهب كامل الحسن
والزينة سادسها قولهم او ترقى اي تصعد في السما درجة درجة
ولن نؤمن لرقيك اي لصعودك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه وفي
الاصل تقرؤه وحققوا امعنى كونه من السما بقولهم علينا كتابا وهو يعني
كونه في رق او مخطوطا بقولهم نقرؤه بأمرنا فيه باتباعك وروي عكرمة
عن ابن عباس ان عتبة وشيبة ابني ربيعة وابا البختري ابن هشام

وعبد الله بن امية وامية بن خلف والوليد بن المغيرة وابا جهل بن هشام
والعاص بن وايل ونبيها ومنبها ابني الحجاج اجتمعوا بعد غروب الشمس عند
ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض ابعثوا الى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا
فيه فبعثوا اليه ان اشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فجاءهم رسول
الله صلى الله وسلم سريعا وهو يظن انهم بدا لهم في امره بدا وكان على
مر يصيبه بحب رشدهم حتى جلس اليهم فقالوا يا محمد انا بعثنا اليك لنعتذر
فيك وانا والله لا نعلم ان رجلا من العرب ادخل على قومه ما ادخلت
على قومك لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفهت الاحلام وشتمت
الالهة وفرقت الجماعة فما بقي امر قبيح الا وقد جئته فيما بيننا وبينك فان
كنت جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جعلنا لك من اموالنا حتى تكون
اكثرنا مالا وان كنت تريد الشرف سودناك علينا وان كنت تريد ملكا
ملكناك علينا وان كان هذا الذي يأتيك رأي تراه قد غلب عليك
لا تستطيع رده بذلنا اموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه
او نعذر فيك فكانوا يسمون التابع من الجن الرأي فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ما بي مما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به لاطلب
اموالكم ولا الشرف عليكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني اليكم رسولا
وانزل علي كتابا وامرني ان اكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالة
ربي ونصحت لكم فان تقبلوا مني فحظكم في الدنيا والآخرة وان ترددوه
علي اصبر لامر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم فقالوا يا محمد فان كنت
غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت انه ليس احد اضيق بلادا
واشد عيشا منا فسل لنا ربك الذي بعثك فليسير عنا هذه الجبال
التي قد ضيقت ويبسط لنا بلادنا وتجري فيها انهارا كأنهار الشام والعراق
ويبعث لنا من مضى من آبائنا ولكن منهم قصي بن كلاب فانه كان شيخا

صدوقا فنسالهم عما تقول احق هو ام باطل فان صدقك صدقناك فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بهذا بعثت فقد بلغتكم ما ارسلت به وان
تقبلوه فحظكم وان تردوه اصبر لامر الله قالوا فان لم تفعل فسل ربك
ان يبعث معك ملكا يصدقك واسأله ان يجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا
من ذهب وفضة يغنيك بها عما تراك تقوم بالاسواق وتلتمس
المعاش كما تلتمسه فقال صلى الله عليه وسلم ما بعثت بهذا ولكن
الله بعثني بشيرا ونذيرا قالوا فاسقط السماء كما زعمت ان ربك ان
شاء فعل فقال ذلك الي الله ان شاء فعل ذلك بكم فقال قائل منهم
لن نؤمن لك حتى تاتي بالله والملائكة قبيلا فما قالوا ذلك قام
رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام معه عبد الله بن امية وهو
ابن عاتكة بنت عبد المطلب وقال له اعرض عليك قومك ما عرضوا
فلم تقبله منهم ثم سالوك ان تجعل ما تخوفه بهم من العذاب فلم تفعل
فوالله لا اومن بك ابدا حتى تتخذ سلما الى السماء ترقى به وانا ننظر
حتى تاتيها وتاتي بنسخة منشورة معك ونفر من الملائكة يشهدون
لك بما تقول وايم الله لو فعلت ذلك لظننت ان لا اصدقك فانصرف
رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اهله حزينا لما راى من مباعدة
قومه فانزل الله هذه الاية وفيها اشارة الى انه ليس من شرط كون النبي
صادقا تواتر المعجزات الكثيرة وتوالي الهامات لو فتح هذا الباب لزم ان
لا ينتهي الامر في نبي معلم وكلما اتى النبي صلى الله عليه وسلم بمعجز
اقترحوا عليه بمعجز اخر ولا ينتهي الامر فيه الى حد ينقطع عنده عناد
المعاندين وتعنت الجاهلين مع انه صلى الله عليه وسلم اعطي من
الايات والمعجزات ما اغنى عن هذه الكلمة مثل القران وانشقاق القمر
وتفجير العيون من بين الاصابع وما اشبه ذلك ولما لم تنتهم وكان

لسان

من التلقي من نبيهم كلامهم لعجائب ذاته وكما هو متلقى الحكمة لانه رسول كل
جنس من يتأتى منهم ان يتلقى عن نظائرهم وبه انس والبه جنس ولما
كانت الامة الامن تعلم به تعالى بتغليب روحه على نفسه وتغليب عقله
على شهوته فاقد له بذلك على المتلقين عن الملك كما يسلبن عن سائر اجناسهم الله
تعالى في الدار الآخرة بقوله تعالى قل كونوا بالفعل اي الحي بالكل بحسب قدرة وعلمها
واما البهائم فهي وان كانت حية وورثت بالفتح وبين الحفظين والباقون
بالفتح شهيدا بينه وبينكم على ان ربه ارسله اليكم كما ارسلنا الى فرعون
ومن دعواهم الباطلة ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى
اي تقربنا اليه تعالى وقولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله ومن سوء ادبهم
انهم على صفة فيه فيتوصلون بتلك الصفة في ذلك القبيل بانه الرسول الحي
الذي كونه ملكا للدنيا فانه لم يلتفت اليها فنسبته سبحانه وتعالى
بحسب علي الحالة الاخيرة بعد التغيير ثم الله تعالى ذكر ما هو كالتمهيد والتوطئة عند بقوله
تعالى انه كان بعباده خبيرا بصيرا يعلم ظواهرهم وبواطنهم ويعلم من قلوبهم
انهم لا ينكرون في الآخرة وجوب الرياسة والاستكانة من
الانبياء التي قدمها الله تعالى لهم بالتمهيد في الدنيا على ما دل عليه
قوله تعالى ومن يهد الله فهو المهتد اي من يتأتى الهداية في قلبه فهو المهتدي لا محالة
غيره ان يضله بتنبيه لانتفاء نافع وابو عمرو اليا بعد الدال مع الوصل
دون الوقف وحذفها الباقون وقفا ووصلا ومن يضلل فلن تجد لهم اي
لهؤلاء الذين اتولياء يعصمونهم من بأس الله ولا ينجونهم عن بطشه تعالى في يوم
القيامة كما كان يوم القيمة يظهر لهم فيه نفع ما كانوا يعملونه على ذلك تقول
بقوله تعالى ونحشرهم بنون العظمة اي نجمعهم للكبرة يوم القيمة الذي هو
محل حكمة على وجوههم مسحوبين عليها اهانة لهم فيها كما لم يمشوا
بالسجود لله تعالى في يوم يسحبون في النار على وجوههم اي يمشون
عليها روي ابو هريرة قيل يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم قال

ان الذي يمشيهم على اقدامهم قادر ان يمشيهم على وجوههم قال حكماء
الاسلام ان الكفار لما وقعوا في ظلمة الشهوات بالدنيا وانغمسوا وليس
متوجهة الى الدار الآخرة كان حشرهم على وجوههم وأما قوله تعالى عميا
وبكما وصما فقد استشكله شخص على ابن عباس فقال قد قال تعالى عميا
وبكما وصما في موضع آخر وقال تعالى سمعوا لها شهيقا وقال تعالى دعوا
هنالك ثبورا وقال تعالى يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وقال
تعالى حكاية عن الكفار والله ربنا ما كنا مشركين فكيف الجمع بين هذه الآيات
انهم يرون ويسمعون ويتكلمون فكيف قال انهم عميا وبكما وصما
اجاب ابن عباس وتلامذته عنه من وجوه الاول قال ابن عباس
انهم لا يرون شيئا يسرهم ولا يسمعون شيئا يسرهم ولا يتكلمون بكلام يسرهم
الثاني قال في رواية عطاء عميا عن النظر الى ما جعله الله تعالى للاولياء
وبكما عن مخاطبة الله ومخاطبة الملائكة المقربين صما عن سماع الله تعالى
عليهم الثالث قال مقاتل انه حين يقال لهم اخسئوا فيها ولا تكلمون
يصيرون عميا بكما صما اما قبل ذلك فهم يرون ويسمعون ويتكلمون الرابع
انهم يكونون في اماكن متباعدين عن الموقف ولا يكادون يرى بعضهم بعضا
ولا يسمعون كلامهم ولا تتيسر لهم المخاطبة لما قدمنا ان الله تعالى
يبطل عليهم حواسهم ولا يتيسر لهم التكلم ثم يعيدها الله تعالى عليهم اذا اخذوا
يسيرون من الموقف الى النار رجعت اليهم ابصارهم تعالى عميا بكما قال الزجاج
ولكن اجاب الاولون اولى لان الآية السابقة تدل على انهم في النار يبصرون
ويسمعون ويتكلمون ثم بين تعالى حكمة بقوله تعالى مأواهم جهنم كلما خبت
اي اخذ لهبها في السكون عند اكلها لحومهم وطبخها جلودهم زدناهم
سعيرا اي وقدنا عليهم نارا تتلهب وروي انهم يطلبون الموت فلا يموتون
بالدعاء ثم بين تعالى ما ذكره بقوله ذلك جزاؤهم بسبب كفرهم بآياتنا
وقالوا ءاذا كنا عظاما ورفاتا ءانا لمبعوثون خلقا جديدا اي ذلك الجزاء
الفظيع جزاؤهم بسبب كفرهم بآياتنا وقولهم انكارا واستبعادا للبعث
بعد الفناء جزاهم الله تعالى بما ذكر لانهم قالوا على الوجه الذي قالوا

في بلد تهم لتكثر اموالهم ويتسع عيشهم بين تعالى انهم لو ملكوا خزائن رحمة
الله لبقوا على بخلهم وشحهم بقوله تعالى قل اي لهؤلاء الممتنعين لو انتم اي
دون غيركم تملكون خزائن عبر بصيغة مبنية للجمع لان المقام جدير
بالمبالغة رحمة ربي اي خزائن رزقه وسائر نعمه وذلك غير متناه اذا
لامسكتم اي لوقع عليكم الامساك عن الانفاق في بعض الوجوه التي
تحتاجون خشية اي مخافة عاقبة الانفاق اي الوصول الى الفقر فكان
المعنى انكم لو ملكتم من الخير والنعم خزائن لا نهاية لها البتة على التشح
والتناة وهذه مبالغة عظيمة في وصفهم بهذا التشح وقول البيضاوي
تبعا للزمخشري اي انتم مرفوع بفعل يفسره ما بعده قال الزمخشري يقدر
لو تملكون جرى فيه على مذهب الكوفيين من ان لو يليها الفعل مضمرا
كما يليها ظاهرا والبصريون يجعلونها حينئذ آلة لها مضمرا التي سنذكر قول
حاتم لو ذات سوار لطمتني واصل هذا المثل ان امراة عطلا من الحلي
والحسب لطمت حاتما على بخله الناقة وقالت له بقسوة انما اردناك
لنعدها والعقد عندنا ان نقطع عرق من عروقك ثم نجمع دمها ونشربه
وقيل اصله ان المراة المذكورة لطمته رجلا فقال لو ذات سوار لطمتني
لاحتملتها فصار مثلا يضرب لكن ثم بلطمه الذي ثم استدل على صحة هذا
المزوج بالشاهد من معنى نعم كم وكان اي جبلة وطبعا الانسان
اي الذي من شانه الانس بنفسه فهو لذلك لا يعقل الامور حق عقلها
قتورا اي بخيلا تتبينه فتح الياء في رئي نافع وابو عمرو وسكنها الباقون
وهم على من اتهم في المدغان قيل قد يوجد في جنس الانسان من هو
جواد كريم اجيب من وجوه الاول ان الاصل في الانسان البخل لانه
خلق محتاجا والمحتاج لابد وان يحسن ما به يدفع الحاجة وان يمسك
لنفسه الا انه قد يجود به لاسباب من خارج فثبت ان الاصل في

وهو قراءة نافع وابن كثير وعاصم وابن عامر وظاهر ما نقل الداني عنه الزاي وادغامها
المبدلة من تاء يزكى علة تقديمهم ليرهبهم ويقمعهم بسببه ثم بين تعالى
ذلك اي العذاب العظيم وانهم انهم كفروا بآياتنا القرآنية
وغيرها وكانوا كل يوم يزيدون كفرا وعنادا يصرون على الاستمرار عليه
فذكروا ما تقولوا وقالوا انكارا لقدرته تعالى على البعث ائذا كنا عظاما
ورفاتا ائنا لمبعوثون خلقا جديدا انكروا
ذلك مع مشاهدتهم كل يوم ما يدل على امكانه من خلق السموات والارض
ومن تعلق قدرته تعالى بكل ممكن ومن ابداء الخلق واعادته
كما يشاء قال تعالى كما قدرنا على خلقهم اولا نقدر على اعادتهم ثانيا
ثم اشار الى ان ما استبعدوه بالنسبة الى قدرته تعالى هين عليه بقوله تعالى او لم يروا
اي ألم يعلموا بالنظر والاستدلال ان الله الذي خلق السموات والارض
اي اوجدهما على هذا النمط البديع من العدم الصرف على ما يشاهد
فيهما من الاجرام العظام والهياكل المختلفة الاشكال والصور المتباينة
الخواص والمنافع وقادر على ان يخلق مثلهم اي مثل اولئك المنكرين
من الناس في ضخامة الاجسام وقوة الاجرام على ذلك من اهون واسهل
الا ترى ان اعادة ما فرق منها من حيث انه جمع واحد اهون من ايجاد
ما لم يكن اصلا بالنسبة الى القدرة المتعلقة بالكل على السواء وجعل
السموات والارض على كبر اجرامها وعظم اجسامها بقوله تعالى قادر على ان يخلق مثلهم
فيه قولان الاول معناه قادر على ان يخلق مثلهم في الصغر والحقارة لانا نعلم ان خلق
الشيء اصعب من خلق ما هو اصغر منه فلما كان قادرا على خلق السموات والارض
مع عظمهما فهو على خلق ما هو اصغر منهما اولى بالقدرة والثاني ان المراد
قادر على ان يخلق عبدا آخر يماثلهم في الخلقة ويقدر على ما يقدرون عليه
ويتمكن من ما يتمكنون منه وعلى هذا فهو كقوله تعالى
وما ذلك على الله بعزيز والقول الاول اقرب لان قوله تعالى بلى يدل على ان
المراد من قوله قادر على ان يخلق مثلهم هو الاعادة ثم بين تعالى ان
ذلك الخلق جائز ممكن بقوله انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون
والمقصود من هذا الكلام ان ايجاد الاشياء سهل عليه تعالى لا يتوقف
الا على تعلق ارادته بايجادها فاذا اراد شيئا اوجده بمجرد الارادة
من غير توقف على شيء آخر فكذا في ايجاد الاجساد بعد الموت
فثبت بما ذكرنا ان الاعادة ممكنة الوجود ثم بين تعالى ان ما ذكرناه
من الدلائل على صحة الحشر والنشر يوجب على كل عاقل ان يكون
مشتغلا بالاستعداد لذلك اليوم بقوله تعالى فسبحان الذي بيده ملكوت
كل شيء اي فنزهوه عما لا يليق به من العجز عن الاعادة والبخل بالرزق
وبيده ملكوت كل شيء اي خزائن كل شيء وهو قوله تعالى وهو يرزق ولا يرزق
واليه ترجعون اي بالبعث والقيامة فيجازيكم على ما كنتم تعملون

اي للاعادة

الانسان البخل لانه خلق محتاجا الى المحتاج الثاني ان الانسان انما يبذل لطلب الثناء والحمد وليخرج عن عهدة الواجب فما هو في الحقيقة ما انفق الا لياخذ العوض فهو في الحقيقه بخيل الثالث ان المراد بهذا الانسان المعهود السابق وهم الذين قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا ولما قدم سبحانه وتعالى ان اكثر الناس جحد الايات لكونه تعالى حكم بضلالهم ومن حكم بضلاله لا يمكن هداه شرع يتسلى نبيه صلى الله عليه وسلم بما اتفق لمن قبله من الانبياء بقوله تعالى ولقد اتينا موسى تسع ايات بينات اي واضحات واختلف في هذه الايات فقال ابن عباس والضحاك هي العصا واليد البيضاء والعقدة التي كانت بلسانه فحلها وفلق البحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد والسنون ونقص من الثمرات قال البقاعي وهي كما في التوراة العصا ثم الدم ثم الضفادع ثم القمل ثم موت البهائم ثم البرد الكما التي انزلها الله تعالى مع النار المضطربة فكانت تلك تسلك شيئا فشيئا مرت عليه من نبات وحيوان ثم الجراد ثم الظلمة ثم موت الابكار من الادميين وجميع الحيوان ثم قال وقد نظمتها ليهون حفظها عمي قمل موت الهبا ثم ظلمة جراد دم ثم الضفادع والبرد وموت ذكور آلادمي وغيره من الحي اتاه الذي عز والفرد قال وكانه عن اليد مع العصا اية ولم يعد اليد لانه لبس في ما ضرر على علمهم وقال البيضاوي هي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وانبجاس الماء من الحجر وانفلاق البحر ونتق الطور لطور على بني اسرائيل وذكر محمد بن كعب القرظي الطمس والبحر بدل السنين ونقص من الثمرات وقال كان الرجل منهم مع اهله في فراشه وقد صار احجر بين المراة منهم قايمة تحير وقد صارت حجرا وقال بعضهم هي ايات الكتاب وهي احكام بدل

علمها

علمها ما روي عن صفوان ابن يهودا قال لصاحبه تعال نسال هذا النبي فقال الاخر لا تقل نبي لانه لو سمع صارت له اربعة اعين فاتيا وسالاه عن هذه الاية ولقد اتينا موسى تسع ايات بينات فقال لا تشركوا بالله شيئا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ولا تزنوا ولا تاكلوا الربا ولا تسحروا ولا تمشوا بالبريء الى سلطان ليقتله ولا تسرقوا ولا تقذفوا المحصنة ولا تفروا من الزحف وعليكم خاصة اليهود انه لا تعدوا في السبت فقبلوا يديه وقالوا نشهد انك نبي قال فما يمنعكم ان تتبعوني قالوا ان داود دعا ربه ان لا يزال في ذريته نبي وانا نخاف اذا تبعناك ان تقتلنا اليهود وقال الرازي علم الله تعالى ذكر في القران اشياء كثيرة من معجزات موسى عليه السلام احدها الله تعالى ازال العقدة من لسانه فتل في التفسير ذهب اعجمه وجاء فصيحا ثانيها انقلاب العصا حية ثالثها تلقف الحية حبالهم وعصيهم رابعها اليد البيضاء وخمسة اخرى وهي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعاشر شق البحر وهي قوله تعالى واذ فرقنا بكم البحر والحادي عشر بحجر وهي قوله تعالى واذ قلنا اضرب بعصاك الحجر والثاني عشر اظلال الجبل وهي قوله تعالى واذ نتقنا الجبل فوقهم كانه ظلة والثالث عشر انزال المن والسلوى عليه وعلى قومه والرابع عشر والخامس عشر قوله تعالى ولقد اخذنا ال فرعون بالسنين ونقص من الثمرات والسادس عشر الطمسة على اموالهم حجارة من النخل والدقيق والاطعمة والدراهم والدنانير روي ان عمر بن عبد العزيز سال محمد بن كعب عن قوله تعالى تسع ايات بينات فذكر محمد بن كعب في جملة التسع حل عقدة اللسان والطمس فقال عمر بن عبد العزيز هكذا ينبغي ان يكون الفقيه ثم قال يا غلام اخرج ذلك الجراب فاخرجه فنفضه فاذا بيض مكسور نفضي وجوز مكسور ولوز

وعدس وضفدع كلها معجزة وقوله تعالى فارسل اي يا اعظم حلقنا بني اسرائيل
يجوز ان يكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره وقرا ابو كثير
والكسائي بفتح الياء والباقون بسكونها السبل وحمزة
مفتوحة بعدها وجوز ان يكون الخطاب له خاصته وامره بالسؤال
لهم ليتبين له كذبهم مع قومهم اي فاسال بني اسرائيل عامة الذين يتلو
قريشا عن السؤال عن الروح في بعض الروايات وعن اهل الكهف وذي
القرنين عن حديث موسى عليه السلام والمؤمنين منهم كعبد الله بن سلام
واصحابه اذ اي عن ذلك حين جاءهم اي جاء اباءهم فوقع له من التكذيب
بعد اظهار المعجزات الباهرات ما وقع لك فقال اي فذهب الى فرعون
فامره بارسالهم معه فاتى فاظهر له الايات واحدة بعد اخرى فتسبب
عن ذلك صدق ما يقتضيه الحال وهو ان قال له فرعون عقب
واستكبارا اني لاظنك يا موسى مسحورا اي مخدوعا مغلوبا على عقلك
فكلما يبشاعنك فهو من اثار السحر وهذا كما قالت قريش للنبي صلى
الله عليه وسلم ان تتبعون الا رجلا مسحورا وقال في موضع اخر ساحر
واعلم مما اطلقوا اسم المفعول مريدين اسم الفاعل مبالغة لانه
كالمجزء عن الفعل وفي الامر بسوال اليهود تنبيه على ضلالهم وبما
لم يؤمن فرعون على تواتر تلك الايات وعظمها فكانه قيل فما قال موسى
عليه السلام فقيل قال لفرعون لقد علمت بفتح التاء قراءة غير الكسائي
وقرا الكسائي بضمها على اخباره عن نفسه ما انزل هؤلاء اي الايات
الا رب السموات والارض اي خالقهما ومدبرهما حال كونها بصائر
اي بينات يبصر بها صدقي واما السحر فانه لا يحتج انه حال لا
حقيقة له ولكنك تعاند تنبيه قوله تعالى هؤلاء الكلام عليه من جهة
المعنى كالكلام على هؤلاء ان كنتم في البقرة وقد تقدم الكلام على

ذلك

ذلك ثم حكى الله تعالى ان موسى قال لفرعون واني اي وان ظننتني يا فرعون
مسحورا لاظنك يا فرعون مثبورا اي ملعونا مطرودا ممنوعا من الخير
فاسد العقل فعارضه موسى بذلك وشتان بين الظنين فان ظن فرعون
كذب صرف لعناده لرب العالمين لوضوح مكابرته للبصاير التي كشف عنها
بهما العطا في اوضح من الشمس وظن موسى عليه السلام قريب الى
العجمة اليقين من نظاير امارات له لا تخفى الايات ظاهرة وهذه المعجزات
ظاهرة ولا يرتاب العاقل انها من عند الله وفي ان تعالى اظهرها لاجل
تقديمي وانت مكره فلا يحملنك على هذا الانكار الا الحسد والعناد
والغي والجهل وحب الدنيا ومن كان كذلك كان عاقبته الدمار والثبور
فاراد اي فما تسبب عن هذا الذي هو موجب الايمان في العادة الا ان
فرعون اراد ان يستفزهم اي يستخف موسى ومن امن معه ويزعجهم ذليلين فوا
كالماء اذا سال من الارض بالبغي والقتل المتمكن منهم كما اراد هو لا ان
يستفز ذلك منها للتمكن بما هم عليه من الكفر والعناد ثم اخذ تعالى يحذرهم
بسطوته بما فعل بمن كان اكثر منهم واشد بقوله تعالى فاغرقناه اي
فتسبب عن ذلك ان رددنا كيده في نحره كما قال تعالى ولا يحيق المكر
السيء الا باهله اراد فرعون ان يخرج موسى من ارض مصر ليتخلو له
تلك البلاد والله تعالى اهلك فرعون وجعل تلك الارض خالصة
لموسى ولقومه فادخله البحر حين ادخل بني اسرائيل فانجاهم واغرق
فرعون ومن معه جميعا كما جرت به سنة الله تعالى فمن عاند بعد
ان راى الحق ارق وكفر النعمة وافرط في البغي بعد ظهور الحق فليحذر
هؤلاء مثل ذلك ولا سيما اذا اخرج رسولنا من بين اظهرهم نفى عنه
الاية واما الى هنا سبحانه له صلى الله عليه وسلم في ان الله تعالى يسلك
به في النصر والتمكن سبيل اخوانه من الرسل عليهم الصلاة والسلام

وقلنا من بعده اي الاغراق لبني اسرايل الذين كانوا تحت يده اي ذرية من العبيد
لتقواهم واحسانهم اسكنوا الارض اي التي اراد ان يستفزكم منها فاذا
جا اي مجيئا محققا وعد الاخرة اي القيمة بعد ان سكنتم الارض احياء ثم
فيها اموتا جينا اي بعد الناس من العظمة والقدرة بكم نهما لفيفا اي بعثناكم
واياهم مختلطين لا يحكم لاحد على آخر ولا فرق لاحد عن آخر على غير الحالة
التي كانت في الدنيا ثم ميزنا بعضكم عن بعض ثم عطف سبحانه وتعالى على
قوله تعالى ولقد صرفنا قوله تعالى وبالحق اي من المعاني الثابتة التي
لا مرية في ان لا يغيرها انزلناه نحن اي القران فهو ثابت لا يزول لكمال
الباطل هو الذاهب الزايل وهذا القران الكريم مشتمل على اسباب لا تزول
وذلك لانه مشتمل على دلايل التوحيد وصفات الجلال والاكرام وعلى
تعظيم الملايكة وتقرير نبوة الانبيا واثبات الحشر والنشر والقيمة وكل
ذلك مما لا يقبل الزوال ولاشتماله ايضا على شريعة باقية لا تتطرق اليها
النقص والتغيير والتحريف وايضا هذا القران تكفل الله تعالى بحفظه
عن تحريف الزايغين وتبديل الجاهلين كما قال تعالى انا نحن نزلنا الذكر
وانا له لحافظون وبالحق لا بغيره نزل هو وصل الهم على لسانك بعد
انزاله عليك كما انزلنا سواعطا طريا يخوف ظالم يلم اعليه طاريء
فليس فيه من تحريف ولا تبديل كما وقع في كتاب اليهود الذين بسالهم
في مكة ثم قال تعالى وما ارسلناك يا افضل الخلق بالنا من العظمة
الا مبشرا للمطيع وبشيرا للعاصي من العقاب فلا عليك الا التبشير والانذار
لما يقترحونه عليك من المعجزات فان قبلوا الدين اتى انتفعوا به
والا فليس عليك من كفرهم بشيء ثم ان استقالى اخبر ان الحكمة في انزال
القران منجما بقوله تعالى وقرانا اي وفصلنا او وانزلنا قرانا فرقناه
اي انزلناه منجما في اوقات متطاولة قال سعيد بن جبير نزل القران كله

ليلة

ليلة القدر من السما العليا الى السما السفلى ثم فصل في السنين التي تنزل
فيها قال قتادة كان بين اوله واخره عشرون سنة وقيل ثلاث وعشرون
سنة والمعنى قطعناه اية اية وسورة سورة ولم ينزل جملة لتقراه على
الناس عامة على مكث اي تمهل وتوءدة ليتمكنوا من حفظه ونزلناه من عندنا
بحالنا من العظمة تنزيلا بعضه اثر بعض متفرقا حسب الوقايع لانه اتقن
في فصلها واعون على الفهم لطول التامل لما نزل من نجومه في مدة تهابين
النجمين لقران ما فيه من المعاني ثم ان الله تعالى هدد ظلم على لسان نبيه
صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى قل لهولاء المكذبين امنوا به اي القران
او لا تومنوا فالايمان به غير محتاج اليكم ولا موقوف عليكم انكم ان امنتم
به كان الحظ لكم وان لم تقروا الا انفسكم فاختاروا ما تريدون فان ايمانكم
بالقران لا يزيده كمالا وامتناعكم منه لا يورثه نقصانا وقوله تعالى ان
الذين اوتوا العلم من قبله اي ممن قبل ان الله ممن امن به من بني اسرايل
تعليل له اي انكم ترتوا بصوابتم اهل جاهلية وشرك فان خيرا منكم هو
افضل وهم العلما الذين قرءوا الكتب وعلموا ما اوحي وما الشرايع قد امنوا
به وصدقوه وثبت عندهم ان النبي العربي الموعود في كتبهم اذا يتلى عليهم
اي القران يخرون للاذقان منهم زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعبد
الله بن سلام قال الزجاج الذقن مجمع اللحيين وكما يبتدا الانسان بالخرور
الى السجود فاقرب الاشيا من وجهه الى الارض الذقن وقيل الاذقان
كناية عن اللحا والانسان اذا بالغ عند السجود في الخشوع والخضوع
ربما مسح لحيته على التراب فان اللحية ببالغ في تنظيفها فاذا اعزها
الانسان بالتراب في حوض المبالغة فقد اتى بنهاية التعظيم وقيل ان
الانسان اذا استولى عليه خوف الله تعالى فربما سقط على الارض
في معرض السجود كالمغشي عليه فيكون ذقنه خروره على الذقن فقوله

يخرون للاذقان كناية عن غاية خضوعه وخوفه وخشيته فان قيل لم قال
يخرون للاذقان سجدا ولم يقل يسجدون اجيب بان المقصود من ذكر
هذا اللفظ مسارعتهم الى ذلك حتى كانهم يسقطون فان قيل لم قال يخرون
للاذقان ولم يقل على الاذقان اجيب بان العرب تقول اذا خر الرجل
فوقع لوجهه خر الذقن ثم بين ان ذلك ليس سقوطا اضطراريا من كل
جهة بقوله تعالى سجدا اي يفعلون ذلك لما يعلمون من خشيته بما اوتوا من
العلم السالف وما في قلوبهم من الاذعان والخشية للرحمن ويقولون
اي على وجه التجديد المستمر سبحان ربنا تنزيها له عن خلف الوعد ان
اي انه كان اي كونا لا يتفكك وعد ربنا اي المحسن الينا بالايمان وما تبعه من
وجوه العرفان لمفعولا اي دون خلف ولا بد ان يأتي جميع ما وعد به في الكتب
المنزلة وبشر به من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وانزال القرآن عليه ومن
الثواب والعقاب وهو تقرير بتقرير حيث كانوا يستهزؤن بالوعيد في قولهم
او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ونحو مما في معناه الطغى في قدرة الله
تعالى القادر على كل شيء وقوله تعالى ويخرون للاذقان يبكون كرره لاختلاف
الحال والسبب فان الاول للشكر عند انجاز الوعد والثاني لما ازدادهم
من مواعظ القرآن حال كونهم باكين من خشية الله ويزيدهم اي سماع
القرآن خشوعا ولين قلب وطمأنينة عين وما طالت الخصومة في
المناظرة مع المشركين ومنكري النبوات وايجابه عن شبههم اتبعها
ببيان كيف يدعون الله تعالى ويطيعونه وكيف يذكرونه في وقت الاشتغال
بآداب العبودية فقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم قل لهم ادعوا الله
او ادعوا الرحمن واختلف في سبب نزول هذه الآية فقال ابن عباس
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات ليلة وهو ساجد يا الله يا رحمن
فسمعهما ابو جهل وهو لا يعرف الرحمن فقال ان محمدا ينهانا ان نعبد الهين

وهو

وهو يدعو الهما آخر مع الله تعالى يقال له الرحمن فانزل الله تعالى هذه الآية اي ان
شئتم فقولوا يا الله او ان شئتم يا رحمن وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهر بالدعاء يقول يا الله يا رحمن فسمعه
اهل مكة فاقبلوا عليه فانزل الله تعالى قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن
الآية وعن ابن عباس انا نذكر الرحمن كان في القرآن قليلا في اول ما نزل
وكان الذين قد اسلموا من اليهود يسمعون قلة ذكره في التوراة كان
سلام وابن يامين وابن صوريا وغيرهم فسألوا رسول الله صلى الله
عليه وسلم ذلك فنزل قوله تعالى قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن فقالوا ترى
ما يأمرنا محمد كان يدعو الها واحدا وهو الآن يدعو الهين ما نعرف الرحمن الا
صاحب اليمامة فنزل ويعجبهم ذكر الرحمن وهم بذكر الرحمن كافرون ونزل ايضا قوله تعالى
قل لو اوما الرحمن وفرح مؤمنو اهل الكتاب وهو قوله تعالى الذين آتيناهم
الكتاب يفرحون بما انزل اليك ومن الاحزاب اي من كفار مكة من ينكر بعضه
وعن ابن عباس سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى قل
ادعوا الله او ادعوا الرحمن الى اخر الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
هو اما ان من السرقة فان رجلا من المهاجرين تلاها حين اخذ مضجعه
فدخل عليه سارق فجمع ما في البيت وحمله والرجل ليس بنائم حتى
انتهى الى الباب فوجد الباب مردودا فوضع الكارة فصفر ذلك ثلاث
مرات فضحك صاحب الدار فقال اني احصن بيتي فان شئت ان اقوم
الرجل ادع زيدا او عمرا فهم منه كون زيد مقاتلا لهم وفيهم كون
الله تعالى يحيي الرحمن ويقوي بشيمة ابي جهل لعنه الله اجيب
بان الدعاء هنا بمعنى التسمية لا بمعنى النداء والتسمية تتعدى الى
مفعولين تقول دعوته زيدا ثم يترك احدهما استغناء عنه فيقال دعوت
زيدا والله والرحمن واريد بهما الاسم لا المسمى واذ التخيير ثمة في الآية

ادعوا بسم الله او ادعوا بسم الرحمن اي اذكروه بهذا الاسم او واذكروه بذلك الاسم فقوله ادعوا الله يتبنه على ما لزم في كونه لجميع الوجود من افاضة الرحمة والكرم وايضا تحقيق هذين الاسمين بالذكر يدل على انهما اشرف من سائر الاسماء وتقديم اسم الله على اسم الرحمن يدل على ان قولنا الله اعظم الاسماء وتقدم الكلام على ذلك في تفسير بسم الله الرحمن الرحيم والتنوين في قوله تعالى ايا ما تدعو عوض عن المضاف اليه وما صلة للابهام المؤكد والمعنى اياما تدعوا فهو حسن فوضع موضعه قوله تعالى فله الاسماء الحسنى لانه اذا حسنت اسماؤه كلها حسن هذان الاسمان لانهما من اسمائه ومعنى كونها احسن الاسماء انها مستقلة بمعاني التحميد والتقديس والتعظيم وقد قدمنا ذكر الاسماء الحسنى في الاعراف عند قوله تعالى ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها ونبحث الاحاديث الواردة في فضلها واما جمع وقف حمزة والكسائي على اللام بعد الياء ووقف الباقون على الالف بعد الميم واختلف في تعيين وتنزيل قوله تعالى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها فروي عن ابن عباس انه صلى الله عليه وسلم كان يرفع صوته بالقراءة فاذا سمعه المشركون سبوه وسبوا من جاء به فاوحى الله تعالى اليه ولا تجهر بصلاتك فيسمعه المشركون فيسبوا الله عدوا بغير علم ولا تخافت بها فلا تسمع اصحابك وابتغ بين ذلك سبيلا وروي انه صلى الله عليه وسلم طاف ليلة على دور الصحابة فكان ابو بكر يخفي صوته بالقراءة وكان عمر يرفع صوته فلما جاء النهار وجا ابو بكر وعمر فقال صلى الله عليه وسلم لابي بكر مررت بك فاذا انت تخفي صوتك فقال اناجي ربي وقد علم حاجتي وقال لعمر مررت بك فاذا انت ترفع صوتك فقال ازجر الشيطان واوقظ الوسنان فامر النبي صلى الله عليه وسلم ابا بكر ان يرفع صوته قليلا وعمر ان يخفض صوته قليلا وقيل معناه ولا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها وابتغ بين ذلك سبيلا بان تجهر

بصلاة

بصلاة الليل ولا تخافت بصلاة النهار وقيل ان المراد بالصلاة الدعاء وهذا قول عائشة رضي الله تعالى عنها وابي هريرة ومجاهد قالت عائشة نزلت هذه الاية في الدعاء وروي هذا مرفوعا ان النبي صلى الله عليه وسلم قال في هذه الاية انما ذلك في الدعاء والمسيلة قال عبد الله بن شداد كان اعراب من بني تميم اذا سلم النبي صلى الله عليه وسلم قالوا اللهم ارزقنا مالا وولدا نجمرون فانزل الله تعالى هذه الاية والمخافتة خفض الصوت والسكون يقال صوت خفيف اي خفيض ويقال للرجل اذا مات وخفت اي انقطع كلامه وخفت الزرع اذا ذبل والمستحب من ذلك التوسط وهي ان يسمع نفسه كما روي عن ابن مسعود انه قال من لم يخافت لم يسمع اذنيه وقد مدح الله تعالى المؤمنين بقوله تعالى والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما واخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال لعز من قايل ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط وبعضهم قال الاية منسوخة بقوله تعالى ادعوا ربكم تضرعا وخفية قال الواحدي وهو بعيد ولما امر الله تعالى انه لا يذكر ولا ينادى الا باسمائه الحسنى علم كيفية التحميد بقوله تعالى وقل الحمد لله اي الملك الاعظم لما ذكر سبحانه وتعالى من صفات التنزيه والجلال وهي الاسلوب الثلاثة انواع الاول قوله تعالى الذي لم يتخذ اي لكونه محيطا بالصفات الحسنى ولدا والسبب فيه وجوه الاول ان الولد هو الشيء المتولد من جزء من اجزاء ذلك الشيء فكل من له ولد فهو مركب من الاجزاء والمركب محدث والمحدث محتاج والمحتاج لا يقدر على كمال الانعام فلا يستحق كمال الحمد الثاني ان كل من له ولد فانه يمسك جميع النعم كوله فاذا لم يكن له ولد فانه تذكر النعم على عبيده الثالث ان الولد هو الذي يقوم مقام الوالد بعد انقضائه ووفاته فلو كان له ولد لكان منقضيا ومن كان كذلك لم يقدر على كمال الانعام في كل الاوقات فوجب ان لا

ج

يستحق الحمد على الاطلاق النوع الثاني من الصفات السلبية قوله تعالى
ولم يكن له بوجه من الوجوه شريك في الملك والسبب في اعتبار هذه الصفة
انه لو كان له شريك لعرف ح ان هذه النعم والمنافع حصلت منه او من شريكه
فلا يعرف كونه مستحقا للحمد والشكر النوع الثالث قوله تعالى ولم يكن له
ولي من الذل اي ولم يوالِه من اجله منذلة به بد فع بها عوالاته والسبب
في اعتباره انه لو جاز عليه ولي يلي امره كان مستوجبا لاعظم انواع الحمد
ومستحقا لاعظام الشكر فنفي عنه ان يكون له ما يشاركه من جنسه
ومن غير جنسه اختيارا او اضطرارا ادما يعاونه ويقويه ويرتب الحمد
عليه للدلالة على انه الذي يستحق جنسية الحمد لانه كامل الذات المتفرد
بالايجاد المنعم على الاطلاق وما عداه ناقص مملوك نعمة او منعم عليه
ولذلك عطف عليه بقوله تعالى وكبره تكبيرا اي وعظمه تعظيما على نحو
ايجاد الولد والشريك والذل وكل ما لا يليق به وترتيب الحمد على ذلك
للدلالة على انه المستحق لجميع المحامد لكمال ذاته وتفرده في صفاته
روى الامام احمد في مسنده عن معاذ الجهني عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم انه كان يقول اية العز الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك
في الملك الى اخر السورة وعن ابن عباس انه قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم اول من يدعى الى الجنة يوم القيمة الذين يحمدون الله في
السراء والضراء وعن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
افضل الحمد لله افضل الشكر ما شكر الله عبد لا يحمده وعن جابر بن عبد الله قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم ان افضل الدعاء الحمد لله وافضل الذكر لا اله
الا الله وعن سمرة بن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
احب الكلام الى الله تعالى اربع لا اله الا الله والله اكبر وسبحان الله والحمد لله
لا يضرك بايهن بدات اخرجه مسلم روى ان قول العبد الله اكبر خير من

الدنيا